عبد الستار الشيخ

الفتن الكبرى

في عصر الخلفاء الراشدين

عرض وتحليل ونقد وتأصيل



دار القلم
دمشق

الفتن الكبرى

في عصر الخلفاء الراشدين

عرض وتحليل ونقد وتأصيل

دار القلم
دمشق

أسّسها: محمّد علي دولة رحمه الله تعالى
سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

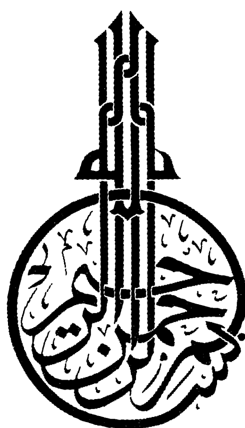
الفتن الكبرى

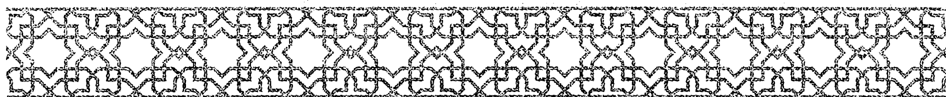
في عصر الخلفاء الراشدين

عرض وتحليل ونقد وتأصيل

بقلم
عبد الستار الشيخ

دار القلم
دمشق





مقدمات ممهدات

إنَّ الحمد لله نحمدُهُ، ونستعينُه ونستغفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسِنا ومن سـيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ.

أما بعد:

فإن من رحمة الله تعالى أن بعث رسلَه وأنبياءه مبشِّرين ودعاة وهداة إلى الحق والخير والصلاح والفلاح وجَوَادّ الرشاد، ومُنذرين ومحذِّرين من سُبل الغواية والباطل والفساد وطُرق الضلال.

ومن حكمته سبحانه أنه ابتلَى الإنسـانَ بألوان من البلاء؛ لِيَمِيز الخبيثَ من الطيِّب، فَيَهْلِك مَنْ هَلَك عن بيِّنة ويحيى من حَيَّ عن بيِّنة.

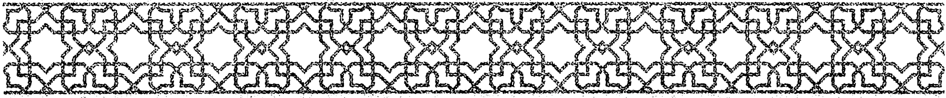
ومن رحمة نبيِّنـا ﷺ بأمته وحرصِه عليها أنه حدَّثها بما سـتُبتلى به من بعده بأصنافٍ من الفتن والأهواء والبدع ودعـاة الضلال على أبواب جهنم! وبَصَّرهم بأسـبابها وأدواتها وعناصرها، وحذَّرهم من ملابسـتها والقيام أو السعي فيها، وأنذرهم من عَقَابِيلها ونتائجها ومخاطرها.

ومن أبرز ما حدَّثهم به وتحقَّق بعد وفاته ﷺ: ما سيقع من فتنٍ في زمن الخلفاء الذين سَيَلُون أمرَ الأمة من بعده.

وفي هذا الكتاب نتناول البحثَ في الفتن الكبرى التي وقعت منذ مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وحتى نهاية خلافــة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تلك الفتن التي اصْطَلَت الأمة بنيرانها، وتجرَّعت مصائب كبيرة، وأُصِيبت بجروح غائرة!

وأقدِّم بين يدي ذلك بمقدِّمات كاشِفة، وكلمات مبصِّرة هادِية.





المقدمة الأولى
معنى الفتنة وأنواعها وكيفية النجاة منها وأهمية دراستها

معنى الفتنة[1]:

هي الاختبار، ثم أُطلقت على كل مكروه أو آيلٍ إليه؛ كالكفر، والإثم، والتحريق، والفضيحة، والفجور، وتُطلَق على الغلوّ في التأويل البعيد، وعلى البليَّة، والعذاب، والقتال، والتحوُّل من الحسن إلى القبيح، والمَيل إلى الشيء والإعجاب به، وتكون في الخير والشر؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال الراغب الأصفهاني: والفتنةُ من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد؛ كالبَليَّة والمصيبة والقتل والعذاب، وغيرِ ذلك من الأفعال الكَريهة، ومتى كان من الله يكون على وَجْه الحكمةِ، ومتى كان من الإنسان بغيرِ أمرِ الله يكون بضدِّ ذلك؛ ولهذا يَذُمُّ الله الإنسانَ بأنواع الفتنة في كل مكان، نحو قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [البروج: ١٠].

---

(١) لسان العرب: «فتن»، مفردات ألفاظ القرآن: «فتن»، الفتح ٤٠٢/٢ شرح الحديث (٥٢٥)، ٢٨٧/١٦، صدر كتاب الفتن، تكملة فتح الملهم ١٣١/٦.

كثرة الفتن وأنواعها وأقسامها:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أَشْرَف النبيُّ ﷺ على أُطُمٍ من آطَامِ المدينة، فقال: «**هل ترونَ ما أَرى؟ إني لأَرَى مَواقِعَ الفِتن خلال بُيوتِكم كَمواقعِ القَطْر**»(١).

وقد شَملت الفتنُ العامةَ والخاصةَ، والأفرادَ والجماعات، والأمة والمجتمعات، والحاكم والمحكوم، والعقائدَ والفرائض، والأخلاق والآداب والسلوك، والقلوب والعقول والأفكار، والإعلام والتعليم والمؤسسات ومنابرَ الحكم...

وابتدأت في عصر الخلفاء الراشدين بالطَّعْن على الخلفاء والأمراء، ونَشْر الأكاذيب والتُّهَمَات، واختلاقِ البدع، واتهام الصحابة بخيانة النبي ﷺ والأمةِ، وكتمان الوصية بالخلافة لآل البيت، والتحريش بين المسلمين وتأْريث الخلاف، وإثارة القتال وسَلّ السيوف، وابتداع طريقة القتل بالاغتيال وهو ما لا يعرفه العرب ولا يفعلونه، وتوجَّهت (الرصاصة الأولى) إلى الخليفة العظيم عمر، رمز العدالة الإنسانية، وبمقتله كُسِر حاجزُ الفتن، فأخذت تنتشر في الأمة وتموج كموج البحر!

ومع مرور الزمن وتوسُّعِ الدولة الإسلامية وتعدُّد شعوبها وتنوُّع أعراقها، اطَّرَدت الفتن وأخَذَتْ بالازدياد كَمّاً وكيفاً وتنوّعاً، واجتاحت كافة شؤون المسلمين، وكلُّ فتنة تأتي تكون أعنفَ من أختها التي سبقَتْها وأعظمَ خَطْباً وأعمقَ أثراً، وقد وصفها رسول الله ﷺ بقوله:

«**إنَّه لم يكن نبيٌّ قَبْلي إلّا كان حقّاً عليه أن يَدُلَّ أُمَّتَه على خيرِ ما يَعْلَمُه لهم، ويُنْذِرَهُم شرَّ ما يَعلَمُه لهم، وإنَّ أُمَّتَكم هذه جُعِل عافيتُها في أوَّلِها،**

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٨) وأطرافه، واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٥)، والحميدي (٥٤٢)، وأحمد (٢١٧٤٨)، وغيرهم. الآطام: جمع أُطُم، وهي الحصون.

وسَـيُصِيبُ آخرَها بلاءٌ وأمورٌ تُنكِرونها، وتجيءُ فتنــةٌ فَيُرَقِّقُ بعضُها بعضاً، وتجيءُ الفتنةُ فيقول المؤمن: هذه مُهْلِكتي، ثم تَنكشِفُ وتجيءُ الفتنةُ فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النار ويُدْخَلَ الجنةَ؛ فَلْتَأْتِه مَنِيَّتُه وهو مؤمنٌ بالله واليومِ الآخر، ولْيَأْتِ إلى الناس الذي يُحبُّ أن يُؤْتَى إليه»(١).

وقد رصَدنــا كثيراً من هذ الفتن وشــرحنا أصولهــا وفروعها وملامحها وبواعثها ونتائجها والدروس والعِبَر منها(٢).

العُدَّة في الفتن، وكيف يَعرفُ المرء أصابَتْه أم لا؟:

•• عن معاوية بن أبي سفيان قال: ســمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**لم يَبْقَ من الدنيا إلَّا بلاءٌ وفتنةٌ**»(٣).

وأخرجه الداني وزاد فيه: «فأَعِدُّوا للبلاءِ صَبْراً»(٤).

وعن المِقْدادِ بن الأَسْــود قال: أَيْمُ اللهِ، لقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ الســعيدَ لَمَن جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ الســعيدَ لَمَن جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السعيدَ لَمَن جُنِّبَ الفِتنَ، ولَمَن ابتُلِيَ فَصَبرَ فَوَاهاً!**»(٥).

قوله: «واهاً»: كلمةٌ معناها التلهُّف، وقد تُوضَع موضع الإعجاب بالشيء. وقد ترِدُ بمعنى التوجُّع. ومن العرب من يَتعجَّب بـ«واهاً» فيقول: واهاً لهذا، أي ما أَحْسَنَه!

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٥٦)، وأحمد (٦٥٠٣)، وغيرهم.

(٢) انظر كتابنا: نبوءات الرسول ﷺ ٧/٢ ـ ٢٢١.

(٣) أخرجه ابن ماجــه (٤٠٣٥)، وأحمــد (١٦٨٥٣)، وابــن حبــان (٦٩٠)، وغيرهم، وصححه الألباني، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(٤) الفتن للداني (٣) و(٦٧) و(٧١).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٢٦٣)، والبزار (٢١١٢)، وغيرهما، وصححه الألباني وشعيب.

ومعناه: أنَّ النبي ﷺ يتوجَّع لمن تُصيبه الفتن أو تُصبّ عليه، ويتلهَّف ﷺ عليه لمصابه وابتلائه، وهذا من رحمته بالمسلمين وإشفاقِه عليهم. ثم يطلب ممن يُبتلى أن يصبر ويتجلَّد ويقارع الفتن ولا يستسلم لها؛ فإنَّ الله تعالى سيُعينه ويثبِّته، فيظفر بالحسنى، وعندئذٍ يستحق الإعجاب والاستحسان لمسلكه.

•• وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (إنَّ الفتنةَ تُعْرَضُ على القُلوب، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نكتةٌ سوداءُ، فإنْ أَنْكَرها نُكِتَتْ فيه نكتةٌ بيضاءُ، فمن أحبَّ منكم أن يَعلم أصابَتْه الفتنةُ أم لا؛ فَلْينظرْ: فإنْ كان يَرى حراماً ما كان يَراه حلالاً، أو يَرى حلالاً ما كان يَراه حراماً، فقد أصابَتْه الفتنة)[1].

فمن لم تُصِبْه الفتنة يبقى قلبه حياً، وعقله واعياً، يفرِّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولئن اجتالَتْه الفتنة وتركَتْ على سلوكه نُدَباً وفي مسيرته زَغَلاً، وفي عمله آثاماً؛ فإن بَشَاشةَ الإيمان في قلبه تبقى حية متوقِّدة، ولديه من اليقين ما يميز الطيبَ من الخبيث، ويفرق بين الحلال والحرام، فلا تختلط عليه الأمور، ولا تضطرب الموازين، ويبقى على نور من ربه.

أما ذاك الذي أصابَتْه الفتنة في مقاتله، فغشَّتْ بصَرَه، وغلّفَتْ قلْبَه، وعَصَفَت بفكره، وأقْلَقت موازينَه؛ فقد اختَلَط عنده الحق بالباطل، والهدى بالضلال، وأُشْرِب قلبُهُ من هواه، فلا يَعرف معروفاً، ولا يُنكِر منكراً، ولا يميز حراماً من حلال، بل فقَدَ نورَ ربِّه وبصيرةَ نفسه، فأصبح يرى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والحرام حلالاً، والحلال حراماً، وأمسى قلبه أسودَ مُرْبَادّاً، وعملُه فاسداً، وعاقبة أمره خُسْراً.

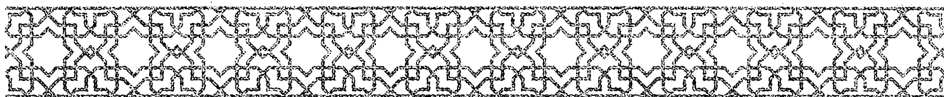
---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٦٢٨/٨ (٢٣٥)، الفتن، من كره الخروج في الفتنة، وأبو نعيم في الحلية ٢٧٢/١ ـ ٢٧٣، والداني (٢٦)، والحاكم ٤٦٧/٤ وصححه ووافقه الذهبي. وهو موقوف. وقد جاء عن حذيفة مرفوعاً، وسيأتي ص١٤.

•• ومن شفقة النبي ﷺ على أمته ورحمته بها وحبِّه الخير لها؛ تحدَّث عن تلك الفتن وأطال الحديث: فكَشَف أمرها، وبيَّن خطرها، ووصف أحوالها، وأبان أحياناً صفات رجالها والسُّعاة فيها، وحذَّر من ملابستها فضلاً عن المشي فيها والسعي إليها، وأَمر بكفكفة جِماحها، وامتدح المصلحين عند وقوعها والناجين منها، ووضع المسلمين على جليَّة من أمرهم، والمعصومُ مَنْ عصمَه الله، ولا بدَّ للفتن أن تقع ابتلاءً واختباراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فالسعيد مَن يجتنب الفتن، ولا يخوض فيها، ولا يؤجِّج نارها، وإذا استطار عليه من شررها أو لَفَحَتْه بسَمُومها، صَمَد لها وأطفأَ جَذْوَتها، وأَفرغَ عليها من إيمانه وصبره ويقينه ما يُخمِد أنفاسَها، فيخرج منها كالذهب الإبريز إذا عُرض على النار خرج أكثر صفاءً وأنصَعَ أَلَقاً؛ لأنه تخلَّص من شوائبه وأدرانه!





المقدمة الثانية
سيرورة الزمن وسيرورة الفتن

عن عروة بن الزبير، عن كُرْزِ بن عَلْقَمَةَ الخُزاعيّ ﵁ قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، هل للإسلام من مُنْتَهى؟ قال: «**نعم، أيُّما أهلِ بيتٍ من العَرب أو العَجَم أرادَ اللهُ بهم خيرًا؛ أَدْخَل عليهمُ الإسلامَ**»، قال: ثم مَهْ؟ قال: «**ثم تَقَعُ الفِتنُ كأنَّها الظُّلَلُ**»، قال: كلَّا واللهِ إنْ شاء الله، قال: «**بَلَى والذي نَفْسِي بيدِه، ثم تَعُودُون أَسَاوِدَ صُبّاً، يَضْرِبُ بعضُكم رِقابَ بَعْضٍ**»![1].

ومن حديث عبد الله بن عَمْرو؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**وإنَّ أمَّتَكُم هذه جُعل عافيتُها في أوَّلها، وسيُصِيبُ آخرَها بلاءٌ وأمورٌ تُنكِرونها، وتجيءُ فتنةٌ فَيُرَقِّقُ بعضُها بعضاً...**»[2].

وعن حذيفة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الفِتنُ على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩١٧ ـ ١٥٩١٩) واللفظ له، والطيالسي (١٢٩٠)، والحميدي (٥٧٤)، وابن حبان (٥٩٥٦)، والحاكم ٣٤/١، ٤٥٥/٤، وغيرهم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.
قوله «أَسَاوِد صُباً»: الأَساود: جمع الأَسْوَد، والأسود أخبثُ الحيات وأعظمها. والصُّبُّ: جمع صَبُوب، والأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع ثم انصبَّ على الملدوغ.

(٢) تقدم الحديث ص٩.

أنكرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى تَصِير على قَلْبَيْن: على أبيضَ مثلِ الصَّفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُرْبَادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً؛ لا يَعرف معروفاً ولا يُنكِر مُنكَراً، إلَّا ما أُشْرِبَ من هَوَاهُ»(١).

•• لقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب، ثم في البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وبَلَغ مُنتهاه كما قال النبي ﷺ، ودخل الدور والقصور، والأكواخ والبيوت.

ثم قُتل عمر بن الخطاب، وباستشهاده كُسر باب الفتن وأصبحت تتدافع على الناس، كلما طَفِئَتْ واحدة انقضَّت عليهم أخرى؛ وشبَّهها النبي ﷺ بالأَسَاوِد وهي أخبثُ الحيات، التي ترتفع وتَنصِبُ صَدْرَها ثم تنصبُّ على الملدوغ! وإنما وصَفَها ﷺ بذلك لِما تُحدِثُه الفتنة في المجتمعات من تخريب البلدان، وتدمير العمران، وسفك الدماء، واضطراب أمور الناس، وتعثُّر مسيرة البناء والحضارة وانتشار الإسلام، والعبث بالأمن والأمان.

وتهبُّ تلك الفتن على القلوب، وتلفحها بِسَمُومها، وتعاود الكَرَّة المرة بعد الأخرى، لتخترقها وتستولي عليها، فمن تلك القلوب: قلوب آتاها الله تعالى البصيرة، وزوَّدها بالصبر، وأعانها بالتوفيق، فتبدِّد هجمات تلك الفتن وتردّها خائبةً حسيرة، فلا يَعلق بها من أدرانها شيء؛ فتصبح كما قال ﷺ: «**مثلَ الصفا**» وهو الحجر الأملس، بصلابته وطهارته ونفيه لكل دَغَل، حيث لا يعلق عليه غبار ولا غيره لملاسته.

وصِنْفٌ آخَر من القلوب المضطربة الرخوة المثقَّبة التي عَبث بها الشيطان، وتلاعبت بها الأهواء، ونخرت فيها أمراض الضعف والهوان

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤) (٢٣١) واللفظ له، وأحمد (٢٣٢٨٠)، والبغوي (٤٢١٨)، وغيرهم. وانظر شرح هذه الأحاديث في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ ١٩١/٢ ـ ٢٠٩.

والاستخذاء والولاء لجند الشيطان؛ فتستسلم لتلك الفتن، فتخترقها وتملأ الفراغات التي فيها، وتغلِّف ما تبقى فيها من إيمان أو يقين أو بصيرة، وتملؤها بالأهواء والشهوات ورذائل الأخلاق ومساوئ الأعمال! فيسوَدُّ باطِنُ ذلك القلب وظاهره، وينقلب وَضْعُه فيصبح عاليه سافلَه، لا يستهدي بنور حق، ولا يستضيء بقوارع تذكير، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

ومن تلك الفتن العظيمة المروعة:

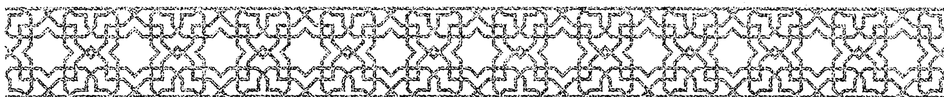
مقتلُ أمير المؤمنين عمر، وسفكُ دم الشهيد عثمان بن عفان، وادّعاءُ الوصية لعليٍّ بالخلافة، ومعركةُ الجمل، ووقعةُ صفِّين، وفتنةُ الخوارج، ومقتلُ الحسين بن علي، ووقعةُ الحَرَّة بالمدينة، ومعركةُ مَرْج راهِط، وفتنةُ المختار بن أبي عُبيد الثقفي المتنبّئ الكذّاب، ومنازلة الحَجَّاج عبدَ الله بن الزبير وقتله، وضَرْبُ الكعبة بالمِنجنيق، وحروب ابن الأشعث، وقيام العباسيين بمذابح لبني أمية وظهور دولتهم على أشلاء كثيرة، وخروج عدد من آل البيت على سلطان الخلافة في أوقات متباعدة، وفتنة الأخوين الأمين والمأمون، وفتنة خَلْق القرآن، ووقائع الزَّنْج المروِّعة، وفتن القرامطة الملاحدة، وخروج عُبيد الله المُلقَّب بالمهدي في المغرب الذي كان بداية تأسيس الدولة العُبيدية الباطنية، وفتن التتار الجائحة...

وتراخى الزمن وامتد إلى عصرنا، وظهرتْ فتنٌ كثيرة متنوِّعة في مختلف شؤون الدين والدولة والأمة، وكانت كما جاء في الحديث: «**فتن كقطع الليل المظلم**» ومن ذلك:

وضْعُ السيف في الأمة والاقتتال فيما بينها، وفتنُ الحكم والصراع على السلطة، وتسلُّط الأمة بعضها على بعض، وكثرة الهَرْج والقتل، وكثرة الأهواء والبدع والمِلل والنِّحل، ونقضُ عُرى الإسلام، والحكم الجبري الاستبدادي،

وتضييع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وإمرةُ السفهاء، وائتمان الخائن، وتخوين الأمين، وارتفـاع اللكعات والتُّحوت الوضعاء، وانخفاضُ السَّـادة والأشراف الكرماء، واتباع مناهج غير كتاب الله، وانتشار الفحش والتفحش، وظهور الكاسـيات العاريات، وكثـرة الجلَّادين جَلَاوِزة السـلطان، وظهورُ الدَّجَاجِلـة ومدَّعيي النبوَّة، والدعـاة على أبواب جهنـم، وتعطيل الحدود، ومحاربة الفضائل ونشـر الرذائل، ومطـاردة أهل الإيمـان، ومناصرة أولياء الشـيطان، وإطلاق الأيدي الظاهـرة والخفية لليهوديـة والصليبية والوثنية، والغرو الثقافي، والسُّـعَار المحموم للإعلام الهابط وما فيه من جَلْد للغرائز وتأجيج للشهوات ونشر للمفاسد وتشـجيع على الموبقات... . وغير ذلك كثير مما تعيشه الأمة الآن في مختلف بلدانها وأقطارها وحواضرها وبواديها!!





المقدمة الثالثة
موضوع الكتاب ومادته ومنهجه وغايته

•• **هذا الكتاب يتنـاول بالبحث والعَرْض والتحليـل والنقد بواكيرَ الفتن التي وقعت في صدر الإسلام،** وظهرتْ أوائلُ أحداثها بُعَيْد وفاة رسول الله ﷺ بنحو (اثنتي عشرة سنة)، متمثِّلة بمقتل شهيد المحراب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعده أَخذت الفتنُ تتدفَّق متلاطمةً على المسلمين ودينهم ودولتهم.

وقد اسـتعرضتُ فيه خمـسَ الفتــنِ الكبار التي وقعــت في عصر الخلافة الراشــدة، وهي: مقتل أمير المؤمنين عمر، والخروج على أمير المؤمنين عثمان وقتله، وموقعة الجمل، وموقعة صِفِّين، وبدعة الخوارج وقتالهم وقتلهم.

•• **ومادة الكتاب من مصادر ومراجع كثيرة متنوعة،** مما سـطَّره الأئمة والعلماء والمؤرخـون والباحثـون والمؤلفون والكتّاب، قديمـاً وحديثاً، ويشمل ذلك:

ـ كتب السُــنَّة النبويَّة المشـهورة الكثيرة، وفي مقدمتها الكتب الستة ومسند أحمد.

ـ شروح كتب السُنَّة.

ـ كتب الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

ـ كتب التاريخ العام والخاص، وتواريخ البلدان.

ـ كتب الفتن وأشراط الساعة.

ـ كتب السِّيَر والتراجم والطبقات.

ـ كتب الرجال والجرح والتعديل.

ـ كتب الأدب.

ـ كتب العقائد والفِرَق والمِلَل والنِّحَل.

ـ كتب ومؤلفات وبحوث المعاصرين، التي تناولت التاريخ الإسلامي وتراجمَ الخلفاء الراشدين الأربعة ودراسةَ عصرهم.

ـ كُتب كثيرة من التراث الشيعي، وفي مقدمتها نهج البلاغة وشرحه، والكتب الأصول كالكافي، وما كُتِب عن أمير المؤمنين علي.

ـ ما كتبتُه أنا من موسوعات عن الخلفاء الراشدين الأربعة، ونبوءات الرسول ﷺ.

•• ومنهجنا في هذا الكتاب، وفيما نكتبه بصورة عامة:

١ ـ اتباعُ منهج المحدثين في نقد الروايات سنداً ومتناً، وبَهْرَجةُ الأخبار الواهية والباطلة والموضوعة، وقبولُ الصحيح والحسن وما هو قريب منه، والتسامح في الضعيف الذي يتفق مع النسق العام لهدي الرجال الكبار وحقائق الإسلام ومبادئه وأدبياته، وهو منهج أقرَّه كبار المحدثين في التساهل بقبول الروايات الضعيفة التي لا تتعلق بحلال أو حرام أو عقائد ونحوها من أسس الدين، وقد قبِلنا ـ تأسيساً على هذا ـ بعضَ روايات نصر بن مزاحم ولوط بن يحيى وبابَتِهما.

٢ ـ جمع الروايات التاريخية من مصادر متعددة ومقارنتها ببعضها والجمع بينها، ثم عرضها على ما جاء في الأحاديث إنْ أمكن ذلك، وعرضُها أيضاً على سجايا الصحابة وسيرتهم وهَدْيهم وأخلاقهم وأفعالهم ومواقفهم وتاريخهم، ومنه يُعرف مدى ملاءمة وقبول ذلك (الموروث التاريخي)، لِما عُرف عنهم من هدي قويم وسيرة طاهرة تربَّوا عليها، وهم أهل القرآن وصنعة النبوة وحملة الرسالة.

هذا مع التنبيه على أن تبجيلَ الصحابة وحبَّهم والاعتذارَ لهم عما بدر منهم أو جرى بينهم، لا يعني عصمتَهم أو عدمَ وقوع الخطأ منهم، وإنما نقول: إن ما صدر من بعضهم من هَنَات أو زلَّات، لا تنال من أقدارهم، وهي مغتفَرة في بحور حسناتهم.

٣ ـ الأخذُ بعين الاعتبار التغيُّرات التي طرأت على المجتمع الإسلامي، حيث تدفقت الشعوب للدخول في الإسلام في سنوات قليلة، ولم يُرافق ذلك تربيةٌ إسلامية مكافئة من طراز ما تربّت عليه أجيال المسلمين الأُوَل.

فلقد تمازجت الشعوب العربية مع غيرها من الفرس والروم والبربر والتُّرك وغيرهم، فتكوَّن مجتمع ضخم من أمشاج من العناصر والأجناس والأعراق، والمذاهب والأفكار، والطبائع والأخلاق، والمشارب والمعتقدات، والطموح والزهادة، والرضا والسخط، والهدوء والثورة، وامتزجت أخلاق بأخلاق، وعادات بعادات، وأفكار بأفكار، ودماء بدماء، واتسع الرخاء المادي وفتحت الدنيا أبوابها على مصاريعها.

٤ ـ ينبغي تجنُّب مزلقٍ خطرٍ في التدوين التاريخي حيث يتصدى فريق من الكتَّاب والباحثين والمؤرِّخين لكتابة سِيَر الرجال وأحداث الفتن؛ انطلاقاً من نظرية سابقة لديهم أو رأي معتمد أو قناعة ثابتة أو توجُّه فِئوي أو جَمْعي أو عَقَدي، فيتحمَّس لهذا ويقسو على ذاك، ويناقش روايات التاريخ من

خلالها، ويندفع في التفسير والتأويل ليؤصِّل ويؤكد الفكرة والقناعة القائمة لديه، وقد وقع في هذا كثيرون قديماً وحديثاً.

إننا نقول: نعم للحماسة للفكرة بعد البحث الصبور والدراسة المتأنية والاستدلال الوجيه والنقد الموضوعي، الذي يوصل إلى نتائج أقرب إلى السلامة والصواب؛ فهذا محمود. ولا ثُمَّ لا للحماس المندفع الذي يتبنَّى فكرةً ثم يخوض في بحر الروايات يتلمَّس لها الأدلة والمبرِّرات، وما ينصُرها من أقوال وتوجيهات.

٥ ـ وينبثق مما سبق الحذرُ الشديد من الصور النَّمطيَّة والروايات الفاقعة التي طَفَتْ على السطح وسادت الساحةَ التاريخية في كتابات المؤرخين وكتّاب التراجم ودارسي أحداث الفتن؛ والتي شكَّلَتْ مع مرور الزمن عقلاً جَمْعياً وقناعات متوارثة مكررة أضحت ضربةَ لازبٍ على الأجيال المتلاحقة، وجرفت في سيلها العقولَ والقلوب والعواطف والأفكار والأقلام، وطَغت على منابر التعليم والإعلام عبر (الكتاب والصحيفة والمحاضرة والندوة وخطبة الجمعة ودروس العامة ومجالس السَّمَر)، حتى لم تترك ساحة للنقاش وإظهار خيوط الحقيقة الغائبة المغيَّبة، والتي أدَّت إلى (شيطنة أو تجميل) هذا الفريق أو ذاك، وهذا الرجل أو ذاك!

ومن أقرب الأمثلة وما أُشيع عن (عثمان بن عفان) وخلافته وأمرائه وسياسته حتى غُرس في قلوب وعقول السواد الأعظم صورة مشوّهة ممسوخة عنه. وهكذا الشأن في الخلاف بين أمير المؤمنين علي وبين طلحة والزبير وعائشة، وكذا بين علي في أهل العراق وبين معاوية في أهل الشام.

٦ ـ دراسة تاريخ عصر الراشدين وأحداث الفتن التي وقعت فيه، ومواقف رجاله بمختلِفِ طبقاتهم ومسؤولياتهم، وفَهْمُ جميع ذلك وتفسيرُه، واستنباطُ

النتائج والدروس والعِبَر ـ حلوِها ومرِّها ـ ينبغي أن يكون ضمن مفاهيم وقيم وأخلاقيات وأدبيات ذاك العصر وتلك الحقبة وأولئك الرجال، ويُضَمّ إليها الدوافع والأسباب والمؤثرات الداخلية والخارجية، مع اعتبار المؤرخ نفسَه وكأنه موجود في عَيْن الحدث وقَلْب المشكِلات التي تعتوره؛ فيكون بحثُه وعملُه ونتائجه وتقريراتُه أقربَ إلى الحق والصواب.

•• وأما الغاية من وضع هذا الكتاب وإفراد تلك الفتن الكبار بمصنَّف مستقل، فهي:

١ ـ دراسةُ أخبار تلك الفتن وأحداثها ووقائعها وأسبابها وعناصرها وأدواتها، وغاياتها ونتائجها؛ دراسة علمية استقرائية تحليلية نقدية، تضع الأمور في نِصابها، وتُميط اللِّثام عن الأخبار الواهية والروايات المُخْتَلَقة والحكايات التالفة، وتُبرز الحقائق المتوارية أو المغيَّبة أو المطموسة عمداً أو عن جهل أو تقصير أو قصور من المؤرخين والكتّاب والباحثين.

٢ ـ كشف زيوف وتوضيح حقائق وتصويب مفاهيم:

فلقد حَدَث عدوان كبير على التاريخ، وتزويرٌ وتدليسٌ وكذبٌ وأهواءٌ وبدعٌ حرَّفَتْ كثيراً من الحقائق والمفاهيم والأفكار والأحداث وسِيَر الرجال، وأَسْهَم في ذلك رواةٌ وأخباريون ومؤرخون وكتَّاب وباحثون قديماً وحديثاً، حتى غامَ وجهُ الحقائق وعَكِرتْ مواردُها واضطرب واردوها! فجعلوا الحق باطلاً والباطل حقاً، وأخَّروا ما حقُّه التقديم وقدَّموا ما حقُّه التأخير، ورفَعوا ما يجب خفضُه ورفْضُه، وغيَّبوا ما يتوجَّب إظهارُه وإشهاره ورفعه.

وقُدِّمتْ للأمة كتبٌ ومؤلفات، وقصص وروايات، وأفلام ومسلسلات، وصحف ومجلات، أَظهرت الصحابةَ بأنهم رجال دنيا يتقاتلون على المناصب ومنابر الحكم، ويغدرون ويخونون ويكذبون، وأبرزوا عثمانَ بن

عفان بأنه خليفة ضعيف مُستضْعَف، وولاته فَسَقة وأصحابُ لهوٍ وتخبُّط في أموال الأمة، وعليَّ بن أبي طالب مُعتَدى عليه قد تآمر الصحابة عليه وأخَّروه عن حقِّه في الخلافة.

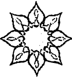
أما الخارجون على عثمان فصَوَّروهم بأنهم ثوارٌ على الظلم والفساد والاستعباد، ويريدون الحق ويسعون إليه، وهم أهل زهادة وتقشُّف!

٣ ـ فَضْحُ مخططاتِ أعداء الإسلام والمتآمرين على الخلفاء والخلافة والدولة الإسلامية:

وقد ظهر ذلك بالكيد والحقد الفارسي الصليبي في جريمة مقتل أمير المؤمنين الفاروق عمر، وانضمَّ إليه بعدُ الخبثُ اليهودي، فتكوَّن من هذا الثالوث جبهة متكاملة تعمل سرًّا وجهراً في عهد عثمان، وتطوَّرت واتسعت وازدادت في قوتها ووجودها عددياً وجغرافياً، حتى أوصلت الأحداث إلى آخر مداها في عهد علي، وما نَجم عنها من بدع وتأجيج للفتن وتسعيرها، وإحباط كل محاولات الإصلاح في أواخر عهد عثمان، ثم في مدة خلافة علي كلها، والتي انضم إليها في آخر الأمر بدعة الخوارج.

٤ ـ تنمية حاسة النقد الواعي المنصِف والعقل المستبصِر:

لقد قَصدتُ في هذا الكتاب، وما سبقه من كتبي إيقاظَ العقل الراقد والفكر المستسلم للروايات والأخبار والكتابات، وما يُقرأ ويُنشر ويُشاهد ويُسمع ويتناقله الناس قديماً وحديثاً، وتنمية مَلَكة النقد وإعمال العقل المتبصِّر، وعدم الاستسلام لكل شيء؛ فلا قيمةَ للقراءة إذا كانت للاستكثار، ولا وزنَ لها إن لم تولِّد حساً مرهَفاً، وعقلاً متحرراً، وفكراً نقّاداً، والاعتبار بدروس التاريخ وأخطاء السابقين واللاحقين.



٥ ـ تقديـمُ زادٍ كافٍ متكامل عـن تلك الفتن الدامية فـي عهد الخلفاء الراشدين، منقًّى من الأساطير، مصفًّى من الأباطيل، محلًّى بالتحليل والنقد والتصويب، مؤصِّل للحقائق موضِّح للمفاهيم الكبرى في سـيرورة أحداث الفتن، يَقبض على دعاتها ومسـاعِرها، ويُبرِّئ البـرآءَ من الصحابة والتابعين ودعاة الإصلاح والمصلحين؛ ممن جَنَتْ عليهم الروايات الباطلة والكتابات الجائرة، والكتَّاب الذين حادوا عن جادة الإنصاف قليلاً أو كثيراً.

٦ ـ إبـراز الفوائد والقواعـد، والـدروس والعِبر من تلـك الفتن التي اضطربت فيها العقول وتاهَـت الأفكار وزلَّت الأقلام؛ ليكـون ذلك تذكرةً وتبصرةً للقرّاء والساسة والوجهاء وأصحاب القرار ونحوهم، في التعامل مع أحداث التاريخ التي يعيشونها أو يَستشـرفونها، ولتكون مبصِّرات وهاديات عند اشتباك الفتن التالية، واشتباه الحقائق، وتشاجر الآراء...

والسـعيدُ مَن تبصَّر بأحداث التاريخ واعتبر بسُـنَن الماضين، وأفاد من تجارب السـابقين، ليكون على بصيرةٍ من أمره، فينجوَ ويُنجي مَن معه ممن يَلوذُ برأيه ويأتسي بفعله.

اللهمَّ إني أضرعُ إليك وأسألك بأسـمائك الحُسنى وصفاتك العُلى، أن تتقبَّل مني هذا العمل بقَبول حَسَـن، وتبارِكَ فيه، وتجعلَـه في العلم النافع الذي يجري أجرُه عليَّ إلى يوم ألقى وجْهَك الكريم، وتنفعَ به المسـلمين في الدنيا والآخرة، وتجازي ناشـرَه ومبلِّغَه إلى كل راغب وطالب أحسـنَ الجزاء وأوفاه...

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد الستار الشيخ

الباب الأول

الفتنة الأولى
مقتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

- أمير المؤمنين عمر هو غَلَقُ الفتنة.
- إخبار النبي ﷺ الفاروق عمر بأنه سيموت شهيداً.
- استشهاد عمر، والحقد الفارسي الصليبي.
- وقفات مع الاستشهاد والاغتيال.

الفصل الأول

أمير المؤمنين عمر هو غَلَقُ الفتنة

عن شَقِيق بن سَلَمة: (عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: كنَّا عند عمرَ، فقال: أيُّكم يحفظُ حديثَ رسول الله ﷺ في الفتنةِ كما قال؟ قال: فقلتُ: أنا، قال: إنكَ لجريءٌ، وكيفَ قال؟ قال: قلتُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**فِتنةُ الرَّجُلِ في أهلِه ومالِه ونفسِه وولدِه وجارِه، يُكَفِّرُها الصيامُ والصلاةُ والصدقةُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر**». فقال عمرُ: ليس هذا أُرِيدُ، إنما أريدُ التي تَموج كموجِ البحر؟ قال: فقلتُ: ما لكَ ولَها يا أميرَ المؤمنين؟! إنَّ بينَك وبينَها باباً مُغْلَقاً! قال: أَفَيُكْسَرُ البابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قال: قلتُ: لا، بل يُكْسَرُ، قال: ذلكَ أَحْرَى أنْ لا يُغْلَقَ أبداً!.

قال: فقلنا لحذيفةَ: هل كان عمرُ يَعلمُ مَن البابُ؟ قال: نعم، كما يَعلمُ أنَّ دونَ غدٍ الليلةَ! إنِّي حَدَّثْتُه حديثاً ليسَ بالأَغَالِيط.

قال: فَهِبْنَا أن نسألَ حذيفةَ: مَن البابُ؟ فقلنا لمسروقٍ: سَلْهُ، فسأَلَه، فقال: عمرُ)(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥) وأطرافه، ومسلم (١٤٤) بعد (٢٨٩٢) واللفظ له، والترمذي (٢٤٠٨)، والنسائي في الكبرى (٣٢٤)؛ وابن ماجه (٣٩٥٥)، وأحمد (٢٣٤١٢)، وغيرهم.

•• يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث: أن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه هو حِصْنٌ مَنيع وحائلٌ شامخٌ بين الفتن وبين الأمة، فإذا مات اندفعت الفتن تجتاح المسلمين وبلادهم. وهكذا كان.

وعبَّر عن الفتن بأنها (**تموج كموج البحر**): أي تضطرب اضطراب البحر عند هيجانه، ويدفع بعضها بعضاً. وهي لشدة عظمها وكثرة شيوعها تشبه موج البحر، تجتاح البلاد، وتخرب الديار، لا تميّز بين كبير وصغير، ولا بين حاضر وبادٍ. وكنَّى بذلك عن شدة المخاصمة، وكثرة المنازعة، واضطراب أمر الأمة، وما ينشأ عنه من الاختلاف والفُرقة والمشاتمة والمقاتلة!.

وقال حذيفة لعمر: (**إنَّ بينك وبينها باباً مغلَقاً**): أي لا يخرج منها شيء في حياتك، وعَدَلَ حذيفة حين سأله عمر عن الإخبار بالفتنة الكبرى إلى الإخبار بالفتنة الخاصة؛ لئلا يُغَمَّ ويَشتغل بالُه، ومن ثَمَّ قال له: (إنَّ بينك وبينها باباً مغلقاً)، ولم يقل له: أنت الباب، وهو يعلم أنه الباب، فعرَّض له بما فهمه ولم يصرح، وذلك من حُسن أدبه(١).

ثم إن هذا الباب (يُكْسر كسراً)، والمكسور لا يمكن إعادته بخلاف المفتوح، والكسر لا يكون غالباً إلّا عن إكراه وغلبة وخلاف!.

وفي رواية للبخاري: إن حذيفة لمّا قال ذلك، قال عمر: (ذاك أَجْدَرُ أنْ لا يُغْلَقَ إلى يوم القيامة)(٢)! وإنما قال عمر ذلك اعتماداً على ما عنده من النصوص الصريحة في وقوع الفتن في هذه الأمة، ووقوع البأس بينهم إلى يوم القيامة(٣).

---

(١) انظر: شرح مسلم، للنووي: ٤٥٠/١ شرح الحديث (١٤٤)؛ الفتح: ٥٠٧/٨ شرح الحديث (٣٥٨٦)، ٣٦٢/١٦ شرح الحديث (٧٠٩٦).

(٢) البخاري (١٨٩٥).

(٣) الفتح: ٥٠٨/٨ (٣٥٨٦).

وقد كان عمر يعلم أنه هو الباب (**كما يَعْلَمُ أن دونَ غدٍ الليلةَ**) أي: إن ليلة غدٍ أقربُ إلى اليوم من غدٍ!.

ومعنى قول حذيفة: (إني حدَّثْتُه حديثاً ليس بالأغاليط): **الأغاليطُ: جمع أُغْلُوطَة وهو ما يُغالَط به، أي حدَّثته حديثاً صِدقاً محقَّقاً من حديث النبي ﷺ لا عن اجتهاد ولا رأي.**

•• وقد عَلِم أمير المؤمنين عمرُ البابَ بالنصّ، فقد وافق حذيفة على معنى روايته هذه: أبو ذر الغفاري، وعثمان بن مظعون.

روى الطبراني: عن أبي ذَرّ: (أنه لقِي عمر بنَ الخطاب، فأخذ بيده فغَمزها، وكان عمر رجلاً شديداً، فقال: أَرْسِلْ يدي يا قُفْلَ الفتنة! فقال عمر: وما قُفْلُ الفتنة؟ قال: جئتُ رسولَ الله ﷺ ذات يوم، ورسولُ الله ﷺ جالس، وقد اجتمع عليه الناس، فجلستُ في آخرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُصِيبُكم فتنةٌ ما دامَ هذا فيكم**» وأشار إلى عمر)[1].

وروى الطبراني والبزّار من حديث قُدامَة بن مَظْعُون، عن أخيه عثمانَ بن مَظْعُون: (أنه قال لعمر: يا غَلَقَ الفتنةِ، فسأله عن ذلك؟ فقال: مررتَ يوماً ونحن جلوسٌ عند النبيِّ ﷺ فقال: «**هذا غَلَقُ الفتنة، لا يزال بينكم وبين الفتنة بابٌ شديدُ الغَلق ما عاش هذا بين ظهرانيكم**»)[2].

---

(١) الفتح: ٥٠٨/٨، شرح مسلم، للنووي: ٤٥٢/١.
قال الهيثمي في (المجمع: ٧٣/٩): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير السري بن يحيى وهو ثقة ثبت، ولكن الحسن البصري لم يسمع من أبي ذر فيما أظن.
وذكر الحافظ طرفاً منه في (الفتح: ٥٠٨/٨) وقال: رواه الطبراني بإسنادٍ رجاله ثقات.

(٢) قال الهيثمي في (المجمع: ٧٢/٩): رواه الطبراني والبزّار، وفيه جماعة لم أعرفهم، ويحيى بن المتوكل ضعيف. وذكر الحافظ في (الفتح: ٥٠٨/٨) طرفاً منه، وسكت عليه. ويشهد له حديثا حذيفة وأبي ذر.

(فإن قيل: إذا كان عمر عارفاً بذلك، فلِمَ شَكَّ فيه حتى سأل عنه؟ فالجواب: أن ذلك يقع مثلُه عند شدة الخوف، أو: لعلَّه خَشِي أن يكون نسي، فسأل مَن يُذكِّره، وهذا هو المعتمد)(١).

•• وكان الصحابة يعرفون ذلك أيضاً:

روى أبو وائل شَقيق بن سَلَمة، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (ما بينكم وبين أن يُرْسَل عليكم الشرُّ فراسِخ إلّا موتُ عمر)(٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: (إن عمر كان للإسلام حِصْناً حَصيناً، يَدخل الإسلام فيه ولا يَخرج منه، فلما قُتِل عمر انْثَلَم الحِصنُ فالإسلام يَخرُج منه ولا يَدخل فيه)(٣).

وقال الحافظ: (أخرج أحمد والطبراني بسند حسن من حديث خالد بن الوليد: أن رجلاً قال له: يا أبا سُليمان! اتقِ الله فإن الفتن قد ظهرت! فقال: أمَا وابنُ الخطاب حيٌّ فلا، إنما تكون بعده، فَيَنظر الرجل فيفكر هل يجد مكاناً لم يَنزل به مثلُ ما نزل بمكانه الذي هو به من الفتنة والشر؛ فلا يجد! فتلك الأيامُ التي ذَكر رسول الله ﷺ بين يدي الساعة أيامُ الهرج)(٤).

•• وفي هذا الحديث يشبِّه النبي ﷺ الإسلامَ بِحصْنٍ مَنيع، يعيش أهله بسلام وأمان واطمئنان وبُلَهْنِيَةٍ، والدين في انتشار وبلادُه في اتساع، والشر مخذول، والفتن مقموعة، والطامعون الحاقدون لا يجرؤون على تسوُّرِ جدار

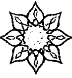
---

(١) الفتح ٥٠٩/٨.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (٥١)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن سعد: ٣٧١/٣ ـ ٣٧٢، وابن أبي شيبة: ٤٧٩/٧ في مناقب عمر، وإسناده صحيح.

(٤) الفتح: ٣٠٥/١٦ شرح الحديث (٧٠٦١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣٠٧/٧ ـ ٣٠٨. والحديث في مسند أحمد (١٦٨٢٠)، وضعَّفه شعيب!.



ذاك الحصن أو النَّقْبِ فيه، لوجود ذلك العبقري المُلهَم الصَّليب الأريب، الذي قمع الشر بقوته، وكسر العدو ببأسه، وعمَّ الجميعَ بإنصافه وعدله، ومدَّ رُواقَ الإسلام في بلاد المشرق والمغرب، وبنى دولة شامخة مشيدة على أركان راسخة من الحق والعدل والرخاء والمرحمة، فلقد كان هذا السيد (أبصرَ الناس بطبائع الشعوب، وأسباب ازدهارها واندثارها، وكيف تُبنى الدول وتُصان، وتُنصر، وتؤدي رسالتها... وسياستُه في المال والحكم أمارةُ وعيٍ عميقٍ بالإسلام وغاياته).

(وإذا كان المهازيلُ في عصور كثيرة يَسمنون بعد تولي المناصب، فإن عمر خرج من منصبه عارياً من أعراض الدنيا كلها، وقتلَه عِلْجٌ حاقد في بيت الله، وهو يؤمُّ الرُّكَّع السُّجود)[1].

•• وقد طالت مدة خلافة الفاروق، واتسعت دولته، وكثرت أجناس الناس وأعراقهم ممن دخل حظيرة الإسلام، فساس الجميعَ بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ أحسن ما تكون سياسة الخلفاء الراشدين المهديين، واتفق الناس على طاعته، لصفات جليلة اتصف بها، ومؤهلات حَبَاه الله إياها، ومنها:

ـ أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه.

ـ وأن الشيطان خَنَس في عهده، وما رآه سالكاً فَجّاً إلّا سلك فَجّاً غيره، كما في «الصحيحين» وغيرهما.

قال الحافظ: (ووقع في حديث حفصة عند الطبراني في الأوسط بلفظ: **«إن الشيطان لا يَلْقى عمرَ منذ أَسلم إلّا خَرَّ لوجْهِهِ»**! وهذا دالٌّ على صلابته في الدين، واستمرار حاله على الجد الصِّرْف والحق المَحْض)[2].

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين، ص١٤ ـ ١٥.

(٢) الفتح: ٦٢٥/٨ (٣٦٨٣).

وقال النووي: (وهذا الحديث محمولٌ على ظاهره أن الشيطان متى رأى عمر سالكاً فَجّاً هَرب هيبةً من عمر، وفارَقَ ذلك الفَجَّ، وذهب في فَجٍّ آخَر، لشدة خوفه من بأسِ عمر أن يفعل فيه شيئاً)(١).

ـ وأنه رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «**لقد كان فيمن كان قَبْلَكم من بني إسرائيل رجالٌ يُكَلَّمُونَ من غيرِ أن يكونوا أنبياءَ. فإنْ يكُنْ في أمَّتي منهم أحدٌ فَعُمَر**»(٢).

والرجل المُحَدَّث: هو الرجل الصادق الظنّ المُلْهَم، الذي يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وكما في «فوائد الجوهري» من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً قيل: يا رسول الله! وكيف يُحَدَّثُ؟ قال: «**تتكلَّم الملائكة على لسانه**»(٣).

فكان عمر رضي الله عنه وأرضاه بهديه وخلافته كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة)(٤).

وقال عمر قبل استشهاده بأربعة أيام: (لَئِنْ سَلَّمني الله لَأدَعَنَّ أراملَ أهلِ العراقِ لا يَحْتَجنَ إلى رجلٍ بعدي أبداً!)(٥).

•• لكن العبيد يَضيقون ذَرْعاً بالسادة، والأراذلُ لا يجدون لهم مكاناً في ساحات الأشراف، والحاقدون لا يقدِّرون مكرمات ذوي الكرم، والباطل لا

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٨٠/٨ (٢٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨)، وغيرهما.

(٣) انظر: الفتح ٦٢٩/٨ ـ ٦٣٠ (٣٦٨٩).

(٤) أخرجه ابن سعد: ٢٧٠/٣، وابن أبي شيبة: ٤٨٠/٧، والطبراني، وانظر: الفتح: ٦٢٦/٨ شرح الحديث (٣٦٨٤).

(٥) طرف من حديث استشهاده الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٧٠٠)، وأطرافه في رقم (١٣٩٢).

يستطيع السكوت على الحقّ! فالعلوجُ قد آسَفَهم رؤيةُ الإسلام يحطم الأصنام، ويطفئ النيران، فمكروا بالليل والنهار، وحاكوا المؤامرة في الظلام، وطَوَوا في أنفسهم على حقد دفين على فاروق الإسلام عمر، عازمين على قتله في الليل البهيم، فمثْلُهم لا يستطيع أن يُجابه آحادَ الرجال فضلاً عن سيد الرجال عمر! والعرب ما اعتادوا إلّا القتال في ساحات مكشوفة في النهار، ولم يقدِّروا مؤمرات عدوِّهم المهزوم وإصراره على الثأر لنفسه، فقُتل عمر غِيلةً وهو في صلاة الفجر يؤمُّ المسلمين، قتله المجوسي الخبيث أبو لؤلؤة[١].

طُعن عمرُ رضي الله عنه وأرضاه صبيحة الأربعاء لأربع ليالٍ بَقَيْن من ذي الحجة سنة (٢٣هـ)، ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة (٢٤هـ)، وهو ابن ثلاث وستين سنة، كسنِّ النبي ﷺ وسنِّ أبي بكر، حين توفِّيا.

وكانت مدة خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحداً وعشرين يوماً[٢].

•• **وباستشهاد عمر كُسِر البابُ الذي كان يحجز الفتن ويَحُول بينها وبين المسلمين**، فاجتاحت الفتن أنفسهم ودولتهم كما جاء في الحديث: (**تموج كموج البحر**)، هائجة مائجة مندفعة متلاطمة، كلما انحسرت موجة تبعَتْها أخرى، وصَدَق الرسول ﷺ.

فمنذ النصف الثاني من خلافة عثمان رضي الله عنه أخذت الفتن بالظهور قوية فتاكة:

ـ وأولُها ما افتراه اليهودي الماكر عبد الله بن سبأ من زَعْم (الوصية بالخلافة لعلي رضي الله عنه)، فألقى هذه الأبطولة على الطَّغام، فاستمعوا له وأنصَتُوا،

---

(١) في مدينة (كاشان) الإيرانية مشهد لأبي لؤلؤة هذا على غرار مشهد الجندي المجهول، وقد كُتب عليه (بابا شجاع الدين). انظر: لله ثم للتاريخ، ص٩٤.

(٢) أعلام الحافظ والمحدّثين: ١٩٣/١.

ثم صدَّقوه واستمسكوا بتلك الفِرية واتخذوها ديناً في حياتهم، وورَّثوها لمن بعدهم، حتى وصلوا إلى درجة أنهــم باتوا ينتظرون المعصوم كي يخرج من السرداب ليتخذوه إماماً! وكفى بذلك فتنة!.

ـ ثــم ظَهر الطعن علــى ولاة عثمان وأمــراء الأمصــار، وزوِّرَت كُتُب، ونُشــرت أكاذيب، فجاءت الأحزاب الفاجرة، وأظهر أهلها فجورهم في حَرَمِ النبي ﷺ، وحاصروا خليفته، ثم سفكوا دمه وهو يتلو كتاب الله تعالى، فذهب إلى ربه سبحانه شهيداً ســعيداً، وأمَّا هم فباؤوا بغضب من الله ﷻ، وخسران مبين يوم الدين.

ـ وجاءت خلافة أمير المؤمنين علي، فتمادت الفتن وازداد الخَطْب وكَثُر الاختــلاف، فكانت وقعةُ الجمــل، ثم صِفِّيــن، ثم قتال الخــوارج، وبعده استشهاد علي رضي الله عنه.

ـ وهكذا فيما بعــدُ لا تزال الفتن تمــوج في الأمة، والدماء تســيل من جسمها، حتى ينتهي ذلك بالفتن الكبرى كالدجال وغيره.

إنها نبوةٌ عظيمة جليلة، ودرسٌ بليغٌ يجب على المسلم أن يتملَّاه ويتَّعِظ به، ويســتفيد من مجريات الأحداث، فيكشف عن مســببات الفتن ونتائجها لينجو منها، ويُسْهِم مع غيره في إنقاذ الأمة من كوارثها وقوارعها ما استطاع إلى ذلك ســبيلاً، فالحديث عن مثل هذه الأمور ليس شــيئاً مــن (التاريخ القصصي)، بل من باب الاعتبار لإحسان العمل وبناء الحاضر والمستقبل.



الفصل الثاني

إخبار النبي ﷺ الفاروق عمر بأنه سيموت شهيداً

أولاً ـ أحاديث نبوية تذكر عدداً من الصحابة أنهم سيقضون شهداء، ومنهم عمر:

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن نبيَّ الله ﷺ صَعِـدَ أُحُداً، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَف بهم، فضَربَهُ برِجْلِه، وقـال: «**اثْبُتْ، فإنما عليك نبيٌّ وصِدّيقٌ وشهيدان**»)[١].

٢ ـ وعن سَهْل بن سَعْد الساعِديِّ رضي الله عنه: (أن أُحُداً ارْتَجَّ وعليه النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «**اثْبُتْ أُحُد، فما عليك إلّا نبيٌّ وصِدّيقٌ وشهيدان**»)[٢].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِدَ حراءَ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ وطلحـةُ والزُّبير، فتحـرَّك بهمُ الجبلُ، فقال رسـول الله ﷺ: «**اسكُنْ حراءُ، فإنما عليكَ نبيٌّ أو صِدّيقٌ أو شهيدٌ**»)[٣].

---

(١) أخرجه البخـاري (٣٦٧٥) وطرفاه؛ وأبـو داود (٤٦٥١)؛ والترمذي (٤٠٣٠)؛ والنسـائي في الكبرى (٨٠٧٩) واللفظ له؛ وأحمد (١٢١٠٦) وابن حبان (٦٨٦٥) و(٦٩٠٨).

(٢) أخرجه أحمد: (٢٢٨١١). وأبو يعلى (٧٥١٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٦/٣٥؛ والبغوي (٣٩٠٢)؛ وابن حبان (٦٤٩٢) واللفظ له. وذكره الحافظ في الفتح: ٨/٦١٠، شرح الحديث (٣٦٧٥) من رواية أبي يعلى وصحّحه، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه مسـلم (٢٤١٧) وفيه زيادة: (سعد بن أبي وقاص)؛ والترمذي (٤٠٢٩)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٥٠)؛ وأحمد (٩٤٣٠)؛ وابن حبان (٦٩٨٣) واللفظ له.

٤ ـ وعن سعيد بن زيد ﷺ قال: (اهتزَّ حرَاءُ، فقال رسول الله ﷺ: «**اثْبُتْ حراءُ، فليس عليك إلّا نبيٌّ أو صدّيقٌ أو شهيدٌ**» وعليه رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمانُ، وعليٌّ، وطلحة، والزُّبيرُ، وعبدُ الرحمن بن عَوْف، وسعدُ بن أبي وقاص، وأنا)[1].

كلمة بين يدي الأحاديث:

المتأمِّل في هذه الأحاديث الصحيحة الجليلة يتبيَّن له أن القصة تعدَّدتْ؛ فحديثا أنس وسَهْل يبيّنان أن هذه النبوءة وقعت في المدينة النبوية، وكان مع رسول الله ﷺ الصحابة الأجلَّاء: أبو بكر وعمر وعثمان، وأما حديثا أبي هريرة وسعيد بن زيد ففيهما أن القصة وقعت في مكة المكرمة، وكان مع الرسول ﷺ الرَّهْط الكريم من أعيان الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة ما عدا أبا عبيدة بن الجراح.

وهذا وذاك فضل كبير عظيم أجراه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ في بدايات الدعوة بمكة، وأكَّده في مدينته الطيبة، ليُشِيدَ بمنزلة هذا النَّفر المبارك من الصحابة الذين كانوا عُمُدَ الدعوة في بدايتها بمكة، وأُسُسَ قيام الدولة في أوائل تشييدها بالمدينة، وهي منقبة جليلة لهم لا تُدانيها إلّا الشهادة لهم بالجنة.

تحقق النبوءة:

•• قوله ﷺ في حديثَي أنس وسَهْل: «**اثْبُتْ، فإنما عليك نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيدان**»: فالصدِّيق هو أبو بكر، والشهيدان هما عمر وعثمان.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٠) و(١٦٣٨)؛ وأبو داود (٤٦٤٨)؛ والترمذي (٤٠٩٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٠٠) وأطرافه واللفظ له؛ وابن ماجه (١٣٤)؛ وابن حبان (٦٩٩٦)؛ والحاكم: ٣/٤٥٠ ـ ٤٥١، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصحَّحه أحمد شاكر، والألباني، وشعيب الأرنؤوط.

وفي حديثَي أبي هريرة وسعيد بن زيد: «**فإنما عليك نبي أو صدّيق أو شهيد**».

و«**أو**»: للتنويع، و«**شهيد**»: للجنس.

وذَكَر من الصدِّيقين: أبا بكر، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد.

وأما الشهداء فهم: عمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير.

وكأن الجبل الراسي بصخوره الصَّلدة وجَلَامِده الصلبة قد اطمأنَّ وخشَع لوجود هذا الرَّهْط الكريم فوقه؛ ﴿**وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ٧٤]، فاضطرب الجبل سعادةً بهذا الرهط المبارك، واهتزَّ فرحاً بهم، ومادَ خشوعاً لله بما أكرمه به بأن تطأه أقدامُ هؤلاء السادة الأجلَّاء، مع سيد ولد آدم، فيُطَمئنُه النبي ﷺ ويخاطبه بكلمات جليلة رقيقة، ويُهدِّئ من رَوْعه، ويأمره بالسَّكينة والوقار لهؤلاء الأخيار الذين صحبوا نبيَّهم، وما منهم إلّا صديق أو شهيد(١).

والنبي ﷺ يخاطِب كلًّا من الجبلين في مناسبتين مختلفتين، ومكانين متنائيين، وزمانين متباعدين، بلفظ: «**اثبُتْ**» و«**اسكُن**»، وكما يقول الحافظ: (ونداؤه وخطابه يَحتمِل المجاز، وحَمْلُه على الحقيقة أولى)(٢).

•• والصحابةُ الخمسة الذين أَنبأ رسول الله ﷺ بفوزهم بالشهادة، جاءت بتصديقه السنون التالية، وكان الأمر كما قال ﷺ، فعُمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم قُتلوا ظُلماً شهداء، (وقد ثَبت أن مَن قُتل ظلماً فهو شهيد،

---

(١) انظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٤٩٧.

(٢) الفتح: ٨/٦١٠، شرح الحديث (٣٦٧٥).

والمراد: شـــهداء في أحكام الآخرة، وعظيم ثواب الشـــهداء، وأما في الدنيا فَيُغسَّلون، ويُصلَّى عليهم)(١).

ـ واستشهاد **أمير المؤمنين عمر** أمرٌ مشهور متعالَم عند المسلمين، وكان ذلك على يدي المجوسي الخبيث أبي لؤلؤة، حيث طعنه غِيلةً وهو قائم في صلاة الفجر يؤمُّ المسلمين.

ثانياً ـ النبي ﷺ يخاطب الفاروق عمر بأنه سيموت شهيداً:

روى الزُّهْريُّ: عن ســالم، عــن ابن عُمر: (أن النبــيَّ ﷺ رأى على عُمر قميصاً أبيضَ، فقال: «**أجديدٌ قميصُك هذا أم غَسيلٌ؟**» قال: بل غَسيلٌ. فقال: «**الْبَسْ جَديداً، وعِشْ حَميداً، ومُتْ شــهيدًا، ويرزُقــكَ الله قرَّة عَيْنٍ في الدنيا والآخرة**»، قال: وإياكَ يا رسول الله)(٢).

•• هذه النبوءة مفسِّرة لطَرفٍ من النبوءة السابقة، ومُفْصِحة عن اسم واحد من ذلكم الرَّهْط الكريم الذين أخبر ﷺ بفَوْزهم بالشهادة.

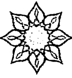
فالرســول ﷺ حيث بشَّــر عمر بالجنة في أحاديث كثيرة، يؤكد في هذا الحديث على صفات جليلة تمتع بها الفــاروق، أهَّلتْه ـ بعد فَضْل الله تعالى ورحمته وجزيل عطائه ـ أن يكون من أصحاب جنات النعيم.

فهو ﷺ يخبر أن عمر ســيعيش حميداً، وقد كان كذلــك منذ دَلَف إلى رياض الإســلام وأصبح واحداً من أكابر حَمَلته والمُنافحين عنه، واســتمرَّ

---

(١) شرح مسلم، للنووي: ٢٠٥/٨.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٨٢) واللفظ له؛ وأحمد (٥٦٢٠)؛ والنســائي في الكبرى (١٠٠٧٠)؛ وابن ماجه (٣٥٥٨)؛ والطبراني في الكبير (١٣١٢٧)؛ وابن حبان (٦٨٩٧)؛ والبغوي (٣١١٢)، وغيرهم. وقــال الحافظ في (نتائج الأفكار ١٣٦ ـ ١٣٨): هذا حديث حســن غريب ورجال الإســناد رجال الصحيح. وردَّ على النســائي قولَه: (حديث منكر)، ثم قال الحافظ: وأقل درجاته أن يوصف بالحسن. وصحَّحه الألباني في (صحيح ابن ماجه).



على أحسن ما تكون سِيَر الأماجد وهَدْيهم الرفيع، الذي هو قبس من وحي السماء وهَدْي النبوة، وعندما آلت إليه الخلافة سطع كالشمس بعدلِه ورحمته وعطائه وحُسنِ سياسته وعبقرية إدارته وبُعْد نظره، واستمر طيلة عشر سنين ونصف علـى أروع وأورع ما تكون سـير الحكام فـي كل جنبات الحكم ومناحي الحياة.

فعاش حميداً عند الله، حميداً عند الناس، حميداً في نفسـه، وفيما بينه وبين ربه، وتحدَّث عـن مفاخِر خلافته القاصي والداني، وشـهد له الخلقُ بذلك قديماً وحديثاً.

•• وقوله ﷺ: «**ويرزقُك الله قرَّة عين في الدنيا والآخرة**»:

فالشطر الأول قد تحقق للفاروق، فأيُّ قرَّة عينٍ أجلُّ وأرفَعُ من جهاده مع النبي ﷺ ورؤيته الأصنامَ تتهاوى، وسَـدَنتها تتوارى، وشـأنَ الإسلام يعلو، ودولته تُشاد؟!.

وأيُّ قرَّة عين أهنأُ وأمْرأُ من تلك السنين الرخاء التي عاشها الناس في كَنَف عَدْله وظلال خلافته، وقد بَسَـط الإسلامُ جناحيه على أصقاع ممتدة من الأرض، ودخلت أممٌ وأجناس في دين الله أفواجاً؟! ولعُمَر وللصحابة معه مثلُ أجور كل مَن اهتدى للإسـلام ودخل فيه من غير أن يَنقص من أجورهم شيء.

ثـم أيُّ قرَّة عينٍ أجلُّ مـن تلك البُشْـرَيات والثناءات التـي أجراها الله سـبحانه على لسـان نبيِّه فَوَصف عمر بأنه محدَّث مُلْهَم، وأنه ﷺ رأى في المنام أنه يشـرب اللبن فأعطى فَضْلَه عمرَ، وأوَّله بالعلم، ورأى ﷺ أيضاً في المنام أن عمر قـد لبس قميصاً اجترَّه، وأوَّلَه بالدِّيـن، وأنه ﷺ قال: «**لو كان نبيٌّ بعدي لكان عُمر**»، وأن عمر ما سَـلَك فجّاً إلّا سَلَك الشيطان فجّاً آخر، وغير ذلك كثير.

فهل ثَمَّةَ قُرَّة عين في الدنيا أرفَعُ وأجلُّ من كل هذا؟!

وأما في الآخرة فتكفيه بُشريات رسول الله ﷺ بأنه شهيد، وأنه من أهل الجنة في عليين.

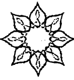
ثالثاً ـ إرهاصات باستشهاد عمر:

•• جاءت عدة إرهاصات وعلامات عن عمر وصحابة آخرين، وواطَأَتْها بعضُ الأحداث؛ فأجمعتْ جميعُها على دنوِّ أجَل أمير المؤمنين عمر، وأنه سيموت قتلاً!.

ـ عن عوف بن مالك الأَشْجَعيِّ: (أنه رأى في المنام أن الناس جُمعوا في صَعيد واحد، فإذا رجل قد عَلا الناس بثلاثة أذرع، قلتُ: مَن هذا؟ قال: عمر بن الخطاب، قلت: بمَ يَعلُوهم؟ قال: إن فيه ثلاثَ خِصال: لا يخافُ في الله لومةَ لائم، وإنه شهيدٌ مُستشهَد، وخليفةٌ مُسْتَخلَف. فأتى عوفٌ أبا بكر فحدَّثه، فبَعث إلى عمر فبشَّره، فقال أبو بكر: قُصَّ رؤياك، قال: فلما قال: خليفةٌ مستخلَف، انتهره عمر فأَسْكَتَه. فلما وَلي عمرُ انطلَق إلى الشام، فبينما هو يخطُب إذ رأى عوفَ بن مالك، فدَعَاه، فصَعِد معه المنبر، فقال: اقْصُصْ رؤياك، فقَصَّها، فقال: أمَّا «ألا أخاف في الله لومة لائم» فأرجو أن يجعلَني الله منهم، وأما «خليفة مستخلَف» فقد استُخْلِفتُ فأسأل الله أن يُعينني على ما ولاني، وأما «شهيدٌ مُستشهَدٌ» فأنَّى لي الشهادة وأنا بين ظَهْرَانَي جزيرة العرب لستُ أغزو والناسُ حولي؟ ثم قال: بلى بلى، يأتي بها الله إن شاء الله)[1].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣٣١/٣؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٥٦٤/٥ شرح الحديث (١٨٩٠)؛ وهو في الاستيعاب: ٤٦٣/٢ ـ ٤٦٤؛ ومختصر ابن عساكر: ٣٣/١٩ ـ ٣٤؛ ومحض الصواب: ٨٦٨/٣ ـ ٨٦٩.



ـ وعن أنس بن مالك، عن أبي موسى الأشعري قال: (رأيتُ كأنّي أخذتُ جَوَادَّ كثيرة، فاضمحلَّتْ حتى بقيتْ جادّة واحدة، فسلكتُها حتى انتهيتُ إلى جبلٍ، فإذا رسول الله ﷺ فوقه وإلى جَنْبه أبو بكر، وإذا هو يومئ إلى عمر أنْ تعالَ، فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله أمير المؤمنين! فقلت: أَلا تكتبُ بهذا إلى عمر؟ فقال: ما كنتُ لأنعَى له نفسَه)[1].

ـ وعن مَعْدان بن أبي طلحة اليَعْمَرِيِّ: (أن عمر بن الخطاب قام على المنبر يوم الجمعة، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم ذكر رسولَ الله ﷺ وذكر أبا بكر، ثم قال: رأيتُ رؤيا لا أُراها إلا لحضور أَجَلي، رأيتُ كأنَّ ديكاً نَقَرني نقرتين، قال: وذَكر لي أنه ديك أحمر، فقصصتُها على أسماء بنت عُميس امرأةِ أبي بكر، فقالت: يَقتُلكَ رجلٌ من العَجم!)[2].

وفي رواية: (فما عاش إلا تلك الجمعة حتى طُعِن)[3].

•• وكان الفاروق يتوجَّس من الأعاجم شرّاً، ويخشى من غدرهم، فأراد أن يجنِّب مدينةَ رسول الله ﷺ إفسادَهم وخياناتهم، فلذا لم يأذَنْ للسَّبْي أن يُقيم في المدينة.

عن عبد الله بن عمر: (عن عمر أنه كان يكتب إلى أمراء الجيوش: لا تَجْلُبوا علينا من العُلوج أحداً جَرَتْ عليه المَوَاسي. فلما طعنه أبو لؤلؤة، قال: من هذا؟ قالوا: غلام المغيرة بن شعبة، قال: أَلَم أقلْ لكم: لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً؟ فغلبتموني!)[4].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣٣٢/٣؛ وإسناده صحيح؛ مختصر ابن عساكر: ٣٤/١٩.

(٢) أخرجه أحمد (٨٩)؛ ومسلم (٥٦٧)؛ وابن سعد: ٣٣٥/٣؛ وابن أبي شيبة: ٥٨٠/٨ ـ ٥٨١.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣٣٦/٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣٤٩/٣. المواسي: جمع الموسى، والمراد: لا تجلبوا من نبتت عانته، وهي علامة البلوغ.

وعن ابن عباس قال: (لمَّا كان غداةَ أُصِيب عمر، كنتُ فيمن احتَمَله حتى أدخلناه الدار، قال: فأفاق إفاقةً، فقال: مَن أصابني؟ قلت: أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر: هذا عملُ أصحابِك، كنتُ أريدُ أن لا يدخلَها عِلْجٌ من السَّبْي، فغلبتموني)(١).

وهذا من فراسة عمر وإلهاماته، وحُسْنِ تدبيره وسياسته في حماية رموز الدولة وأركانها من الخيانات الغادرة التي دأَبَ عليها المجوس ومن عاونهم على الكيد للإسلام ورجاله وأهله.

ولقد استشعر عمر بألمعيته وإلهامه أن أبا لؤلؤة سيغدر به عندما قال له عمر: (أَلَم أُحَدَّثْ أنك تقول: لو أشاءُ لصنعتُ رَحًى تَطحن بالريح؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر، ومع عمر رهْطٌ، فقال: لأَصنَعنَّ لك رحًى يتحدَّث بها الناس! فلما ولَّى العبد، أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم: أَوْعَدَني العبدُ آنفاً!)(٢).

رابعاً ـ أمنيات عمر:

وقد علِمَ أمير المؤمنين أن الله كتب له الشهادة، وأيقن بذلك لِما وعاه عن النبي ﷺ، وأخذت البشائر تتوالى عليه، فكان يتمناها، لكنه لم يعلم من أين مأتاها!.

عن أسلم، عن عمر رضي الله عنه قال: (اللهمَّ ارزُقْني شهادةً في سَبِيلكَ، واجعلْ مَوْتي في بلدِ رسولك ﷺ)(٣).

(١) طبقات ابن سعد: ٣٥٢/٣.
(٢) المرجع السابق: ٣٤٥/٣.
(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٠).

وعن أسـلم، عن أمِّ المؤمنين حَفْصة قالت: (سـمعتُ عمرَ يقول: اللهمَّ قَتْلاً في سـبيلك، ووفاةً في بلدِ نبيِّكَ. قلتُ: وأنَّى يكون هذا؟! قال: يأتي به الله إذا شاء)[(١)].

وتمنَّى ذلك ودَعَا به في آخر حجَّة حَجَّها؛ فقد روى ابن المسـيِّب: (أنَّ عمر لمَّا أفاضَ من مِنًى، أناخَ بالأَبْطَح فكـوَّمَ كَوْمةً من بَطْحاءَ وطَرح عليها طرفَ ثوبه، ثم استلقى عليها ورَفَع يديه إلى السماء وقال: اللهمَّ كَبِرتْ سِنِّي، وضَعُفَتْ قوَّتي، وانتشَرَتْ رعيَّتي؛ فاقْبِضْني إليكَ غير مُضَيِّعٍ ولا مُفرِّطٍ!...) قال سعيد: (فما انسلَخَ ذو الحجة حتى طُعِن)[(٢)].

وعن أسلم: أنه سمع عمر يقول: (اللهمَّ لا تجعلْ قَتْلي على يدي عبدٍ قد سَجَد لك سجدةً يُحاجُّني بها يومَ القيامة)[(٣)].



---

(١) علقه البخـاري بعد الحديث (١٨٩٠)؛ ووصله ابن سـعد: ٣/٣٣١؛ وأبـو نعيم في الحلية: ١/٥٣ ـ ٥٤؛ والإسماعيلي كما في الفتح: ٥/٥٦٤.

(٢) طبقات ابن سـعد: ٣/٣٣٤ ـ ٣٣٥؛ موطـأ مالك: ٢/٨٢٤؛ الحلية: ١/٥٤؛ وإسـناده صحيح. بطحاء: صغار الحصى.

(٣) الحلية: ١/٥٣، وإسناده صحيح.

الفصل الثالث

استشهاد عمر، والحقد الفارسي الصليبي

أولاً ـ حديث الاستشهاد:

عن ابن شـهاب قال: (كان عمـر لا يأْذَنُ لِسَـبْيٍ قد احتَلَـم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة بن شـعبة وهو على الكوفة يَذكر له غلاماً عنده صَنَعاً، ويسـتأذنه أن يُدْخِله المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس؛ إنه حدَّاد نقـاش نجَّار. فكتب إليـه عمر فأذِنَ له أن يُرسِـل به إلى المدينة. وضَرَب عليه المغيرة مئةَ درهم كل شهر، فجاء إلى عمر يشتكي إليه شـدَّة الخَراج، فقال له عمر: ماذا تُحسِـنُ من العمل؟ فذكر له الأعمال التي يُحْسِـنُ، فقال له عمر: ما خَراجُك بكثيرٍ في كُنْهِ عملِك. فانصرف سـاخطاً يتذمَّر، فلَبِث عمر لياليَ، ثم إن العبد مرَّ به فدَعَـاه فقال له: أَلَم أُحَدَّثْ أنك تقول: لو أشاء لصنعتُ رحًى تَطحن بالريح؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر، ومع عمر رهطٌ، فقال: لأَصْنَعنَّ لك رحًى يتحدَّث بها الناس!.

فلما ولَّى العبد، أقبَـلَ عمر على الرهط الذين معـه فقال: أَوْعَدني العبد آنفاً.

فلبث ليالي، ثم اشـتَمَل أبو لؤلـؤة على خِنْجر ذي رأسـين نِصابه في وسـطه، فكَمَن في زاوية من زوايا المسجد في غَلَس السَّحَر، فلم يَـزَل هناك حتى خرج عمر يوقـظ الناس للصلاة صلاةِ الفجـر، وكان عمر يفعل ذلك،

فلما دنا منه عمر وَثَب عليــه فطَعَنه ثلاثَ طعناتٍ إحداهن تحت السُّــرَّة قد خَرَقت الصِّفَاق وهي التي قَتلَتْه، ثم انحاز أيضاً على أهل المسجد فطعن من يليه، حتى طَعَن سوى عمر أحدَ عشر[١] رجلًا، ثم انتحر بخِنْجره)[٢].

وعن عَمْرو بن مَيْمُون قال: (رأيتُ عمر بنَ الخطاب رضي الله عنه قبل أن يُصابَ بأيام بالمدينة ووقفَ على حُذيفةَ بن اليمــان وعُثمان بن حُنَـيْف قال: كيف فعلتُما؟ أَتخافانِ أن تكونا قد حَمَّلتُمــا الأرض[٣] ما لا تُطيق؟ قالا: حمَّلناها أمراً هي له مُطِيقةٌ، ما فيها كبيرُ فَضْل، قال: انْظُــرا أن تكونا حمَّلْتُما الأرضَ ما لا تُطيق! قالا: لا. فقال عمر: لَئِنْ ســلَّمني الله لأَدعَــنَّ أراملَ أهل العراق لا يحتجنَ إلى رجلٍ بعدي أبداً. قال: فما أتتْ عليه إلا رابعةٌ حتى أُصِيب.

قال: إني لقائمٌ ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداةَ أُصِيب، وكان إذا مرَّ بين الصفَّيْن قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهم خَلَلاً تقدَّم فكَبَّر، وربما قرأ سورة يوســف أو النحل أو نحوَ ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمعَ الناس، فما هو إلا أن كَبَّر فســمعتُه يقول: قَـتلَني ـ أو أَكَلَنــي ـ الكلبُ، حين طَعَنه! فطارَ العِلْجُ بسكِّينٍ ذاتِ طرفين، لا يمرُّ على أحد يميناً ولا شِمالاً إلا طَعَنه، حتى طَعن ثلاثةَ عشــر رجــلاً مات منهم ســبعةٌ. فلما رأى ذلــك رجلٌ من المسلمين طَرح عليه بُرْنُساً، فلما ظنَّ العِلْج أنه مأخوذٌ نَحر نفسَه.

وتناول عمرُ يدَ عبد الرحمن بن عوف فقدَّمَه، فمن يَلي عمرَ فقد رأى الذي أَرى، وأما نواحي المســجد فإنهم لا يَـدرون غير أنهم قد فَقَدوا صوتَ عمر، وهم يقولون: سبحانَ الله سبحان الله. فصلَّى بهم عبدُ الرحمن صلاةً خفيفةً.

---

(١) وفي رواية: (ثلاثة عشر).

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/٣٤٥.

(٣) هي أرض الســواد بالعــراق، وكان عمر قد بعثهمــا يضربان عليها الخــراج وعلى أهلها الجزية.

فلما انصرفوا، قال: يا ابنَ عباس، انظرْ مَن قَتَلَني. فجالَ ساعة، ثم جاء فقال: غلامُ المغيرة، قال: الصَّنَعُ؟ قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أَمرتُ به معروفاً، الحمدُ لله الذي لم يجعل مِيتَتي بيدِ رجلٍ يدَّعي الإسلام. قد كنتَ أنت وأبوك تحبّان أن تكثر العلوجُ بالمدينة، وكان العباس أكثرَهم رقيقاً، فقال: إنْ شئتَ فعلتُ ـ أي: إن شئتَ قَتَلْنا ـ قال: كَذبْتَ! بعدما تكلَّموا بلسانِكم، وصَلَّوْا قِبلتَكُم، وحَجُّوا حجَّكم؟!.

فاحتُمِل إلى بيته، فانطَلَقْنا معه، وكأنَّ الناس لم تُصِبْهم مصيبةٌ قبل يومئذٍ! فقائلٌ يقول: لا بأسَ، وقائلٌ يقول: أخافُ عليه. فأُتِي بنبيذٍ فشَرِبَه، فخَرَج من جَوْفِه، ثم أُتي بلبنٍ فشَرِبَه، فخَرَج من جُرْحِه، فعَلِمُوا أنه ميِّتٌ.

فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يُثْنون عليه، وجاء رجل شابٌّ فقال: أَبْشِرْ يا أميرَ المؤمنين ببشرى الله لك: من صحبةِ رسول الله ﷺ، وقَدَم في الإسلام ما قد علمتَ، ثم وَلِيتَ فعَدَلْتَ، ثم شهادةٌ! قال: وَدِدتُ أن ذلك كَفافٌ لا عليَّ ولا لي. فلما أَدْبَر إذا إزارُه يمسُّ الأرض، قال: رُدُّوا عليَّ الغلامَ، قال: يا ابن أخي، ارفَعْ ثوبَك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.

يا عبد الله بن عمر، انظرْ ما عليَّ من الدَّيْن. فحَسَبُوه فوجدوه ستةً وثمانين ألفاً أو نحوَه، قال: إنْ وَفَى له مالُ آل عمر فأدِّهِ من أموالهم، وإلا فَسَلْ في بني عَديّ بن كعب، فإنْ لم تفِ أموالُهم فَسَلْ في قريش ولا تَعْدُهم إلى غيرهم، فأَدِّ عني هذا المال.

انطلِقْ إلى عائشةَ أمِّ المؤمنين فقلْ: يقرأُ عليكِ عمرُ السلام، ولا تقلْ: أميرُ المؤمنين، فإني لستُ اليومَ للمؤمنين أميراً، وقل: يَستأذِنُ عمر بن الخطاب أن يُدفَنَ مع صاحبيه.

فسَلَّم واستأْذَنَ، ثم دَخل عليها فوَجَدَها قاعدةً تبكي، فقال: يقرأُ عليكِ عمر بن الخطاب السلامَ، ويستأذِنُ أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت: كنتُ أُرِيدُه لنفسي ولأُوثِرنَّه به اليومَ على نَفْسي.

فلما أَقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفَعُوني، فأَسْنَده رجل إليه، فقال: ما لديكَ؟ قال: الذي تحبُّ يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ، قال: الحمدُ لله، ما كان من شيءٍ أهمُّ إليَّ من ذلك، فإذا أنا قَضيتُ فاحمِلُوني، ثم سَلِّمْ فقل: يَستأذن عمر بن الخطاب، فإنْ أَذِنتْ لي فأَدْخِلوني، وإن ردَّتْني رُدُّوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أمُّ المؤمنين حفصةُ والنساءُ تسير معها، فلما رأَيْنَاها قُمنا، فولجت عليه، فبَكَتْ عنده ساعة، واستأذن الرجال، فوَلَجتْ داخِلاً لهم، فسمعنا بكاءَها من الداخل...)[1].

قال عَمْرو بن ميمون: (رأيتُ عمر لمَّا طُعن، عليه مِلْحفة صفراء قد وضعها على جرحه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨])[2].

ثانياً ـ عمر شهيد المحراب:

ما كان يدور في خَلَد أحدٍ أن نهاية هذا الرجل العظيم تكون بطريقة أقلّ ما يُقال فيها: إنها جَبَانة خسيسة حقيرة، بل حاقدة موتورة؛ قد ضاقَتْ بأصحابها عدالةُ الإسلام وسموُّ مبادئه، لأنهم اعتادوا الاستعباد والسجود للنار!.

حقّاً لقد كان حدثاً مزلزِلاً تتفطَّر له قلوب الأحرار الكرام ممن لم يشهدوه، وتنهمر مآقيهم وهم يتلون (مشاهد مسرحية قتل الفاروق) بعد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠) واللفظ له؛ وابن أبي شيبة: ٥٧٥/٨ ـ ٥٧٧؛ وابن سعد: ٣٣٧/٣ ـ ٣٣٩، ٣٤٠ ـ ٣٤٢، ٣٤٥. وللحديث تتمة ستأتي.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣٢٩/٣، ٣٤٩؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٥٨٠/٨.

أربعة عشر قرناً، فكيف بمن شهده، وشهد عبقريات عمر وأعماله وإنجازاته وأخلاقه وعدله وزهده وورعه وحرصه على الإسلام والمسلمين وغير المسلمين، بل حتى على البهائم التي نَعِمت بخلافته!.

فلا ضَيْرَ على المسلمين فيما ظهر منهم قولاً وعملاً وثناء على الفاروق، فعبَّروا عما تعتلج به صدورهم تجاه هذه القارعة التي نزلت بهم. فلنذكر شذرات من ذلك:

•• قال عبد الله بن عباس: (يا أميرَ المؤمنين! لقد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فأحسنتَ صُحبتَه، ثم فَارقْتَهُ وهو عنك راضٍ. ثم صحبتَ أبا بكر فأحسنتَ صُحبتَه، ثم فارقْتَه وهو عنك راضٍ. ثم صحبتَ صَحَبَتَهم فأحسنتَ صُحْبَتَهم، ولئنْ فارقْتَهم لَـتُفارِقَنَّهم وهم عنكَ راضون)(١).

وقال ابن عباس: (يا أمير المؤمنين، والله إنْ كان إسلامُك لنصراً، وإن كانت إمامتُك لفتحاً، والله لقد ملأَتْ إمارتُك الأرضَ عدلاً؛ ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك. فقال عمر: أجلِسوني. فلما جلس قال لابن عباس: أَعِدْ عليَّ كلامك. فلما أعاد عليه، قال: أتشهدُ لي بذلك عند الله يوم تلقاه؟ فقال ابن عباس: نعم! قال: ففرح عمر بذلك وأعجبه)(٢).

ـ وعن ابن عباس قال: (وُضِعَ عمر بنُ الخطاب على سَريره، فتَكَنَّفَهُ الناسُ يَدْعُون ويُثْنُون ويُصلّون عليه، قبل أن يُرفَع، وأنا فيهم، قال: فلم يَرُعْني إلا برجلٍ قد أخذ بِمَنْكِبي من ورائي، فالتفتُّ إليه فإذا هو عليٌّ، فترحَّم على عمرَ، وقال: ما خلَّفْتُ أحداً أحبَّ إليَّ أن أَلْقَى الله بمثلِ عمله منك! وايْمُ اللهِ، إنْ كنتُ لأظنُّ أن يجعلَكَ الله مع صاحبَيْكَ؛ وذاكَ أنِّي كنتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢).

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/٣٥٤، وبألفاظ أخرى في: ٣/٣٥٢ ـ ٣٥٤؛ الحلية: ١/٥٢؛ المستدرك: ٣/٩٢؛ الفتح: ٨/٦٥٤ شرح الحديث (٣٧٠٠).

أُكَثِّرُ أســمعُ رســول الله ﷺ يقول: «**جئتُ أنا وأبو بكر وعمــر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر**». فإنْ كنتُ لأرجو، أو لأظن، أن يَجْعَلك الله معهما)[١].

ـ وجاء عبد الله بن سَلام وقد صُلِّيَ على عمر فقال: (والله لَئِنْ سبقتُموني بالصلاة عليه، لا تَسْـبقوني بالثناء عليه، فقام عند سـريره فقــال: نِعْمَ أخو الإســلام كنتَ يا عمر؛ جواداً بالحق، بخيلاً بالباطــل، ترضَى حين الرضا، وتغضب حين الغضــب، عفيفَ الطَّــرْفِ، طيِّــبَ الظَّرْفِ، لم تكــن مدّاحاً ولا مغتاباً. ثم جلس)[٢].

•• عن جُويرية بــن قُدَامة قال: (حججتُ عام توفِّــي عمر، فأتى المدينةَ فخطب فقال: رأيتُ كأنَّ ديــكاً نَقَرني. فما عاش إلا تلك الجمعة حتى طُعن! قال: فدخل عليه أصحابُ النبي ﷺ، ثم أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، فكنّا[٣] آخرَ من دخل عليه، قــال: فكلما دخل قوم بَكَوْا وأثنوا عليه، قال: فكنتُ فيمن دخل، فإذا هو قد عَصَب على جراحته...)[٤].

ودعا عمر ابن عباس ـ وكان يحبُّه ويُدْنيه ويَســمع منه ـ فقال: (أُحِبُّ أن تعلمَ عن ملأ مــن الناس كان هذا؟ فخرج ابن عبــاس فكان لا يمرُّ بملأ من الناس إلا وهم يبكون! فرجــع إلى عمر فقال: يا أميــر المؤمنين، ما مررتُ على ملأ إلا رأيتُهم يبكون، كأنهم فقدوا اليوم أبكارَ أولادهم!)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٧)؛ ومسـلم (٢٣٨٩) واللفظ له؛ والنسـائي فـي الكبرى (٨٠٦١)، وغيرهم. وساقه ابن سعد: ٣/٣٦٩ ـ ٣٧١ من عشرة طرق، كثير منها عن آل علي!.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/٣٦٩؛ مختصر ابن عساكر: ١٩/٤٩.

(٣) يريد جويرية قومه، وهم بنو تميم.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/٣٣٦؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٥٧٨.

(٥) هذا طرف من حديث طويل ســاقه الهيثمي في المجمع: ٩/٧٤ ـ ٧٦، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن؛ وذكر الحافظ طرفاً منه في الفتح: ٨/٦٥١.

ويروي الأحنف بن قيس أنهم لمَّا رجعوا من جنازة عمر (جِيءَ بالطعام ووُضِعَت الموائد، فأمسكَ الناس عنها للحزن الذي هم فيه، فقال العباس بن عبد المطلب: أيها الناس! إن رسول الله ﷺ قد مات فأكلنا بعده وشربنا، ومات أبو بكر فأكلنا بعده وشربنا، وإنه لا بدَّ من الأَجَل، فكُلوا من هذا الطعام. ثم مدَّ العباس يده فأكل، ومدَّ الناس أيديهم فأكلوا)(١).

•• عن أنس بن مالك قال: (لمّا أُصِيب عمر بن الخطاب، قال أبو طلحة: ما من أهل بيت من العرب حاضر ولا بادٍ إلا قد دخل عليهم بقتل عمر نقصٌ)(٢).

وبكى سعيد بن زيد لموت عمر، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: (على الإسلام أبكي، إن موت عمر ثَلَم الإسلامَ ثلمةً لا تُرْتَقُ إلى يوم القيامة)(٣).

(ولمَّا أُصِيبَ عمرُ دخل صُهَيبٌ يبكي يقول: وَاأَخَاهُ، وَاصَاحِبَاهُ! فقال عمر: يا صهيبُ! أَتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ ببعضِ بكاءِ أهلِه عليه**»؟!)(٤).

وعن المِقْدام بن مَعْدِي كَرِب قال: (لما أُصِيب عمرُ دخلَتْ عليه حفصةُ فقالت: يا صاحبَ رسول الله، ويا صهرَ رسول الله، ويا أميرَ المؤمنين! فقال عمر لابن عمر: يا عبد الله أَجْلِسْني فلا صبرَ لي على ما أسمعُ، فأسنَده إلى صدره، فقال لها: إني أُحَرِّجُ عليكِ بما لي عليكِ من الحق أن تَنْدُبيني بعد مجلسكِ هذا، فأمَّا عينُك فلن أَمْلِكَها!)(٥).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣٠/٤؛ المعرفة والتاريخ: ٥١٠/١ ـ ٥١١.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣٧٣/٣ ـ ٣٧٤.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣٧٢/٣.
(٤) أخرجه البخاري (١٢٨٧)؛ ومسلم (٩٢٧).
(٥) طبقات ابن سعد: ٣٦١/٣؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٦٥٦/٨.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: (إنْ مات عمر رَقَّ الإسلام، ما أُحِبُّ أن لي ما تطلُع عليه الشمس أو تغرب وأني أبقى بعد عمر!)(١).

وعن زيد بن وَهْب قال: (أتينا ابنَ مسعود فذكر عمر، فبكى حتى ابتلَّ الحصى من دموعه، وقال: إنَّ عمر كان حِصْناً حَصِيناً للإسلام يَدخلون فيه ولا يَخرجون منه، فلما مات عمر انثَلَمَ الحِصْنُ فالناس يخرجون من الإسلام)(٢).

وقال حذيفة بن اليمان: (كان الإسلام في زمن عمر كالرجل المُقْبِل لا يزدادُ إلّا قُرْباً، فلما قُتِل عمرُ كان كالرجلِ المُدْبِر لا يزدادُ إلّا بُعْداً!)(٣).

ثالثاً ـ مواقف الفاروق في الأيام الأخيرة من عُمرِه:

يأبَى عمر رضي الله عنه إلا أن يبقى عظيماً حتى الرَّمَق الأخير من حياته المباركة، فمع ما هو فيه من النزف المروِّع، والمسلمون قد مَرِجَ أمرُهم واضطربتْ أحلامهم، وحِجَازُ الفتنة قد كُسِر منذراً بانطلاق الفتن من عِقالها... مع كل هذا فإن الفاروق يستمر على نهجه مستمسكاً بهديه الفذّ؛ فيسجِّل في ساعاته الأخيرة أروعَ المواقف وأجلَّ الوصايا، حِفاظاً على السيرة الرائدة التي أرسَى بناءها الرسولُ الأعظم ﷺ، واقتفى أثَرَه فيها صِدِّيقُه الأكبر، ومضَى عليها عمر حتى هذه اللحظات الحاسمة...

فلنقرأ هذه السطور التي ختم بها أبو حفص خلافته الرشيدة وأعماله المجيدة:

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٧٢.
(٢) طبقات ابن سعد ٣/٣٧١، مصنف ابن أبي شيبة ٧/٤٧٩، ٤٨٤، المستدرك ٣/٩٣.
(٣) طبقات ابن سعد ٣/٣٧٣، المستدرك ٣/٨٤.

ـ في حديث عَمْرو بن ميمون المتقدم: (واحتُمِل عمر، فدَخَل الناس عليه، فقال: يا عبد الله بن عباس! اخرجْ فنادِ في الناس: أيها الناس، إن أمير المؤمنين يقول: أَعَنْ ملأ منكم هذا؟ فقالوا: مَعَاذَ الله! ما عَلِمْنا ولا اطَّلَعْنا)(١).

ـ وفي حديثه أيضاً: أن عمر قال لابن عباس: (يا ابنَ عباس! انظُرْ مَن قتَلَني! فجالَ ساعةً ثم جاء، فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَع؟ قال: نعم، قال: قاتَلهُ الله، لقد أمرتُ به معروفاً! الحمدُ لله الذي لم يجعلْ مِيتتي بيد رجل يدَّعي الإسلامَ!)(٢).

وفي رواية: (قال عمر: الحمدُ لله الذي لم يجعل قاتلي يُحاجُّني عند الله بسجدة سجدها له قطُّ، ما كانت العرب لِتَقْتُلَني!)(٣).

ـ وقال عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة: (حين طُعِن في غَلَس السَّحَر، فاحتملتُه أنا ورهطٌ كانوا معي في المسجد حتى أدخلناه بيته. قال: وأَمَر عبدَ الرحمن بنَ عوف أن يصلي بالناس. قال: فلما دخل عمر بيته غُشِي عليه من النزف، فلم يزل في غشيته حتى أَسْفَر، ثم أفاق، فقال: هل صلى الناس؟ قلنا: نعم، قال: لا إسلامَ لمن ترك الصلاة. قال: ثم دعا بوَضُوءٍ، فتوضأ وصلى)(٤).

ـ وعن المِسْوَر بن مَخْرَمَة قال: (دخلتُ على عمر بن الخطاب حين طُعن أنا وابنُ عباس، وأُوذِنَ بالصلاة فقيل: الصلاةَ يا أمير المؤمنين، قال: فرفع

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣٤١/٣.

(٢) البخاري (٣٧٠٠)؛ طبقات ابن سعد: ٣٣٧/٣ ـ ٣٣٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣٤٦/٣.

(٤) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٩٠٢/٣؛ الفتح: ٦٥١/٨؛ محض الصواب: ٨١٢/٣.

رأســه فقال: الصلاةَ، ولا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة. قال: فصلَّى وإن جُرْحَه لَيَثْعَبُ دماً)(١).

ـ وفي حديث عمرو بن ميمــون: (قال عمر: ادعوا لــي طبيباً، فدُعيَ له الطبيب، فقال: أي شــراب أحبُّ إليــك؟ قال: نَبِيذ، فَسُــقي نبيذاً فخرج من بعض طعناته، فقال الناس: هذا صديدٌ، اســقوه لبناً، فسُقي لبناً فخرج، فقال الطبيب: ما أَرى أن تُمسي، فما كنتَ فاعلاً فافعل)(٢).

وعاش عمر بعد أن طعن ثلاثة أيام ثم مات رضي الله عنه وأرضاه(٣).



(١) طبقات ابن سعد: ٣٥٠/٣ ـ ٣٥١؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٥٧٩/٨. يَـثْعَب: يجري ويسيل.

(٢) طبقات ابن ســعد: ٣٤١/٣، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٤؛ مســند أحمد (٢٩٤)؛ مصنف ابن أبي شــيبة: ٥٧٩/٨.

(٣) المستدرك: ٩٢/٣.

الفصل الرابع

وقفات مع الاستشهاد والاغتيال

في وقفة تأمُّلٍ واعتبارٍ مع قصة استشـــهاد الفاروق ومجريات أحداثها وملابســـاتها ونهايتها؛ يمكن للباحث أن يوضح جملة من الحقائق نشـــير إليها بإيجاز:

١ ـ لمّا فُتحت (تُسْتَر) استسلم (الهُرْمُزَانُ) على أن يَنزل على حكم عمر، فحُمِل إلى المدينة، وأســـلمَ بين يدي عمـــر بحيلة ماكرة[1]، واســـتبقاه أمير المؤمنين عنده ليكفي المسلمين خِداعَه وغدْرَه ومكرَه.

والمتأمل في سيرته يرتاب في صحة إســـلامه، ويجزم بتدبيره الدسائس والمكايد للمســـلمين الذين وَتَرُوه في منزلته بين بني جلدته، ووَتَرُوه كذلك في فتوحهم لبلاد فارس وكســـرهم دولة بني ساســـان، ويرشح هذا استمراره بالخديعة حتى مع أمير المؤمنين عمر.

فعندما اجتمع الفرس بنَهاوَنْد، وأراد المســـلمون فتحها، استشـــار عمر الهرمزان بذلك، فلم يَمحضْه النصيحة!.

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٣٠/٨؛ الفتح: ٧٧٦/٧ ـ ٧٧٨؛ كتاب الجزية، باب (١١)؛ البداية والنهاية: ٨٦/٧ ـ ٨٨.

عن جُبير بن حَيّة: (أن عمر بن الخطاب قال للهُرْمُزان: أمَا إذْ فُتَّني بنفسك، فانْصَحْ لي ـ وذلك أنه قال له: تَكلَّمْ لا بأسَ، فأَمَّنَه ـ فقال الهُرمزان: نعم، إن فارس اليوم رأسٌ وجناحان، قال: فأين الرأس؟ قال: بنَهَاوَنْد مع بنذاذقان، فإن معه أساورةَ كسرى وأهلَ أصفهان، قال: فأين الجناحان؟ فذكر الهرمزان مكاناً نسيتُه، فقال الهرمزان: فاقطع الجناحين تُوهِن الرأسَ.

فقال له عمر: كذبتَ يا عدوَّ الله! بل أَعْمِدُ إلى الرأس، فيقطعُه الله، وإذا قطعه الله عنِّي، انفضَّ عني الجناحان)(١).

فكشف عمر خبثَه ومكْرَه وأنكر عليه، فعندئذٍ رجع إلى الصواب(٢).

وهذا يدل على مكره وخديعته، وعلى أن في إسلامه دَغَلاً، وأن لقومه في نفسه حبّاً متأصِّلاً.

ثم هو متَّهَمٌ بالمشاركة في التدبير لقتل أمير المؤمنين كما تدل على ذلك رواية صحيحة ساقها ابن سعد، عن سعيد بن المسيِّب: (أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال حين قُتل عمر: قد مررتُ على أبي لؤلؤة قاتلِ عمر ومعه جُفَيْنة والهُرْمُزان وهم نَجِيٌّ! فلما بَغَتُّهم ثاروا فسقط من بينهم خَنْجر له رأسان ونِصابه وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قُتل به عمر؟! فوجدوه الخنجرَ الذي نَعَتَ عبد الرحمن بن أبي بكر! فانطلق عُبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه السيف، حتى دعا الهُرْمُزان، فلما خرج إليه قال: انطلِقْ معي حتى ننظر إلى فرس لي، وتأخَّر عنه حتى إذا مضى بين يديه عَلاَه بالسيف، قال عبيد الله: فلما وجد

---

(١) أخرجه في خبر صحيح مطول جداً: ابن أبي شيبة: ٢٢/٨ ـ ٢٤؛ وابن حبان (٤٧٥٦)؛ والطبري في تاريخه: ١١٧/٤ ـ ١٢٠؛ واختصره البخاري (٣١٥٩).

(٢) انظر: الفتح: ٧٦١/٧ (٣١٥٩).

حرَّ السيف، قال: لا إله إلا الله! قال عبيد الله: ودعوتُ جُفَيْنة ـ وكان نصرانيّاً من نصارى الحيرة، وكان ظِئْراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه المدينةَ للمِلْح الذي كان بينه وبينه، وكان يعلِّم الكتاب بالمدينة ـ قال عبيد الله: فلما علوتُه بالسيف صَلَّبَ بين عينيه. ثم انطلق عبيد الله فقتل ابنةَ أبي لؤلؤة صغيرة تدعي الإسلام. وأراد عبيد الله أن لا يترك سَبْياً بالمدينة إلا قَتَلَه)(١).

فهذا فيه دلالة واضحة على أن قَتْل عمر كان فيه تدبير سابق وإعداد مبيَّت أشرف على تنفيذه الهرمزان.

وتؤكد رواية أخرى ذلك، وأن أبا لؤلؤة أضمر قتل عمر؛ (فاصطنع له خنجراً له رأسان، وشَحَذَه وسَمَّه، ثم أتى به الهرمزانَ فقال: كيف ترى هذا؟ قال: أرى أنك لا تضرب به أحداً إلا قتلته!)(٢).

٢ ـ الحقد المجوسي المتأصِّل في قلوب الفُرس كباراً وصغاراً، فقد تقدم ما كان يَضْطَغِن عليه قلب الهُرْمُزان، ومثله ما كان يَمُور به صدر رستم؛ ويدل على ذلك أن رستم قد بعث عَيْناً (جاسوساً) أيام القادسية ليرى حال المسلمين، فرآهم يستاكون ويتهيؤون للصلاة حين ينادي المنادي. قال هذا الجاسوس: أتاني صوت عند الغداة، وإنما هو عمر الذي يكلِّم الكلاب فيعلِّمهم العقل. فلما عَبَروا تواقفوا، وأَذَّن مؤذِّنُ سعد للصلاة، فصلى سعد، وقال رستم: أكل عمر كَبِدي(٣)!.

هكذا كانوا ينظرون إلى أولئك الرجال الأماجد من (العرب) الذين حملوا هداية السماء وحرَّرُوهم من عبادة كسرى والسجود للنار؛ يرونهم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/٣٥٥ ـ ٣٥٦، وله بقية، وإسناده صحيح. يعلم الكتاب: أي الكتابة.

(٢) أسد الغابة: ٤/٧٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/٥٣٣.

مثل (الكلاب)! ولا يستطيع رستم أن يكتم أحقاده حتى يقول: أكل عمر كبدي!.

٣ ـ وهذا الحقد هو نفسه الذي كان يضطرم ناراً تلظَّى في قلب العِلْج الكافر أبي لؤلؤة.

عن الشعبي قال: (لمَّا قُدِمَ بِسَبْي نَهَاوند إلى المدينة، جعل أبو لؤلؤة فيروز غلامُ المغيرة بن شعبة لا يَلْقى منهم صغيراً إلا مَسَح رأسَه وبكى، وقال: أكلَ عمر كَبِدي!)[1].

وهذا كان قبل مقتل عمر بنحو ثلاث سنين، لأن (نهاوند) كانت سنة (٢١ هـ).

ويؤكد الحقدَ المجوسي في صدر هذا اللعين أنه بعد أن طَعَن الفاروق، طار بين الصفوف فطَعَن بِخِنْجره ثلاثةَ عشر مؤمناً، مات منهم سبعة أو تسعة[2]، فإذا كان يحتجُّ بأن عَدْلَ عمر لم يَسَعْه ولم يُنصفه من سيده المغيرة، فما ذنبُ هؤلاء الرجال يقتلهم بخسَّة ونَذَالة وجُبْن؟!.

٤ ـ ويؤكد أن قتل عمر كان مؤامرة؛ أن المجوسي الخبيث أبا لؤلؤة عندما قبض عليه المسلمون أسرع فنَحَر نفسه بخنجره، فإذا كان ـ لا رحمه الله ـ صاحبَ حق، فهلاَّ انتظر المحاكمة الإسلامية، وهو يعلم يقيناً عدْلَ المسلمين وإنصافَهم!.

والذي نراه أنه إنما عَجَّل بنفسه ليموت سرُّه معه، ولا يكشف التحقيق معه خيوطَ المؤتمرين من أمثال الهُرْمُزان وجُفَيْنة اللذين قتلهما عبيد الله بن عمر فيما بعد.

---

(١) تاريخ الطبري: ١٣٦/٤؛ البداية والنهاية: ١١٢/٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣٣٧/٣، ٣٤٠، ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

٥ ـ استمرار الحقد المجوسي الفارسي على عمر وعلى الإسلام وتأصله في قلوب الرافضة الذين يدَّعون حُبَّ علي بن أبـي طالب وآله، ولقد قدَّمْنا أقوالَهم في الفـاروق، وأثبتنا مواقفَ علي مع أخيه عمر بـدءاً من كونه من رؤوس مجلس الشـورى، ثم تزويجـه بابنته أم كلثوم، وختـم ذلك بكلمته الجليلة ورثائه له عندما سُجِّي عمر بثوب الموت.

أمـا أولئك الذين يزعمـون حُبَّ علـي وآل البيت فقـد أقاموا لذاك الخبيث المجوسـي الذي لم يُسْلم قط، وقتل عمر في المحراب، ثم مات منتحراً... أقاموا له (مشـهداً) تبجيلاً له، واحتفـاءً بعمله، وتخليداً لفعلته الآثمة الفاجرة.

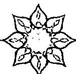
يقول السيد حسين الموسوي: (واعلَمْ أن في مدينة «كاشان» الإيرانية، في منطقة تسـمَّى «باغي فين»، مشـهداً على غِرار «الجندي المجهول»، فيه قبرٌ وهمي لأبي لؤلؤة فيروز الفارسـي المجوسـي، قاتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث أطلقوا عليه ما معناه بالعربية:

«مرقد بابا شجاع الدين»! وبابا شـجاع الدين هو لقب أطلقوه على أبي لؤلؤة لقتله عمر بن الخطاب، وقد كُتب على جدران هذا المشهد بالفارسي: «مرك بر أبو بكـر، مرك بر عمر، مرك بر عثمان»، ومعنـاه بالعربية: الموت لأبي بكر، الموت لعمر، الموت لعثمان.

وهذا المشـهد يُزار من قِبل الإيرانيين، وتُلْقى فيـه الأموال والتبرعات، وقد رأيتُ هذا المشـهد بنفسي، وكانت وزارة الإرشـاد الإيرانية قد باشرت بتوسـيعه وتجديده، وفوق ذلك قاموا بطبع صورة المشـهد على «كارتات» تستخدم لإرسال الرسائل والمكاتيب!)[1].

---

(١) لله ثم للتاريخ، ص٩٤.



٦ ـ إن الإسلام في عهد عمر بَسط جناحيه في المشرق والمغرب، وعَمَّ خيرُه المسلمين وغير المسلمين، وأقبل عليه الناس أفواجاً أفواجاً، وساد العدل في العالمين، وعاشوا في بُلَهْنِيَة ورخاء؛ مما آلَمَ أولئك الموتورين وجيَّشَ في قلوبهم الأحقادَ وأضرم في صدورهم البغضاءَ، فوجَّهوا إلى صدر عمر ذلك السهم المسموم، فأردَوْه قتيلاً وهو يؤمُّ الركع السجود في صلاة الفجر.

وتوارثوا البغضاء جيلاً بعد جيل، ولقَّنُوا أتباعَهم السبَّ والطعنَ على هذا الرجل العظيم وغيره من الصحابة الذين رباهم رسول الله ﷺ وأحبَّهم وأحبُّوه، وأثنى الله عليهم في كتابه والنبي ﷺ في سنته.

فالذي يتهم عمرَ ويخوِّنه ويسبُّه ويفرح ببقر بطْنه! إنما يوجِّه التهمةَ إلى صاحب الرسالة ﷺ، الذي أَحَبَّ الفاروق وتزوَّج ابنته وأشاد بذِكْره في عشرات الأحاديث والمواقف، وأطبق الصحابة وأهل الأرض على سمو أخلاقه وعدله وزهده وروعة منهجه وعزة الإسلام في دولته.

٧ ـ كان عمر غَلَقَ الفِتنة، وعندما استُشهد كُسِر بابُ الفتن، وهُدِم السدُّ المَنيع الذي كان يَحُول دونها، ويَذُود عن الأمة مزالقَ الاختلاف والاقتتال وإراقة الدماء.

وتنفَّس أعداءُ الله الصُّعَداءَ حيث زالت تلك الشوكة الصلبة التي غصَّتْ بها حلوقُهم، وبدؤوا يَذرُّون الفتن، ويروِّجون الأكاذيب، ويؤرِّثون الاختلاف، ويُذْكُونَ الاحترابَ بين المسلمين... فعليهم وِزْرُها ووِزْرُ من عمل بها ورضي بها وساعد عليها.

٨ ـ الإخلاص الباهر والخشية الرفيعة والعدل النادر عند الفاروق وهو في السياق، إذ يخشى أن يكون الذي طعنه مسلماً قد يكون له أدنى حجة بين يدي الله، وهذا ما يعبِّر عنه فرحُه الغامر عندما علم أن قاتله هو ذاك المجوسي الكافر الذي لم يسجد لله سجدة يحتج بها عند الله على أمير المؤمنين.

٩ ـ التواضع الفذ من عمر والحبّ الراسـخ للنبي ﷺ وصاحبه أبي بكر، يتجلّى في حرصه على أن يُدفَن معهما في حجرة أم المؤمنين عائشة، وقوله لابنه: قل: يستأذن عمر، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً. فلما جاءه عبد الله بالبشرى، وأن عائشة أَذِنَتْ، قال الفاروق: (الحمدُ لله، ما كان من شيء أهمُّ إليَّ من ذلك).

١٠ ـ جلالة السيدة أم المؤمنين عائشة، وإجلالُها أميرَ المؤمنين عمر، وإعزازُها له وتقديمه بالخير على نفسها، حيث آثرتْه بمكان الدفن فقالت: (قد والله كنتُ أريده لنفسي، ولأُوثِرنَّه به اليومَ على نفسي).

١١ ـ عظمةُ عمر في استمراره بأعمال الخير الكبار وهو في أجفان الموت، وجرحُه يتفجر دماً:

ـ فهو يأمر ذاكَ الشاب الأنصاريَّ الذي كان يجرُّ ثوبَه، بأن يرفَعَه عن الأرض، فإنه أنقى للثوب وأتقى للرب.

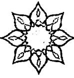
ـ ولما دخلت عليه ابنتُه حفصة عوَّلَتْ عليه وبكت، كذلك عَوَّلَ عليه صهيبٌ ونَدَبه وصاح: واأخاه ! واصاحباه! فنهاهما عن الندب مع البكاء.

ـ الوصايا الجليلة للخليفة من بعده بالمهاجرين والأنصار وأهل الأمصار والأعراب وأهل الذمة، والعدل والرحمة والرأفة والجهاد والتواضع وحفظ أمور الإسلام.

وداعاً أيها الفاروق يا غَلَقَ الفِتنة:

مواقف من عمر قُبيل وفاته:

ـ لما طُعن عمر واحتمِل إلى بيته، دخل عليه أجلّاء الصحابة والناس، وجعلوا يُثْنُون عليه، ومن جملة من أطاب الثناءَ عليه عبدُ الله بن عباس، وقد رأى من عمر جَزَعاً وخوفاً، فقال عمر:



(وأمَّا ما ترى من جَزَعي فهو من أَجْلِكَ وأجلِ أصحابِك. واللهِ لو أنَّ لي طِلَاعَ الأرض ذهباً؛ لافتديتُ به من عذابِ الله عز وجل قبل أن أَراه!)[١].

وقوله: (من أجلك وأجل أصحابك): قال ذلك لِما توقعه من فتن تكون بعده، لأن قتله يُشعر بذلك. أو قال ذلك لِعَظم مسؤوليته عن رعيته وسيرته فيهم، وكأنه غلَب عليه الخوف في تلك الحالة، مع هَضْم نفسه وتواضعه لربه[٢].

وطِلاع الأرض: ما يَملؤها حتى يَطْلُعَ عنها ويَسيل[٣].

ـ وعن عثمان بن عفان قال: (أنا آخِرُكم عهداً بعمرَ، دخلتُ عليه ورأسُه في حَجْر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له: ضَعْ خدِّي بالأرض، قال: فهل فَخِذي والأرض إلّا سواء؟ قال: ضَعْ خدِّي بالأرض لا أُمَّ لك، في الثانية أو الثالثة، ثم شَبَكَ بين رجلَيْه، فسمعتُه يقول: وَيْلي وويلُ أمّي إنْ لم يغفر الله لي، حتى فاضَتْ نفسه)[٤].

غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه:

عن عبد الله بن عمر قال: (غُسِّل عمر بن الخطاب وكُفِّن وصُلِّي عليه، وكان شهيداً)[٥].

وغسله ابنه عبد الله[٦].

وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب: ثوبين سَحُوليين وقميص كان يلبسه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢)، وابن سعد ٣٥٢/٣، ٣٥٣، ٣٥٥.

(٢) الفتح ٦٣٣/٨ شرح الحديث (٣٦٩٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٣٣/٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٣٦٠/٣ ـ ٣٦١، مختصر ابن عساكر ٤٦/١٩، تاريخ المدينة لابن شبَّة ٩١٩/٣، وإسناده صحيح.

(٥) طبقات ابن سعد ٣٦٦/٣.

(٦) أسد الغابة ٧٧/٤.

قال سعيد بن المسيِّب: (لمَّا توفي عمر نظر المسلمون فإذا صهيبٌ يصلي بهم المكتوبات بأمر عمر، فقدَّموا صُهيباً فصلَّى على عمر)[(١)].

وصُلِّي عليه في مسجد رسول الله ﷺ، بين القبر والمنبر، وحُمل على سرير النبي ﷺ، ونزل في قبره: ابنه عبد الله، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وصهيب[(٢)].

ودفن عمر بجوار سيدنا رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق، في حجرة السيدة عائشة أم المؤمنين.

تاريخ وفاته ومبلغ عمره ومدة خلافته:

ـ طُعِن عمر رضي الله عنه صبيحة الأربعاء لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة، سنة (ثلاث وعشرين للهجرة)، ودُفن يوم الأحد صباح هلال المحرم من سنة (أربع وعشرين للهجرة)[(٣)].

ـ وعاش (ثلاثاً وستين سنة)، كسنِّ رسول الله ﷺ وسِنِّ أبي بكر. عن أنس بن مالك قال: (قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وهو ابنُ ثلاث وستين، وأبو بكر وهو ابنُ ثلاث وستين، وعمر وهو ابنُ ثلاث وستين).

وهكذا قال معاوية بن أبي سفيان[(٤)].

وهو أشهر الأقوال، ورجَّحه المِزِّي والذهبي[(٥)]. ورجَّح الحافظ ابن حجر أنه مات وعمره (تسع وخمسون سنة)؛ لخبرٍ صحيح عن عبد الله بن عمر عن عمر[(٦)].

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٣/٣٦٥، تاريخ الطبري ٤/١٩٣ ـ ١٩٤، الاستيعاب ٢/٤٥٩.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٤٨)، (٢٣٥٢).

(٥) تهذيب الكمال ٢١/٣١٧، محض الصواب ٣/٨٤٠.

(٦) تهذيب التهذيب ٧/٣٨٧.

ـ ومدة خلافته: عشر سنين وستة أشــهر وأربعة أيام[١]، أي نحو (٣٧٢٠) يوماً، سجَّل في كل ساعة من ساعاتها عملاً صالحاً وبنى مجداً وترك مأثرة.

ـ وفي حديث استشــهاد عمر أنه قال لابنه: (يا عبدَ الله بنَ عمر، انظُرْ ما عَليَّ من الدَّيْن، فحَسَبُوه، فوجَدُوه ستةً وثمانين ألفاً أو نحوه!)[٢].

فقال عمر لابنه: (يا عبدَ الله، أقمستُ عليك بحقِّ الله وحقِّ عمر؛ إذا مِتُّ فَدفَنْتَني أن لا تغسلَ رأسَك حتى تبيعَ من رِباع آل عمر بثمانين ألفاً، فتضَعَها في بيت مال المسلمين!)[٣].

(فلم يُدْفَنْ عمر حتى أَشــهد بها ابنُ عمر على نفسِه أهلَ الشورى وعدَّةً من الأنصار، وما مَضَتْ جمعةٌ بعــد أن دُفن عمر، حتى حَمل ابنُ عمر المالَ إلى عثمان بن عفان، وأحضَرَ الشهودَ على البراءة بدفع المال!!)[٤].

رضي الله عن الفاروق عمر وأرضاه، وعن جميع أصحاب نبينا محمد ﷺ.



---

(١) طبقات ابن ســعد ٣/٣٦٥، تاريخ الطبري ٤/١٩٣ ـ ١٩٤، التاريخ الأوسط ١/١١٠، المستدرك ٣/٩٣، الاستيعاب ٢/٤٥٩.

(٢) انظر ما تقدم: ص ٤٦.

(٣) الفتح ٨/٦٥٤ شرح الحديث (٣٧٠٠).

(٤) طبقات ابن سعد ٣/٣٥٨.

الباب الثاني

الفتنة الثانية
الخروج على الخليفة الراشدي الثالث
عثمان بن عفان وقتله

- متغيرات ومستجدات.
- إخبار النبي ﷺ بالفتنة زمن عثمان، وأن عثمان على الهدى وأنه يُقتل مظلوماً.
- دراسة منهجية للفتنة ومروياتها ورواتها وما كتب فيها.
- ما عتبه الناس على عثمان وما نقمه المفترون المنافقون عليه (تمحيص وتحقيق ونقد).
- مؤامرات في الظلام ومنهجها وأخطر رموزها ومواقف الخليفة الراشدي في علاجها.
- أمير المؤمنين عثمان مع دعاة الفتنة وجهاً لوجه في المدينة.
- الحصار الآثم ومجريات أحداثه ومواقف أمير المؤمنين والصحابة.
- استشهاد عثمان.

الفصل الأول

متغيِّرات ومستجِدَّات

امتدت الفتوحات في عهد الفاروق عمر شـرقاً وغرباً، وتابعت مسيرتها الطيبة المباركة في عهد ذي النورين عثمان، فلم تمضِ سـنوات من خلافته حتى بَسَط الإسـلام جناحيه وامتدت رقعته على مساحات شاسعة من العالم المعمور، وأصبحت الصبغة الإسلامية صبغة عالمية تشمل العربي والأعجمي والرومي والبربري، وتَسْلُكهم جميعاً في دولة واحدة.

ومن طبائع الأشياء أن تحدث في المجتمع الإسلامي الجديد تغيرات في نطاق واسع، وتنشأ مستجِدَّات تتفاعل فيما بينها إيجابياً أحياناً وسلبياً أحياناً أخرى.

وقد ظهرت ملامح تلك التغيرات ومؤشـراتهـا ومؤثراتها وغاياتها، في أواخر عهد أمير المؤمنين عمر، والتي تمثّلت بالمؤامرة المجوسـية اليهودية الصليبية في اغتيال رمز العدالة الإنسانية الخليفة عمر!

وكانت نِـذارةً خطيرةً وإشـارةً واضحةً منبِّهة على بـدء ظهور الفتن في صفوف المسلمين، وفي جسم دولتهم الشابَّة القوية.

وباستشهاد عمر كُسر البابُ الذي كان يحجز الفتن ويَحُول بينها وبين المسـلمين، واجتاحت الفتن أنفسَـهم ودولتهم كما جـاء في الحديث:

(تموج كمــوج البحر)، هائجــة مائجة مندفعة متلاطمة، كلما انحســرت موجة تبعَتْها أخرى.

وقد لفــتَ أميــر المؤمنين عثمان إلـــى بعض جوانــب المتغيرات التي تتربص بالأمة، فقال في مســتهل خلافته في كتاب وجَّهَــه للأمة: (أما بعد، فإنكم إنما بَلَغتُم ما بلغتم بالاقتداء والاتِّبـــاع، فلا تَلْفِتنَّكم الدنيا عن أمركم، فإن أمرَ هذه الأمة صائرٌ إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكاملُ النِّعم، وبلوغُ أولادكم من السبايا، وقراءةُ الأعراب والأعاجم القرآن!).

وهو بهذا يحذِّرهم تغير الحال إذا اجتمعت لهم تلك الخِلال الثلاث[1].

ونشير في هذا الفصل إلى أبرز تلك المتغيرات والمستجِدَّات، ونتلمَّس بواعثها وعناصرها ومحاورها وآثارها، من خلال سيرورة التاريخ والمجتمع والأمة والدولة والمؤثرات الداخلية والخارجية طيلة عهد عثمان، مع تداخلها مع نهايات خلافة عمر؛ وذلك لتوضيـــح معالم الانقلاب الخطير الذي زلزل الأمة الإسلامية بالخروج على الخليفة وقتله، والهدف الكامن وراء ذلك هو إسقاط الخلافة!.

أولاً ـ مجيء عثمـان بعد عمر والاختلاف فـي طبعهما ومعاملتهما الرعية:

نشأ الفاروق مخشوشناً صليباً قويّاً مهيباً في الجاهلية، ومضى على ذلك في الإسلام، وترسخ في فطرته ومســلكه في خلافته، وكان في ذلك مضربَ المَثَل مع نفســه وأســرته وأقاربه. وساعده اخشيشــانُه على أن يكون المثلَ الأعلى فيما حــدَّث عنه التاريخ من أعاجيب، في مأكله ومشــربه وملبســه

(١) تاريخ الطبري: ٢٤٥/٤؛ وانظر ما كتبناه: ص٢١٢ ـ ٢١٣ في كتابنا «عثمان بن عفان».

ومرقده ومجلسه، وتعرُّفِ شؤون رعيته، وأخذِه أمراءَه وولاته بما أخذ به نفسه، وقد جاءته الدنيا صاغرةً في ظل خلافته فأعرض عنها، وولجت عليه كنوز الأكاسرة والقياصرة، وخيرات فارس والروم، فنفر عنها نِفاراً شديداً!.

ومشى على ذلك في حكم الدولة وسياسة الناس، وهو من هو شدةً في الحق، وبطشاً بأعداء الله، وحزماً في السياسة، وصلابة في الرأي، وعزماً في النفاذ. وشَغَلَ الناسَ بالجهادِ والفتح، فلم يترك لهم فرصة فراغ يقلِّبون فيها صحائف الناس، ويُديرون في مجالسهم أحاديثَ الولايات والتأمير، وأعمال الولاة، وسياسة الأمراء، بله سياسة الخلافة العليا!.

ويقابل ذلك عثمان وما كان في فطرته من وداعة ورحمة وعطف، تنوعت مظاهرها في السماحة والجود إلى أبعد غايات المكارم. ونشأةُ عثمان في لطفه، ولينِ عريكته، ورقة طبعه، ودَمَاثةِ خُلُقه؛ كان لها بعض الأثر في مظاهر الفَرْق عند حُدَثاء الإسلام بين عهده وعهد سلفه في الخلافة عمر بن الخطاب.

ومن عجيب الأمر وغامض الحكمة أن هذه الصفات التي كانت دعائمَ محبة لعثمان في قلوب الناس؛ هي نفسها التي كانت نوافذَ الأحداث الكارثة والعظائم القاصمة[(١)]!.

وقد أشار عثمان إلى شيء من ذلك ذات مرة، وقد عَزَم على توسعة المسجد الحرام، فابتاع بعض البيوت المجاورة، وهدمها، وأبَى عليه قوم وصَيَّحوا به، فأَدَّبَهم وقال: أتدرون ما جَرَّأَكم علَيَّ؟! ما جرَّأَكم علَيَّ إلا حِلْمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تُصيِّحوا به[(٢)]!.

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٧٢ ـ ٧٣، ٨١؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٣٩٦/٤ ـ ٣٩٧؛ مختصر ابن عساكر: ١٨٣/١٦ ـ ١٨٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٥١/٤.

ثانياً ـ مقتل عمر:

ثبت في الحديث الصحيح: أن عمر بن الخطاب هو (غَلَقُ الفتنة)[١]، وبمقتله كُسِر الباب الذي كان يحجز الفتنَ ويَحول بينها وبين المسلمين، فاجتاحت الفتن أنفسَهم ودولتهم، وتركت آثارها الخطيرة على المجتمع الإسلامي منذ عهد عثمان وما بعده!.

والجانب الأخطر في مقتل الفاروق أنه لم يكن أمراً عارضاً ولا تدبيراً فرديّاً، بل نجزم بأنه كان بتدبير فارسي يهودي نصراني؛ كما تدل عليه عناصر الجريمة وأفرادها! وقد ترتب عليه انتقاضُ عدد من الأمصار في أطراف الدولة الإسلامية، وتمرُّدُ أهلها من الفرس والروم والترك على سلطان الخلافة في بداية عهد عثمان؛ مما يشي بتغيرات في أحوال المجتمع، وما يَمُور به من أفكار واتجاهات، وما تنطوي عليه قلوب خصوم الإسلام الذين يتربصون به الدوائر، ليثيروا الفتن هنا وهناك كلما سَنَحت لهم الفرصة بذلك.

ثالثاً ـ الفتوحات الواسعة وتدفق أجناس شتى إلى دوحة الإسلام:

امتدت الفتوحات في خلافة عمر، ثم تراحَبَتْ في عهد عثمان لتُضيف أمصاراً كثيرة ومساحات شاسعة وشعوباً جديدة انطوت تحت راية الإسلام. وبقيتْ هذه الفتوحات مستمرة حتى آخر عهد عثمان وعلى جميع الجبهات، وفي البر والبحر، في بلاد الترك وخراسان والروم وإفريقية والحبشة حتى سنة (٣٣هـ)، والمعارك البحرية حتى سنة (٣٤هـ) في وقعة ذات الصواري. ولم تستطعْ أعمالُ الموتورين والحاقدين والسبئيين وأشباههم أن توقفَ سير الفتوحات وتدفقها، ولكن تلك الفتن أَضعفَتْها في السنتين الأخيرتين

---

(١) انظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٢٩/٢ ـ ٣٦.

من عهد عثمان، حتى توقفت إثر استشهاده، ثم بسبب ما جرى من فتن في عهد علي.

فالرأي القائل بأن من أسباب الفتنة توقف الفتوحات، أو أنها وصلَتْ إلى حدٍّ يجب أن تقف عنده قبل أن تُستأنف(١)؛ هو رأي مرجوح، بل الواقع التاريخي يُبطِله وينقضه، وتوقفُ الفتوحات كان نتيجة اضطراب الفتن والخروج على الولاة والخليفة، وليس سبباً لتلك الفتن.

هذه الفتوحات قد ضمت أمشاجاً شتى من العناصر والأجناس، والمذاهب والأفكار، والطبائع والأخلاق، والرضا والسخط، مع وجود الحاقدين والموتورين، والذين دخلوا الإسلام على دَغَل وألقَوا السلاح صاغرين.

وآثار ذلك قد ظهرت في معالم متعددة ذات اتجاهات متباينة، لكنها تجتمع تحت هدف واحد هو تأجيجُ الفتن والانقضاض على الإسلام ودولته: فاتجاهٌ تمثَّل باستهداف الخليفة وقتْلِه فبدأ بعمر ثم عثمان. واتجاهٌ ثان توجه إلى القيام على الولاة والتأليب على حكمهم والطعن عليهم. واعتمد ثالث حركاتِ الانتقاض من الفرس والروم والترك ليزعزع أركان الدولة. بينما استهدف اتجاهٌ رابعٌ مبادئَ الإسلام وأركانه وسعى لتشويهها وحرفها عن مسارها الصحيح.

وثمة أمرٌ بالغُ الخطورة والأهمية في اتساع الفتوحات وكونها من أسباب الانقلاب الخطير الذي حدث في نهاية عهد عثمان؛ وهو أن امتداد تلك الفتوحات لم يُصاحبْه استيعاب عميق لمبادئ الإسلام، (فدخولُ شعوب بأكملها في الإسلام في سنوات قليلة جدّاً، لا كانت هناك أمامها فرصة لتتلقى

---

(١) انظر: عثمان بن عفان، للصلابي، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ الدولة الأموية، للعش، ص٧٧.

قِسطاً حقيقيّاً من التربية الإســلامية كما تربَّى المهاجرون والأنصار في مكة والمدينة، ولا كان في طَوْق كل المربِّين في الأمة الإســلامية أن يربُّوهم في تلك السنوات القليلة ليصبحوا على المستوى المطلوب للمجتمع المسلم)[١].

رابعاً ـ التغيرات الاجتماعية وتنوع أمشاج المجتمع وتمازج الأعراق:

وكان من نتيجة الفتوحات الواســعة والســريعة؛ اختــلاطُ أهالي البلاد المفتوحة وتمازجُهم مع الفاتحيــن والقبائل المهاجرة من جيوش الفتح. فلو اســتقرأنا ـ مثلاً ـ نزلاءَ الكوفة، لوجدنا الامتزاجَ واضحاً جلياً، فإلى جانب قبائل من الشــمال توجد قبائل من الجنوب، ونلحظ قبائلَ من ربيعة وقبائل من مُضَر، وقبائل من الحجاز وأخرى من نجد، وهكذا...[٢].

أضف إلى ذلك تمازجَها مع الشــعوب غير العربية مــن الفرس والروم والترك والبربر وغيرهم، ممن دخلوا في الإسلام وصُهروا جميعاً في بوتقته، لكن لم تُصهر أنفســهم وقلوبهــم وأفكارهم بمثل مــا كان عليه المهاجرون والأنصار والأجيال الأولى ممن قامت على ســواعدهم دولة الإســلام، ولم يتمازجوا في كتلة واحدة منســجمة كتلك التي شــكلت مجتمع المدينة في العهد النبوي وامتد زَخَمُهــا إلى عهد أبي بكر وعمر، ثــم أصبحت دائرتها صغيرة مقايســة بالدائرة الكبرى التــي كونت المجتمع المســلم الكبير في عهدَيْ عمر وعثمان، والذي تكوَّن من أمشــاج العناصر والأجناس، والأفكار والمذاهب، والأخلاق والطبائع، والغنى والفقر، والطموح والزهادة، والرضا والســخط، والهدوء والثورة. وانضوى تحت لواء الإسلام أممٌ وبلاد مختلفة الأجنــاس واللغــات، متباينــة الأخــلاق والعــادات، متعــددة المشــارب

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص١٠٩.

(٢) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، لشكري فيصل، ص٣٧؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٤/٤٥.

والمعتقدات، وامتزجَتْ أخلاق بأخلاق، وعادات بعـادات، وأفكار بأفكار، ودماء بدماء، وألوان بألوان[١]!.

ويشـير الوالـي العبقري سـعيد بن العـاص إلى نمط مـن التحولات الاجتماعيـة في الكوفة، فيكتب إلـى عثمان: (إن أهـل الكوفة قد اضطرب أمرُهم، وغُلب أهلُ الشرف منهم والبُيوتات والسابقة والقُدْمة، والغالبُ على تلك البلاد روادِفُ رَدِفَـتْ، وأعرابٌ لَحِقَتْ، حتى ما يُـنظر إلى ذي شـرف ولا بلاء من نازِلَتِها ولا نابِتَتِها)[٢].

في هذا المجتمع المتسـع المتنوع (الفُسَيفسـائي التركيب)، نشـأ جيل (المُسَـيَّرين)[٣] الذين وصفهـم معاوية بن أبي سـفيان في كتابـه إلى أمير المؤمنين عثمـان بقوله: (إنه قدِمَ علَيَّ أقوامٌ ليسـت لهـم عقول ولا أديان، أَثقَلَهم الإسـلام، وأَضْجَرَهم العـدلُ، لا يريدون الله بشـيء، ولا يتكلمون بحجَّة، إنما همُّهم الفتنة وأمـوال أهل الذمة، والله مبتليهـم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم)[٤].

ومن ملامح التحولات الاجتماعية في المجتمع: وجود (جيل السَّـبْي)، الذي يكوِّن أحد أنسـجة المجتمع، والذي لم تترقَّ نفسُـه إلـى أفق معاني الإسلام الرفيعة، وتعلَّمَ القرآنَ لا رغبة فيه بل طمعاً في الجُعْلِ الذي جعله له الخليفة تشجيعاً وتأليفاً أو منحة وعطاء.

وأيضاً: ذاك (النَّشْءُ من البطَّالين) الذين تفرغوا للجدل والمُلاحاة والقيل والقال، وتلقفِ الأراجيف والشائعات ثم تضخيمها ونشرها بين الرَّعَاع، وهي

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٧٣، ٧٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٤ / ٢٧٩. الروادف: أتباع القوم المؤخَّرون.

(٣) سيأتي الحديث عنهم: ص١٤٠ في هذا الكتاب.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٢١/٤.

تتناول هذا الوالي أو ذاكَ القائد الفاتح وربما أمير المؤمنين! مما أَسْهَم في تشكيل تيار لعبتْ به الفتنة ولعب بها.

كذلك من مكونات المجتمع التي أثَّرت في تحولاته ولعبت دوراً خطيراً في أحداث الفتنة: أولئك (الأعراب ونُزَّاع القبائل المشرَّدون)، وقد حذّر أمير المؤمنين عثمان منهم ومن (جيل السبي)؛ في أول كتبه التي وجهها إلى عامة المسلمين[١].

وقد ظهرت خطورة (الأعراب والمشردين) بأنهم كانوا في الفتنة كالبعير المَخْشُوش يتبع قائدَه، فيكفي أن تُشعل الفتنة بمشعل، ويكفي أن يُحرَّك هؤلاء الأعراب، وأن تُجمع كلمتهم، وأن يُوجَّهوا توجيهاً؛ فإذا هم يثورون ويأكلون الأخضر واليابس[٢]!.

خامساً ـ الرخاء المادي والتوسع من الدنيا والتنافس عليها:

ومن نتائج الفتوحات كثرةُ الأموال بين أيدي الناس من الجزية والخَراج والعشور والغنائم والأسلاب وغيرها، وفُتحت أبواب الدنيا على الناس، فتغالَب عليها قطاع كبير منهم، وجمعوا الأموال، وغرسوا الحدائق، وأكثروا من الإماء والعبيد، واتخذوا الضِّياع، وهجر كثيرٌ منهم حياة الزهادة والتقشف، وأَلِفَتْ أنفسُهم الدَّعَة والرَّفَه.

وقد صوَّر الحسن البصري ذلك النعيم والاسترخاء الذي ظهر في المجتمع بأن الأَعطيات جارية، والأرزاق دارَّة، حتى كان يُنادى في الناس بأن يأخذوا الأكسية والحُلَل، والسَّمْن والعسل[٣]!.

(١) انظر ما تقدم: ص٦٨ في هذا الكتاب.

(٢) الدولة الأموية، للعش، ص٧٨.

(٣) انظر كتابي «عثمان بن عفان» ص٣٠٥.

ولم تمضِ سنة من خلافة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش ضِياعاً في الأمصار، وانقطع إليهم الناس، وقد كان عمر بن الخطاب حَجَر عليهم الخروج في البلدانِ إلا بإذن وأجَل. فلما تولى عثمان وسَّع لهم فتوسعوا واتسعوا، وشَبَّ بين أصحاب النبي ﷺ جيلٌ جديد لم يأخذ نفسه بأدب الإسلام في فَهم قيمة الدنيا والأموال وطرائق إنفاقها في الوجوه التي أذِنَ الله تعالى بالإنفاق فيها؛ فأدى ذلك بهؤلاء إلى التكالب والمكايدة، وقذف بهم في جحيم الفتنة فخاضوها مع الخائضين[١].

وقد نبَّه أمير المؤمنين عثمان على ذلك المزلق الخطر غداةَ استقباله الخلافة، فيما كتبه إلى العامة فقال: (فلا تَلفِتنَّكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النِّعم...)[٢]. ووقع الناس فيما حذَّرهم عثمان منه، فاكتوى الجميع بجريرته، وهذا ما كتب به عثمان إلى بعض أمرائه وقادة جنده، يأمره بأن يراعي في جهاده وإقدامه ظروفَ الناس الذين معه، وأن حالهم ليس كرجال الطبقات العليا من المجاهدين الذين أضاؤوا شعلة الفتوحات الأولى؛ فكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ـ وهو على الباب (على بحر قزوين) ـ: (إن الرعية قد أبطَر كثيراً منهم البِطْنة، فقصِّر، ولا تقتحم بالمسلمين، فإني خاشٍ أن يُبتلوا!)[٣].

فالأعراب الجُفاة الذين انساحوا في الأرض مع جيوش الفتح قد مُلِئت أيديهم بالدنيا والغنائم، والفقراء الذين استغنوا من الديوان والأَعْطيات والهبات، وأولئك الأرقاء من عُبدان وإماء من الأجناس المختلفة الذين

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٦/٤ ـ ٣٩٧؛ عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) تقدم: ص٦٨ في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٠٤/٤.

امتزجوا بالعرب وخدموا الأشراف وعاشوا في النعيم، وكذلك المشرَّدون ونُزاع القبائل ممن نالهم خيرُ الدولة وسخاءُ الخليفة... كل أولئك لم يفقهوا وظائفَ المال وطرائقَ إنفاقه الصحيحة، وهم قد شكلوا نسيجاً في المجتمع أسهم بدور واضح في التغيرات التي استجدَّت في المجتمع خلال عهد عثمان.

سادساً ـ اندماج المرتدين في المجتمع واستعمالهم:

كان من هدي أبي بكر، وهو الذي حارب المرتدين وقهرهم، أنه لم يستعن في جهاده وفتوحاته بأحد منهم حتى مات. وعندما جاء عمر سلك سبيل الصديق في التضييق عليهم، لكنه استعملهم في الحروب ولم يُطْمِعْهم بالولاية والرئاسة والقيادة. وفي خلافة عثمان رأى أن عامل الزمن قد عفَى على تلك الحركة، وأن صلاح بعض المرتدين كافٍ لأن يندمجوا في المجتمع؛ فاستعمل المرتدين استصلاحاً لهم[1].

ونحن نسجل للتاريخ أن طائفة كبيرة من المرتدين قد حَسُن إسلامهم وصَلُحت أحوالهم، لكن ذلك لا يعني أن جمهورهم كان كذلك، فلقد أكَّدت مجريات الأحداث في السنين الأخيرة من خلافة عثمان أن عناصر من قبائل كانت قد ارتدت عن الإسلام، قد شاركت في قتله ﵁! من أمثال سُودان بن حُمْران السَّكُوني وقُتيرة السَّكوني من قبيلة (السَّكُون) من مرتدة حضرموت، والأشتر النَّخَعي من رؤوس الفتنة ومساعِرها، وهو من (النَّخَع) والنخع من (مَذْحِج) من القبائل المرتدة وعليها الأَسْود العَنْسي[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٥، ١٥٨؛ عبد الله بن سبأ، ص٣٥.

(٢) عبد الله بن سبأ، ص٣٥ ـ ٣٦.

سابعاً ـ عروق الجاهلية تنبض في مسلمة الفتوحات:

يلخص ابن خلدون ذلك بكلام جيد فيقول: (لما استُكمِل الفتح، واستكمل للملَّة المُلك، ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحبة الرسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه: المهاجرين والأنصار وقريشاً وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب: من بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأَزْد وكِنْدة وتميم وقُضَاعة وغيرهم؛ فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم في الفتوحات قدمٌ، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ـ من الصحابة ـ ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة، وتردُّدِ الوحي، وتنزُّل الملائكة. فلما انحسر ذلك العُباب، وتُنوسِي الحال بعض الشيء، وذلَّ العدو، واستفحل المُلك؛ كانت عروق الجاهلية تنبِض، ووجدوا الرياسة عليهم من المهاجرين والأنصار وقريش وسواهم؛ فأَنِفَتْ نفوسهم منه! ووافق ذلك أيامَ عثمان، فكانوا يُظهرون الطعنَ في ولاته بالأمصار، والمؤاخذةَ لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتجنِّي بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويُفيضون في النكير على عثمان، وفَشَت المقالة في ذلك في أتباعهم)(١).

ثامناً ـ الطامحون للزعامة والولاية:

بينما كان الجيل الأول من الصحابة يخافون من الإمارة ويهربون منها لعِظَم الأمانة والمسؤولية المناطة بها، نشأ جيلٌ يطمح للزعامة ويسعى إليها ويقاتل عليها، وكان الخلفاء يؤخِّرونهم عنها. ومن الأمثلة على ذلك

(١) تاريخ ابن خلدون: ٢/٤٧٧.

محمد بن أبي حذيفة وقد طلب الولاية من عثمان، فأنَّبَه وقال له: لو كنتَ رِضاً ثم سألتَني العملَ لاستعملتُك، ولكن لستَ هناك[١]! وبقي يسعى لذلك حتى نزا على حكم مصر في غياب واليها عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح.

بل نشأ جيل ممن لا قَدَمَ له في الإسلام، ولا سابقة في فضل، ولا مكانة من شرف قومه، ينشر الأراجيف ويسعى للفتن ويؤلِّب على الولاة ويطعن عليهم ويطلب عزلهم؛ لتخلُص إليه الإمارة. وتمثل ذلك بتلك الطائفة الذين عُرِفوا (بالمُسَيَّرين)، والذين واجههم والي الشام معاوية فقال واعظاً ومرغِّباً ومرهِّباً: (إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة، فلا تَشِذُّوا عن جُنَّتِكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجَوْر، ويَحتملون منكم المؤونة، والله لَتَنتهُنَّ أو لَيبتلينَّكم الله بمن يَسُومكم، ثم لا يَحمدكم على الصبر!)، فقال رجل من القوم: (أمَّا ما ذكرتَ من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخترِقتْ خُلِصَ إلينا!)[٢].

فقد أفصحوا عما في أنفسهم من طموح للولاية وسعي إليها، ولو كان في ذلك التضحية بمصير الأمة والدين والبلاد.

تاسعاً ـ الأهواء وإشعال الفتن وتهييج الرَّعَاع:

ونتيجة اختلاط الأجناس والأعراق والأفكار والعادات والتقاليد والمذاهب، وأوكار المنحرفين الذين أُقيمت عليهم الحدود فضَجِروا بها، والموتورين والحاقدين، والمهزومين الذين ألقَوا سلاحَ المقاومة صاغرين وأظهروا الإسلام راغمين غير مخلصين ـ فتجمع من ذلك الخليط شراذم لم يمتزجوا بالنسيج الإسلامي العام حق الامتزاج، ولا أخلصوا للدين الذي

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٩/٤.

(٢) المرجع السابق: ٣١٩/٤. الجُنَّة: الوقاية والحماية.

طواهم تحت عدالته، بل لجؤوا للمهاجمة من الداخل بأساليب شتى، وشعارهم الأبرز وصية عبدالله بن سبأ اليهودي(١).

فأخذوا يُلقون الأراجيفَ ويُشيعون الأكاذيب على الولاة والقادة ثم على أمير المؤمنين عثمان، وافتروا عليهم أنهم قصَّروا في القيام بأمور الولاية، وخانوا الأمانة، وظلموا الرعية، وتعدَّوا الحدود، وركبوا الخطايا، ومَدُّوا أيديهم إلى مال الأمة! وسعوا إلى عزلهم، وتحقق لهم ذلك في مرات عديدة، وحرَّضوا على الخروج عليهم وقادوا الرَّعَاع في هذا، وزوَّروا كتباً على ألسنة كبار الصحابة وأمهات المؤمنين.

وهيَّجوا جماعات من الجهلة والحمقى والمشردين وأصحاب الهوى والمطامع الدنيئة، وأخذوا يشيعون بينهم هذا وذاك من الافتراءات، حتى انتقلت إلى الأمصار، وترامت إلى الناس الأخبار الكاذبة والمُلفَّقة، فَتَلَقَّفَتْها الآذانُ، وتناقلَتْها الألسنة، وعَمِلَت الدعاية عملها، وفشتْ قالةُ السوءِ في حق ولاة الأمصار، حتى وصلوا إلى الخليفة وطعنوا عليه ورموه بالعجز والضعف وعدم العلم بما يجري وأنه لا يتحكم بأمر الأمة والولاة، حتى وصلوا إلى الخروج عليه والمطالبة بخلعه ثم قتله!.

عاشراً ـ بذور الفرق والبدع:

وفي عهد عثمان بدأ ظهور الفِرق والبدع التي مزَّقت وحدة المسلمين ؛ وأخطر تلك البدع (بدعة التشيع) التي تُظهر الحب للآل من بيت النبوة، وتُضمِر الكيد لأهل الإسلام، وتعلن الوفاء للإمام، وتُبطِن الغدر بالإسلام، اتخذت من التشيع ستاراً لهدم هذا الدين المتين، فكايدته مكايدة ماكرة

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤١/٤. وسيأتي الحديث عن ابن سبأ وأعماله.

خبيثة، وتربصت به الدوائر حتى إذا لَمَعَتْ لها بارقةُ الخلاف بين المسلمين في خلافة عثمان رضي الله عنه؛ هبت واثبة إلى مكان القيادة تسوق الناس بعصا الفتنة العمياء، وتَهمِزُهم إذا فَتُروا بِمِهْمز المكر والدهاء، والتشيعُ الخالص المخلص من نزعها براءٌ!.

وكان رأس هذا اللون المُعْتِم من التشيع ذلك الرجل اليَهودي الخبيث عبدالله بن سبأ(١) الملقب بابن السوداء، من يهود اليمن، الذي أَحْدَث القولَ بوصية رسول الله ﷺ لعليٍّ بالخلافة من بعده، فهو وصيُّ رسول الله ﷺ وخليفتُه على أمته من بعده بالنصِّ، وأَحْدَث القولَ برجعة علي بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضاً.

وفي أعطاف هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي حَبَا (مذهبُ الخوارج) من مهده حتى نما واشتد في عهد علي رضي الله عنه، والخوارج فرقة تمتد جذورها إلى عهد النبي ﷺ(٢).

ومن متقدمي الخوارج الذين اشتركوا في إشعال نار الفتنة العثمانية (ابن الكَوّاء)، الذي خرج في جماعة من أهل الكوفة على عثمان، وكوَّنَ مع آخرين (جماعة المُسَيَّرين) الذين كانوا من مساعِر الفتنة، وكانوا ممن تولى كِبْرَها، وذكّوا نارها وغمسوا أيديهم في دمائها، وهم يرون التبري من عثمان رضي الله عنه أصلاً لمذهبهم!.

•• هذا فيما نحسب مجمل لأبرز المتغيرات والمستجِدّات التي طرأت على المجتمع الإسلامي في عهد عثمان، ونَشِبت أظفارَها في جسم الأمة،

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٣٠ ـ ٣١، وسيأتي كلام مفصل عن ابن سبأ ودوره الخبيث.

(٢) انظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ١١٤/٢ ـ ١٤١.

وأدَّت إلى زلزال خطير انتهى باستشــهاد ذي النورين ثم علي رضي الله عنهما، وأَحدثَتْ تصدعات ضخمة وغائرة في بنيان الدولة الإسلامية!.

ولقد أَخبر النبــي ﷺ بوقوعِ هذا الحدث المروِّع، ودلَّ المســلمين على السبيل الذي يستمسكون به إذا ما دَهَمهم، وهذا ما نبحثه في الفصل التالي.



الفصل الثاني

إخبار النبي ﷺ بالفتنة زمن عثمان وأن عثمان على الهدى وأنه يُقتل مظلوماً

كثُرت الأحاديث النبوية الصحيحة التي تخبر عن وقوع الفتنة الكبرى زمن عثمان، وتحثُّ المسلمين على أن يبايعوه ويناصروه؛ لأنه رضي الله عنه على الهدى وكذلك مَنْ بايعه وناصره، وأنه سيَقضي شهيداً سعيداً ويُقتل مظلوماً، وأن مختلِقي الأكاذيب ومروِّجي الأباطيل سيخرجون عليه، ويَسْعَون إلى قتله فيتحقق لهم ذلك، وتكشف الأحاديث نواياهم وتفضح سرائرهم؛ فَهُم كَذَبة مجرمون منافقون لا يريدون بعملهم وجه الله ولا صالح الأمة والدين.

أولاً: عن مُرَّة البَهْزِيِّ قال: (بينما نحن مع رسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة، قال: «**كيف تصنعون في فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صَيَاصِي البقر؟**» قالوا: نصنعُ ماذا يا نبيَّ الله؟ قال: «**عليكم بهذا وأصحابه**». قال: فأسرعتُ حتى عَطَفْتُ إلى الرجل، قلتُ: هذا يا نبي الله؟ قال: «**هذا**». فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله عنه)[1].

ـ وعن عبدالله بن حَوَالة الأَزْدِيِّ قال: (قال رسول الله ﷺ: «**يا ابنَ حَوَالَة، كيف تفعل في فتنة تخرج في أطراف الأرض كأنها صَيَاصِي بقر؟**» قلت:

---

(١) أخرجه أحمد: (٢٠٣٥٣) و(٢٠٣٧٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٩٦) ؛ وابن حبان (٦٩١٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط ؛ وجوَّد الألباني إسناده في الصحيحة (٣١١٨).

لا أدري، ما خارَ الله لي ورسولُه. قال: «**وكيف تفعل في أخرى تخرج بعدَها، كأن الأولى فيها انْتِفَاجَةُ أَرنَبٍ؟!**» قلت: لا أدري، ما خارَ الله لي ورسوله. قال: «**اتَّبِعوا هذا**». قال: ورجل مُقَفِّي حينئذٍ، قال: فانطلقتُ، فسَعَيْتُ وأخذتُ بمَنْكِبَيْه، فأقبلَتُ بوجهه إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: هذا؟ قال: «**نعم**». قال: وإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه).

زاد ابن أبي عاصم في روايته: «اتَّبِعْ هذا ؛ فإنه يومئذٍ ومَنِ اتَّبَعَه على الحق»[1].

ـ وعن موسى بن عُقبة قال: حدَّثني جَدِّي أبو أُمِّي أبو حَبيبة: (أنه دخل الدارَ وعثمانُ مُحصورٌ فيها، وأنه سمع أبا هريرة يَستأذِنُ عثمانَ في الكلام، فأُذِنَ له، فقام فَحمدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثم قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم تَلْقَوْنَ بعدي فتنةً واختلافاً**» أو قال: «**اختلافاً وفتنة**»، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «**عليكم بالأَمين وأصحابِه**»، وهو يُشير إلى عثمان بذلك)[2].

ـ وعن عوف بن مالك قال: (أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوكَ، وهو في قُبَّة من أَدَمٍ، فقال: «**اعْدُدْ سِتّاً بين يدي الساعة...**» الحديث، وفيه: «**ثم فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلا دخَلَتْه**»!)[3].

تشير هذه النبوءة إلى الفِتن التي ستقع في عهد أمير المؤمنين عثمان، وشبَّهَتْها الأحاديث بأنها مثلُ صَيَاصي البقر؛ أي قرونها،

---

(١) أخرجه أحمد: (١٧٠٠٤)؛ وابن أبي عاصم (١٢٩٤) ؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٣١١٨)، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: (٨٥٤١)؛ والحاكم: ٤٣٣/٤ ـ ٤٣٤، وصححه ووافقه الذهبي ؛ والألباني في الصحيحة (٣١١٨). وحسَّنه شعيب.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٧٦) ؛ وابن ماجه (٤٠٤٢)؛ وابن حبان (٦٦٧٥)، وغيرهم.

وشبَّـه الفتنة بها لشدَّتها وصعوبةِ الأمر فيها، وكل شيء امتُنِعَ به وتُحُصِّنَ به فهو صِيصِيَةٌ، ومنه قيل للحصون: صياصي. وقيل: شـبَّه الرماحَ التي تُشرع في الفتنة وما يشْـبهها من سـلاح بقرون بقرٍ مجتمعة. ويبدو أن الأمرين مقصودان!.

وجاء وصف الفتن بأنهـا تثور في أطراف الأرض، وفي حديث آخر بيَّن أنه لا يبقى بيت من العرب إلاَّ دخلَتْه؛ تنبيهاً على شمولها كثيراً من أقطار الإسـلام، واضطراب عامة البيوت بشـأنهـا. وهكـذا كان كمـا سيأتـي تفصيله.

ثانياً: وأوضحت الأحاديث النبوية المعالم الرئيسـة للفتنة، وكَشفتْ عن كثير من عناصرها، ورسَّـختْ حقائقها الكبرى؛ فصرَّح الرسول ﷺ بأن عثمان خليفة راشـد، وأن الله تعالى سيُلبسه سِرْبالَ الخلافة، وحَضَّ المسـلمين على مبايعته وملازمتـه ومناصرته، وفضَـح الخارجين عليه ووَصَمَهم بأنهم منافقـون ضَالُّون مجرمون يريـدون خلْعَه، وأَمرِ عثمانَ بالثبـات على مبدئـه والتمسـكِ بما أعطـاه الله من الخلافـة وبايعـه المسلمون عليها.

ـ عن عبد الله بن حَوَالة قال: (قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «**تَهْجُمونَ على رجلٍ مُعْتَجِرٍ ببُرْدَةٍ من أهل الجنة يُبايعُ الناسَ**». قال: فَهَجَمْنا على عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه مُعْتَجِراً ببُرْدَةٍ يُبايع الناسَ)(١).

ـ وعن أم المؤمنين عائشـة قالت: (قال رسـول الله ﷺ: «**يـا عثمانُ، إنَّ الله عز وجل عَسى أن يُلْبِسَـكَ قَميصاً، فإنْ أَرادَكَ المُنافِقونَ على خَلْعِه، فلا تَخْلَعْهُ**

(١) أخرجه الطيالسـي (١٢٥٠)؛ وابن أبي عاصـم (١٢٩٢)؛ والحاكـم: ٣/٩٨، وصححه ووافقه الذهبي ؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٣١١٨).

حتى تَلْقاني. يا عثمانُ، إن الله عسى أن يُلْبِسكَ قميصاً، فإنْ أَرادك المنافقون على خَلْعِه، فلا تخلَعْه حتى تلقاني»، ثلاثاً).

وفي رواية: «فإنْ أرادك المنافقون على أن تَخْلَعَهُ، فلا تَخْلَعْه لهم ولا كَرامةَ».

وفي رواية أخرى عن عائشة: أنها قالت: (فلما رأيتُ عثمانَ يَبذُل لهم ما سألُوه إلا خَلْعَهُ؛ علمتُ أنه من عَهْدِ رسول الله ﷺ الذي عَهِدَ إليه)[1].

أما بيعتُه بالخلافة فقد تحقق ذلك حيث اختاره المسلمون بالإجماع من بين الستة أصحاب الشورى.

وأما الخروج عليه ومحاصرتُه وحَمْلُه على أن يخلَعَ نفسَه من الخلافة؛ فقد تحقق في آخر أيام خلافته، وقد أَبَى ذلك عثمان أشدَّ الإباء وقال: (أَمَّا أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلَعَ سِرْبالاً سَربلنيه الله عز وجل). وسيأتي تفصيله.

ثالثاً: وخَتَمت الأحاديث الشريفة الكلامَ عن فصول الكارثة المروِّعة، بأن عثمان رضي الله عنه سيُقتل مظلوماً، وأن الخارجين عليه ظالمون قتلة مجرمون.

ـ عن عبدالله بن عُمر قال: (ذَكَرَ رسول الله ﷺ فتنةً، فمرَّ رجلٌ، فقال: «**يُقْتَلُ فيها هذا المُقَنَّعُ يومئذٍ مظلوماً**»! قال: فنظرتُ، فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله تعالى عنه)[2].

---

(١) أخرجه أحمد: (٢٤٤٦٦) و(٢٤٥٦٦)؛ والترمذي (٤٠٣٨) ؛ وابن ماجه (١١٢) ؛ وابن حبان (٦٩١٥) وغيرهم ؛ وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: (٥٩٥٣)؛ والترمذي (٤٠٤١) ؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٨ / ٦٠٩، شرح الحديث (٣٦٧٤). وقال شعيب: صحيح لغيره.

حقّاً لقد قُتل عثمان ظلماً، وكانت الخسـارة بمقتلـه فادحة، وارتكب القتلة مظالمَ كبرى وأفسـدوا في الأرضِ وانتهكوا كل الحرمات... وسيأتي تفصيل ذلك[1].



(١) وانظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٣٧/٢ ـ ٧٤.

الفصل الثالث

دراسة منهجية للفتنة ومروياتها ورواتها وما كُتِب فيها

أولاً ـ ركام من الروايات تتخللها خيوط الحقيقة:

في تاريخنا الإسلامي عامة ومرحلة الفتنة في عهدي عثمان وعلي خاصة ركام هائل من الأغلوطات والأخلوقات والأكاذيب والافتراءات والمجازفات ونتاجات الأهواء والفرق والمذاهب والبدع، خاصة إذا علمنا أن كثيراً من (نصوص التاريخ) قد دُوِّن بعد نشوء وانتشار كثير من الأهواء والبدع والمذاهب المعتدل منها والغالي... ولهذا وضع أئمتنا من المحدثين كتب الجرح والتعديل، وصنفوا في المجروحين والضعفاء والمتروكين والوضاعين.

واضطرب أمر (التاريخ والمؤرخين)، حيث استحكمت العصبية المذهبية، وطغت الأغراض السياسية، وضَعُف الوازع النفسي والخلقي، والتبست الحقائق بالأباطيل، ولوِّنت الحقائق بألوان الأساطير، وعمِّي التاريخ، واستسهلت طائفة من الرواة والمصنفين تدوينَ الأخبار الخرافية والساذجة والمتناقضة، واستخفَّت بعقول المعاصرين واللاحقين!.

والحقائق الناصعة خيوط لامعة وصُوًى مضيئة في خِضَمِّ هذا الظلام الدامس من أنقاض الروايات! لكن الحق وهو أعظم مظاهر الجلال الإلهي، لا يمكن أن تخفي أشعتَه سحائبُ الباطل مهما تراكمت. وإذا كان

التاريخ قد أُثقِل بأوزار الباطل، فإنه قد حمل بين معاطفه لمعاً من الحقائق تكفل للباحث البعيد عن المؤثرات الزمنية أو المذهبية أو الاجتماعية السلامةَ من التورط فيما تورط فيه من خضعوا لتلك المؤثرات في عصورها، أو من خُدعوا بالرواية عنهم من القصاصين ورواة السير وحوادث التاريخ عمن هبَّ ودَبّ، ومشى مع الناس، وعندئذٍ قد يُتاح له الوقوف على شيء من الوقائع الصحيحة[1].

ثانياً ـ المؤلفات في الفتن زمن عثمان وعلي، وتعريف بأشهر رواة أحداثها وأخبارها:

•• المصادر عن الفتنة والأخبار فيها كثيرة جدّاً تملأ المجلدات، ويُخيَّل للقارئ أنه يجد فيها تفاصيلَ الحادثة بدقائقها وتفاصيلها وأبطالها وتطورها ونزعاتها.

وكتب فيها المتقدمون ممن كانوا قريبي العهد بها، وكذلك المؤرخون أصحابُ المطوَّلات، والمعاصرون من المسلمين والمستشرقين وتلامذتهم من المستغربين. واشتمل ذلك على كتب مفرَدة، أو سردٍ مطوَّل ضمن موسوعات تاريخية.

ومن كتب فيها من المتقدمين: أبو مِخْنَف لوط بن يحيى، في كتبه: مقتل عثمان، مقتل علي، الجمل، صِفِّين. نَصْر بن مُزاحم، ومن كتبه: الجمل، وصِفين. سيف بن عُمر الضبي، في كتبه: الردَّة، الجمل. محمد بن عمر الواقدي، ومن كتبه: الردَّة والدار، الجمل، صفين. عمر بن شَبَّة، في كتبه: مقتل عثمان، تاريخ المدينة المنورة.

---

(١) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٦٧ ـ ١٦٨؛ عبدالله بن سبأ، للعودة، ص٧.

ومن كتب المطولات: تاريخ الطبري، تاريخ ابن عساكر، الكامل لابن الأثير، تاريخ الإسلام للذهبي، البداية والنهاية لابن كثير، تاريخ اليعقوبي، مروج الذهب للمسعودي... وغيرهم.

وقد جمعوا في كتبهم روايات محمد بن السائب الكلبي وأبي مخنف ونصر بن مزاحم والواقدي وسيف...

ويُلحق بذلك موارد كثيرة شهيرة من كتب الأدب وقصص السمر والحكايات العامية والكتب المنحولة والضعيفة، ونحوها، مثل: الأغاني للأصفهاني، البيان والتبيين للجاحظ، الكامل في الأدب للمبرد، الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، نهج البلاغة وشرحه لابن أبي الحديد وغيره.

ثالثاً ـ تعريف[1] برواة رووا (معظم أحداث الفتنة):

١ ـ محمد بن السائب الكَلْبيّ:

أخباري مفسر نسابة مشهور، متروك، ليس بثقة، متهم بالكذب، ورُمي بالرفض، وجاء عنه أنه (سَبَئِيّ) من أتباع عبدالله بن سبأ.

سئل الإمام أحمد عن «تفسير الكلبي»؟ فقال: كذبٌ، قيل له: يَحلُّ النظر فيه؟ قال: لا !.

٢ ـ محمد بن عمر الواقدي:

قال فيه الذهبي: أحد أوعية العلم على ضَعْفه المتَّفَق عليه. جمع فأوعى، وخَلَطَ الغثَّ بالسَّمين، والخَرَز بالدُّرِّ الثمين، فاطَّرَحوه لذلك، ومع هذا فلا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم... وقد

---

(١) ملخص من كتب التراجم والجرح والتعديل.

تقرر أن الواقدي ضعيف، يُحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثارَه من غير احتجاج.

ولخَّص ابن حجر القولَ فيه فقال: متروك ـ أي في الحديث ـ مع سعة علمه.

٣ ـ أبو مِخْنَف لوط بن يحيى:

أخباري تالف لا يوثَق به، وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحبُ أخبارهم.

٤ ـ نصر بن مزاحم الكوفي:

رافضيٌّ جَلْد، تركوه. قال أبو خيثمة: كان كذاباً. وقال أبو حاتم: واهي الحديث، متروك.

٥ ـ سيف بن عُمر الضَّبِّي:

قال يحيى بن معين وأبو زرعة الرازي والنسائي والدَّارَقُطْني: ضعيف الحديث. وقال أبو حاتم: متروك. وقال ابن حِبَّان: وكان يَضَع الحديث، وكان قد اتُّهم بالزندقة!.

هذا رأي الأئمة فيه في الحديث، وأما في التاريخ وهو غرضنا من الترجمة هنا؛ فقد قال فيه الذهبي: كان أخبارياً عارفاً، وقال ابن حجر: ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ.

وكلام ابن حِبَّان فيه مردود؛ فلم يتَّهمْه أحد بوضع الحديث، ولا يَصحُّ اتهامه بالزندقة فهو جرحٌ غيرمفسَّر، بل رواياته في الفتنة وعن سير الصحابة وأحوالهم تهدم هذا القولَ، وهي أبعدُ ما تكون عن الزندقة! وقد رد الحافظ

ابن حجر على ابن حبان قولَه، فقال في «تقريب التهذيب»: أَفحشَ ابنُ حبان القولَ فيه.

•• **وكثير جدّاً مما في روايات هؤلاء وكتبهم ومَن نقل عنهم مِن بعدهم؛ مرسَلات ومُعضَلات ومنقطعات، بل فيها الكثير من الكذب والباطل والمحال**[1]، مما يجب دراسته دراسة جادة نقدية سنداً ومتناً، وغربلته، وعدم الاستسلام له أو تزيينه وترويجه.

وهذا الكم الضخم من (التراث التاريخي) أصبح مورداً دسماً وسامّاً لكثير من الكتَّاب في هذا العصر، فاغترفوا من (رواياته المظلمة)، وقدموه للقراء بأسلوب رائق من التصنيف والتبويب، ونهل منه العامة والمثقفون، بل بات مصدراً سهلَ المُتناوَل لكثير من الكتب المدرسية التي درسناها نحن والأجيال التي جاءت من بعدنا، فتخرجت أفواج من المسلمين تعرف نُتفاً من الحقيقة وسط ركامٍ من أشلاء الأحداث الدامية التي تشوِّه ـ غالباً ـ الواقعَ الحقيقي لذلك الجيل من أسلافنا وتلك الحقبة من تاريخنا!.

(لقد كتب المعاصرون من الكتاب والمؤرخين عن (فتنة مقتل عثمان) الكثير، وذهبوا فيها مذاهب شتى، فوقفوا فيها مواقف مختلفة، كلٌّ يجدُ في الحوادث ما يؤيد قولَه ونزعاته، ويُسند رأيه واتجاهه: بين مؤيد لعثمان ومخالِف له، وبين شاكٍّ في موقفه ومدافع عنه، وبين طاعنٍ في الصحابة أنهم تخاذلوا عنه أو حرَّضوا عليه، ومدافع عنهم أنهم لم يقصِّروا نحوه حين دعت الحاجة. ومنهم من يجمع بين المتناقضات فيدافع تارة ويهاجم أخرى،

---

(١) وقد أشار الذهبي إلى نحو ذلك في سير أعلام النبلاء: ٩٢/١٠، مع أنه ـ سامحه الله ـ ينقل في كتابه هذا وفي «تاريخ الإسلام» أشياء كثيرة من هذا القبيل ويسكت عنها!.

يحاول أن يستنفد الأخبار، وأن يضع كلاً منها في موضعها، مع أنها متناقضة متضاربة لا يمكن أن تجتمع!)(١).

•• وثمة دراسات منهجية نقدية جادة ومفيدة هنا وهناك، لكنها قليلة، بيد أنها خطوة على الطريق في تقديم صورة صحيحة عن تلك الحقبة، وسليمة الوجهة والموقف من (خصوصية الصحابة) ومنزلتهم والاستغفار لهم، وعدم النَّيل منهم أو التعريض بهم أو التشكيك في دينهم وصدقهم وإخلاصهم.

ومن أمثلة ذلك: عثمان بن عفان للصادق عرجون، تعليقات محب الدين الخطيب على «العواصم من القواصم» و«المنتقى من منهاج الاعتدال» وكتابه «مع الرعيل الأول»، عبدالله بن سبأ لسليمان العودة، تحقيق مواقف الصحابة لمحمد أمحزون، واستشهاد عثمان لخالد بن محمد الغيث، الولاية على البلدان لعبد العزيز العمري، عصر الخلافة الراشدة لأكرم العمري، الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف لحامد محمد الخليفة، الدولة الأموية ليوسف العش.

وأرجو أن تكون كتبي عن الصحابة عامة (والخلفاء الراشدين) خاصة؛ لَبِنةً في هذا الميدان، وخالصة لوجه الله تعالى.

رابعاً ـ عيوب كتب التاريخ وأخطاء المؤرخين:

ليس في التاريخ الإسلامي مرحلة أشدَّ تعقيداً، ولا أعظم غموضاً، ولا أكثر التواء؛ من المرحلة التي تبدأ باستشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما، وتنتهي بتسليم الحسن بن علي أمرَ الخلافة إلى معاوية رضي الله عنهما.

(١) الدولة الأموية، ليوسف العش، ص٣٢.

فهذه المرحلة قد التَبَسَ على الناس فهمُها، وتشابهت حوادثها على العقول والأفكار، وكانت غامضة أشد الغموض، فالتاريخ إذا حدَّثَك في موضوع برواية سَرْعان ما ينقضها برواية أخرى في الموضوع نفسه، وهو إذا وقف بك على سبب حادث من الأحداث استدرك عليه بسبب آخر يهدمه! وفي حالات كثيرة فإن الناظر في هذا التاريخ إذا قرأ في موضوع من الموضوعات، فإنه لا يخرج منه بنتيجة واحدة لمقدمات واحدة في الموضوع الواحد، ولكنه سيخرج من الموضوع الواحد بنتائج مختلفة لمقدمات مختلفة بروايات مختلفة(١)!.

ومن هنا تأتي أهمية غربلة الروايات، ونقدها سنداً ومتناً، ومقابلتها بالركائز الأساسية لحياة الصحابة وسيرهم وأخلاقهم وتربيتهم.

وإن من حقِّ العلم والبحث عن الحقيقة، كما أنه من حق أجيال المسلمين علينا؛ أن نجهر بالقول بأن كتب التاريخ الإسلامي قد أساءت كثيراً إلى تلك الحقبة وإلى رجالها، وأن مؤرِّخينا قد أخطؤوا قليلاً أو كثيراً أيضاً؛ عندما سوَّدوا وجْهَ (كتب التاريخ) بروايات باطلة تافهة مكذوبة، نقلوها عن رواة كذابين أو متروكين أو وضّاعين أو مبتدعة حانقين، في حق صحابة أجلَّاء عظماء هم في أرفع مراتب النُّبل والطُّهر والصدق والإخلاص والعقل والعلم!.

أين تزكيةُ القرآن للصحابة وثناؤه عليهم في آيات كثيرة ورضوان الله عليهم في مواقف عدة؟! وأين الثناءُ النبوي العريض عليهم عامة وخاصة من السابقين واللاحقين، ونهيُه الشديد وتحذيرُه الصريح من الطعن عليهم أو معاداتهم؟! ثم أين ما اشتهر عنهم وذاع من المُثُل العليا والأخلاق الرفيعة والسيرة الحميدة والأعمال المجيدة؟!.

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٩ ـ ١٠.

أين كل هذا من روايات تتهمهم بالخيانة والكذب والغدر والجبن والتآمر والكيد والتباغض والسرقة والأثرة والنذالة... حتى جعلت تلك الروايات عبداً حقوداً كأبي لؤلؤة مقوِّماً لعدالة عمر! وأَظهرتْ ابنَ سبأ والسبئيين أنهم دعاةُ إصلاح وتقويم لمنهج عثمان! وروَّجَتْ للأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلة والغافِقي بن حرب وأمثالهم أنهم طُلابُ حق وإقامة للشعائر، وهم الذين زحفوا إلى المدينة في هيئة الحجاج ثم حاصروا الخليفة وقتلوه! .

تأمل مثلاً هذه الروايات في (تاريخ الطبري):

ـ عثمان يهدم بيوت الناس ليوسِّع المسجد الحرام، ويضع أثمانَ بيوتهم في بيت المال.

ـ ويعطي أقاربه (آل الحَكَم) (٣٠٠ قنطار ذهب!) هي ما صالح عليه أهل إفريقية.

ـ عثمان يطعن في عمرو بن العاص، ويستطيل عليه، فيردّ عليه عمرو بأن أباه أشرف من أبي عثمان.

ـ عثمان يرجو عليّاً أن يكلِّم (وفد المصريين) وقت الحصار، فيؤنِّبه علي لأنه لم يسمع نصيحته، بل رَكَن إلى أقاربه وعصى عليّاً.

ـ وأن عثمان بكى على المنبر وتاب وأعطى (الخارجين عليه) الرضا، وقد كلَّمه علي بكلام قبيح وصفه فيه بأنه دابَّة.

ـ وأن عليّاً ومحمد بن مَسْلَمة لامَا عثمان لأنه لم يفِ للخارجين عليه بما وعدهم به.

ـ وأن طلحة كان يؤلِّب على عثمان، وعثمان دعا عليه.

ـ وأن عائشة تحثّ ابنَ عباس على أن يدعو الناسَ لبيعة طلحة بعد مقتل عثمان[١].

فهل هذه صور حقيقية لأولئك الصحابة الذين رباهم النبي ﷺ، وائتمنهم على رسالته من بعده؟! وهل يُعذر مؤرِّخونا بسياق هذه الروايات دون نقدها، اعتماداً على مقولة (مَنْ أَسْنَدَ لك فقد أَحالَكَ)؟! وقد أصبحت هذه الروايات الساقطة (مادة إعلامية) لكثير من الشانئين وخاصة في عصرنا!.

•• وروايات ابن سعد عن شيخه الواقدي بشأن الفتنة، كلها تدين أمير المؤمنين عثمان، وهي بالنتيجة تبرئ الخارجين عليه!.

وابن عبد البر في «الاستيعاب» يسوق ـ مثلاً ـ في ترجمة الوالي المجاهد الوليد بن عقبة روايات كلها تجرحه وتطعن في تاريخه وتجرِّمه بالسُّكْر وأنه صلى بالناس مخموراً.

والذهبي ينقل كثيراً في «تاريخه» و«سير أعلام النبلاء» عن الواقدي والطبري وغيرهما، ويسلِّم لما يرويه في مواضع كثيرة جدّاً. ومن أقرب الأمثلة: أنه يتهم مروان بن الحكم بأنه خان عثمان وزَوَّر خاتمه، فأجْلَبوا بسببه على عثمان[٢].

وابن كثير أيضاً ينقل عن الطبري، فينقد أحياناً، ويُرسِل الروايات على عَوَاهنها أحياناً أخرى: فيُقِرّ رواية أن عمرو بن العاص يؤلِّب على عثمان، وأن عمار بن ياسر يتحامل على عثمان ويتآمر عليه، وأن مروان بن الحكم يتلاعب بعثمان، وأن عليّاً وصف عثمان بأنه مثل جمل الظعينة[٣]!.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٢٥١/٤، ٢٥٦، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٣ ـ ٣٦٤، ٣٦٩ ـ ٣٧١، ٣٧٢ ـ ٣٧٥، ٣٧٩، ٤٠٧، على الترتيب.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٧٧/٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٧٠/٧، ١٧١، ١٧٣.

خامساً ـ التمحيص والنقد:

•• فلا بد من المعرفة التامة بتاريخ تلك الحقبة، وأخلاق رجالها وشمائلهم وأعمالهم ومنزلتهم، وأثرِ القرآن الذي لا يزال غضّاً في تربية أتباعه في صدر الإسلام وتزكية أرواحهم، وتوجيه تصرفاتهم وأعمالهم، وثقافتهم العامة التي يهيمن عليها الوازع الديني الأخلاقي لا المآرب الشخصية والدوافع المادية الدنيوية.

ولا يُقبل البتَّة أي خبر يطعن في عدالة الصحابة وتنزُّهِهم عن الطمع والغدر والخديعة والفسق والظلم والاستبداد وأكل الأموال بالباطل وكل ما هو من الفسق وخوارم المروءة[١].

•• كما يتوجب على الباحث الخبرةُ الشاملة بالراوي والمرويِّ، وفحصُ الأخبار ومقارنتها ببعضها، ونقدُ السند والمتن، وغربلةُ الروايات واستخلاص الحقائق من أضابيرها ونفي غَلَس الأساطير والأكاذيب عنها؛ فنأخذ بالصحيح والحسن والقريب منه، ولا بأس بأخذ الضعيف الذي يَسدُّ فراغاً ويملأ ثغرة ويفك لُغزاً ويشرح غامضاً، ما دام ذلك متفقاً مع الروح التي تسود ذلك المجتمع والسلوك الذي اشتهر به أهله، وصانعو أحداثه. (ومرحى للنقد النزيه مصوغاً في نمط أهل الأدب من الباحثين، وليس أحد ـ حاشا النبيين ـ بمعصوم)[٢].

وليس من طرائق أهل الحق ولا من سبيل ذوي الإنصاف والنقد النزيه، ما يعمد إليه كثير من المستشرقين ومن تابعهم من بني جلدتنا؛ الذين يَحكُمون على الإسلام وتاريخه معتمدين على قيمهم ومقاييسهم

---

(١) منهج دراسة التاريخ الإسلامي، ص٨٦.

(٢) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٩.

الثقافيــة وبيئتهم التي نشــؤوا فيها والظروف التــي عاصروها والرجال الذين قادوا دَفَّة السياســة في دولتهم، بدلاً مــن الاعتماد على المصادر التاريخية الأصيلة مع كتب الحديث الصحيحــة، والأخذ بالاعتبار قيم الإســلام ومبادئه، وأعراف المجتمع الذي وقعت فيه الأحداث وســير الرجال الذيــن كانوا محــور تلك الأحــداث، والظــروف الاجتماعية والسياسية والنفسية التي جرت فيها وشاركت في صناعتها تيارات شتى وتوجهات متباينة متعاندة[1].

•• ومــن خيانة العلــم والتنكر للأمــة وتاريخها والحَيْف على سَــلَفها الكريم؛ ما يقوم بــه بعض (الكتَّاب) الذين ينتقون الأخبار حســب ميولهم، ويأخذون الروايات الضعيفة والواهية والباطلة التي تخدم ميولهم ومذاهبهم، ويكتفون بالإشــارة إلى أنها عن الواقدي أو الطبري أو المسعودي. أو أولئك الذين يسوقون الأخبار بغَثِّها وسَــمينها، مكتفين بالعزو إلى بعض مصادرها مما أوردنا قائمة ببعضها. ثم يبني هــذا الفريق وذاك على تلك الأخبار بنياناً من الآثام والافتراءات التي تشــوه العصر الراشدي الذي هو (العصر الذهبي للإســلام) بعد عصر النبوة، والذي تحققت فيه (عالمية الإسلام) على يدي رجاله من خلال الفتوحات العظيمة المباركة.

وإذا كان التحري في نقــل الأخبار والتمحيص فــي قبولها والتثبت من مصداقية رواتها ونزاهتهم؛ واجباً بصورة عامة ولــكل جيل، فهو آكَدُ وجوباً بحق جيل الصحابة وعصر الراشــدين، التزاماً بهــدي القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

---

(١) انظر: منهج دراسة التاريخ الإسلامي، ص٨٦، ٩٥ ـ ٩٧؛ الدولة الأموية، للعش، ص٣٣.

سادساً ـ تقييم للرواة الثلاثة (لوط بن يحيى، الواقدي، سيف بن عمر) ورواياتهم:

من خلال ما قدمناه من أقوال أئمة الجرح والتعديل في أشهر رواة (أخبار الفتنة)، لاحظنا تضعيفَهم لهم جميعاً من حيث الصنعةُ الحديثيةُ، لكن أقوال المحدِّثين في (المؤرخين) يجب أن لا تُعتبر حكماً قاطعاً عليهم، وأن لا تُجعل ميزاناً نهائيّاً في التاريخ؛ لأن المحدثين إنما حكموا عليهم باعتبار (قبول الأحاديث)، ومن المعروف أن أئمتنا يتشددون في هذا الباب لأنه يتعلق بالعقائد والأحكام والحلال والحرام، ولو أخذنا بهذا المنهج لَسَقَط الشطر الأكبر من المغازي والفتوح والتواريخ وتراجم الرجال[1].

ولقد وجدنا كبار النقاد من المحدثين يتساهلون في روايات فضائل الأعمال، بله المغازي والسير والتواريخ والفتوح.

وعلى هذا اعتمد المؤرخون ـ وفيهم جمهرة من جهابذة المحدِّثين ـ ميزاناً ثانياً في قبول الرواية التاريخية وهو: التساهلُ في رواية (الضعفاء في الحديث) عند روايتهم الأخبار والأحداث والفتوح والتواريخ والأنساب ونحوها، إذا كانت تلك المرويات تتسق مع منهج القرآن والسُّنَّة وسير الصحابة وأتباعهم من الأكابر، وما عُرف عنهم من الشمائل الحميدة والنُّبل والطهر والأعمال المجيدة والإخلاص والصدق والأمانة.

وهكذا وجدنا كبار المحدثين وجهابذة المؤرخين يسوقون روايات الواقدي وأبي مخنف وسيف والمدائني وأمثالهم، ويستشهدون برواياتهم ويعتمدونها في كثير من أحداث التاريخ والغزوات وأخبار الأمم والملوك

---

(١) انظر: منهج دراسة التاريخ الإسلامي، ص٥٠ ـ ٥٢؛ دراسات تاريخية، لأكرم العمري، ص٢٧.

والرجال، كما يفعل ذلك ابن تيمية والذهبي وابن كثير وابن حجر والسَّخَاوي وغيرهم. مع الاحتياط في هذا والتنبه إلى ما قدمناه من ردِّ أي رواية تَحطُّ على الصحابة أو تطعن في سِيَرهم، أو تتناقض مع الخطوط العريضة التي رسمها القرآن والسُّنَّة.

(يجب علينا إذن أن نجد أخباراً صحيحة عن الفتنة، نقيس عليها ما ورد عن الواقدي وأبي مخنف وسيف، فما اتفق معها مما أورده هؤلاء عَدَدْناه حَريّاً بالأخذ به، وما خالفها ألقيناه ونبذناه. وتلك طريقة ليست صالحة في الحديث فقط، بل هل مقبولة في التاريخ)[١].

ونتيجة استقراء واسع لمرويات (لوط بن يحيى والواقدي وسيف بن عمر) وجدنا:

•• أن أبا مِخْنَف لوط بن يحيى ـ وهو شيعي محترق صاحب هوى وبدعة ـ قد سَهُل عليه أن يُظهِر عثمانَ بمظهر الخليفة الذي كثُرت سقطاته فاستحقَّ ما جرى له، وأن يبيِّن أن طلحة بن عبيد الله من المؤلِّبين على عثمان والثائرين عليه، ويُؤْثِر أن يُظهِر عليَّ بن أبي طالب بمظهر مَن يعطف على عثمان ويدافع عنه مع غضبه من أفعاله وأقواله[٢]!.

•• ولا تقِلُّ روايات الواقدي سوءاً عن أخبار أبي مخنف، فهذا الطبري وقد روى (طامَّات) في تاريخه، نجده يتحامَى كثيراً من مرويات الواقدي، فيقول ـ مثلاً ـ: (وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسيرِ المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خُشُب أموراً كثيرة، ومنها ما قد تقدم ذِكْرُهُ، ومنها ما أَعرضْتُ عن ذِكْرِه كراهةً مني لبشاعته!)[٣].

---

(١) الدولة الأموية، للعش، ص٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٥٦/٤.

وإنك لترى الواقدي في رواياته يُكثِر التشنيعَ على عثمان، ولا يتورع عن إظهار الصحابة بمظهر المتآمرين على عثمان، ويخصّ بالذِّكْر منهم طلحة وعمرو بن العاص، ويُظهِر علي بن أبي طالب أنه مخالِف لعثمان حانقٌ منه[١].

•• وأما روايات سيف بن عمر فهي أمثل ما عند المؤرخين وأصفاها، وأكثرها سلامة على الصحابة، وأبعدها عن الطعن عليهم أو سوء الظن بهم.

ولقد نَهَجْتُ في قراءاتي وكتاباتي منهجاً أستوعب فيه ما جاء في كتب السُّنَّة عن الصحابة والفتن التي حدثت في عهدهم، واعتبرتُها الأصلَ والمحور فيما أكتب، ثم تواريخ وكتب تراجم الأئمة الثقات المتقدمين كخليفة بن خياط والفَسَوي وابن سعد والخطيب، وبعدها مطولات التاريخ والتراجم كالطبري وابن عساكر والبداية والنهاية وتاريخ الإسلام للذهبي وسير أعلام النبلاء له، ومعها تواريخ اليعقوبي والمسعودي وكتب الأدب ونحوها.

والذي تبيَّن لي أنه لا يصحُّ البتة وضْعُ (روايات سيف) مع روايات الواقدي وأبي مخنف ونصر بن مزاحم والكلبي في كفة واحدة؛ فلقد (سَبَرتُ روايات سيف واختبرتها) وقايستها بمنهج الصحابة وأخلاقهم في القرآن والسُّنَّة، وأعمالهم في عصر الرسالة وعهد الراشدين، ثم قارنتها بروايات الواقدي فمن دونه؛ **فوجدت روايات سيف نظيفة سليمة الصدر والنهج، تبرئ الصحابة، وتؤكد رفعة أخلاقهم، وتدين أصحابَ الأهواء والافتراء، فسيفُ بن عمر أبعدُ الناس عن (الزندقة)، بل إنه برواياته التفصيلية الجيدة هو الذي فَضَح الزندقة متمثِّلة برأسها ومخترِعها عبدِ الله بن سبأ! فما قيمة تلك الكلمة الجارحة التي أرسلها ابن حبان بلا دليل؟!.**

---

(١) انظر ما تقدم: ص٩٤ ـ ٩٥ حاشية (١) في هذا الكتاب؛ الدولة الأموية، للعش، ص٣٥.

وهذه النتيجة التي خرجتُ بها تتفق مع ما توصَّل إليه الدكتور يوسف العش، حيث يَنفي عن سيف (تهمةَ الزندقة)، ويقول: (إن روايته ـ للفتنة ـ بعيدةٌ كل البُعد عن أن تضَعَه موضعَ هذه التهمة، بل تبرئه منها؛ فموقفُه فيها موقفُ رجال السلف في احترامه للصحابة، وتنزيهه لهم عن فعل القبيح)[1].



(١) الدولة الأموية، ص٦٦.

الفصل الرابع

ما عَتَبَهُ الناسُ على عثمان
وما نَقَمَهُ المفترون المنافقون عليه
(تمحيصٌ وتحقيقٌ ونقدٌ)

أولاً ـ وقفات مهمة عند الحديث عن عثمان والفتنة التي انتهت بمقتله:

لعثمان رضي الله عنه من السوابق والفضائل والشمائل الحميدة والأعمال المجيدة والجهاد والعلم والنُّبل والسماحة والعدل والإنصاف والرأفة والرحمة... ما لا ينافسه فيه كثير من أكابر الصحابة بلْهَ عامتهم، دَعْ عنك الرَّعَاع المغموصين ممن روَّجوا الأكاذيب واخترعوا الأباطيل وانتهوا بالخروج عليه؛ فهؤلاء لا فضائل لهم ولا سوابق ولا أعمال حسنة ولا شرف محتد ولا نُبل مقصد، فكيف يكونون قوَّامين على عثمان وأعماله وعهده المبارك؟!.

ولقد نبَّه عثمان إلى هذه الحقيقة الكبرى بكلمة موجزة رواها عنه عبَّاد بن زاهر قال: سمعت عثمان يخطب فقال: (إنَّا والله قد صحبْنا رسولَ الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يَعُود مرضانا، ويَتْبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناساً يُعْلموني به عسى أن لا يكون أحدُهم رآه قطُّ!)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠٤)، وحسنه أحمد شاكر، وشعيب الأرنؤوط.

ويكشـف الصحابي العبقري حذيفة عن نوازع الشر والهوى التي طُويت عليها قلوبُ المفترين على عثمـان، فيقول:(اللهمَّ العَـنْ قَـتَلَة عثمان وغُزاةَ عثمان وشَنَأَة عثمان، اللهم إنَّا كنا نُعاتبه ويُعاتِبنا، متى ما كان مَنْ قبله يُعاتبنا ونعاتبه، فاتَّخَذوا ذلك سُلَّماً إلى الفتنة! اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف)[١].

ولقد شـهد الصادقون بأنه في عهد عثمان كان الإسـلام عزيـزاً منيعاً، والفتوحات في أَوْجِها، والناس قد غمرتْهم مشـاعر المحبة والإخاء والتوادّ، وهم في بُلَهْنِيَة من العيش والأمان، والخير كثير، والأرزاق دارَّة، وكلمة الحق عالية، وذات البين حسن.

يصوِّر ذلك شاهد عيان وهو الحسن البصري في كلمة بارعة فيقول:

(أدركتُ عثمانَ وأنا يومئذٍ قد راهَقْتُ الحُلُمَ، فسـمعتُه يخطب، وما من يوم إلا وهم يقتسـمون فيه خيراً، فيُقال لهم: يا معشرَ المسلمين، اغْدُوا على أَعْطياتِكم؛ فيأخذونها وافرةً. ثم يُـقال لهم: يا معشـر المسلمين، اغْدُوا على أرزاقكم[٢]، فيغدون فيأخذونها وافرةً. ثم يُـقال: يا معشـر المسـلمين، اغدوا على كُسْوَتكم؛ فيُجاء بالحُلَل تُقسَم بينهم.

قال الحسن: حتى والله سمعَتْه أُذُنايَ يقول: اغدوا على السَّمْن والعسل!.

قال الحسن: الأَعطيات جاريةٌ، والأرزاق دارَّة، والعدوُّ مَنْفِيٌّ، وذات البَيْن حسـنٌ، والخير كثير، ما على الأرض مؤمنٌ يَخاف مؤمناً، مَنْ لقِيه فهو أخوه مَن كان، أُلْفَتُه ونصيحتُه ومودَّتُه)[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٠٧/٤.

(٢) أي: رواتبكم، وهي غير العطاء.

(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٠٢٣/٣ ـ ١٠٢٤ ؛ الاسـتيعاب: ٧٣/٣ ـ ٧٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٦٣/١٦ ـ ١٦٤، وسنده صحيح.

والذين قَلَبوا الأمور رأساً على عَقِب، وأحالوا أمنَ الأمة وتوادَّها وصلاحها ورفعة كلمتها إلى الخوف والفوضى والتباغض وفساد ذات البَيْن وتوقف مسيرة الفتح والنصر... هم أولئك المجرمون المنحرفون الذين خرجوا على الخليفة، وجعلوا نهار المسلمين ظلاماً دامساً!.

ولسنا في هذا الفصل وغيره ندافع عن الخليفة الراشد ذي النورين، ومن العبث أن يَظن امرؤٌ يتلو ما اتُّهِم به عثمان؛ بأن الردَّ عليه من باب (دفع التهمة)، بل هو في الحقيقة إشارات إلى نوازع (أولئك السبئيين) الذين افتروا تلك الفِرى أو حرَّفوا بعض الوقائع واتهموا بها الخليفة. ثم بيان تهافت تلك التُّهم وتجلية وجه الحق فيها. وإلا فإن عثمان في سيرته وأخلاقه وأعماله منذ دخل الإسلام وإلى يوم استشهاده؛ هو كالمُزْن الذي يحمل الغيث إلى الأرض، طهارةً ونقاءً ورحمةً ونفعاً عامّاً.

والذين عَتَبوا على أمير المؤمنين عثمان أنه عزل بعض الصحابة وولَّى مَن هم دونهم في السابقة والفضل، أو انتقدوه في إقامة الحدود أو التعزير أو التأديب لبعض الرعية أو اجتهاده في بعض المسائل... فمن يقول ذلك ويطنطن به إنما هو جاهل بمنزلة الخليفة وصلاحياته، أو مكابر، أو مبغض شانئ يريد الشر والفتنة.

فللإمام الحقُّ في العزل والتولية، وكذلك إقامة الحدود والتعزير والتأديب، بل هو من الواجب عليه لحفظ شعائر الإسلام وحماية الدولة واستئصال شأفة الشر والفساد والفتنة، وقد فعل ذلك من قبله أبو بكر وعمر، ومن بعده علي وغيره. ودِرَّةُ عمر مشهورة في التاريخ، وقد نالَتْ من بعض كبار الصحابة، فما عَتَبَ عليه أحد!.

وعثمان ﵁ إمـــام مجتهد معذور فيمـــا أَدَّبَهم عليه، وهـــو أيضاً إمام مأمـــور بتقويم رعيته، وكان أبعـــدَ عن الهوى وأولى بالعلـــم والعدل فيما أدبهم عليه(١).

ثانياً ـ أصحاب الأهواء المبغضون لعثمان الحانقون عليه قدماء:

•• من الأمـــور التي يتوجب تثبيتُهـــا والتنبه لها أن تلـــك المزاعم التي افتُريت على عثمان وعِيب عليه بسببها، لم يَدَّعِها عليه الصحابة ولا الخيِّرون من المسلمين ولا قبِلوها، فضلاً عن أن يطعنوا على عثمان بسببها.

إنما الذيـــن افتروهـــا واخترعوهـــا واتهموا عثمـــان بها هـــم طائفة من المغموصيـــن والموتورين والمحدوديـــن وأصحاب الأهـــواء والمطامع، ثم تلقَّفَها الســـبئيون وأتباعهم من الرَّعَاع وأذاعوها بين الناس للتستر وراءها في خروجهـــم المبيَّت علـــى الخليفة بهدف عزلـــه أو قتله؛ فقد جـــاء في رواية سيف بن عمر: (قالوا: نريد أن نذكر له أشـــياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم أنا قرَّرْنَاه بها، فلم يخرج منها ولم يتبْ...)(٢).

ولقد أشار شاعر رسول الله ﷺ كعب بن مالك الأنصاري بإيجاز رائع إلى كذب أولئك، فقال في مرثـيَّتِه لعثمان:

مـــا قاتَلُوهُ علـــى ذَنْـــبٍ أَلَمَّ بِهِ … إِلا الذي نَطَقُوا زُوراً ولم يَكُنِ(٣)

•• وأصحاب العقول القاصرة والأنفس المريضة والصدور الحَرِجة والمتنطعون موجودون في كل أمة، وللأســـف المُمِـــضّ أن يكون حظ

---

(١) انظر: الإمامة، لأبي نعيم الأصفهاني، ص٣١٥ ـ ٣١٧؛ منهاج السنة: ٦٧٠/٣ ـ ٦٧١، ٦٧٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٤٦/٤.

(٣) تهذيب الكمال: ٤٥٩/١٩.

أمتنا منهم غيرَ قليل، ثم هو مستمر مع مرور الأيام حتى زاد ووصل إلى زماننا.

وكان أعداء عثمان وشانئوه من هذا الصنف كثيرين، وقُدماء أيضاً يمثِّلون الجرثومة المُمْرِضة لأولئك الذين خرجوا عليه. ومبغضوه والحانقون عليه عابوه بأشياء فعلها في زمن النبي ﷺ، إحداها قد غُفرت له من الله تعالى بنصِّ كتابه، وباقيها مكارم وفضائل أحالها المفترون المتنطِّعون مثالبَ ومعايبَ!.

ويمثل هذا الصنف الأرعن ذاك الرجل القادم من مصر، وقد سأل عبدَ الله بنَ عمر عن عثمان، وهو يريد أن يُدِينه ببعض المعايب وهي: أنه فرَّ يوم أُحد، ولم يشهد غزوة بدر، ولا حضر بيعة الرِّضوان! فبيَّن له ابنُ عمر وجه الحق في ذلك وأَبْطَلَ حجَّتَه وأوضح له سوءَ فهمه.

عن عثمان بن مَوْهَب قال: (جاء رجلٌ من أهل مِصْر وحجَّ البيتَ، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القومُ؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخُ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عُمر. قال: يا ابنَ عمر، إني سائلُكَ عن شيء فحدِّثْني: هل تعلمُ أن عثمانَ فرَّ يومَ أُحد؟ قال: نعم. فقال: تَعْلَمُ أنه تغيَّب عن بَدْر ولم يَشْهدْ؟ قال: نعم. قال: تعلمُ أنه تغيَّبَ عن بيعة الرِّضْوان فلم يَشْهَدْها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعالَ أُبيِّنْ لكَ: أمَّا فِرارُه يومَ أحدٍ فأشهدُ أن الله عفا عنه وغَفَر له. وأما تغيُّبُه عن بدر فإنه كانت تحته بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنَّ لكَ أجرَ رجلٍ ممَّن شهدَ بدراً وسَهْمَه**». وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثَه مكانه، فبَعث رسولُ الله ﷺ عثمانَ، وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: **هذه يدُ عثمان**، فضَرَبَ بها على يده فقال: هذه لعثمانَ. فقال له ابن عمر: اذهَبْ بها الآنَ معك)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨) واللفظ له؛ والترمذي (٤٠٣٩)؛ وابن حبان (٦٩٠٩)، وغيرهم.

وهذا رجل آخر(١) يسأل عبدَ الله بن عمر متعنِّتاً: (فما قَوْلُك في عليٍّ وعثمانَ؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟! أمَّا عثمانُ فكان الله قد عفا عنه(٢)، فكَرِهْتُم أن يعفوَ عنه! وأما عليٌّ فابنُ عمِّ رسولِ الله ﷺ وخَتَنُه ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنتُه أو بِنْتُه حيثُ ترون!)(٣).

وينضوي تحت هذا الصنف نموذج آخر يفتري على أمير المؤمنين عثمان فرية عجيبة؛ فيروي عَبَّاد بن عبَّاد الأَزْدي يقول: (سمعتُ يونس بن خَبَّاب يقول: عثمان بن عفان قتل ابنَتَي النبي ﷺ! قلتُ: قتلَ واحدةً فلِمَ زَوَّجه الأخرى؟! فقال: اخرجْ عنِّي فإنك عُثمانيٌّ خبيث)(٤).

ويونس بن خَبَّاب رافضيٌّ كان يَسبُّ عثمانَ، وقد أَلقمه تلميذُه عبَّاد حجراً، فلم يستطع الردَّ عليه إلا بشتمه والإقذاع عليه!.

هذه النماذج هي أمثلة عن شراذم موجودة في المجتمع، وهم من أولئك السبئيين المنحرفين المجرمين الذين افتروا على عثمان الأكاذيبَ؛ قد تجنَّوا على أمير المؤمنين وظلموه وظلموا الحقيقة والخلافة والتاريخ.

إنهم عَتَبوا عليه أشياءَ قد فعل مثلَها الفاروق عمر، وأَبَوْا عليه أن يَسُوسهم كما كان عمر يسوس الناس، وهذا من أعجب العجب أن تُعدَّ الحادثة في مفاخر رجل، وتعد أختها في مساوئ رجل؛ وذلك لأن رعية عمر كان فيها عثمان ونظراؤه، ورعية عثمان كان فيها السبئيون والروافض وأشباههم!.

---

(١) رجَّح الحافظ أنه من الخوارج، والرجل المصري الذي قبله من الرافضة. الفتح: ٢٤٣/١٠.

(٢) حيث كان في جملة من فر يوم أُحد.

(٣) أخرجه البخاري، حديث (٤٦٥٠).

(٤) تهذيب الكمال: ٥٠٧/٣٢.

وقد أوضح ذلك صحابي جليل كان من الشهود الحق في تلك الحقبة وعليها، فروى سالم عن أبيه عبدالله بن عمر قال: (لقد عَتَبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوها عليه)(١).

ثالثاً ـ خلاصة ما نقمه المنافقون المجرمون على أمير المؤمنين عثمان(٢):

يروي جعفر بن بُرْقان عن مَيْمون بن مِهْران قال: (إن أناساً أنكروا على عثمان، جاؤوا بما هو أَنكَرُ منه، أنكروا عليه أمراً هم فيه كَذَبة)(٣).

فهؤلاء الذين وصفناهم فيما تقدم قد افتروا على عثمان وعلى الصحابة والولاة وقادة الفتوح، ونَقَموا على عثمان سياسته، وتذرَّعوا بأشياءَ اختلقوها أو ضخموها أو حرَّفوها عن حقيقتها، وزرعوها في قلوب الناس؛ ليبرِّروا خروجَهم الآثم وهدفَهم في خَلْعِ عثمان وقتله. وزحفوا على المدينة وواجهوا عثمان بها، فردَّها عليهم واحدة بعد الأخرى، وأَبطَلَ حُجَجهم، وفَلَّ رأيَهم، وكَشف خطأهم وضلالَهم، كما سيأتي تفصيله.

ويجب التنبه إلى أن (هذه الانتقادات والمعايب) التي وجَّهوها لأمير المؤمنين عثمان، قد أقرَّها الشيعة وزادوا عليها، كما نقل كبيرهم ابن المُطَهَّر الحِلِّي، وقد ردَّ عليه مفصلاً شيخ الإسلام ابن تيمية(٤).

---

(١) الاستيعاب: ٧٣/٣؛ تهذيب الكمال: ٤٥١/١٩.

(٢) انظر: العواصم من القواصم، ص٧٦ ـ ٧٧؛ تاريخ الطبري: ٣٤٦/٤ ـ ٣٤٨؛ صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ تاريخ اليعقوبي: ٧٠/٢ ـ ٧١؛ منهاج السنة: ٦٢٥/٣ ـ ٦٢٦.

(٣) مختصر ابن عساكر: ٢٦٤/١٦.

(٤) انظر: منهاج السنة: ٦٢٥/٣ ـ ٦٩٥.

ونحن نلخِّص هنا تلك (الدعاوى والافتراءات)، ونوجز الردَّ عليها وبيان وهائِها وبطلانها، ليكون ذلك واضحاً بين يدي الحديث عن (مسيرة الفتنة الكبرى) التي انتهت باستشهاد عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

١ ـ تُهمٌ موجّهة إلى عثمان في مواقفه وتاريخه:

ـ قال المفترون: إن عثمان لم يَشهد بدراً، وانهزم يوم أُحد، وغاب عن بيعة الرضوان.

وأنه قعد على درجة المِنْبر التي قعد عليها النبي ﷺ، وقد انحطَّ عنها أبو بكر وعمر[١].

والتُّهَمات الثلاث الأولى قد تولى الصحابي الجليل عبدالله بن عمر ردَّها، والدفاعَ عن عثمان بشأنها، وبيانَ جَوْر مَن حمل عليه بسببها: أما تغيُّبه عن غزوة بدر فلأن زوجته رقية بنت النبي ﷺ كانت مريضة، فأقام عثمان عليها عن أمر رسول الله ﷺ. وأما فراره يوم أُحد، فإن الله تعالى عفا عَمَّن فَرَّ يومها وغفر لهم. وأما تخلّفُه عن بيعة الرضوان، فلأن الرسول ﷺ بعثه سفيراً إلى قريش، ولما تمت البيعة كان عثمان بمكة فبايع عنه النبي ﷺ وضرب بيده اليمنى على اليسرى[٢]!.

وأما أن عثمان جلس على المنبر حيث جلس النبي ﷺ: فإن أبا بكر لمَّا استُخلف كان إذا خطب يقوم على الدرجة التي تحت الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يقف عليها، فلما ولي عمر نزل درجة أخرى عن درجة أبي بكر رضي الله عنهما، فلما ولي عثمان قال: إن هذا يطول، فصعد إلى الدرجة التي كان يخطب عليها رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) العواصم من القواصم، ص٧٧؛ التاريخ الأوسط: ١٦٥/١؛ البداية والنهاية: ١٤٨/٧.
(٢) تقدم الحديث بتمامه قبل صفحتين.
(٣) البداية والنهاية: ١٤٨/٧.

ولو كان في هذا شبهةُ مخالفةٍ للنبي ﷺ أو عيبٌ على عثمان، لَمَا فعله هو رضي الله عنه وهو الرجل الحيي الكريم! كما أن فعله هذا ليس فيه تجاوز لهدي الشيخين، ولا جرأة على أن يجلس حيث جلس الرسول ﷺ، ولو كان ثمة شيءٌ من هذا أو ذاك لأنكره عليه الصحابة ولَمَا سكتوا عليه رضوان الله عليهم جميعاً.

وقد كان المسجد النبوي ضيقَ المساحة، فزاده عمر في عهده، ثم ازداد عدد المصلين فوسَّعه عثمان توسعة كبيرة، فاتساع المسجد وازدياد غاشيته وبُعْد أمكنة الناس عن المنبر؛ حمل عثمان على أن يعلو على المنبر ليراه الناس ويسمعوه. وفي قول عثمان: (إن هذا يطول) لفتة إلى أن أبا بكر وعمر نزلا درجتين، فلو نزل هو درجة أخرى، والخليفة بعده ماذا سيفعل ؟ هل سيقف بين الناس يا ترى؟!.

٢ ـ تقريبه أقاربه في الولاية والعطاء:

ـ وقالوا: إن عثمان ولى أمور المسلمين مَن لا يَصْلُح للولاية حتى ظهر من بعضهم الفسوق، ومن بعضهم الخيانة، وقسَّم الولايات بين أقاربه، وعوتِب على ذلك مراراً فلم يَرجِعْ... وكان يُؤْثِر أهلَه بالأموال الكثيرة من بيت المال، حتى إنه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوَّجَهم بناتِه أربعَ مئةِ ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار[١]!.

•• أما توليةُ عثمان أقاربه: فقد أوضحنا بالتفصيل مع الأدلة[٢] أن عِدَّة ولاة عثمان أزيدُ من (٤٢) والياً، منهم (سبعة فقط من أقاربه). وبَسطتُ القولَ في سِيرِهم جميعاً، وأنهم كانوا على درجة عالية من الكفاءة والإخلاص

(١) منهاج السنة: ٦٢٥/٣ ـ ٦٢٦؛ العواصم من القواصم، ص٧٦ ـ ٧٧.
(٢) انظر كتابنا «عثمان بن عفان» ص٣٩٣ ـ ٤٣٤.

والطاعة والأعمال المجيدة. وحقَّقتُ القولَ فيما رُمي به بعضهم مثل الوليد بن عُقْبة وابن أبي سَرْح، وبيَّنتُ أن أمير المؤمنين عثمان كان يتابعهم ويحاسبهم وعَزل غير واحد منهم، وإن كان في كثير من الحالات لا يستحق العزل، قطعاً لدابر الفتنة.

وأكَّدنا على ناحية مهمة وهي أنه كان عددٌ جَمٌّ من كبار الصحابة ومشاهيرهم تحت إمرة أولئك الولاة، وشهدوا معهم فتوحاتهم، وراقبوا سياستهم، فما بدرت منهم شكوى على واحدٍ منهم، ولا حَفِظَ لنا التاريخ خروجاً منهم على ولاتهم، أو طلباً من عثمان بأن يعزلهم، إنما كانت الخروقات والأراجيف والشكاوى من الأغمار والرَّعَاع وأصحاب الهوى!.

•• وأما ما نُسب إلى عثمان من أنه آثر أقاربه من الأمويين بالأعطيات، وأغدق عليهم من بيت المال[1]:

فنقول: إن عثمان كان يُؤْثِر أهلَه وأقاربه تأليفاً لقلوبهم من متاع الحياة الدنيا، لعله يرغِّبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى، لكنه ما كان يَمدُّ يده إلى بيت مال المسلمين، بل ينفق من ماله الخاص، وهو أحد أثرياء قريش كما يعرف القاصي والداني، وقد أفصح عن ذلك فقال ـ وهو الصادق البار الراشد ـ لأولئك الذين خرجوا عليه واتهموه بخيانة الأمانة: (وقالوا: إني أُحِبُّ أهلَ بيتي وأعطيهم، فأما حُبِّي فإنه لم يَمِلْ معهم على جَوْر، بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم فإنما أُعطيهم من مالي، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس! ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صُلْبِ مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذٍ شحيح

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١٧٩/١ ـ ١٨٠.

حريص، أَفَحينَ أتيتُ على أسنان أهل بيتي، وفَنِيَ عُمري، وودَّعْتُ الذي لي في أهلي، قال الملحدون ما قالوا!)[١].

وقول القائل بأن عثمان دفع إلى أربعة نَفَرٍ من قريش زوَّجَهم بناته أربعَ مئة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار ـ هو قولٌ مرسَل لا زمام له ولا خطام، وأين النقل الثابت في ذلك؟ وهو من الكذب البيِّن؛ فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ. ومن المعلوم أن معاوية كان يعطي من يتألَّفُه أكثر من عثمان، ومع هذا فغاية ما أعطى الحسنَ مئة ألف أو ثلاث مئة ألف درهم[٢]!.

بل الذي حَفِظَهُ التاريخ عكس ذلك، فقد كان أمير المؤمنين عثمان وَعَد الوالي الفاتح ابن أبي سرح ـ وهو أخوه من الرضاعة ـ إن فتح الله عليه إفريقية أن ينفِّلَه خُمس الخمس، فلما تمَّ الفتح وأخذ ابن أبي سرح ما وعده به الخليفة، رفض ذلك بعض الجند وشكوه إلى عثمان، فأمره عثمان بردِّ ذلك المبلغ، ففعل.

وجازف الواقدي مجازفةً لا يقبلها عاقل، فزعم أن عثمان جاءه من إفريقية (٣٠٠ قنطار ذهب) فأمر بها لآل الحكم أو لمروان! وقد شكَّكَ الطبري في هذه الرواية حيث ساقها بعد رواية ردِّ عثمان هبَته لابن أبي سرح[٣].

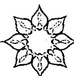
وتزيد الروايات تجليةً لهذا الجانب وتبرئة لأمير المؤمنين عثمان؛ فتذكر أنه قد قسم (مالَه) و(أرضَه) في بني أمية، وجعل ولده كبعض من يعطي،

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٧/٤ ـ ٣٤٨.

(٢) منهاج السنة ٦٦٦/٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٥٤/٤، ٢٥٦.



فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف، فأخذوا مئة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب[١].

بل ثمة روايات تبيِّن أن عثمان إذا أعطى أحداً من أقاربه هبةً مالية من بيت مال المسلمين لقضاء حاجة ضرورية أو طارئة؛ كان يستردّها منه بوجود شهود من المسلمين، لكن بعض رواة المصادر والكتَّاب يسكتون عن عملية الاسترداد لإثارة الرأي العام ضده[٢]!.

وقد وقع كثيرون في أحابيل الروايات الباطلة، وممن كنا نحب أن لا يستسلم لها الدكتور يوسف العش رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: (فبنو أمية بَلَغوا في عهد عثمان مجدَهم، فالولاية لهم والأموال بين أيديهم يتصرفون فيها، والخليفة يُغدِق عليهم ويحبّهم)[٣].

٣ ـ إتمام الصلاة بمنى:

ـ وقال المنحرفون: إن عثمان أتمَّ الصلاة بمنًى أربعاً، فخالَفَ بذلك هديَ النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، حيث كانوا يُصلُّون الصلاة الرباعية ركعتين قصراً، وكذلك هو صلاها ركعتين ست سنين من خلافته ثم أتم الصلاة سنة (٢٩هـ).

قلت: إتمام عثمان الصلاة بمنى أمرٌ ثابت في الصحيح، وقد أوضحت هذه المسألة بالتفصيل، واجتهادَ عثمان فيها، ومبرراته في ذلك.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٨/٤.

(٢) المرجع السابق: ٣٤٥/٤؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٣٩٣.

(٣) الدولة الأموية، ص٦١.

لكن المنحرفين قــوم بُهْتٌ يريدون عيــبَ عثمان وإدانتَــه والإرجافَ بســيرته الطاهرة في كل موطن، ويدَّعون لأنفسهم حقَّ الفهم والاجتهاد في الدين أكثر من الصحابة بل ومــن عِلْيَتِهم وأئمتهم. **فعثمــانُ ـ وهو ثـالث الخلفاء الراشــدين الذين هم أعلمُ وأجلُّ أصحــاب النبي ﷺ ـ ليس له في نظر المنحرفين أن يجتهد في مســائل الدين التي لم ينصَّ عـلى أحكامها! ولا ندري وايمُ الحق لمن شَــرع الله الاجتهاد إذا لم يكــن من حق عثمان وأضرابه من أئمة الهدى؟!.**

وجمهور الفقهاء في سائر أمصار الإسلام على أن قصر الصلاة في السفر رخصــة، والإتمام عزيمــة، والله تعالى يحبُّ أن تُؤتــى رُخَصُه كما يحب أن تؤتــى عزائمه، فــإذا كان عثمان لم يأخــذ برخصة قصر الصــلاة، فقد أخذ بالعزيمة. وقد وافقه على اجتهاده جمهرة من الصحابة.

وزيادة على ذلك فإن عثمان قد أوضح على الملأ وجاهةَ اجتهاده وأسباب إتمامه؛ ومن أجلِّ ذلك وأخطره أنه خَشِــي على الأعراب في مضاربهم ومن بَعُدت بلادُهم في أطرافَ الأرض أن يــروا الخليفة وكبار الصحابة قد صلوا ركعتين، فيظنون أن الصلاة دائماً هكذا، وقد لا يتصل أناس منهم بمن يعلِّمهم ويُرشِــدهم. وقد جاء عن ابن جُريج أن أعرابيّاً نــادى عثمان في مِنًى: يا أمير المؤمنين، ما زلتُ أصلِّيها منذ رأيتُك عامَ أول ركعتين[1]!.

٤ ـ زيادة الأذان يوم الجمعة:

ـ وعاب المنحرفــون على عثمان أنــه زاد الأذانَ الثاني يوم الجمعة، وهو بدعة.

---

(١) انظر: كتابنا «عثمان بن عفان»: ص٨٥ ـ ٨٨.

نقول: زيادة عثمان الأذان يوم الجمعة أمرٌ ثابت في صحيح البخاري وغيره، فصار هناك يوم الجمعة ثلاثة نداءات: الأول: لإعلامِ الناس بوقت الجمعة، وهو الذي زاده عثمان على (الزَّوْرَاء)، وكان ذلك سنة (٣٠هـ). والثاني: بين يدي الخطيب، والثالث: هو الإقامة.

وهذا الذي عابه المنحرفون على عثمان وكان من جملة ما نَقَموه عليه؛ هو مما يُتعَجَّب منهم أن يَدَّعُوه، وقد زاده عثمان لمَّا كثر المسلمون لتعميم إبلاغهم بهذه الشعيرة الجليلة، وفعل ذلك اجتهاداً منه، وفي المدينة أكابر الصحابة وعلماؤهم مثل علي وطلحة والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر وغيرهم، وبمشهد من المهاجرين والأنصار، ولم ينكروه عليه، واتبعه المسلمون جميعاً(١)، ووافقوه عليه فصار إجماعاً سكوتيّاً! فما بالُ أولئك الشانئين السَّبئيِّين من هذه الأراجيف، وأين يقع مكانهم من جِلَّة الصحابة، وهل هم أولى بالاجتهاد منهم، أم تُراهم أحرصَ على نقاء الإسلام منهم؟!.

٥ ـ جمع القرآن الكريم وحرق ما سوى المصحف الإمام:

ـ وقالوا: وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف.

وسامع هذا القول يترحم على المتنبي إذ يقول:

وهَبْنِي قلتُ: هذا الصبح ليلٌ   أيَعمى العالَمون عن الضياء؟!

إن العناية العظيمة التي أَوْلاها أبو بكر وعمر، وأتمَّها صِنْوهما عثمان؛ في جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه وجمع الأمة قاطبة على (المصحف الإمام) ـ هو أعظم عمل قاموا به، ولهم أعظمُ المِنَّة على المسلمين إلى يوم الدين!.

---

(١) منهاج السنة: ٣/٦٩٢.

(ولم يكن يدور بخَلَد عاقل أن يَعمد أولئك الخارجون المنحرفون إلى أجلِّ فرائد عثمان، وأحسنِ محاسن رجالات الإسلام، وأفضلِ أعمال الخلفاء الراشدين، وأبقى أثرٍ إسلامي وأنفعِه وأَعْوَدِه على الأمة بالخير والبركة في حاضرها وماضيها ومستقبلها ـ فَيَنظِموها في سِلْك المعايب والمآخذ! ولكنها الأهواء إذا عمَّت أَعْمَتْ، وإذا سادت أفسدت! وأي عقلٍ مستقيمٍ يفهم أن جمع القرآن الكريم، وتوحيد مصاحفه، واجتماع الأمة كلها في مشارق الأرض ومغاربها على نص موحَّد لدستورها المسيطر على مقومات حياتها ـ عيبٌ من العيوب التي تُعدُّ على أمير المؤمنين عثمان، ويكون دعامة لشر انقلاب عرفه المسلمون؟!)[١].

وجمعُ المسلمين قاطبة على (مصحف إمام واحد)، وحرق ما سواه من مصاحف وصحف؛ قد شهده الصحابة في المدينة وأجمعوا عليه وتابعهم كافة الصحابة والناس في الأمصار، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، وقد خالف ابن مسعود في الكوفة ثم رضي وتابع، كما أوضحناه مفصلاً[٢]. فما شأن المنحرفين والسبئيين والرعاع وهذا الأمر؟! وما قيمة إرجافهم ورفعهم تلك الذريعة التي قلبوا فيها الحق باطلاً، وضموها إلى جملة أباطيلهم التي ادعوها على الخليفة الراشد رضي الله عنه؟!.

وأمرُ هؤلاء مُغْرِق في الغرابة والعجب، فجمعُ المصحف الإمام كان في آخر سنة (٢٤هـ) وأوائل سنة (٢٥هـ)، وبداياتُ الفتن والخروج على عثمان كان نحو سنة (٣٣هـ)، فأين كانت عقولُ هؤلاء الأفاكين وألسنتُهم ومزاعمُهم في الحرص على الإسلام وكتابه مدة هذه السنين الطويلة؟!.

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) انظر: كتابنا «عثمان بن عفان» ص٢٣٣ ـ ٢٥٠.

٦ ـ شأن الحِمَى:

وعاب المنحرفون عليه أنه حمى الحمى!.

والحِمى: أراضٍ خُصِّصَت لرعي الإبل والخيل التي تملكها الدولة، وتشمل ما كان للصدقات أو المعدَّة للجهاد.

وكان رسول الله ﷺ قد حمى (وادي النَّقيع)، واستمرت حمايته في عهد أبي بكر وعمر، وزادت المناطق المحميَّة في عهد عمر ومن ذلك (حِمى الرَّبَذَة) و(الشَّرَف).

واقتفَى الخليفة الثالث سبيلَ رسولِ الله ﷺ وصاحبيه، ولم يأتِ في ذلك شيئاً نكراً، وقال لوفد الخارجين عليه لمَّا واجههم وردّ عليهم جميع انتقاداتهم: (فأمَّا الحِمى: فإن عمر حَمَاه قبلي لإبل الصدقة، فلما وَليتُ زادت إبل الصدقة، فزدتُ في الحمى لِما زاد من إبل الصدقة)[1].

وأيضاً فإن عثمان فعل ذلك بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم، فما عَلِمنا أحداً منهم أنكر ذلك عليه، حتى جاء في أَخَرة من الزمان هؤلاء الضالُّون المنحرفون يريدون أن يعلِّموا أمير المؤمنين وأصحابه من المهاجرين والأنصار الورعَ والنُّبلَ والحرصَ على مال الأمة وإقامة العدل!.

على أنها الأيام قد صِرْنَ كلها عجائبَ، حتى ليس فيها عجائبُ!

ومن الفِرى ما نقله ابن أبي الحديد في قوله: (وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم، إلا عن بني أمية)[2].

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٦٩؛ صحيح ابن حبان (٦٩١٩).

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٧٩/١.

ويخطئ بعضهم حين يزعم أن بعض الصحابة وأهل المدينة انتقدوا عثمان على توسيعه الحمى[١]، وإنما الذين عابوا عليه ذلك هم شراذم المنحرفين من أهل الأمصار، وناقشوه وردَّ عليهم افتراءاتهم، لمَّا قدموا المدينة ـ خارجين عليه ـ سنة (٣٥هـ)[٢].

٧ ـ رد الحكم بن أبي العاص:

ـ وقالوا: (وطَردَ رسولُ الله ﷺ الحَكَمَ بن أبي العاص عمَّ عثمان عن المدينة، ومعه ابنه مروان، فلم يـزَلْ هو وابنه طريدين في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما وَلي عثمان آواه ورَدَّه إلى المدينة)[٣].

نقول: الحكم بن أبي العاص من مُسْلِمة الفتح من الطُّلَقاء، ولم يكونوا يسكنون المدينة في حياة النبي ﷺ، فإنْ كان قد طَرده فإنما طرده من مكة لا من المدينة، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة. وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه وقالوا: هو ذهب باختياره. وقصة نفي الحَكَم ليست في الصحاح، ولا لها إسناد يُعرف به أمرها[٤].

والطرد هو النَّفيُ، والنفي قد جاءت به السنة في الزاني والمُخَنَّثين، وكانوا يُعزَّرون بالنفي، وإذا كان النبي ﷺ قد عزَّر رجلاً بالنفي، لم يَلزم أن يبقى منفيّاً طول الزمان، فإن هذا لا يُعرف في شيء من الذنوب، ولم تأتِ الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيّاً دائماً. وقد كان عثمان شَفَع في عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح فَقَبِل ﷺ شفاعته فيه وبايعه، فكيف لا يَقبل شفاعته في

---

(١) انظر مثلًا: تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٤٠٣.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٣٤٧/٤، ٣٥٤؛ وما سبق في الحاشية (١) من الصفحة السابقة.

(٣) العواصم من القواصم، ص٧٦؛ منهاج السنة: ٦٢٦/٣، ٦٧٦؛ شرح نهج البلاغة: ١٧٩/١.

(٤) منهاج السنة: ٦٧٦/٣.

الحَكَم! وقد رووا أن عثمان سـألـه أن يَردَّه فأَذِن له في ذلك، ونحن نعلم أن ذَنْبه دون ذنب ابن أبي سرح.

والمعلوم من فضائل عثمـان، ومحبة النبي ﷺ له وثنائه عليه وتخصيصه بابنتَيْه وشـهادته له بالجنة، وأنه توفي وهو عنـه راض، وتقديم الصحابة له بالخلافة، وأمثال ذلـك ـ مما يُوجب العلمَ القطعيَّ بأنه مـن كبار أولياء الله المتقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، فلا يُـدْفَعُ هذا بنقلٍ لا يثبت إسناده ولا يُعرف كيف وقع، ويُجعل لعثمان ذنب بأمر لا تُعرف حقيقته[1].

بل إن أمير المؤمنين عثمان قد رَدَّ علـى المنحرفين هذه التهمة له، فأَقَرُّوا له بذلك، قـال رضي الله عنه: (وقالوا: إنِّي رددتُ الحَكَمَ وقد سَـيَّره رسـولُ الله ﷺ! والحَكَم مكِّيٌّ، سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم ردَّه رسولُ الله ﷺ، فرسولُ الله ﷺ سَيَّره، ورسولُ الله ﷺ رَدَّه، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم)[2].

٨ ـ مواقفه من بعض أكابر الصحابة:

وقال المفترون: وضـرب عثمان عمار بن ياسـر حتى فتـق أمعاءه، وضرب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه، وأجلَى أبا ذر إلى الرَّبَذَة[3].

وهذه فِرى جديدة نَسَـجَها القصاصون وألصقوها بسيرة عثمان الطاهرة، وهي تسـير على المنهج الملتوي الذي سـار عليه الأخباريون ممن قصدوا النَّيل من عثمان وعهده المبارك.

---

(١) منهاج السـنة: ٦٧٦/٣ ـ ٦٧٧؛ العواصم من القواصـم، ص٨٩ ـ ٩٠ تعليقات محب الدين الخطيب.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٤٧/٤.

(٣) العواصم من القواصم، ص٧٦؛ منهاج السنة: ٦٢٦/٣؛ شرح نهج البلاغة: ١٨٠/١.

وقد أفردت فصلاً أوسعت فيه البحث في أخبار هؤلاء الصحابة الأجلاَّء وسيرتهم في عهد عثمان، وبعض ما صدر منهم، وأوضحت وجه الحق في مواقف عثمان منهم[١].

وكل مسلم بل كل منصِف يعلم حقَّ العلم أن أخلاق عثمان في سنِّه وإيمانه وحيائه ولين عَريكته ودَمَاثة طبعه ونُبْله وسابقته وجليل مكانه في الإسلام ـ أَجَلُّ من أن تنزل به إلى هذا الدَّرْك من التصرف مع هؤلاء الصحابة الأماجد الكرام.

أَفَيَرضى عثمان لنفسه وهو الذي أَبَى على الناس أن يقاتلوا دونه أولئك الأوباش الأوغاد الخارجين على سلطان الخلافة، ورضي بالموت قتلاً صابراً محتسباً اتقاءَ الفتنة العامة ـ أَفَيرضى أن يَفعل بإخوته عمار وابن مسعود وأبي ذر ما يزعمه أولئك المفترون، وما تحيكه تلك الروايات الطائشة الفاسدة؟!.

ويأبى فريق من المعاصرين إلا أن يُعيدوا إحياءَ أكاذيب أسلافهم الأوائل المفترين على عثمان، ويكرِّروا نفسَ التهم بأسلوب يزعمون له (الحيادَ والعلميةَ والبحثَ الجاد)، ويزعمُ لهم من يُسوِّق كتبهم أنهم (مفكرون مجدِّدون)[٢]!.

٩ ـ تعطيل إقامة الحدود:

ـ وقال المفترون المنحرفون في عيب عثمان: وضَيَّع حدودَ الله فلم يَقتل عُبيد الله بن عمر حين قَتل الهُرْمُزان، وأراد أن يعطِّل حدَّ الشُّرب في الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط حتى حَدَّه علي بن أبي طالب[٣].

---

(١) انظر: كتابي «عثمان بن عفان» ص٢٥٣ ـ ٢٨٠.

(٢) انظر مثلًا: الفتنة، لهشام جعيط، ص٨٩.

(٣) العواصم من القواصم، ص٧٧؛ منهاج السنة: ٦٢٦/٣.

•• نقول: المتتبِّع لسيرة الهرمزان يرتاب في صحة إسلامه، ويجزم بتدبيره الدسائسَ والمكايد ضد المسلمين، واستمراره بالخديعة حتى مع عمر بن الخطاب. والمحققون من الباحثين يرون أن قتل أمير المؤمنين عمر كان بتدبير ومشاركة وإشراف الهرمزان، وتنفيذ الخبيث أبي لؤلؤة؛ وقد دلَّ على ذلك رواية صحيحة عن سعيد بن المسيِّب: (أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداةَ طُعن عمر: مررتُ على أبي لؤلؤة عشيَّ أمس، ومعه جُفَيْنة والهُرمزان، وهم نَجِيٌّ، فلما رَهِقْتُهم ثاروا، وسَقط منهم خِنْجر له رأسان نِصابُه في وسطه، فانظروا بأي شيء قُتل! وقد تخلَّل ـ أبو لؤلؤة ـ أهلَ المسجد، وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي، وقد كان ألَظَّ بأبي لؤلؤة منصرفَه عن عمر، حتى أخذه فقتله، وجاء بالخنجر الذي وصفه عبدالرحمن بن أبي بكر. فسمع بذلك عُبيد الله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر، ثم اشتمل على السيف، فأتى الهرمزان فقتله)[1].

وثمة شواهد ودلائل تُمسك بأصابع الهرمزان الفارسي وجُفَيْنة النصراني وآخرين الله يعلمهم، منغمسة مع الخبيث أبي لؤلؤة في دم أمير المؤمنين فاروق الإسلام عمر رضي الله عنه، وتُنادي بأن الأمر كيدُ ماكرٍ دُبِّر للإسلام في ذاتِ أقوى رجالاته بطشاً بالمنافقين، وإلى هذا ذهب كثير من المؤرخين القدامى والمُحدَثين.

(أَفإذا قام عُبيد الله بن عمر بن الخطاب وغضِب لقتل أبيه، بيد مجوسي أثيم، وتدبير دخيل في الإسلام نكَّاث للعهود، وممالأة نصراني خبيث وجرثومة من جراثيم النفاق ـ طُلب إلى الخليفة الراشد عثمان أن

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/٣٥٥ ـ ٣٥٦؛ تاريخ الطبري: ٤/٢٤٠. رَهِقْتُهم: ضيَّقتُ عليهم. أَلَظَّ به: أمسَكَه. وانظر ما تقدم في هذا الكتاب: ص ٥٥ ـ ٥٦.

يكون أولُ عمله في خلافته قتْلَ عُبيد الله بـن عمر دون تثبت وتحقيق؟! فإذا أبى عثمان أن يجري على هذه السياسة الخرقاء، قال المنحرفون: إنه عطَّل حدودَ الله تعالى! وهل في حدود الله تعالى وشـريعته أن يُـقتل وليُّ دمٍ قَـتَل مَنْ ثَـبَت عنده أنه مالأ وأعانَ على قتل أبيه خليفةِ المسلمين؟ لا، بل الذي يعرفه الفقه الإسلامي أن مَن أعانَ على القتل عمداً، وكان لإعانته مدخـلٌ فـي التنفيـذ؛ أُبيـح قتْلُـه، والهُرمـزان وجُفَيْنة ثَبَت بشـهادة عبدالرحمن بن أبي بكر وأبـي هريرة أنهما أعانا ومـالآ على قتل عمر، وعبد الرحمن وأبو هريرة مجزومٌ بعدالتهما ونزاهتهما وبُعْدِهما عن الشبهة وَمظِنَّةِ الغرض)[١].

ومع ذلك فإن عثمان لـم يعطِّل حدَّ الله في القصاص مـن القاتل، وثمة روايتان في الموضوع:

الأولى: هي تتمة حديث سعيد بن المسيب في قصة عبد الرحمن بن أبي بكر ووقوفه على ائتمـار الهرمزان لقتل عمر، ففي آخرها: (فلما اسـتُخلف عثمان دعا المهاجرين والأنصار فقال: أشيروا علَيَّ في قتل هذا الرجل الذي فَـتَق في الدين ما فتق! فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمانَ على قتله، وجُلُّ الناس الأعظمُ مع عبيد الله يقولون: لعلكم تريدون أن تُتْبِعوا عمرَ ابنَه؟! فكَثُـر في ذلك اللَّغَـط والاختلاف، ثم قـال عمرو بن العاص لعثمان: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سـلطان، فأَعْرِضْ عنهم. وتفرَّق الناس عن خطبة عمرو، وانتهى إليه عثمان، ووُدي الرجلان والجارية)[٢].

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٥٦، ١٥٧.

(٢) طبقات ابن سـعد: ٣/٣٥٦. والرجلان: هما الهرمزان وجفينة النصراني، والجارية: هي ابنة أبي لؤلؤة، وقد قتلهم جميعاً عبيد الله بن عمر.

وفي رواية الطبري: (قال عثمان: أنـا وليُّهم، وقد جعلتُها ديةً، واحتَملتُها في مالي)(١).

والثانية: عن (القماذبان وهو ابن الهرمزان، يحدِّث أن عثمان دعاه وأمكنه من عُبيد الله بـن عمر، وقال: يا بُنَـيَّ، هذا قاتل أبيك، وأنـت أولى به منَّا، فاذهب فاقتلْه! قال القماذبـان: فخرجتُ به وما في الأرض أحدٌ إلا معي، إلا أنهـم يطلبون إليَّ فيه، فقلت لهـم: ألِيَ قتلُه؟ قالوا: نعـم، فقلت: أَفَلكم أن تمنعوه؟ قالـوا: لا، فتركتُه لله ولهم. فاحتملوني، فـوالله ما بلغتُ المنزلَ إلا على رؤوس الرجال وأكفِّهم!)(٢).

ويمكن التوفيق بيـن الروايتين، فابن الهرمزان أسـقط حقه في دم أبيه، ومع ذلك فإن أمير المؤمنين عثمان أخرج ديته من ماله الخاص.

وبعد نقول: إن كل منصف يعتقد ـ ولعل ابن الهرمزان أيضاً كان يعتقد ـ أن دمَ أمير المؤمنين عمر في عنق الهرمزان، وأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا آلةً في يدِ هذا الفارسـي، وأن موقف عثمان وإخوانه أصحاب رسول الله ﷺ من هذا الحادث لا نظير له في تاريخ العدالة الإنسانية(٣)!.

ومن العجيب أن دمَ الهُرمزان المتهم بالنفاق، والمحاربةِ لله ورسـوله، والسعيِ في الأرض بالفسـاد ـ تُقام فيه القيامة، ودمَ عثمان يُجعل لا حرمةَ له، وهو إمام المسلمين المشهود له بالجنة، الذي هو وإخوانه أفضل الخلق بعد النبيين(٤)!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٣٩/٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٤٣/٤ ـ ٢٤٤؛ وانظر: منهاج السنة: ٦٨٤/٣ ـ ٦٨٥.

(٣) العواصم من القواصم، ص١١٧، من تعليقات محب الدين الخطيب.

(٤) منهاج السنة: ٦٨٨/٣.

ويأتي هؤلاء السبئيون المنافقون ومن بعدهِم الرافضة، فيتَّهمون عثمان بأنه عطَّل حدود الله!.

•• وأما قولهم: (أراد عثمان تعطيلَ حدّ الشُّرب في الوليد بن عقبة، حتى حَدّه عليٌّ)، فهو كذب على عثمان وعلى عليٍّ، بل عثمان هو الذي أمر عليّاً بإقامة الحدِّ على الوليد، كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم»، وأوضحناه مفصلاً[(١)].

وبعض المعاصرين كانوا أسوأ من أسلافهم الذين طعنوا على عثمان بتلك الأكاذيب، فيزعم أحدهم: (أن عثمان أظهرَ نوعاً من المقاومة، وتردَّد في تسليم شقيقه من أمه للسَّوط، الذي كان الحدّ العقوبة الجسدية التي يُنزلها القرآن بالشرب، وهو حدّ من حدود الله لا يمكن التساهل فيه، لكنه أَذعَنَ تحت ضغط عليٍّ، وإزاء تهرب الآخرين ورفضهم، قام علي نفسه بإنزال العقوبة المهينة كثيراً.. إنه مشهد درامي يُظهِر عثمانَ متألماً حزيناً إلى جانب عليٍّ المنافح عن حدود الله!)[(٢)].

تأمل هذا الكذب السَّمج من هذا (المُخرِج الدرامي!)، وتذكَّر قول السبئيين في عثمان، فهل تجد من فرق؟!.



---

(١) انظر كتابنا: «عثمان بن عفان» ص٤١٩ ـ ٤٢٦؛ وانظر: منهاج السنة: ٦٨٨/٣ ـ ٦٨٩.

(٢) الفتنة، لهشام جعيط، ص٩٢ ـ ٩٣.

الفصل الخامس

مؤامرات في الظلام ومنهجها وأخطر رموزها ومواقف الخليفة الراشد في علاجها

أولاً ـ بذور الفتنة وتعريف بأسوأ رموزها وأخطرهم:

كانت الصدمة الأولى التي تلقاها أمير المؤمنين عثمان في مستهل خلافته؛ تلك الانتقاضات القاسية في أطراف الدولة، والتي يكمن وراءها فلول الفرس والروم والخزر والترك وغيرهم، فصمد لها عثمان وظفر بها، وخرج بالدولة سليمة منيعة.

وتَلَتْها بعد ذلك الصدمة الثانية التي كانت أعنف من الأولى وأوسع انتشاراً وأعمق آثاراً؛ وهي تتمثل بتلك التغييرات الكبيرة في نسيج المجتمع، وما يمور به من أفكار واتجاهات وتقاليد وأجناس وأعراق ونعيم ورخاء وتنافس على الدنيا... وغير ذلك مما أوضحناه، واستغلته فئات وزعامات وأوكار وأجسام ممرضة، سعت حثيثاً لتفتك بجسم الدولة والأمة، حين تتاح لها الفرصة.

وهذه أسلمت الخليفة والدولة والأمة إلى **الصدمة الثالثة المروِّعة التي كانت بمثابة زلزال شكل أخطر انقلاب في التاريخ الإسلامي**، وتمثل ذلك بقتل الخليفة الشهيد المظلوم.

و(الفتنة الكبرى) في عهد عثمان هي امتداد للحرب ضد الإسلام ودولته وكبار رموزه، منذ بداية ظهوره، وهي ذات صلة بحروب الردة التي اجتاحت الدولة في عهد الصديق، وتتشابه معها من حيث الهدف وتختلف من جهة الأساليب والأدوات، ويمكن ردُّ ذلك إلى أن موقديها ومساعِرَها كانوا يتظاهرون بالإسلام، أو أنهم دخلوه على خوف أو دغل وحقد، وجرفت في تيارها جماهير من الرعاع والأعراب الذين يشبهون كثيراً أولئك الذين وقفوا في وجه رسول الله ﷺ ثم كانوا معاول هدم في أيام الردة، وأولئك الذين لم يكن الإسلام في ضميرهم أكثر من شعائر باهتة سرعان ما يتمزق إهابها إذا ما هبَّت عليه رياح الفتنة.

وبدأت بذور (الفتنة العثمانية) بإيتاء ثمارها المرة منذ استشهاد الفاروق عمر، الذي مثل قتلُه (فتْحَ باب الفتن) التي تموج كموج البحر، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة[1].

ونقدِّم بين يدي هذا الفصل تعريفاً بأسوأ رجال هذه الفتنة، وأشدهم خطراً، وأكثرهم سعياً في الفساد وتأجيج الفتن وقيادة الجهلة والرعاع، وذلك لكثرة تردد أسمائهم وتكرر أدوارهم وأعمالهم الإجرامية.

١ ـ عبد الله بن سبأ[2]:

يهودي من أهل صنعاء، ويُعرف بابن السَّوداء نسبة إلى أمه وكانت حبشية.

أظهر إسلامه في زمن عثمان، وتشير عدة روايات إلى أن أول ظهور له كان في سنة (٣٠هـ)، وتنقَّل في بلدان المسلمين من قطر إلى آخر محاولاً

(١) انظر: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٢/٢٩ ـ ٣٦؛ وكتابي «عمر بن الخطاب».

(٢) له ترجمة مظلمة في: تاريخ ابن عساكر، وميزان الاعتدال، ولسان الميزان، وغيرها.

ضلالتهم، فابتدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، ثم الشام فلم يَقدر على شيء فيها، فأتى مصر واستقرَّ بها وطابَتْ له أجواؤها.

وهو من غُلاة الزنادقة، ضالٌّ مُضِلٌّ، قال برجعة النبي ﷺ إلى الدنيا، وهو الذي افترى أن رسول الله ﷺ أوصى بالأمر من بعده لعليٍّ. وكان يكذب على الله ورسوله، ويطعن على أبي بكر وعمر، وقال لعلي: أنت دابة الأرض!.

وقد عَلِمَ عليٌّ افتراءَه وكذِبَه، فدعا به وعرضه على السيف، فكُلِّم فيه، فقال: لا يساكنني في بلد أنا فيه، وسيَّره إلى المدائن. وقال علي يوماً لابن سبأ: والله ما أفضَى إليَّ رسول الله ﷺ بشيء كَتَمه أحداً من الناس، ولقد سمعتُه يقول: «إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً»، وإنك لأحدُهم.

له أتباع يقال لهم: (السَّبَئِية)، يعتقدون إلاهية علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته.

كان رأس الشر والفتن في عهد عثمان، كما سيتضح في الفصول التالية.

٢ ـ حُكَيم بن جَبَلة العَبْدي:

من قبيلة عبد القيس وأصلهم من عُمان، توطَّن البصرة بعد تمصيرها، وكان رجلاً لصّاً، إذا قفلت الجيوش خَنَس عنهم، فسعى في أرض فارس، فيُغِير على أهل الذمة ويتنكر لهم، ويفسد في الأرض، ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن احبسْه ومن كان مثله فلا يخرجنَّ من البصرة، فحبسه ابن عامر، أي: منعه من مغادرة البصرة.

ولما قدِم عبد الله بن سبأ البصرة نزل على حُكيم هذا[1]!.

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٦/٤.

٣ ـ الأشتر النَّخَعي:

مالك بن الحارث النخعي، أحدُ الأبطال المذكورين، وكان شَهْماً مُطاعاً زَعِراً، لكنه ما استعمل ذلك لوجه الله.

ولقد صَدَقتْ فيه فراسةُ العبقري الملهم عمر عندما رآه، فصعَّد فيه النظرَ وصَوَّبه، ثم قال: إنَّ للمسلمين مِن هذا يوماً عَصيباً!.

كان أحـدَ كبار مسـاعِر الفتنـة، ونَقض توبتـه التي تابهـا على يدي عبدالرحمن بن خالد بن الوليد، وافتـرى كثيراً على الولاة، وألَّب ـ لا رعاه الله ـ على الخليفة الشهيد عثمان، وسـار إليه في الكتائب وحاصره وقاتله. وشهد (صِفِّين) مع عليٍّ، وكان صعب المِراس، وكان علي يتبرَّم به ويَكرهه، وقد بعثـه والياً على مصر، فمات بالطريق مسـموماً، فلمـا بلغه موته قال: للمنخرين والفم[1]!.

ومسيرة مساوئه وأفعاله القبيحة طويلة مظلمة؛ فلا تكاد تجد فتنة إلا وله فيها يد، ولا افتراءً إلا وله فيه صوت، ولا سـعياً لتسـعير خلاف إلا وله فيه رأي، ولا طعناً على والٍ أو خليفة إلا وتجده في مقدم الركب!.

٤ ـ ابن الكَوَّاء[2]:

عبدالله بن أوفى اليَشْكُري المشـهور بابن الكوَّاء، شارك في الفتنة، وشَـغَب على الولاة، وكان أحد (المُسَـيَّرين) كما سـيأتـي، شارك مـع علـي في وقعة (صِفِّين)، ثم كان بعدها أحدَ رؤوس الخوارج، نعـوذ بالله مـن الهوى!.

---

(١) انظر: ولاة مصر، للكندي، ص٤٦ ـ ٤٨؛ سير أعلام النبلاء: ٣٤/٤ ـ ٣٥.

(٢) ترجمته في تاريخ ابن عساكر ـ «عبدالله بن أوفى»، ص٣٩٠ ـ ٣٩٩.

٥ ـ كُمَيْل بن زياد النَّخَعي:

من أهل الكوفة، ومن السُّعَاة في الفتنة، بل كان من ضلاله أنه تعاهَدَ مع عُمير بن ضابئ على قتل عثمان غِيلةً، وسار لفعلته الآثمة، فوقع في شرِّ عمله، واكتشف عثمان أمره، ومع هذا عفا عنه! وبقي كُميل حتى ولي الحَجَّاج العراق، فقتله(١).

٦ ـ عُمير بن ضابئ التميمي:

ممن أثار الشغب على الولاة، وأحد (المُسيَّرين)، وسعى لقتل عثمان رضي الله عنه، وكان من أتباع ابن سبأ، قتله الحَجَّاج حين ولي العراق(٢).

٧ ـ صَعْصَعة بن صُوحان العَبْدي:

ممن كان يَشْغَب على الولاة، ويطعن على عثمان، وأحد (المُسيَّرين)، ولما قال معاوية لهم: إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة فلا تَشِذُّوا عن جُنَّتِكم، ردَّ عليه صعصعة فقال: إن الجُنَّة إذا اخترِقت خُلِص إلينا!.

وكان من أصحاب علي وشهد معه معركة (الجمل)(٣).

٨ ـ سُودان بن حُمْران السَّكُوني:

من قبائل مراد اليمنية النازلة في مصر، أحد رؤوس الشر والفتنة، وممن انقطع إلى ابن سبأ بمصر، ومن قادة الفِرَق المجرمة التي خرجت من مصر إلى المدينة لمحاصرة عثمان وخلعه، وممن دخل عليه وشارك في قتله(٤).

---

(١) تاريخ الطبري: ٣١٨/٤، ٣٢٣، ٣٢٦، ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٢) انظر: الحاشية السابقة.

(٣) تاريخ الطبري: ٣١٩/٤، ٣٢٣؛ سير أعلام النبلاء: ٥٢٨/٣.

(٤) المرجع السابق: ٣٤١/٤، ٣٤٨، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٩١، ٣٩٣.

وكان واحداً ممن قدِموا مع قبيلة السَّكُون في خلافة عمر، فلما عُرضوا عليه كَرِهَهم، ثم أعرض عنهم وقال: ما مرَّ بي قوم من العرب أكره إليَّ منهم! وتعجب الناس من رأي عمر، وكان فيهم سُودان هذا، وابن مُلْجَم الذي قتل عليّاً[١]!.

٩ ـ كِنانة بن بِشْر بن عتَّاب التُّجِيبيّ:

من أتباع ابن سبأ، وأحد قادة الفِرَق المصرية التي خرجَتْ إلى المدينة لحصر الخليفة وقتله، وكان ممن تولى كِبْر الجريمة في اقتحام دار عثمان، وشارك في قتله[٢].

١٠ ـ عبد الرحمن بن عُدَيْس:

فارس شاعر، نزل مصر مع جيش الفتح، ولم يُعرف له في سيرته شيءٌ انفرد بالامتياز به غير اشتراكه في هذه الفتنة، مع دعواه أنه كان من الذين بايعوا تحت الشجرة، كما جاء في حديث ضعيف.

استغل مدبرو الفتنة ميلَه إلى الرئاسة، فوَلَّوه قيادةَ إحدى الفرق الأربع التي خرجت من مصر إلى المدينة. وكان في مدة الحصار شديدَ الوطأة على أمير المؤمنين عثمان وأهل بيته[٣].

١١ ـ الغافِقي بن حَرْب العَكِّيّ:

من القبائل اليمنية التي نزلت مصر عند الفتح، وأحد صنائع ابن سبأ وأتباعه، كان محبّاً للرئاسة والظهور، وتولى الرئاسة العامة للفِرق الأربع

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٨٥/٣ ـ ٤٨٦.

(٢) المرجع السابق: ٣٤١/٤، ٣٤٨، ٣٨٠، ٣٩٣، ٣٩٤.

(٣) الإصابة: ٤٠٣/٢؛ العواصم من القواصم، ص١٣١، حاشية من تعليق محب الدين الخطيب.

التي خرجت من مصـــر. ولما مُنِع عثمـــان من الخروج للصـــلاة كان هذا الغافقي يصلي بالناس! وقد اشترك مباشـــرة بالجريمة الكبرى في الاقتحام على عثمان وقتله(١).

١٢ ـ محمد بن أبي حذيفة:

هو ربيبُ عثمان وتربَّى في حَجْره، وطلب من عثمان الولاية فمنعه منها لأنه ليس بأهل، فغضب وذهـــب إلى مصر، وأَبَقَ من نعمة عثمان، وكان اليد اليمنى لتنفيذ خطط السَّبئيين في مصر.

كان يَطعن على والي مصر ابن أبي سَـــرْح، وعلى أمير المؤمنين عثمان ويحرِّض عليه، ويزعـــم أنه غيَّر وبـــدَّل وخالَفَ هدْيَ النبـــي ﷺ وأبي بكر وعمر، وأن جهاده هو الجهاد الحق، وأن دمه حلال! وكان يزوِّر الكُتب على لسان أمهات المؤمنين(٢).

١٣ ـ محمد بن أبي بكر الصديق:

كانت له دالَّة عند عثمان، لكنه فَعل أمراً فأَخـــذه عثمان من ظهره، فَحَنِقَ عليه، وائتمر مع محمد بن أبـــي حذيفة فكانا يحرِّضان على عثمان، ويَـنقِمان عليه. وكان من جملة من سار مع المنحرفين الخارجين لحصر عثمان وقتله(٣).

ثانياً ـ أوكار الفتنة في الكوفة:

•• بدايـــةً نَلْفِت النظر إلى أمر مهمٍّ جدّاً وحقيقة واضحة بارزة ســـتتضح خلال استقرائنا الأحداث ـ وهي أن الســـمة العامة لأمصار الدولة الإسلامية

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٩/٤، ٣٥٤، ٣٩١؛ العواصم من القواصم، ص١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) ولاة مصر، ص٣٨؛ تاريخ الطبري: ٢٩٢/٤، ٣٥٧، ٣٩٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٥٧/٤، ٤٠٠.

في عهد عثمان كانت الاستقرار والأمان والطمأنينة والرضا والعافية من الفتن وإثارتها والسير بها وإشاعتها، والعامة مشغولون بين الجهاد والفتح وترسيخ قواعد الإسـلام وبناء الدولة، **وانحصرت الفتن وإشـعالها وإذاعتها في ثلاثة أمصار فقط هي: الكوفة ومصـر بصورة كبيرة، ثم البصـرة بالدرجة الثانية،** وهذه الأمصار لا تشكل شيئاً كبيراً من جسم الدولة(١)، لكنها أَحدَثت شروخاً هائلة أدَّت إلى أخطر انقلاب في تاريخ الإسلام.

وناحية أخرى لا تقلُّ عنها أهميـة، وبالنظر في تلك البؤر التي أَنتجت الفتنـة وأنضجتْها وروَّجَـت لها وسَـعَتْ فيها إلى آخر الشـوط؛ **نجد أن مؤرِّثيها ليسـوا من الصحابة ولا مـن المهاجرين والأنصـار، وليس فيهم قرشـي أو أنصاري أو مُزَني أو جُهَني أو... بل هم من مسلمة الفتوحات،** وعامتهم من النَّخَع والأَزْد من القبائل اليمانية والسـمَّاعين لهم ممن نزلوا الكوفة والبصرة ومصر.

•• وكانت الكوفة أول الأمصار وأسبقها في طريق الشر والفتنة، وقد حدَّث الإمام عامر الشـعبي فقال: (الكوفة أول مِصْرٍ نَـزَغَ الشيطان بينهم في الإسلام)(٢).

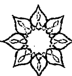
وقد ضَجِر الفـاروق عمر بأهل الكوفـة، وأصابه همٌّ كبيـر، حتى رأى الصحابة ذلك عليه واضحاً، وعَبَّر عـن مصيبته فيهم فقال: (وأيُّ نائبٍ أعظمُ من مئةِ ألف لا يَرضَوْن عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير!)(٣).

---

(١) وهذا بخـلاف من يزعم أن مصادر الانحراف والفتن قد جاشـت بهـا كثير من الأمصار، وشـارك فيها جمهور القبائل وبعض الصحابة وأبناء الصحابة. انظر: الإسـلام والسلطان والملك، لأيمن إبراهيم، ص٢٥١؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٤١٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٥١/٤.

(٣) المرجع السابق: ١٦٥/٤. النائب: النازلة والمصيبة.



ووصف حالَ الكوفة رجلٌ منهم خبيرٌ بهم هو ابن الكَوَّاء، فقال: وأمَّا أهلُ الإحداث من أهل الكوفة، فإنهم أَنْظَرُ الناس في صغير، وأركَبُه لكبير[1]!.

والمتتبع لأوكار الشرور في الكوفة يجد أن الفتنة نمت فيها، واشتهر عن أهلها تألُّبهم على ولاتهم ورفضُهم لهم مهما استرضوهم؛ فقد شكَوْا سعد بن أبي وقاص، وأرجفوا بالوليد بن عقبة، وطردوا سعيد بن العاص.

•• وخلال سِني خلافة عثمان وقعت أحداث شتى يقع مثلها في أي دولة كبيرة أو أمة متعددة الأعراق والأجناس. وكانت تلك الأحداث تتحرك تحت السطح، ورمادُها يتَّقد على هِينَتِه، وقامت الأيدي الخبيثة والنفوس الماكرة الحاقدة بجمع رُفاتها والنفخِ في رمادها، وضَمَّت إليها فريقاً من اللصوص والمحدودين والموتورين وضعاف النفوس وسفهاء الأحلام ومبتغي الفتنة ومحبِّي الزعامة.

ذكر الطبري وغيره أن الوليد بن عُقبة ولي الكوفة، (وكان أحبَّ الناس في الناس وأرفقَهم بهم، فكان كذلك خمس سنين، وليس على داره باب. ثم إن شباباً من شباب أهل الكوفة نَقَبوا على ابن الحَيْسُمان الخُزاعي وكاثَروه، فنَذِر بهم، فخرج عليهم بالسيف، فلما رأى كثرتهم استَصْرخ، فقالوا له: اسكت، فإنما هي ضربة حتى نُريحك من رَوْعة هذه الليلة، وأبو شُريح الخزاعي مشرف عليهم، فصاح بهم، وضربوه فقتلوه، وأحاط الناس بهم فأخذوهم، وفيهم: زهير بن جُندب الأَزْدي، ومُورِّع بن أبي مورِّع الأَسَدي، وشُبيل بن أُبيّ الأَزْدي، في عدة. فشهد عليهم أبو شُريح وابنه أنهم دخلوا عليه، فمنَع بعضُهم بعضاً من الناس، فقتله بعضهم. فكتب ـ الوليد ـ فيهم

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٩/٤.

إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر في الرَّحبة. وقال في ذلك عَمرو بن عاصم التميمي:

لا تأكلوا أبداً جيرانَكم سَرَفاً ... أهلَ الزَّعَارَةِ في مُلْكِ ابنِ عفَّانِ
إنَّ ابنَ عفَّانَ الذي جَرَّبتُمُ ... فَطَم اللصوصَ بمُحْكَم الفُرقانِ
ما زال يعملُ بالكتابِ مُهَيْمناً ... في كلِّ عُنْقٍ منهمُ وبَنَانِ[1]

وغضِب أهلُ هؤلاء الذين قُتلوا قِصاصاً، واضْطَغنوا على الوالي (الوليد بن عقبة)، وعلى رأسهم: أبو زينب بن عوف وأبو مورِّع الأَسَدي وجُندب الأَزْدي، وأخذوا يتتبعون غِرَّة للوالي، واقتحموا عليه بيته ليلفِّقوا له تهمة، فلم يظفروا بمرادهم، وخرجوا يتلاومون، وأقبل عليهم الناس يسبُّونهم، أما الوليد فسَامَحَهم وسَتَر عليهم وطوى الأمر عن عثمان[2]!.

•• لكن هؤلاء المفترين مَشَوا في طريق الضلال، وأتوا عبد الله بن مسعود، وقالوا: إن الوليد يعتكف على شرب الخمر، وأذاعوا ذلك حتى طُرح على أَلْسُن الناس.

واستمروا في الافتئات على الوليد وإثارة أهل الكوفة عليه، ويروي الطبري وغيره: أن الوليد أُتي بساحر، فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حدِّه، فقال: اقتلْه. فانطلَقَ الوليد لإقامة الحدِّ عليه، ونُودي في المسجد أن رجلاً يلعب بالسحر عند الوليد، فأقبلوا، وأقبل جُندب الأَزْدي ـ واغتنمها ـ يقول: أينَ هو؟ أين هو؟ حتى أُرِيَه، فضَرَبَه! فاجتمع ابن مسعود والوليد على حَبْس جُندب، حتى كَتب إلى عثمان، فأجابهم عثمان: أن استحلِفوه بالله ما عَلِم برأيكم فيه، وإنه لصادق بقوله فيما ظَنَّ من تعطيل حدِّه، وعزِّروه وخَلُّوا

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧١/٤ ـ ٢٧٢؛ الكامل، لابن الأثير: ١٠٥/٣؛ التمهيد والبيان، ص٣٧ ـ ٣٨.
(٢) انظر: كتابنا «عثمان بن عفان» ص٤١٩ ـ ٤٢٢.

سبيلَه. وتقدم إلى الناس في أن لا يعملوا بالظنون، وأن لا يُقيموا الحدود دون السلطان، فإنا نُقيد المخطئ ونؤدِّب المصيب.

وهكذا نرى أن جندباً الأزدي الموتور على الوالي الوليد بن عقبة قد افتات عليه وتدخّل في عمله وقَتل الساحر، وليس لجندب أن يتدخل في إقامة الحدِّ مع وجود الوالي، وكان يمكنه أن يطالبه بإقامة الحد لو تأخر في ذلك.

وغضِبَ لجندب أصحابُه، فخرجوا إلى المدينة، فيهم: أبو خُشَّة الغِفاري وجَثَّامة بن الصَّعْب بن جثَّامة ومعهم جُندب، فاستعفَوْه من الوليد، فقال لهم عثمان: تعملون بالظنون، وتخطئون في الإسلام، وتخرجون بغير إذنٍ! ارجعوا، فردَّهم. فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبقَ موتورٌ في نفسه إلا أتاهم، فاجتمعوا على رأي فأَصْدَروه، ثم تغفَّلوا الوليد ـ وكان ليس عليه حجاب ـ فدخل عليه أبو زينب الأَزْدي وأبو مورِّع الأسدي، فسلَّا خاتَمَه، ثم خرجا إلى عثمان، فشهدا عليه، ومعهما نفر من يعرف من أعوانهم. فبعث إليه عثمان، فلما قدِم أَمرَ به سعيدَ بن العاص، فقال الوليد: يا أمير المؤمنين، أُنشدُك الله، فوالله إنهما لخصمان موتوران! فقال: لا يَضرُّك ذلك، إنما نعمل بما ينتهي إلينا، فمن ظَلَم فالله وليُّ انتقامه، ومن ظُلِم فالله ولي جزائه(١).

وتوضح رواية أخرى أن الرجل الذي استلَّ خاتَمَ الوليد استغلَّ نومَه العميق فاستلَّ خاتمه(٢)!.

ولَفَّق هؤلاء المجرمون الموتورون على الوليد أنه كان يشرب الخمر، وقد شهدوه وهو يقيء الخمر! فأقام عثمان الحدَّ على الوليد لتوفُّر الشهود

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٥/٤ ـ ٢٧٦؛ الكامل، لابن الأثير: ١٠٦/٣ ـ ١٠٧.

(٢) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٩٧٢/٣.

لا لصحة الواقعة، فحلف له الوليد وأخبره خبرهم، فقال عثمان: نُقيم الحدودَ، ويَبوء شاهد الزور بالنار، فاصبِرْ يا أخي(١)!.

•• قطع أمير المؤمنين عثمان دابرَ الفتنة فعزل الوليد عن الكوفة، وولّى عليها سعيد بن العاص، وكان في المدينة، فاتجه إلى الكوفة ومعه أولئك الذين قدِموا على عثمان في شكاية الوليد، (الأشتر النخعي، وأبو خُشَّة الغفاري، وجُندب بن عبد الله، وأبو مُصعب بن جثّامة)(٢).

فلما وصل سعيد الكوفة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (والله لقد بُعِثتُ إليكم وإنِّي لكارهٌ، ولكني لم أجدْ بُدّاً إذ أُمِرت أن أَتَّمِرَ. ألا إن الفتنة قد أَطلعَتْ خَطْمَها وعينَيْها، ووالله لأضربنَّ وجهها حتى أقمعَها أو تُعييني، وإني لرائد نفسي اليوم) ونزل.

وهكذا يتبين لنا معرفة سعيد ببدايات الفتنة وإرهاصاتها التي أخذت تظهر في الكوفة، وأنه تهدَّد أصحابَها بالقضاء عليهم وعليها. ثم أخذ يتعرف على أحوال الكوفة ويستقصي أخبار أهلها، ثم كتب تقريراً وجَّهَه إلى أمير المؤمنين يقول فيه: (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغُلب أهلُ الشرف منهم والبُيوتات والسابقة والقُدْمة، والغالبُ على تلك البلاد روادِف رَدِفَتْ، وأعرابٌ لَحِقَتْ، حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ونابتتها!).

فكتب إليه عثمان: (أما بعدُ، ففَضِّلْ أهلَ السابقة والقُدْمة ممن فَتَح الله عليه تلك البلاد، وليكن مَن نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكلٍّ منزلته، وأَعْطِهم جميعاً بقِسْطِهم من الحق، فإن المعرفةَ بالناس بها يُصَاب العدل).

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٦/٤؛ وانظر: كتابنا «عثمان بن عفان» ص٤١٩ ـ ٤٢٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٧٩/٤.

وتدل هاتان الرسالتان المتبادلتان بين الخليفة والوالي عن إدراكهما لمصدر المشكلات في الكوفة، وهو وجود الأعراب الروادف الذين نزلوا البلاد بعد أهلها الذين نبتوا فيها والسابقين الذين فتحوها، ونافسوهم في تصريف الأمور ولم يعرفوا مكانة لذوي الشرف ولا فضلاً لذوي السابقة والقدم في الإسلام، فلم يتورَّعوا عن الأذى وإلصاق التُّهم وإثارة الفتن!.

وقد اتخذ الوالي سعيد بن العاص إجراءً حكيماً يحدُّ من تسلُّط أولئك الدُّخلاء عملاً بنصيحة أمير المؤمنين عثمان؛ فأَرسَل إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال: أنتم وجوه مَنْ وراءَكم، والوجهُ ينبئ عن الجسد، فأَبْلِغونا حاجة ذي الحاجة وخَلَّة ذي الخَلَّة. وأَدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف، وخلَص بالقراءِ والمتسمِّتين في سَمَره. فكأنما كانت الكوفة يَبْساً شَمَلَتْه نار، فانقطع إلى ذلك الضَّرب ضَرْبُهم. وفَشَت القالة والإذاعة.

وأوقف سعيدٌ أميرَ المؤمنين عثمانَ على حقيقة الأمر بالكوفة واضطراب أمرِ هؤلاء الفتانين، فقام عثمان ثانية وخطب الناس، وكان مما قاله: يا أهلَ المدينة استعِدُّوا واستمسكوا، فقد دبَّت إليكم الفتن[1]!.

•• بقي أهل الشر والانحراف على أخلاقهم الفاسدة يهتبلون كل فرصة لإثارة الفتن والطعن على الولاة والخليفة، ووالي الكوفة سعيد بن العاص على عادته كان مجلسه الخاص لا يغشاه إلا نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الفتوحات والقرَّاء والمُتسمِّتون، وكان هؤلاء دَخْلَته إذا خلا، فأما إذا جلس للناس فإنه يدخل عليه كل أحد[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٨/٤ ـ ٢٨٠؛ الكامل، لابن الأثير: ١٠٨/٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٣١٧/٤ ـ ٣١٨. دَخْلته: بطانته وخواص جلسائه.

جلس سعيد للناس يوماً، فدخل عليه جمع فيهم (الأَشتر النخعي، وابن ذي الحَبَكة، وجُندب، وصَعْصَعة، وابن الكــوَّاء، وكُميل بن زياد، وعُمير بن ضابئ، وعَمْرو بــن الحَمِق الخزاعي، وعلقمة بن قيــس)، وفيهم خُنَيس بن حُبيش وابنه عبد الرحمن، وغيرهم. وبينما هم يتحدثون قال خُنيس: ما أجودَ طلحة بن عبيد الله! فقال سعيد: إن من له مثل (النَّشَاسْتَج)[1] لحقيقٌ أن يكون جــواداً، والله لــو كان لــي مثلــه لأعاشــكم الله منها عيشــاً رغــداً، فقال عبدالرحمن بــن خُنيس ـ وهو حَدَث ـ: والله لَــوَدِدتُ أن هذا المِلْطاط لك ـ يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات مما يلي الكوفة ـ فثار عليه القوم (الأشــتر ومن معه) وقالوا: فَضَّ الله فــاكَ، والله لقد هممنا بــك! فقال أبوه: حَــدَثٌ، فلا تؤاخذوه، فقالــوا: يتمنَّى له من سَــوَادنا؟! قــال: ويتمنَّى لكم أضعافَه، قالوا: لا يتمنى لنا ولا له، ثم قالــوا: أنت أمرتَه بذلك، وثاروا إليه، فحاول أبوه منعهم، فضربوهما حتى غُشِي عليهما! وسعيدٌ يُناشِدهم ويأبَوْن، حتى قَضَوا منهما وطَراً.

وسمعتْ بذلك بنو أَسَــد، فجاؤوا وأحاطوا بمجلس الوالي ليدافعوا عن رَجُلَيْهما، فتلافَى ســعيد بحكمتــه هذه الفتنة، وردَّ بني أســد عن الأشتر وجماعته.

ولمــا أفاق الرجــلان قال لهما ســعيد: أبكما حيــاة؟ قــالا: قَــتَلَتْنا غاشِيتُك! قال: لا يَغْشَــوني والله أبداً، فاحفَظَا علَيَّ ألسنتكما، ولا تجرِّئا علَيَّ الناس، ففعلا.

لكن الأشتر وأصحابه جلســوا في بيوتهم، وأقبلوا على نشر الشائعات، وشَتْم عثمان وســعيد، وأقبل الناس عليهم، حتى جاء صلحاءُ الكوفة سعيداً

---

(١) ضَيْعة أو نهر بالكوفة لطلحة بن عبيد الله، وكانت عظيمة كثيرة الدخل.

في أمرهم، فقال: هذا عثمان قد نهاني أن أُحرِّك شيئاً، فمن أراد منكم شيئاً فليكتب إلى عثمان.

فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم، فكتب أمير المؤمنين إلى سعيد وأهل الكوفة: (إذا اجتمع مَلَؤكم على ذلك، فأَلْحِقُوهم بمعاوية). فسيَّرهم إلى معاوية بالشام، وسُمُّوا (المُسَيَّرين)، وهم: الأشتر النخعي، وابن الكَوَّاء اليَشْكُري، وصَعْصَعة بن صُوحان العَبْديّ، وأخوه زيد، وكُميل بن زياد النَّخَعي، وجُندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأَزْدي، وثابت بن قيس النخعي، وعروة بن الجَعْد البارقي، وعَمْرو بن الحَمِق الخُزاعي.

وكتب عثمان إلى معاوية: (إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً قد خُلقوا للفتنة، فَرُعْهُمْ وقُم عليهم، فإن آنستَ منهم رُشداً فاقبَلْ منهم، وإن أَعْيَوْك فارْدُدْهم عليهم).

وكان ذلك سنة (٣٣هـ)[1].

وثمة رواية تفيد أن من بين المضروبين (قائد شرطة الكوفة)، وكان في مجلس الوالي سعيد بن العاص[2]!.

وباستعراض أسماء هؤلاء المنحرفين الفَتَّانين مساعِر الشر والفتنة، نرى أن لهم علاقةً قويةً بالافتيات على الوليد بن عقبة، ثم هاهم يثيرون الاضطراب والفتنة على سعيد بن العاص، وهم كذلك ستكون لهم يدٌ طُولى في الخروج على أمير المؤمنين وقتله!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣١٧/٤ ـ ٣١٩؛ الكامل، لابن الأثير: ١٣٨/٣ ـ ١٣٩؛ البداية والنهاية: ١٦٥/٧ ـ ١٦٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٢٣/٤.

• **قصة المُسَيَّرِين:**

•• استقبل والي الشام معاوية بن أبي سفيان (المُسَيَّرين)، وتولاهم برعايته، وشملهم بحلْمِه، وتعاهدهم بأدبه وحسنِ سياسته، وبذَلَ لهم الترغيب ولوَّح بالترهيب، وتقلَّب بهم بين الشدة واللِّين، وأنزلهم كنيسة تسمى (مريم)، وأجرى عليهم ـ بأمر عثمان ـ ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدَّى ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً: (إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأممَ وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بَلَغَني أنكم نَقَمتم قريشاً، وإن قريشاً[1] لو لم تكن عُدْتم أذلةً كما كنتم. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة، فلا تَشِذُّوا عن جُنَّتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجَوْر، ويَحتمِلون منكم المؤونة. والله لتنتهنَّ أو لَيبتلينَّكم الله بمن يسومكم، ثم لا يَحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم).

فقال صَعْصَعة بن صُوحان: (أمَّا ما ذكرتَ من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعَها في الجاهلية، فتخوِّفنا! وأما ما ذكرتَ من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخْترِقتْ خُلِص إلينا).

وهذا يعبِّر عن مخبوء أنفس هؤلاء، وأنهم ما أرادوا وجه الله، ولا تقويمَ الأخطاء التي ادَّعوا وجودَها، فهم يرون أن الجُنَّة ـ وهم الولاة ـ إذا اختُرقت خلص الأمر إليهم، وأصبحوا ولاة الأمر!.

وهنا ردَّ عليه معاوية فقال مخاطباً جماعتهم: (عرفتكم، الآن علمتُ أن الذي أغراكم على هذا قلةُ العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً!

---

(١) لم يرد معاوية رضي الله عنه التعصب لقريش، إنما لفت أنظارهم إلى أن قريشاً هم حملة هذا الدين إلى الدنيا؛ فلهم السابقة والفضل.

أُعْظِم عليك أمر الإسلام وأذكِّرك به، وتذكِّرني الجاهلية، وقد وعظتك؟! وتزعم لِما يجنُّكَ أنه يُخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة! أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم! افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أن قريشاً لم تُعَزَّ في جاهلية ولا إسلام إلا بالله ﷻ، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمَهم أحساباً، وأمحَضَهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكمَلَهم مروءةً، ولم يتمنعوا في الجاهلية ـ والناس يأكل بعضهم بعضاً ـ إلا بالله الذي لا يُستذل من أعزَّ، ولا يُوضَع من رفع، فبوَّأَهم حَرَماً آمناً يُتخَطَّفُ الناس من حولهم).

ثم أَنَّبَهم ووبَّخَهم وقرَّعَهم، ثم بذل لهم النصح، وأرشدهم إلى طريق الحق إن كانوا يريدونه، فقال: (وبعدُ فإنْ أردتم النجاة فالزموا جماعتكم، ولْيَسَعْكُم ما وسع الدهماءَ، ولا يُبطِرنَّكم الإنعامُ، فإن البطر لا يعتري الخيار، اذهبوا حيث شئتم، فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم).

فكتب معاوية إلى عثمان: (إنه قدِمَ علَيَّ أقوام ليس لهم عقول ولا أديان، أَثقلَهم الإسلام، وأضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة، واللهُ مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم. وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم، فانْهَ سعيداً ومن قِبَلَه عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير).

•• فكتب إليه عثمان أن يردَّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردَّهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلَقَ ألسنةً منهم حين رجعوا!.

وضَجَّ بهم سعيد، فكتب إلى عثمان بذلك، فكتب عثمان إليه بأن يسيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص، وكتب

إلى الأشتر وأصحابه: (أما بعدُ، فإني قد سيَّرتُكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهلَه شرّاً، والسلام!).

فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: (اللهم أسوأنا نظراً للرعية، وأعملنا فيهم بالمعصية؛ فعجِّل له النقمة!).

وقدم سعيد بن العاص على عثمان بالمدينة، واستعمل عَمْرو بن حُريث على الكوفة، والقعقاع بن عمرو على الحرب.

•• ولما قدِم (المُسَيَّرون) على عبد الرحمن بن خالد، قبض عليهم بمثلِ مخالب أبيه ﵄، وأنزلهم بجزيرة ابن عُمر، وقال لهم: (يا آلَة الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً! قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نِشاط! خَسَّر الله عبدَ الرحمن إن لم يؤدِّبْكم حتى يحسركم. يا معشر مَن لا أدري أعربٌ أم عَجم، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجَمتْه العاجمات، أنا ابن فاقئ الردَّة، والله لئن بلغني يا صعصعة ابن ذل أن أحداً ممن معي دَقَّ أنفك ثم أَمَصَّكَ[1]، لأطيرنَّ بك طَيْرة بعيدة المهوى!).

ولوَّحَ لهم عبد الرحمن بهذه الكلمات التي هي كبريق سيف أبيه، وأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم، فإذا مرَّ به صعصعة قال: (يا ابنَ الخطيئة؛ أعلمتَ أن من لم يُصلحْه الخير أصلحه الشر؟! ما لَكَ لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية! فيقول ويقولون: نتوب إلى الله، أقِلْنا أقالَكَ الله! فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم).

ثم سَرَّح الأشترَ إلى عثمان، وقال لهم: ما شئتم، إنْ شئتم فاخرجوا، وإن شئتم فأقيموا. وخرج الأشتر، فأتى عثمانَ بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن

---

(١) أمَصَّه: قال له: يا ماصَّ هَنَ أبيه، أو يا ماصَّ بَظَر أمه!.

أصحابه، فقال عثمان للأشتر: احلل حيث شئت، فقال: مع عبدالرحمن بن خالد، وذكر من فضله، فقال عثمان: ذاك إليكم.فرجع إلى عبدالرحمن[1].

ثالثاً ـ أوكار الفتنة في البصرة:

مثلما افترى بعض أهل الكوفة على ولاتهم مثل سعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، كذلك كان في البصرة مَنْ في قلبه دَغَل وفي نفسه حبٌّ للفتنة ورغبة في الافتراء والطعن على ولاة الأمر، فقد مات عمر وعلى البصرة الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، وقد أوصى عمر الخليفة من بعده أن يُقرَّه عليها أربعَ سنين تمييزاً له عن بقية ولاة الأمصار، ففعل عثمان، بل بقي أبو موسى نحو ست سنين إلى سنة (٢٩هـ).

وكان يَسُوس أهلَ البصرة بالعدل والرحمة مع الجهاد والفتح، وحَدَث أنه انتقض الأكراد على الدولة، فحثَّ أبو موسى على الجهاد لتأديبهم، وخرج الناس وخرج هو في ثَقَلِه، فرآه بعض أصحاب الهوى والفتنة وتمسكوا بعنان دابته وأرادوه على الترجُّل مثلهم، فحاورهم حتى قنَّعهم. لكن المفترين ما قبِلوا ذلك، فأغَذُّوا السيرَ إلى المدينة وطلبوا من الخليفة عزل أبي موسى، وقالوا: (ما كل ما نعلم نحب أن نقوله، فأبْدِلْنا به، فقال: مَن تحبُّون؟ فقال غَيْلان بن خَرَشة: في كل أحد عِوَضٌ من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا، وأحيا أمرَ الجاهلية فينا، فلا ننفكُّ من أشعري كان يعظِّم ملكه عن الأشعريين، ويستصغر مُلك البصرة! وإذا أمَّرتَ علينا صغيراً كان فيه عِوض منه، أو مُهْتَراً كان فيه عوض منه، ومَن بين ذلك مِن جميع الناس خير منه!). فدعا عبدالله بن عامر فأمَّره على البصرة[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣١٩/٤ ـ ٣٢٢ (رواية سيف بن عمر)؛ وكتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٣٨٣ ـ ٣٨٦.

(٢) تاريخ الطبري ٢٦٥/٤. المُهْتَر: الأحمق الخَرِف.

وكلام هـذا المفتري وطعنُه علـى الوالي الجليل، يدل على المستوى الديني والأخلاقي والنفسي الذي ينطوي عليه هؤلاء، ومدى افترائهم وضلالهم وحبّهم للفتنة والإزراء على الكبار!.

وسار فيهم ابن عامر على خير سير الولاة، في العدل والرحمة والإنصاف ورغد العيش، والجهاد والفتوحات الواسعة، لكن الفَتَّانين بقوا على أخلاقهم وسوء سيرتهم وخُبْث سريرتهم، وإن كانوا أقلَّ حدَّة في ذلك من أهل الكوفة.

كان (حُمْران بن أبان) تـزوَّج امرأة في عدَّتها، فنكَّلَ بـه عثمان، وفرَّق بينهما، ونفاه إلى البصرة، فلـزِم أميرها عبدالله بن عامـر. لكنه افترى على التابعي الجليل الزاهد العابد عامر بن عبد قيس، ووشـى به إلى الأمير: أنه لا يَرى لآل إبراهيم عليه السلام عليه فضلاً، ولا يشـهد الجمعة، ولا يرى التزويج، ولا يأكل اللحم! فكشف ابن عامر عن أمره، فوجده مكذوباً عليه.

لكن حُمران لَجَّ في افترائه، وتتبَّع عامر بنَ عبد قيس، وسعى به، وشهد معه قوم، فسـيَّره عبدالله بن عامر إلى معاوية بالشام، عن أمر عثمان. وفتش معاوية عن أحـوال (عامر)، فوجده من خيـار الناس تقوى وعبـادة وزهداً وورعاً، فطلب إليه أن يرجع إلى بلـده البصرة، فقال عامر: لا أرجع إلى بلد استحلَّ أهلُها مني ما استحلُّوا، ولكني أقيم بهذا البلد الذي اختاره الله لي[١].

ومن أمثال غيلان بن خرشـة ومن قاموا معه على أبي موسى الأشعري، وحُمران ومَن شـهد معه زوراً على ذاك العبد الصالح؛ كانت بذور الفتنة في أرض البصرة، فأنتجت ثماراً مُرّة.

---

(١) تاريخ الطبـري ٣٢٨/٤. وانظر ترجمة (عامر بن عبد قيس) في: سـير أعلام النبلاء: ١٥/٤ ـ ١٩. وقد خلطـه الدكتور علي الصلابي ـ فـي كتابه «عثمان» ص٣٩٢ ـ بالصحابي (أشـج عبد القيس)، وهي واحدة من أعاجيبه في كتبه!.

وكان في البصرة (اللصّ حُكَيم بن جَبَلَــة)(١)، وقد نزل عليه (عبد الله بن سبأ)، واجتمع إليه نفر فطرَح لهم أضاليله وافتراءاته، فقبِلوا منه واستعظموه، فعلم به عبد الله بن عامــر فأخرجه من البصرة، فذهب إلــى الكوفة، ثم إلى مصر فاستقرَّ بها، وجعل يكاتبهم ويكاتبونه، ويختلِف الرجال بينهم(٢).

رابعاً ـ أوكار الفتنة في مصر:

•• تعود بذور الشــر والفتنة في مصر إلى أيام واليهــا الفاتح عمرو بن العاص؛ وذلــك أن (الخوارج مــن المصريين) كانوا محصوريــن من عَمْرو مقهورين معه، لا يســتطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير، فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو أليَنُ منه. فلم يزل ذلك دأبَهــم حتى عزل عَمْراً عــن الحرب وتركه على الصــلاة، وولى على الحرب والخَراج عبد الله بن ســعد بن أبي سَرْح. ثم سَــعَوا بينهما بالنميمة، فكان بينهما كلام قبيح، فأرسل عثمان إلى عمرو أن يَـقدم عليه، وجمع لابن أبي سرح ولاية مصر كلها(٣).

وكان الذي مشــى بينهمـا بالنميمة سُــودان بـن حُمران وكِنانة بـن بِشْر وأشباههما.

ومن بذور الفتنة أولئــك الذين تغضَّبوا على ابن أبي سَــرْح عندما أخذ خمــس الخمس مــن الغنائم كما وعــده أميــر المؤمنين، فاســتنكروا ذلك وارتعدت له آنافهم، وساروا إلى المدينة وشــكوا واليهم، وطلبوا من عثمان أن يأمره بردِّ النَّفْل، فاستجاب لهم عثمان وأداً للفتنة.

---

(١) تقدم التعريف به: ص ١٢٧ في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٣) البداية والنهاية: ٧/١٧٠.

•• ومن رؤوس الفتنة والسُّعاة فيها: محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر.

وقد سأل سائل سعيد بن المسيِّب عن محمد بن أبي حذيفة: ما دعاه إلى الخروج على عثمان؟ فقال: (كان يتيماً في حَجْر عثمان، فكان عثمان واليَ أيتامِ أهله، ومحتمِلَ كَلِّهم، فسأل عثمانَ العملَ حين وُلِّيَ، فقال: يا بُنيَّ، لو كنتَ رِضاً ثم سألتني العمل لاستعملتُك، ولكن لستَ هناك! قال: فَأْذَنْ لي فَلأخرجْ فَلأطلُبْ ما يَقوتني، قال: اذهب حيث شئتَ. وجهَّزه من عنده، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغيَّر عليه أنْ منعه الولاية!)[١].

وأما محمد بن أبي بكر: فيروي سيف بن عمر، عن مبشِّر قال: (سألتُ سالمَ بنَ عبد الله بن عمر عن محمد بن أبي بكر: ما دعاه إلى ركوب عثمان؟ فقال: الغضب والطمع، قلت: ما الغضب والطمع؟ قال: كان من الإسلام بالمكان الذي هو به، وغرَّه أقوام فطمِع. وكانت له دالَّة فلَزِمه حق، فأخذه عثمان من ظهره ولم يُدْهِن؛ فاجتمع هذا إلى هذا، فصار مُذَمَّماً بعد أن كان محمداً!)[٢].

•• ولمّا قدِم عبد الله بن سبأ مصر، وأخذ يُلقي أباطيله على بعض رؤوس الشر مثل كِنانة بن بِشْر وسُودان بن حُمران والغافِقيّ بن حرب ـ كان من أسرع الناس استجابة له محمد بن أبي حذيفة، وكان له دور في التأليب على فاتح مصر عمرو بن العاص[٣]، واستمر في إثارة الفوضى وتأريث الفتنة على الوالي الثاني ابن أبي سَرْح، وذلك في وقت الجهاد والناس يخوضون قتالاً

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٩/٤. الكَلّ: اليتيم، والضعيف، ومن يكون عبئاً على غيره.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٩٩/٤ ـ ٤٠٠؛ مختصر ابن عساكر: ١٨٥/١٦. وتقدم التعريف به وبابن أبي حذيفة: ص ١٣١ في هذا الكتاب.

(٣) انظر: مختصر ابن عساكر: ١٨٢/١٦.

شرســاً في معركة (ذات الصَّوَاري)، وبعد انتهاء المعركة جعل ابن أبي حذيفة يقول للرجل: (أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقّاً، فيقول الرجل: وأي جهاد؟ فيقول: عثمان بــن عفان فعل كذا وكذا، وفعل كذا وكذا . حتى أفســد الناسَ. فقدِموا بلدَهم وقد أفسدهم، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به).

ويقول الزهــري: (خرج محمد بن أبي حذيفــة ومحمد بن أبي بكر عام خرج عبد الله بن سعد، فأظهَرا عيبَ عثمان وما غيَّر وما خالَفَ أبا بكر وعمر، وأن دمَ عثمــان حــلالٌ. ويقولون: اســتعمل عبد الله بنَ ســعد رجــلاً كان رســول الله ﷺ أباح دمَــهُ ونزل القرآن بكفــره، وأخرج رســول الله ﷺ قوماً وأدخلهم عثمان، ونَزع أصحابَ رســول الله ﷺ واســتعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر! فبَلَغَ ذلك عبدَ الله بن ســعد فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المســلمين، ولَقوا العدو، وكانا أَكَلَّ المســلمين قتالاً، فقيل لهما في ذلك، فقالا: كيــف نقاتل مع رجل لا ينبغــي لنا أن نحكِّمه! عبد الله بن سعد استعمله عثمان، وعثمان فعل وفعل! فأفسدا أهلَ تلك الغزاة، وعابا عثمان أشــدَّ العيب. فأرسل عبد الله بن سعد إليهما ينهاهما أشدَّ النهي، وقــال: والله لــولا أنــي لا أدري ما يوافــق أميــر المؤمنيــن، لعاقبتكمــا وحبستكما!)(١).

وأرسل ابنُ أبي سَــرْح إلى أمير المؤمنين ليوقفه على الأمر، ويخبره أن محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر قد أفســدا عليه البلاد، فكتب إليه عثمان: (أمَّا ابن أبي بكر فإنه يُوهَب لأبيه ولعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي وهو فرخ قريش)، فكتب إليه ابن أبي سرح: (إن هذا الفرخ قد استوى ريشُه ولم يبقَ إلا أن يطير!)(٢).

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٩٢/٤.

(٢) الكامل، لابن الأثير: ٢٦٥/٣؛ الولاية على البلدان، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

وحاول أمير المؤمنين ووالي مصر استصلاحَهما، وأصرَّ ابن أبي حذيفة على اتهام عثمان وابن أبي سَرْح، وأخذ يكيل التُّهم ويُصدِر الأكاذيب هو ومن معه، ومن ذلك أن عثمان بعث إليه مالاً في مصر، فأخرج ابن أبي حذيفة المال أمام عامة الناس، وقال: إن عثمان يريد أن يرشوني، فزاده ذلك في نظر العامة تعظيماً(١)!.

وزاد في إفساده فقام بتزوير الكتب على ألسنة أمهات المؤمنين، كما سيأتي.

وهكذا كانت مصر تضطرم بنار الفتن ونشر الشائعات والأكاذيب، بفعل أولئك المنحرفين والموتورين وأصحاب الأهواء.

خامساً ـ تزوير الكتب والطعن على الولاة:

وثَمَّة سلاحان خطيران استخدمهما ذلك الخليط غير المتجانس من (المنحرفين الخارجين) على الخليفة، وهما: تزوير الكتب، والطعن على الولاة ومن ورائهم أمير المؤمنين.

•• فقد كتبوا كتباً مزوَّرة على لسان جِلَّة من الصحابة مثل علي وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، وأرسلوها إلى الآفاق يحرِّضون أهلها على قتال عثمان(٢).

وهم في هذا يوهمون الرأيَ العام ويُقنعون الرَّعاعَ الذين ساروا معهم، أن ما يَسْعَون إليه يُظاهرهم عليه ويؤيدهم فيه هؤلاء الأجلاء من الصحابة!.

ففي خبر خروجهم إلى المدينة وحصر عثمان، وقد قبضوا على الذي يحمل (الكتاب المزوَّر على عثمان)، جاؤوا علي بن أبي طالب فقالوا: (ألم

---

(١) الكامل، لابن الأثير: ٢٦٥/٣.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٧٥/٧، ١٩٥.

ترَ إلى عــدوِّ الله[١] كتب فينا بكذا وكذا، وإن الله قد أَحــلَّ دمَه! قُمْ معنا إليه، قال: والله لا أقوم معكم، قالــوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قــال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قط. فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قال بعضهم لبعض: أَلِهذا تقاتلون، أو لهذا تغضبون؟! فانطلق عليٌّ فخرج من المدينة)[٢].

ويروي مَسْروق هذا الموقفَ عن أم المؤمنين عائشة بعد أن قُتل عثمان؛ فعن الأعمش، عن خَيْثَمة، عن مســروق قال: قالت عائشة: تركتُموه كالثوب النقيِّ من الدَّنَــس، ثم قربتُموه تذبحونــه كما يُذبح الكَبْش! قال مســروق: فقلتُ: هذا عملكِ؛ كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه! فقالت عائشة: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبتُ إليهم بســوادٍ في بياضٍ حتى جلستُ مجلسي هذا. قال الأعمش: فكانوا يَرون أنه كُتب على لسانها[٣].

ومن رؤوس المفترين في هذا الميدان محمد بن أبي حذيفة، حيث (كان يكتب الكتب على ألســنة أزواج النبي ﷺ، ثم يأخذ الرواحلَ فَيُضمِّرُها، ثم يأخذ الرجالَ الذين يريد أن يبعث بذلك معهم، فيجعلهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوههم الشمسَ لتلوِّحهم تلويحَ المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم، وقد أمرهم إذا لقيهم النــاس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبــر في الكتب. ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس كأنه يتلقى رســلَ أزواج النبي ﷺ، فإذا لقوهــم قالوا: لا خبــر عندنا، عليكم بالمســجد! فيقرأ عليهــم كتب أزواج النبــي ﷺ. فيجتمع الناس في المســجد اجتماعاً ليس فيــه تقصير، ثم يقوم

---

(١) يعنون (عثمان)، قاتلهم الله!.

(٢) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ تاريخ خليفة، ص١٦٩.

(٣) تاريخ خليفــة، ص١٧٦؛ طبقات ابن ســعد: ٨٢/٣؛ تاريــخ المدينة، لابن شــبة: ١٢٢٥/٤، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية: ١٩٥/٧.

القارئ بالكتاب فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عُمِل في الإسلام، وما صُنِع في الإسلام! فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء. ثم يقول، ثم ينزل عن المنبر. وينفر الناس بما قرأ عليهم)[1].

•• وزادوا الأمر سوءاً بالطعن على الولاة وتشويه سيرتهم في سياسة الرعية، والتشكيك بكفاءتهم وإخلاصهم، والافتراء عليهم في أخلاقهم ودينهم، واتهامهم بالجَوْر والتقصير واختلاس الأموال وارتكاب الموبقات، وغير ذلك مما أوضحناه عند التعريف بهم وبيان أسباب عزلهم.

وهذا التزوير على عثمان وكبار الصحابة والطعن عليه وعلى ولاته وقادة جنده؛ أدى إلى نتائجه الخطيرة، لكثرة العناصر الفاسدة في المجتمع يومئذٍ، حيث زادت البلبلة في قلوب جمهور كبير من الرعية، وزعزعت الثقة بالخليفة والولاة والقادة ومسيرة الدولة والأمة.

سادساً ـ أعمال عبد الله بن سبأ:

١ ـ تعريف وتوضيح وبيان:

أغلب آراء المؤرخين والنسَّاب والمصنفين في العقائد والفِرق؛ على أن عبد الله بن سبأ من يهود اليمن من صنعاء، ويقال له: ابن السوداء، لأن أمه حبشية.

نشأ في بيئة يهودية في اليمن، ولليهود وجود فيها، وتأثر بالنصرانية التي دخلت اليمن عندما استولى الأحباش عليها، فنتج عنده (ازدواجية) في العقائد، يمكن تلمُّسها من خلال نشره لفكرة (الرجعة) و(الوصية).

---

(١) ولاة مصر، للكندي، ص٣٨؛ وانظر: أخبار المدينة، لابن شبة: ١١٥٤/٤.

بدأ ظهوره بين المسلمين في عهد عثمان نحو سنة (٣٠هـ) في الحجاز، وتنقل إلى البصرة ثم الكوفة فالشام واستقر به المقام في مصر[١].

ووجود ابن سبأ حقيقة ثابتة لا تقبل الطعن ولا التشكيك، وله ترجمة عند أهل السُّنَّة في عامة كتب الجرح والتعديل والضعفاء، وأخباره في الفتنة تطفح بها تواريخهم، وعند متقدمي الشيعة وثائق مسجلة في كتبهم تثبت وجود ابن سبأ[٢].

وأكد وجودَه أغلبُ المستشرقين المعنيين بالدراسات العربية والإسلامية، كما أنه محلُّ اتفاق عند المُحْدَثين من أهل السُّنَّة عدا فئة قليلة كان لها تأثر واضح بمنهج الاستشراق. أما المُحْدَثون من الشيعة فيذهب كثير منهم إلى إنكاره سعياً لنفي علاقته بتأسيس مذهب التشيع، وكتبُ أئمتهم المتقدمين حجة عليهم[٣]، وممن أثبت وجوده من المعاصرين منهم: محمد جواد مغنية.

٢ ـ عقائد وأفكار:

من أسوأ العقائد والأفكار التي اختلقها ابن سبأ ودعا إليها:

١ ـ أن علي بن أبي طالب لم يمت، وأنه لا يموت حتى يملك العرب ويسوقهم بعصاه.

٢ ـ يدعو إلى ولاية أهل البيت، وولاية علي والبراءة من مخالفيه.

٣ ـ يزعم أن علياً هو الله، وأنه يحيي الموتى، وقال لعلي في أحد المواقف: أنت أنت! أي أنت الله.

---

(١) تاريخ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ»، ص١ ـ ٢؛ عبد الله بن سبأ، للعودة، ص٣٨ ـ ٥٣.

(٢) وقد ذكر خلاصة قيمة في هذا: سليمان العودة في كتابه «عبد الله بن سبأ»، ص٥٣ ـ ١٠٤.

(٣) انظر: عبد الله بن سبأ، ص٨٨.

٤ ـ وهو أول مـــن أحدث القول بالنص على الإمامــة والوصية، وبإمامة اثني عشر إماماً.

٥ ـ وهو أول من قــال بالغلو والحُلول، والجــزء الإلــهي الذي حَلَّ في علي ينتقل بالتناسخ من إمام إلى إمام.

وكثير من عقائد الشيعة ترجع إلى أصول يهودية وضعها عبدالله بن سبأ؛ فهو الذي جاء بعقيدة الوصية والرجعة والولاية والإمامة والبَداء ونحوها[١].

وقد جاء في كتاب «رجال الكَشِّــي»، وهو من الكتب الموثوق بها عند الشيعة في أســماء الرجال، عن عبدالله بن ســبأ: (وكان أولَ مَنْ أشهَرَ القول بفَرْض إمامة علــي، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشــف مخالفيه، وأَكْفَرهم، فمن هنا قال من خالف الشيعة: أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية)[٢].

٣ ـ تضخيم دور ابن سبأ، وأسباب نجاح المؤامرة:

●● ومع يقيننا الجــازم بوجود عبدالله بن ســبأ، وافتراءاته وأكاذيبه التي افتراها في ادعاء الوصية والإمامة والولاية والرجعــة وإلاهية علي... إلا أننا لا نســلِّم بالتهويل الكبير الذي يعمد إليه البعض فينســبون لابن ســبأ كل المؤامرات والفتن والملاحم الواقعة بيــن الصحابة، وأنه بطلٌ خفيٌّ مخيف، ورجلٌ على غايــة من الــذكاء، وصدق الفراســة، والنظر البعيــد، والحيلة الواسعة، والنفاذ إلى نفســية الجماهير، وأنه أحد أبطال جمعية تلمودية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية[٣]!.

---

(١) عبدالله بن سبأ، ص٥٥ ـ ٦١، ٨٥، وانظر هوامشه.

(٢) رجال الكشــي، ص٧١؛ وانظر: الموســوعة الميســرة في الأديان والمذاهــب والأحزاب المعاصرة: ١٠٦٧/٢ ـ ١٠٦٨.

(٣) عائشة والسياسة، لسعيد الأفغاني، ص٦٠؛ وانظر: عبدالله بن سبأ، ص٨٠ ـ ٨١.

فهذا يصور (ابن سبأ) بأنه من طفرات العباقرة، وأصحاب الذكاء المتوقد، والإمكانيات المتعددة، والمقدرة الاستثنائية على استقطاب الأشخاص وحَبْك المؤامرات والتواصل المستمر المحكم، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان والرجال والتاريخ، وكأنه كان يَحْبُك خططه وأعماله بتوافق تام مع كل عناصر المشهد السياسي والتاريخي المؤيدة له، وبغفلة عن أعين الخليفة والولاة والقادة والأعيان وجمهور الناس!.

•• والذي نراه ونذهب إليه:

١ ـ أنه كان أحدَ رؤوس الفتنة وموقدي جذوتها والقيِّمين على التخطيط لها وربط خيوطها، ودفعها في الاتجاه الذي أعدت له وحيكت من أجله. ويؤيد ذلك أن بذور الفتن واختلاق الأباطيل وحَبْكَ المؤامرات مع الحقد والحسد والنزوع إلى الشر؛ كان قبل ظهور ابن سبأ، الذي كان له دور خطير في إضافة فرى جديدة، واختراع أضاليل خطيرة، نبشها من دينه الذي نشأ عليه، وأضافها إلى المنظومة التي نمَّقها المنحرفون قبله ومعه.

٢ ـ كذلك فإن الرجال الذين برزت أسماؤهم في أوكار الفتنة في الكوفة والبصرة ومصر، توجد فيهم شخصيات ماكرة حاقدة موتورة، وتمتلك إمكانيات فذة في الكيد والتآمر والتأليب، والاستبسال للمضي في طريقها إلى نهايته، ومن أبرزهم: الأشتر النَّخَعي الذي لا يقلُّ دوره وخطورته وشراسته ـ برأينا وحسب معطيات التاريخ ـ عن ابن سبأ! وكذلك محمد بن أبي حذيفة الذي بكَّر في الافتراء والتزوير والشغب، وصَعْصَعَة بن صُوحان الذي تبرَّم به معاوية مع مكانته وعظيم حلمه، وكِنانة بن بِشر والغافقي بن حرب وأضرابهم.

٣ ـ وثمة عامل آخر هيأ لأولئك (المنحرفين الخارجين) أن يمضوا في خططهم حتى يصلوا إلى هدفهم ـ وهو: المثالية في العدل والإنصاف والرحمة والأخذ بظاهر حال المرء، والتي كانت تسود المجتمع الإسلامي، متمثلاً برأس الدولة وهو الخليفة، ثم أكابر رجالها كعلي وطلحة والزبير، وأيضاً ولاة الأمصار الذين رأوا أفاعيل هؤلاء وجرائمهم وكيدهم وخبثهم، فكانت المواجهة من الدولة بمختلِف رموزها ومؤسساتها ملتزمة بالعدل والإنصاف واللين معهم، وعدم أخذهم بالظِّنّة وبخفايا نياتهم وخُبث طويتهم، وبقيت تلك المعاملة مستمرة حتى آخر مشاهد الجريمة المروِّعة التي ارتكبوها.

٤ ـ وأيضاً الحريات العامة التي كانت من أوليات مبادئ الإسلام وأركان بنية الدولة الإسلامية، والأسس التي سار عليها الخلفاء الراشدون في سياسة الرعية، والتزموها قولاً وعملاً. وحرية التنقل والاجتماع بين الأفراد والجماعات تحت عين الخليفة وولاته، وعدم التضييق عليهم إلا في حالات قليلة ومساحات ضئيلة. وهذا ما سمح لأولئك بحرية الحركة والتنقل والاجتماع والتراسل، دون بطش من السلطة أو سجن أو تنكيل.

٥ ـ ويضاف إلى جميع ما سبق أمرٌ في غاية الأهمية أَسْهَم في (نجاح المؤامرة)؛ هو المتغيرات والمستجدات التي طرأت على المجتمع الإسلامي وتركيبته الاجتماعية ـ والتي فصَّلنا القولَ فيها ـ فكانت (الحاضنة) لتلك الأجسام الممرضة، وهيأت لها أسباب الحياة والتكاثر والانتشار والفتك، الذي انتهى بقتل الخليفة!.

هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تحقق مسعى أولئك المنحرفين الضالين، وهو ما يمكن استنتاجه بيسر وسهولة من خلال استقراء روايات التاريخ وربطها ببعضها، ومراقبة سيرورة الدولة وتاريخها، وليس سبب **ذلك هو الهالة الفضفاضة التي يضفيها البعض على ابن سبأ وعمله الخارق!.**

٤ ـ دور ابن سبأ وتنسيقه مع أوكار الفتنة في مصر والعراق:

•• روى سيف، عن عطية بن الحارث الهَمْداني، عن يزيد الفَقْعَسي قال: (كان عبد الله بن سبأ يهوديّاً من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتَهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشــام فلم يَقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصرَ، فاغتمر فيهم(١)، فقال لهم فيمــا يقول: لَعَجبٌ ممن يزعم أن عيســى يرجع، ويكذِّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فمحمدٌ أحقُّ بالرجوع من عيســى. قال: فقُبِل ذلك عنه، ووضَعَ لهم الرَّجْعةَ، فتكلموا فيها. ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألفُ نبــيّ، ولكل نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد. ثم قال: محمد خاتَمُ الأنبياء، وعلي خاتمُ الأوصياء. ثم قال بعد ذلك: مَن أظلمُ ممن لم يُجِزْ وصية رســول الله ﷺ، ووثب على وصيِّ رسول الله ﷺ، وتناول أمرَ الأمــة؟! ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذهــا بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهِروا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

فبَثَّ دعاته، وكاتَبَ مَنْ كان استَفْسَــدَ في الأمصار وكاتَبوه، ودَعَوْا في الســر إلى ما عليه رأيُهم، وأظهَروا الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكُتُب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويُكاتِبهم إخوانُهم بمثــل ذلك. ويَكتُــب أهلُ كل مصــر منهم إلى مصــرٍ آخر بما يصنعون؛ فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهــؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسَــعوا الأرض إذاعــةً، وهم يريدون غيــر ما يُظهِرون،

(١) اغتمر في الشيء: اغتمس فيه.

ويُسِــرُّون غير ما يبدون، فيقول أهلُ كل مصرٍ: إنا لفــي عافية مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهلَ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عــن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس!)[1].

من هذا النص تظهر الأســس الخطيرة التي انطلق منها ابن سبأ: وأعظمها خطراً اتهامُ الصحابة بخيانة الأمانة، وأنهم وثبوا على الخلافة وأخفوا وصية رســول الله ﷺ لعلي بهــا! والطعن على الخليفــة الحالي وأنه غير شــرعي وغاصب للإمامــة العظمــى، ووَضَع لهم البديــلَ الذي يوازيــه في الفضل والمكانة عند الناس وهو علي. وأكَّد ذلك بالطعن على عثمان وســيرته في الولاة والمال، مما يوهي مكانته ويسهل فكرة الخروج عليه. وضَمَّ إلى ذلك تشويهَ ســير الولاة، مما يُبرِّر مخالفتَهم والخروج عليهم أو طلبَ استبدالهم، لتحقيق مزيد مــن الفوضى في البلاد. وغَلَّف ذلك كلــه بأنهم أصحاب حق ودعاة إصلاح، وغايتهم وطريقتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إمعان منهم فــي (التَّقِيَّة) و(النفاق) وإظهار خــلاف ما يبطنون. ولكي يكون للدعوة أثر كبير وعميق تمَّ تعميمُ (الخطة) على الرجال الذين مالؤوهم على ذلك واستفســدوهم به، فعَهِدوا إليهــم أن يذيعوها من خــلال أوكارهم في الكوفة والبصرة، وتبادلِ الكتب في أخبار الولايات؛ لإحداث ضجة إعلامية يتناقلها الثرثــارون وأصحاب الهــوى والطَّغَام والمغرضون، ثم نشــرها في الأمصار المجاورة التي تمثِّل قلبَ الدولة ومراكز القرار والقوة فيها!.

●● وبدأ ابن سبأ وأعوانه في مصر مثل سُودان بن حمران وكنانة بن بشر ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهم، بتنفيذ تلك الخطة في بلدهم، كما تشير إلى ذلك رواية سيف: (لما قدِم ابن السوداء مصرَ عَجَمَهم واستَخْلاهم واستَخْلَوه، وعَرَض لهم بالكفر فأبعدوه، وعَرَض لهم بالشِّقاق فأطمعوه، فبدأ فطعن على

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٠/٤ ـ ٣٤١؛ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ»، ص٢ ـ ٣.

عمرو بن العاص، وقال: ما بالُه أكثركم عطـاءً ورزقاً؟! ألا نَنْصِبُ رجلاً من قريش يسـوِّي بيننا؟ فاسـتَحْلَوا ذلك منه وقالوا: كيف نطيق ذلك مع عمرٍو وهو رجلُ العرب؟! قال: تستعفون منه، ثم نعمل عملنا!)(١).

فطَعَنُوا على الوالـي الفاتح الكبيـر، وطلبوا من أميـر المؤمنين عزله، فكَفْكَفَ عثمان من فتنتهم، وجعل عَمْراً على الجهاد والصلاة، وأَسنَد خَراجَ مصر لابن أبي سَـرْح. فلم يَهنأْ لهؤلاء المفسـدين عيشٌ، حتى أفسدوا بين الرجلين وسَعَوا بينهما بالنميمة، فعزل عثمان عَمْراً عن مصر، وأَخْلَصها كلها لابن أبي سرح!.

•• وكانت أوكار الفتنة ورؤوس الشـر في البصرة مـن أمثال حُكيم بن جَبَلة وغيلان بن خرشـة وحُمران بن أبان ومن ضوى إليهم، وكذلك أوكار الفتنة في الكوفة ومن أشـهر رؤوسهم الأشتر النخعي وصعصعة بن صُوحان وابن الكواء وجندب بن زهير وأشباههم ـ كان هؤلاء وأولئك على تنسيق مع مركز الشر في مصر، وكما تدل رواية سـيف بن عمر: أن ابن سبأ أُخرج من البصرة ثم أُخـرج من الكوفة (فاسـتقرَّ بمصر، وجعل يكاتبهـم ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم)(٢).

فكانت جهود الفرقاء الثلاثـة (في مصر والكوفة والبصـرة) على تعاون وثيق وتنسيق وتبادل المعلومات والرسائل والخطط والتنفيذ فيما بينهم.

وقد كان (المُسَـيَّرون) من الكوفة قد عادوا إليها، بعد أن خضعوا لعملية (تأديب) و(إصلاح) في الشـام على يدي معاوية وعبد الرحمن بن خالد بن

---

(١) ابن عساكر «ترجمة ابن سـبأ»، ص٤. عَجَمَهم: خَبَرَهم. اسـتخلاهم واستخلوه: انفرد بهم وانفردوا به.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٢٧/٤. وقد تقدم: ص١٤٥ في هذا الكتاب.

الوليد، ثم عادوا إلى موطنهم الأصلي، وقد أظهروا التوبة! (ولكن الفتنة كانت قد باضَتْ في أدمغتهم، وأَفرخَتْ في قلوبهم، فلم تَصْدُق لهم توبة، ولم يَسْكُن لهم تدبير، ولكنهم استكانوا إلى حين، لمَّا وجدوا من عبدالرحمن بن خالد صرامة وبطشاً، وتربَّصوا لأنفسهم فرصة حتى إذا حانت لم يُفلِتوها، وعادوا إلى أخبث مما كانوا، وأتَوا إلى أميرهم سعيد بن العاص أشدَّ مما أتوا إلى الوليد بن عقبة، الذي افتروا عليه الكذبَ في حدٍّ من حدود الله تعالى!)[1].

سابعاً: اتفاقُ رؤوس السبئيين والمنحرفين على المسير إلى الخليفة لمناظرته (بأخطائه المزعومة) وفشلُهم في ذلك (يوم الجَرَعة):

•• قال الطبري في أحداث سنة (٣٤هـ): وفي هذه السنة تكاتب المنحرفون عن عثمان بن عفان للاجتماع، لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نَقَموا عليه[2].

ولم يتهيأ ذلك إلا لأهل الكوفة، فمصرُ يسيطر عليها الوالي عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح، مع ما تمور به من فتن ابن سبأ وابن أبي حذيفة وأضرابهما، والبصرة فيها عبدالله بن عامر، وقد شغلهم بالجهاد والفتوحات.

أما الكوفة فقد نجح المنحرفون في مسعاهم الخبيث، لأن الوالي سعيد بن العاص كان قد ذهب إلى المدينة ليوقِف أميرَ المؤمنين على أحوال الكوفة، ويتبادلا الرأي مع كبار الصحابة في علاج (المنحرفين المفسدين)، فاستغل هؤلاء خلوَّ منصب الولاية فقاموا (بانقلاب) عليه!.

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١١٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٣٣٠.

وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد قد سيَّر (الأشترَ النخعي) إلى عثمان، فأعلن توبته وتوبة مَن وراءه بين يدي الخليفة، فأباح له عثمان أن يذهب حيث شاء، فاختار جوار عبد الرحمن بن خالد في جزيرة ابن عمر(١).

وقبل خروج سعيد بن العاص من (الكوفة) عيَّن جماعة من أهل الفضل والخبرة والكفاءة والطاعة على الولايات التابعة للكوفة مثل أَذْرَبِيجان والرَّي وهَمَذان والمَوْصل وغيرها، وجعل نائبه على الكوفة (عَمْرو بن حُريث) وعلى الجهاد والفتوح (القعقاع بن عمرو) الصحابيَّيْن.

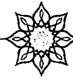
•• يروي الطبري من طريق سيف: (وخَلَت الكوفة من الرؤساء إلا منزوعاً أو مفتوناً، فخرج يزيد بن قيس الأَرْحَبي وهو يريد خَلْعَ عثمان، فدخل المسجد فجلس فيه، وثابَ إليه الذين كان فيهم ابن السوداء يكاتبهم، فانقضَّ عليه القعقاع، فأخذ يزيد بن قيس، فقال: إنما نستعفي من سعيد! قال: هذا ما لا يُعرَض لكم فيه، لا تجلسْ لهذا ولا يَجتمعُنَّ إليك، واطلب حاجتك، فلعمري لَتُعطَينَّها! فرجع إلى بيته واستأجر رجلاً، وأعطاه دراهم وبغلاً على أن يأتي المسيَّرين، وكتب إليهم: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، فإن أهل المصرِ قد جامعونا!)(٢).

وكان الأشتر النخعي قد وصل (جزيرة ابن عمر)، وقدِمَ رسولُ يزيد بن قيس الأَرْحَبي على (المُسَيَّرين) المقيمين فيها، وأخبرهم الخبر، فوبَّخوه وخالَفُوه، إلا الأشتر فنَشِطَ للأمر، ونقض توبته، وخرج إلى الكوفة عاصياً! وخشي بقيةُ (المسيَّرين) أن يعلم عبد الرحمن بن خالد بأمرهم، فلحِقوا بالأشتر، وسَبَقهم هو في الوصول إلى الكوفة!.

---

(١) انظر ما تقدم: ص١٤٣ حاشية (١) في هذا الكتاب. وجزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، يحيط بها نهر دجلة إلا من جهة واحدة.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٣١/٤.



(ولم يفجأ الناس في يوم الجمعة إلا والأشتر على باب المسجد يقول: أيها الناس، إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان، وتركتُ سعيداً يُريده على نقصان نسائكم إلى مئة درهم، وردِّ أهل البلاء منكم إلى ألفين، ويقول: ما بالُ أشراف النساء وهذه العِلاوة بين هذين العِدْلين! ويزعمُ أن فيئَكم بستانُ قريش، وقد سايرتُه مرحلة فما زال يَزْجُر بذلك حتى فارقتُه، يقول:

ويلٌ لأشرافِ النساءِ منِّي صَمَحْمَحٌ[1] كأنَّني من جِنٍّ)

وهذا من الأشتر جزء من افتراءاته الكثيرة، وولوغه في الفتنة وتحريكها والمسارعة فيها!.

فاستَخفَّ الناسَ فخرجوا معه، وبقي في الكوفة حُلماء الناس وأشرافهم ووجوههم وأهل الحِجى فيهم. وخرج يزيد بن قيس الأَرْحَبي، ومعه الأشتر ومن شايعهم، فنزلوا (الجَرَعَة)[2]، وتلقوا (سعيدَ بن العاص) هناك، ومَنَعوه من دخول الكوفة، وقام الأشتر إلى مولى لسعيد فضَرب عنقه.

ورجع سعيد إلى المدينة، وأخبر عثمان بالأمر، وقال: إنهم يريدون أبا موسى الأشعري. فكتب الخليفة بتولية أبي موسى، الذي قام بدوره فخطبهم، فقالوا له: صَلِّ لنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان! قالوا: على السمع والطاعة لعثمان.

وبذلك فشل موعِدُ (الأحزاب) سنة (٣٤هـ)، واقتصرت الفتنة على ما حدث من أهل الكوفة في (الجَرَعة)، فسُمِّي ذلك اليوم (يوم الجَرَعة)[3].

---

(١) الصمحمح من الرجال: الشديد المجتمع.

(٢) مكان مشرف قرب القادسية.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٣١/٤ ـ ٣٣٢؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٣٨٩ ـ ٣٩٠.

وقد ثبت في حديث صحيح عن حذيفة: أن النبي ﷺ حدثه أنه لن يكون في ذلك اليوم وذاك المكان قتال، ولا يهراق فيه دماء(١).

وهذا من المواضع التي تؤيد فيها الأحاديثُ الصحيحة رواياتِ سيف بن عمر، ورواياتُ سيف تملأ الفراغات الكبيرة في أحداث التاريخ.

وقد افترى المسعودي رواية زعم فيها أن طلحة والزبير في المدينة تآمرا مع الأشتر على مَنْع سعيد بن العاص من دخول الكوفة، وأعطياه مئة ألف درهم للقيام بذلك، فأخذها وقسمها بين أصحابه(٢)!.

•• وهكذا نرى أن (المُسَيَّرين) لا زالوا على لَدَدِهم وانحرافهم وسوء نياتهم وإرادتهم الفتنة والشر، وأنهم لا يريدون بعملهم وجهَ الله ولا إقامةَ الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يدَّعون!.

وأن الأشتر قد افترى فِرًى كثيرة، وكَذَب على الخليفة وعلى والي الكوفة وعلى أهلها، وشهد شهادة زور، وتاريخُه شاهد عليه بتوالي مسلسل الغدر، ونكث العهد، ونقض التوبة، والتحريض والتحريش بين المسلمين، سعياً وراء مآرب شخصية، وقد بقي على ذلك حتى عهد الخليفة الراشد الرابع علي، وكانت نهايته كما تقدم(٣)!.

ويزيد الأَرْحَبي والمفتونون الذين أيدوه كان هدفهم الأول هو خَلْع الخليفة عثمان، لكنه لما رأى قبضة القعقاع تسدّ أنفاسَه خَنَس، ووجَّه سهامه إلى من دون الخليفة فطالَبَ باستبدال الوالي (سعيد بن العاص) بآخر غيره، وأدرك الوالي الجليل حجمَ الفتنة فآثر وجه الله وأطفأها بعودته إلى أمير المؤمنين ليولي على الكوفة غيره.

---

(١) صحيح مسلم، حديث (٢٨٩٣)؛ ومسند أحمد: (٢٣٣٤٨) و(٢٣٣٨٨).

(٢) مروج الذهب: ٢/٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٣) انظر: ص١٢٨ في هذا الكتاب.

•• تلكم حال الأمصار الثلاثة الكبرى (مصر والكوفة والبصرة) وما يَمُور فيها من فتن تحت السطح، وما يسعى فيه رؤوس الانحراف والضلال وأوكار الشر من إذاعتها في الأمصار الأخرى... فأين دور الدولة بمؤسساتها، وما التدابير التي اتخذها الخليفة لعلاج تلك الأدواء، وأين هو مجلس الشورى ومواقف كبار الصحابة ودور ولاة الأمصار؟.

ثامناً: هدي عثمان والطرائق والأساليب التي عالج بها الأحداث والساعين فيها والتيارات التي تضطرم في الدولة:

في النظرة الإجمالية لسياسة أمير المؤمنين عثمان وهديه في مدة خلافته كلها نرى أنه كان يَطِبُّ للناس، ويأسُو خطاياهم، ويرحم رَعاعَهم، ويعذر طائشهم، ويعفو عن متنطِّعهم، ويؤدِّب غادرهم، ويتابع فتَّانهم؛ فهو الخليفة والوالي والأب والأخ والمعين والمعيل والمتسامح الكريم، وهو كذلك القائم على حدود الله الحافظ للحقوق، الملتزم بمبادئ الإسلام وهديه وتوجيهاته، والمنافح عن دولته وأمته ورسالته.

١ ـ كان أمير المؤمنين عثمان يعالج كل مشكلة أو انحراف أو تجاوز أو خروج على سلطان الوالي أو الخليفة أو إثارة فتنة وفُرقة... في وقته وحينه وبالطريقة التي تناسبه؛ من تأديب أو تعزير أو حدٍّ أو نفيٍ أو تغيير والٍ أو ردّ هبة ومال، وغير ذلك مما يتضح من سياسته مع الولاة والرعية. ولا يترك الأمر يتفاقم والفتنة تربو والرعية تتذمر، ولا يَدَع لأهل الانحراف والشغب حجة أو ذريعة. ويسلك في أغلب ذلك سبيلَ اللين والرأفة والرحمة والمسامحة وتحقيق المطالب المرجوة، ما دام ذلك ممكناً وليس فيه تجاوز حق أو تعطيل حد. وربما كتب في ذلك الكتب فتُقرأ على العامة حتى يقيم الحجة ويقطع الألسنة، ومن ذلك

موقفه عندما خرج أهل الكوفة على سعيد بن العاص يوم الجَرَعة، فكتب عثمان إليهم:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد أمَّرتُ عليكم مَن اخترتم، وأعفيتُكم من سعيد، والله لأفرشنّكم عِرْضي، ولأَبذُلنَّ لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجهدي، فلا تَدَعُوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه؛ أنزل فيه عند ما أحببتم، حتى لا يكون لكم علَيَّ حجَّة)[1].

٢ ـ كذلك فإن الخليفة كان مستشعراً للفتنة ومدركاً لأسبابها، ومتابعاً لمؤججيها ومساعِرها في الأمصار، ومحيطاً بأخبارهم وأعمالهم؛ من خلال تراسله مع الولاة وأوامره لهم بمعالجتها بالحكمة واللين، والترغيب والترهيب والتأديب. وقد رأينا مواقفه وتأديبه لأبي خُشَّة وجَثّامة وجُندب في افترائهم على الوليد بن عقبة[2]. وكتابه إلى معاوية بشأن أبي ذر حيث يقول: (إن الفتنة قد أخرجَتْ خَطْمها وعينَيْها، فلم يبقَ إلا أن تثِب، فلا تَنْكأ القَرْح، وجهِّزْ أبا ذر إليَّ، وابعث معه دليلاً وزوِّدْه، وارفق به، وكَفْكِف الناس ونفسَك ما استطعتَ)[3].

وكذلك قصة (المُسيَّرين) ومتابعته لهم من الكوفة إلى الشام إلى حمص. ومثل ذلك ما حدث في مجلس سعيد بن العاص بالكوفة، حيث جمع عثمان الصحابة واستشارهم في الأمر وأنفذ أوامره، وخطب الناس فقال: (يا أهل المدينة استعدُّوا واستمسكوا؛ فقد دَبَّتْ إليكم الفتن)[4].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٦/٤.

(٢) تقدم: ص١٣٤ ـ ١٣٦ في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٨٣/٤ ـ ٢٨٤. خَطْمها: أنفها.

(٤) تاريخ الطبري: ٢٨٠/٤.

وأيضاً فتنة يزيد بن قيس الأَرْحبي و(يوم الجَرَعة)، وقد عالجها بعزل والٍ وتعيين آخر. ومن هذا الباب سياسته مع الولاة في المتابعة والمحاسبة والعزل وقطع دابر الفتن. وقد مرت أمثلة كثيرة على هذا وذاك.

٣ ـ وعندما أدرك عثمان تناميَ الفتن وتعدُّدَ مصادرها، وشيوعَ الافتراءات والإشاعات والأكاذيب، وقَبض على بعض رؤوس مفتعليها ومروِّجيها كما في قصة (المُسيَّرين) ـ مثلاً ـ، وبعد أن وقف على تردُّدِ (الكتب المزوَّرة) بين الناس في عدد من الأمصار كما أوضحنا، وأخبره مستشاروه من جِلّة الصحابة والقيِّمون على أمر الناس ـ أرسل المفتشين إلى تلك الأمصار للوقوف على حقيقة الأخبار، مثلما كان يفعل الفاروق عمر.

جاء في الخبر الذي ساقه (سيف بن عمر) وقدمنا شطراً منه[1]؛ أن السَّبئيِّين في مصر وأعوانهم ومَن على مثل رأيهم في الضلال والفساد والإفساد من أوكار الفتنة في البصرة والكوفة:

(جعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب وُلاتهم، ويُكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهلُ كل مصرٍ منهم إلى مصرٍ آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسَعُوا الأرض إذاعةً، وهم يريدون غير ما يُظهِرون، ويُسِرُّون غيرَ ما يُبدون. فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهلَ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس!.

واجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا عثمانَ وقالوا: يا أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ قال: لا والله، ما جاءني إلا السلامة، قالوا: فإنا

---

(١) انظر: ص١٥٥ ـ ١٥٦ في هذا الكتاب.

قد أتانا، وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم، قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا علَيَّ. قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

فدعا محمد بن مَسْلَمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد الله بن عُمر إلى الشام، وفرَّق رجالاً سواهم. فرجعوا جميعاً قبل عمار، فقالوا: أيها الناس، والله ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعلامُ المسلمين وعوامُّهم، وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، إلا أن أمراءهم يُقْسِطون بينهم، ويقومون عليهم. واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه قد اغتيل، فلم يَفجأْهم إلا كتابٌ من عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح يُخبِرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه؛ منهم: عبد الله بن السوداء، وخالد بن مُلْجَم، وسُودان بن حُمْران، وكِنانة بن بِشْر)[1].

وهذه اللجنة التفتيشية التي أمر بها عثمان، وقام بها ثُلَّة من أكابر الصحابة؛ أكدت السلامة على الوجه العام في تلك الأمصار التي يَمْخَض فيها أصحابُ الشر بالفتنة، وأن تلك المزاعم لا حقيقة لها إلا بترويج مفتريها، وتحت ستار من الظلمة والتآمر والتَّقِيّة والباطنية والكيد والدس وترويج الأباطيل، وواقعُ حال الأمة الاستقامة والرضا ومسيرةُ الولاة بالقِسْط والرحمة ورغد العيش وانتشار الإسلام الذي بقيت فتوحاته حتى سنة (٣٤هـ) في مختلِف الجبهات.

٤ ـ لم يكتفِ أمير المؤمنين بما تقدم، بل وجَّه كتاباً عامّاً إلى الأمصار؛ دعا فيه العامة والخاصة ليشاركوا في محاربة الانحرافات ومقاومة الشائعات وعدمِ الركون إليها، والإعلان على الملأ ـ في أطهر البلاد وأوسع تجمُّع ـ

(١) تاريخ الطبري: ٣٤١/٤؛ تاريخ ابن عساكر «ترجمة ابن سبأ»، ص٢ ـ ٣.

لأيِّ شكوى من أمير أو غيره، حتى لا يكون للمغرضين والحانقين والموتورين والكَذَبة أية حجة في تضخيم بعض الأحداث أو التلاعب بها وادِّعاء وجود مظالم مسكوت عليها أو لا تَبلغ الخليفة.

كتب عثمان إلى الأمصار: (أما بعدُ، فإني آخُذ العمالَ بموافاتي في كل موسم، وقد سلَّطتُ الأمةَ منذ وَليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفَع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أَعطيتُه، وليس لي ولا لعمَّالي حق قِبل الرعية إلا متروكٌ لهم! وقد رفع إلَيَّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشتمون، وآخرين يُضْربون، فيا مَنْ ضُرِب سِرّاً، وشُتِم سرّاً، من ادَّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم فليأخذْ بحقِّه حيث كان، منِّي أو من عمالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فلما قُرئ في الأمصار أبكى الناسَ، ودعَوا لعثمان، وقالوا: إن الأمة لَتمخَّض بِشرٍّ!)[1].

وهذا الموقف الجليل من عثمان هو غاية ما يتطلع إليه إنسان من العدل والإنصاف على مشهد من عامة الأمة، وقصَدَ منه أمير المؤمنين ما هو أبعد من إحقاق الحق وردّ المظالم؛ ففيه فضحٌ لجميع الأكاذيب والافتراءات التي روَّجها المنحرفون في الطعن على الولاة والخليفة، فإن كانوا صادقين وأصحاب حق فليأتوا مع الناس ولْيُعلنوا على الأشهاد مظالمهم أو مزاعمَهم بين يدي عثمان وولاة الأمصار!.

٥ ـ وأضاف أمير المؤمنين بُعداً آخر في العلاج وتدبير الأمور ومحاصرة الانحرافات والفتن والمؤامرات وكشف أقنعة مَنْ وراءها؛ فأمر الولاة بحضور (الجلسات العامة واللقاءات المفتوحة)، ثم بعد ذلك سؤالهم عن واقع حال ولاياتهم، ومن بعدها استشارتهم في معالجة ما يدور بين (جماعات) من المغرضين والمفترين للقبض على الأيدي الخفية التي تحركهم.

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٢/٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٨٦/١٦.

جاء في تتمة الخبر السابق: (وبعث إلى عمَّال الأمصار فقدِموا عليه: عبد الله بن عامر، ومعاوية، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم سعيداً وعَمْراً، فقال: وَيْحكم! ما هذه الشكاية ؟! وما هذه الإذاعة؟! إني والله لخائفٌ أن تكونوا مَصْدوقاً عليكم، وما يُعْصَبُ هذا إلا بي! فقالوا له: ألم تبعث؟! ألم نرجعْ إليك الخبر عن القوم؟! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟! لا والله ما صَدَقوا ولا بَرّوا[1]، ولا نعلمُ لهذا الأمر أصلًا. وما كنتَ لتأخذ به أحداً فيُقيمك على شيء، وما هي إلا إذاعة لا يَحلُّ الأخذ بها، ولا الانتهاءُ إليها.

قال: فأشيروا علَيَّ، فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوعٌ يُصْنَع في السرِّ، فيُلْقَى به غيرُ ذي المعرفة فيُخبَر به، فيَتحدَّث به الناس في مجالسهم. قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلبُ هؤلاء القوم، ثم قتلُ هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم!.

وقال عبد الله بن سعد: خُذْ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتَهم الذي لهم، فإنه خير من أن تدَعَهم. وقال معاوية: قد ولَّيتَني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلَمُ بناحيتَيْهما، قال: فما الرأي؟ قال: حسنُ الأدب. قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لِنْتَ لهم وتراخيتَ عنهم، وزِدْتَهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبَيْك، فتَشتدَّ في موضع الشدة، وتلينَ في موضع اللِّين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرّاً، واللين لمن يَخلُف الناس بالنصح، وقد فرشتَهما جميعاً اللين.

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعتُ، ولكل أمر باب يؤتى منه؛ إن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يُغلَق عليه فيُكفكَف به: اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا

(١) أي: المنحرفون مختلِقو الأكاذيب ومروِّجوها.

في حدود الله تعالى ذِكْره التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها، فإن سدَّه شيء فرفْقٌ، فذاك والله ليُفتَحنَّ وليست لأحد علَيَّ حجّةُ حقٍّ، وقد علمَ الله أني لم آلُ الناس خيراً ولا نفسي. ووالله إن رحى الفتنة لدائرة، فطُوبَى لعثمان إنْ مات ولم يحرِّكْها. كَفْكِفوا الناسَ، وهَبُوا لهم حقوقهم، واغتفِروا لهم، وإذا تُعوطِيت حقوقُ الله فلا تُدْهِنوا فيها)[١].

•• ويُلاحظ من هذا النقاش وتداول الآراء بين الخليفة وولاته ومستشاريه أنهم كانوا خبراء بما يدور في ولاياتهم، ويعرفون مصدر الشرور ومساعِرها، وأنهم كانوا ناصحين للأمة وجادِّين في الضرب على يد كل من يسعى في اضطراب أمر المسلمين، وتكاد آراؤهم تلتقي على حل واحد هو الشدة مع (السبئيين وأوكار الفتنة) ومروِّجي الأكاذيب، وأنهم مصدر الخطر الذي يستفحل ضرره مع تمادي الزمان!.

أما الخليفة فهو يدرك ذلك تماماً، بَيْدَ أن له رأياً آخر؛ فهو يعلم أن الفتنة قادمة لا ريب، وقد حَفِظ ذلك عن النبي ﷺ وهو يحدث عن الفتنة ويشير إلى عثمان بأنه ومن اتبعه على الحق والهدى، فكان رأيه هو كفكفة جماحها، وتأديب السُّعاة فيها، والتخفيف من شِرَّتها، واتباع الرأفة والرحمة والمسامحة ما لم تُرتكب الحدود أو تُنتهك الحقوق؛ لأنه يعلم أن السيف إذا سُلَّ من غِمْده لن يعود إلا محمرّاً بالدماء، وشعارُه في ذلك: (طوبى لعثمان إن مات ولم يحركها)! وبقي على هذا في كل المراحل التالية حتى عندما حُوصر واستُهدِفت نفسه، أمر أن لا تُسَلَّ السيوف ولا تُراق مِحْجَمة من دم!.

وتلك لعمرُ الحق سياسة لا يَقدر عليها إلا أناس قد وهبهم الله تعالى لهذه الأمة ليسوسوها بالعدل والإنصاف والرحمة والحفاظ على الأنفس

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٢/٤ ـ ٣٤٣؛ مختصر ابن عساكر: ١٨٦/١٦ ـ ١٨٧. يُعْصَب: يُنَاط، ويُقْرَن.

والأرواح بل على أي قطرة من دم! وهو مسلكٌ قد يَعيبه عليه بعضُ مَن لا يعلمون فيتهمونه بالضعف واللين، كما قد يُخالِفه فيه مَنْ لا يرون سبيلاً إلا المَشْرَفيَّة تأخذ رؤوس المنحرفين والفتانين والمفتونين!.

أما عثمان فكان يخشى إن اختُرِطت السيوف أن تأخذ بأنفس أناس لا ذَنْب لهم لأنهم من الرَّعَاع والأعراب والمغفَّلين والمغرَّر بهم ممن خَفَّت أحلامُهم وصدَّقوا الشائعات واتبعوا أصحاب الهوى والحقد، ولربما نجا من حَرِّ السيف الذين يستحقونه حقيقة من رؤوس الفتن والضلال.

ولقد نظر عثمان فيما وراء تلك الفتن والإشاعات والأباطيل والشغب على الولاة، ورأى أن مسعِّريها يرومون إشهارَ السيف لتتسع دائرة الفتنة ويتفاقم الخلاف ويحدث الانشقاق والتحزُّب في الأمة، وإذا نطق السيف سكت اللسان وحار العقل وعَزَّ العلاج على الأُساة! والمتأمل فيما حدث في عهد الخليفة الراشد الرابع عليٍّ يرى صوابَ نظرة عثمان؛ فعندما سُلَّ السيف واحترب الفريقان المختلفان، سالت دماء غزيرة منها أنفس كثيرة بريئة، وبقي عدد من رموز الفتنة أحياء بل تولوا بعض الولايات[1]!.

هكذا كان عثمان في منهجه لمعالجة الأحداث العاصفة، لا طيش ولا ضعف، ولا عسف ولا مداهنة، وتلك هي سياسته التي سار عليها وحمل ولاته على ملازمتها.



أما رؤوس الضلال وأصحاب الهوى والحاقدون من السبئيين وأحلافهم، وقد سعوا للخروج على الولاة في سنة (٣٤هـ)، ففشلوا إلا ما كان (يوم

---

(١) انظر: منهاج السنة: ٣/٦٣١ ـ ٦٣٢، ٦٨٨.

الجَرَعة) في الكوفة؛ فإنهم لم يُلقوا السلاح، بل تكاتبوا جميعاً واتفقوا على الخروج إلى المدينة لمناقشة عثمان في أمور نقموها عليه وزعموا أنه خالف فيها هدي النبي ﷺ والشيخين، فكيف كانت مجريات الأحداث؟ لنتابع ذلك في الفصل التالي.



الفصل السادس

أمير المؤمنين عثمان مع دعاة الفتنة وجهاً لوجه في المدينة

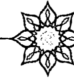
أولاً ـ اتفاق رؤوس الفتنة على الخروج إلى المدينة وأهدافهم المعلنة والخفيَّة:

•• لما فشلت محاولة خروج المنحرفين إلى المدينة سنة (٣٤هـ)، واقتصر نجاحهم على ما كان (يوم الجَرَعة)، وبعد الاجتماع العام الذي عقده أمير المؤمنين وولاته والعامة، وعاد الولاة والناس إلى أمصارهم ـ أُسْقِط في أيدي رؤوس الفتنة من سبئيين وأحلافهم وأتباعهم، لكنهم لم يستسلموا، بل لجؤوا إلى طريقة أخرى وسلكوا نفس المنهج في التقيَّة والباطنية والنفاق بإظهار شعارات الإصلاح ومناقشة الخليفة في أمور شاعت بين الناس، وإبطان خلاف ذلك ممثلاً بخلع عثمان وقتله! واتفقوا على الخروج في موسم الحج، وتمَّ لهم ذلك في شوال من سنة (٣٥هـ).

جاء في خبر سيف ـ الذي ذكرنا قسماً كبيراً منه ـ: (ولما رجع الأمراء لم يكن للسَّبئيَّة سبيلٌ إلى الخروج إلى الأمصار، وكاتبوا أشياعَهم من أهل الأمصار أن يتوافَوْا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهَروا أنهم يأمرون بالمعروف، ويسألون عثمانَ عن أشياء لتطيرَ في الناس، ولتُحقَّق عليه، فتوافوا بالمدينة)[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٦/٤.



•• وخرجوا مع الحُجَّاج كالحجَّاج، وتكاتبوا فقالوا: موعدُكم ضواحي المدينة في شوال، حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتي عشرة[(١)]؛ ضَربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة[(٢)].

(ولما كان في شوال سنة (٣٥هـ)، خرج أهل مصر[(٣)] في أربع رِفاق على أربعة أمراء، المقلِّل يقول: ست مئة، والمكثِّر يقول: ألف، وعلى الرفاق: عبد الرحمن بن عُديس البلَوي، وكنانة بن بشر التُّجِيبي، وعروة بن شُييم الليثي، وأبو عَمْرو بن بُديل بن ورقاء الخُزاعي، وسواد بن رومان الأصبحي، وزَرْع بن يشكر اليافعي، وسُودان بن حُمْران السَّكُوني، وقُتيرة بن فلان السَّكُوني، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العَكّي، ولم يجترئوا أن يُعْلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وإنما أخرجوا كالحُجّاج، ومعهم ابن السوداء. وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق، وعلى الرفاق: زيد بن صُوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبدالله بن الأصمّ، وعددهم كعدد أهل مصر، وعليهم جميعاً عَمْرو بن الأصم. وخرج أهل البصرة في أربع رفاق، وعلى الرفاق: حُكَيم بن جَبَلة العبدي، وذَريح بن عباد العبدي، وبشر بن شُريح القيسي، وابن المحرِّش بن عبد بن عَمْرو الحنفي، وعددهم كعدد أهل مصر، وأميرهم جميعاً حُرقوص بن زهير السعدي. سوى من تلاحق بهم من الناس)[(٤)].

---

(١) أي: من خلافة عثمان، وهي سنة (٣٥هـ).

(٢) تاريخ الطبري: ٣٤٨/٤.

(٣) استغل محمد بن أبي حذيفة غياب والي مصر ابن أبي سرح في المدينة عند عثمان، ونزا على ولاية مصر، ولما رجع ابن أبي سرح منعه من دخولها، فتوجه إلى فلسطين، واستولى ابن أبي حذيفة على أمور مصر، وأسهم في خروج الجيش المصري الذي شارك في قتل عثمان! انظر: ولاة مصر، ص٣٩ ـ ٤١؛ تاريخ الطبري: ٣٧٨/٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٤٨/٤ ـ ٣٤٩.

•• وكان المنحرفون من أهــل الأمصار الثلاثة وكذلــك قادتهم متفقين على هدف واحد هو إدانة عثمــان على الملأ باتهامــات لفَّقوها وضخموها وأذاعوها في الناس، ومن ثَم خَلْعُه وقتْلُه! قالوا: (نريد أن نذكر له أشــياء قد زرعناها فــي قلوب الناس، ثم نرجــع إليهم فنزعم لهم أنَّــا قرَّرناه بها، فلم يخرج منها ولم يَتُبْ، ثم نخرج كأنَّا حُجَّاج حتى نقدَم فنُحيط به فنخلَعَه، فإن أبى قتلناه. وكانت إياها!)[١].

لكن الرؤوس المدبرة مختلفون عن قصدٍ وخبــث في البديل عنه؛ (فأما أهلُ مصر فإنهم يشــتهون عليّاً، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير)[٢].

كذلك رتبــوا خروجهم وأحكَمــوا خطتهم، واتفقوا على وقت المســير وكيفيتــه والمنازل التــي ينزلونها في المدينة، ثم دراســة وضْــع الناس في عاصمة الخلافة وأخبارهم وولائهم لعثمان، وبعد ذلك عرض مطالبهم على أعيان الصحابة.

(فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شــتى، لا تشكُّ كلُّ فِرقةٍ أن الفُلْج معها، وأن أمرها ســيتِمُّ دون الأُخريين! فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم ناسٌ من أهل البصرة فنزلوا ذا خُشُــب، وناس من أهل الكوفــة فنزلوا الأَعْوَص، وجاءهم ناس من أهل مصــر، وتركوا عامَّتَهم بذي المَرْوَة.

ومشــى فيما بين أهل مصر وأهــل البصرة زياد بن النَّضْــر وعبد الله بن الأصمّ وقالا: لا تَعجلوا ولا تُعجِلونا حتى ندخلَ لكــم المدينة ونرتاد، فإنه

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٦/٤.

(٢) المرجع السابق: ٣٤٩/٤.

بَلَغَنا أنهم قد عسكروا لنا، فوالله إنْ كان أهل المدينة قد خافونا واستحلُّوا قتالَنا ولم يَعْلموا عِلْمنا، فهم إذا علموا عِلْمَنا أشدّ، وإنَّ أمرنا هذا لباطلٌ، وإنّ لم يستحِلُّوا قتالَنا ووجدنا الذي بَلَغَنا باطلاً، لنرجعنَّ إليكم بالخبر!.

قالوا: اذهبا، فدخل الرجلان فلقيا أزواجَ النبي ﷺ وعليّاً وطلحة والزبير، وقالا: إنما نأتمُّ هذا البيت، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمَّالنا، ما جئنا إلا لذلك، واستأذناهم للناس بالدخول، فكلُّهم أبَى ونَهى وقال: بَيْضٌ ما يُفْرِخَنّ!)(١).

• **وقفات كاشفة:**

نلحظ من هذه النصوص أموراً يجب التوقفُ عندها لتوضيح سيرورة الأحداث التي مشى فيها أولئك (السبئيون الخوارج)، وهتكِ الأستار التي تلفَّعوا بها، فخدعوا الأغرار والأغمار من أتباعهم، كما حيَّروا ضعاف البصر والبصيرة من الكتاب المعاصرين الذين أرَّخوا لتلك الفترة الخطيرة من تاريخنا، فَخَبَطوا فيها وضلوا وأضلوا عن علم وقصد أو عن سوء فهم وضعف في البحث والدرس:

١ ـ هذا الخروج كان له هدف محدد واضح أعدَّه رؤوس أولئك الفجرة واتفقوا عليه، وهو ضربُ الخلافة، ولم يُعْلِموا بذلك عامة أتباعهم من الأغرار والأغمار والرَّعَاع، بل موَّهوا عليهم وزرعوا في قلوبهم أن عثمان فعل المنكرات وخالَفَ هديَ النبي ﷺ وصاحبيه، فحقَّ الخروج عليه.

٢ ـ كان خروجهم منظماً ومُعَدّاً إعداداً محكَماً من حيث: وقتُ الخروج وكيفيته، وأماكنُ النزول قرب المدينة، وأعدادُ الفِرق التي تخرج من كل

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٩/٤ ـ ٣٥٠؛ مختصر ابن عساكر: ١٩٣/١٦ ـ ١٩٤. الفُلْج: الفوز والظفر. بَيْضٌ ما يُفرِخَنّ: أي إن تقتلوا عثمانَ تُهيِّجوا فتنةً يتولَّد منها شرٌّ كثير.

مصر، واستبطانُ أحوال المدينة وأهلها، والتزاور بين الجيوش الثلاثة لمتابعة الأخبار والتنسيق المستمر لكل خطوة قادمة.

٣ ـ اختيار الزمان والمكان مكَّنَ قادة (المنحرفين الخوارج) من تحقيق أهدافهم بشكل كبير، فهم عندما أظهروا أن قَصْدَهم الحج والذهاب للمدينة، أخفَوْا أغراضهم عن عامة المسلمين، وعَمَّوا حقيقة هدفهم على أتباعهم فلم يرتابوا بأمرهم، ودفعوا شكَّ الصحابةِ بهم، ومكَّنَهم من الوصول إلى المدينة وفيها قليل من المسلمين، حيث معظمهم بمكة.

٤ ـ التَّقِيَّة والباطنية والنفاق الواضح من قِبل زعماء المنحرفين متمثلاً في شعارات عدة: يُظهِرون غير ما يُبْطِنون، يخرجون في وقت الحج ولا يقصدون الحج، هم في الناس شتى ولكنهم في هدفهم مجتمعون، يذهبون إلى الخليفة فيناقشونه بأشياء زرعوها في قلوب أتباعهم ثم يعودون إليهم زاعمين أنه أقرَّ لهم بها فلم يَخرج منها ولم يَتُبْ؛ ليَحْمِلُوهم على السير معهم لخلْعِه وقتْلِه.

٥ ـ كان رؤوسهم متفقين على خلع عثمان وقتله ولكنهم مختلفون في البديل هل هو: علي أم طلحة أم الزبير؟ وهذا فيما نرى كان عن قصد وتبييت وخُبث، وذلك حتى لا تتفق أطرافهم الثلاثة، وفي هذا إمعان في المكر والفتنة وإثارة الهَرْج والمَرَج بين الصحابة وأهل الرأي، وشَقِّ الصفوف، وإدخالِ الدولة في أَتُون الفوضى التي تعصف بوحدة المسلمين، وهو مكر يهودي خبيث!.

٦ ـ الذي يؤكِّد فجورَ هؤلاء وغدْرَهم وكذِبَهم وبطلانَ دعاواهم وسوءَ نياتهم؛ تصريحُهم بأهدافهم، وباطنيّتُهم في كل أقوالهم وأفعالهم، وأن أحداً منهم ليس له حق مَطْلول أو مَظْلِمة مُهْدَرة عند والٍ فضلاً عن أمير المؤمنين.

وليس في زعمائهم واحدٌ له تاريخ مجيد أو أعمال فاضلة أو سابقة إلى مكرمة وخير وفضل، كما توضَّح ذلك فيما سبق وعرضناه من مواقفهم وفتنهم المتوالية في الأمصار الثلاثة.

٧ ـ كثيرون ممن ساروا في هذه الجيوش الثلاثة كانوا من الرَّعَاع والحمقى والأغرار الأغمار، الذين خُدعوا وغُرِّر بهم من قِبل رؤوس الشرِّ كابن سبأ والأشتر وابن أبي حذيفة وأضرابهم، وقد ظهر ذلك في مواقف عدة فوجئ بها (عامة الخوارج) عند انكشاف كذب الكتب المزوَّرة وتبرّؤ أكابر الصحابة منها، وتصريح زعمائهم بقولهم: (نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنَّا قرَّرناه بها!).

٨ ـ لم يَقبل عملَهم هذا أحدٌ من الصحابة، وصرَّح بضلالهم وفجورهم وكذبهم وانحرافهم عليٌّ وطلحةُ والزبيرُ وأمهاتُ المؤمنين وغيرهم، مما يؤكد انحراف أولئك الخارجين وسوء صنيعهم، وإن أيَّ دفاع عنهم هو اتهامٌ للخليفة وأعيان الصحابة وجميع الصالحين.

٩ ـ رواية بلهاء طائشة:

روى الواقدي قال: (لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحابُ رسول الله ﷺ بعضُهم إلى بعض: أنِ اقدَمُوا، فإنْ كنتم تريدون الجهادَ فعندنا الجهادُ! وكثَّر الناسُ على عثمان، ونالوا منه أقبحَ ما نِيلَ من أحدٍ، وأصحابُ رسولَ الله ﷺ يَرون ويسمعون، ليس فيهم أحدٌ يَنهى ولا يَذبّ إلا نُفَيْر...)[(١)].

وروى مثلَها وأقبحَ منها: جعفر بن عبد الله المحمَّدي عن عَمْرو بن حماد القَنَّاد[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٦/٤ ـ ٣٣٧.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٧/٤.

والواقدي متروك، ورواياته في الفتنة يغلب عليها الكذب والطعن على الصحابة كما قدمنا. وجعفر المحمدي شيعي، وشيخه عمرو بن حماد من الرافضة وكان يقع في عثمان!.

فهي رواية تالفة كاذبة، وكل أخبار التاريخ متوافقة على أن الصحابة كانوا مع عثمان من أول الفتنة إلى آخرها، وناصروه، ولعنوا أولئك الخارجين عليه واطَّردوهم وتبرؤوا منهم. ومن ذلك قول حذيفة بن اليمان: (اللهم العَنْ قَتَلَة عثمان وغُزاة عثمان وشَنَأَة عثمان، اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف)[١].

وإنما أشرتُ إلى هذه الرواية تنبيهاً عليها حتى لا يغترَّ بها العامة، وكذلك لبيان أغلاط بعض الكتَّاب المعاصرين الذين يروِّجون لها ولأمثالها! كذاك الذي يقول: (ثمة ركامٌ من الحقد الهائل نصادفه على حدٍّ سواء من جهة المصريين، ومن جهة عناصر الصحابة؛ أي الأنصار والبدو وحتى من جهة القرشيين ولكن بشكل نادر جدّاً)[٢].

ويشير آخر إلى رواية الواقدي ويُثْبتها في كتابه دون أي تزييف لها، وهو بذلك يقرّها ويأخذ بها[٣]!.

ثانياً ـ مواجهات بين بعض كبار الصحابة وبين رؤوس (أحزاب الخوارج السبئيين):

•• استقرأ أمير المؤمنين عثمان الأحداث الكثيرة التي مرت وتولى معالجتها في مصر والكوفة والبِصرة، وقد خَبَرَ أولئك الفتَّانين والموتورين،

---

(١) تقدم بأطول منه: ص ١٠٣ في هذا الكتاب.

(٢) الفتنة، لهشام جعيط، ص١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٤١٥.

وعلم مكْرَهم وغدْرَهم، فأراد أن يقف على حقيقة مخرجهم ويكشف خبيئة أنفسهم؛ فقام بعمل بارع حيث أرسل إليهم رجلين كان هو يثِقُ بهما، وكذلك يرتاح إليهما أولئك المنحرفون لأنهما قد نالهما تأديب من الخليفة!.

جاء في خبر سيف بن عمر: (وأرسل عثمان رجلين مخزوميّاً وزُهْريّاً، فقال: انظُرا ما يريدون، واعلَمَا عِلْمَهم ـ وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب، فاصطبرا للحق ولم يضطغنا ـ فلما رأَوْهما باثُّوهما وأخبروهما بما يريدون. قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ قالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنّا قرَّرْناه بها، فلم يخرج منها ولم يتُبْ، ثم نخرج كأنَّا حُجَّاج حتى نقدَم فنُحيط به فنخلَعَه، فإنْ أَبى قتلناه! وكانت إياها. فرجعا إلى عثمان بالخبر فضحك وقال: اللهم سلِّمْ هؤلاء، فإنك إن لم تُسَلِّمْهم شَقُوا!)[1].

•• ولما نزلت (جيوش الأحزاب الثلاثة) منازلهم حول المدينة، بعثوا رجلين ليتعرفوا أحوالَ أهل المدينة وأكابر الصحابة، فلقيا عليّاً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبراهم أنهم جاؤوا يستعفون عثمانَ من بعض الولاة، واستأذنا لأولئك المنحرفين بدخول المدينة، فكلُّ الصحابة رفضوا ذلك، وطردوهما، فعادا إلى أقوامهما بالخبر.

فانتقلوا إلى مرحلة أخرى، (فاجتمع من أهل مصر نَفَرٌ فأتوا عليّاً، ومن أهل البصرة نفرٌ فأتوا طلحة، ومن أهل الكوفة نفرٌ فأتوا الزبير، وقال كل فريق منهم: إنْ بايعوا صاحبَنا، وإلا كِدْناهم وفرَّقْنا جماعتَهم، ثم كرزْنا حتى نبغتَهم. فأتى المصريون عليّاً وهو في عسكر عند أحجار الزيت[2]، عليه حُلَّةُ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤٦/٤.

(٢) موضع في المدينة يقع غرب المسجد النبوي، كان النبي ﷺ يبرز إليه لصلاة الاستسقاء.

أفوافٍ[(١)] معتمٌّ بشـقيقةٍ حمراء يمانية، متقلدَ السيف، ليس عليه قميص، وقد سرَّح الحسنَ إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فالحسن جالس عند عثمان وعلي عند أحجار الزيت، فسلَّم عليه المصريون، وعَرَّضُوا له[(٢)]، فصاح بهم واطَّرَدَهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيشَ ذي المروة وذي خُشُب والأَعْوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارْجِعوا لا صَحِبَكُم الله! قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحَةَ وهو في جماعة أخرى إلى جَنْبِ عليٍّ، وقد أرسل ابنَيْه إلى عثمان، فسلَّم البصريون عليه وعَرَّضُوا له، فصاح بهم واطَّرَدَهم، وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خُشب والأَعْوص ملعونون على لسان محمد ﷺ.

وأتى الكوفيون الزبيرَ وهو في جماعة أخرى، وقد سرَّح ابنَه عبدَ الله إلى عثمان، فسلَّموا عليه وعَرَّضُوا له، فصاح بهم واطَّرَدَهم، وقال: لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خُشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ)[(٣)].

ثالثاً ـ أمير المؤمنين مع (المنحرفين الخارجين) وجهاً لوجه، يزيِّف دعاواهم ويقطع حججهم:

•• بعد أن استخرجَ أمير المؤمنين خبيئةَ أنفسِ أولئك المنحرفين المفسدين، من خلال الرجلين اللذين بعثهما إليهم، ومن مواقف أكابر الصحابة منهم ـ عزمَ عثمان على مواجهتهم أمام المسلمين الشاهدين عامة؛

---

(١) ضرب من برود اليمن، والأفواف: جمع فوف وهو القطن.

(٢) أومؤوا له بنيَّتهم في خلع عثمان ومبايعته، ولم يصرحوا بذلك.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٥٠/٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٩٤/١٦ ـ ١٩٥.

لإقامة الحجة عليهم، وكشفِ القناع عن مخططات رؤوسهم ونيّاتهم، وتبصيراً لأتباعهم المُغرَّر بهم، ويشهد على ذلك الصالحون من أهل المدينة وغيرها وفي مقدمتهم أكابر الصحابة.

وتوافق توجّهُ عثمان هذا مع رغبة السبئيين وأحلافهم من زعماء وأتباع وسعيهم لذلك، مع اختلاف النية والهدف، حيث يَصْبو هؤلاء لإدانة أمير المؤمنين بمزاعم افتروها وبأشياء زرعوها في قلوب السمّاعين لهم من أتباع وأغمار وأعراب وأجلاف!.

وبين أيدينا في (هذا الموقف الفيصل الخطير) نص صحيح ثابت قد رواه غير واحد من الأئمة الأثبات، وإسناده هكذا: المُعتمِر بن سُليمان، عن أبيه سُليمان التيمي، عن أبي نَضْرة المنذر بن قطعة العَبْدي، عن أبي سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري، وكلهم ثقات من رجال الصحيح، غير أبي سعيد وهو ثقة؛ ذكره ابن حِبَّان في «الثقات» ووثقه الحافظ في «المطالب العالية»، وصحح الحديثَ: ابن خُزيمة وابن حبان، وقال الحافظ في «المطالب العالية»: رجاله ثقات.

وهذا النص مطوَّل وفيه عدة أحداث: منها لقاء عثمان بهؤلاء الأحزاب ومحاجَّته لهم، وقصة الكتاب المزوَّر على عثمان، وحصار عثمان ثم قتله، والفقرة الأولى فيها اقتضاب.

وفي موضوع هذه الفقرة (مواجهة عثمان مع الأحزاب) يوجد لدينا أيضاً رواية سيف بن عمر، وهي تلتقي مع النص الصحيح المشار إليه، وتزيد هنا تفاصيل ممتازة تملأ الفراغات التي اختصرتها الرواية الحديثية الأولى؛ **وهذا يجعلنا نزداد اطمئناناً لروايات سيف عموماً، والتي نقدناها سابقاً ورجحناها على غيرها من الروايات التاريخية لاستقامتها ونظافتها.**

وســوف نورد الرواية الحديثية ثــم نتبعها برواية ســيف؛ لإعطاء صورة متكاملة عن هذا الموقف الجليل الحاسم الخطير.

عن أبي سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري قال: (سمعَ عثمان أن وفدَ أهل مصرَ قد أقبلوا، فاستقبَلَهم، فلما سمعوا به أقبلوا نحوَه إلى المكان الذي هو فيه، فقالوا له: ادْعُ بالمُصْحَف، فدعا بالمصحف، فقالوا له: افتحِ الســابعةَ ـ قال: وكانوا يُسمُّون سورة يونس الســابعةَ ـ فقرأها حتى أتى على هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، قالــوا لــه: قِفْ أرأيتَ ما حميتَ من الحِمَى؛ آللهُ أَذِنَ لك به أَمْ على الله تفتري؟ فقال: أَمْضِه، نَـزَلَتْ في كذا وكذا، فأما الحمى فــإن عمرَ حَمَاهُ قبلي لإبل الصدقــة، فلما وَليتُ زادَتْ إبلُ الصدقة، فزِدْتُ في الحمى لِما زاد من إبل الصدقة، أَمْضِه.

قــال: فجعلوا يأخذونه بآيةٍ آيةٍ[1]، فيقــول: أَمْضِه، نَـزَلَتْ في كذا وكذا.

فقال لهم: ما تريدون؟ قالــوا: ميثاقَكَ، قال: فكتبوا عليه شَــرْطاً، فأخَذَ عليهم أن لا يَشُقُّوا عَصاً، ولا يُفارِقوا جماعةً ما قام لهم بشرطهم. وقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن لا يأخذَ أهلُ المدينة عطاءً، قال: لا، إنما هذا المالُ لمن قاتَلَ عليه، ولهؤلاء الشــيوخ مــن أصحاب محمد ﷺ، قــال: فَرَضُوا، وأقبَلُوا معه إلى المدينة راضين.

قال: فقام فخطب، فقال: أَلاَ مَنْ كان له زرعٌ فَلْيَلْحَقْ بزَرْعِه، ومَن كان له ضَرْعٌ فَلْيحتَلِبْــهُ، أَلاَ إنه لا مالَ لكم عندنا، إنما هذا المــالُ لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشــيوخ من أصحاب محمد ﷺ، قال: فغَضِبَ النــاسُ، وقالوا: هذا مكرُ بني أميَّة! قال: ثم رجع المِصريون)[2].

---

(١) هذا يدل على أن في هذه الرواية اختصاراً، وجاء تفصيله في (رواية سيف) التالية.

(٢) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ مصنف ابن أبي شــيبة: ٦٨٧/٨؛ الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٤٧ ـ =

والخبر هذا يذكر (جيشَ المصريين) فقط، ويَغلِب على الظن أن السبب هو سبق المصريين للقاء عثمان، وأن في الرواية اختصاراً فاكتفى الراوي بذِكْر المصريين لأن مطالب الآخرين مثلُ مطالبهم، ولأن القيادة الرئيسة فيهم فهم يعبِّرون عن بقية المنحرفين من أهل الكوفة والبصرة. وقد أضافت رواية الطبري توضيحاً لهذا الحديث وزيادة وتفصيلات.

في رواية سيف بن عمر عن أشياخه:

(فأرسل عثمان إلى الكوفيين والبصريين، ونادى: الصلاة جامعة، وهم عنده في أصل المنبر، فأقبل أصحابُ رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم، فحمِدَ الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبرَ القوم، وقام الرجلان(١)، فقالوا جميعاً: اقتُلْهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ دعا إلى نفسه أو إلى أحدٍ، وعلى الناس إمامٌ، فعليهِ لعنةُ الله، فاقتلوه**»، وقال عمر بن الخطاب: لا أُحِلُّ لكم إلا ما قتلتموه، وأنا شريككُم!.

فقال عثمان: بل نعفو ونَقْبل ونبصِّرهم بجهدنا، ولا نحادُّ أحداً حتى يركَبَ حدّاً أو يُبديَ كفراً! **إن هؤلاء ذكروا أموراً قد عَلِموا منها مثلَ الذي علمتم، إلا أنهم زعموا أنهم يُذاكِرونيها ليُوجِبُوها علَيَّ عند من لا يَعلم!**.

وقالوا: أتمَّ الصلاة في السفر، وكانت لا تُتَمّ! ألا وإني قدِمْتُ بلداً فيه أهلي، فأتممتُ لهذا الأمر، أَوَ كذلكَ؟ قالوا: اللهمَّ نعم.

= ٣٤٨؛ فضائل الصحابة، لأحمد (٧٦٤)؛ تاريخ خليفة، ص١٦٨ ـ ١٦٩؛ تاريخ الطبري: ٣٥٤/٤ ـ ٣٥٦، ٣٨٣ ـ ٣٨٤؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١١٢٩/٣، ١١٣٢ ـ ١١٣٤، ١١٣٨ ـ ١١٣٩؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢٢٨/٧ ـ ٢٢٩، وعزاه للبزار وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي سعيد وهو ثقة ؛ وساقه مطولاً الحافظ في المطالب العالية: ٢٨٣/٤ ـ ٢٨٦ (٤٤٣٨) وعزاه لإسحاق بن راهويه، وقال: رجاله ثقات سمع بعضهم من بعض.

(١) المخزومي والزهري، فصَدَّقا كلامَ عثمان. انظر ما تقدم: ص ١٧٨ في هذا الكتاب.

وقالوا: وحميتَ الحِمى! وإني والله ما حَميتُ إلا ما حُمِي قبلي، والله ما حَمَوْا شيئاً لأحد، ما حَمَوْا إلا ما غَلَبَ عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رِعْيةٍ أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازعٌ، ثم ما مَنَعوا ولا نَحَّوْا منها أحداً إلا من ساق دَهْماً(١)، وما لي من بعير غيرُ راحلتين، وما لي ثاغية ولا راغية(٢)، وإني قد وليتُ وإني لأكثر العرب بعيراً وشاءً، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرَيْن لحجِّي، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

وقالوا: كان القرآن كتباً فتركتَها إلا واحداً! ألا وإن القرآن واحد، جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم. وسألوه أن يقتلهم.

وقالوا: إني رددتُ الحَكَم، وقد سَيَّره رسولُ الله ﷺ! والحَكَم مَكّيٌّ، سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم ردَّه رسولُ الله ﷺ، فرسول الله ﷺ سيَّرَه، ورسول الله ﷺ رَدَّه، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

وقالوا: استعملتَ الأحداث! ولم أستعمل إلا مجتمِعاً(٣) محتمِلًا مرضيّاً، وهؤلاء أهلُ عملهم فسَلُوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده، وقد ولى مَن قبلي أحدثَ منهم، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشدُّ مما قيل لي في استعماله أسامةَ، أكذاك؟ قالوا: اللهم نعم. يَعيبون للناس ما لا يفسِّرون.

وقالوا: إني أعطيتُ ابنَ أبي سَرْح ما أفاءَ الله عليه! وإني إنما نَفَلْتُه خُمسَ ما أفاءَ الله عليه من الخمس فكان مئة ألف، وقد نَفَلَ مثلَ ذلك أبو بكر

---

(١) **الدَّهْم**: العدد الكثير.

(٢) **الثاغية**: الشاة، والراغية: الناقة.

(٣) **المجتمِع**: الذي بَلَغَ أَشُدَّه، أي غاية شبابه.

وعمر، فزعم الجند أنهم يكرهـون ذلك، فرَدَدْتُه عليهـم، وليس ذلك لهم، أكذاك؟ قالوا: نعم.

وقالوا: **إني أحِبُّ أهلَ بيتي وأعطيهم!** فأما حُبِّي فإنه لم يَمِلْ معهم على جَوْر، بل أحمل الحقوق عليهـم، وأما إعطاؤهم فإني إنما أُعطيهم من مالي، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسـي ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صُلْب مالي أزمانَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، وأنا يومئذٍ شـحيح حريص، أفحين أتيتُ على أسـنان أهل بيتـي[١]، وفنِيَ عُمري، ووَدَّعْـتُ الذي لي في أهلـي، قال الملحدون ما قالـوا! وإني والله ما حملتُ على مصرٍ من الأمصار فَضْلاً فيجوزَ ذلـك لمن قاله، ولقد رددْتُه عليهم، وما قدِمَ علَيَّ إلا الأخماس، ولا يَحِلُّ لي منها شيء، فوَلِيَ المسلمون وضْعَها في أهلها دوني، ولا تَبَلَّغْتُ من مال الله ﷻ بفَلْس فما فوقه، ولا أتبلَّغ به، ما آكلُ إلا من مالي.

وقالـوا: **أعطيـتَ الأرض رجـالاً!** وإن هـذه الأرضين شـاركهم فيها المهاجـرون والأنصار أيام افتُتحت، فمن أقام بمكان هذه الفتوح فهو أُسْـوَةُ أهلِه، ومن رجع إلى أهله لم يُـذْهب ذلك ما حـوى الله ﷻ له، فنظرت في الذي يُصيبهم مما أفاء الله عليهم فبِعْتُه لهم بأمرهم من رجال أهل عقارٍ ببلاد العرب، فنَـقلتُ إليهم نصيبهم، فهو في أيديهم دوني)[٢].

وقام أمير المؤمنين عثمان (بتعميم وقائع ذلك الاجتماع) وما تمخضت عنه المناظرة والمحاججة على الأمصار[٣].

---

(١) أي: جاوزت أعمارهم.

(٢) تاريخ الطبـري، ٣٤٦/٤ ـ ٣٤٨؛ مختصر ابن عسـاكر : ١٩٠/١٦ ـ ١٩٢. والأمور التي احتجوا بها علـى أمير المؤمنين عثمـان وناظرهم فيهـا ودمغهم بالحجة، قد فصلنـا القول فيها: ص١٠٨ ـ ١٢٤ في هذا الكتاب.

(٣) مختصر ابن عساكر: ١٩٣/١٦.

•• ولنا أمام هذا الحدث الجليل وقفات وعبر:

١ ـ **كان الخليفة الراشد عثمان محيطاً بالأحداث الجارية وبُؤَر الفتن ورؤوس الشر ومخططات المجرمين والحاقدين على الإسلام ودولته**، وكان يعالج أمراضهم ويطفئ فِتنَهم ويُبطل مكرهم، ولا يترك لهم حجة ولا ذَريعة إلا ويعالجها ويقطع السبيل أمام مختلِقيها ومروِّجيها، ويَحمل أولئك جميعاً على هدي الخلفاء الراشدين وسيرتهم الحكيمة الرحيمة في سياسة الرعية بمختلِف أطيافهم وتياراتهم.

٢ ـ **علمُ عثمان بالكتاب والسُّنَّة وأحداث التاريخ التي مرت قبله وفي أيام خلافته**، وأعمالِ النبي ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر، وتجلى ذلك بردودِه على المحتجين عليه ببعض (الأحداث) التي عملها، وأنه ماضٍ على سَنَن سلفه الصالح في ذلك.

٣ ـ **ويتفرع عن ذلك أن عثمان قد سار طيلة ثنتي عشرة سنة ـ وهي مدة خلافته ـ على هَدْي النبي ﷺ والشيخين، وأقرَّ له بذلك الشهود جميعاً وعلى رأسهم المهاجرون والأنصار**، وكذلك أولئك الخارجون على الحق؛ فما نقضوا له رأياً مما احتجَ به عليهم!.

وليس كما تزعم بعض الروايات، ويُروِّج له بعض المؤرخين القدامى وكثير من الكتاب المعاصرين؛ من أن عثمان سار على طريقة عمر ستَّ سنين من خلافته ثم تغيَّر بعد! والصحيح أن التغير لم يكن من عثمان والصحابة وسيرورةِ دولة الخلافة، بل بسبب الأحداث الطارئة ومسبِّبيها من أمثال هؤلاء المنحرفين الذين ناقشهم عثمان هنا.

٤ ـ **وهذه الجولة الرائعة من المناقشة العلنية كان فيها خير كثير كشفت عنه الأقدار الحكيمة؛ حيث برَّأَتْ ساحة عثمان وأصحابه ـ وهي بريئة أصلاً**

ـ على الملأ، وهَتَكتْ أستار المنافقين والمتآمرين والماكرين والموتورين، وفَضحت مساعي الأيدي الخبيثة التي تسيِّر الرَّعاع والطَّغَام من الناس. وهي أيضاً تفضح الروايات التالفة التي مُلئت بها كتب تاريخنا، وتزيِّف ما يروِّج له كثيرون ممن كتب عن الفتنة في عصرنا.

٥ ـ ومن حسنِ تدبير عثمان وإخلاصِه أنه لما جاءه وفد المصريين؛ أمر فجمع معهم الحزبين الآخرين من الكوفيين والبصريين، وأقام دعوة لاجتماع علني أَشهدَ فيه المهاجرين والأنصار وخيار الصحابة، مع أولئك الخوارج السبئية؛ ليقيم الحجة عليهم، وتعم الجميع ويعلمون بها، وبذلك يقطع على كل موتور أو ماكر أو حاقد أي ذَريعة أو حجة.

٦ ـ وفي هذا أوضحُ دليلٍ على براءة عثمان من كل ما اختُلق عليه، وافتُري على هديه وسياسته؛ فلو كان يخشى من أي عملٍ قام به أو اجتهاد ذهب إليه في خلافته، أو تصرف عام على مستوى جميع الأمصار ـ لَجَعل ذلك اللقاءَ خفيّاً ومُغلَقاً، ولَمَا جمع إليه الصحابة وأَشهدَهم عليه! إن صاحب الحق لا يخشى إعلان النقاش ولا كشف الأمور المختلَف عليها، أما المخطئ وصاحب الهوى فيخاف من كل صوت حرٍّ أو مناقشة عامة.

٧ ـ وفي هذا العمل العثماني درس جليل لدعاة الحرية والديمقراطية والشفافية، فهذا حاكم دولة الخلافة الراشدة المترامية الأطراف، والذي تم انتخابه بإجماع عام، تخرج عليه فئات من المنحرفين في بعض الأمصار، فيعاملهم باللين والرحمة والكَفّ والإصلاح، ويواجههم أمام الملأ وسمع التاريخ وتدوين المؤرخين، ويناقشهم باعتراضاتهم واحداً تلو الآخر فيُقِرُّون له بالصواب والقوامة بالحق، ثم لا يبطش بهم بل يشترط عليهم العودة إلى بلدانهم والسمع والطاعة ما أقام لهم الحق.

٨ ـ والخليفة يدرك تمام الإدراك أن في أولئك الخارجين المنحرفين كثرةً كبيرة قد غَرَّر بهم أناسٌ ماكرون مجرمون، وزوَّروا لهم الحقائق، وشوَّهوا في عقولهم صورة الخليفة وولاته، فأراد إعذارَ أولئك الأغمار والرَّعاع بعد أن أوضح لهم وجه الحق، ورفض رأيَ عامة الصحابة بالبطش بهم، وتلك لعمرُ الحق سياسة راشدة هي مضرب المثل في الذكاء والعبقرية، كما أنها أنموذج في الرحمة والعدل.

٩ ـ ونلحظ أيضاً حلْمَ أمير المؤمنين عثمان وسعةَ صدره وعلوَّ أخلاقه ونبله، وهو يرى المهاجرين والأنصار ورؤوس الصحابة ما اتهموه في واحد من الأمور التي انتُقد بها وعِيبت عليه، وكذلك عامة الناس لم يتبرَّموا به وبسياسته، ثم تراه يواجه هذه الشراذمَ من المنحرفين ويبسط لهم رحمته ويوسع لهم صدره ويبذل حلمه وفضله ويناقشهم بكل ما عابوه عليه، بل ويحتمل جفوتهم ووقاحتهم حيث يقول قائلهم: آللهُ أمرَكَ بهذا أم على الله تفتري! ولو كان من حكام العَسْف والجَوْر لكانت إشارة منه تكفي حتى تأخذ السيوف برؤوس هؤلاء!.

١٠ ـ بَيْدَ أن عثمان مع هذا وبعد مناظرتهم وإقامة الحجة عليهم لم يترك لهم الحبل على الغارب، بل حزمهم بأمره، واشترط عليهم السمعَ والطاعة وعدمَ الخروج مرة أخرى، ورفض مطلبهم بالتدخل في السياسة المالية للدولة، لأن هذا من اختصاص المسؤولين عنه والخبراء به والمؤتمنين عليه من موظفي الدولة، وليس ذلك للرَّعَاع والطَّغَام!.

١١ ـ وأحسن الخليفة كل الإحسان في أنه قام بتعميم نتائج هذا اللقاء الحاسم على الأمصار وعامة المسلمين في الدولة؛ ليقفوا على الحقيقة من جهة، ويعرفوا رؤوس الشر من جهة أخرى فلا يغتروا بهم، وليقوم الولاة والأعيان بالقبض على من يحرك الفتن وينشر الأراجيف من جهة ثالثة.

١٢ ـ ونشـــير أخيراً إلى أمرٍ مهم أكَّدنا عليه في غير موضع؛ وهو استقامة رواية سـيف بن عمر مع الروايات الصحيحة، وزيادته تفاصيل مهمة عليها، وأنها مما يُعوَّل عليه ويُطمأَن إليه في أحداث التاريخ، ويؤكد رفضَ كلام ابن حِبّان في اتهامه بالزندقة، وهو كلام مجافٍ للحقيقة ومباين للتاريخ.

.. ونقف أخيراً وقفة فاحصة ناقدة مع روايات كاذبة وأباطيل زائفة ذات صلة بالموضوع:

١ ـ اختزل اليعقوبي المـؤرخ المنحرف عن الحق وعن أهل السُّـنَّة كلَّ مناظرات عثمان ومواقفه التي قدمناها في هذا الأمر؛ بأن عثمان وكَّل الكلامَ إلى عَمْرو بن العاص، فحـدَّث المنحرفين بما عَتَبوه علـى عثمان وطالَبَهم بالصبر، وغَمز من عثمان وواجهه بقوله: فاعتزِلْ إنْ لم تعتدل[1]!.

هكذا اعتاد هذا المؤرخ الشيعي وأمثاله أن يزيِّـفوا الحقيقة، ويفتروا على الصحابة، وخاصة الخلفاء الراشدين الثلاثة.

٢ ـ روايات الواقـدي في هذا الموضوع مليئة بالكـذب والافتراء وقَلْب الحقائق وإدانةِ عثمان وولاتــه وعامة الصحابة، وهو في ذلك يبرئ سـاحة أولئك المنحرفين المنافقين.

فرواية تزعم أن عَمْرو بن العاص قـال لعثمان: اتَّقِ الله يا عثمان، فإنك قد ركبــتَ نَهَابير وركبناها معــك، فتُبْ إلى الله نَـتُــب[2]! فتلاحَى عثمان وعمرو، ثم إن عَمْراً فارقه مغاضباً وذهب إلى فلسطين، وكان هناك يحرِّض على عثمان.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٧١/٢ ـ ٧٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٦٠/٤. **نَهَابير**: مهالك، مفردها نُهْبُور، أي حَمَلتَنا على أمور شديدة صَعْبة. النهاية: «نهبر».

ورواية ثانية تزعم بل تفتري على عثمان وعلـيٍّ، وتقول: إن عليّاً نَصَح عثمان أن يتوب من الأخطاء التي اعترف بها لأولئك المنحرفين، فقام عثمان فأعطى الناسَ من نفســه التوبة، وقــال: والله ما عابَ مَنْ عابَ منكم شـيئاً أجهلُه، وما جئتُ شـيئاً إلا وأنا أعرفُه، ولكنِّي منَّتْنِي نفسي وكَذَبَتْني، وضَلَّ عني رُشدي[1]!

ويزعم الواقدي في رواية ثالثة: أن عثمان قد أعطى الناسَ من نفســه الرضا، وتاب عن ذنوبه أمامهم وبكى علــى المنبر حتى اخضَلَّت لحيتُه من الدموع[2].

ويزيــد الواقدي الأمر ســوءاً فيزعم فــي رواية أخــرى: أن عثمان بعث محمد بن مَسْـلَمة إلى وفد المصريين، وقال له: اذهَــبْ إليهم فارْدُدْهُم عنِّي وأعطِهم الرضــا، وأخبرهم أني فاعــلٌ بالأمور التي طلبوا، ونــازعٌ عن كذا بالأمور التي تكلموا فيها[3].

والروايات من هذا (الصنف الواقدي) كثيــرة، وقد تبرَّم بها الطبـري مع نقله كثيراً عــن الواقدي، فقال: ومنها ما أعرضــتُ عن ذِكره كـراهـة مني لبشاعته[4]!.

فإذا كان ما ســاقه الطبري عــن الواقدي من مثل الأمثلــة التي ذكرناها، فكيف بالروايات التي طواها؟!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٦١/٤.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٣/٤.

(٣) طبقات ابن سعد: ٦٥/٣؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٣٧٢/٤ ـ ٣٧٣.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٥٦/٤.

٣ ـ وهذا يؤكد لنا الخطأ الكبير في وضع (روايات سيف بن عمر) مع (روايات الواقدي) في كفة واحدة، وكذلك خطأ من يقول: إن (سيفاً) هو (بابَةُ الواقدي)؛ فبين الرجلين في الرواية التاريخية بون شاسع، وروايات سيف غالبها مستقيم على الجادة، وليس فيها ما يُشتمّ منه رائحة إساءة للصحابة الكرام.

وأكثر خطأً من هؤلاء ذاك الفريق الذي يزيِّف رواية سيف كلما رآها تتناقض مع اتجاه السبئيين وتدينهم[1]!.

.. نعود إلى الحلقة التالية من الأحداث بعد ذاك اللقاء الحاسم بين أمير المؤمنين عثمان وبين جمهور (السبئيين المنحرفين)، وقد ظهر عليهم عثمان بحجَّته، ودَفَع باطلَهم بحقّه، وأثبت لهم سلامة سياسته والتزامه بهدي النبي ﷺ وصاحبيه ـ رأى عامّتُهم صدق مسعاه وصحة منهجه، وذلك في مجتمع من المهاجرين والأنصار وتحت سمع الخارجين وبصرهم، **آنذاك أُسْقِط في أيدي رؤوس الفتنة ومدبِّري المؤامرة وناسجي خيوط الشر والافتئات على الخليفة وأركان الدولة، وانقلبوا وهم مطويُّون على ضِغْن يأكل أكبادهم ويحرق أفئدتهم، وعلموا أن الدائرة ستدور عليهم إنْ لم يتداركوا أمرهم!.**

فرجعوا إلى مضاربهم، وأظهروا لأهل المدينة أنهم راجعون إلى بلدانهم، وقد أقلعوا عن مبتغاهم؛ فقوَّضوا خيامَهم، وخرجوا من المدينة ليوهموا أهلها بأن الأمر قد انتهى، فيطمئن أهل المدينة ويضعوا أسلحتهم وحِذْرَهم! وحقيقةُ الأمر أنهم عازمون على مباغتة المدينة بعد أن درسوا الخطة

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص٣٩٦، ٤٠٩؛ الفتنة، لهشام جعيط، ص١٢٤، ١٢٥؛ ويتهم رواية سيف بأنها (إيديولوجية)!.

وأحكموا تنفيذها، وأيقنوا أنه لا مفرَّ مــن خَلْع الخليفة، فإن أبى قتلوه، ولن يكون هذا إلا بمفاجأة النــاس، ولابد لذلك من ذَريعة يواجهون بها أتباعهم، وكذلك أهل المدينة إذا رأوهم قد رجعوا إليها(١)!.

وكانت الذريعة هي (كتاب مزوَّر على لســان عثمان وعليه خاتمه)، يأمر بقتل هؤلاء المنحرفين، فأمســكوا بالكتــاب وحامله، وكَــرُّوا راجعين إلى المدينة، وضربوا حصاراً على أمير المؤمنين عثمان حتى قتلوه!.

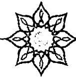
رابعاً ـ الكتاب المزوَّر على لسان عثمان، وزحف السبئيين الخوارج لحصاره:

•• تقول الرواية الصحيحة التي قدمنا طرفاً منها في مناظرة عثمان لأولئك الخارجيــن عليه، والتي رواها ابــن حبان وغيره: (ثم رجــع الوفد المصريون راضين، فبينما هــم في الطريق إذا هم براكبٍ يتعرَّض لهــم، ثم يُـفارِقُهم، ثم يرجِعُ إليهم، ثم يُـفارِقُهم ويَسُبُّهم! قالوا: ما لَكَ إن لك لأمراً، ما شأنُك؟ قال: أنا رسولُ أمير المؤمنين إلى عامله بمصرَ، قال: فَفَتَّشُوه، فإذا هم بالكتاب على لســان عثمانَ عليه خاتمُه إلى عاملِه بمصرَ أن يَصْلبهــم أو يَـقْتُلَهم أو يَـقطَع أيديَهم وأرجلَهم! فأقبلــوا حتى قدِمُوا المدينةَ، فأتَوْا عليّــاً، فقالوا: ألم ترَ إلى عــدوِّ الله، كَتَبَ فينا بكذا وكذا، وإنَّ الله قد أَحَلَّ دمَــهُ، قُمْ معنا إليه، قال: واللهِ لا أقومُ معكم، قالوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قطُّ! فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ، ثم قال بعضُهم لبعضٍ: أَلِهذا تُقاتِلون، أَوَ لهذا تغضَبُون؟!.

فانطلق عليٌّ فخرَجَ من المدينة إلى قريــة، وانطَلَقوا حتى دخلوا على عثمان، فقالوا: كتبتَ بكذا وكذا؟ فقال: إنمــا هما اثنتان: أن تُـقِيموا علَيَّ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٠/٤؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٣٩٩ ـ ٤٠٠.



رجلَيْن من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أَمْلَيْتُ ولا عَلِمْتُ، وقد تَعْلَمون أن الكتابَ يُكتَبُ على لسانِ الرجل وقد يُنْقَشُ الخاتَمُ على الخاتَم! فقالوا: قد واللهِ أَحَلَّ الله دَمَكَ. ونَقَضُوا العهدَ والميثاقَ، فحاصَرُوه)(١).

وتضيف رواية سيف بن عمر فصلاً آخر يضيء جانباً مهمّاً في الحدث: (فأتاهم الناس فكلّموهم، وفيهم عليٌّ فقال: ما رَدَّكُم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا مع بريدٍ كتاباً بقَتْلِنا، وأتاهم طلحة فقال البصريون مثلَ ذلك، وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك، وقال الكوفيون والبصريون: فنحنُ ننصرُ إخوانَنا ونمنعُهم جميعاً، كأنما كانوا على ميعاد! فقال لهم عليٌّ: كيف عَلمتُم يا أهلَ الكوفة ويا أهلَ البصرة بما لقِيَ أهلُ مصر، وقد سِرْتُم مراحلَ ثم طوَيْتم نحوَنا؟ هذا واللهِ أمرٌ أُبْرِمَ بالمدينة! قالوا: فَضَعُوه على ما شئتم، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، لِيَعْتزِلْنا!)(٢).

وتشير رواية أخرى للطبري عن الواقدي إلى أمر مهم جدّاً؛ وهو أن المصريين عندما غادروا المدينة تخلّف فيها منهم رجلان هما: (الأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلة)(٣).

تلك هي الرواية الصحيحة الثابتة بشأن (الكتاب المزوَّر) على عثمان، وعليها نُعوِّل وإليها نرجع وفي ضوئها نناقش أمر الكتاب وما تضمنه.

وثمة روايتان أخريان:

---

(١) صحيح ابن حبان، حديث (٦٩١٩)؛ وانظر ما تقدم: ص١٨١ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥١/٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٩٥/١٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٧٥/٤.

الأولى: يرويها جعفر بن عبدالله المحمدي عن عَمْرو بن حماد؛ تذكر أن عثمان أَمر بكتابة الكتاب، وتُدينه به[١]! وجعفر شيعيّ، وعَمْرو كان من الرافضة ويسبُّ عثمانَ، فلا يُعبأ به ولا بروايته.

والثانية: عن الواقدي، وتفيد بأن عثمان تبرأ من الكتاب، لكنها تُدين مروانَ بن الحكَم، وأنه الذي دبَّره[٢]. والواقدي متروك، وقد تبين لنا من سَبْر رواياته أن غالبها ساقط.

والروايتان تخالفان الرواية الصحيحة الثابتة.

.. وقصة هذا (الكتاب المزعوم) تحمل شواهد وضعها وبطلانها في كل كلمة من كلماتها، قد حاكها تدبير شيطاني خبيث وكيد أثيم وتآمر من حزب السَّبئيِّين، وعلى رأسهم الأشتر النخعي وحُكيم بن جَبَلة، أشياع رأس الشر وجرثومة الفساد ابن سبأ اليهودي؛ لتقويض الخلافة الإسلامية وإشعال نار الفتنة وهدم بنيان الإسلام[٣].

وهو كتاب مكذوبٌ على عثمان، وخاتَمُه مزوَّر على خاتَمِه، وهو ومروانُ وحاشيته منه بَراء، وذلك لعدَّة أمور وحقائق واضحة:

أولها: أن حامل الكتاب المزوَّر قد تعرَّض لهؤلاء المصريين ثم فارقهم، وكرَّر ذلك مراراً، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفِتَ أنظارهم إليه، ويُثير شكوكَهم فيه، وكأنه يقول لهم: معي شيء هام بشأنكم! وإلا فلو كان من عثمان لخافَهم حاملُ الكتاب المزعوم، ولأَبْعَدَ عنهم، وأسرع إلى والي مصر ليضَعَ بين يديه الأمر، فينفذه.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٦٧/٤.

(٢) المرجع السابق: ٣٧٣/٤ ـ ٣٧٤.

(٣) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

ثانيها: كيف علمَ العراقيون بالأمر، وقد اتجهــوا إلى بلادهم، وفَصَلَتْهم عن المصريين ـ الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم ـ مسافةٌ شاسعة؛ فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب، ومع ذلك عادوا جميعاً إلى المدينة في آنٍ واحد، كأنما كانوا على ميعاد؟! لا يُعقل هذا إلا إذا كان الذين زوَّروا الكتابَ، واســتأجروا راكباً ليحملَه ويمثِّل هذا الدور في (البُوَيْب) أمام المصريين؛ قد استأجروا راكباً آخرَ انطلَق إلى العراقيين ليخبرهم بأن المصريين قد اكتشفوا كتاباً بَعث به عثمان لقتل المنحرفين المصريــين! وهذا ما احتج به علي بن أبي طالب فقال: كيــف عَلمتُم يا أهل الكوفة ويا أهــل البصرة بما لَقِي أهلُ مصر، وقد سِرْتُم مراحلَ ثم طَوَيْتم نحوَنا؟!.

ثالثها: كيف يكتب أمير المؤمنين عثمان إلى ابن أبي سَرْح بقَتْل هؤلاء، وابنُ أبي ســرح كان عقِب خروج جيش المنحرفين مــن مصر متجهين إلى المدينة كَتَب إلــى الخليفة يســتأذنه بالقدوم عليه، وقــد تغلَّب على مصرَ محمد بن أبي حذيفة، وفعلاً قد خرج ابن أبي ســرح من مصر إلى العَريش وفلسطين فالعقبة؛ فكيف يكتب إليه عثمان بقتلهم، وعنده كتابه الذي يستأذن به منه بالقدوم عليه؟!.

رابعهــا: أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد نَهــى عن قتل محمد بن أبــي بكر وجيوش السبئيين عندما حاصروه، وأَبَى على الصحابة أن يدافعوا عنه، ولم يأمر بقتل الخارجين عليه دفعاً عن نفسه؛ فكيف يكتب فيهم مثلَ هذا الكتاب المزعوم، وقد خرجوا عنه من المدينة مظهِرين التوبة والإنابة؟!.

خامسها: تخلُّف الأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلة في المدينة بعد خروج المنحرفين منها، يشير إشارة واضحة إلى أنهما هما اللذان افتعلا الكتاب، إذْ لم يكن لهما أي عمل بالمدينة ليتخلَّفا فيها، وما مَكَثا إلا لمثل هذا الغرض، فهما صاحبا المصلحة في ذلك. وقد أشــار علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلــى هذا عندما أنكر

على العراقيين رجوعَهم مع المصريين في آنٍ واحد؛ فقال: (هذا والله أمرٌ أُبْرِمَ بالمدينة!).

ولم يكن لأمير المؤمنين عثمان في ذلك أية مصلحة، وكذلك ليس لمروان بن الحَكَم أية مصلحة! والذين يتهمون مروانَ في هذا إنما ينسبون إلى الخليفة الغفلةَ عن مهامه، وأن في ديوان الخلافة من يجري الأمور ويقضي بها دون علمه، وبذلك يبرِّئون ساحة أولئك المجرمين الغادرين. ثم لو أن مروان زوَّرَ الكتابَ لكان أوصى حاملَه بأن يبتعد عن أولئك المنحرفين، ولا يتعرض لهم في الطريق حتى يأخذوه، وإلا لكان متآمراً معهم على عثمان، وهذا محال[1]!.

سادسها: أن هذا الكتاب المشؤوم ليس أولَ كتاب يزوِّره هؤلاء المجرمون، بل زَوَّروا كتباً على ألسنة أمهات المؤمنين وعليٍّ وطلحة والزبير[2]، ولهذا لما قال المنحرفون لعليٍّ: (فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: واللهِ ما كتبتُ إليكم كتاباً قطُّ! فنَظَرَ بعضهم إلى بعض)! وهؤلاء الذين نظر بعضهم إلى بعض هم المخدوعون من المنحرفين، والذين زوروا هم الرؤساء، أكابرُ مجرمي الفتنة الطائشة.

ولما عاتب مسروقٌ أمَّ المؤمنين عائشة بأنها كتبتْ إلى الناس بالخروج على عثمان؛ أقسمت بالله أنها ما كتبتْ سواداً في بياض!.

---

(١) ومن عجبٍ أن بعض أئمتنا قد صدَّق بأن مروان هو الذي زوَّر الكتاب، وفي هذا تبرئة للمجرم الحقيقي! يقول ابن كثير: (لم يكن لمروان أن يَفتاتَ على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزوِّر على خطِّه وخاتَمِه، ويبعثَ غلامه على بعيره، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين). البداية والنهاية: ١٨٦/٧. وقال الذهبي في ترجمة مروان: (وكان كاتبَ ابنِ عمِّه عثمان، وإليه الخاتَمُ، فخانَهُ، وأَجْلَبوا بسببه على عثمان!)؛ سير أعلام النبلاء: ٤٧٧/٣.

(٢) انظر ما تقدم: ص١٤٨ ـ ١٥٠، في هذا الكتاب.

سابعها: وقد جرى على ألسنة السبئيِّين المجرمين ما استكَنَّ في ضمائرهم اعترافاً بجريمة التزوير وافتراء الكذب على خليفة المسلمين أو ابن عمِّه مروان بن الحكَم؛ حيث قالوا: (فَضَعُوه على ما شئتم، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، ليعتزلْنا!)، وهذا لعمرُ الحق كلام واضح وصريح إلى أبعد حدود الوضوح والصراحة، في أن هؤلاء السبئيين المجرمين أعداء الإسلام إنما أرادوا شيئاً واحداً هو تقويض الخلافة الإسلامية وتفريق شمل الأمة وحلّ نظامها الاجتماعي.

إن الأيدي الآثمة المجرمة التي زوَّرت الكتب على ألسنة أولئك الصحابة، هي نفسها التي أوقدت نار الفتن من أولها إلى آخرها، ورتبت ذلك الفساد العريض، وهي التي زوَّرَت وروَّجَتْ على عثمانَ تلك الأباطيل، وأنه فعل وفعل، ولقَّنَتْها للناس حتى قبلها الرَّعَاع. ثم زوَّرت على لسان عثمان ذلك الكتابَ؛ ليذهبَ ضحيته إلى ربه شهيداً سعيداً.

ولم يكن عثمان الشهيد هو وحده المجنيّ عليه في هذه المؤامرة السبئية اليهودية الضارية، بل الإسلام نفسه كان مجنيّاً عليه قبل ذلك، ثم التاريخ المحرَّف المشوَّه، والأجيال الإسلامية التي تلَقَّت تاريخها مشوهاً هي كذلك ممن جَنَى عليهم الخبث اليهودي وأعوانه من أصحاب المطامع والشهوات والحقد الدفين[1].

•• وبافتراء هذا الكتاب المزور المشؤوم على لسان أمير المؤمنين عثمان، وتزوير خاتمه، تمكن مدبِّرو الفتنة ورؤوس الشر ومساعِرُ الحقد

(١) كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤٠١ ـ ٤٠٤؛ وانظر: العواصم من القواصم بتعليق محب الدين الخطيب، ص١٣٣ ـ ١٣٦؛ عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ١٢٢، ١٢٥ ـ ١٢٦.

والكيد للإســـلام وأهلـــه؛ أن يلعبـــوا بعقول أتباعهـــم ويقودوهـــم كالبعير المَخْشوش إلى الهدف المرسوم، وهو ضرب الحصار على عثمان والتضييق عليه وخلعه ثم قتله.

وهذا ما سنفصله في الفصل التالي.



الفصل السابع

الحصار الآثم ومجريات أحداثه ومواقف أمير المؤمنين والصحابة

أولاً ـ طلائع الحصار وبداياته:

بعد اختلاق الكتاب المزور على لسان عثمان وتزوير خاتَمه، وتدبير تلك المكيدة الخبيثة الفاجرة؛ عادت كتائب الخوارج المصريين من السبئيين وأتباعهم ومعهم محمد بن أبي بكر الصديق، ورجعت كذلك فِرقُ إخوانهم من العراقيين، ووصل الجميع إلى المدينة في آنٍ واحد وكانوا في ذلك على ميعاد! ولم يَرُع أهلَ المدينة إلا التكبير في نواحيها، وقالوا للناس: مَن كَفَّ يدَه فهو آمن!.

وكان ذلك في أوائل ذي القعدة من سنة (٣٥هـ)[١].

ولزِمَ الناسُ بيوتهم، وصلى أمير المؤمنين بالناس أياماً، فيصلي وراءه أهل المدينة، وهؤلاء الفجرة يصلُّون خلفه، ويَغشى من شاء عثمانَ وهم في عينه أدق من التراب، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام، وكانوا زمراً بالمدينة، يمنعون الناس من الاجتماع[٢].

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٦٨؛ تاريخ الطبري: ٣٥٠/٤ ـ ٣٥١؛ مختصر ابن عساكر: ١٩٥/١٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥١/٤؛ البداية والنهاية: ١٧٤/٧.

فأتاهم الناس والأعيان وكلَّموهم، وفي مقدمتهم عليٌّ وطلحة والزبير، وكلُّهم يؤنِّبهم ويزجرهم على عودتهم الآثمة ويبيِّن افتراءَهم في تذرُّعِهم (بالكتاب المزور)، وكشَفَ عليٌّ مؤامرتهم فقال لهم: هذا والله أمرٌ أُبرم بالمدينة! فلم ينجع فيهم شيء، وهم مصرُّون على هدفهم الإجرامي: لا حاجة لنا في هذا الرجل (أمير المؤمنين)، ليعتزلنا!.

ولم يتوقف الخليفة الراشد البار عن محاججتهم وصرفهم عن ضلالهم وخروجهم الظالم عليه، وناقش بعض زعاماتهم بصورة فردية.

عن محمد بن سيرين قال: (أشرف عليهم عثمان من القصر، فقال: ائتوني برجلٍ أُتاليه كتابَ الله، فأتوه بصَعْصَعَة بن صُوحان، وكان شابّاً فقال: أَمَا وجدتم أحداً تأتوني به غيرَ هذا الشاب! قال: فتكلم صعصعة بكلام، فقال له عثمان: اتلُ، فقال صعصعة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، فقال: كذبتَ! ليست لك ولا لأصحابك، ولكنها لي ولأصحابي، ثم تلا عثمان: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١](١).

وعن الحسن البصري قال: أنبأني وَثَّاب ـ وكان بين يدي عثمان ـ قال: (بَعثني عثمان فدعوتُ له الأشترَ النَّخَعي، فجاء، فقال: يا أشتر، ما يريد الناس منِّي؟ قال: ثلاثٌ ليس لك من إحداهنَّ بُدّ، قال: ما هنّ؟ قال: يُخيِّرونك بين أن تَخْلَعَ لهم أمرَهُم، فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له مَنْ شئتم، وبين أن تُقِصَّ من نفسك، فإنْ أبيتَ هاتين فإن القوم قاتِلوك! قال: أَمَا من إحداهنّ بدٌّ؟ قال: لا، ما من إحداهن بُدّ! قال: أمَّا أن أَخْلَعَ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٥٨٥/٨، ٦٨١، وإسناده صحيح إلى ابن سيرين؛ وبنحوه عن قتادة في تاريخ خليفة، ص١٧١.

لهم أمرَهم، فما كنتُ لأخلَعَ سِرْبالاً سَــرْبَلَنيه الله؛ والله لأَنَ أُقَدَّمَ فتُضربَ عنقي أحبُّ إلــيَّ من أن أَخلع قميصاً قمَّصَنِيــه الله، وأَتركَ أمة محمد ﷺ يَعْدو بعضها على بعض. وأمَّا أن أُقِصَّ من نفســي، فوالله لقد علمتُ أن صاحبيَّ بين يديَّ قد كانــا يُعاقِبان، وما يقوم بَدَنــي بالقِصاص. وأمَّا أن تقتلوني، فوالله لئن قتلتموني لا تتحابُّون بعــدي أبداً، ولا تُصلُّون بعدي جميعاً أبداً، ولا تقاتِلون بعدي عدوّاً جميعاً أبداً. ثم قام الأشــتر فانطَلَق، فمكثنا أياماً)[١].

ثانياً ـ محاورات بين الخليفة الراشد وبين الخوارج المنحرفين على ملأ منهم ومن الصحابة، وإقامة الحجة عليهم من جديد:

مضى ذو النورين على هديه الرشيد في الرأفة والرحمة والتعطف بهؤلاء المارقيــن، وهو يرى فيهــم أغماراً أغــراراً مغفَّلين منقادين مــن قِبل ذُؤْبان لا يرجون لله وقاراً، ولا يقيمون لحرمةٍ وزناً، ولا لعهدٍ قيمةً، ولا لإمامٍ طاعةً، ولا لدمٍ حرمةً ـ فطاوَلَهم مطاولة من يطمع في إصلاح الحال بالبر والسياسة والحكمة، فسمع وأجاب، وأخذ وأعطى، ولانَ واشتد، وصالَحَ وخاصَمَ، كل ذلك في ظل عدل الخلافة الراشــدة، ونُــبْل أخلاقــه، ورحمة حكمه، وورع سياسته... إنه أحدُ أولئك العباقرة ورجال الصحراء وتلاميذ المدرسة الأولى للدعوة الإســلامية الذين اصطفاهــم الله تعالى لقيادة الإنســانية، فكانوا في حياتهم أمثلــة حية لأفضل الفضائــل وأكرم الأخلاق؛ إنهــم كالذهب يزيده الصَّهر قوة وصفاء[٢]!.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٧٩/٨ ـ ٦٨٠؛ طبقات ابن سعد: ٧٢/٣ ـ ٧٣؛ تاريخ خليفة، ص١٧٠؛ تاريخ الطبري: ٣٧١/٤ ـ ٣٧٢، وإسناده صحيح.

(٢) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٢، ٩٠.

قام عثمان فأعلَن محاجَجَتَه لأولئك المنحرفين المفترين على الأشــهاد، وفي مــلأ منهم قــادة وأتباعاً، وفي مشــهد مجلس شــورى الخلافة وأعيان الصحابة والمهاجرين والأنصار وعامة الناس:

١ ـ عن الأحنف بن قيس قال: (خرَجْنا حُجَّاجــاً، فقدِمنا المدينة، ونحن نريد الحج، فبينا نحن في منازلنا نَضَعُ رِحالَنا، إذ أتانا آتٍ فقال: إن الناس قد اجتمعوا في المســجد وفَزِعوا! فانطَلَقْنا، وإذا الناس مجتمعون على نفرٍ في وسَط المسجد، وإذا عليٌّ والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، فإنا لكذلك، إذ جــاء عثمان بن عفان عليه مُــلاءة صفراء قد قَنَّع بها رأسَــه، فقال: أهاهُنا عليٌّ؟ أهاهُنا طلحــة؟ أهاهنا الزبير؟ أهاهنا ســعدٌ؟ قالوا: نعــم. قال: فإني أَنْشُــدُكم بالله الذي لا إلــه إلا هو؛ أَتَعْلَمون أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن يبتاعُ مِرْبَدَ بني فلان، غَفَرَ الله له**» فابتعتُه بعشرين ألفاً ـ أو: بخمسة وعشرين ألفاً ـ فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه، فقال: «**اجعلْه في مسجدنا، وأجرُهُ لك**»؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: أَنْشُــدكم بالله الذي لا إلــه إلا هو؛ أَتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ يَبتاع بئرَ رُومة، غَفَرَ الله له**»، فابتعتُه بكذا وكذا، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: قد ابتعتُها بكذا وكذا، قال: «**اجعَلْها سِــقايةً للمسلمين، وأجرُها لك**»؟ قالوا: اللهم نعــم. قال: فأَنْشُــدُكم بالله الــذي لا إلــه إلا هــو؛ أتعلمون أن رسول الله ﷺ نَظَر في وجوه القوم يومَ جيش العُسْرة، فقال: «**مَنْ يجهِّز هؤلاء، غَفَرَ الله له**»، فجهَّزْتُهم حتى ما يَفقِدون خِطامــاً ولا عِقالاً؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهد، اللهمَّ اشهد، ثم انصرف)[1].

٢ ـ وعن ثُمَامَة بن حَزْن القُشَــيْريِّ قال: (شــهدتُ الدار حين أَشرف عليهم عثمانُ، فقال: ائتُوني بصاحبَيْكُم اللَّذَيْن أَلَّبَاكم علَــيَّ، قال: فجيءَ بهما، كأنهما

---

(١) أخرجه أحمد (٥١١)؛ والنسائي في «الكبرى» (٦٤٠٠) و(٦٤٠١) وفي «الصغرى»: ٤٦/٦ ـ ٤٧؛ ٢٣٣ ـ ٢٣٥؛ وابن حبان (٦٩٢٠)، وغيرهم، وصححه أحمد شاكر والألباني.

جَمَلانِ ـ أو: كأنهما حِماران ـ قال: فأشـرف عليهم عثمانُ، فقال: أَنْشُـدُكم باللهِ والإسلامِ؛ هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدِمَ المدينةَ وليس بها ماءٌ يُستعذَبُ غيرَ بئر رُومَة، فقال: «**مَن يشتري بئر رُومةَ، فيجعلُ دلوَه مع دِلاء المسلمين، بخيرٍ له منها في الجنة**»، فاشـتريتُها من صُلْب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشربَ منها حتى أشربَ من ماء البحر؟ فقالوا: اللهمَّ نعم. فقال: أَنْشُدُكم بالله والإسلام؛ هل تعلمون أن المسـجد ضاقَ بأهلِهِ، فقال رسول الله ﷺ: «**من يَشتري بقعةَ آل فلانٍ فيزيدَها في المسجدِ، بخيرٍ له منها في الجنة**»، فاشتريتُها من صُلْبِ مالي، فأنتم اليومَ تمنعوني أن أصلِّـيَ فيها ركعتين؟ قالـوا: اللهمَّ نعم. قال: أَنْشُـدُكم بالله وبالإسلام؛ هل تعلمون أني جهزتُ جيشَ العُسْـرة من مالي؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: أَنْشُـدُكم بالله والإسلام؛ هل تعلمون أن رسـول الله ﷺ كان على ثَبِير مكة ومعه أبو بكر وعمر وأنـا، فتحرَّكَ الجبلُ حتى تسـاقَطَتْ حجارته بالحَضيض، قال: فرَكَضَه برِجْلِهِ، وقال: «**اسـكُنْ ثَبِيرُ، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشـهيدان**»؟ قالوا: اللهمَّ نعم. قال: الله أكبر! شَهِدوا لي وربِّ الكعبة أني شهيدٌ، ثلاثاً)[1].

٣ ـ وعن أبي أُمامةَ بن سَهْل بن حُنَيْف ـ وكان مع عثمان في الدار وهو محصور ـ: (أن عثمانَ بن عفان أَشْرَف يومَ الدار، فقال: أَنْشُدُكم بالله؛ أَتعلمونَ أن رسـول الله ﷺ قال: «**لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسـلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ: زِنى بعد إحْصـانٍ، أو ارتدادٍ بعد إسـلامٍ، أو قتْل نفـسٍ بغير حقٍّ فقُتِـلَ به**»؟ فواللهِ ما زَنيتُ في جاهلية ولا في إسـلام، ولا ارتدَدْتُ منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ، ولا قتلتُ النفسَ التي حرم الله، فبمَ تَقْتُلوني؟!)[2].

---

(١) أخرجه الترمـذي (٤٠٣٦)؛ والنسـائي في «الكبـرى» (٦٤٠٢)، وفي «الصغـرى»: ٢٣٥/٦؛ وعبدالله بن أحمد في زياداته على المسـند (٥٥٥)، وغيرهم، وحسـنه الترمذي، وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٩٧) ؛ والنسـائي فـي «الكبرى» (٣٤٦٨) ؛ وأبـو داود (٤٥٠٢) ؛ وابن ماجه (٢٥٣٣) ؛ وأحمد (٤٣٧)، وصححه أحمد شاكر والألباني.

ثالثاً ـ الخوارج السبئيون يطلبون من أمير المؤمنين عثمان (خلع نفسه من الخلافة) وهو يرفض مستمسكاً بالأمر النبوي:

•• لم يُفلح ذلك في كسر الخارجين عن مخططهم، بل شدَّدوا الحصار على الخليفة الراشد المظلوم، وضيَّقوا عليه في دخوله وخروجه، وهم ماضون في تحقيق هدفهم الذي قالوه لعلي بن أبي طالب: (لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، ليعتزلْنا)، وأكَّدوه على لسان الأشتر: (يخيِّرونك بين أن تخلَع لهم أمرهم...)، فلم يجدوا من أمير المؤمنين إلا الرفض القاطع والصبر الراسخ، وقد ارتفع في قامته أمام الأحداث العاصفة، وبقي كالجبال الراسية ثابتاً ثبوتَ الإيمان في قلوب خُلَصاء الصدّيقين!.

وبعد ذلك صعَّدوا الأمر وجهروا به أمام الخليفة والعامة، لا يَردَعُهم خلق، ولا يَرْعَوون عن فتنة، ولا يأبهون بالخروج على أمر الخليفة والأمة!.

عن أم يوسف بن ماهِك، عن أمِّها قالت: (دخلتُ على عثمانَ وهو محصورٌ وفي حَجْره المُصحف، وهم يقولون: اعتزِلْنا، وهو يقول: لا أَخْلَع سِرْبالاً سَرْبَلَنِيه الله)[1].

•• ولم يكُ عثمان جاهلاً بغايتِهم من خروجهم، كما لم يُفاجئْهُ طلبُهم الصريح هذا، فلقد كان يعلم ذلك منذ أكثر من خمس وعشرين سنة؛ حيث أخبره النبي ﷺ بأولئك المجرمين الذين سيخرجون عليه ووَصَمَهم بالمنافقين.

عن النُّعمان بن بَشير، عن أم المؤمنين عائشة، قالت: (قال رسول الله ﷺ: «**يا عثمانُ، إنَّ الله عسى أن يُلْبِسَكَ قَميصاً، فإنْ أرادَكَ المنافقون على خَلْعِه،**

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧١؛ طبقات ابن سعد: ٦٦/٣.

فلا تَخْلَعْه حتى تَلْقاني. يا عثمانُ، إنَّ الله عسى أنْ يُـلْبِسَكَ قميصاً، فإنْ أرادك المنافقون على خَلْعِه، فلا تَخلَعْه حتى تلقاني»، ثلاثاً).

وفــي رواية: «**فــإنْ أرادك المنافقــون علــى أن تَخلَعَــه، فلا تَخْلَعْه لهم ولا كرامةَ**».

وفي رواية أخرى: عن عائشــة: أنها قالت: (فلما رأيتُ عثمانَ يَـبْذُل لهم ما سألوه إلا خَلْعَه؛ علمتُ أنه من عَهْدِ رسول الله ﷺ الذي عَهِدَ إليه)[1].

وقد وفَّــى عثمان بذاك العهــد النبوي، واعتصم به، وصبرَ على شــدائد نتائجه، وأعلن ذلك صراحــةً وواجه به أولئك الفتّانين غيــرَ مرة؛ فقال: (ما كنتُ لأخلَعَ سِرْبالاً سَربَلَنيه الله).

وأيَّـد الصحابة الكرام عثمان، وتابعوه عليه، وشــدّوا على يديه، وواسوه في ذلك وناصحوه وبشَّروه بوعد الله وكرامته.

يروي نافــع مولى ابن عمر فيقول: حدثني عبد الله بــن عمر قال: (قال لي عثمان وهو محصورٌ في الدار: ما ترى فيما أشارَ به علَيَّ المُغيرة بن الأَخْنَس؟ قلتُ: ما أشــار به عليك؟ قــال: إن هـؤلاء القوم يريدون خَلْعــي، فإنْ خَلَعْتُ تركوني وإنْ لم أَخْلَع قتلوني، قلتُ: أرأيتَ إنْ خَلَعْتَ تُـترك مُخلَّداً في الدنيا؟ قال: لا، قال: فهل يَملِكون الجنة والنار؟ قــال: لا، فقلت: أرأيتَ إنْ لم تَخْلَعْ هل يزيــدون على قتلك؟ قــال: لا، قلت: فلا أَرى أن تَسُــنّ هذه السُّــنَّة في الإسلام؛ كلما سَخِطَ قومٌ على أميرهم خَلَعوه، لا تَخلعْ قميصاً قَمَّصَكَهُ الله!)[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٦٦) و(٢٤٥٦٦)؛ والترمذي (٤٠٣٨)؛ وابن ماجه (١١٢)؛ وابن أبي شــيبة: ٦٨٠/٨؛ وابن حبان (٦٩١٥)، وغيرهم، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦٦/٣؛ فضائل الصحابة، لأحمد (٧٦٧)؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٠/٨ ـ ٦٨١؛ تاريخ خليفة، ص١٧٠؛ وإسناده صحيح.

هذا الموقف الفذُّ مــن أمير المؤمنيــن عثمان يُضاف إلــى فرائد مناقبه وفضائله، فتراه وقد نيَّف على الثمانين من عمره، وفي ذلك الظرف العصيب، يعتصم بعهد النبي ﷺ إليه، ويستمسك بمســؤولياته الكبار، وقد حمل أمانة البيعة وأمانة الحكم وأمانة الإســلام ودعوته؛ فيحــرِص على الوفاء بحقوق ذلك تامة مهما كانــت التضحيات ولو كانت روحه الطاهــرة! فقدَّمَ مصلحةَ الإسلام والأمة على مصلحته الشخصية بشجاعةٍ وقوةٍ وعزيمةٍ وصبرٍ وثبات.

(لقــد رأى عثمان ﷺ أنه لــو أجــاب الخارجين إلى خَلْع نفســه من الخلافة؛ لأصبحت عروشُ الإســلام ألعوبةً في أيدي المفتونين الساعين في الأرض بالفساد، ولَســادَت الفوضى واختلَّ نظام البلاد والعباد، ولكان ذلك تســليطاً للرَّعَاع والغوغاء على الولاة والحكام. ورأى عثمان أنه لو أجابهم لألقى بأسَ الأمة بينها وشَــغَلها بنفســها عــن أعدائها، وذلك أيســرُ طريق لإفنائها. فلم يرَ أمامه سوى نفسه يَفدي بها الأمة، ويحفظُ كيانَها أن يتزعزع، ويصون بنيانهــا أن يتهدم، ويدعم بهذا الفداء نظامَهــا الاجتماعي في أعلى مظاهر الحكم، ويحمي ســلطانها الذي تُســاس به أن تمتد إليــه يدُ العبث والفوضى ـ ولا شــك أن هذا أعظم وأقوى ما يستطيع رجل أَلقتْ إليه الأمة مقاليدها أن يصنعه!)[1].

•• وإن فاقِرة الفواقــر وعظيمةَ العظائم؛ أن يحتــوي تاريخ تلك الحقبة الزاهرة من تاريخنا في صدر الإســلام، تلك الفتنةَ الجامحة وذلك المشــهد القاتــم الذي يحمل بين طياته أســاليب الدمــار محبوكةً بأيدٍ خبيثة تتســتر بشــعارات كاذبة خاطئة، مصوغة بلغة (الخلع والقتل والدمــار)، قامت بها عصابة مــن ذوي الأهواء والموتوريــن والمحدودين ومَن انضــم إليهم من الطَّغَام والأجلاف الذين اختلفت قلوبهم كما اختلفت ألوانهم وألســنتهم، قد

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٨ ـ ٨٩.

ملؤوا ساحة الإسلام عُراة من الإيمان الصادق، فطغَى سوادُهم على صادقي الإيمان من أصحاب النبي ﷺ وصالحي المؤمنين، قد أرادوا الدنيا بإسلامهم فخاضوا إليها لُجَجَ الدماء، ورتعوا في بقيَّةٍ من آثار النبوة ممثلةٍ في شخص عثمان بن عفان رأفة ورحمة(١)!.

أولئك الذين طبَعتْهم كلمةُ النبوة الصادقة بِمِيسَمٍ لا يزول عنهم بمرور الزمان؛ عنوانه الكذب والمراوغة والنفاق والمخادعة: «يا عثمان، إن الله عسى أن يُلبِسَك قميصاً، فإنْ أرادك المنافقون على خَلْعِهِ فلا تخلَعْه حتى تلقاني»!.

وهذا كلام نبوي فصلٌ لا محيصَ عنه، وقد قطع أي اجتهاد في وصفهم بأية صفة تجمِّل صورتهم أو تخفف من سوءاتهم وتخفي بعض خلائقهم؛ إنهم (المنافقون)!.

ولا يرتاب عاقل منصف أن هؤلاء الساعين في حَصْره ثم قتله؛ كلهم مخطئون، بل ظالمون باغون معتدون ممن يَسْعَون في الأرض فساداً(٢).

•• ولم يَعْتِب على عثمانَ ولا خرج عليه أحد من أكابر الصحابة أو السابقين إلى الإسلام، ولا افتاتَ عليه المهاجرون والأنصار، ولا أشعلَ في وجهه الفتنة واحد من الصحابة عامة ولا التابعين لهم بإحسان، مع أن بعض كبارهم قد خالفوه في بعض الاجتهادات وبعض سياساته في مسيرة الدولة، كما جرى له مع عليٍّ بشأن التمتع بالحج، ومع عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود في إتمام الصلاة بمنى، ومع أبي ذَرّ في سياسة المال، ومن بارع الأمثلة في ذلك ما رواه عمران بن عبد الله الخزاعي عن سعيد بن المسيِّب قال: (شهدتُ عليّاً وعثمانَ وكان بينهما نَزْغٌ من الشيطان، فما تَرَكَ واحدٌ

---

(١) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٧٨.

(٢) انظر: منهاج السنة: ٣/٦٩٤.

منهما لصاحبه شيئاً إلا قال له، فلو شئت أن أقصَّ عليك[١] ما قالا فعلتُ، ثم لم يَبْرَحا حتى اصطلحا واستغفر كل واحد منهما لصاحبه)!.

وفي رواية أبي سعيد الخُدْري: (فما صليتُ الظهر حتى دخلا، أحدُهما آخذٌ بيد صاحبه، كأنهما أَخَوان لأمٍّ وأبٍ ـ يعني عثمان وعليّاً ـ!)[٢].

لكنهم رضي الله عنهم ما خرجوا عليه، ولا ألَّبوا الناس ضده، ولا ناصَبُوه العداء، ولا ناصروا أولئك (السبئيين المنافقين)، فَضْلاً عن أن يجيِّشوا الدَّهْماء ليحاصروه ويخلعوه، بل إن الصحابة جميعاً ناصروه ونافحوا عنه، وسبُّوا أولئك الخارجين ولعنوهم!.

رابعاً ـ تشديد الحصار، ومواقف الصحابة، وعروض على عثمان، وثباته الراسخ على هديه:

•• ذكر الطبري في رواية مطولة عن سيف: (لما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين ـ وكذا العراقيين ـ مسجدَ رسول الله ﷺ، خرج عثمان فصلَّى بالناس، ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء الغُزَّاء، اللهَ اللهَ! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا الخطأ بالصواب، فإن الله لا يمحو السيِّئ إلا بالحسن.

فقام محمد بن مَسْلَمة فقال: أنا أشهدُ بذلك، فأخذه حُكَيم بن جَبَلة فأقعده. فقام زيد بن ثابت فقال: ابغِني الكتاب، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قُتيرة فأقعده، وقال فأَفظَعَ! وثار القوم بأجمعهم فحَصَبُوا الناسَ حتى أخرجوهم من المسجد، وحَصَبُوا عثمانَ حتى صُرع عن المنبر مغشيّاً

---

(١) ابن المسيب يخاطب تلميذه عمران.

(٢) العلل، للإمام أحمد، برواية ابنه عبد الله (٢٠٥٣) و(٢٠٥٤)، وإسنادهما صحيح.

عليه، فاحتُمِل فأُدْخِل دارَه!). ودخل عليه علي وطلحة والزبير وغيرهم يعودونه من صرعته، ويشكُون بثَّهم[١].

وعن الحسن البصري قال: شهدتُ حَصْرَ عثمان وأنا يومئذٍ غلام في أتراب لي في المسجد، فأقبل القوم حين أقبلوا حتى نزلوا المسجدَ وما حوله، فاجتمع إليهم أناسٌ من أهل المدينة يُعظمون ما صنعوا، وأقبلوا على أهل المدينة يتوعَّدونهم! فبينا هم كذلك في لَغَطِهم حول الباب، فطلع عثمان، فكأنما كانت نار طَفِئتْ، فعَمَدَ إلى المنبر فصعده، فحمدَ الله وأثنى عليه، فثار رجل فأقعده رجل، وقام آخر فأقعده آخر، ثم ثار القوم فحَصَبُوا عثمانَ حتى صُرِع، فاحتُمل فأُدْخِل، فصلى بهم عشرين يوماً، ثم منعوه من الصلاة[٢].

واجترأ بعض أولئك الأشقياء المجرمين على أمير المؤمنين؛ فبينا طائفة منهم جالسون في نادٍ لهم، فمرَّ عثمان بهم فسلَّم، فرد القوم السلام، فقام جَبَلَة بن عَمْرو الساعدي وكان في يده (جامعة)[٣] وأقبل على عثمان فقال: والله لأطرحنَّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركنَّ بطانتك هذه ـ يعني معاوية ومروان وابن عامر وأمثالهم من الذين وَلُوا لعثمان ـ! فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه من يومئذ[٤].

ويروي يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: (أنا أنظر إلى عثمان يخطب على عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال له جَهْجَاه: قم يا نَعْثَل[٥]، فانزلْ عن هذا المنبر، وأَخذ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٢/٤ ـ ٣٥٣؛ مختصر ابن عساكر: ١٩٦/١٦ ـ ١٩٧. الغزَّاء: جمع غازٍ. حصبوا الناس: رموهم بالحصباء وهي الحصى.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٥٣/٤.

(٣) هي الغُلُّ يجمع اليدين إلى العنق.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٦٥/٤ ـ ٣٦٦؛ البداية والنهاية: ١٧٦/٧.

(٥) كان أعداء عثمان يسمّونه (نعثلًا) تشبيهاً برجل من مصر كان طويل اللحية اسمه (نعثل).

العصا فكَسَرها على ركبته اليمنى، فدخلت شَظيَّة منها فيها، فبقي الجرح حتى أصابتْه الأَكِلة، فرأيتُها تدوَّد! فنزل عثمان، وحملوه، وأَمر بالعصا فشَدُّوها، فكانت مُضبَّبة. فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خَرْجة أو خرجتين، حتى حُصِر فقُتل)(١).

•• وزاد أولئك السبئيُّون الظلمة من وطأة حصارهم، وأخذوا يضيِّقون على حركة أكابر الصحابة حتى لا ينصروا عثمان، ورموا داره بالحجارة تمهيداً لاقتحامها وتنفيذ جريمتهم الكبرى.

فقد ثابَتْ جماعة من الصحابة إلى أمير المؤمنين عثمان، منهم: أبو هريرة وزيد بن ثابت وسعد بن أبي وقاص وجماعة من أهل الأمصار. فلما رأى القوم أن الناس قد ثابوا إلى عثمان، وضعوا على عليٍّ رقيباً في نفر فلازمه، وعلى طلحة رقيباً، وعلى الزبير رقيباً، وعلى نفرٍ بالمدينة، وقالوا لهم: إنْ تحرَّكوا فاقتلوا(٢)!.

وشدَّدوا الحصار على أمير المؤمنين وأهلِ بيته، فحالوا بين الناس وبينه، ومَنَعُوه كلَّ شيء حتى الماء، وقد كان يُدْخَل عليه بالشيء مما يريد، وطلبوا العِلَل فلم تطلُعْ عليهم عِلَّة، فعثروا فرمَوْا في داره بالحجارة ليُرْمَوْا، فيقولوا: قُوتِلنا ـ وذلك ليلاً ـ فناداهم: ألا تتقون الله! أما تعلمون أن في الدار غيري؟! قالوا: لا والله ما رَمَيْناك، قال: فمن رمانا؟ قالوا: الله، قال: كذبتم، إن الله لو رمانا لم يُخْطِئْنا وأنتم تخطئوننا!(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٦٦/٤ ـ ٣٦٧؛ البداية والنهاية: ١٧٥/٧؛ وأبو نعيم في الدلائل، ص٢٢١؛ وابن السكن؛ وذكره الحافظ في الإصابة: ٢٥٥/١؛ وعند ابن أبي شيبة مختصراً: ٤٨٨/٧، وإسناده صحيح. **الأكلة**: الغنغرينا.

(٢) مختصر ابن عساكر: ٢٣٩/١٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٤؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٠/١٦.

•• تصاعدت وتيرة الحصار، وضَيَّق أولئـك الخوارج على أهل المدينة ممن لم يذهب للحج، وفي الأيام التي مُنع عثمان فيها من الخروج للصلاة، كان يصلي بالناس أحياناً الغافقيّ بن حرب!.

فقد صلى عثمان بالناس بعدما نزل السبئيون به في المسجد ثلاثين يوماً، ثم إنهم منعوه الصلاة، فصلـى بالناس أميرهم الغافقـيُّ، دانَ له المصريون والكوفيـون والبصريون وتفرَّق أهـل المدينة في حيطانهـم ولزموا بيوتهم، لا يخرج أحـدٌ ولا يجلس إلا وعليه سـيفه يمتنع به من رَهَـق القوم. وكان الحصار أربعين يوماً، وفيهن كان القتل، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفُّون[1].

واحرَّ قلبـاه! هذا (الغافقي) صنيعـةُ اليهودي ابن سـبأ، الطامحُ للزعامة والذي خرج من شقة بعيدة وجاء خارجاً على أمير المؤمنين عثمان؛ يجترئ فيتقدَّم إلى المقام الذي طالما وقف فيه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الثلاثة يؤمُّون الركَّع السُّـجود، فيأتي هذا الوغد فيقف فيه ويؤم الناس؟! إنها نازلة النوازل وعجيبة العجائب! هل عنـد الغافقي ذرة من علم نبـوي أو دين أو حياء أو أدب فيعرف قدر نفسـه وهو يتقدم الناس فيؤمهم، وفي المدينة علي وطلحة والزبيـر وسـعد بن أبي وقاص وسـعيد بن زيـد وابن عمـر وجابر وأنس وأمثالهم؟! تبّاً لقوم هذا قائدهم!.

ولهذا المعنى وغيره ترى الأخيار قد تـردَّدوا في ملازمة صلاة الجماعة خلفه، وعبَّـر عن موقفهم ذلك الرجلُ الصالح الذي يـروي لنا هذا الحديثَ وذاك (الموقفَ الراشدي) من (الخليفة الصابر المظلوم):

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٥٤/٤.

عن عُبيد الله بن عَديّ بن الخِيار: (أنه دخل على عثمانَ بن عفان رضي الله عنه وهو محصورٌ، فقال: إنك إمامُ عامَّةٍ، ونَزل بك ما نَرى، ويصلِّي لنا إمامُ فتنةٍ ونتحرَّجُ! فقال: الصلاةُ أحسنُ ما يَعمل الناسُ، فإذا أحسنَ الناسُ فأَحْسِنْ معهم، وإذا أساؤوا فاجْتَنِبْ إساءَتهم)[١].

وقال عثمان مثلَ ذلك لأبي قتادة الأنصاري ورجلٍ آخر[٢].

وهذا من أمير المؤمنين عثمان في غاية الإخلاص والورع والنُّبل والحرص على إقامة شعائر الإسلام وعدم تعطيلها مهما كانت الذرائع، وهو يقول لعبيد الله ما معناه: لا يضرّك كونه مفتوناً، بل إذا أحسن فوافقْه على إحسانه واترك ما افتتن به، وصلاة الجماعة لا شك شيء حسن جدّاً.

وقد روى سيف في «الفتوح» عن سَهْل بن يوسف الأنصاري عن أبيه قال: (كَره الناس الصلاة خلف الذين حصروا عثمان، إلا عثمان فإنه قال: مَن دعا إلى الصلاة فأجيبوه)[٣].

وصلى لهم في بعض تلك الأيام (كِنانة بن بِشْر)، وهو من رؤوس الفتنة والشر أيضاً.

لكن لم يصلِّ أولئك المنحرفون كل تلك المدة، بل أَمَّ الناسَ جماعةٌ من أجلاَّء الصحابة:

فقد صلى بالناس إماماً أبو أمامة بن سَهْل بن حُنَيْف عن أمر عثمان، وسنده صحيح.

---

(١) علقه البخاري (٦٩٥) ؛ ووصله الإسماعيلي كما في الفتح: ١٠٢/٣.

(٢) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢١٧/٤؛ الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٥٧؛ مصنف عبد الرزاق (٢٠٩٦٦).

(٣) الفتح: ١٠٣/٣.

وفي رواية: صلَّى بهم سَهْل بن حُنيف، وسنده قوي[١].

وصلَّى علي بن أبي طالب عيد الأضحى بالناس، ثم خطب بعد الصلاة.

وصلى بالناس غير هؤلاء من الصحابة[٢].

وقال الحافظ: وليس واحد من هؤلاء مراداً بقوله: (إمام فتنة).

وقد أخطأ الدكتور علي الصلابي ـ مقلِّداً صاحبَ كتاب «فتنة مقتل عثمان» ـ في قوله بضعف روايات صلاة أحد من الصحابة إماماً بالناس وقت حصر عثمان، لأنها من طريق الواقدي[٣]، ولو راجع شرح حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار في «فتح الباري» لما قال ما قال!.

•• في هذه الظروف القاسية، والوطأةُ تشتد على أمير المؤمنين الخليفة المحصور، والصحابة يحمونه ويدافعون عنه، ويدخلون عليه الواحد بعد الآخر، **قدَّموا له عدة حلول ومخارج لتلك الأزمة الخانقة والمؤامرة اليهودية السبئية، وعثمان يُصِرّ على موقفه في المسالمة ورفض القتال وعدم إراقة قطرة دم، والثبات في الموقف والبقاء في المكان حتى آخر نَفَس له؛ ليكون موته في بلد رسول الله ﷺ!.**

دخل عليه المغيرة بن شعبة وقال له: (إنك إمامُ العَامَّةِ، وقد نزل بك ما ترى، وإني أَعْرِضُ عليك خِصالاً ثلاثاً اختَرْ إحداهنَّ: إما أن تَخْرُجَ فتقاتلَهم، فإن معك عَدداً وقوةً، وأنت على الحق وهم على الباطل. وإما أن نَخْرِقَ لك باباً سوى الباب الذي هم عليه، فتقعدَ على رواحِلكَ فتلحقَ بمكة، فإنهم لن يَستحلُّوك وأنت بها. وإما أن تَلْحَقَ بالشام، فإنهم أهل الشام

(١) الفتح: ١٠٢/٣؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢١٧/٤ ـ ١٢١٨.

(٢) الفتح: ١٠٢/٣؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢١٦/٤؛ تاريخ الطبري: ٤٢٣/٤.

(٣) انظر: كتابه «عثمان بن عفان»، ص٤١٨؛ «فتنة مقتل عثمان»، لمحمد عبد الله الغبان: ١٤٥/١.

وفيهم معاوية. فقال عثمان: أمَّا أن أَخرجَ فأقاتلَ؛ فلن أكونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَف رسول الله ﷺ في أمته بسَفْكِ الدماء. وأمَّا أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يَستحلُّوني بها؛ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يُلْحِدُ رجلٌ من قريش بمكة يكونُ عليه نصفُ عذاب العالم**»، فلن أكون أنا إياه. وأمَّا أن أَلحقَ بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية؛ فلن أُفارِقَ دار هجرتي ومجاورةَ رسول الله ﷺ)[١].

وعَرض عليه نحوَ ذلك عبدُ الله بن الزبير[٢] وأسامة بن زيد[٣]، وهو في كل ذلك يأبى القتال، ويرفض الخروجَ من المدينة النبوية، ويستعصم بالصبر لأمر الله تعالى.

وقد كان معاوية عَرض عليه نحو ذلك من قبلُ، فأبى عثمان، فقال له معاوية: والله يا أمير المؤمنين لَتُغْزَينَّ أو لتُغتالَنَّ! فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل[٤]. وصدق معاوية في ذلك وفي تفرُّسِه في وجوه أولئك الخوارج المفترين، ونظره في سيرتهم وتاريخهم عندما جاء نفر منهم إلى الشام وهم (المُسيَّرون).

لله درُّ أمير المؤمنين ذي النورين، فكم كان حريّاً بأولئك الأوباش والمنحرفين أن يَنهلوا من مَعين نُبله، ويستضيئوا بنور فؤاده، ويتفيَّؤوا ظلال عدله ورحمته، ويَفُوا له بما بذل لهم من عفو وصفح ورأفة ومسامحة! لكن أنى لهم ذلك وقد غذوا بالأهواء، ورضعوا الكراهية

---

(١) أخرجه أحمد (٤٨١)؛ وعمر بن شبة في تاريخ المدينة: ٢٤٦/٢، وضعفه أحمد شاكر بالانقطاع، ويشهد له روايات أخرى يتقوى بها.

(٢) البداية والنهاية: ١٩٨/٧.

(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ٢٤٥/٢ ـ ٢٤٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٤٥/٤؛ مختصر ابن عساكر: ١٨٨/١٦ ـ ١٨٩.

والحقد، وصِيغوا بأكاذيب المارقين والمحدودين واللصوص وذوي المطامع والشهوات الرخيصة؟!.

•• ومن خلال استعراض تلك الأحداث والمشاهد الكثيرة المتطاولة التي اشتعلت فيها الفتنة على مدى نحو ثلاث سنين، وفي رقعة شملت مصرَ والكوفة والبصرة وتَشَظَّتْ إلى أمصار أخرى ـ نجد أن أمير المؤمنين قد سَلَك جميعَ السُّبل، واتبع مختلِف الأساليب، وبذلَ كل ما يمكن أن يبذله الخليفة والوالي والمصلح والمرشد والمعلم والأب والأخ؛ الذي يريد عزة الإسلام وحماية الدولة وصلاح المجتمع وإطفاء الفتن.

ومن الجهة المقابلة رأى أن القومَ الخارجين قد أصرُّوا على التمادي في الفتنة، والكفران والعصيان والبغي والعدوان وارتكاب الجرائم مهما كانت نتائجها، فألقى بيديه إلى القدر، واستسلم لأمر الله، ولزِم داره، عازماً على أن يفدي الأمة بنفسه، وقد عَلِمَ أنه سيقضي شهيداً مع بلاء شديد، وهو يرى أن وقت ذلك قد حان!.

جاء في الحديث الطويل الذي رواه أبو سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري، أن عثمان أَشرف على القوم المحاصِرين له، وذكر في مشهد من الصحابة بعضَ مناقبه وأعماله، ثم قال أبو سعيد:

(ورأيتُه أَشرفَ عليهم مرةً أخرى، فوَعَظَهم وذَكَّرَهُم، فلم تأخذْ منهم الموعظةُ، وكان الناسُ تأخذُ منهم الموعظة في أول ما يَسمعُونها، فإذا أُعِيدتْ عليهم لم تأخذ منهم! فقال لامرأته: افتحي الباب، ووَضَع المُصْحَفَ بين يديه)(١).

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ وانظر ما تقدم، ص١٨١ في هذا الكتاب.

ولزِم عثمان داره، وأَمر بجمع المسـلمين وضَمَّ إليهم أولئك الخوارج، وأَرسـل وراء عليٍّ وطلحة والزبير وعـدَّة من أعيان الصحابـة، فاجتمعوا، فأشرف عليهم فقال:

(يا أيها الناس، اجلِسُـوا، فجلسـوا جميعاً؛ المحاربُ الطارئ والمسالمُ المقيم، فقال: يا أهلَ المدينة، إني أسـتودعكم الله، وأسأله أن يُحسِنَ عليكم الخلافة من بعدي، وإني والله لا أَدخل على أحدٍ بعد يومي هذا حتى يقضيَ الله فيَّ قضـاءه. ولأَدعَنَّ هؤلاء ومـا وراء بابي غير معطيهم شـيئاً يتخذونه عليكم دَخَـلاً في ديـن الله أو دنيا، حتى يكـون اللهُ ﷻ الصانـعَ في ذلك ما أَحَبَّ).

وأَمر أهلَ المدينة بالرجوع وأقسـم عليـهم، فرجعوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وأشـباهاً لهم؛ فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم، وثَابَ إليهم ناسٌ كثير، ولزم عثمان الدار[1].



ولَجَّ السـبئيُّون الخوارج على أمير المؤمنين عثمان في خَلْعِ نفسـه وإلا قتلوه، وهو ثابت صابر محتسب لم يُعطِهم شيئاً مما أرادوه... وهذا ما نبحثه في الفصل التالي.



---

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٤؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٠/١٦.

الفصل الثامن

استشهاد عثمان

أولاً ـ عثمان يصر على عدم القتال، ويستسلم للقدر، ويستمسك بالعهد النبوي:

كان عثمان يعلم حق العلم بالبلاء الشديد الذي يكتنف حياته في أيام خلافته، حيث حفظ ذلك ووعاه عن رسول الله ﷺ وقد بَشَّره بالجنة والشهادة ومعها بلاءٌ شديدٌ، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري: أن النبي ﷺ قال له: («**افتَحْ له وبَشِّرْه بالجنة على بلوى تُصِيبُه**»، فإذا عثمانُ، فأخبرتُه بما قال رسول الله ﷺ، فحمدَ الله، ثم قال: اللهُ المستعانُ). لفظ البخاري.

وفي رواية: (ثم جاء آخَرُ فسَلَّم، فقال النبي ﷺ: «**اذهَبْ فَأْذَنْ له، وبَشِّرْه بالجنة على بلوى شديدة**»، قال: فانطلقتُ، فإذا هو عثمانُ، فقلتُ: ادخُلْ، وأَبْشِر بالجنة على بلوى شديدة، قال: فجعل يقول: اللهمَّ صبراً! حتى جَلَس)[1]. لفظ أحمد

ويتمثَّل ذلك البلاء بما أوضحناه مفصلاً؛ بَدءاً من حملات التشويه لسيرته وهديه في الحكم وسياسة الرعية، مروراً بالخروج عليه وحصاره

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٣)؛ ومسلم (٢٤٠٣)؛ والترمذي (٤٠٤٣)؛ وأحمد (١٩٥٠٩)، وغيرهم.

وحَصْبِه على المنبر ومَنْع الطعام والشراب عنه، وانتهاءً بتسوُّرِ داره والدخول عليه وقتله وبين يديه المصحف الشريف!.

فهو قد تيقن أنه سيَقضي شـهيداً ويمضي إلى ربه سعيداً، فعزم على أن يفدي الدينَ والدولة والأمة بنفسـه، ويؤثر وحدتها على حياته، فبذل مُهجتَه فداءً لحفظ كيان الجماعة وصَوْن كرامة الأمة، وكان في مُكْنته أن يقي نفسـه ويخلِّصها لو أنه أراد نفسه ولم يُرِدْ حياة الأمة، ولو أنه كان (أنانيّاً) ولم يكن (إيثاريّاً)؛ لدَفَع بِمَنْ هَبَّ للذَّوْد عنه من شـباب المسلمين وأبناء المهاجرين والأنصار إلى نحـور الخارجين المنحرفين، ولكنه أراد الأمة ففداها بنفسـه صابراً محتسباً[1].

ولهـذا كان موقف أميـر المؤمنين عثمان حازماً حاسـماً منـذ اللحظة الأولى، وبقي ثابتاً عليه متمسـكاً به حتى آخر رَمَقٍ من حياته؛ حيث رفض مقاتلةَ أولئـك الخوارج السـبئيين المحاصرين لـه، ونَهى آحـادَ الصحابة وجماعاتهم عن الدفاع عنه، وأمرهم بحقِّ ولايته عليهم وطاعتهم له أن يَكفُّوا عن استخدام السـلاح، وألا يُهْرِيقوا بسـببه مِحْجَمة من دم، وذلك وفاءً بما عَهِد إليه به رسـولُ الله ﷺ من الصبـر على تلك الابتـلاءات العظيمة التي تناوشَتْه، وتوالت عليه، حتى كان أعنفها باغتيال روحه وسفك دمه الزكي!.

عن قيس بن أبي حازم: (عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: «**وَدِدْتُ أن عندي بعضَ أصحابي**»، قالت: فقلنا: يا رسولَ الله، ألا ندعو لك أبا بكر، فسـكَتَ. قلنا: عمرُ؟ فسكتَ. قلنا: عليٌّ؟ فسـكتَ. قلنا: عثمانُ؟ قال: «نعم». قالت: فأرسـلنا إلى عثمـان، قالت: فجعل النبـي ﷺ يكلِّمُه، ووجْهُه يتغيَّر!.

(١) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٧.

قال قيس: فحدَّثني أبو سَــهْلَة أن عثمان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ عَهْداً وأنا صابرٌ عليه. قال قيسٌ: كانوا يرون أنه ذلك اليوم).

وفي رواية: عن قيس، عن أبي سَــهْلَة مولى عثمان، عن عائشة، (قالت: فجاء عثمانُ، فقال: «قومي». فجعل النبي ﷺ يُسِــرُّ إلى عثمانَ، ولونُ عثمان يتغيَّر! قال[1]: فلما كان يومُ الدار قلنا: أَلَا تُقاتِل؟ قال: لا، إن رســول الله ﷺ عَهِدَ إليَّ أمراً، فأنا صابرٌ نفسي عليه!)[2].

•• لماذا يصر أمير المؤمنين عثمان على عدم القتال؟

جاء في كثير من الأحاديث وصفٌ للفتن وبواعثها، وأســبابها ونتائجها، وموقدي جذوتها والقائمين بها والســاعين إليها، ولكثــرة الفتن التي تحيق بالأمة وتتســاقط في ربوعها كمواقع القَطْر، وللخســائر الفادحة التي تترتب على نزولها، ولأن العقول تطيش وقتها، وتزلُّ الأقدام حِيالَها، وتَحارُ الأفهامُ فــي علاجها، ويصعب الخلاص منهــا على العقلاء فضلاً عــن العوام ـ فإن رســول الله ﷺ الرحمة المهداة حذَّر وأَنْذَر، وبيَّن وأوضــح، وأَجملَ وفَصَّل، وتحدَّث فأكثر عن الفتن التي ستُفتح أبوابها بعد وفاته ﷺ[3].

وقد اختلَفت أنظارُ الصحابة في مواقفهم من فتن الاقتتال بين المسلمين، حســبما عَلِمه كل منهم عن تلــك الفتن واطلع عليه منهــا، وبناءً على فهمه وتصوُّرِه لهــا وســيرورتها وخطورتها والقضــاء عليها أو علاجهــا وكفكفة جماحها. لذا فمنهم من لابَسَها، وآخرون بذلوا جهودهم في الإصلاح، وفريق ثالث اعتزلها بالكلية حيث لم يَستبِنْ له وجه الحق فيها.

---

(١) أي: أبو سهلة مولى عثمان.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٣)؛ وابن أبي شــيبة: ٤٨٩/٧؛ وابن حبــان (٦٩١٨)؛ والحاكم: ٩٩/٣، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) انظر في بيان أســباب الفتن وكثرتهــا والحكمة من ذكرها وبيانها للأمــة: كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ٧/٢ ـ ١٨، نبوءة رقم (٣٩).

وفتنة مقتل عثمان كانت مروِّعة ومُفْظِعة، طاشَتْ بعقول الألِبَّاء فَضلاً عمن هم دونهم، وقد كان عثمان محورَ الأحداث فيها وهو المستهدف في شخصه ونفسه ومنصبه، وهو قد حَزَم أمره وحَسَمَ موقفه منها، فاعتزَلَها وكَفَّ يدَه عنها، بل أَمر كل من له عليه طاعة أن يَكفَّ يده ويُغمد سيفَه، ونهاهم عن القتال وإراقة قطرة من دم.

وكان في مسلكه الحازم الصلب هذا ينطلق من أسس قد علمها، ومبررات قد رآها، واجتهادات قد توصل إليها، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

١ ـ معرفة عثمان التامة بهذه الفتنة التي أحاطت به، وأنه في مسلكه منها على الحق والهدى؛ فبقي معتصماً بهديه وموقفه من أعدائه إلى آخر لحظة، وزاده اطمئناناً إلى هذا وصاةُ النبي ﷺ الصحابةَ بأن يكونوا مع عثمان ويتبعوه ويؤيِّدوه ويعملوا حسب سياسته وهديه فيها:

عن أبي هريرة قال: (إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم تَلْقَوْنَ بعدي فتنةً واختلافاً، أو قال: اختلافاً وفتنة**»، فقال له قائل من الناس: فَمَن لنا يا رسول الله؟ قال: «**عليكُم بالأمينِ وأصحابه**»، وهو يُشير إلى عثمان بذلك).

وفي حديث عبد الله بن حَوَالة : أن النبي ﷺ قال: «**اتَّبِعْ هذا، فإنه يومئذٍ ومن اتَّبَعَه على الحق**»(١).

وهذا يشمل ـ فيما نحسب ـ موقف عثمان من الفتنة في جميع مراحلها.

٢ ـ علمُه بأنه مبتلى ببلوى شديدة وأنه سيُقتل ظلماً، ويَقضي شهيداً، وقد ثبت هذا عنده في أحاديث عدَّة علمها من النبي ﷺ؛ منها: (ادخلْ وأبشِرْ بالجنة على بلوى شديدة، فجعل يقول: اللهم صبراً، حتى جلس). وفي

---

(١) الحديثان صحيحان، وقد تقدم تخريجهما، ص٨٢ ـ ٨٣.

الحديث الآخر عن ابن عمر قال: (ذكرَ رسـول الله ﷺ فتنةً، فمرَّ رجلٌ، فقال: «يُـقْتَلُ فيها هذا المُقَنَّعُ يومئذٍ مظلوماً»، قال: فنظرتُ، فإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله تعالى عنه)(١).

٣ ـ وكان عثمان على علم تام بأن الخوارج السـبئيين إنما يريدون قتله هو دون غيـره، وأنهم سـيجتمعون عليه لذلـك، كما تبين له من سـيرورة الأحداث: (نَقْدَم فنحيط به فنخلعه، فإن أبـى قتلناه)(٢). وواجهه بذلك رأسُ الشرِّ الأشتر النخعي: (يُخيِّرونك بين أن تخلَعَ لهم أمرَهم، فتقول: هذا أمرُكم فاختاروا له من شـئتم، وبين أن تُقِصَّ من نفسك، فإنْ أبيتَ هاتين فإنَّ القوم قاتِلوك)(٣).

وقال عثمان غير مرة: (إنما تُراد نفسي)(٤).

بل عنده أيضاً في هذا علمٌ يَأْثُره عن النبي ﷺ، وقد حدَّث به عبدَ الله بن مسعود قبل استشهاده بنحو أربع سنين، قال عثمان لعبد الله: (وَيْحَكَ! إني قد سـمعتُ وحفظتُ، وليس كما سمعتَ، إن رسول الله ﷺ قال: «سـيُقْتَلُ أميرٌ ويَنْتَزِي مُنْتَـزِي» وإنِّي أنا المقتولُ، وليس عمر، إنمـا قَـتَلَ عمرَ واحدٌ، وإنه يُجْتَمَعُ علَيَّ!)(٥).

٤ ـ تمسُّـكُهُ بالعهد الذي عَهِدَه إليه رسـول الله ﷺ، وعملُه بوصيته، في سـبيل إنهاء الفتنة، وتجنباً لنشـوب الاقتتال وإراقة الدماء، وقد وفى عثمان بذلك أيّما وفاء. ففي حديث عائشـة المتقدم: (قال أبو سَـهْلة مولى عثمان:

---

(١) تقدم ذكره، ص٨٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٣٤٦/٤.
(٣) تقدم مطولًا: ص١٩٩ في هذا الكتاب.
(٤) الاستيعاب: ٧٩/٣؛ المطالب العالية: ٢٩٠/٤.
(٥) أخرجه أحمد (٤٧٩)، وضعفه أحمد شاكر لانقطاعه.

فلما كان يومُ الدار قلنا: ألا تُقاتِل؟ قال: لا، إنَّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إِليَّ أمراً، فأنا صابرٌ نفسي عليه)(١).

٥ ـ خوفُ عثمان الشديد من قتلِ أي نفس ظلماً، وهو يعلم أن الفتن تأتي مشتبهة، وأن في القوم الخارجين عليه أغماراً ومغفَّلين ومخدوعين؛ فخشي إن نشِب قتال أن تُراق دماء بريئة، أو على الأقل في سفكها شبهة، فأراد أن يخرج من الدنيا إلى ربه طاهراً نقيّاً بريئاً من قطرة دم تُهراق بغير وجه حق! فكان يُصِرّ على كل الصحابة الذين هَبّوا لنصرته جماعاتٍ وأفراداً، ويقول: (أُذَكِّر اللهَ رجلاً أَهْرَاق فيَّ دماً).

وقال لأبي هريرة: (يا أبا هريرة، أَيُسرُّكَ أن تَقتل الناس جميعاً وإيايَ؟ قلت: لا، قال: فإنك والله إنْ قتلتَ رجلاً واحداً فكأنما قُتل الناسُ جميعاً)(٢).

٦ ـ حرصُه على وحدة الأمة والجماعة، وخشيتُه من أن يكون سببَ اشتعال الفتنة في المسلمين وتفريقِ كلمتهم وتمزيق شملهم. ونظريةُ الإسلام لا تأبى أن يذهب الفرد مهما تكن قيمته فداءً لحفظ كيان الجماعة وصَوْن كرامة الأمة، وقد جعل أمير المؤمنين عثمان نفسَه مضربَ المثل في تحقيق هذه النظرية الاجتماعية(٣)، ويُكْثِر أن يقول: إنما تُراد نفسي، وسأَقِي المؤمنين بنفسي!.

٧ ـ ومن الأسباب أيضاً: أن عثمان حافظ على نظام الإسلام وسننه في الاتباع وعدم الابتداع، وأنه لن يكون أولَ مَن يَسنُّ سفك الدماء في الأمة، فتكون سنة سيئة يقتدي به فيها مَن بعده، وقد صرح بذلك للصحابة عندما

---

(١) تقدم: ص٢١٨ في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٧٣؛ طبقات ابن سعد: ٧٠/٣، بإسناد صحيح.

(٣) انظر: عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٧.

عزموا عليه بمواجهة الخوارج المنحرفين، فقال: (أمَّا أن أَخرج فأقاتلَ؛ فلن أكونَ أولَ من خَلَف رسولَ الله ﷺ في أمته بسَفْكِ الدماء)[١].

٨ ـ **واستأنس برأي الصحابي الجليل عبدالله بن سلام**، فأَرسل إليه وسأله عن الموقف من هؤلاء المجرمين الذين أحاطوا بداره، فقال له: ما ترى؟ فقال: الكَفَّ الكَفّ، فإنه أبلغُ لك في الحجة[٢].

ثانياً ـ الصحابة يُصِرُّون على الدفاع عن عثمان ويتبعون أساليب متعددة:

ومع إصرار عثمان على الصحابة في كفكفة الفتنة، وأمرِهم بإغمادِ سيوفهم وتركِ الدفاع عنه وعدم مقاتلة أولئك الخوارج، وتأكيده بأن لا يريقوا بسببه مِحْجَمة من دم، فإن الصحابة ﷺ مع طاعتهم له وملازمتهم أمرَه، لم يتركوه ولا عادوا إلى بيوتهم، بل باتوا قريبين منه، يَغدون عليه ويروحون، ويرسِلون إليه أبناءهم وشباب الصحابة للمكث الدائم عنده، حتى لا يغدر به أولئك السبئيون المجرمون، ويرون أن حمايته والدفاع عنه ومجاهدة أولئك المارقين من أكبر واجبات النصرة لأمير المؤمنين.

وقد رغب الصحابة وأبناؤهم وكل مَنْ في المدينة من الصالحين بالدفاع عن الخليفة المحصور، وقدَّموا بين يديه نماذجَ من التضحيات، وعَرضوا عليه شتى ألوان الذَّود والفداء، وردّ طغيان الخارجين، فما وجدوا منه إلا الرفض التام للقتال وحمل السلاح.

---

(١) تقدم: ص٢١٣ في هذا الكتاب.

(٢) طبقات ابن سعد: ٧١/٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨١/٨، وسنده حسن.

وكان للمهاجرين الذين هم طلائع الإسلام ونواته الأولى، وللأنصار وهم أهل الإيواء والنصرة ودار الإسلام ـ دورٌ عظيم في الدفاع عن أمير المؤمنين، وتقديم جميع أصناف الحماية له.

ـ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: (كنتُ مع عثمان في الدار، فقال: أَعْزِم على كل من رأى أن لنا عليه سمعاً وطاعة، إلا كَفَّ يدَه وسلاحَه، فإن أفضَلَكم عندي غَناءً مَن كَفَّ يده وسلاحه)[1].

ـ وعن محمد بن سيرين قال: (كان مع عثمان يومئذٍ في الدار سبعُ مئة، لو يَدَعُهم لضربوهم إن شاء الله حتى يُخرِجوهم من أقطارها، منهم ابن عُمر والحسن بن علي وعبد الله بن الزبير)[2].

ـ وعن جابر بن عبد الله: (أن عليّاً أَرسل إلى عثمان أن معي خمسَ مئة دارعٍ، فَأْذَنْ لي فأمنعَكَ من القوم، فإنك لم تُحدِثْ شيئاً يُستَحلُّ به دمُك! قال: جُزِيتَ خيراً، ما أَحبُّ أن يُهراق دمٌ في سببي)[3].

ـ وروى موسى بن عُقْبة، عن جدِّه لأمِّه أبي حَبيبة مولى الزبير بن العوام قال: (بعثني الزبير إلى عثمان وهو محصور، فدخلتُ عليه في يوم صائف، وهو على فُرش ذي ظهر، وعنده الحَسن بن علي وأبو هريرة وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزبير، وبين يديه مَرَاكِن ماء مملوءة، ورياط مطروحة، فقلت: بعثني إليك الزبير، وهو يُقرِئُكِ السلام، ويقول: إنِّي على طاعتِك لم أبدِّلْ ولم أَنكُثْ، فإنْ شئتَ دخلتُ الدار معك فكنتُ رجلاً من القوم، وإن

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧٣؛ مختصر ابن عساكر: ٢٢٠/١٦؛ طبقات ابن سعد: ٧٠/٣، وسنده صحيح.
(٢) طبقات ابن سعد: ٧١/٣؛ الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٣٢، وإسناده صحيح إلى ابن سيرين؛ وفي تاريخ خليفة (ص١٧٣) نحوه: عن ابن سيرين عن سليط بن سليط.
(٣) مختصر ابن عساكر: ٢٢٠/١٦.

شـئتَ أقمتُ، وإن بني عَمْرو بن عوف[١] وعدوني أن يُصبِحوا على بابي ثم يمضوا لما آمرُهم به. فلما سمع الرسالة قال: الله أكبر! الحمد لله الذي عَصَمَ أخي، أَقرِئْه السـلامَ وقل لـه: إنْ يدخل الدار لا يكـون إلا رجلاً من القوم، فمكانُك أَحَبُّ إليَّ، وعسى أن يدفع الله بكَ عنِّي.

فلما سمع الرسالة أبو هريرة قام فقال: ألا أُخبركم بما سمعتْ أُذناي من رسـول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أبا هريرة، قال: أشهدُ لَسـمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقـول: «تكـون بعدي فتـنٌ وأمـورٌ وأحـداث»، قلنـا: فأينَ المنجـا منها يا رسول الله؟ قال: «**إلى الأمين وحِزْبه**» وأشار إلى عثمان بن عفان[٢].

فقام الناس فقالوا: قد أَمكَنَـتْنا البصائر، فَأْذَنْ لنا في الجهاد! فقال عثمان: عزمتُ على مَنْ كانت لي عليه طاعةٌ ألاَّ يقاتِل. قال: فبادرَ الذين قتلوا عثمان ميعادَ بني عمرو بن عوف، فقتلوه رضي الله عنه!)[٣].

ـ وقام كعب بن مالك الأنصاري شـاعر الرسـول ﷺ يُحضِّض الأنصار على نصرة الخليفة، فيقول: (يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين! يعني في أمر عثمان رضي الله عنه)[٤].

ـ وعـن قتـادة: (أن زيد بن ثابت قـال لعثمان: هؤلاء الأنصـارُ بالباب يقولون: إنْ شئتَ كنا أنصارَ الله مرتين! فقال: لا حاجة لي في ذلك، كُفُّوا)[٥].

---

(١) قَبِيل كبير من الخزرج أحد فرعي الأنصار.

(٢) حديث أبي هريرة هذا تقدم تخريجه سابقاً، ص٨٣.

(٣) فضائل الصحابة، لأحمد (٨٣٦) وإسـناده صحيح؛ وذكره ابن عساكر في «ترجمة عثمان»، ص٣٧٤.

(٤) التاريخ الأوسط: ١/١٧١ ـ ١٧٢.

(٥) تاريخ خليفة، ص١٧٣، ومن طريق ابن سـيرين عند ابن أبي شـيبة: ٨/٦٨٢ ؛ وابن سعد: ٣/٧٠، ويعتضد الطريقان إلى الحسن.

ـ وهذا حارثة بن النعمان الأنصاري يســعى إلى الخليفة المحصور، ويؤكِّد له ما تقــدم به كعب وزيد، فيقــول لعثمان: إنْ شــئتَ أن نقاتل دونك[١].

ـ ويقول ســعد بن أبي وقاص: (جئتُ عثمانَ يومــاً، فقلت: افتح الباب أدخل عليك، فقال: مكانك أَحَبُّ إلي).

وكان يقول: (يا أيها الناس، هــذه يدي بما طُلب عند عثمان وإن ضُربت بسوط، فجعل الناس يردُّون ذلك عليه، وجعل يُفرجهم عن نفسه بيديه، حتى إذا غُلب دخل المسجد)[٢].

ـ وعن نافع: أن عبدالله بن عمر كان مع عثمان في الدار، وأنه لبس الدرع يوم الدار مرتين، وكان يومئذٍ متقلِّداً ســيفَه حتى عَزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يُـقتل[٣].

ـ وعن أبي هريرة قال: قلــتُ لعثمان: اليومَ طابَ الضــربُ معك، قال: أَعزِم عليك لتخرجنَّ. زاد في رواية: قال أبو هريرة: فرميتُ بسيفي، فما أدري أين هو حتى الساعة[٤].

ـ وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن: (أن الحسن بن علي دخل على عثمان فقال: يا أمير المؤمنيــن، إنَّا طَوْع يديك، فَمُرْني بما شــئتَ! فقال له عثمان: يا ابن أخي، ارجعْ فاجلس في بيتك حتــى يأتي الله بأمرِه، فلا حاجة لي في هَرَاقة الدماء)[٥].

(١) التاريخ الأوسط: ١٧٢/١، وإسناده صحيح.
(٢) تاريخ المدينة، لابن شبَّة: ٢٥٢/٢ ـ ٢٥٦.
(٣) تاريخ خليفة، ص١٧٣، بأسانيد صحيحة وحسنة.
(٤) تاريخ خليفة، ص١٧٣، وإسناده صحيح، وبأطول منه في المطالب العالية: ٢٩٠/٤.
(٥) فضائل الصحابة، لأحمد (٧٥٣) بإسناد صحيح.

وعن عاصم بن سُليمان: أن الحسن بن علي قال: (رُحْتُ إلى الدار وغدوتُ إليها شهراً، وعثمان ﷺ محصور، كل ذلك بعينِ عليٍّ ﷺ ما نهاني يوماً قط. قال: فقام إليه يوم زُحِفَ إليه، فقال: يا أمير المؤمنين، علامَ تكُفُّ الناسَ؟ والله لقد حَلَّ لك قتالُهم، والناس جادُّون، فَأْذَنْ للناس في قتالهم! فقال: يا ابن أخي، أعزِم عليك بحقي عليك إلا لحقتَ بأهلك)[١].

ـ وهذا بطلُ شباب الصحابة عبدالله بن الزبير يصف لنا نُصرتهم لعثمان، فيقول: (قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين، إنَّ معك في الدار عصابةً مستنصرة ينصر الله بأقلَّ منهم، فَأْذَنْ لي فلأقاتل! فقال: أُذكِّر بالله رجلاً أَهْرَاق فيَّ دَمَه، أو قال: أهراق فيَّ دماً)[٢].

ـ وممن كان مع عثمان في داره ترجمانُ القرآن عبدالله بن عباس، فأمَّره عثمان على الناس ليُقيم لهم حجَّهم تلك السنة، فقال: يا عبدالله بن عباس. فدُعِي له، فقال: اذهَبْ فأنت على الموسم، وكان ممَّن لزم باب الدار، فقال: يا أمير المؤمنين، لَجهادُ هؤلاء أحبُّ إليَّ من الحج! فأقسم عليه لينطلقنَّ، فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة[٣].

وقد ساق الطبري[٤] نصَّ كتابٍ مطوَّلٍ من عثمان قرأه ابن عباس على الناس يوم التروية، ونحن لا نستحلُّ روايتَه؛ ففيه الواقدي متروك وشيخُه ابن أبي سَبْرة رموه بالوضع، وأخطأ بعض المعاصرين فذكروا هذا الكتاب الموضوع في كتبهم[٥]!.

(١) تاريخ المدينة، لابن شبَّة: ٢٤٦/٢.
(٢) طبقات ابن سعد: ٧٠/٣؛ تاريخ خليفة، ص١٧٣؛ المطالب العالية: ٢٩٤/٤ وإسناده صحيح.
(٣) تاريخ الطبري: ٣٨٧/٤ ؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٢/١٦.
(٤) تاريخ الطبري: ٤٠٧/٤ ـ ٤١١.
(٥) انظر مثلًا: عثمان بن عفان، للدكتور علي الصلابي، ص٤٣٣ ـ ٤٣٧.

ـ ويروي ابـن أخي عبد الله بن سَلاَم فيقول: (لمّا أُريد عثمانُ، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئتُ في نُصرتك، قال: اخرُجْ إلى الناس فاطْرُدْهم عني، فإنك خارجٌ خيرٌ لي منك داخلٌ، قال: فخرج)(١) الحديث.

وقد كرَّر عبدُ الله بن سلام المجيءَ إلى أمير المؤمنين عثمان، وتردَّدَ إلى أولئك الخوارج عدة مرات ونهاهم عن قتله، وحذَّرهم مَغَبَّة ذلك غضبَ الله وسخطه(٢).

ومع كل ذلك الإلحاح من عثمان على عدم المواجهة والقتال مع عصابات السبئيين الخوارج؛ فإن رهطاً كبيراً من الصحابة وشبانهم وأبنائهم لزموا الدار داخلها وحولها، ولم يبرحوها، وكان أميرهم البطل المغوار عبد الله بن الزبير.

عن عروة بن الزبير (عن عبد الله بن الزبير قال: قلتُ لعثمان يوم الدار: قاتِلْهم، فوالله لقد أحَلَّ الله لك قتالَهم! فقال: لا والله لا أقاتلُهم أبداً. قال: فدخلوا عليه وهو صائم. قال: وقد كان عثمان أَمَّرَ عبدَ الله بن الزبير على الدار، وقال عثمان: مَنْ كان لي عليه طاعةٌ؛ فَلْيُطِعْ عبد الله بن الزبير)(٣).

وعن محمد بن سيرين قال: (انطلق الحسن والحسين وابن عُمر وابن الزبير ومروان كلهم شاكي السلاح، حتى دخلوا الدار، فقال عثمان: أَعْزِم عليكم لَمَا رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزِمْتُم بيوتكم. فخرج ابن عمر والحسن والحسين، فقال ابن الزبير ومروان: ونحن نعزِم على أنفسنا أن لا نبرح!)(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٨)، وضعفه شعيب الأرنؤوط.

(٢) مجمع الزوائد: ٩٢/٩ ـ ٩٣؛ المطالب العالية: ٢٨٦/٤ ـ ٢٨٧، بأسانيد صحيحة وحسنة.

(٣) طبقات ابن سعد: ٧٠/٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٥٨٤/٨، ٦٨١ ـ ٦٨٢، وإسناده صحيح.

(٤) تاريخ خليفة، ص١٧٤، وإسناده صحيح إلى ابن سيرين.

وفي رواية مطوَّلة للطبري: (أن عثمان خطبهم آخر خطبة له، وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن ومحمد بن طلحة وابن الزبير وأشباهاً لهم؛ فجلسوا بالباب عن أمرِ آبائهم، وثَابَ إليهم ناس كثير، ولزِم عثمان الدار)[1].

•• هذه شذرات من أخبار صحيحة صريحة كلها تُثبِت إجماعَ الصحابة على خيرية أمير المؤمنين عثمان وفضله، وأحقِّيتِه في الخلافة، واستقامة سياسته للدولة والرعية.

وتفضح أكاذيبَ السبئيين وأتباعهم، وخبثَ نواياهم، وسوءَ مسعاهم، وتجرُّمُ خروجَهم وقدومَهم للمدينة وحصارهم للخليفة الراشد ﷺ.

وتؤكد من ناحية أخرى حِرْصَ الصحابة على سلامة أمير المؤمنين عثمان، وسعيهم الحثيث للذَّوْدِ عنه والقتال دونه، وحفظ سلطان الدولة وكيان الأمة.

كما تُظهِر بوضوح تعاضدَ الصحابة وتآلفَهم وإجماعَهم في هذا الموقف الخطير، وانضباطهم التام في أقوالهم وحركاتهم وأعمالهم، وطاعتهم لأمير المؤمنين فيعملون بأمره ويتحركون وفق توجيهاته.

وهذه الأخبار مجتمعة تدحضُ الفريةَ الشائعة عند بعض من يزوِّر التاريخ ويَضْطَغِن على عثمان والصحابة؛ بأنهم قصَّروا في حقه، وتقاعسوا في الدفاع عنه، وأسلموه إلى قدره حتى بطش به أولئك المجرمون القتلة.

ثالثاً ـ عثمان يستمد ولاة الأمصار:

•• مع كل ما تقدم من عزم عثمان على الكفكفة ودَرْءِ اتساع الفتنة، وإمساكِه بأيدي الصحابة عن القتال، ومنعِهم من الاشتباك مع السبئيين

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٤.

الفجـرة، ومع وجود جماعـات من الصحابة كفيلـة بردِّ بغـي البُغَاة وقمع إفسـادهم ـ لكن ذلك التكافؤ العددي بين الطرفين سـيؤدي إلى سفك دماء كثيرة في مدينة رسـول الله ﷺ، وعثمان لا يحبُّ هذا، بل يريد أقلَّ الحالاتِ شرّاً، وأخفَّها ضرراً، ولابد لهذا من قوة عظيمة، إذا رآها المنحرفون الخوارج خَنَسوا واستسلموا، ولم يرموا بسهم من كنانتهم(١).

لذا كان أميـر المؤمنين يودُّ أن تكون عنده قوة كبيرة باطشـة تقمع قوى الشر والفساد والإفسـاد، وتضع حدّاً لغطرستها وجاهليتها؛ فأرسل إلى عماله في الأمصار يأمرهم بإرسـال قوى تُنجِده وأهلَ المدينة من السبئيين القتلة، وكذلك يكـون الحجيجُ قـد قضَوْا مناسـكَهم، فتنضمُّ قوتهـم إلى جيوش الأمصار، فتتكون قوة مرهوبة منظمة مهيبة ضاربة، تسـتأصل شَأْفَة الخوارج وتُنهي تمرُّدَهم وعصيانهم بسرعة، دون اضطرار إلى سفك دماء كثيرة.

في ضوء هـذا نفهم سـعيَ عثمان في اسـتنصاره بأهـل الأمصار، مع استسلامه لقدره ونهايته المشرقة ويقينه بأنه سيقضي شهيداً، وهذا التدبير من قدر الله، فهو من باب دفع القدر بالقدر، وكما قال عمر: (نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله).

عن ابن عباس قال: (لمَّا حُصِر عثمان وطال حصْرُه، والذين حصروه هم من أهل مصر والبصرة والكوفة ومعهم بعض أهـل المدينة، أرادوه على أن ينزع نفسـه من الخلافة، فلـم يفعل، وخافـوا أن تأتيه الجيوش من الشـام والبصـرة وغيرهمـا ويأتـي الحجـاج، فيهلكـوا، فتسـوَّروا عليـه فقتلوه رضي الله عنه وأرضاه)(٢).

---

(١) كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤١٦.

(٢) أسد الغابة: ٣٨٣/٣.

وتوضحها رواية مطولة للطبري من طريق سيف بن عمر؛ وفيها: أن عثمان كتب إلى أمراء الأمصار يستمدُّهم ويأمرهم بالذَّوْدِ عن الخليفة والخلافة والإسلام، وبيَّنَ في كتابه أنه ولي الخلافة باتفاق المسلمين، وأنه اتبع النبي ﷺ وصاحبَيْه، ما غيَّر ولا بدَّل، لكن أولئك المجرمين حركوا الفتن، وعزموا على قتل خليفتهم، وكان فيما قال: (فعابوا عليَّ أشياءَ مما كانوا يرضون، وأشياءَ عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها، فصبرتُ لهم نفسي، وكففتُها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على الله ﷻ جرأةً، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحَرَمه وأرض الهجرة، وثابَتْ[1] إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب يوم الأحزاب[2]، أو مَنْ غزانا بأُحُدٍ، إلا ما يُظهِرون! فمن قدر على اللحاق بنا فليفعل).

فأتى الكتاب أهلَ الأمصار، فخرجوا على الصَّعْبة والذَّلول، فبعث معاويةُ حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْري في جيش، وبعث عبدُ الله بن سعد[3] معاويةَ بن حُديج السَّكوني في جيش آخر، وبعث أهلُ البصرة جيشاً، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عَمْرو في جيش.

وقام الصحابة والتابعون بتحضيض الناس على نصرة أمير المؤمنين؛ فقام في الكوفة الصحابة: عُقبة بن عَمْرو، وعبدالله بن أبي أوفى، وحنظلة بن الربيع، وغيرهم، وقام من التابعين أصحابُ ابن مسعود، يسيرون في الكوفة ويطوفون في مجالسهم، ويقولون: (يا أيها الناس، إن الكلام اليوم وليس به

---

(١) أي: جاؤوا إليهم متتابعين.

(٢) يعني كالذين تجمعوا على الرسول ﷺ وصحابته في غزوة الأحزاب.

(٣) وذلك قبل أن يغادر مصر متجهاً إلى أمير المؤمنين، وقد رأى السبئيين اتجهوا إلى المدينة، فاستحث الناس لنصرة الخليفة.

غداً، وإن النظر يَحسُن اليوم ويَـقبُح غداً، وإن القتال يَحِلُّ اليوم ويَحْرُم غداً، انهضوا إلى خليفتكم وعصمة أمركم).

وفي البصرة: نهض عمران بن حُصَيْن، وأنس بن مالك، وهشام بن عامر، في أمثالهم من الصحابة، يقولــون مثلَ ما قال أهل الكوفة. ومن التابعين قام آخرون بالحثِّ على نصرة الخليفة.

وقام في الشــام: من الصحابــة عبادة بن الصامت، وأبو الــدرداء، وأبو أمامة، ومن التابعين كثير.

وفي مصر: قام خارجة، وصحابة آخرون، وغيرهم من التابعين.

كلهم يستنفر الناسَ لنصرة أمير المؤمنين المحصور(١).

•• وقدِمَ رُكْبان فأخبــروا أهل المدينة بمجيء الأمــداد من الآفاق: حبيب من الشــام، ومعاوية بن حُديج من مصر، والقعقــاع من الكوفة، ومُجاشِــع من البصــرة، وقد خرجت مــن تلك الأمصار مســرعة نحو المدينة، ووصل حبيب بن مســلمة بجيشــه إلى قرب خيبر، لكن بُعيد مقتل عثمان.

وكذلك قفل الناس من الحج، وعزموا على الرجوع إلى المدينة ليدافعوا عن أمير المؤمنين.

فوصلت أخبار قدوم أمداد الجيوش وجموع الحجيج إلى أولئك السبئيين الخوارج؛ فعند ذلك حسموا أمرهم، وانتهزوا الفرصة من قلة الناس وغيابهم في الحج وعــدم وصول الجيوش من الآفــاق للنصرة ـ وأســرعوا في تنفيذ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٥١/٤ ـ ٣٥٢؛ مختصر ابن عســاكر: ١٩٥/١٦ ـ ١٩٦؛ البداية والنهاية: ١٨٠/٧؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

جريمتهم، فأحاطوا بدار عثمان وجَدُّوا في الحصار، وأحرقوا الباب، وتسوَّروا الدار من الدور المتاخمة لها، ودخلوا على عثمان فقتلوه(١).

وخبر طلب عثمان الأمدادَ والنصرة من ولاة الأمصار؛ رواه ابن الأثير مختصراً في «أسد الغابة» وإسناده لا بأس به، ورواه سيف بشيء من التفصيل، وروايات سيف مستقيمة كما أوضحنا، واحتج به الذهبي وابن كثير، وأكَّده العلامة المحقق محب الدين الخطيب، والعلامة المحقق محمد الصادق عرجون(٢).

رابعاً ـ صفة مقتل عثمان المروِّعة، ودفاع الصحابة وأبنائهم عنه:

١ ـ مدة الحصار، والمدافعون عن عثمان في الدار:

•• قال أبو هريرة: حُصِر أمير المؤمنين عثمان في داره أربعين ليلة(٣).

وقال حماد بن زيد: حُوصِر نيِّفاً وأربعين ليلة(٤).

وقريب منه قول الواقدي أنه حصر (٤٩) ليلة(٥).

والقول الأول هو المشهور، وهو أقرب إلى الصواب؛ فقد قدم المصريون هلال ذي العقدة، وحدثت مع أمير المؤمنين محاورات استغرقت أياماً، ثم بدؤوا الحصار، واستشهد عثمان يوم الجمعة (١٨ ذي الحجة ـ سنة ٣٥هـ).

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٤؛ طبقات ابن سعد: ٧١/٣ ـ ٧٢؛ مختصر ابن عساكر: ٢١٦/١٦، ٢٤٠؛ البداية والنهاية: ١٨٧/٧ ـ ١٨٨، ١٩٧، ١٩٩؛ تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء»، للذهبي، ص٤٥٤.

(٢) انظر: التعليق على العواصم من القواصم، ص١٣٨؛ عثمان بن عفان، لعرجون، ص١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) الزهد، لأحمد (٦٧٩).

(٤) مختصر ابن عساكر: ٢٢١/١٦.

(٥) الاستيعاب: ٧٧/٣؛ أسد الغابة: ٣٨٢/٣.

•• بعد أن بدأ القوم السبئيُّون بتشديد الحصار ومَنْع دخول الماء والطعام والناس على عثمان، كان رضي الله عنه قد أمر المدافعين عنه أن يخرجوا سالمين مَسْلوماً منهم، وأَذِن لهم أن يكونوا في الدار ومحيطين بها وعند الباب. وكان فيهم الحسن والحسين ابنا علي، ومحمد بن طلحة، وابن عُمر، وأبو هريرة، ومروان بن الحكم، وثَابَ إليهم ناس كثير، وكما قال ابن سيرين وغيره: كان مع عثمان في الدار يومئذ (٧٠٠) نفس، وأميرُ الدار عبد الله بن الزبير، وشباب الصحابة وأبناؤهم كلهم شاكي السلاح، كما تقدم.

وأمير المؤمنين الخليفة العظيم يكرر على إخوانه ومناصريه من أولئك الأشبال الأبطال: أَنشُد الله رجلاً أَهْرَاق فيَّ دماً! وهم يقولون له: قد أمكنتنا البصائر، فأْذَنْ لنا في الجهاد، وهو يقول لهم: عزمتُ على من كانت لي عليه طاعة ألاَّ يقاتل!.

ويعبِّر عن ذلك قولُ كعب بن مالك الأنصاري:

فكَفَّ يديهِ ثم أَغلقَ بابَهُ ... وأَيْقنَ أن الله ليس بغافِلِ
وقال لأهل الدار لا تقتلُوهُمُ ... عَفَا الله عن كلِّ امرئٍ لم يُقاتِلِ[1]

وجاء عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه إلى تلك العصابات الخارجة، يصفعهم بآخر نصائحه وتخويفاته؛ فيقول لهم: (إن الملائكة لم تَزَلْ محيطة بمدينتِكم هذه منذُ قدِمها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم، والله لئنْ قتلتُموه لتذهبنَّ ثم لا تعود إليكم أبداً. وإن السيف لم يَزَلْ مغموداً فيكم، فوالله لئنْ قتلتموه لَيسُلنَّه الله عليكم ثم لا يُغمده عنكم أبداً ـ أوْ قال: إلى يوم القيامة ـ. وما قُتِل نبيٌّ إلا قُتل به سبعون ألفاً، ولا قُتل

(١) المستدرك: ٣/١٠٥ ـ ١٠٦.

خليفةٌ إلا قُتِل به خمسة وثلاثون ألفاً، وذكَر أنه قُتِل على دمِ يحيى بن زكريا سبعون ألفاً)[١].

٢ ـ تشديد الخناق على أمير المؤمنين:

لكن أولئك الخوارج ما كانوا يريدون وجه الله، وقد هيمن عليهم غدرُهم وإجرامهم، ورانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وصدَّق عليهم إبليس ظنَّه، فسَدُّوا كل منافذ الخير والإصلاح، ولم يَرْعَووا عن باطلهم.

قال شدَّاد بن أَوْس: (لمَّا اشتد الحصار بعثمان يوم الدار، أَشرف على الناس فقال: يا عبادَ الله، قال: فرأيتُ علي بن أبي طالب خارجاً من منزله، معتمّاً بعِمامة رسول الله ﷺ، متقلِّداً سيفَه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفَرَّقوهم. ثم دخلوا على عثمان، فقال له علي: السلام عليك يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ لم يَلْحَق هذا الأمر[٢] حتى ضُرب بالمقبل المدبر[٣]، وإني والله لا أرى القوم إلا قاتليك، فَمُرْنا فلنقاتِلْ. فقال عثمان: أَنشُد الله رجلاً رأى لله حقّاً، وأقرَّ أن لي عليه حقّاً؛ أن يُهرِيق في سببي ملءَ مِحْجَمة من دم، أو يُهرِيق دمه فيَّ! فأعاد علي عليه القولَ، فأجابه بمثل ما أجابه. قال: فرأيتُ عليّاً خارجاً من الباب وهو يقول: اللهم إنك تعلمُ أنَّا بذَلْنا المجهود)[٤].

---

(١) المطالب العالية: ٢٨٧/٤ (٤٤٤٠) وعزاه الحافظ لإسحاق بن راهَوَيْه، وصححه البوصيري؛ وبنحوه في مصنف ابن أبي شيبة: ٦٩١/٨؛ وفضائل الصحابة، لأحمد (٧٩٥).

(٢) أي: لم يدرك انتصار الإسلام وانتشاره وقيام أمره.

(٣) **المقبل**: المطيع، و**المدبر**: العاصي.

(٤) الرياض النضرة: ٦٨/٢؛ حياة الصحابة: ١٢٥/٢.

وقال جُبير بن مُطْعِم: (لمَّا حُصر عثمان بن عفان حتى والله ما يشرب إلاَّ من الفَقير فَقِير الدار[١]، قال جبير: فدخلتُ على علي بن أبي طالب، فقلت: يا ابنَ أبي طالب، أقد رضيتَ بهذا، أن يُحصَر ابنُ عمِّك حتى والله ما يشرب إلاَّ من فَقير الدار؟! فقال: سبحان الله! وقد بَلَغوا هذا منه؟! قال: نعم، وأشدّ من هذا. قال: فحمل الرَّوايا حتى أدخلها عليه وسقاه)[٢].

ثم بالغ القوم حتى منعوا عنه الماء والطعام، فأرسل عثمان إلى عليٍّ بأنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم على أن تُرسلوا إلينا بماء فافعلوا، وأرسل إلى طلحة والزبير وإلى عائشة وأزواجِ النبي ﷺ. فكان أولَهم إنجاداً له علي وأم حبيبة، جاء عليٌّ في الغَلَس فقال: يا أيها الناس، إن الذي تصنعون لا يشبهُ أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادَّة، فإن الروم وفارس لتأسِرُ فتُطعِم وتسقي، وما تعرَّض لكم هذا الرجل في شيء، فبمَ تستحلُّون حصْرَه وقتله؟! فقالوا: لا والله، ولا نَعْمَةَ عينٍ، لا نتركُه يأكل ولا يشرب! فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضتُ فيما أنهضْتَني له، فرجع. وجاءت أم حَبيبة على بغلةٍ لها برِحالة مشتملة على إداوة[٣]، فقيل: أم المؤمنين أم حبيبة! فضربوا وجْهَ بغلتها، فقالت: بَنيَّ، إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل، وأحببتُ أن ألقاه وأسأله عن ذلك كي لا تهلِك أموال أيتامٍ وأرامِل، فقالوا: كاذبة! وأهوَوْا لها، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندَّت بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت رِحالتُها، فتعلَّقوا بها فأخذوها وقد كادت تُقتل، فذهبوا بها إلى بيتها[٤].

---

(١) الفقير: البئر القليلة الماء.

(٢) مختصر ابن عساكر: ٢١٢/١٦.

(٣) الرحالة: السرج من جلود يتخذ للركض الشديد. الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٨٥/٤ ـ ٣٨٦؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٠/١٦ ـ ٢٤١.

ولم يتوقف علي رضي الله عنه عن نجدة أخيه الخليفة المحصور حتى منعه أهله خشيةً عليه من المحاصِرين القتلة.

يروي راشد بن كَيْسان وغيره: (أن عثمان بعث إلى عليٍّ وهو محصور في الدار أن ائْتِني، فقام علي ليأتيَه، فقام بعضُ أهل علي حتى حَبَسه، وقال: أَلاَ تَرى إلى ما بين يديك من الكتائب، لا تَخْلُص إليه؟! وعلى عليٍّ عِمامةٌ سوداء فنَقَضَها على رأسه ثم رمى بها إلى رسول عثمان وقال:

أخبِرْه بالذي قد رأيتَ! ثم خرج علي من المسجد حتى انتهى إلى أحجار الزيت)[1].

وعن كِنانة مولى أم المؤمنين صفية بنت حُيَيّ أنه شهد مقتلَ عثمان ـ قال: وأنا يومئذٍ ابنُ أربعَ عشرةَ سنة ـ قال: (أمرتْنا صفية أن نَرْحَل بغلةً بهودجٍ، فرَحَلْناها ثم مشينا حولها إلى الباب، فإذا الأشتر وناس معه، فقال لها الأشتر: ارجعي إلى بيتك، فأبَتْ، فرفع قناةً معه ـ أو رمحاً ـ فضرب عَجُزَ البغلة، فشبَّت البغلة ومالَ الهودج حتى كاد أن يقع، فلما رأتْ ذلك قالت: رُدُّوني، ردُّوني!)[2].

وفي رواية عن كِنانة قال: (كنتُ أقود بصفية بنت حيي، لِتَرُدَّ عن عثمان، فلقيَها الأشتر فضرب وجْهَ بغلتها حتى مالَتْ، فقالت: ردُّوني، لا يفضحني هذا الكلب! قال: فوضعتْ خشباً بين منزلها وبين منزل عثمان، تنقل عليه الطعامَ والشراب)[3].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦٨/٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٢/٨.

(٢) المطالب العالية: ٢٩٢/٤، وحسنه المحقق.

(٣) طبقات ابن سعد: ١٢٨/٨؛ التاريخ الكبير: ٢٣٧/٧؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٣٠٤/٢، وسنده صحيح.

٣ ـ الساعات الأخيرة قبل الاستشهاد، وأعمال عثمان:

مع استمرار السبئيين الخوارج في غَيِّهم، ومُضيِّهم في تنفيذ جريمتهم، لم يتوقف الخليفة الراشد عثمان عن موعظتهم وتأنيبهم وترغيبهم وترهيبهم، حتى لا يترك لهم أَثارة من عذر أو حجَّة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

في الحديث الطويل الصحيح الذي قدمنا فقرات منه؛ يقول أبو سعيد مولى أبي أُسيد الأنصاري: (ورأيتُ عثمانَ أشرفَ عليهم مرة أخرى، فوعَظَهم وذكَّرهم، فلم تأخذْ منهم الموعظةُ، وكان الناس تأخذ منهم الموعظة في أول ما يَسمعُونها، فإذا أُعِيدتْ عليهم لم تأخذ منهم، فقال لامرأتِه: افتحي الباب، ووضَع المُصْحَفَ بين يديه، وذلك أنه رأى من الليل أن نبيَّ الله ﷺ يقول له: «**أَفْطِرْ عندنا الليلةَ**»)[(١)].

وعن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان: (أن عثمان بن عفان أَعتق عشرين مملوكاً، ودعا بسراويلَ فشَدَّها عليه، ولم يلبسْها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ البارحة في المنام ورأيتُ أبا بكر وعمر، وإنهم قالوا لي: اصبِرْ، فإنك تُفطِرُ عندنا القابلةَ. ثم دعا بِمُصحفٍ فنَشَره بين يديه، فقُتِل وهو بين يديه!)[(٢)].

قال ابن كثير: إنما لبس السراويل ـ رضي الله عنه ـ في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قُتل، فإنه كان شديدَ الحياء، فكانت تستحي منه ملائكة السماء، كما نطق بذلك النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ وانظر ما تقدم: ص١٨١ في هذا الكتاب.

(٢) مسند أحمد (٥٢٦)، وصححه أحمد شاكر، وجاء بنحوه من طرق أخرى عند: ابن سعد: ٧٤/٣ ـ ٧٥؛ الزهد، لأحمد (٦٧٩)؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٥٨٤/٨؛ المستدرك: ١٠٣/٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٨٣/٧.

وعن كَثير بن الصلت قال: (نام عثمان في ذلك اليوم الذي قُتل فيه، وهو يوم الجمعة، فلما استيقظ قال: لولا أن يقول الناس: تمنَّى عثمان أمنية، لحدَّثتُكم حديثاً! قال: قلنا: حدِّثنا أصلحك الله، فلسنا نقول كما يقول الناس، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في منامي هذا، فقال: «**إنك شاهدٌ معنا الجمعة**»)[١].

واتخذ عثمان تلك الأيام القرآن نَحْباً، يصلِّي وعنده المُصحف، فإذا أَعْيا جلس فقرأ فيه[٢].

هكذا كان أمير المؤمنين عثمان في عالمه الرباني؛ في صيام وقيام وتلاوة للقرآن وعتقٍ للرقاب ورؤيا للنبي ﷺ وبشرى بأنه سيشهد الجمعة معه ويفطر عنده! والصحابة وأبناؤهم في عنفوان الحماسة للدفاع عن عثمان والذَّود عن الخلافة. والمؤمنون في منى قضَوْا مناسكَهم وأَغذُّوا السير لنجدة الخليفة المحصور. أما المنافقون المنحرفون من الخوارج السبئيين ففي طغيانهم يَعمهون وفي ضلالهم سادرون، وعلى تنفيذ جريمتهم عازمون!.

٤ ـ تنفيذ الجريمة الكبرى:

واتخذ البُغاة المجرمون قرارَهم بقتل عثمان، فانتدب رجل منهم، فدخل على عثمان فقال له: اعزِلْ نفسَك ونَدَعك، فأبى عثمان وقال: (لستُ خالعاً قميصاً كَسَانيه الله ﷻ)! فرجع الرجل إليهم، فقالوا له: ما صنعتَ؟ قال: عَلِقْنا[٣]، والله ما يُنجينا من الناس إلا قتله، وما يَحلّ لنا قتله!.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧٥/٣؛ المستدرك: ٩٩/٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ المطالب العالية (٤٤٤٩).

(٢) تاريخ الطبري: ٣٨٨/٤؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٣/١٦. النَّحْب: الهمة والبرهان والحاجة والدأب.

(٣) أي: أُخِذنا.

فأدْخَلوا عليه رجلاً من بنـي ليث، فقال عثمان: من الرجل؟ فقال: لَيْثي، فقال عثمان: لستَ صاحبي! قال: وكيف؟ فقال: ألستَ الذي دعا لك النبي ﷺ في نَفَرٍ أن تُحفظ في كذا وكذا؟ قال: بلى، قال عثمان: فلن تضيع(١). فرجع وفارَقَهم.

ثم أدخلوا رجلاً من قريش، فقال: يا عثمان إني قاتِلُك! فقال عثمان: كلا يا فلان، لا تقتلني! قال: كيف؟ قال: إن رسول الله ﷺ استغفر لك يوم كذا وكذا، فلن تقارف دماً حراماً! فاستغفر الرجل ورجع.

فدخل عليه محمد بن أبي بكر الصديق في ثلاثة عشر رجلاً، فأخذ بلحية عثمان وقال: ما أغنَى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابنُ عامر، ما أغنتْ عنك كُتبك! فقال عثمان: أرسِلْ لحيتي يا ابنَ أخي، فوالله لقد أخذتَ مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به! فتركه وانصرف مستحياً نادماً، فاستقبله القوم على الباب، فردَّهم طويلاً حتى غلبوه، فدخلوا، ورجع محمد بن أبي بكر، ولم يشترك بقتله.

وأسرعوا فحملوا النيران إلى منزل عثمان، فأحرقوا الباب والسقيفة، حتى إذا احترق الخشب خرَّت السقيفة على الباب، وأسرع الناس لإطفاء الحريق، ونادى عثمان: (ما بعد الحريق شيء، وما احترق الباب إلا لِما هو أعظم منه، لا يحركَنَّ رجل منكم يده، ومن كانت لي عليه طاعة فليمسك داره، فإنما يريدني القوم).

ولمَّا حلَّت الكارثة، أسرع مَنْ عند عثمان للدفاع عنه، وعثمان يقرأ القرآن ما تركه، وافتتح: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وكان سريع القراءة، ما فزع لِما حصل، يقرأ وما يخطئ وما يتتعتع، حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه!.

---

(١) أي: دعوة النبي ﷺ.

فخرج الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحَكَم وسعيد بن العاص والمغيرة بن الأخنس بن شَريق وأبو هريرة وغيرهم، فاجتلدوا مع القوم، وقال الحسن بن علي مسفِّهاً عمل الخارجين:

لا دينُهم ديني ولا أنا منهمُ حتى أسيرَ إلى طَمَارِ شَمامِ[(١)]

وخرج محمد بن طلحة بن عبيد الله ـ وكان يعرف بالسجَّاد لكثرة عبادته ـ وهو يقول:

أنا ابنُ من حامَى عليه[(٢)] **بأُحُد وردَّ أضراباً على رغم مَعَدّ**

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:

صبرنا غداةَ الدارِ والموتُ واقِبُ[(٣)] **بأسيافنا دونَ ابن أروى**[(٤)] **نُضَارِبُ**
وكنَّا غداةَ الرَّوْعِ في الدار نُصْرَةً نُشَافِهُهُم بالضرب والموت ثاقِبُ

وقام أمير المؤمنين ينهنههم، ويطلب منهم أن يغادروا، فكان آخر من خرج عبدالله بن الزبير، وأمره عثمان أن يأتي أهل الدار فيأمرهم أن ينصرفوا إلى منازلهم، وأقبل عثمان على القرآن، ولم يبقَ معه إلا أهل بيته.

ثم عاد عثمان إلى مصحفه وقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فهاج المجرمون وماجوا، وأطلقوا الرصاصة الأخيرة في جعبتهم، فتسوَّروا دار عَمْرو بن حزم ـ المجاورةَ لدار عثمان ـ ودخلوا بغير إذنٍ كما قال راعي الإبل النميري:

---

(١) أي: إلى جبل أشمّ لا ينجو من سقط منه.
(٢) أي: عن النبي ﷺ، وقد دافع عنه طلحة يوم أحد دفاعاً عظيماً.
(٣) أي: مقبل.
(٤) يريد عثمان بن عفان، وأروى أمه.

عشـيَّةَ يدخلـونَ بغيـرِ إذْنٍ ... علـى متـوكِّلٍ أوفَـى وطَابَـا
خليلِ محمـدٍ ووزيـرِ صدقٍ ... ورابعِ خيـرِ مَنْ وطـئَ التُّرابَا

واقتحموا عليه، وقد خلا من حراسه والمدافعين عنه، وكان فيمن دخل عليه: قُتيرة السَّكوني، وسُودان بن حُمْران، والغافِقي بن حَرْب، وعَمْرو بن الحَمِق، وكلثوم بن تُجِيب، ورجل اسمه الموت الأسود[1]، وكِنانة بن بِشْر التُّجيبي. وهجموا على عثمان؛ فمنهم من يَجَؤُه بنَعْل سيفه، وآخر يَلْكُزُه[2]، والمصحف الشريف بين يديه يقرأ في سورة البقرة، وهم يهابون قتله، فانقضَّ عليه (الموت الأسود) فخنقه خنقاً شديداً، وضربه الغافقي بحديدة كانت معه، ورفع أحدهم سيفه فاتَّقَاه عثمان بيدِه فقطعها، فقال عثمان: (أَمَا والله؛ إنها لأوَّلُ يدٍ خَطَّت المُفَصَّل[3]!).

وجاء رجل بمشاقص[4] فوَجَأه في تَرْقُوَتِه، فقال عثمان: (بسم الله، توكلت على الله)، وإذا الدم يسيل على لحيته يَقْطُر، والمصحف بين يديه، فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: (سبحان الله العظيم)، وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل على المصحف، حتى وقف الدم عند قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]! وأَطبق المصحف، وضربوه جميعاً ضربة واحدة: فرفع كِنانة بن بشر مَشَاقِص كانت بيده فوجأ بها أصلَ أُذُنِ عثمان فمضت حتى دخلت في حَلْقه، ثم ضرب جبينَه ومقدَّم رأسه بعمود حديد فخرَّ لجنبه، فجاء سُودان بن

---

(١) قد ثبت خروج عبدالله بن سبأ مع المنحرفين من مصر، وكان شديد الحرص على أن لا يظهر فينكشف، وهو يريد أن يتابع دوره حتى النهاية من وراء ستار؛ فلعل (الموت الأسود) اسم حركي لابن سبأ!.
(٢) يضربُه بِجُمْع كفِّه.
(٣) المفصل من سورة (ق) إلى آخر المصحف الشريف.
(٤) **المِشْقَص**: نصل طويل عريض.

حمران ليضربه، فانكبت عليه زوجته نائلة بنت الفَرَافِصة، واتَّقت السيفَ بيدها، فتعمَّدها سودان ونَفَح أصابعها، فقطع أصابع يدها، ووَلَّتْ، فغمز أوراكها وقال: إنها لكبيرة العجيزة! وضرب عثمانَ بعدما خرَّ لجنبه فقتله، ووَثَب عَمْرو بن الحَمِق على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات وقال: فأما ثلاثٌ منهن فإني طعنتُهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتُهنَّ إياه لِما كان في صدري عليه!.

ودخل غِلْمَة عثمان لينصروه ـ وقد كان عثمان أَعتق مَنْ كَفَّ يده منهم ـ فلما رأوا سُودانَ قد ضربه؛ أهوى بعضهم عليه فضرب عنقه فقتله، فوثب قُتيرة على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت، وأخرجوا من فيه، ثم أغلقوا الباب على ثلاثة قتلى. فلما خرجوا إلى الدار، وثب غلام آخر لعثمان على قُتيرة فقتله، وكلُّ مَن دخل على عثمان اشترك في قتله.

ونادى منادي القوم: أَيَحِلُّ دم عثمان ولا يَحلُّ ماله؟! فانتهبوا كل شيء، وأخذوا ما في الدار، وكان شيئاً عظيماً جدّاً[1]، حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ كلثوم بن تُجيب مُلاءَةَ نائلة، فقال: ويحَ أمّك من عجيزة ما أتمَّك! وبَصُرَ به غلام عثمان فقتله، وقُتل.

ثم تنادَوا في الدار: أَدْرِكُوا بيت المال، لا تُسبقوا إليه، فسمع أصحابُ بيت المال أصواتهم، فقالوا: النَّجاءَ! فإن القوم إنما يريدون الدنيا، فهربوا، وأتى الخوارج القتلة بيت المال فانتهبوه، وكان فيه شيء كثير جدّاً.

وأُخرج من الدار أربعةٌ من شبان قريش ملطَّخين بالدم، محمولين، كانوا يدرؤون عن عثمان: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب،

---

(١) كان لعثمان عند خازنه ثلاثون مليون درهم وخمس مئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، انتُهِبت كلها!.

ومروان بن الحكم. وكان مــن أعيان من قُتل من أصحــاب عثمان: زياد بن نُعيم الفِهري، والمُغيرة بن الأخنس بن شَريق، ونيار بن عبد الله الأسلمي(١).

وقد ذُكِر في الذين شاركوا في قتل أمير المؤمنين عثمان عدد كبير؛ ففي رواية وثَّاب وكان ممن شــهد يوم الدار، قال: (فجــاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشــر رجلاً، حتــى انتهى إلى عثمــان، فأَخذ بلحيتِه فقــال بها، حتى سمعتُ وَقْعَ أضراسِه!)(٢).

أما الذين باشــروا قتل عثمان، فقد جاءت تســمية بعضهم في روايات متعددة، ومنهم:

١ ـ الموت الأسود (عبد الله بن سبأ).

٢ ـ الأشتر النخعي .

٣ ـ الغافقي بن حرب .

٤ ـ كِنانة بن بشر .

٥ ـ سُودان بن حُمران .

٦ ـ قُتيرة السَّكُوني .

٧ ـ رومان بن وردان، من بني أَسد .

٨ ـ جبلة، من أهل مصر.

---

(١) ملخَّصــة ومرتبة من: تاريخ خليفة، ص١٧٤ ـ ١٧٥؛ طبقات ابن ســعد: ٧٢/٣ ـ ٧٤؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٥٨٣/٨، ٦٧٩ ـ ٦٨٠، ٦٨٩ ـ ٦٩٠؛ صحيح ابن حبان (٦٩١٩)؛ تاريخ الطبري: ٣٨٢/٤ ـ ٣٨٣، ٣٨٨ ـ ٣٩٢؛ تاريــخ المدينــة، لابن شــبة: ٢٨٢/٢ ـ ٣٠٣، ١٢٣٠/٤ ـ ١٢٣٣؛ المطالب العالية: ٢٨٥/٤ ـ ٢٨٦؛ مختصر ابن عساكر: ٢٣٨/١٦ ـ ٢٤٧؛ البداية والنهاية: ١٨٤/٧ ـ ١٨٦؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤١٩ ـ ٤٢٣؛ وتركتُ تفصيلَ مواضعها تخفيفاً، وهذه الروايات صحيحة وحسنة، وبعضها ضعيف ينجبر بكثرة طرقه وشواهده.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٧٤؛ طبقات ابن سعد: ٧٣/٣، وإسنادها صحيح.

وقد ذكر بعض المؤرخين والمصنفين أن الذي قتل عثمان هو: سُودان بن حُمران، وآخرون قالوا: الموت الأسود، وفريق ثالث قال: اسمه جَبَلَة، والحقيقة أن كل من ذكرنا أسماءهم قد تلطَّخ بقتل الشهيد عثمان رضي الله عنه.

وأما محمد بن أبي بكر: فتتضافر الروايات على أنه أَلَّب على أمير المؤمنين عثمان، وخرج عليه، وسعى مع الخوارج إليه، وشارك في الحصار الآثم، وكذلك تلطَّخ بالإثم فدخل على عثمان في ثلاثة عشر رجلاً، وأخذ بلحيته وعنَّفَه، فذكَّره عثمان بمكانه من أبيه أبي بكر الصديق، فخرج بعد أن أشار إلى أحد المجرمين بقتل عثمان!.

يقول وَثَّاب: (فأنا رأيتُه استَعْدَى رجلاً من القوم بعينِه ـ يعني أشار إليه ـ فقام إليه بِمِشْقَص فوَجَأ به رأسَه)[١]!.

فهو في هذا مشارك في إثم القتل وإن لم يباشره بيديه!.

وقد كان ابنه القاسم بن محمد يقول: اللهم اغفِرْ لأبي ذَنْبَه في عثمان[٢].

بل ثَمّة رواية صحيحة عن أخته أم المؤمنين عائشة: أنها كانت تدعو على قتلة عثمان، وتقول: (أقادَ الله من ابن أبي بكر به!)[٣].

خامساً ـ مواقف الصحابة من مقتله، وبراءتهم من دمه:

حقق رؤوس الشرِّ ومساعِرُ الفتنة هدفَهم الآثم، واستشهد أمير المؤمنين ذو النورين على أيدي تلك العصابة المجرمة من مَرَدَة السبئيِّين، وأما أكثرية الرَّعَاع والجهلة الطَّغَام والغوغاء من أتباعهم المغفَّلين والمغرَّر بهم؛ فكان لسان حالهم

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٠/٨؛ تاريخ الطبري: ٣٧٢/٤؛ والحاشية السابقة، والخبر صحيح.

(٢) المطالب العالية (٤٤٥٤).

(٣) مجمع الزوائد: ٩٧/٩، وستأتي الرواية تامة.

كما سيقول أشباههم يوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ﴾ [الأحزاب: ٦٧]. فلما رأوا عثمان مضرَّجاً بدمه الزكي، استفظعوا ذلك واستعظموه، فما كانوا يظنون أن الأمر سينتهي بهم إلى تلك النهاية الموحشة، فأُسْقِط في أيديهم، ونَدِم أكثر هؤلاء الخوارج بما صنعوا، وأَشْبَهوا مَن تقدَّمهم ممَّن قصَّ الله علينا خبرهم في كتابه العزيز، من الذين عبدوا العجل، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩][(١)]!.

أما الصحابة رضي الله عنهم فقد استنكروه جميعاً، حاضرُهم وغائبُهم، عِلْيتُهم وعامتهم، رجالهم ونساؤهم، وتبرَّؤوا من التأليب على عثمان وإراقةِ قطرة من دمه، وحزنوا عليه حزناً بلغ حدّاً حارت معه عقولهم وانخلَعَتْ له قلوبهم، وأَثْنَوا على الخليفة الشهيد، ورثَوْه بعبارات حَرَّى، وبَكَوْه، وتبرؤوا من قتلته، وسَبُّوهم ولَعَنوهم سائرَ الدهر.

وشواهد ذلك كثيرة جدّاً، نشير إلى شذرات منها:

١ ـ علي بن أبي طالب:

ـ عن أبي جعفر الأنصاري قال: (لمَّا دُخل على عثمان يوم الدار، خرجتُ فملأتُ فُرُوجي[(٢)]، فمررت مجتازاً بالمسجد، فإذا رجل قاعد في ظُلَّة النساء عليه عِمامة سوداء، وحوله نحوٌ من عشرة، فإذا هو علي، فقال: ما صَنَع الرجل؟ قلت: قُتِلَ الرجل، قال: تبّاً لهم آخرَ الدهر)[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية: ١٨٩/٧.

(٢) أي: عدوت مسرعاً.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٤/٨؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٢٩/٤؛ مختصر ابن عساكر: ٢٥٠/١٦ ـ ٢٥١.

ـ وعن أبي العالية قال: (لمَّا أُجِيزَ على عثمان بن عفان، دخل عليه علي بن أبي طالب، فوقع عليه وجعل يبكي، حتى قلنا: إنه سيلحق به)(١).

ـ وعن قيس بن عُبَاد قال: (سمعت علياً يوم الجَمَل يقول: اللهمَّ إني أبرأُ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قُتل عثمان، وأنكرتُ نفسي، وجاؤوني للبيعة فقلت: والله إني لأَستحي من الله أن أُبايِع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله ﷺ: «**ألا أستحي ممَّن تستحي منه الملائكة**»! وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمانُ قتيل على الأرض لم يُدفَنْ بعدُ! فانصروا. فلما دُفن رَجَع الناس يسألونني البيعة، فقلت: اللهمَّ إنِّي لَمُشفِق مما أُقْدِمُ عليه، ثم جاءت عزمةٌ فبايعتُ، فلما قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صُدِع قلْبي، وقلت: اللهمَّ خُذْ منِّي لعثمان حتى ترضى)(٢).

ومعنى قوله: (خُذْ مني لعثمان حتى ترضى): هذا من مزيد ورع علي ونُبْلِه وتبرُّئه من دمه وإسلامه للقتلة، ومع كل ما قام به كان يخشى أن يكون قد قصَّر، وقد رآه شهيداً!.

ـ وعن محمد بن علي المعروف بابن الحَنَفيَّة، قال: (نادى منادي القوم يوم الجمل: يا ثارات عثمان! فلما بَلَغَ علياً قولُهم، رفع يديه فقال: اللهمَّ كُبَّ اليوم قتلةَ عثمان لوجوهِهم)(٣).

وقال محمد بن الحنفيَّة: (سمعتُ أَبي ورفع يديه حتى يُرى بياض إبطَيْه، وقال: اللهمَّ الْعَنْ قتلةَ عثمان في البرِّ والبحرِ والسَّهْل والجَبَل! ثلاثاً يردِّدُها)(٤).

---

(١) مختصر ابن عساكر: ٢٥١/١٦؛ البداية والنهاية: ١٩٣/٧. أُجِيز: أُجْهِز.

(٢) المستدرك: ٩٥/٣، ١٠٣، وصححه الحاكم وأقره الذهبي؛ الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٢٩؛ ابن عساكر «ترجمة عثمان»، ص٤٦٢؛ ومختصره: ٢٥٢/١٦.

(٣) سنن البيهقي: ١٨٠/٨؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٦٧/٤.

(٤) فضائل الصحابة، لأحمد (٧٣٣) وسنده صحيح؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٦١/٤، ١٢٦٧.

وثبت في الروايات الكثيرة عن عليٍّ أنه تبرَّأ من دم عثمان، وكان يُقسم على ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتلْه ولا أمرَ بقتله ولا مالأَ ولا رضي به، ولقد نَهى عنه فلم يسمعوا منه، ثبت ذلك عنه من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث(١).

ولما أتاه خبرُ قتلِ عثمان ـ وهو عند أحجار الزيت ـ قال: اللهم إني أبرأُ إليك من دمِه أنْ أكونَ قَتلتُ أو مالأتُ على قتله.

وقال ابن عباس: سمعت علياً يقول حين قُتل عثمان: والله ما قتلتُ ولا أَمرتُ، ولكن غُلِبتُ! يقول ذلك ثلاث مرات(٢).

وثبت عن عليٍّ من غير وجه أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧](٣).

قال الحاكم: فأما الذي ادَّعَته المبتدعة من معونةِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على قتله؛ فإنه كذبٌ وزورٌ، فقد تواترت الأخبار بخلافه(٤)!.

وفي «شرح نهج البلاغة»: (وأميرُ المؤمنين عليه السلام أبرأُ الناس من دمِه، وقد صرح بذلك في كثير من كلامه، من ذلك قوله عليه السلام: والله ما قَتلتُ عثمان، ولا مَالأتُ على قتله. وصدق صلوات الله عليه)(٥)!

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٤/٨؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٦٣/٤، ١٢٦٤؛ مجموع الفتاوى: ٧٣/٣٥؛ البداية والنهاية: ١٩٣/٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦٩/٣، ٨٢؛ ومن طرق أخرى في: المستدرك: ١٠٦/٣؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٥٨/٤ ـ ١٢٦٩؛ ابن عساكر، ص٤٦٠ ـ٤٨٣.

(٣) المستدرك: ١٠٥/٣؛ المطالب العالية (٤٤٥٣)؛ ابن عساكر، ص٤٦٩ ـ ٤٧٣؛ البداية والنهاية: ١٩٣/٧.

(٤) المستدرك: ١٠٣/٣.

(٥) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١٨٠/١.

وفي هذا الباب من اتهامِ عليٍّ وغيره من الصحابة بدمِ عثمان والممالأةِ والتقصير في نصرته ـ كلامٌ كثير من القدماء والمُحْدَثين، لا ننشغل بذِكْره وبيانِ بطلانه، بعد أن أوردنا ونورد الأخبار الصحيحة الكثيرة بخلاف ذلك.

٢ ـ الزبير وطلحة وسعد بن أبي قاص:

لما جاء الخبر بمقتل عثمان إلى الزبير بن العوام قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله عثمان وانتصر له؛ وقيل: إن القوم نادمون! فقال: دبَّروا دبَّروا، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

وأتى الخبرُ طلحةَ، فقال: رحم الله عثمان وانتصر له وللإسلام؛ وقيل له: إن القوم نادمون! فقال: تبّاً لهم، وقرأ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠].

وأتى عليّاً الخبرُ، فقيل: قُتل عثمان، فقال: رحم الله عثمان، وخَلَف علينا بخير؛ وقيل: نَدِم القوم! فقرأ الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ..﴾ [الحشر: ١٦].

وطُلب سعد، فإذا هو في حائطه، وقد قال: لا أشهدُ قتلَه، فلما جاءه قتلُه قال: فَرَرْنا إلى المدينة بديننا، فصرنا اليوم نفرُّ منها بديننا! وقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، اللهم أَنْدِمْهُم ثم خُذْهم(١).

٣ ـ سعيد بن زيد:

عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: (لو رأَيْتُني مُوثِقي عمرُ على الإسلام أنا وأختُهُ، وما أَسلَمَ، ولو أَنَّ أُحُداً انْقَضَّ لِما صنعتُم بعثمانَ لكان مَحْقوقاً أن يَنْقَضَّ!)(٢).

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٢/٤؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٧/١٦ ـ ٢٤٨.

(٢) البخاري (٣٨٦٧)؛ طبقات ابن سعد: ٧٩/٣.

٤ ـ حذيفة بن اليمان:

وقد كَثُرت أقوال حذيفة والأخبار عنه في فتنة مقتلِ عثمان، وبراءتِه من دمه، وسبِّه لقتلته والمؤلِّبين عليه، وبيانِ الخسارة الكبرى للأمة في مقتله.

عن محمد بن سيرين: أن حذيفة بن اليمان قال: (اللهم إنْ كان قتلُ عثمان خيراً فليس لي منه نصيبٌ، وإنْ كان قتلُه شرّاً فإني منه بريءٌ، والله لَئِنْ كان قتلُه خيراً لَيحلُبُنَّها لبناً، ولئن كان قتلُه شرّاً لَيمتَصُّنَّ بها دماً!)(١).

وعن مَيْمُون بن مِهْران قال: (لمَّا قُتل عثمان، قال حذيفة هكذا وحلَّقَ بيدهِ ـ يعني عَقَد عشرةً ـ وقال: فُتِقَ في الإسلام فَتْقٌ لا يَرْتُقُه جَبَلٌ!)(٢).

وقال خالد بن الربيع العَبْسي: (سمعتُ حذيفة عند موته، وبَلَغه قتلُ عثمان؛ فقال: اللهم لم آمُرْ، ولم أرضَ، ولم أشهدْ)(٣).

ودَعَا على قتلة عثمان فقال: اللهم الْعَنْ قتلةَ عثمان، وغُزاة عثمان، وشَنَأَة عثمان، اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف(٤).

وعن جُنْدَب الخير الأَزْدِي قال: (أتينا حذيفةَ حين سار المصريون إلى عثمان، فقلنا: إنَّ هؤلاء قد ساروا إلى هذا الرجل، فما تقول؟ قال: يَقتُلونه والله! قلنا: أين هو؟ قال: في الجنَّةِ والله، قلنا: فأينَ قَتَلَتُه؟ قال: في النار والله!)(٥).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨٣/٣؛ ابن عساكر، ص٤٨٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨٠/٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٥/٨.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٣/٨؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٤٧/٤ ـ ١٢٤٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٠٧/٤.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٨٢/٨؛ السنة، لابن أبي عاصم (١٣١٠)؛ المعرفة والتاريخ: ٧٦٢/٢؛ ٧٦٨، وصححه الفسوي.

وهذه الأخبار صحيحة وحسنة.

٥ ـ عبد الله بن عباس:

قال ابن عباس: (لو أَجمع الناس على قَتْل عثمان لَرُموا بالحجارة كما رُمي قوم لوط).

وخطب الناسَ فقال: (لو لم يَطلب الناسُ بدمِ عثمان لرُموا بالحجارة من السماء)(١).

٦ ـ عمرو بن العاص:

عندما رأى عَمْرو عثمانَ يمنع الصحابةَ من القتال دونه، خرج بابنَيْه نحو الشام، ولمَّا جاءه قتلُ عثمان قال: (رحمَ الله عثمان، ورضي الله عنه. ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة، ويقول: واعُثْماناه! أَنْعَى الحياءَ والدين! حتى قدِم دمشق)(٢).

٧ ـ عبد الله بن سَلام:

قال عبد الله بن سلام: (لقد فَتح الناس على أنفسهم بقَتْل عثمان بابَ فتنةٍ لا ينغلق عنهم إلى قيام الساعة)(٣).

وجاء عنه كلام كثير في التوجُّع لحصرِ عثمان وقتله، وذمٍّ قتلته، والفتنة المترتبة على ذلك(٤).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/٨٠؛ مجمع الزوائد: ٩/٩٧؛ تاريخ المدينة، لابن شبة: ٤/١٢٥٤ ـ ١٢٥٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(٣) الاستيعاب: ٣/٨٤.

(٤) انظر ما تقدم: ص٢٣٣ ـ ٢٣٤ في هذا الكتاب؛ ومصنف عبد الرزاق (٢٠٩٦٢ ـ ٢٠٩٦٥)؛ وطبقات ابن سعد: ٣/٨١، ٨٣.

٨ ـ أبو بكرة نُفَيْع بن الحارث الثقفي:

عن أبي الأسود الدُّؤَلي قال: سمعت أبا بَكْرة يقول: (لأَنْ أَخِرَّ من السماء إلى الأرض فأتقطع؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أكونَ شَرِكْتُ في دمِ عثمان)(١)!.

٩ ـ أبو موسى الأشعري:

روى غير واحد عن أبي موسى الأشعري قال: (إِنَّ قَتْل عثمان لو كان هدًى لاحْتَلَبتْ به الأمة لَبَناً، ولكنه كان ضلالاً، فاحْتَلبتْ به دماً)(٢).

١٠ ـ أبو هريرة:

عن أبي مريم قال: (رأيتُ أبا هريرة يوم قُتل عثمان وله ضَفيرتان وهو ممسكٌ بهما، وهو يقول: اضْرِبوا عُنْقي، قُتِل والله عثمانُ على غير وجْهِ الحق)(٣).

١١ ـ سَمُرة بن جندب:

روى الحسن البصري: عن سَمُرة بن جُنْدب قال: (إن الإسلام كان في حِصْن حصين، وإنهم ثَلَموا في الإسلام ثُلْمة بقَتْلِهم عثمان، وإنهم شَرطوا شُرطة، وإنهم لن يَسدُّوا ثُلْمَتهم إلى يوم القيامة، وإن أهلَ المدينة كانت فيهم الخلافة فأَخرجوها ولم تَعُدْ فيهم!)(٤).

---

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٩٣/٩): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وهو عند ابن عساكر، ص٤٩٢.

(٢) التاريخ الكبير: ٣٦٩/١؛ تاريخ المدينة، لابن شبَّة: ١٢٤٦/٤؛ ابن عساكر، ص٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٤٦/٤؛ مختصر ابن عساكر: ٢٦١/١٦.

(٤) تاريخ ابن عساكر «ترجمة عثمان»، ص٤٩٣.

١٢ ـ أم المؤمنين عائشة:

تواترت الأخبار عن السيدة الطاهرة عائشة زوج النبي ﷺ بالثناء على عثمان، وبراءتها من دمه والكتابةِ في التأليب عليه، وكانت تبكي عليه حتى تَبلَّ خمارها، وخرجتْ إلى البصرة لنصرته والأخذ بدمه من قتلته المجرمين، وكانت تذمُّهم وتلعنُهم.

ـ عن طَلْق بن خُشَّاف قال: (أتيتُ عائشة فقلتُ: فيمَ قُتِل أمير المؤمنين؟ قالت: قُتل مظلوماً، لَعنَ الله قتلَتَه)(١).

ـ وعن مسروق، عن عائشة قالت حين قُتل عثمان: (تَركْتُموه كالثَّوب النقيِّ من الدَّنَس، ثم قرَّبْتُموه تذبحونه كما يُذبَحُ الكَبْشُ، هلَّا كان هذا قبل هذا؟!)(٢).

ـ وعن عائشة قالت: (كان الناس يختلِفون إليَّ في عَيْب عثمان، ولا أرى إلا أنها معاتبة، وأما الدم؛ فأعوذ بالله من دمه! فوالله لَودِدْتُ أني عشتُ في الدنيا بَرْصاءَ سالِخ ـ أي: مسلوخةَ الجلد ـ وأني لم أذكر عثمان بكلمة قطُّ، وايْمُ الله لإصبعُ عثمانَ التي يُشير بها إلى الأرض خير من طِلاَع الأرض مثل فلان)(٣).

ـ وكانت كلما ذَكَرْتُ عثمان بَكَتْ حتى ليبتلَّ خمارُها، ثم تقول: (ما تمنيتُ لعثمان شيئاً إلا أصابني، حتى أَني لو تمنيتُ أن يُقتل قُتِلتُ!)(٤).

---

(١) أخرجه في خبر مطول: البخاري في التاريخ الأوسط: ١٩٨/١؛ وأبو نعيم في الإمامة، ص٣٣٠؛ وابن شبة في تاريخ المدينة: ١٢٤٤/٤ ـ ١٢٤٥.

(٢) تقدم ذكره مطولًا، ص١٤٩.

(٣) مسائل الإمام أحمد برواية ابن هانئ (١٩٤٢)؛ السنة، للخلال، ص٣٨٥؛ مختصر ابن عساكر: ٢٦١/١٦ ـ ٢٦٢؛ وإسناده صحيح. وفي رواية: أنها فَضَّلَتْ عثمانَ على عليٍّ.

(٤) الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٣٠، بإسناد صحيح.

هذه شَـذَراتٌ من مواقف الصحابة من أمير المؤمنين عثمان، ومناصرتهم له، وثنائِهم عليه، وبراءتِهم من دمِه، وعدم رضاهم بما وقع له، وغضبهم على الخوارج الذين خرجوا على سلطانه ثم حصروه وقتلوه، وسبِّهم لهم ولعنِهم، وأنهم ظلمة مجرمون آثمون فسقة منافقون، أصحاب باطل في افتراءاتهم وخروجهم وقتلهم الخليفة الشهيد.

وقد تسللت إلى ثروتنا التاريخية قديماً وحديثاً أخطاء وخطايا بحق الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومواقفهم العظيمة من عثمان ونصرته والذود عنه وعدم إسلامه للقتلة فضلاً عن التأليب عليه أو الغدر به! والبحث في هذا طويل الذيل؛ نتركه لحصافة القارئ وعقله ودينه وورعه، بعد أن أوضحنا له المحجَّة وعرضْنا الصورة المشرقة الصحيحة التي كان عليها الصحابة الأطهار في مواقفهم من الخليفة الإمام البار الراشد، الذي أجمعت كلمة الأمة على بيعته راضين غير مكرهين، متحابين غير متنافرين.

- **وبقي سؤالان كبيران:**

السؤال الأول: هل شارك أحد من الصحابة في قتل عثمان؟:

١ ـ قال عبد الأعلى بن الهيثم: حدثني أَبي، قال: قلت للحسن البصري: أكان فيمن قَتل عثمانَ أحدٌ من المهاجرين والأنصار؟ قال: لا، كانوا أَعْلاجاً من أهل مصر(١).

٢ ـ وقال الإمام النَّووي في صدر شرح «كتاب فضائل الصحابة من صحيح مسلم»: (لم يشارك في قتله أحدٌ من الصحابة، وإنما قتله هَمَجٌ ورَعَاع من غوغاء القبائل، وسَفِلَة الأطراف والأرذال)(٢).

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٧٦.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٨/١٦٥ ـ ١٦٦.

٣ ـ وهكـذا قال ابـن العربي بأن أحداً مـن الصحابة لم يَسْعَ عليه، ولا قعد عنه(١).

٤ ـ وقـال ابن تيمية: إنَّ خيارَ المسـلمين لم يَدخل واحـد منهم في دم عثمان؛ لا قَتل ولا أَمر بقَتْله، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن(٢).

٥ ـ وأكَّد ذلك الحافظ ابن كثير فقال: تسوَّروا على عثمان الدار، وأحرقوا الباب، ودخلوا عليه، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم إلا محمد بن أبي بكر(٣).

أقول: هذا هو المشهور عند علمائنا المحققين من خلال الروايات الكثيرة الشهيرة الصحيحة، وهو ما ذهبتُ إليه وأكَّدتُه في غير موضع من كتبي، لكن يُعترض على هذا بورود اسم اثنين ممن شـارك في قتل عثمان، وقد ذَكَرتْ بعض الروايات أن لهم صحبةً ما، هما:

١ ـ عبد الرحمن بن عُدَيْـس البَلَوي: ذكره كثيرون في الصحابة، وأوردوا حديثاً في أنه من أصحاب الشجرة، والحديث ضعيف(٤).

وقال ابن حزم: (يُقال: له صحبة)(٥).

ولو كان ابن عُدَيْس من أهل الحُديبية وأصحاب بيعة الرضوان؛ لما تجرأ على الخروج على عثمان وقد رأى منزلته في الإسلام في تلك الغزوة خاصة وفي سيرته عامة!.

---

(١) العواصم من القواصم، ص١٤٣.

(٢) منهاج السنة: ٤٠/٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٨٥/٧.

(٤) الإصابة: ٤٠٣/٢.

(٥) جمهرة أنساب العرب، ص٤٤٣.

٢ ـ عَمْرو بن الحَمِق الخُزاعي[١]: له صحبة يسيرة، أسلم عام حجة الوداع، سكن الكوفة ثم انتقل إلى مصر، وكان أحد رؤساء الجيش المصري الذي زحف إلى المدينة وحاصر أمير المؤمنين!.

له حديث واحد جاء بإسناد صحيح، وفي بعض طرقه يقول: سمعت رسول الله ﷺ.

ومن عجائب عَمْرو: أن الحديث الذي رواه يقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيُّما رجلٍ أَمَّنَ رجلاً على دَمِهِ ثم قَتَلَه، فأنا من القاتلِ بريءٌ، وإن كان المقتول كافراً**»!.

وفي رواية: «**فإنَّه يَحمل لواءَ غدرٍ يومَ القيامة**»[٢]!.

نقول: عجيبٌ أمرُ عمرٍو وهو يسمع هذا الحديث من النبي ﷺ، ويحفظُه ثم يرويه، ثم لا يتَّعظ به! وهو في كل كلمة من كلماته حجَّة عليه؛ في تأليبه على أمير المؤمنين وخروجه عليه ومشاركته في قتله!.

فإذا لم يكن ذو النورين محفوظَ الدم مؤمَّناً على نفسه محرَّماً قتلُه والغدر به؛ فما في الدنيا إنسان موفور الحرمة محفوظ الدم!.

•• وممن ألَّب على أمير المؤمنين عثمان وسعى في الخروج عليه من أبناء الصحابة: محمد بن أبي حذيفة، وعملُه في هذا قديم، كما تقدم. وكذلك محمد بن أبي بكر الصديق، وقد شارك الخوارجَ في الدخول على عثمان، وأساءَ إليه، وله يدٌ في التحريض على قتله.

•• أما ما نُسب إلى عامة الصحابة وخاصَّتِهم، ومنهم علي وطلحة والزبير وعَمْرو بن العاص وعمار بن ياسر وأم المؤمنين عائشة ـ من التأليب

---

(١) الإصابة: ٥٢٦/٢؛ تهذيب الكمال: ٥٩٦/٢١.

(٢) النسائي في «الكبرى» (٨٦٨٦ ـ ٨٦٨٨)؛ ابن ماجه (٢٦٨٨)؛ ابن حبان (٥٩٨٢).

على عثمان، والرضا بقتله والمشاركة بدمه؛ فكلُّه كذبٌ وافتراءٌ وزورٌ على أولئك الأطهار، وكذبٌ على التاريخ، والروايات في ذلك كلها تالفةٌ.

السؤال الثاني: كيفَ قُتِل أمير المؤمنين عثمان وفي المدينة كبار الصحابة؟:

من خلال ما استعرضنا مفصلاً عن الأحداث منذ بزوغ الفتنة إلى نهايتها باستشهاد عثمان؛ يتبين لنا الجواب عن هذا السؤال من عدة جوانب:

١ ـ إن أغلب الصحابة لم يكن يظن أن الجرأة ستبلغ بأولئك الخوارج أن يقتلوا الخليفة في البلد الحرام والشهر الحرام، وهو لم يبدر منه ما يستحق به الخروج عليه فضلاً عن قتله. وقتلُه ليس كقتل آحاد الناس؛ فهو خليفة رسول الله ﷺ، وقد بايعه المسلمون بإجماعهم التام، وفضائلُه وأعماله تبدِّد أية نزوة عقلية أو عملية تستهدف حياته.

٢ ـ صلابة موقف عثمان في الكَفِّ عن القتال، واستمرارُه بحزم في إمساك أيدي الصحابة عن الدفاع عنه، ومنعهم من حمل السلاح أو تحريكه، تجنباً لإثارة الفتنة ووَأْداً لها، للحفاظ على وحدة الأمة والدولة، وصيانة المجتمع من الاضطراب والفساد والاحتراب. وقد ذكرنا النصوص الكثيرة الصحيحة التي تثبت أن عثمان قيَّد أيدي الصحابة وأبنائهم عن القتال دونه.

٣ ـ وينبثق من هذا تمسُّكُ عثمان بما عَهِد به إليه النبيُّ ﷺ أن يصبر على ما يُراد به، وحدَّث بذلك صراحة فقال: (عَهِدَ إلي رسولُ الله ﷺ عهداً وأنا صابر عليه)؛ فاختار أخفَّ الضَّرَرَين وأهونَ الشرَّيْن، وآثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة إراقة الدماء، وقال: (إنما تُراد نفسي)، وقال: (لن أكون أولَ من خَلَفَ رسولَ الله ﷺ في أمته بسفك الدماء).

٤ ـ أن الخوارج السبئيين كانوا يضعون الرقباء على تحركات كبار الصحابة كعلي وطلحة والزبير وأمثالهم، وقاموا بتنفيذ جريمتهم وعثمانُ في قلَّة من الحُماة والحراس، ولزوم كثير من أهل المدينة بيوتهم، وقبل مجيء أمداد جيوش الأمصار والحجيج من مكة.

٥ ـ انضباط الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتزامُهم الطاعةَ التامة لأمير المؤمنين عثمان فيما انتهجه من سياسة الكَفّ وعدم القتال وإراقة الدماء، فكانوا وقافين عند أوامره وعزيمته عليهم وتنفيذ تعليماته وتوجيهاته وملازمة هديه في تضييق دائرة القتال. مع إلحاحهم الدائم على مناصرته، ومناشدتهم له بأن يُطْلِق أيديَهم ويأذَنَ لهم في مجاهدة هؤلاء المجرمين، وكان هو يأمرهم ويناشدهم بما له عليهم من الطاعة أن يَكفُّوا أيديهم ويُغمِدوا أسيافهم ويلزموا بيوتهم، فسمعوا وأطاعوا.

٦ ـ ومع كل ما تقدم، فإن الصحابة لم يتركوه ومصيرَه، ولا خذلوه، ولا تخلَّوْا عنه، بل رابطَ شجعانُهم وفتيانُهم عند الباب وحول الدار، وترك أكابر الصحابة كعليٍّ وطلحة والزبير أبناءَهم: الحسن والحسين ومحمد بن طلحة، وعبدالله بن الزبير، في جماعة من الشباب والكبار، وعندما وقعت القارعة هَبَّ هؤلاء للقتال ومدافعة القتلة، وما قُتِل عثمان إلا ومات دونه جماعة من الشباب الأبطال، وتضرَّج بالدماء آخرون.

سادساً ـ عثمان لم يكن ضعيفاً في مواقفه من الخوارج والقتلة:

يزعم لفيفٌ من الكتَّاب والمؤرخين وخاصة المعاصرين: أن أمير المؤمنين عثمان كان ضعيفاً عاجزاً مستضعَفاً متهاوناً في سياسته للدولة؛ بدءاً من عشيرته وأقاربه ثم ولاته، وتضاعَفَ ضعفُه في مواقفه من الفتنة منذ أطلَّتْ برأسها إلى أن صَلُب عودُها واشتدَّ بأسُها وأنشَبَتْ في جسمه أظفارَها!.

•• ولقد أوضحنا بجلاءٍ بطلانَ هــذه الفِرية عند حديثنا عن هدي عثمان وسياســته مع عشــيرته وولاته، والخارجين على حدود الإسلام، وحركات الانتقاض في أطراف الدولة الإسلامية، وبيَّنَّا عزماته ووقفاته السديدة الرائعة حِيال ذلك كله.

•• ونقف هنا مــع ما افتُــرِي على ذي النوريــن في موقفه مــن الفتنة والخوارج الســبئيين الذين تمادوا في غَيِّهم وضلالهم حتى أطاحوا بالخليفة وسفكوا دمه.

ـ لقد كان عثمان في موقف يَكْنُفه فيه عزُّ الخلافة وســلطانها، وتحوطه حميَّةُ العشيرة وســطوتها، أَجلَبت عليه الحوادث بخَيْلها ورَجِلها، وتدافعت إلى بابه بقَضِّها وقَضِيضها؛ **أفتراه عاجزاً عن التنكيل بهولاء الخارجين والأمرُ في بدئه كان لا يزال محصوراً في نَفَر ليســت لهم حرمةُ سبقٍ إلى الإسلام، ولا تقدمٌ فــي الهجرة، ولا كان لهم كبيرُ فضل في جهــاد**، وإنما هم أحلاسُ فتنة، ومطايا الشــياطين من أضراب ابن ســبأ اليهودي وحزبه؟! وقد قال له أهل المدينــة ـ وهم جمهور الصحابة ـ لمَّا انكشَــف لهم ولــه حالُهم معه، وظهر خبثُ نيَّاتهم نحوه: اقتُلْهم، فأبى إلا أن يصبر ويعفو[1]!.

ـ وهل كان عثمان عاجزاً عن أن يتخذ لنفســه حماة وقادة أشداء القلوب يسلطهم على أبشار المخالفين بالجبر والقهر والجبروت، ويطلق أيديهم في المناوئين، فيسومونهم الخسف والتنكيل، وحوله جماعات من فتيان الصحابة وأبطال العرب؟!.

ـ وهل كان عثمان عاجزاً أن يستجيبَ للطلب بعد الطلب، والرجاء بعد الرجاء، من معاوية والمغيرة وابن الزبير وأســامة؛ فــي أن يغادر المدينةَ إلى

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٢ ـ ٨٣.

مكة أو الشام، أو أنه يأتيه جيش يُقيم معه في المدينة للنوائب والطوارئ، أو أن يخرج بمن معه فيقاتل أولئك الخوارج؟! وهو يرفض كل ذلك بأنه لن يترك دار هجرته، ولا يذهبُ إلى مكة خشيةَ الإلحاد فيها، ولا يريد أن يُضيِّقَ على أهل المدينة مدينتهم، ولن يكون أوَّلَ من يَخْلُف النبيَّ ﷺ بسفك الدماء! فيُقال له: لتُغزَيَنَّ ولتُغتالَنَّ، فيقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

ـ وهل كان عثمان عاجزاً أن يُحدِث للناس عقوبات فوق ما أحدثوا من الذنوب والآثام، فيصيحُ بهم: مَنْ نَقَب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نَبَشَ قبراً دفنَّاه فيه حيّاً، ولا تظهرُ من أحدكم رِيبةٌ بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربتُ عنقه؟!.

كلا ما كان عثمان رضي الله عنه عاجزاً عن هذا وأمثاله، ولا كان ضعيفاً ولا مستضعفاً[1].

ـ وما كان عثمان عاجزاً ولا ضعيفاً ولا مستضعَفاً وقد أراده الخوارج على خلع نفسه أو قتله ومن معه في الدار؛ فما اهتزت له شعرة، وكان معه في الدار وحولها (٧٠٠) رجل من الصحابة وشبابهم في عصابة مستبصرة مستنصرة يقودهم نفرٌ من ليوث الأبطال كالحسن والحسين وابن الزبير ومروان والمغيرة بن الأخنس، فما زاد على إمساك أيديهم وكَفِّهم عن إراقة مِحْجَمة من دم!.

لقد كان عثمان في سياسته تلك خليفة راشداً، يَحْجُزه عدلُ الخلافة الراشدة عن مآثم الحكم الجبري والاستبداد الدموي، الذي يضحي بكل شيء في سبيل الملك، ولو أقامه على أشلاء المعارضين والموافقين!.

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٣.

•• **لقد غَلِط التاريخ كما غَلِط المؤرِّخون والكتَّاب قديماً وحديثاً في تصوير شخصية عثمان وعهده وسياسته في أيام خلافته،** (حتى وقع في أوهام كثير من الناس، وتحدَّر إلى منازل التاريخ، ولُقِّنَ شباب المسلمين في المدارس ومعاهد التعليم: أن عثمان رضي الله عنه كان ضعيفاً في موقفه إزاءَ هذه الأحداث العاصفة، أو كان مستضعفاً يُساق إلى ما يُراد، وهذه غلطةٌ تاريخية خطيرة في حق ثالث عظماء الإسلام، يجبُ على كل مسلم سليم العقيدة، صحيح الفهم لتاريخ الإسلام؛ أن يعملَ على تصحيحها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً!)[1].

إن خلائق الرحمة والحياء واللين والمسامحة لا يَقْدر عليها إلا أشداءُ الرجال وأكابر الناس وأشراف المجتمع، وهي مباينة لصفات الضعف والاستضعاف والعجز والانكسار، ولو أرادها عثمان مُلْكاً عاضّاً أو جبرية مستبدَّة؛ لأمكنه ذلك وبيده السلطة وحوله الأعوان والقادة والولاة والعشيرة.

نعم، لو كان عثمان رضي الله عنه مِلكاً عَسوفاً أو حاكماً جباراً، فاتخذ لنفسه بطانة جلَّادين يضربون ظهور الناس فيُذِلُّونهم، ويسفكون دماءهم فيُفنونهم؛ لَنَجا كما نجا خلائفُ المُلك العضوض! نعم، ولو اعتصم عثمان بحرب الخارجين، لأفنَى كثرة الأمة وعاش كما عاش المتجبرون من بعده. نعم، ولو أراد عثمان الحياة كما يشتهيها ذوو الهمم المريضة من آحاد الناس؛ لوجدها سهلة هيِّنة كما يجدُها الضعفاء الرَّعاديد في كلمة لا تتجاوز شفتيه أو إشارة من يديه بالانقضاض على أولئك الخوارج المحاصِرين له، ولسالَتْ من ذلك دماء غزيرة طاهرة في صفوف الصحابة والمنافحين عنه، ودماءٌ فيها شبهة من أولئك الخوارج الأغمار الأغرار والجهلة الغوغاء الذين لا يدرون أين يُساقون!.

---

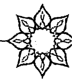
(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٤.

●● لكنَّ ذا النورين ما كان يوماً من الأيام ولا ساعة من نهار ملكاً جبَّاراً كما يريده الجاهلون، بل كان خليفة راشداً يسوس الناس بالعدل، وراعياً شفيقاً يرعاهم بالرحمة والإحسان.

لقد كان أمير المؤمنين عثمان ـ وهو الرجل الذي نَيَّف على الثمانين ـ على قوة نفس، ومناعة خُلق، وشجاعة باهرة، وثباتٍ لا يتزعزع أمام الأهوال والأخطار! فلقد تجمَّع معه في الدار وحولها وعند الباب كثيرٌ من أبطال الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار ليدفعوا عنه، ويَذُودوا عن سلطان الله تعالى ممثلاً في خلافته الراشدة، ولو أَذِن عثمان لهم في حرب الخارجين وقتالهم لضربوهم حتى يُخرجوهم من أقطارِها، ولكن عثمان أَبَى عليه إسلامُه ويقينُه وإخلاصُه وفضله أن يَقذف بالأمة في أَتُون حرب طاحنة من أجل شخصه.

وهو في كل يوم وساعة ولحظة يمسك بأيديهم ويَعزِم عليهم بما له من حق الطاعة أن يُغمِدوا أسيافهم ولا يسفكوا بسببه قطرة من دم، وهو يرى القتلة المجرمين محيطين به، وقد عزموا على مهاجمة داره وسفْكِ دمه! بل تراه يقول لامرأته: افتحي الباب، ويضع المصحف الشريف بين يديه يتلوه ويتهجَّد به آناء الليل قائماً وساجداً يخشى الآخرة ويرجو رحمة ربه!.

●● ليتَ شِعري أيةُ شجاعة نفسية، وأي صبر يطلبه الناس وراء هذا؟! إذا كانت الشجاعة هي ضبط النفس عند النوازل في غير قلَقٍ، والصبر على المكاره من غير جَزَع، ومصابرة الحوادث في غير سأَمٍ، والثبات لجِسام الأحداث بلا تزعزعٍ ـ فلم تَنفرجِ الوالدات عن مثلِ عثمان في شجاعته ورباطة جأْشِه، وقوة يقينه وثباته على رأيه! فإن أحداً من الناس في مثل حال عثمان وشأنه لم يلقَ ما لقي عثمان ولا شيئاً منه، ولم يصبر أحدٌ على ما لقي من البلاء والمحنة مثلَ ما صبر عثمان، وكيف بصبر ينتهي بصاحبه ـ على علمٍ منه وبصيرة ـ إلى الموت قتلاً، وكان له لو كان جَزوعاً، وأراد ألا يصبر عن



يقين ورضا؛ مخارجُ يَنفذ منها، ويعيش في خَفْض من العيش الذليل! ولكن عثمان رضي الله عنه لم يكن ضعيفاً ولا مستضعَفاً ـ كما يزعم القاصرون المقصِّرون ـ بل كان قوي الإيمان، عظيمَ اليقين، كبيرَ النفس، عبقريَّ الشجاعة، نبيلَ الصبر، نفَّاذ البصيرة، ففدى الأمة بنفسه، ووَضَع لها بذلك أعظمَ قواعد النظام في تكوينها الاجتماعي.

أما إذا كانت الشجاعة سفكاً للدماء، وتقتيلاً للأبرياء، ونَهْباً للأعمار، وسلباً للأموال، وإرعاباً للآمنين ظلماً وعدواناً؛ فليست هذه الشجاعة من عثمان في شيء، وليس منها عثمان في شيء، لأنه كان من الخلفاء الراشدين الذين اصطفاهم الله بعد خاتم النبيين محمد ﷺ، ليوطِّدوا في الإنسانية دعائمَ العدل والرحمة، ويَسنُّوا بالناس سننَ الهداية والرشاد، وليتأسَّى بهم قادة الإصلاح ودعاة الخير، وزعماء الأمة الإسلامية في كل عصر ومصر[1].

والذي يرى ويتابع ما تمور به الآن ساحات كثير من الدول العربية ـ فيما عُرف بالرَّبيع العربيِّ ـ من الاستئثار بالحكم والتضحية بالأرواح والبلاد والثروات وأمن العباد؛ في سبيل البقاء على كرسي الحكم، يعلمُ حقَّ العلم كم كان أمير المؤمنين عثمان عظيماً وجليلاً وحكيماً وشجاعاً، وهو يجودُ بنفسه ويَحقِن دماءَ المسلمين بل وعصابات الإجرام التي حاصرتْه ثم قتلَتْه!.

سابعاً ـ وقفات مع الخوارج السبئية وجرائمهم، ونقمة الله التي نزلت بهم:

لقد أصاب الإمام أحمد كبدَ الحقيقة حيث قال: (شَتْمُ عثمان زندقة وباطنُه كفر؛ لأنه يؤدِّي إلى تكذيب المهاجرين والأنصار الذين اختاروه بالإجماع)[2].

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص٨٨، ٩١ ـ ٩٢، مقتطفات.

(٢) فضائل الصحابة، لأحمد (٧٤٠).

فما بالُك بشَـقِّ عصا الطاعة، والخروجِ على الجماعة والبيعة، وحملِ السلاح والسعي إلى أمير المؤمنين في البلد الحرام وحصره ثم سفك دمه؟!.

ونشير في هذه الفقرة إلى جملة من أخلاق أولئك السبئيين المجرمين، وسوء صنيعهم وزعارتهم وضلالهم، لتتكون منها صورة متكاملة تتضح فيها حقيقةُ أنهم ما كانوا أصحابَ حق ولا دعاةَ إصلاح، بل حثالات وأغماراً وغوغاء تجمعتْ في قبضة عصابة من ذوي الأهواء والأطماع والحقد الدَّفين.

•• ١ ـ يصف ابن الكَوَّاء ـ وهو أحد المُسَيَّرين ـ أهلَ الإحداث فيقول: (فأما أهل الإحداث من أهل المدينة؛ فهم أحرصُ الأمة على الشرِّ، وأعجزه عنه. وأما أهل الإحداث من أهل الكوفة؛ فإنهم أنظرُ الناس في صغيرٍ، وأركبُه لكبير. وأما أهل الإحداث من أهل البصرة؛ فإنهم يَرِدون جميعاً، ويَصدرون شتى. وأما أهل الإحداث من أهل مصر؛ فهم أوفى الناس بشرٍّ، وأسرعُه ندامة. وأما أهل الإحداث من أهل الشام؛ فأطوعُ الناس لمرشدهم، وأعصاه لمغويهم)(١)!.

٢ ـ ووصفهم معاوية بأنهم: (أقوام ليست لهم عقولٌ ولا أديان، أَثْقَلهم الإسلام، وأَضجَرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجَّة، إنما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة). وأنهم: (يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُمْلون عليهم، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، إنما يريدون فُرْقة، ويقرِّبون فتنة، وأفسدوا كثيراً من الناس)(٢)!.

٣ ـ ودخل سعد بن أبي وقاص على عثمان وهو محصور، ثم خرج من عنده فرأى عبد الرحمن بن عُدَيْس ومالكاً الأشتر وحُكَيم بن جَبَلة؛ فصَفَق

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٩/٤.

(٢) المرجع السابق: ٣٢١/٤، ٣٢٥.

بيديه إحداهما على الأخرى ثم استرجع، ثم أظهر الكلام فقال: والله إنَّ أمراً هؤلاء رؤساؤه لأمرُ سوء(١)!.

٤ ـ ولمَّا سُئل الزبير عن مقتل أمير المؤمنين عثمان، وصف القومَ الذين خرجوا عليه وقتلوه بأنهم: (الغوغاءُ من الأمصار ونُزَّاع القبائل، وظاهَرَهم الأعراب والعبيد)(٢).

٥ ـ وعندما شدَّدوا الحصار على عثمان، ودخل عليه علي بن أبي طالب أنَّبَهم ووبَّخَهم وقال: (يا أيها الناس، إن الذي تصنعون لا يُشبه أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادَّة؛ فإن الروم وفارس لتأسِرُ فتُطعِم وتسقي! وما تعرَّض لكم هذا الرجل، فبمَ تستحلُّون حصْرَه وقتْلَه؟! قالوا: لا والله ولا نَعْمةَ عين، لا نتركه يأكل ولا يشرب!)(٣).

٦ ـ وبَثَّ هؤلاء المجرمون خَبيئة أنفسهم للرجلين اللَّذَين أرسلهما عثمان، فقالوا: (نريد أن نَذكُر لعثمان أشياءَ قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنّا قرَّرْناه بها، فلم يَخرج منها ولم يَتُبْ، ثم نخرج كأنّا حُجَّاج حتى نقدَم فنحيطَ به فنخلَعَه، فإن أبى قتلناه)(٤).

•• ومن أمثلة أعمالهم السيئة وجرائمهم الكثيرة، التي تدل على خُبث طويَّتهم وسوء نيَّتِهم وكَذِبهم وافترائهم وتغلّبِ الهوى والحقد على مقاصدهم وأفعالهم: سعيُهم الحثيث في إثارة الفتن والإيقاع بين الناس واختلاق الأكاذيب وشق الصفوف؛ ومن ذلك:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧٢/٣.
(٢) تاريخ الطبري: ٤٦١/٤. نُزَّاع القبائل: المشرَّدون.
(٣) تاريخ الطبري: ٣٨٦/٤.
(٤) تقدم ذكره ص١٧٨.

١ ـ في الكوفة نَقَب جماعة من أهل الزَّعَارة على ابن الحَيْسُمان بيتَه وقتلوه، ولما أُقيم عليهم الحدُّ، نَقَم ذووهم على والي الكوفة الوليد بن عقبة، وافتروا عليه واتهموه بشرب الخمر، حتى حُدَّ وعُزِل. وكذلك أثاروا الفتن في وجه سعيد بن العاص، ومنعوه من دخول الكوفة (يوم الجَرَعة)، وطلبوا من الخليفة والياً غيره!.

٢ ـ وفي البصرة أثاروا الشغب والفتن في وجه الوالي أبي موسى الأشعري، حتى عُزل.

٣ ـ وفي مصر أفسدوا بين عَمْرو بن العاص وبين ابن أبي سَرْح، فعزل الخليفة عَمْراً. وكذلك ثاروا في وجه ابن أبي سرح، وأخذ محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر بإظهار العيب على عثمان والطعن فيه وأن جهادَه حلال، وألَّبا الأحزاب عليه. ونفخ ابن سبأ في رماد الفتنة وأشعل جذوتها حتى تشَظَّت ووصلت إلى آخر مداها.

٤ ـ وكذلك أَظْهَروا الطعن على الولاة، واخترعوا أباطيل أرادوا أن يُدينوا بها أمير المؤمنين، وافتروا أكاذيب وزرعوها في قلوب الهمج والغوغاء.

٥ ـ وزوَّروا الكتب على لسان الصحابة وأمهات المؤمنين ثم على الخليفة الراشد، والذي بسببه ـ كما زعموا ـ رحلوا إليه لخلعه وقتله.

٦ ـ وعلى هذه الأخلاق الفاسدة مشى من عُرفوا (بالمُسَيَّرين)، الذين نقلهم الخليفة من بلد إلى آخر، وتعاهدهم والٍ إثر وال بالتأديب والإصلاح، فلَجُّوا في طغيانهم وضلالهم.

•• وتزداد أخلاقهم الفاجرة ونيَّاتهم الخبيثة وضوحاً في ممارساتهم وجرائمهم في الأيام الأخيرة من حصار أمير المؤمنين وقتله:

١ ـ عندما جاءت أم المؤمنين صفية تُغيث عثمانَ بالطعام والشراب، قام الأشتر في نفر معه بتنفير دابَّتها حتى كادت أن تُسقطها من على ظهرها!.

وكذلك فعلوا بأم المؤمنين أم حبيبة، واتهموها بالكذب.

فلم يَرْعَوْا لزوجاتِ نبينا ﷺ حُرمة ولا مكانة؛ أفهؤلاء يريدون وجه الله؟!.

٢ ـ ومنعوا عن أمير المؤمنين الماء والطعام، فقال لهم علي: إن فارس والروم لا تفعل فعلكم هذا . فما أثَّر فيهم ذرة!.

٣ ـ وعندما نافحتْ عن عثمانَ زوجُه نائلة، ضربها أحدُهم، وقال: قاتلها الله ما أعظمَ عَجيزتها!.

٤ ـ وعَمْرو بن الحَمِق يَثِبُ على صدر عثمان ويطعنه عشر طعنات، ويزعم أن ثلاثاً منها لله، وسبعاً لِما في صدره عليه.

٥ ـ والغافقيُّ بن حرب يدخل على عثمان والمصحف بين يديه، فيَركُل المصحف برِجْله، ثم يهوي إلى عثمان بالسيف فيقطع يده التي كانت أولَ يد خطّت (المُفَصَّل).

٦ ـ ودخلوا الدار فانتهبوها حتى أخذوا ما على النساء، وأخذ رجل مُلاءة نائلة زوج عثمان، ثم تنادَوا: أَيَحِلُّ لنا دمُه ولا يَحِلُّ مالُه؟! فأسرعوا إلى بيت المال وانتهبوه.

٧ ـ ولما آلَت الخلافة إلى عليٍّ، ولَّى بني العباس بعضَ الولايات، فقال الأشتر النخعي: علامَ قتلنا الشيخ ـ أي عثمان ـ إذاً؟! اليمن لعُبيد الله، والحجاز لقُثَم، والبصرة لعبد الله، والكوفة لعلي!.

هذه خطوط وقسمات واضحة يستبين من تجميعها الوجهُ الكالح والنفسية المريضة والقلوبُ الحانقة والأهواء المستشرية والمسيطرة على

رؤوس الفتنة والشـــر، الذين قـــادوا الدَّهماء والأعراب ونُـــزَّاع القبائل إلى الخـــروج على الخليفة الراشـــد وقتله، وفتح أبواب الفتـــن على مصاريعها لتجتاح الأمة المسلمة.

• فكيف كانت نقمة الله عليهم في الدنيا قبل الآخرة؟:

•• عن علي بن أبي طالـــب : أن النبي ﷺ قال: «المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْر، فمن أَحْـدَثَ فيها حَدَثاً أو آوى مُحْدِثاً؛ فعليـــهِ لعنةُ الله والملائِكةِ والناسِ أجمعين، لا يَـقبلُ الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(١).

وقد طبَّق الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني هذا الحديثَ على أولئك الخوارج السبئيين، من أهل الجهل والغي والفتنة، فهم أولُ قوم أَحدثوا وانتهكوا حرمة المدينة وأحدَثوا فيها، فباؤوا بلعنةِ رسولِ الله ﷺ.

وكانت اللعنة التي لَحِقَتْهم من النبي ﷺ لِحَدَثِهم؛ أن أُلبسوا شِيعاً، وأُذِيق بعضُهم بأسَ بعض(٢).

ـ قال الحســن البصري: (ما علمتُ أحداً أَشـرك في دم عثمان ولا أَعان عليه إلا قُتل)(٣).

وقال: (لم يَدَعِ الله الفَسَقة قتلةَ عثمان حتى قتلهم بكلِّ أرض)(٤).

ـ وعن عَمرة بنت قيس العَدَوية قالت: (خرجتُ مع عائشـــة ـ رحمها الله ـ سنة قُتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة، فرأَيْنا المصحفَ الذي قُتل وهو في

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠، ٧٣٠٠)؛ ومســلم (١٣٧٠)، وغيرهما. عيــر وثور: جبلان بالمدينة. الصرف: التوبة، والعدل: الفدية. أو: الصرف: الفريضة، والعدل: النافلة.

(٢) الإمامة، ص٣٥٠، ٣٥١.

(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٥٢/٤.

(٤) التاريخ الأوسط: ١٧٦/١.

حَجْره، فكانت أول قطرة قطرت من دمه على هذه الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، قالت عمرة: فما مات منهم رجلٌ سويّاً!)[١].

ـ ولمَّا بَلَغ سعَدَ بن أبي وقاص استشهادُ عثمان، دعا على القتلة فقال: اللهمَّ أَنْدِمْهم ثم خُذْهم.

وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً[٢].

•• وكان نزولُ دم أمير المؤمنين عثمان على قول الله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فيه إيذانٌ بأنه سبحانه سينتقِم لعبده الخليفةِ الشهيد المظلوم؛ فقيَّض الله ﷻ للقتلة مَن تتبَّعَهم وقتلهم واحداً بعد الآخر.

ـ عن حُميد بن هلال: (أن أم حبيبة أم المؤمنين دخلَتْ على عثمان ـ وهي في خِدْرِها، وهو محصور ـ فاطَّلع رجلٌ منهم في خِدْرها فنَعَتها للناس، قالت: ما لَهُ قطعَ الله يَده وهَتَك عورتَه! قال: فخرج في بعض تلك الهزاهز، فقُطِعتْ يده، وذهب على وجهه يشتد وعليه إزار، فوقع من عُنقه، فبَقِي عُرْياناً يشتدُّ، وأصابه ما دَعَتْ عليه)[٣].

ـ وعن طَلْقِ بن خُشَّاف قال: (أَتيت عائشة قلتُ: فيمَ قُتل أمير المؤمنين؟ قالت: قُتل مظلوماً لعنَ اللهُ قَتلَته، أقادَ الله ابن أبي بكر، وساقَ إلى أَعْينِ بني تميم هواناً، وأَهْرَاق دمَ ابنَيْ بُديل على ضلالة، وساق الله إلى الأشتر كذا. قال طلقٌ: لا والله، إنْ بقي من القوم رجلٌ إلا أصابَتْه دعوتُها: أُخِذ ابن أبي بكر فأُقِيد، ودَخَل على أعْينِ بني تميم رجلٌ فقتله، وخرج ابنا بُديل في بعض تلك الفتن فقُتِلا، وخرج الأشتر إلى الشام فأُتي بشربة فقَتَلتْه!)[٤].

---

(١) الزهد، لأحمد (٦٧٧).

(٢) البداية والنهاية: ١٨٩/٧.

(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٣١٢/٤ ـ ١٣١٣.

(٤) التاريخ الأوسط: ١٩٨/١ ؛ واختصره في التاريخ الكبير: ٣٥٨/٤، وسنده حسن.

●● ١ ـ اختبأ محمد بن أبي بكر في بيت امرأة بمصر، فقَبض عليه معاوية بن حُدَيج وقتله، ثم جعله في جيفةِ حمار ميِّت، فأحرقه بالنار(١)!.

٢ ـ وقال قتادة: شَقَّ رجل من عَبْس لعثمانَ مِطهرة فيها ماء، فقال: اللهم أَظْمِئْه. قال: فركب الرجل البحر مع أصحاب له، وكان ثقيلاً، فنَفِد ماؤهم، فانتهوا إلى ساحل اليمن فخرجوا وخرج معهم، وكانوا أخفَّ منه فأدركهم العطش فمات عطشاً.

وفي رواية: فمات، وأكلت النسورُ بعضَه(٢)!.

٣ ـ وقام جَهْجَاه الغِفاري إلى عثمان وهو على المنبر، فأَخذ منه العصا ووضعها على ركبته فكسرها، فرَمَاه الله بالأَكِلة في ركبته، فلم يَحُلْ عليه الحَوْل حتى مات(٣).

٤ ـ وكان عبد الرحمن بن عُدَيْس شديدَ الوطأة على عثمان أيام الحصار، وفيما بعد أخذه معاوية بن أبي سفيان فجعله في بَعْلَبكّ، فهرب منه، فأدركه رجلٌ رامٍ من قريش فرماه بنُشَّابة فقتله(٤).

٥ ـ وقد كان معاوية أخذ محمد بن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن عُديس وكِنانة بن بِشْر وغيرَهم من قتلة عثمان، فسَجن ابنَ عديس وجماعة ببَعْلَبكّ، وسَجن ابن أبي حذيفة وجماعة بفلسطين باللُّد، فهرب هؤلاء من السجن، فتبعهم والي فلسطين فقتلهم(٥).

---

(١) ولاة مصر، ص٥٢؛ سير أعلام النبلاء: ٤٨٢/٣.
(٢) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١٢٧٧/٤ ـ ١٢٧٨.
(٣) حياة الصحابة: ٦٦٠/٣ ـ ٦٦١، وقد تقدم: ص٢٠٩ في هذا الكتاب.
(٤) المعرفة والتاريخ: ٤٦٠/٣ ـ ٤٦١؛ الإصابة: ٤٠٣/٢.
(٥) ولاة مصر، ص٤٣.

٦ ـ والأشتر النخعي بعثه علي والياً على مصر، فسار إليها حتى بلَغ البحر الأحمر، أُتي بشربة عَسَل فشربها فكان فيها حَتْفُه.

فلما بلغ خبرُه عليّاً قال: لليدين والفم! أي: كَبَّه الله على وجهه.

وقال عمرو بن العاص: إن لله جنوداً من عسل[1].

٧ ـ وعبدالله بن سبأ بقي على زندقته، فحبسه عليٌّ واستتابه ثلاثة أيام، فلم يَتُب، فأحرقه بالنار في أحد عشر من جماعته[2].

٨ ـ وقُتِل حُكَيم بن جَبَلة ومن كان معه من قتلة عثمان في «وقعة الجمل»[3].

٩ ـ وعاش كُميل بن زياد وعُمير بن ضابئ إلى أيام ولاية الحَجَّاج على العراق، بعد أكثر من أربعين سنة من مقتل عثمان[4]، فأُتي الحجاج بهما فضرب عنقيهما[5]، نكالًا من الله بقتلة عثمان، وتحقيقاً لوعده سبحانه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٠ ـ وقَتل المدافعون عن عثمان كلّاً من قُتيرة السَّكُوني، وسُودان بن حُمران السَّكُوني، وكُلثوم بن تُجيب، وذلك عندما اقتحموا الدار[6].

١١ ـ ورأى أبو قِلاَبة الجَرْمي رجلاً بالشام مقطوعَ اليدين من المَنْكِبين والرجلين أعمى منكبّاً على وجهه، وهو ينادي: يا ويلَهُ، النارَ النارَ! فسأله

(١) التاريخ الأوسط: ١/١٨٨؛ ولاة مصر، ص٤٧ ـ ٤٧؛ سير أعلام النبلاء: ٤/٣٤.
(٢) ابن عساكر ـ ترجمته، ص٧؛ المعارف، ص٦٢٢؛ رجال الكشي، ص٩٨؛ لسان الميزان: ٣/٢٨٩.
(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٤/٤٧١ ـ ٤٧٢.
(٤) أرخ خليفة ذلك في تاريخه، ص٢٨٨، سنة (٨٢ هـ).
(٥) تاريخ الطبري: ٤/٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٦) المرجع السابق: ٤/٣٩١.

عن شـــأنه، فقال: كنتُ فيمن دخل على عثمان الدار، وكنتُ في سَرَعان من وصل إليه(١).

١٢ ـ وعن محمد بن سيرين قال: (كنتُ أطوف بالكعبة، فإذا رجلٌ يقول: اللهـــمَّ اغْفِرْ لي، وما أظـــن أن تغفرَ لي! فقلت: يا عبدَ الله، ما ســـمعتُ أحداً يقول ما تقول! فقال: كنتُ أَعطيتُ الله عهداً إنْ قـــدرتُ أن أَلْطِمَ وجْهَ عثمان إلا لطمتُه، فلما قُتل وُضِع على ســـريره في البيت، والناسُ يجيئون فيصلون عليه، فدخلـــت كأني أُصلِّي عليه، فوجدتُ خَلْـــوة، فرفعتُ الثوب عن وجهه فلَطَمْتُ وجْهَه، وسَـــجَّيْتُه وقد يَبِستْ يميني! قال ابن ســـيرين: فرأيتُها يابسةً كأنها عودٌ!)(٢).

ثامناً ـ عثمان قُتل مظلوماً والخسارة في مقتله:

•• ذهب عثمان إلى ربه شهيداً سعيداً مظلوماً، تحقيقاً لنبوءة نبوية وَسَمَت المشهدَ الأخير المحزنَ من حياته المليئة بجلائل الأعمال وأكرم الخصال.

يروي عبدالله بن عُمر فيقول: (ذكرَ رســـولُ الله ﷺ فتنةً، فمرَّ رجلٌ، فقال: «**يُـقتل فيهـــا هذا المُقَنَّعُ يومئـــذٍ مظلوماً**»، قال: فنظرتُ، فـــإذا هو عثمانُ بن عفان رضي الله عنه)(٣).

ومضى عثمان إلى ربه وقد فـــاز بالمناقب الكثيـــرة والفضائل العديدة، وحســـبه تلك البشـــريات النبوية والأحاديث الجليلة التي تشـــهد له بالهدى والخير والفضل والشهادة في سبيل الله.

---

(١) الرقة والبكاء، لابن قدامة، ص١٩٥، في خبر طويل.

(٢) مختصر ابن عساكر: ٢٥٠/١٦. وذكر ابن قدامة قصصاً أخرى مشابهة: الرقة والبكاء، ص١٩٣ ـ ١٩٤، ١٩٦.

(٣) حديث صحيح تقدم مع تخريجه: ص ٨٥ في هذا الكتاب.

وسيأتي ذو النورين يومَ الحساب في أول فوجٍ من الناس ليقضيَ الله سبحانه بينه وبين قتلته؛ فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ ما يُقضَى بين الناس فيه يومَ القيامة في الدِّماء»(١).

ويأتي يوم القيامة وهو آخذٌ بتلابيب أولئك السبئيَّة الفجرة، ويُوقِفُهم بين يدي العزيز المنتقم الجبار قائلاً: يا ربّ، اسأَلْهم فيمَ قتلوني؟!.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «**يأتي المقتولُ متعلِّقاً رأسُه بإحدى يديه، مُتلَبِّباً قاتلَه بيدِهِ الأخرى، تَشْخُب أوداجُه دماً، حتى يأتي به العرشَ، فيقول المقتول لربِّ العالمين: هذا قتلني! فيقول الله للقاتل: تَعِسْتَ، ويُذهب به إلى النار**»(٢).

•• حقّاً لقد قُتِل عثمان ظلماً، وكانت الخسارة بمقتله فادحة! فماذا فعل ذو النورين أيها المنافقون السبئيَّة حتى تشدُّوا إليه الرحال، وتفسدوا في الأرض، وتنتهكوا كل الحرمات؟! حرمة الدماء، وحرمة المصحف الشريف، وحرمة الزمان، وحرمة المكان، وحرمة الأعراض، وحرمة البيوت، وحرمة الأموال!.

أ ـ ماذا فعل أمير المؤمنين عثمان الشهيد حتى يُقتل؟!:

ـ عثمان الذي كان واحداً من أبطال المسيرة الأولى، والذي أسلم والدعوة تواجه الشدائد والعُسرة والتضييق والمطاردة.

ـ عثمان الذي كان أولَ من هاجر بأهله بعد لوط عليه الصلاة والسلام، وكان صِهْرَ النبي ﷺ على ابنتَيْه، وأحدَ العشرة المشهود لهم بالجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٣)؛ ومسلم (١٦٧٨)، وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٩٧).

ـ عُثمان الذي اشترى بئرَ رُومة وسَبَّله للمسلمين، وجهَّز جيش العُسْرة، ووسَّع المسجد النبوي، وبذل ماله في سبيل الله يميناً وشمالاً، سرّاً وجهاراً.

ـ عثمان الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، وأجمع الصحابة على استخلافه وازدحموا على مبايعته أميراً للمؤمنين.

ـ عثمان الذي جَيَّش الجيوشَ، وفتح الأقاليم، وأَبْلَغ دعوةَ الله حدودَ الهند ومشارف الأندلس، وجمع الناس على المصحف الإمام، وكان يختم القرآن في ركعة.

ـ عثمان الذي أفاض على الناس الأَعْطيات والأرزاق، وكساهم الحُلل، ووزع عليهم العسل.

ـ عثمان الذي ما ترك لكم أيها المجرمون المنافقون طلباً في الحق إلا لبَّاه، ولا فَتْقاً إلا رَتَقه، وكَفَّ عنكم لسانَه ويده، ومَنَعَ أصحابه من أن يقتلوكم.

بعد كل هذه المناقب والفضائل، والمزايا والمكارم، والسوابق الكثيرة، والأعمال الجليلة، والسجايا الرفيعة؛ يُقتل ذو النورين؟!.

إنه كما قال رسول الله ﷺ: «يُقتل هذا مظلوماً»(١).

•• لقد كان قَتْل عمَّار وطلحة والزبير كبيرة وموبقة فظيعة، لكنهم رضي الله عنهم كانوا في أرض معركة، وفَرْق كبير بين قَتْلهم وبين قَتْل عمر في محرابه، وعثمان في داره وهو يتلو القرآن، وعليٍّ في مسجده وهو خارج لصلاة الفجر في السابع عشر من رمضان!.

---

(١) انظر كتابيَّ: نبوءات الرسول ﷺ: ٢/٧٠ ـ ٧٣؛ الخلفاء الراشدون، ص٤٣٢ ـ ٤٣٤.

إنَّ قَتْلَ هؤلاء الخلفاء الثلاثة جريمة كبرى وفساد عريض، ومَن باشَر قتْلَهم أو كان من ورائهم؛ هم مجرمون قَتَلَة، ملعونون على لسان نبينا محمد ﷺ.

وقد أشار إلى مثل هذا الإمام المجتهدُ ابنُ حزم، فبيَّن أن عمار بن ياسر قتله أبو الغادية وهو متأوِّلٌ مجتهد مخطئ فيه باغٍ عليه، ثم قال: (وليس هذا كقَتَلةِ عثمان رضي الله عنه؛ لأنه لا مجال للاجتهاد في قتله، لأنه لم يَقتل أحداً، ولا حاربَ ولا قاتَلَ ولا دافَعَ، ولا زنى بعد إحصان، ولا ارتدَّ، فيسوغ المحاربة تأويلاً. بل هم فُسَّاق محارِبون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان، فهم فسَّاق ملعونون)[1].

ب ـ الخسارة في مقتل الشهيد عثمان:

أفاقت الأمة من هَوْل المفاجأة المزلزِلة والفاجعة الكبرى، بعد أن نَفَضت أيديها من تراب عثمان وقد وارَتْه الثرى، ونظرتْ في أمرها، وتدبَّرت أحوالها بعد أن غادرتها الصدمة؛ وإذا بجسمها قد اخترقته جروح غائرة، وأخذت تنزف منه دماء غزيرة، وهي ماضية مع التاريخ في سيرورته ونواميسه تتجرَّع آلاماً مبرِّحة، وتكتوي بنيران ملتهبة، وتتناوشها فتن جائحة.. **ويمكن إجمال ذلك في خطوط عريضة كبرى:**

١ ـ بدأت البدع بالظهور، وأخذ الانحراف عن عقائد الإسلام وسبيله المستقيم بالازدياد؛ فالانحراف عن الخط المستقيم يبدأ ضئيلاً جدّاً وتأخذ زاويته بالانفراج مع تطاول الزمان.

فظهرت بدعة السَّبئيَّة والغلوّ في عليٍّ حتى زَعمت له الألوهية، كذلك ابتدعت دعوى الوصية وأن عليّاً وصيُّ محمد ﷺ، وهي نواة التشيع التي

---

(١) الفصل في المِلل والأهواء والنِحل: ١٦١/٤؛ كتابي «نبوءات الرسول ﷺ»: ١٤٨/١.

افتراها ابن سبأ كما قدمنا. وأيضاً فالذين خرجوا على عثمان تشكلت منهم دعوةُ الخوارج وفكرهم التكفيري العقيم، والذين خرجوا فيما بعد على عليٍّ وقتلوه، وأحدثوا في جسم الأمة جرحاً غائراً وانحرافاً عقديّاً خطيراً.

٢ ـ تفرقت كلمةُ الأمة وتصدَّعت وحدتها ونسيجها الاجتماعي، وتنافرت قلوبها؛ فأُلْبِسوا شِيعاً، وذاق بعضُهم بأسَ بعض؛ كما يتضح ذلك عند بيعة علي بالخلافة، وقيام فريق من المسلمين بالطلب بدم عثمان، فكانت وقعة (الجمل) ثم (صفين)، ثم وقعة الخوارج، وفي كل ذلك كان لقتلةِ عثمان دورٌ خطير خبيث في تأريث الفتن وشقِّ الصفوف وإثارة الحروب.

٣ ـ وقذَفَ ذلك بمجموع الأمة في خِضمِّ التنازع والتخاصم، ولم تخرج منه إلا وهي ممزقة الأوصال متفرقة إلى شِيع متباينة وأحزاب مختلفة؛ مما ألحق دماراً كبيراً بالطاقة الإسلامية الجيّاشة التي تميزت بها الأمة منذ عصر الرسالة وحتى قُبيل مقتل عثمان، وما عُوفيت من ذلك إلا بعد مدة طويلة؛ حيث أَوقف الإمامُ العظيم الحسن بن علي نزيفَ الدماء بتنازلِه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، فتوحَّد شملُ الأمة في عام الجماعة سنة (٤١هـ).

٤ ـ انتشرت ثقافةُ الخوف في الأمة، ووَهَى الأمن والأمان والاطمئنان، وخَفَتَ ضياءُ الإخلاص والورع والنُّبل، وظهرت بوادر الأَثَرة والغدر والمكر والمكيدة والحقد، بسبب جرائم جراثيم السبئيِّين وممارساتهم الآثمة وافتراءاتهم التي زرعوها في قلوب الغوغاء والأعراب من أتباعهم، وبثُّوها في البلاد طولاً وعرضاً، وبَدَت آثارها واضحة طيلة عهد علي رضي الله عنه.

٥ ـ وخَلَّفَ مقتلُ عثمان ظلالاً قاتمة على سيرورة التاريخ والأمة، وشكَّلَ اتجاهاً ضاغطاً على طبيعة نظام الحكم الإسلامي، وسَبَّبَ انحرافاً خطيراً عن منهاج الخلافة الراشدة، فبعدَ خمس سنين عِجاف من الصدامات

العنيفة والاحتراب الدامي والانقسام السياسي والاجتماعي والمذهبي، آلَتْ مقاليد الحكم إلى معاوية رضي الله عنه، الذي خَشِيَ تكرارَ المآسي السابقة؛ فاجتهد في ابتكار ولاية العهد، وانتقل بالمسلمين من مبدأ الشورى والخلافة إلى نظام الحكم الملكي الوراثي الذي استمر في أروقة الحكم زُهاء ثلاثة عشر قرناً!.

٦ ـ ومن الآثار الخطيرة التي لحقت بالإسلام توقف انتشار رسالته العالمية في تحرير الناس من العبودية لغير الله؛ وتمثل ذلك في ضعف حركة الفتوحات في السنوات الثلاث الأخيرة من خلافة عثمان، ثم توقفها تماماً طيلة عهد علي، وبقيت كذلك حتى عام الجماعة وإمرة معاوية على المسلمين عامة، حيث استقرت أوضاع الأمة والدولة، وانطلقت جيوش الفتح من جديد.

ومن الموبقات الكبرى التي لم يتجاسَر على البَوْح بها عُتاة المستشرقين ما ذَكَره كاتب عربي حيث يقول: (إن الإسلام نفسه هو المُشْرَع ضد عثمان، والإسلام هو الذي سيقتله، فمقتل عثمان انتصار كامل للإسلام)[1]!.

ولو كان عند هذا الكاتب وأمثاله مَسْكة من عدل وإنصاف وبحث علمي متدبِّر جادٍّ؛ لنظر فيما خَلَّفه مقتلُ عثمان وما جرَّه على الأمة من خلافات وشِقاق وقتال ودماء وانقسام وتوقف للجهاد والفتوحات وغير ذلك مما ذكرناه!.



(١) الفتنة، لهشام جعيط، ص٧٧.

الفصل التاسع

أمير المؤمنين عثمان في سجل الخلود

أولاً ـ موجز عن تاريخ استشهاد عثمان ودفنه، وعمره، ومدة خلافته:

١ ـ تاريخ استشهاده وغسله والصلاة عليه ودفنه:

استشــهد عثمان رضي الله عنه وأرضاه في المدينة المنورة، يوم الجمعة في (١٨/ ذي الحجة / ٣٥هـ الموافق ٦٥٦/٦/١٧م).

وتولى غســله جُبير بن مُطْعِم، والمِسْــوَر بن مَخْرَمَة، وحَكيم بن حِزام، وابنُه عَمْرو بن عثمان، وزوجتاه نائلة وأم البنين، وكفَّنوه وصلوا عليه، صلى عليه حكيم بن حزام، وقيل: الزبير بن العوام، بوصية عثمان.

وخرج به جماعة من الصحابة فيهم علي وطلحة والزبير، وزيد بن ثابت، وكعب بــن مالك، وحويطب بــن عبد العــزى، ونِيَار بن مُكْرَم الأَسْــلمي، وجُبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جَهْم بن حذيفة العَدوي، وخرجت زوجته نائلة بسراج، فقال لها جبير: أطفئي السِّــراج، لا يُـفْطَن بنا! فأطفأَتْه. وخرجت معهم زوجته الأخرى أم البنين.

وحملوه ســرّاً على باب، وإن رأســه لَيَقْرع الباب يقــول: (طق، طق)! لإســراعهم به؛ لِما بهم من الخــوف العظيم من أولئك الذيــن أرادوا رجمه ودفنه بمقبرة يهود!.

ودفنوه ليلاً للعجز عن إظهار دفنه، بسبب غلبة قاتليه، ودُفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في (حَشّ كَوْكَب)[1]، وكان الناس يتوقَّون أن يدفنوا موتاهم فيه، وكان عثمان رضي الله عنه يمرُّ بحَشِّ كوكب ويقول: (يُوشِك أن يَهْلِك رجلٌ صالح، فيُدفن هناك، فيأتسي الناس به)، فكان عثمان أولَ من دُفن فيه!.

ونزل في قبره نِيار بن مُكْرم وأبو جَهْم بن حذيفة وجبير بن مطعم، وكان حكيم بن حزام وزوجتا عثمان يُدَلّونه على الرجال، حتى لَحَدوا له، وبُني عليه، ثم تفرقوا.

وأخرجوا عَبْدَي عثمان اللَّذَين قُتلا معه في الدار، وهما صبيح ونجيح، فدُفنا إلى جانبه بِحَشّ كوكب.

وقد اعتنى معاوية رضي الله عنه في أيام خلافته بقبر عثمان؛ فهدم الجدار بينه وبين البقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حوله، حتى اتصلت بمقابر المسلمين.

٢ ـ عمره ومدة خلافته:

مات عثمان وعمره اثنتان وثمانون سنة، فقد ولد بعد حادثة الفيل بست سنوات ـ فهو أصغر من النبي ﷺ بستة أعوام ـ فيكون عمره يوم توفي رسول الله ﷺ سبعاً وخمسين سنة، وعاش بعده خمساً وعشرين سنة؛ فيكون عمره اثنين وثمانين عاماً.

وقد بويع بالخلافة يوم السبت غُرَّة المحرم سنة (٢٤هـ)، وقُتل في الثامن عشر من ذي الحجة سنة (٣٥هـ)؛ فتكون مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً[2].

---

(١) **الحَشّ**: البستان، وكَوْكب: رجل من الأنصار. وحَش كوكب: يقع شرقي البقيع، وقد اشتراه عثمان وزاده في البقيع.

(٢) انظر: تاريخ خليفة، ص١٧٦ ـ ١٧٧؛ طبقات ابن سعد: ٧٧/٣ ـ ٧٩؛ تاريخ الطبري: ٤١٢/٤ ـ ٤١٨؛ =

٣ ـ تركته:

كان لعثمان عند خازنه يوم قُتل ثلاثون مليون درهم وخمس مئة ألف درهم، ومئة وخمسون ألف دينار، انتُهبت كلها! وترك ألفَ بعير بالرَّبَذة، وترك صدقات كان تصدق بها، قيمة مئتي ألف درهم[1].



= مسند أحمد (٥٤٥)؛ التاريخ الأوسط: ١٤٨/١؛ المستدرك: ٩٦/٣؛ تهذيب الكمال: ٤٥٧/١٩ ـ ٤٥٨؛ البداية والنهاية: ١٩٠/٧ ـ ١٩١؛ كتابي «الخلفاء الراشدون»، ص٤٣٧ ـ ٤٤٠.

(١) طبقات ابن سعد: ٧٦/٣ ـ ٧٧؛ مختصر ابن عساكر: ٢٤٨/١٦.

الباب الثالث

الفتنة الثالثة
موقعة الجمل: مقدماتها ووقائعها ونتائجها

- قواعد وأصول وتوضيحات وتحقيقات.
- سـيرورةُ الأحداثِ من وقتِ بيعةِ عليٍّ إلـى بدايةِ الفتنةِ وموقعةِ الجمل.
- موقعةُ الجمَل: مقدِّماتُها ووقائعُها ونتائجُها.

الفصل الأول

قواعدُ وأصولٌ وتوضيحاتٌ وتحقيقاتٌ

أولاً ـ لا أحد ممَّن خالف عليّاً ينكر خلافته أو يدَّعي الخلافة لنفسه أو يسعى إليها:

•• الصحابة جميعاً وفي مقدمتهم مَن كان على خلاف مع أمير المؤمنين علي لا يقدحون في خلافته وولايته على المسلمين، ولا ينكرونها ولا ينازعونه فيها.

يقول إمام الحرمين الجُوَيني: إن معاوية وإنْ قاتل عليّاً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدَّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظنّاً منه أنه مصيبٌ، وكان مخطئاً[1].

ويقول ابن حزم: ولم ينكر معاوية قطُّ فضلَ علي واستحقاقه الخلافة، ولكنِ اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديمَ أخذ القوَد من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحقَّ بطلب دم عثمان[2].

ونقل ابن حجر عن ابن بطَّال في «شرح البخاري»: (أن أحداً لم ينقل

---

(١) لمع الأدلة في عقائد أهل السُّنَّة والجماعة، ص١١٥.

(٢) الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل: ٤/١٦٠.

أن عائشة ومن معها نازعوا عليّاً في الخلافة، ولا دَعَوا إلى أحدٍ منهم ليولُّوه الخلافة)[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالقتال الذي كان في زمن علي لم يكن على الإمامة، فإن أهل الجمل وصفِّين والنهروان لم يقاتِلوا على نصب إمامٍ غير علي، ولا كان معاوية يقول: أنا الإمام دون علي، ولا قال ذلك طلحة والزبير... وعليٌّ لم يقاتِل أحداً على إمامة مَن قاتله، ولا قاتله أحدٌ على إمامته نفسه، ولا ادَّعَى أحدٌ قط في زمن خلافته أنه أحق بالإمامة منه...). (وعليٌّ بايَعه كثيرٌ من المسلمين ـ وأكثرهم بالمدينة ـ على أنه أمير المؤمنين، ولم يبايع طلحةَ والزبيرَ أحدٌ على ذلك، ولا طلب أحدٌ منهما ذلك، ولا دعا إلى نفسه، فإنهما رضي الله عنهما كانا أفضَلَ وأجَلَّ قدراً من أن يفعلا ذلك)[٢].

بل إن معاوية رضي الله عنه صرَّح بذلك على الملأ، فقد جاءه أبو مسلم الخَوْلاني وناس معه فقالوا له: (أنت تنازع عليّاً في الخلافة؛ أَوَ أنت مثلُه؟ قال: لا، وإني لأعلمُ أنه أفضلُ منِّي وأحقُّ بالأمر، ولكن ألستُم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمِّه ووليُّه أطلبُ بدمِه؟!)[٣].

وفي هذا الباب زلَّتْ أقلام ووقعت في الخطايا والآثام؛ فاتهمت الصحابة الذين خالفوا عليّاً (من أصحاب الجمل وأهل الشام): بأنهم أعداؤه، وطامعون في الخلافة، ومتمردون، وتجمعٌ قرشي ضد الأنصار الذين تحزبوا لعليٍّ ونالوا في عهده مناصبَ في الدولة بعد أن حُرِموا منها في العهود

(١) الفتح: ٣٧١/١٦، شرح الحديث (٧٠٩٩).

(٢) منهاج السُّنَّة: ٧١٢/٣ ـ ٧١٣، باختصار، وانظر: ٧٥/٣، ١٥٢، ٧١٤ ـ ٧١٦؛ ومجموع الفتاوى: ٧٢/٣٥ ـ ٧٣.

(٣) الفتح: ٤١٦/١٦ شرح الحديث (٧١٢١) وقال الحافظ: سنده جيد؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ١٤٠/٣.

السابقة، وأنهم يفكرون بالخلافة قبل التفكير بمقتل عثمان ويخططون لانتزاعها من علي، وأن قرار الحرب ضده كان مقرراً منذ بداية الخلاف معه... إلى آخر هذه الاتهامات التي يبوء مفتريها بالخزي والإثم!.

ثانياً ـ خطورة مقتل عثمان، واختلاف الصحابة في وقت وطريقة القصاص من قتلته:

ترك مقتل الشهيد عثمان بن عفان خروقاً غائرة في جسم الخلافة، وقذف بمجموع الأمة في خِضمّ التنازع الذي ما عُوفيت منه إلا بعد رَدَح من الزمان، عندما تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية عام الجماعة سنة (٤١هـ).

ووقف المسلمون آنذاك من (مسألة القصاص من قتلة عثمان) مواقف متباينة، ولم يكن خلافهم في أصل المسألة فالجميع متفقون على وجوب القصاص، لكنهم اختلفوا في الطريقة التي تُعالَج بها هذه القضية الخطيرة، وفي توقيتها متى يكون؟.

فالخليفة علي يرى التمهلَ في إنفاذ القصاص، وإرجاءَ إقامة الحدِّ على القتلة حتى تستقر أمور الدولة، وتهدأ أوضاع الناس، وتضمحل قوة القتلة ومَن وراءهم، وتجتمع كلمة الأمة.

وفريق آخر رأى وجوبَ الإسراع بالقصاص وعدمَ تأخير إقامة حدود الله، ويمثل هؤلاء طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ومن معهم من (أهل الجمل)، ومعاوية في (أهل الشام).

وتمسَّك كل فريق برأيه، فخرج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، ورفض معاوية بيعة علي حتى يقيم حدّ القصاص، وأصرَّ علي على إدخال

الجميع في طاعته، وتطورت الأحداث إلى مواجهات دامية، وانقسم المسلمون حيال تلك الفتنة ثلاث فِرق.

يقول ابن تيمية: (إن الناس كانوا في زمن عليٍّ على ثلاثة أصناف: صنف قاتلوا معه، وصنف قاتلوه، وصنف لا قاتلوه ولا قاتلوا معه)(١).

وقال النَّووي: (وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة، اعتقدت تصويبَ أنفسها بسببها، وكلهم عدول رضي الله عنهم ومتأوِّلون في حروبهم وغيرها، ولم يُخرج شيء من ذلك أحداً منهم عن العدالة، لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد، كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها، ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم. واعلَمْ أن سببَ تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدَّة اشتباهها اختلف اجتهادهم، وصاروا ثلاثة أقسام...)(٢) فذكر مثل قول ابن تيمية لكن بأطول منه.

ثالثاً ـ اقتتالُ الصحابة لم يكن على الدنيا، وعذرُهم في اجتهادهم، ووجوبُ منع الطعن عليهم:

اقتتال المسلمين أمر منكر قد حذر الله تعالى ورسوله ﷺ منه، لكنه ليس مستحيلاً بل ممكن الوقوع، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

قال أبو بكر ابن العربي: هذه الآية أصلٌ في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوَّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملَّة(٣).

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٤٢/٣، وانظر: ١١٣/٣؛ والإصابة: ٥٠١/٢ـ٥٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٦٦/٨، صَدْر كتاب فضائل الصحابة.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٦٩/١٦.

عن الأحنف بن قيس قال: (ذهبتُ لأنصرَ هـذا الرجلَ، فلَقِيَني أبو بَكْرة فقـال: أين تريـدُ؟ قلتُ: أنصـرُ هـذا الرجلَ، قـال: ارجعْ، فإني سـمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار**» فقلت: يا رسـول الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قـال: «**إنه كان حريصاً على قتلِ صاحبه**»).

وفي رواية: قال الأحنـف: (أريدُ نُصْرَةَ ابنِ عَمِّ رسـول الله ﷺ)(١). يعني علي بن أبي طالب.

نقول: هذا الحديث ونظائره قد تأوَّله جمهور الصحابة والتابعين الذين قالوا بوجوب نصر الحق وقتال الباغي؛ بحملِ الوعيد المذكور في الحديث على مَن قاتل بغير تأويل سائغ، بل بمجرد عداوة دنيوية، أو عصبية، أو طلب استعلاء(٢).

قال النـووي: (واعلَمْ أن الدمـاء التي جرت بين الصحابة ﷺ ليسـت بداخلـة في هذا الوعيـد، ومذهب أهل السُّـنَّة والحق: إحسـانُ الظن بهم، والإمسـاك عما شـجر بينهم، وتأويل قتالهم، وأنهم مجتهدون متأوِّلون لم يقصدوا معصيـة ولا محض الدنيا، بل اعتقد كل فريـق أنه المحق ومخالفه باغٍ، فوجَبَ عليه قتالُـه ليرجع إلى أمر الله، وكان بعضهـم مصيباً وبعضهم مخطئاً معذوراً في الخطأ، لأنه باجتهاد، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه)(٣).

وحديث: «**إذا التقى المسلمان بسـيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» وما في معناه، هو حجة مَن ترك القتال في الفتنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١) وأطرافه؛ ومسلم (٢٨٨٨)؛ وأبو داود (٤٢٦٨)، وغيرهم.

(٢) انظر: شـرح صحيح مسـلم، للنـووي: ٢٣٩/٩؛ الفتـح: ١٨٠/١ـ١٨١ (٣١)، ٣٣٥/١٦ـ٣٣٦ (٧٠٨٣).

(٣) شـرح صحيح مسـلم: ٢٣٩/٩؛ تكملة فتـح الملهـم: ١٤١/٦. وانظـر: تفسـير القرطبي: ٢٦٨/١٦ـ٢٧٣؛ منهاج السُّنَّة: ١١٤/٣، ١١٦ ـ ١١٧، ١١٩.

قال الحافظ: (واحتــجَّ به من لم يرَ القتال في الفتنـــة، وهم كل مَنْ ترك القتال مع علي في حروبه، كسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن عُمر ومحمد بن مَسْــلَمة وأبي بَكْرة وغيرهم، وقالوا: يجب الكَفُّ، حتى لو أراد أحدٌ قَتْلَه لم يدفَعْه عن نفســه. ومنهم من قال: لا يدخل في الفتنة، فإن أراد أحدٌ قتْلَه دَفَع عن نفســه. وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نَصْر الحق وقتالِ الباغين، وحَمَل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضَعُف عن القتال، أو قَصر نظرُه عن معرفة صاحب الحق.

واتفق أهلُ السُّـــنَّة على وجوب مَنْعِ الطعنِ على أحدٍ من الصحابة بسبب ما وقــع لهم من ذلك ولــو عُرف المُحِقّ منهــم، لأنهم لــم يقاتِلوا في تلك الحروب إلا عـــن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عـــن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يُؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجَر أجرين، وحَمَل هؤلاء الوعيدَ المذكور في الحديــث على مَن قاتل بغير تأويل ســائغ بــل بمجرد طلب المُلك. ولا يرد علــى ذلك منْعُ أبي بَكْرة الأحنفَ مــن القتال مع علي، لأن ذلك وقع عن اجتهاد مـــن أبي بَكْرة أداه إلى الامتناع والمَنْع احتياطاً لنفســه ولمن نصحه.

قال الطبري: لو كان الواجبُ في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهربَ منه بلزوم المنازل وكَسْر السيوف؛ لَمَا أُقيم حَدٌّ، ولا أُبْطِل باطلٌ، ولوَجَد أهلُ الفسوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وسَفْك الدماء وسَبْي الحريم، بأن يحاربوهم، ويكُفَّ المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا: هذه فتنة، وقد نُهينا عن القتال فيها! وهذا مخالفٌ للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء.

وقد أخرج البزار في حديث «**القاتل والمقتول في النار**» زيادةً تبين المرادَ وهي: «**إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتــول في النار**». ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ: «**لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم**

قَتَل ولا المقتولُ فيم قُتِل» فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: «**الهَرْجُ، القاتل والمقتول في النار**».

قال القرطبي: فبيَّن هذا الحديث أن القتال إذا كان على جهل من طلب الدنيا أو اتباع هوى؛ فهو الذي أُريد بقوله: «**القاتل والمقتول في النار**».

قلت(١): من ثَمَّ كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفِّين أقلَّ عدداً من الذين قاتلوا، وكلهم متأوِّلٌ مأجورٌ إن شاء الله، بخلاف من جاء بعدهم ممن قاتل على طلب الدنيا)(٢).

وذكر النووي مثلَه، وأن معظمَ الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام على أنه يجب نصر المُحِقِّ في الفتن، وقال: (وهذا هو الصحيح)(٣).

١ ـ القتال قتال فتنة، وكان باجتهاد، وتركه أولى(٤):

•• قتال أمير المؤمنين علي لأصحاب الجمل وأهل الشام لم يكن فيه وصية ولا عهد نبوي ولا أمر به، بل هو باجتهادٍ من علي، وقد ثبت ذلك عنه وقاله لتلاميذه في دار إمارته.

عن قيس بن عُبَاد قال: (قلتُ لعليٍّ: أرأيتَ مسيرَك هذا، عهدٌ عَهِده إليك رسول الله ﷺ أم رأيٌ رأيتَه؟ قال: ما تريدُ إلى هذا؟ قلتُ: دِينَنا، دِينَنا! قال: ما عَهِدَ إليَّ رسول الله ﷺ فيه شيئاً، ولكن رأي رأيتُه)(٥).

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر.
(٢) الفتح: ٣٣٦/١٦، شرح الحديث (٧٠٨٣).
(٣) شرح صحيح مسلم: ٢٣٧/٩ (٢٨٨٧).
(٤) انظر: منهاج السُّنَّة: ٩٦/٤.
(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٦٦)؛ وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند (١٢٧١)، وصحَّحه أحمد شاكر وشعيب الأرنؤوط.

وجاء مثله عن قيس بن عُبَاد عن عمار بن ياسر(١).

ووصفه عليٌّ نفسُه بأنه قتالُ فتنة، وكان يستغفر الله منه، فعن عبد خير وغيره قال: قال علي لمَّا فرَغ من أهل البصرة: (إنَّ خيرَ هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر، وبعد أبي بكر عمر، وأحدَثْنا أحداثاً يصنع الله فيها ما شاء).

وفي رواية: (ثم خَبطَتْنا ـ أو: أصابتْنا ـ فتنةٌ، يعفو الله عمن يشاء)(٢).

●● وجاء مثلُ ذلك من الفريق الآخر المخالف لأمير المؤمنين علي في الاجتهاد، فعن مطرِّف بن عبد الله قال: (قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟! ضيَّعْتُم الخليفةَ حتى قُتل، ثم جئتم تطلبون بدمِه! قال الزبير: إنَّا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ثم لم نكن نَحْسِب أنَّا أهلُها، حتى وقعَتْ منَّا حيثُ وقعَتْ!)(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والقتال يوم الجمل وصفِّين فيه نزاع: هل هو من باب قتال البُغاة المأمور به في القرآن، أو هو قتال فتنة القاعدُ فيه خير من القائم؟ فالقاعدون من الصحابة وجمهورُ أهل الحديث والسُّنَّة وأئمةُ الفقهاء بعدهم يقولون: هو قتال فتنة، ليس هو قتال البغاة المأمور به في القرآن، فإن الله لم يأمر بقتال المؤمنين البغاة ابتداءً لمجرد بَغْيِهم، بل إنما أمر إذا اقتتل المؤمنون بالإصلاح بينهم)(٤).

وقال أيضاً: (والنصوص الثابتة عن النبي ﷺ تقتضي أن تَرْكَ القتال كان خيراً للطائفتين، وأن القعود عن القتال كان خيراً من القيام فيه، وأن عليّاً مع

(١) انظر: صحيح مسلم (٢٧٧٩).

(٢) مسند أحمد (٨٩٥، ١٠٣١)، وكرره في مواضع، وصحَّحها أحمد شاكر وشعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه أحمد (١٤١٤، ١٤٣٨)؛ والنسائي في الكبرى (١١١٤٢)، وصحَّحه أحمد شاكر، وقال شعيب: إسناده جيد.

(٤) منهاج السُّنَّة: ١٤٥/٣.

كونه أَوْلَـى بالحق من معاوية وأقـربَ إلى الحق منه؛ لو تَـرَكَ القتال لكان أفضل وأصلح وخيراً)(١).

وقـال في موضع آخر: (إن عليّـاً مع كونه كان خليفـة وهو أقرب إلى الحق من معاوية، فـكان ترك القتـال أَوْلى، وينبغي الإمسـاك عن القتال لهؤلاء، فإن النبي ﷺ قال: «**ستكون فتنة القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الساعي**». وقد ثبت عنه ﷺ: أنه قال عن الحسن: «**إن ابني هذا سـيد، وسـيُصلِح الله به بين فئتين عظيمتين من المسـلمين**». فأثنى على الحسن بالإصلاح، ولو كان القتال واجباً أو مستحبّاً لَمَا مَدَح تاركه... ولهذا لم يحصل بالقتال مصلحة، والأمر الذي يأمر الله به لا بدّ أن تكون مصلحتُه راجحة على مفسدته)(٢).

٢ ـ الفئتـان المقتتلتان مسـلمتان، والصحابة مغفور لهـم في اقتتالهم، وأهل السُّنَّة يترضون عن الصحابة في الطرفين:

الصحابة الذين قاتلوا عليّاً: إما أن يكونوا عصاة، أو مجتهدين مخطئين، أو مصيبين، وعلـى كل تقدير فهذا لا يقدح في إيمانهـم ولا يَمنعهم الجنة؛ فإن الله تعالـى قال: ﴿ **وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠].

فسمَّاهم إخوة ووَصَفَهم بأنهم مؤمنون، مع وجود الاقتتال بينهم، والبغي من بعضهم على بعض.

---

(١) منهاج السُّنَّة:: ٧٩/٣، وانظر: ٩١/٣ـ٩٣، ٥٤٦ـ٥٤٧، ٥٨٥.

(٢) منهاج السُّنَّة: ٣٣٤/١ـ٣٣٥. وانظر: ١٢٢/٣.

فمن قاتل عليّاً: فإنْ كان باغياً فليس ذلك بمخرجه من الإيمان، ولا بموجبٍ له النيران، ولا مانعٍ له من الجنان، فإن البغي إذا كان بتأويل كان صاحبه مجتهداً.

ولهذا اتفق أهل السُّنَّة على أنه لا تُفسَّق واحدة من الطائفتين، وإن قالوا في إحداهما: إنهم كانوا بُغاة، لأنهم كانوا متأولين مجتهدين، والمجتهد المخطئ لا يَكْفُر ولا يفسق، وإنْ تعمَّد البغيَ فهو ذنبٌ من الذنوب، والذنوب يُرفع عقابها بأسباب متعددة كالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة، وشفاعة النبي ﷺ، ودعاء المؤمنين، وغير ذلك[١].

وأهل السُّنَّة يترحمون على الجميع ويستغفرون لهم، كما أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][٢].

٣ ـ من هو المصيب في هذا القتال؟:

قال ابن تيمية: (جماهير أهل السُّنَّة متفقون على أن عليّاً أفضلُ من طلحة والزبير، فضلاً عن معاوية وغيره، ويقولون: إن المسلمين لمَّا افترقوا في خلافته فطائفةٌ قاتلَتْه وطائفة قاتلت معه، كان هو وأصحابه أَوْلَى الطائفتين بالحق، كما ثبت في «الصحيحين»: عن النبي ﷺ أنه قال: «**تمرُق مارِقةٌ على حين فُرقة من المسلمين، يَقتلُهم أَوْلَى الطائفتين بالحق**» فهؤلاء هم الخوارج المارقون الذين مَرَقوا فقَتلَهم عليٌّ وأصحابه، فعُلِم أنهم كانوا أَوْلى بالحق

(١) منهاج السُّنَّة: ٣/٨٢.

(٢) انظر: الإمامة، لأبي نعيم، ص٣٧٣؛ الاستيعاب: ٣/٥٥؛ منهاج السُّنَّة: ٣/٧٩، ١٠١؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٧.

من معاوية رضي الله عنه وأصحابه. لكن أهل السُّنَّة يتكلمون بعلم وعدل، ويعطون كل ذي حق حقه)(١).

وفي رواية لحديث الخوارج: «**يَقتُلُهم أقربُ الطائفتين إلى الحق**».

قال ابن تيمية: (وفي الحديث دليل على أنه مع كل طائفة حق، وأن عليّاً رضي الله عنه أقربُ إلى الحق)(٢).

فهناك قريب من الحق وأقرب إليه، وقد أثبت الحديث قرب أهل الشام من الحق(٣).

رابعاً ـ شرف الخلاف والقتال بين الرجال الذين تربّوا على هدي النبوة:

١ ـ حقائق عامة:

•• إننا نعني فيما نكتبه هنا وقبله وبعده: الصحابة، والصالحين ممن سار على هديهم، وننفي ذلك عن الخبث الذي اندسّ في صفوف الفريقين من قتلة عثمان وأتباعهم وأنصارهم؛ أولئك الذين كلما رأوا أمارات الإصلاح قدحوا زناد الفتنة وأشعلوا نار القتال، وكانوا مساعِر الشر والفساد والإفساد على الدوام.

•• معادن الناس تظهر على حقيقتها عند الابتلاء والاختبار، فخيارُهم خيارُهم في الرخاء والشدة، وشرارُهم شرارُهم في السرّاء والضرّاء! وسنوات المحن والابتلاء التي عاشها الصحابة رضي الله عنهم طيلة عصر الرسالة كانت كافية

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٦١/٣، وانظر: ٧٥/٣، ٩٦/٤ـ٩٧؛ مجموع الفتاوى: ٥١/٣٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ٤٠٧/٣.
(٣) كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ١٠٦/٢، وانظر: ٩٦/٢.

لتمحيص ما في قلوبهم وأنفسهم، حتى إذا أَسلَمَتْهم الأقدار إلى (فتنة الاقتتال)؛ برز معدنُهم الأصيل الذي لا تزلزله المحن العاتية!.

•• ولقد حفظ التاريخ الصادق لأصحاب نبينا ﷺ أشرفَ الأخلاق وأنبلَ المروءات وأكرم المعاملات في ميادين القتال والجهاد مع الأعداء! وقد ذكرنا أمثلة ذلك من هدي أمير المؤمنين علي وهو يتعفف عن استلاب درع أحد المشركين عندما استقبله بعورته، فتركه وعَطفَتْه عليه الرحم! فمن باب أَوْلى أن يبقى الصحابة على مثل هذه السيرة في (قتال الفتنة) فيما بينهم، وفي قتالٍ اجتهاديٍّ لا نص فيه ولا ملزِم له بل تركُه أولى.

•• وهذا ما تحقق فعلُه منهم، ووجودُه في روايات التاريخ السليمة المستقيمة، حيث هيمنت أخلاق نبلاء الرجال على وقائع القتال بين المتحاربين من الصحابة في الفريقين جميعاً. وجاءت عنهم روايات وأقوال ومواقف تؤكد ديمومةَ منهجهم وثباتَ مسيرتهم على ما تربوا عليه في أقسى الظروف وأفدح الابتلاءات. واستمرت بينهم وشائج الأخوة ولم تضعفها الفتن والقتال الذي أُلجِئوا إليه ولم يقصدوه ولا تمنوه.

•• ولم تكن بين الجيشين أحقاد، بل كل طرف ينافح عما يعتقده حقّاً، فلا غرابة إذا قال شاهد عيان هو أبو عبدالرحمن السُّلَمي: (شهدنا صفّين مع علي... فكنَّا إذا توادَعْنا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء)[1].

وبعد الفراغ من وقعة الجمل بايع الناسُ أميرَ المؤمنين، ومنهم موسى بن طلحة بن عبيد الله ومروان بن الحَكَم والأسرى وأهل الجمل.

يروي سوَّار الكِنْدي، عن موسى بن طلحة قال: (انطلقتُ فدخلت على أمير المؤمنين فسلَّمتُ، فقال: أتبايعُ، تدخلُ فيما دخل فيه الناس؟ قلت: نعم،

---

(١) مجمع الزوائد: ٧/٢٤٠ـ٢٤١؛ البداية والنهاية: ٧/٢٧٠، ورجاله ثقات.

قال هكذا؛ ومدَّ يده فبَسَطها، قال: فبايعتُه. ثم قال: ارجِعْ إلى أهلك ومالِك. قال: فلما رآني الناس قد خرجت، جعلوا يدخلون فيبايعون)[١].

وكذلك دخل مروان بن الحكم على أمير المؤمنين علي وبايعه[٢].

وعن زين العابدين علي بن الحسين بن علي قال: (دخلتُ على مروان بن الحكَم فقال: ما رأيتُ أحداً أكرمَ غلبةً من أبيك ـ يعني عليّاً ـ ما هو إلا أن وَلَّينا يومَ الجمل، فنادى مناديه: لا يُقتلُ مُدْبِر، ولا يُذَفَّفُ على جريح)[٣].

٢ ـ من مواقف علي وكلماته:

•• عن عبد خير قال: (سُئل عليٌّ عن أهل الجمل، فقال: إخوانُنا بَغَوا علينا فقاتلناهم، وقد فاؤوا وقد قَبِلنا منهم)[٤].

وروى الطبري مطوَّلاً عن علي: أنه قال مخاطباً أهل الكوفة: (وقد دعوتُكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة، فإنْ يرجِعوا فذاك ما نريد، وإن يَلجُّوا داويناهم بالرفق)[٥].

وروى الزهري، عن عبد الله بن صفوان قال: (قال رجل يوم صفِّين: اللَّهمَّ العَنْ أهلَ الشام! فقال علي: لا تسبَّ أهلَ الشام جَمّاً غَفيراً؛ فإن بها الأبدالَ، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال)[٦].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٦/٨.
(٢) سنن سعيد بن منصور: ٣٣٧/٢، بسند حسن.
(٣) سنن البيهقي: ١٨١/٨؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٣٧٣/١٦ (٧١٠٠).
(٤) سنن البيهقي: ١٨٢/٨؛ وبنحوه عند ابن أبي شيبة: ٧٠٧/٨.
(٥) تاريخ الطبري: ٤٨٧/٤، وتعتضد مع ما سبقها إلى درجة الحسن.
(٦) أخرجه عبدالرزاق (٢٠٤٥٥)، وسنده صحيح؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٩.

بل في «نهج البلاغة» أن عليّاً نهى قوماً سمعهم يَسبُّون أهلَ الشام فقال: (إني أكرَهُ لكم أن تكونوا سبَّابِين)، وأَمرَهُم أن يقولوا: (اللَّهمَّ احْقِنْ دماءَنا ودماءَهم، وأصلِحْ ذات بيننا وبينهم)(١).

●● وقد حزِن أعمقَ الحزن على استشهاد أخويه طلحة والزبير، وعبَّر عن ذلك بمواقف متنوعة، فعن زِرّ بن حُبَيْش قال: (استأذَنَ ابن جُرموز على عليٍّ وأنا عنده فقال عليٌّ: بَشِّرْ قاتلَ ابن صفية بالنار. ثم قال علي: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل نبيٍّ حوارِيّاً، وحواريّ الزبير**»)(٢).

وزار عمران بن طلحة عليّاً، فرحَّب به وقال: (إني لأرجو أن يجعلَني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧])(٣).

●● وعن يزيد الأَصمّ قال: (سُئل علي عن قتلى يوم صفِّين، فقال: قتلانا وقتلاهم في الجنة، ويصير الأمر إليَّ وإلى معاوية)(٤).

ويقول الصحابي سالم بن عبيد الأشجعي: (رأيتُ عليّاً بعد صفِّين، وهو آخذٌ بيدي، ونحن نمشي في القتلى، فجعل علي يستغفرُ لهم حتى بَلَغ أهلَ الشام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إنا في أصحاب معاوية! فقال عليٌّ: إنما الحسابُ علَيَّ وعلى معاوية)(٥).

٣ ـ أقوال ومواقف أكابر الصحابة الذين خالفوا عليّاً:

ـ قالت أم المؤمنين عائشة: (ننهض في الإصلاح ممن أمرَ الله ﷻ وأمر رسولُ الله ﷺ: الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/٦، وقد انحرف ابن أبي الحديد في تفسيره!.
(٢) أخرجه أحمد (٦٨١)؛ والحاكم: ٣٦٧/٣ وصحَّحه، ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه ابن سعد: ٢٢٤/٣؛ والحاكم: ٣٧٦/٣ـ٣٧٧ وصحَّحه، ووافقه الذهبي.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٩/٧؛ سنن سعيد بن منصور: ٣٤٤/٢ـ٣٤٥، وسنده حسن.
(٥) عصر الخلافة الراشدة، ص٤٧٢. وانظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٥/٨.

إلى معروف نأمرُكم به ونحضُّكــم عليه، ومنكَرٍ ننهاكــم عنه ونحثُّكم علـى تغييره)[١].

وكانت تترحم على قتلى الطرفين ـ يوم الجمل ـ إذا ذُكروا، وقد ترحَّمتْ على طلحــة والزبير وزيد بن صُوحان ـ وهذا كان مــع عليٍّ ـ فقال خالد بن الواشــمة[٢]: يرحمــك الله، تترحمين عليهم وقــد قتل بعضُهــم بعضاً؟ والله لا يَجمعُهــم الله في الجنة أبداً! قالَت: أَوَ لا تدري أن رحمة الله واســعة وهو على كل شيء قديرٍ؟! فقال خالد: فكانت أفضَلَ مني[٣].

ـ وقبل وقعة الجمل أرســل أميرُ المؤمنين علي عبــدَ الله بن عباس إلى طلحة والزبير يسألهما: هل أحدث عليٌّ ما يوجِب السخطَ على خلافته، قال ابن عباس: (فقلتُ لهما: إن أخاكما يُقرئكما السلام ويقول لكما: هل وجدتُما علَيَّ حَيْفاً في حُكْم أو استئثاراً بفَيءٍ، أو بكذا أو بكذا؟ فقال الزبير: ولا في واحد منها)[٤].

ـ ومعاوية وهو في انشــغاله بوقعة صفِّين، بَلَغه أن ملك الروم طمع فيه وجاء بجنود عظيمة، فأرسل معاويةُ إليه يهدِّده قائلاً: والله لئن لم تنتهِ وترجِع إلى بلادك يا لعيــن، لأَصطلحنَّ أنا وابنُ عمي عليك، ولأخرجنَّكَ من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليــك الأرضَ بما رَحُبت! فعند ذلــك خاف ملك الروم وانكَفَّ، وبعث يطلب الهدنة[٥]!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٢؛ وانظر: منهاج السُّنَّة: ٣/٣٦.
(٢) تابعي يروي عن عائشة.
(٣) سنن البيهقي: ٨/١٧٤، وسنده حسن؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٩.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٧١٢؛ فضائل الصحابة، لأحمد: ٢/٥٩٦، بسند حسن.
(٥) البداية والنهاية: ٨/١١٩.

٤ ـ صحابة أجلاء آخرون ومواقفهم في الفتنة والقتال:

ـ كان أبو موسى الأشعري وأبو مسعود البدري يريان الكف عن القتال في الفتنة، وقد اعتزلا الفريقين، وكان عمار بن ياسر مع علي في حروبه، وعندما بعثه علي يستنفر أهلَ الكوفة لِلَّحاق به في البصرة، كانت هذه الواقعة:

يقول أبو وائل شَقيق بن سَلَمة: (دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمار حيثُ بعثه عليٌّ إلى أهل الكوفة يستنفرُهم، فقالا: ما رأيناك أتيتَ أمراً أكرَهَ عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذُ أسلمتَ! فقال عمار: ما رأيتُ منكما منذ أسلمتما أمراً أكرَهَ عندي من إبطائكما عن هذا الأمر!). (فقال أبومسعود ـ وكان موسراً ـ: يا غلام، هاتِ حُلَّتَيْن، فأعطَى إحداهما أبا موسى والأخرى عماراً، وقال: روحا فيه إلى الجمعة)[1].

فانظر إلى هَدْي هؤلاء الصحابة الأجلَّاء وأخلاقِهم الرفيعة ونُبلِهم وصفاءِ قلوبهم ومحضِ نصحهم وإخلاصهم، مع اختلافهم في (قضية خطيرة جدّاً) وتقاولِهم فيها، يقوم أحدهم بكسوة الآخرَيْن حُلتين جديدتين، ثم يدخلون جميعاً المسجد ويشهدون الجمعة!.

ـ وعمار بن ياسر كان صادقَ اللهجة، وكان لا تستخفُّه الخصومة إلى أن يَنتقص خصمه، فإنه شهِدَ لأم المؤمنين عائشة بالفضل التام مع ما بينهما من الحرب[2]. فعندما ذهب إلى الكوفة ليستنفرَ الناسَ، صعِد المنبر وقال: (إن عائشة قد سارت إلى البصرة، والله إنها لزوجةُ نبيِّكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلمَ إياه تطيعون أم هي). وفي رواية ابن أبي شيبة: (إن أُمَّنا سارت مسيرها هذا)[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٠٢ـ٧١٠٧).

(٢) الفتح: ٣٧٥/١٦ (٧١٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٠٠)؛ والترمذي (٤٢٢٧)؛ وابن أبي شيبة: ٧١٠/٨.

وعن عَمْرو بن غالب: (أن رجلاً نالَ من عائشة عند عمار بن ياسر، فقال: اغْرُبْ مَقْبوحاً مَنْبوحاً، أَتؤذِي حبيبةَ رسول الله ﷺ؟!)(١).

ـ ولمَّا عَلِم أمير المؤمنين عليٌّ أن رجلين نالا من أم المؤمنين عائشة بعد وقعة الجمل، فقال أحدُهما: (جُزِيتِ عنَّا أُمَّنا عُقوقاً)، وقال الآخر: (يا أُمَّنا توبي فقد خَطِيتِ!) بعث عليٌّ القعقاعَ بن عَمْرو فجاء بهما، فقال علي: أضربُ أعناقهما؟! ثم قال: لأُنهِكَنَّهما عقوبةً، فضربَهما مئةً مئةً، وأخرجَهما من ثيابهما(٢)!.

فانظر إلى مواقف أولئك السادة النبلاء وأخلاقهم في الفتن الحالكة، وقِفْ طويلاً عند موقف علي من ذَيْنك الرجُلَيْن اللذين قالا ما قالا في زوجة نبينا ﷺ، ثم ارجع النظر في ما يجترحه الرافضة قديماً وحديثاً من اتهام السيدة الجليلة المبرأة بالفاحشة، فماذا يكون موقف أمير المؤمنين علي ممن يدَّعون كذباً أنهم من أتباعه والمنتسبين إليه؟!.

خامساً ـ أعداد الصحابة الذين شاركوا في (قتال الفتنة):

●● عن عامر الشعبي قال: (بالله الذي لا إلٰه إلا هو ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة بدريين ما لهم سابع، أو سبعة ما لهم ثامن)(٣).

وعن الشعبي قال: (لم يشهد الجملَ من أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار إلا علي وعمار وطلحة والزبير، فإن جاؤوا بخامس فأنا كذاب!)(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٢٢٦)؛ والحاكم: ٣٩٣/٣، وصححاه، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

(٢) تاريخ الطبري: ٥٤٠/٤؛ البداية والنهاية: ٢٤٦/٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٤٧/٤.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٠/٨؛ وبنحوه في تاريخ خليفة، ص١٨٦؛ وتاريخ المدينة، لابن شبة: ٢٨١/١؛ ونقله ابن تيمية في منهاج السُّنَّة: ٦٥٨/٣.

وعن محمد بن سيرين قال: (هاجت الفتنة وأصحابُ رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما خَفَّ فيها منهم مئة بل لم يبلغوا ثلاثين)[١].

قلتُ: إسناده إلى ابن سيرين صحيح، لكنه مرسَل؛ فابنُ سيرين عندما هاجت الفتنة كان ابنَ أربع سنين!.

وأما قول الشعبي بأنه لم يشهد الفتنة إلا سبعة أو ثمانية من المهاجرين والأنصار؛ فهو مبالغةٌ شديدة غير مقبولة تخالِف الواقعَ المشهودَ كما سيأتي عند تفصيل القول في تلك الحروب، وقد انتقد الذهبي ذلك فقال: (وكان الشعبي يبالغ ويقول...) فذكر قوله[٢].

●● وقد عارض هذين الخبرين ما هو أقوى منهما وأكثر وأصح:

ـ عن سعيد بن جُبير قال: (كان مع عليٍّ يوم الجمل ثمانُ مئة من الأنصار وأربعُ مئة ممن شهد بيعة الرضوان)[٣].

وهو مرسَل سنده صحيح.

ـ وروى المطلب بن زياد، عن السُّدِّي قال: (شهِد مع عليٍّ يوم الجمل مئةٌ وثلاثون بدريّاً، وسبعُ مئة من أصحاب النبي ﷺ)[٤].

وهذا مرسَل أيضاً يعتضد مع سابقه، ويقوِّيهما الخبرُ المتصل الصحيح التالي:

ـ عن عبدالرحمن بن أَبْزَى قال: (شهِدْنا مع عليٍّ ثمانُ مئة ممن بايع بيعةَ الرضوان، قُتل منا ثلاثة وستون منهم عمار بن ياسر)[٥].

---

(١) علل أحمد برواية عبدالله (٤٧٨٧)؛ منهاج السُّنَّة: ٦٥٨/٣؛ البداية والنهاية: ٢٥٣/٧.

(٢) تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء الراشدين»، ص ٤٨٤.

(٣) تاريخ خليفة، ص١٨٤؛ تاريخ الإسلام، «عهد الخلفاء الراشدين» ص٤٨٤.

(٤) تاريخ الإسلام، الموضع نفسه.

(٥) تاريخ خليفة، ص١٩٦؛ تاريخ الإسلام، ص٥٤٥.

وسنده صحيح، وعبد الرحمن صحابي شهد الوقعة، فكلامه فصلٌ في المسألة.

وقد ذكر خليفة بن خياط والذهبي وغيرهما جمهرةً من مشاهير الصحابة الذين شهدوا وقعة صفين مع علي ومعاوية، رضي الله عنهم جميعاً[١].

ـ وقدَّمنا كلامَ الإمام الطبري في المسألة وقتال الفتنة، وما قرره الإمام النووي من أن معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام على أنه يجب نصر المُحِق في الفتن. وأيَّده الحافظ فقال: (ومن ثَمَّ كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفِّين أقلَّ عدداً من الذين قاتلوا)[٢].

ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا، لا من هذا الجانب ولا من هذا الجانب). وقال في موضع آخر: (وأكثر السابقين الأولين اعتزلوا القتال)[٣].

●● وقد فهم بعض المعاصرين[٤] كلامَ ابن تيمية على غير وجهه، فظنَّ أنه يرى أن (أكثر الصحابة) لم يشتركوا في القتال، وفرق كبير بين قول ابن تيمية: (أكثر أكابر الصحابة) و(أكثر السابقين الأولين)، وبين قول غيره: (أكثر الصحابة).

وحاول هذا البعض أن يردَّ على النووي وابن حجر قولَهما، واحتجَّ بمرسَل ابن سيرين، ولم يذكر أو لم يقف على خبر الصحابي ابن أبزى وقد شهد الوقعة، وهو نصٌّ في محل النزاع.

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٤ـ١٩٦؛ تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء الراشدين»، ص٥٤٤ـ٥٤٧.

(٢) تقدم الخبر: ص٢٨٩.

(٣) مجموع الفتاوى: ٥٥/٣٥؛ منهاج السُّنَّة: ٣٣٦/١، ٤٢/٣.

(٤) انظر: أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص١٤٧، ١٨٣؛ الإنصاف، لحامد الخليفة، ص٣٤٢ـ٣٤٤.

ومن عجب أن الدكتور حامد الخليفة يقول عن رواة (مرسل سعيد بن جبير): إن ميولهم عدائية للصحابة[١]! وليته نظر في إسناد الخبر في «تاريخ خليفة»، إذاً لوجد ما يُبطِل كلامه، ورجال السندِ هُم: أبو غسان النَّهْدي: ثقة ثبت، ويعقوب القُمي: صدوق، وجعفر بن أبي المغيرة: ثقة. ثم ماذا يقول الدكتور الفاضل في خبر ابن أبزى؟!.

سادساً ـ ندم رؤوس الصحابة على القتال في الجمل وصفين:

عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعلي ﵃، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في الاقتتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم[٢].

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أدرك الطرفان مدى الفاجعة والخسارة الفادحة، وحلَّتْ مراجعةُ النفس محلَّ الغضب، وفتَّت الندم قلوبَهم، بل إن الألم والندم تملكا القادة خلال القتال[٣].

●● عن أبي صالح: أن عليّاً قال يوم الجمل حين أخذتِ السيوف مأخذَها من الرجال: (لوَدِدْتُ أنّي مِتُّ قبل هذا بعشرين سنة)[٤].

وعن الحسن بن علي قال: (لقد رأيتُ عليّاً حين اشتدَّ القتال، وهو يَلُوذُ بي ويقول: يا حسنُ! لوَدِدْتُ أنِّي مِتُّ قبل هذا بعشرين سنة!)[٥].

---

(١) كتابه: الإنصاف، ص٣٤٣ـ٣٤٤.

(٢) منهاج السُّنَّة: ٣٦/٣، وانظر: ٣/ ٢٩٣.

(٣) انظر: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٧ـ٤٥٨.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٩/٨؛ الفتن، لنعيم بن حماد (١٦٩)، وسنده صحيح.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢١/٨؛ الفتن، لنعيم بن حماد (١٧٦)، وسنده صحيح. وانظر كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٨٩/٢ـ٩٠؛ والمطالب العالية: ٣٢/٤.

وإنما يَلوذ عليٌّ بابنهِ الحسن ليبثَّ إليه آلامَه وأحزانَه ونَدمَه، أما الشجاعة فعليٌّ ليث الوغى!.

•• عن محمد بن قيس قال: (ذُكر لعائشة يومُ الجمل، قالت: والناس يقولون: يوم الجمل؟! قالوا: نعم، قالت: وَدِدْتُ أني كنتُ جلستُ كما جلس أصحابي، فكان أحبَّ إليَّ من أن أكون وَلدتُ من رسول الله ﷺ بضعةَ عشر كلهم مثل عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ومثل عبدالله بن الزبير!)(١).

وقالت عائشة: (وَدِدتُ أني كنتُ غصناً رطباً ولم أَسِرْ مسيري هذا)(٢).

•• يقول عَلْقمة بن وقَّاص اللَّيثي ـ وهو شاهد عيان ـ: (رأيتُ طلحة بن عبيد الله وأحبُّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضاربٌ بلحيتِه على زَوْره، فقلتُ له: يا أبا محمد، إني أراكَ وأحبُّ المجالس إليك أخلاها، وأنت ضاربٌ بلحيتِك على زَوْرِك، إنْ كنتَ تكره هذا الأمرَ فدَعْه، فليس يُكرِهُك عليه أحد! قال: يا علقمة بن وقّاص، لا تَلُمْني، كنَّا أمس يداً واحدة على مَن سوانا، فأصبحنا اليوم جبلَيْن من حديدٍ يزحفُ أحدُنا إلى صاحبِه!)(٣).

وتقدم قول الزبير أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، ويقول: (لم نكن نَحْسِب أنَّا أهلُها، حتى وقعتْ منا حيثُ وقعَتْ!)(٤).



(١) مجمع الزوائد: ٧/٢٣٨؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٦/٣٧٠، وفيه ضعف؛ وأخرجه بأخصر منه من طريق آخر: ابن أبي شيبة: ٨/٧١٦ـ٧١٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٧١٨، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم: ٣/١١٨، ٣٧٢، وقال الذهبي: سنده جيد.

(٤) تقدم: ص٢٩٠ في هذا الكتاب.

الفصل الثاني

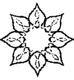
سَيرورةُ الأحداثِ من وقتِ بيعةِ عليٍّ إلى بدايةِ الفتنةِ وموقعةِ الجَمَل

أولاً ـ توصيف واقع المسلمين غداة بيعة علي، والموقف من قتلة عثمان:

•• لما استقر أمرُ بيعة علي خليفةً للمسلمين، دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة، فقالوا: (يا عليّ، إنا قد اشترطنا إقامةَ الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلُّوا بأنفسهم. فقال لهم: يا إخوتاه، إني لستُ أجهلُ ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يَمْلِكوننا ولا نملكهم؟! هاهُمْ هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانُكم، وثابَتْ إليهم أعرابُكم، وهم خِلالَكم يَسُومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لِقُدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله. إن هذا الأمر أمرُ جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادةً؛ وذلك أن الشيطان لم يشرَع شريعة قط فيبرح الأرضَ من أخذ بها أبداً. إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور: فِرْقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفِرْقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعَها وتُؤخَذ الحقوق. فاهدؤوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا)(١).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٣٧؛ المنتظم: ٥/٧٠؛ شرح نهج البلاغة: ٥/٢١٣.



فلم يكن ثمة اختلاف بين أمير المؤمنين علي وبين الفريق الآخر من الصحابة في تطبيق الشريعة وإقامة الحدود، وإنما كان الخلاف في توقيت ذلك: فكان عليٌّ يرى الإرجاءَ والتمهلَ حتى تستقر أمور الدولة وتقوى شوكتها وتضمحلّ قوة القتلة ويتفرقوا بين قبائلهم. والصحابة الآخرون يريدون الإسراعَ في القصاص والأخذ بدم عثمان. والذي دفع عليّاً ليتخذ ذلك الرأي هو ما لاحظه من تكاثر عدد القتلة، ومن ضَوَى إليهم وأيَّدهم من الرَّعاع والأعراب[1].

ورأى عليٌّ كثرة السَّبَئيَّة وتسلُّطَهم على المدينة، فضاق بهم ذَرْعاً، وأراد أن يخفف من وطأتهم بصرفِ الغوغاء إلى بلادهم، فنادى بهم فقال: برئت الذمَّة من عبدٍ لم يرجع إلى مواليه. فتَذامَرت السبئية والأعراب وقالوا: لنا غداً مثلُها، ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء[2]!.

ثم كرَّر الأمرَ في اليوم الثالث وخرج على الناس فقال: (يا أيها الناس، أخرجوا عنكم الأعرابَ، وقال: يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم. فأبت السَّبَئِيَّة وأطاعَهم الأعراب! ودخل عليٌّ بيته، ودخل عليه طلحة والزبير وعدَّة من أصحاب النبي ﷺ، فقال: دونكم ثأرَكم فاقتلوه! فقالوا: عَشَوْا عن ذلك، قال: هم والله بعد اليوم أعشى وآبَى، وقال:

لو أنَّ قومي طاوَعَتْني سَرَاتُهم أَمرتُهُم أمراً يُديخُ الأعاديا)[3]

ولقد كانت (مقاضاةُ قتلة عثمان وإنفاذُ القصاص فيهم) أخطرَ قضية تواجه أمير المؤمنين عليّاً، وكان ابن عباس نبَّهه إلى خطورة الموقف قبل تقلُّده أمرَ

---

(١) انظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٥٤ـ٥٥٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٤٣٨/٤.
(٣) المرجع السابق نفسه. **عشوا**: أعرضوا.

الخلافة فقال: (إن الناس سيلزموك دم عثمان)[١]، فقد كانت المأساة تملأ النفوس بالحزن والندم على عدم بذل الوسع في الذَّود عن الخليفة الشهيد!.

وكان عليٌّ بين تيارين قويين:

التيار الأول: يتمثل في المشاركين والمحرضين على قتل عثمان، وهم كثيرٌ ولهم اختلاطٌ شديد بجيش عليٍّ وتأثيرٌ نافذ على قبائلهم، وأميرُ المؤمنين غير قادر على إنفاذ القصاص عليهم. وعذرُه في أنه لا يمكنه قتلُ قتلة عثمان إلا بفتنة تزيد الأمر شرّاً وبلاءً، ودفْعُ أفسدِ المفسدتين بالتزام أدناهما أَوْلَى من العكس، لأنهم كانوا عسكراً، وكان لهم قبائل تغضب لهم، والمباشِر منهم للقتل ـ وإن كانوا قليلاً ـ فكان رِدؤهم أهلَ الشوكة، ولولا ذلك لم يتمكنوا[٢].

والتيار الآخر: يتمثل بطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، وكانوا يضغطون بقوة لإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، يرون أن عليّاً تخلَّى عن القصاص[٣]. ولم يَعذروه في سياسته التي تميل إلى إماتة الفتنة وتخطيها بعدم إيقاع القصاص حتى يستتبَّ له الأمر ويدخل في بيعته الناس جميعاً. كما أنه صرَّح بأنه لا يعلم القتلة بأعيانهم فقال: (والله لَوددتُ أن بني أمية رضوا لنفّلناهم خمسين رجلاً من بني هاشم يحلفون: ما قتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلاً)[٤].

●● وهذه النصوص والمواقف تبيِّن لنا حجمَ القوى الضاغطة على الخليفة وعلى المجتمع المسلم، وتتمثل في ثلاث قوى:

---

(١) مصنف عبدالرزاق: ٤٤٨/١١؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٣.

(٢) منهاج السُّنَّة: ٩٠/٣.

(٣) الفتح: ٣٣٦/١٦، ٣٧٢ـ٣٧٣؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٤.

(٤) سنن سعيد بن منصور: ٣٣٥/٢ـ٣٣٦ (٢٩٤٢) بسند صحيح.

الأولى: إقامـة حدٍّ من حـدود الله لا يمكن التفريط بـه أو التهاون فيه، وذلك بالقصاص من قتلة الخليفة الشهيد عثمان.

الثانية: قوة المجتمع المسلم الثقيلة الراسخة المتمثلة في عامة الصحابة وبخاصة أكابرُهم، والتي تلحّ على إقامة حد القصاص وعدم التأجيل.

الثالثة: القتلة من السَّـبئِية وأعوانهـم وأتباعهم ومادتهـم، وكانوا عدداً ضخماً ومُعْظمهم غير مشخَّصين ولا محدَّدين، ولا طاعةَ للخليفة عليهم، ولا يمكنه إقامة الحدِّ على نَفَر بأعيانهم.

كما تبين النصوص ضخامةَ المأسـاة في حدوثِ شَـرْخ كبير في (جسم الخلافة وقرارها السياسـي) والخلافِ بين أمير المؤمنيـن علي وبين أكابر الصحابة حول كيفية ووقت إقامة الحد؛ فالخليفـة يتصرف من واقع الرجل المسؤول عن الإسلام والأمة والدولة، ويتحمل جميع تبعات أي قرار يُبرِمه. والصحابةُ المخالفون له في الرأي يرون التعجيـل بإقامة الحد، ولا يُطيقون رؤيةَ القتلة يعيشون في المدينة مطمئنين ولهم قوة وسطوة، وهؤلاء الصحابة يتصرفون بدافع المسؤولية أيضاً لكنها دون مستوى مسؤولية الخليفة.

وبسـبب هذا وذاك حارت الأفهام وتباينت الاجتهـادات، مما أدى إلى سـيرورة الأحداث والتصرفات من الفُرقاء في اتجاهات متباينة، وجوُّ الفتنة ورجالُها زاد في المأساة آلاماً وأضاف إليها شروخاً أخرى!.

ثانياً ـ ثلاثـة اتجاهات (في الحجاز) دفعت أحـد الفرقاء للخروج إلى البصرة:

•• رأى الصحابة قوة السـبئية وسـطوتهم، وعَجْزَ الخليفـة عن لَجْمِهم فضلاً عن البطش بهم وتأديبهم؛ فتوزَّعت آراؤهم وتعددت تصرفاتهم:

قام طلحة وقال لأمير المؤمنين علي: (دَعْني فــلآتِ البصرة فلا يَفْجؤك إلا وأنا في خيل، فقال: حتى أنظرَ في ذلك. وقــال الزبير: دَعْني آتِ الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل، فقال: حتى أنظر في ذلك)(١).

وظن كثير من القرشــيين أن الخوارج الســبئية ســيزداد شــرُّهم وتعلو ســطوتُهم أكثر، بعد أن تمردوا على أمر الخليفة وعَصَوه، فهرب بنو أمية من المدينة، مما جعل الخليفة يشــتدُّ على قريش؛ (وحــالَ بينهم وبين الخروج على حالٍ)(٢).

وهذا مما زاد نفورَ كثير من رجال قريش وطائفة من الصحابة، ويعبِّر ابن كثير عن ذلك فيقول: (لمَّا وقع الأمر هكذا، واســتحوذوا ـ الســبئية ـ عليه، وحَجَبوا عنه عِلْيــةَ الصحابة؛ فرَّ جماعــة من بني أمية وغيرهــم إلى مكة، واســتأذنه طلحة والزبير في الاعتمار فأَذِن لهما، فخرجــا إلى مكة، وتبعهم خلقٌ كثير وجَمٌّ غَفير!)(٣).

وقدم إلى مكة سائر بني أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة، ويعلى بن أمية من اليمن(٤).

●● وفي مكة كان أزواج النبي ﷺ قد خرجن إلى الحج فراراً من الفتنة، فلما بلغ الناسَ أن عثمان قــد قُتل، أقمن بمكة ينتظــرن ما يصنع الناس(٥). وبرز دور أم المؤمنين عائشــة بينهن، وكان القادمون مــن المدينة إلى مكة يقصدونها ـ لرفعة منزلتها ـ ويبثُّون إليها أحزانهم، وهي تتســقط منهم أخبار

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٣٨.
(٢) المرجع السابق: ٤/٤٣٧.
(٣) البداية والنهاية: ٧/٢٣٠ـ٢٣١؛ تاريخ الطبري: ٤/٤٤٤.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/٤٥٠.
(٥) البداية والنهاية: ٧/٢٣٠.

الناس، حتى تواتر عندها سطوةُ السبئية وهيمنتهم على المدينة وتأثيرهم على (القرار السياسي).

والتقت عائشة بطلحة والزبير ومن معهما فقالت: ما وراءكما؟ فقالا: وراءنا أنَّا تحمَّلنا بقلِّيَّتنا هُرَّاباً من المدينة من غوغاء وأعراب، وفارَقْنا قوماً حيارى لا يعرفون حقّاً ولا يُنكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسَهم. قالت: فائْتِمروا أمراً، ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء. وتمثّلت:

ولو أنَّ قومي طاوَعَتْني سَرَاتُهم   لأَنْقَذْتُهم من الحِبال أو الخَبْلِ(١)

وبعد نظر طويل في أمرهم اجتمع ملؤهم على المسير إلى البصرة، وقالت السيدة عائشة: أيها الناس، إن هذا حدثٌ عظيم وأمرٌ منكر، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكِروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم، لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم(٢).

●● وجماعة من أكابر الصحابة والسابقين كانوا يراقبون الأحداث، ويتبصَّرون في مآلاتها ويقدِّرون خواتمها وعواقبها؛ فيجدون فِتَناً جامحة تضطرب فيها الأفهام وتزلُّ فيها الأقدام، فاجتهدوا في أمرها ورأوا أن الاعتزال أسلَمُ، وأن القاعدَ خيرٌ من القائم والقائمَ خيرٌ من الماشي والماشي خير من الساعي ـ كما ثبت في الحديث الصحيح ـ، فاعتزلوا الجميع وقعدوا في بيوتهم، ومن هؤلاء: سعد بن أبي وقّاص، وابن عمر، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مَسْلَمة، وأبو بَكْرة، وسَلَمة بن الأكوع، وزيد بن ثابت، وعمران بن حُصين، وأُهْبان بن صَيْفي، وغيرهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٥٠؛ المنتظم: ٥/٨٠، **تحمّلنا بقلِّيَّتنا**: أي لم نَدَعْ وراءنا شيئاً.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٥٠؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣١.

وهكذا أصبح المسلمون ثلاثة فرقاء سلكوا ثلاثة اتجاهات:

١ ـ الخليفة ومعه جمهور كبير من الصحابة يرون التريُّثَ حتى تستقر أوضاع الدولة وتقوى شوكتُها، عندئذٍ يتتبع الذين تلطّخت أيديهم بدم عثمان مباشرة ويُقام عليهم حد القصاص.

٢ ـ طلحة والزبير وعائشة ومعهم كثير من الصحابة والتابعين ـ وكذلك معاوية في أهل الشام: يرون السعيَ في الإصلاح والتقوّي بأهل البصرة والإسراع في معاونة الخليفة للقبض على السبئية والغوغاء وكسر شوكتهم، والتعجيل في إقامة الحد على من يستحقه منهم، وأنه لا رخصة في تأجيل ذلك.

٣ ـ الفريق الثالث يتمثل في الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة والخوض فيها، وعدم مشاركة أحد الفريقين السابقين.

ثالثاً ـ بدايات مسير طلحة والزبير وعائشة ومن معهم من مكة إلى البصرة:

لما مضت أربعة أشهر[١] ـ أي: في ربيع الآخر ـ على بيعة علي دون أن يُنفذ القصاص، خرج طلحة والزبير إلى مكة، ومنها جمعوا مؤيديهم الذين بلغ عددهم (٧٠٠) رجل، وانطلقوا إلى البصرة مستهدفين القبضَ على القتلة من أهلها وإنفاذَ القصاص فيهم، ثم المسير إلى المدينة لإتمام المهمة الخطيرة بالتعاون مع الخليفة. وقد بلغ عددُهم عند وصولهم إلى البصرة (٣٠٠٠) رجل، حيث التحق الناس بهم في الطريق إليها[٢].

---

(١) جاء هذا في مرسَل الزهري بإسناد صحيح إليه: تاريخ الطبري: ٤/٤٥٢؛ ونقل الحافظ في (الفتح: ١٦/٣٧٢) عن «أخبار البصرة» لعمر بن شبة بسند جيد: أنهم توجَّهوا بعد أن أهلَّت السنة، وهو كلام مطلَق قيَّدَه كلامُ الزهري.

(٢) مصنف عبدالرزاق: ٥/٤٥٦؛ تاريخ الطبري: ٤/٤٥٢؛ الفتح: ١٦/٣٦٩ نقلاً عن «أخبار البصرة» بسند صحيح أو حسن كما اشترط الحافظ.

وكان الصحابي يعلى بن أمية والياً لعثمان على صنعاء، فلما قُتل عثمان كان يعلى قدم حاجّاً ومعه (٦٠٠) بعير و(٦٠٠ ألف درهم)، فانضم إليهم وأعانهم بالمال والظَّهْر، واشترى لأم المؤمنين عائشة جملاً يقال له: (عسكر)[١].

وانطلقوا من مكة إلى البصرة، وجرَتْ لهم أحداث ومواقف في أثناء الطريق وعند وصولهم البصرة، سيأتي تفصيلها في الفصل التالي.

رابعاً ـ أهل الشام يرفضون مبايعة علي حتى يقيم حدَّ القصاص، ويَردّون واليه، فيتجهز لإخضاعهم للطاعة:

•• لما استشهد عثمان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مخضب بدمه، ومعه أصابع نائلة بنت الفَرَافِصة ـ زوج عثمان ـ التي أُصِيبت حين حاجَفَتْ عنه بيدها، فقُطعت مع بعض الكَفّ، فَوَرد به على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلَّق الأصابع في كم القميص، ونَدَب الناسَ إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه، وقام معه جماعة من الصحابة يحرِّضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج السبئية[٢].

وعندما بويع عليٌّ بالخلافة عزم على تغيير ولاة عثمان، فنصحه المغيرة وابن عباس بأن يتركهم في ولاياتهم حتى يتمكن، وأن يقرَّ معاوية ـ خصوصاً ـ على الشام، فأبى ذلك، وغيَّر بعض الولاة، وبعث سَهْل بن حُنيف على الشام، فخرج حتى إذا كان بتبوك لقيَتْه خيلٌ وردُّوه من حيث أتى! ورفض أهل الشام البيعة، فعزم علي على قتالهم وتجهز لذلك[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٤٣، ٤٥٠؛ العواصم من القواصم، ص١٥١؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣١؛ الفتح: ١٦/٣٦٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٦٢؛ البداية والنهاية: ٧/٢٢٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٤٤٢ـ٤٤٤، ٤٥٥ـ٤٥٦؛ كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٢/٩٨.

فمعاويةُ ومَن معه من الصحابة في أهل الشام كان مجتهداً متأوِّلاً في توقفه عن بيعة علي، حتى يبادر إلى القصاص من قتلة عثمان، وكان يغلب على ظنِّه أن الحق معه، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، فهو ابنُ عم عثمان ووليّ دمه، وأجابه أهل الشام جميعاً إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يُدركوا ثأرَهم أو يُفني الله أرواحهم(١).

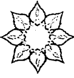
وكتب أمير المؤمنين علي إلى معاوية كتباً يأمره فيها بالطاعة والبيعة، ومن ثَمّ يتم القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية يشترط قتل القتلة أولاً أو تسليمهم إليه لأنه وليُّ دم عثمان. ثم بعث معاوية (طوماراً) مع رجل، فدُخل به على عليٍّ، فقال: ما وراءك؟ قال: جئتُك من عند قوم لا يريدون إلا القودَ كلهم موتور(٢).

فعزم علي على قتال أهل الشام، وبعث إلى بعض ولاته ليستنفروا الناس لذلك، وحَثَّ هو الناس على ذلك، وخطب في أهل المدينة فقال: (إنَّ في سلطان الله عصمةَ أمركم، فأعطوه طاعتكم غير مَلْويَّة ولا مستكرَه بها... انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرِّقون جماعتكم، لعل الله يُصلح بكم ما أفسَد أهلُ الآفاق، وتقضُون الذي عليكم)(٣).

وتجهز علي ورتب الجيش وخرج من المدينة، ولم يبقَ شيء إلا أن يخرج في جيشه من المدينة قاصداً الشام؛ فبَيْنَا هم كذلك إذ جاء الخبرُ من مكة أن جيشاً على رأسه (طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة) انطلَقوا

---

(١) وقعة صفين، ص٣٢؛ تحقيق مواقف الصحابة، ص٤٦٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٤٣ـ٤٤٤؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٤٤٥ـ٤٤٦؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٤.



يريدون البصرة، فتعبَّى أمير المؤمنين علي للخروج إليهم وقال: (إنْ فعلوا هذا فقد انقطَع نظامُ المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مَؤُونة ولا إكراه!)، فاشتدَّ على أهل المدينة الأمرُ، فتثاقلوا عن المسير مع الخليفة إلى البصرة[1].



(١) تاريخ الطبري: ٤٤٦/٤؛ المنتظم: ٧٨/٥.

الفصل الثالث

موقعةُ الجَمَل: مقدماتُها ووقائعُها ونتائجُها

أولاً ـ خروج جيش من مكة إلى البصرة وعلى رأسه (طلحة والزبير وعائشة) وهدفهم:

●● خرج الجيش من مكة المكرّمة إلى البصرة وعلى رأسه طائفة من الصحابة في مقدمتهم طلحة والزبير، وقد أشاروا على الصدِّيقة أم المؤمنين عائشة بالخروج معهم، وذلك لِما يوقن به جميع الصحابة والصالحين من بعدهم من حُرمتها رضي الله عنها؛ لأنها زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين[1]، وبنت الصديق الأكبر، ولمكانتها السامية عند رسول الله ﷺ وجميع المؤمنين، ولفضلها ودينها وعلمها وفقهها، فضلاً عن أنها من أهل الاجتهاد والورع والحرص على مصالح المسلمين، وأنها مرجعٌ للناس في المعضلات، وقد أخذ عنها كبار الصحابة ومن بعدهم.

لكل هذا رَجا الصحابة من خروجها الخيرَ والبركة والصلاح والإصلاح وجَمْع الكلمة وتوحيدَ الصف وكفكفة الفتنة ولَجْمَ مؤرِّثيها.

وقالوا لها: (اشْخَصي معنا إلى البصرة، فإنَّا نأتي بلداً مُضَيَّعاً، وسَيحتجُّون علينا فيه ببيعة علي بن أبي طالب، فتُنْهِضيهم كما أنهضتِ أهلَ مكة، ثم تقعدين، فإنْ أصلَحَ الله الأمرَ كان الذي تريدين، وإلا احتسبنا ودَفَعْنا عن هذا

---

(١) انظر: العواصم من القواصم، ص١٥٦.

الأمر بجَهْدنا حتى يقضي الله ما أراد. فلما قالوا ذلك لها ـ ولم يكن ذلك مستقيماً إلا بها ـ قالت: نعم)(١).

واحتجوا عليها بقول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤](٢).

ولمّا وقع لها في الطريق (نُباح كلاب الحَوْأَب) وهَمَّت بالرجوع، قالوا لها: (بل تقدمين فيراكِ المسلمون، فيُصلح الله ذات بينهم)(٣).

•• وكان خروج هذا الجيش إلى البصرة للتقوِّي بأهلها في إقامة حدِّ القصاص على قتلة عثمان، والتفاهم مع أمير المؤمنين علي والانضمام إليه لإتمام ذلك الهدف وكسر شوكة السبئية وإلغاء هيمنتهم على الدولة وقرارها السياسي، وإعادة كلمة الأمة إلى ما كانت عليه من الوحدة والألفة وتجنيبها الفتن والفتانين(٤).

يقول كُليب بن شهاب ـ شاهد عيان تابعي صدوق ـ: (لمَّا قُتل عثمان أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا... فانتهينا إلى البصرة، فلم نلبثْ إلا قليلاً حتى قيل: هذا طلحةُ والزبير معهما أم المؤمنين، فراعَ ذلك الناسَ وتعجبوا! فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضباً لعثمان وتوبةً مما صنعوا من خذلانه، وإن أم المؤمنين تقول: غَضِبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتى وضربة السوط والعصا. فما أنصفناهُ إنْ لم نغضَبْ له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشهر والبلد والدم)(٥).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٥٠ـ٤٥١.
(٢) العواصم من القواصم، ص١٥٦.
(٣) الفتح: ١٦/٣٦٩، شرح الحديث (٧٠٩٩).
(٤) انظر: العواصم من القواصم، ص١٥٥، ١٥٦، ١٦٣.
(٥) تاريخ الطبري: ٤/٤٩٠؛ الفتح: ١٦/٣٧٢ـ٣٧٣ (٧١٠٠)؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٠، وسنده حسن.

وقد تكرر قول أم المؤمنين عائشة ـ كما سيأتي ـ أنهم إنما جاؤوا للإصلاح.

ولما سُئل الزبير عن سبب قدومهم إلى البصرة، قال: (نُنْهِض الناسَ فيُدرَك بهذا الدم لئلا يُبْطَل، فإن في إبطاله توهينَ سُلطان الله بيننا أبداً، إذا لم يُفْطَم الناس عن أمثالها لم يبقَ إمامٌ إلا قتلَه هذا الضَّرْب)(١).

ثانياً ـ قصة (ماء الحَوْأَب):

وفي طريقهم إلى البصرة وقعت لهم حادثة تحققت فيها (نبوءة نبوية)(٢) تحفظها أم المؤمنين عائشة وتعِيها وترويها، ولمَّا وقعت كادت السيدة أن ترجع أَدْراجها!.

عن قيس بن أبي حازم قال: (لمَّا بَلغَتْ عائشة بعضَ مياه بني عامر ليلاً، نَبَحت الكلابُ عليها، فقالت: أيُّ ماءٍ هذا؟ قالوا: ماءُ الحَوْأَبِ، فوقفتْ فقالت: ما أَظُنُّني إلا راجعةً! فقال لها طلحة والزبير: مهلاً رحمكِ الله، بل تَقْدَمِين فيراكِ المسلمون، فيُصلِحُ الله ذاتَ بينهم. فقالت: ما أُظُنُّني إلا راجعةً؛ إني سمعتُ رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: «**كيفَ بإحداكُنَّ تنبحُ عليها كلابُ الحَوْأَب**»!)(٣).

وفي رواية: (أنها ضَربتْ عَضُدَ بعيرِها فأناخَتْه، وقالت: ردُّوني، ردُّوني، أنا والله صاحبةُ ماء الحَوْأَب)! فقال لها الزبير: ترجعين؟! عسى الله أن يُصلِح بكِ بين الناس. فقَبِلَتْ ذلك من الزبير، واستمرت في مسيرها إلى

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦١.

(٢) انظر كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٢/٧٥ـ٧٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/٧٠٨؛ وأحمد:(٢٤٢٥٤) و(٢٤٦٥٤)؛ وابن حبان (٦٧٣٢)؛ وأبو يعلى (٤٨٦٨)؛ والحاكم: ٣/١٢٠، وغيرهم؛ وصحَّحه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٢/١٧٧ـ١٧٨؛ وابن كثير في البداية والنهاية: ٦/٢١٢؛ والحافظ في الفتح: ١٦/٣٦٩؛ والألباني في الصحيحة (٤٧٤).

البصرة، وتابع الناس طريقهم معها، من أجل الإصلاح، وإنفاذِ القصاص من قتلة عثمان[١].

ثالثاً ـ وصول الجيش إلى البصرة والسيطرة عليها:

اقترب الجيش من البصرة، فكتبت أم المؤمنين إلى الأحنف بن قيس وغيرِهِ من وجوه الناس أنها جاءت، فبعث إليها أميرُ البصرة عثمان بن حُنيف رسولين: الصحابي عمران بن حُصين والتابعي أبا الأسود الدُّؤَلي، ليعلما ما جاءت به. فسلَّما وقالا: إن أميرنا بعثنا إليكِ نسألُك عن مسيرك، فهل أنتِ مُخبرتنا؟ فقالت: والله ما مِثلي يسير بالأمر المكتوم ولا يُغطِّي لبنيه الخبر.

وذكرتْ لهما أنها جاءت للطلب بدم عثمان، لأنه قُتل مظلوماً في شهر حرام وبلد حرام، وتلت قوله تعالى: ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء: ١١٤]، وقالت: (نَنهض في الإصلاح ممن أمر الله ﷻ وأمر رسول الله ﷺ، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضُّكم عليه، ومنكَر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره).

ودخلا على طلحة والزبير يستعلمانِ خبرَهما وسببَ خروجهما، فقالا مثل قول أم المؤمنين عائشة[٢].

فعادا إلى أمير البصرة عثمان بن حُنيف وأوقفاه على حقيقة الأمر، فخشي من الفتنة على المسلمين وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، دارَتْ رَحَا الإسلام وربِّ الكعبة!.

---

(١) نبوءات الرسول ﷺ: ٢/٧٧؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣١ـ٢٣٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٦١ـ٤٦٢؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٢.

فاستشار عثمانُ الصحابيَّ الجليل عمرانَ بن حُصين، فأشار عليه بالتهدئة والتسكين، وقال له: (اعتزِل، إني قاعد فاقعد)، فقال عثمان: (بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين علي)(١).

وأتاه الصحابي هشام بن عامر ونَصحه بالتروِّي بمثل رأي عمران، وقال: (يا عثمان، إن هذا الأمر الذي تروم يُسْلِم إلى شرٍّ مما تكره، إن هذا فتقٌ لا يُرْتَق، وصدْعٌ لا يُجبر، فسامِحْهم حتى يأتي أمرُ علي ولا تحادّهم).

فأبى عثمان ونادى في الناس وأمرَهم بالتهيُّؤ، ولبسوا السلاح، واجتمعوا إلى المسجد الجامع(٢).

فانقسم أهل البصرة ثلاث فِرق:

الأولى: حبَّذتْ خروجَ أم المؤمنين عائشة ومن معها، وانضمت إليهم لمعونتهم على الإصلاح.

والثانية: بقيتْ على ولائها لأمير البصرة عثمان بن حُنيف، وأنكرتْ على السيدة عائشة ومن معها خروجَهم.

والثالثة: اعتزلت الفريقين.

وأقبل جيش طلحة والزبير حتى انتهوا إلى (المِرْبَد)(٣) وأقاموا في ميمنته، وخرج عثمان بن حنيف بجيشه ونزل في ميسرته.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٣؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٣.

(٣) **مربد البصرة**: موضع كانت تقام فيه سوق الإبل خارج البلد.



وقام طلحة فذكر فضل أمير المؤمنين عثمان وأنه قُتل مظلوماً، وأنهم جاؤوا لإقامة حدِّ القصاص على قتلته وفي البصرة طائفةٌ منهم، وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته.

فقال مَنْ في الميمنة: صَدَقا وبرَّا، وقالا الحق، وأَمرا به، وقال من في الميسرة: فَجَرا وغدرا، وقالا الباطل، وأَمَرا به! فتحاثَى الناس بالتراب، وتراموا بالحجارة. ولمَّا تكلمت السيدة عائشة، فحثَّت الناس للأخذ بثأر عثمان، وقَتْل قتلته افترق جيش ابن حنيف فرقتين: فرقة ثبتت معه، والأخرى انضمت لجيش عائشة[1].

وأقبل حُكَيْم بن جَبَلة ـ وكان على خيل ابن حُنيف، وممن باشَرَ قتل عثمان بن عفان ـ فأَنشب القتال، وجعل أصحابُ أم المؤمنين يكفُّون أيديَهم ويمتنعون من القتال، وجعل حُكَيْم يقتحم عليهم، فاقتتلوا على فم السكة، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى (مقبرة بني مازن)، وحجز الليل بينهم.

فلما كان اليوم الثاني غدا حُكيم وهو يُبربر[2] وفي يده الرمح، فقال له رجل من عبدالقيس: من هذا الذي تسبُّ؟ قال: عائشة! قال: يا ابنَ الخبيثة، أَلأمِّ المؤمنين تقول هذا؟! فوضع حُكيم السنانَ بين ثدييه فقتله! ثم مرَّ بامرأة وهو يسبُّ أم المؤمنين، فأنكرتْ عليه، فقتلها أيضاً برمحه، ثم سار فلما اجتمع أصحابه قاتلوهم، ومنادي عائشة يُناشِدهم ويَدْعوهم إلى الكَفِّ فيأبَون! فلم يجدْ أصحاب عائشة بُدّاً من قتالهم، فتصدوا لهم وأذاقوهم من بأسهم، فلما مَسَّهم الشر وعضَّتْهم الحرب؛ نادوا أصحابَ عائشة إلى الصلح، فأجابوهم[3]!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٣ـ٤٦٥.
(٢) يُكثِر الكلامَ في جلبة وصياح وغضب وتخليط.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٦ـ٤٦٧؛ الكامل، لابن الأثير: ٣/١٠٩؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٣.

لم يتوقــف حُكَيم بن جَبَلة عن غيِّه وشــرِّه وولوغِه فــي الفتنة وإثارة القتــال، فلما ذهب طلحة والزبيــر ومن معهما إلى المســجد فوافقا صلاةَ العشــاء، وقد أبطأ عثمان بن حُنيف، فقدَّما عبــدَ الرحمن بن عتَّاب يصلي بهم، فوقعت فتنة من رَعَاع البصرة أتباعِ حُكيم، لكنه صلَّى العشاء والفجر، ودخل قوم إلى عثمان بن حُنيف في قصره، فوطِئوه ونتفوا شعره، فلما علم طلحة والزبير اســتعظما ذلك، وأرسلا إلى عائشــة بالذي كان، فأمرت أن يُخلى سبيله، فأطلقوه[١].

عن محمد ابن الحنفيَّة قال: (قدِم عثمانُ بن حُنيــف على عليٍّ بالرَّبَذة، وقد نَتفوا شــعر رأسِــه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين، بعثتني ذا لحية وجئتُك أمردَ! قال: أصبتَ أجراً وخيراً)[٢].

•• وبذلك انتهــت ولاية عثمان بــن حُنيف على البصــرة وفرَغتْ من أميرهــا[٣]، وأصبــح حُكيم بن جَبَلة في خيلــه على رِجْــل[٤] فيمن تبعه من عبدالقيس، ومَن نزع إليهم مــن أفناء ربيعة، ثم وَجَّهــوا نحو (دار الرزق)، وجعل يشــتم أمَّ المؤمنين عائشــة، فســمعَتْه امرأة من قومه فقالــت: يا ابنَ الخبيثة، أنــت أَوْلى بذلك! فطعنها فقتلها. فغضبــتْ قبيلة عبدالقيس إلا من كان اغتمر منهم ـ أي: شارك في الفتنة والخروج على أمير المؤمنين عثمان ـ فقالوا: فعلتَ بالأمس وعُدْتَ لمثلِ ذلك اليوم! والله لَندعَنّك حتى يُقيدَك الله، فرجعوا وتركوه. ومضى حُكيم فيمن غزا معه الخليفةَ عثمان وحَصَره من نزَّاع القبائل كلها.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٦٨/٤؛ البداية والنهاية: ٢٣٣/٧؛ العواصم من القواصم، ص١٥٨ـ١٥٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٨٠/٤؛ البداية والنهايــة: ٢٣٦/٧. وانظر خبر القبض على (ابن حنيف) في: مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٠/٨؛ الفتح: ٣٧٤/١٦.

(٣) انظر: الولاية على البلدان، ص٣٣٤.

(٤) أي: مشمِّر للأمر قائم به.

فنادى منادي طلحة والزبير: (مَن لم يكن من قتلة عثمان فَليكفُفْ عنّا، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نبدأ أحداً)، فأنشَبَ حُكيم القتال ولم يُرَعْ للمنادي، فقال طلحة والزبير: (اللهمَّ لا تُبقِ منهم أحداً، وأَقِدْ منهم اليوم فاقتُلْهم).

وكان حُكيم رأسَ الفتنة في البصرة، ويقود فرقة من (٣٠٠) رجل، وجميعُ من معه (٧٠٠) رجل، واشتد القتال، وكان حُكيم ذا بأس، وتصدَّى له رجل من الحُدَّان يقال له: ضُخَيم، فضرب عنقَه، فمال رأسُه فتعلَّق بجلده، فصار وجهه في قفاه[١]!.

●● وهرب أتباع حُكيم، ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة: (ألا من كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة، فليأتِنا بهم. فجيءَ بهم كما يُجاء بالكلاب، فقُتلوا، فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً إلا حرقوص بن زهير، فإن بني سعد منعوه، وكان من بني سعد، فمسَّهم في ذلك أمر شديد)[٢].

واستقر أمر البصرة بيد طلحة والزبير، وقوي موقفُهم باستيلائهم على بيت المال وفيه الذهب والفضة[٣]، وكتبوا إلى أهل الشام بالذي جرى معهم، وحثّوهم على النهوض بمثل ما نهضوا به من الأخذ بدم عثمان، وكذلك بعثوا إلى أهل الكوفة، وإلى أهل اليمامة، وإلى أهل المدينة. وكان مما كتبته عائشة لأهل الكوفة:

(إنا قدِمْنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده، فأجابنا الصالحون إلى ذلك، واستقبَلَنا مَن لا خير فيه بالسلاح، وقالوا: لنُتْبِعنَّكُم

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٠ـ٤٧٤؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٣ـ٢٣٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٢؛ الكامل، لابن الأثير: ٣/١١٢.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٧١٨، وسنده صحيح.

عثمانَ! ليزيدوا الحدود تعطيلاً... فمكثنا ستّاً وعشرين ليلةً نَدْعوهم إلى كتاب الله وإقامة حدوده ـ وهو حَقْنُ الدماء أن تُهراق دون مَن قد حَلَّ دمُه ـ فأبَوْا واحتجوا بأشياء، فاصطلَحْنا عليها، فحافوا وخانوا وغدروا، فجمع الله عَجَّلَ لعثمان ثأرَهم، فأقادَهُم، فلم يُفْلِت منهم إلا رجل.. فالزموا الرضا إلا عن قتلة عثمان بن عفان، حتى يأخذ الله حقَّه، ولا تخاصموا الخائنين، ولا تمنعوهم، ولا ترضوا بِذُوِيِّ حدودِ الله، فتكونوا من الظالمين)[1].

وكانت هذه الوقعة في (٢٥ ربيع الآخر من سنة ٣٦هـ). وأتى الخبر بجميع ما جرى إلى أمير المؤمنين علي[2] وهو (بالثَّعْلَبِيّة)، وهي من منازل طريق مكة من الكوفة، وهي ثلثا الطريق.

رابعاً ـ خروج علي من المدينة لِلَّحاق بجيش (أصحاب الجمل) لمنعهم من دخول البصرة، ففاتوه، وسؤالات على الطريق:

أدرك أمير المؤمنين علي خطورة الموقف وما يمكن أن يجر الخلاف إليه من تمزيق وحدة الأمة والدولة، وأن من واجبه بذل الجهد لتوحيد الكلمة وإعادة كل من خرج عن أمره إلى الطاعة والجماعة.

فخرج علي على تعبيته التي تعبَّى بها إلى الشام، واستنفر أهلَ المدينة للخروج معه، فاجتمع له نحو (٧٠٠) رجل، وتثاقلَ عنه عددٌ من كبار الصحابة لأنهم رأوا أنها أحداث فتنة ينبغي عدم الدخول فيها، وخرج من المدينة متجهاً إلى العراق، وقد عسكر في الرَّبَذة حيث أُضيف إلى جنده مئتا رجل، فأصبح الجميع (٩٠٠) رجل[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٢ـ٤٧٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٤، ٤٨١؛ المنتظم: ٥/٨٥.

(٣) أنساب الأشراف: ٢/٤٥، بسند حسن؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥١.

وكان خروجه في (آخر ربيع الآخر من سنة ٣٦هـ)[١]، وهو يرجو أن يدرك (طلحة والزبير ومن خرج معهما من مكة إلى البصرة) في الطريق؛ فَيَحُول بينهم وبين الخروج، فلما وصل الربذة تبيَّن له أنهم فاتوه[٢]!.

وتابع عليٌّ مسيره نحو الكوفة من الرَّبذة إلى فَيْد إلى الثَّعلَبية، حتى إذا دنا من الكوفة مال إلى (ذي قار) بين الكوفة والبصرة، ومن هناك بعث رجالاً يستنفرون أهل الكوفة لمساندته.

١ ـ نصائح لعلي بعدم الخروج من المدينة:

كان الحسن بن علي في أمر القتال يخالف أباه ويكره كثيراً مما يفعله، ويرجع علي رضي الله عنه في آخر الأمر إلى رأيه[٣]! وحاول الحسن ثنيَ أبيه عن الذهاب إلى العراق، وهو يبكي لِما أصاب المسلمين من الفرقة والاختلاف، لكن عليّاً رفض ذلك وأصرَّ على إعادة المعارضين له إلى الطاعة محتجّاً ببيعتهم له بالمدينة[٤].

روى طارق بن شهاب ـ وقد جاء إلى عليٍّ وهو بالرَّبذة ـ قال: (قام الحسن بن علي فقال لأبيه: ألم أقلْ لكَ: إن العرب ستكون لهم جولة عند قَتْل هذا الرجل[٥]؟ فلو أقمتَ بدارِك التي أنت بها ـ يعني بالمدينة ـ فإني أخافُ أن تُقتل بحال مَضِيعَة لا ناصرَ لك! فقال علي: اجلس، إنما تَخِنُّ كخَنِينِ الجارية!)[٦].

---

(١) الفتح: ٣٦٩/١٦ (٧٠٩٩).

(٢) تاريخ الطبري: ٤٥٥/٤؛ البداية والنهاية: ٢٣٤/٧.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٢٥/٣٥.

(٤) عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥١.

(٥) يريد عثمان بن عفان.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٣٣/٨، ٧١٥ بسند حسن؛ والحاكم بأخصر منه: ١١٥/٣؛ ورواه الطبري مطولاً في تاريخه: ٤٥٥/٤ـ٤٥٦.

كذلك نصحه الصحابي الجليل عبدالله بن سَــلَام فقال: (لا تأتِ العراق، وعليك بمنبر رسول الله ﷺ فالزَمْه... فوالله لئن تركتَه لا تراه أبداً!)[١].

وصدق ابن سلام فلم يروَ أن عليّاً عاد إلى المدينة بعد ذلك.

٢ ـ سؤالات على الطريق:

لم يكن أمير المؤمنين علي في مسيره هذا يمشي في عَماء، ولا هو يقود الأمة لأجل فرض سيطرته، بل كان يســعى إلى وحدة الصف وجمع الكلمة وصلاح أمر المسلمين، وتوطيد الأمن ووحدة الدولة وتجنيب الأمة شرّاً أكبر وفساداً أعم.

ولهذا لم يتحرَّج من الإجابة على الملأ بكلام واضح صريح لا تقيَّة فيه عن هدفه وغايته من خروجه هــذا، وبقي ـ كما كان طيلة عهده ـ جريئاً صلباً قويّاً صريحاً مع كل من سأله في أي ظرف وأي مكان.

وكذلك كان عامة من سار معه يريدون الخير والصلاح للأمة، ويلتزمون بالمبادئ التي تربوا عليها، ولم يستســلموا للألقاب الكبيرة ولو كان ذاك هو أمير المؤمنين، فكانوا لا يسيرون مسيراً إلا على الهدى والجَليَّة والقناعة.

وهذا بخلاف أولئك الســبئية المجرمين المندسين في صفوفهم، والذين لولا فسادهم وإفسادُهم وخبثُ طويَّتهم وسوءُ أعمالهم، لكانت أخلاق فريق أمير المؤمنين وفريق (أصحاب الجمل)؛ كفيلــةً بتحقيق الصلاح والإصلاح وحقن الدماء ووحدة الكلمة وإقامة حدود الله تعالى.

لقد صدرت من رجال من جيش عليّ سلسلة تساؤلات تعبّر عما يَجيش في صدورهم من هواجس الخوف من حدوث صراع بين المسلمين، يزيد من

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٥٥؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥١.

اتساع هوة الخلاف وتفريق الكلمة وهَرَاقة الدماء... إنهم يخافون من المخبوء في الظلام، ويرهبون من المحنة وراء ذاك الخروج إذا التقوا مع إخوانهم في الفريق الآخر، وفي الفريقين صحابة أجلاء وصالحون كرام.

ـ سأله رفاعة بن رافع الأنصاري فقال: (يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إنْ قبِلوا منّا وأجابونا إليه. قال: فإنْ لم يجيبوا إليه؟ قال: نَدَعُهم بعذرهم، ونعطيهم الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضَوْا؟ قال: نَدَعهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم. قال: فنعم إذاً)(١).

ـ وفي حديث طويل يرويه الحسن البصري يقول: (لمَّا قدِمَ عليٌّ البصرة في أمر طلحة وأصحابه، قام عبدالله بن الكَوَّاء وقيس بن عُبَاد فقالا: يا أمير المؤمنين، أخبِرْنا عن مسيرِك هذا: أوصيةً أوصاك بها رسول الله ﷺ، أم عهداً عهده عندك، أم رأياً رأيتَهُ حين تفرَّقت الأمة واختلفَتْ كلمتُها؟)، فذكر حديثاً طويلاً وفي آخره: (فأخبرنا عن هذين الرجلين ـ يعنيان طلحة والزبير ـ هما صاحباك في الهجرة، وصاحباك في بيعة الرضوان، وصاحباك في المشورة؟ فقال: بايَعَاني في المدينة، وخالَفَاني بالبصرة، ولو أن رجلاً ممن بايع أبا بكر خلَعَه لقاتلناه، ولو أن رجلاً ممن بايع عمرَ خلَعَه لقاتلناه)(٢).

ـ ولمَّا قدِمَ أهل الكوفة إلى عليٍّ وهو بذي قار، قام منهم رجال فسألوه عن سبب خروجه وتوجُّهِه بهم إلى البصرة، فقام فيمن قام الأعور بن بُنان المِنْقَري فسأله عن مقدمه وغايته، فقال له علي: (على الإصلاح وإطفاء النائرة، لعلَّ الله يجمع شملَ هذه الأمة بنا ويضَعَ حربَهم وقد أجابوني. قال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٧٩/٤؛ البداية والنهاية: ٢٣٥/٧. ووقع في اسم (رفاعة) خلط والصواب ما أثبته، فرفاعة هو الذي حضر مع علي حروبه.

(٢) حديث صحيح، وهو في «المطالب العالية» رقم (٤٤٥٨)، وذكرته في كتابي «علي بن أبي طالب» ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.

فإنْ لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا. قال: فإنْ لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا. قال: فهل لهم مثلُ ما عليهم من هذا؟ قال: نعم).

وقام إليه رجلان آخران فسألاه عن مخرجه ومجيء أصحاب الجمل، فأجابهما بنحو ما تقدم[١].

•• والمتأمل في سلسلة هذه التساؤلات يرى تقاربها في مخاوفها من مخاطر الخروج، وتطابقها في أهدافها وغاياتها ومسعاها، سواء تلك التي صدرت من أهل المدينة أو من أهل الكوفة، ويتأكد لديه أن المسار العام للمسلمين ومحور تفكيرهم وعملهم إنما هو إصلاح ذات البين، وتحقيق اجتماع الأمة، وإقامة حدود الشرع، وصفاء القلوب بين الفريقين والشعور الأخوي بينهما، مع اختلاف الاجتهاد، وإعذار بعضهم بعضاً في ذلك.

خامساً ـ غموض المستقبل واختلاف الاجتهادات وخروجهم للإصلاح:

•• كان مقتل أمير المؤمنين عثمان حَدَثاً مهولاً أحدث زلزلة في المجتمع المسلم، وظهر عمق المأساة فيما أحدثَتْه من شرخ كبير في الصف الإسلامي؛ أدى إلى تباين كبير في الأفهام واختلاف شديد في الاجتهادات، وتباعد خطير في المواقف على المسرح السياسي للمحنة.

ـ فجماعة من أكابر الصحابة قد اختلفوا فيما بينهم على مسالك شتى، فبينما كان أحدهم يستنقذ أخاه من فم الموت، أضحى الآن يعتزل عنه كما يعبر عن ذلك موقف أسامة بن زيد من علي حيث يقول له: (لو كنتَ في شِدْق الأسد لأحببتُ أن أكون معك فيه، ولكنَّ هذا أمرٌ لم أرَه!)[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٩٥ـ٤٩٦؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٩.

(٢) صحيح البخاري (٧١١٠).

ـ بل كان الابـــن يختلف مع أبيه، كما جرى بين الحســـن بن علي وأبيه أمير المؤمنين.

ـ وكان الحزن يهيمن على أفئدة الجميــع؛ فالذين خرجوا على أمر عليٍّ وذهبوا إلى البصرة حتى ســيطروا عليهـــا؛ (بالرغم مـــن أن مطالبتهم بإنفاذِ الحكم الشرعي يقوي موقفَهم ويُشعل حماســتهم، إلا أن غموض المستقبل وما قد ينطوي عليه من ضياع الوحدة بين المســلمين وسفكِ دمائهم؛ يبعث فيهم إحساساً أليماً وأحياناً تردداً واضحاً، لكنهم مضوا إلى أقدارهم بنفوس مثقلة بالهموم)[1]!.

ـ ووقع الفرقاء جميعاً في دوامة التفكير في الخلاص من المحنة، وتوجَّسوا من عواقب كل خطوة يتخذونها أو عمـــلٍ يُقدمون عليه. والرجلُ العاقل البصير الخبير منهم يَحار في موقفه كأنه يبصر ولا يبصر، ولا يدري أيُقبل أم يُدْبِر، كما عبَّر الزبير عن ذلك فقال: (إنا نبصر ولا نبصر، ما كان أمرٌ قطُّ إلا علمتُ موضعَ قدمي فيه، غير هذا الأمر فإني لا أدري أَمُقْبِل أنا فيه أم مُدْبِر!)[2].

ينظر طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة من يجابهون، فإذا أمير المؤمنين علي الذي بايعــوه! ويتوقف الخليفة فيرى فـــي مخالفيه إخوانـــاً عظاماً قد تقدمت لهم من الله سوابق وفضائل وفي مقدمتهم الزبير وطلحة وعائشة زوج النبي ﷺ، فيحار عقله في المخرج والمواجهة وعواقبها!.

لقد كان المستقبل غامضاً عند الجميع، وكلهم يتخوف من النتائج، ولذا فإنهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها؛ ندم جميع الصالحين وبخاصة رؤوس الصحابة في الفريقين على ما تقدم منهم، وتمنوا أنهم ماتوا ولم يروه!.

(١) عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٦.

●● ولقد أكدت مجريات الأحداث ومواقف الصحابة وأقوالهم عمقَ مأساة الجميع، والغموضَ الذي اكتنفهم وألقى بظلاله وعقابيله على نتائج اجتهاداتهم!.

١ ـ لمَّا بلَغ أهلَ المدينة ما كان من خروج (طلحة والزبير وعائشة) في جيش مكة إلى البصرة، ورأوا اختلافَ الكلمة؛ اشتدَّ عليهم الأمر، ودعاهم علي للخروج معه، فتثاقل كثير منهم وقالوا: (لا والله ما ندري كيف نصنع، فإن هذا الأمر لَمشتبِهٌ علينا، ونحن مقيمون حتى يُضيء لنا ويُسْفِر!).

وطلب الخليفةُ عبدَ الله بن عمر ـ وهو أحد أكابر الصحابة ـ وقال له: انهض معي، فقال ابن عمر: أنا مع أهل المدينة، إنما أنا رجل منهم وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم، فإنْ يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد(١).

٢ ـ ومثله موقف أسامة بن زيد وقد تخلَّف عن الخروج مع علي وقال: (هذا أمر لم أره)(٢).

٣ ـ وتروي عُدَيْسة بنت الصحابي أُهْبان بن صَيْفي فتقول: (لمَّا جاء علي بن أبي طالب هاهنا، البصرةَ، دخل على أَبي فقال: يا أبا مسلم، ألا تُعِينني على هؤلاء القوم؟ قال: بلى، فدَعَا جارية له فقال: يا جاريةُ أَخْرِجي سيفي، فأخرجَتْه، فَسَلَّ منه قدْرَ شِبْرٍ فإذا هو خشبٌ! فقال: إنَّ خليلي وابنَ عمك ﷺ عَهِد إليَّ: «**إذا كانت الفتنة بين المسلمين فاتَّخِذْ سيفاً من خشب**»، فإنْ شئتَ خرجتُ معك، قال: لا حاجةَ لي فيك ولا في سيفِك!)(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٤٦/٤؛ المنتظم: ٧٨/٥ـ٧٩.

(٢) تقدم في الصفحة ٣٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩) وحسنه؛ وابن ماجه (٣٩٦٠).

٤ ـ ويقول الزبير بن العوام وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]: (لقد تلوت هذه الآية زماناً وما أُراني من أهلها، فأصبحنا من أهلها!)(١).

٥ ـ وعبَّر طلحة عن جلالة الرُّزْء الذي نَزل بهم بعد خروجهم وحدوث الكارثة، فقال: (كنَّا أمس يداً واحدة على مَن سوانا، فأصبحنا اليوم جبلَيْن من حديد يزحفُ أحدُنا إلى صاحبه!)(٢).

٦ ـ ومثلُ ذلك ما حَصَل لأم المؤمنين عائشة عندما نبحتْها كلابُ الحَوْأَب، وقد همَّت بالرجوع، ثم غيَّرت رأيها رجاءَ الإصلاح.

٧ ـ وهكذا جرى لجماعة من وجوه الناس وأمرائهم، الذين حيَّرهم الأمر، ومنهم الأحنف بن قيس أحد زعماء بني تميم، وقد طلب منه الزبير بن العوام الانضمامَ إليهم، فقال: (فأتاني أفظعُ أمرٍ أتاني قطُّ، فقلت: إن خِذلاني قوماً معهم أم المؤمنين وحواريّ رسول الله ﷺ لَشديدٌ! وإن قتالي ابنَ عمٍّ رسول الله ﷺ وقد أمروني ببيعته لشديد!)(٣).

ـ لم يخرجوا لقتال بل للإصلاح:

•• مما تقدم من أخبار وأحداث ومواقف ـ وسيأتي مزيد من مثلها ـ يتبين أن الزبير وطلحة وعائشة ومن معهم لم يخرجوا لقصد القتال(٤)، وكذلك أمير المؤمنين علي خرج لردِّهم قبل وصولهم إلى البصرة، وما كان يظن أن الأمور تنتهي إلى ما انتهت إليه؛ وقد أوصاه النبي ﷺ

---

(١) الطيالسي (١٩٢)؛ وتقدمت رواية أخرى: ص ٢٩٠ في هذا الكتاب.

(٢) تقدم مطولًا: ص٣٠٣.

(٣) المطالب العالية: ٤/٢٩٧ـ٣٠٠؛ تاريخ الطبري: ٤/٤٩٧ـ٤٩٩؛ وذكره الحافظ في الفتح وصحَّحه: ١٦/٣٣٧ (٧٠٨٣).

(٤) انظر: منهاج السُّنَّة: ٣/٣٩.

فقال: «إنه سيكون بعدي اختلافٌ أو أمرٌ، فإن استطعتَ أن تكون السَّلْمَ فافعلْ»(١).

فلما أنشَبَ القتالَ أصحابُ الفتنة من السبئيين وأتباعهم وأجَّجُوه، ورأى الناس الدماء؛ ندم أكابر الصحابة من الفريقين وتمنَّوا أنهم لم يخرجوا، وقد روى حَبيب بن أبي ثابت: (أن عليّاً قال يوم الجمل: اللَّهمَّ ليس هذا أردتُ، اللَّهمَّ ليس هذا أردتُ)(٢).

(وأهل العلم يعلمون أن طلحة والزبير لم يكونا قاصدَيْن قتالَ علي ابتداءً، وكذلك أهل الشام لم يكن قصدهم قتالَه، وكذلك عليٌّ لم يكن قصدُه قتالَ هؤلاء ولا هؤلاء.

ولكن حرب الجمل جرى بغير اختياره ولا اختيارهم، فإنهم كانوا قد اتفقوا على المصالحة وإقامة الحدود على قتلة عثمان، فتواطأت القتلة على إقامة الفتنة آخراً كما أقاموها أولاً، فحملوا على طلحة والزبير وأصحابهما، فحملوا دفعاً عنهم، وأشعروا عليّاً أنهما حملا عليه، فحمل علي دفْعاً عن نفسه، وكان كل منهما قصده دفْعَ الصِّيال لا ابتداءَ القتال)(٣).

وقرَّر مثلَ هذا الإمامُ ابن حزم اعتماداً على مجريات الأحداث وصريح أقوال الصحابة(٤).

●● وإنما كان خروج (طلحة والزبير وعائشة) من أجلِ الإصلاح وإقامة حد القصاص، وكذلك امتناعُ أهل الشام عن البيعة حتى تُقام

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند (٦٩٥) وصحَّحه أحمد شاكر.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٥/٨.
(٣) منهاج السُّنَّة: ٧٣٣/٣.
(٤) انظر: الفِصَل في المِلل والأهواء والنِّحل: ١٥٧/٤ـ ١٥٨.

الحدود على القتلة، وسيتضح هذا بجلاء في حواراتهم مع علي ورسله قُبيل المعركة وبعدها.

وبمثل هذا الوضوح والصراحة كانت مواقف أمير المؤمنين علي مع الفرقاء جميعاً، وقد وقف خطيباً في أهل الكوفة فقال: (وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة، فإنْ يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبَوْا داوَيْناهم بالرِّفق حتى يبدؤونا بالظلم، ولم نَدَعْ أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى)[1].

وعندما اتفقوا على الصلح قُبيل وقعة الجمل خطب علي الناس ملمِّحاً إلى السبئية القتلة ومؤجِّجي الفتنة، فقال: (أَلَا وإني راحلٌ غداً فارتحِلوا، أَلَا ولا يرتحلنَّ غداً أحدٌ أعانَ على عثمان بشيءٍ في شيءٍ من أمور الناس، ولْيُغنِ السفهاءُ عني أنفسَهم!)[2].

سادساً ـ علي يستنفر أهل الكوفة للخروج معه إلى البصرة:

وصل أمير المؤمنين علي بمن خرج معه من أهل المدينة إلى (الرَّبَذة)، وتابع مسيره حتى نزل (بذي قار) بين البصرة والكوفة، ومن هناك بعث رجالاً إلى الكوفة يستنفرون أهلها لمساندته.

●● لما استُشهد عثمان كان أبو موسى الأشعري واليهِ على الكوفة، وقد أقرَّه علي نزولاً على رغبة أهل الكوفة بواليهم الجليل وسياسته وفضله وعلمه[3].

---

(١) البداية والنهاية: ٢٣٧/٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٩٣/٤؛ المنتظم: ٨٦/٥.

(٣) انظر ما كتبناه عن ولاية الكوفة في كتابنا «علي بن أبي طالب» ص٤٢٠.

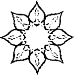
وكان علي يسأل عن أبي موسى وبخاصة عندما أراد الخروج إلى العراق، ففي أثناء الطريق إليها لقيه رجل من أهل الكوفة (فسأله علي عن أبي موسى، فقال: إن أردتَ الصلح فأبو موسى صاحبُ ذلك، وإنْ أردتَ القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك، قال: والله ما أريدُ إلا الإصلاحَ حتى يُردَّ علينا، قال: قد أخبرتك الخبر)(١).

وأرسل عليٌّ من الربذة رسولين لاستنفار الكوفيين، وهما: محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، فأخفقا في مهمتهما لأن أبا موسى والي الكوفة التزم موقف اعتزال الفتنة وحذَّر الناسَ من المشاركة فيها، ودخل عليه أهل الحِجَى فقالوا: ما ترى في الخروج؟ فقال أبو موسى: إنما هما أمران: القعودُ سبيل الآخرة، والخروجُ سبيل الدنيا، فاختاروا. فلم ينفِر إلى علي أحد(٢)!.

فعاد الرسولان إلى علي، فوافياه بذي قار وأخبراه الخبر، فبعث من هناك عبدالله بن عباس والأشتر النخعي، فلم يُجِبْهما أبو موسى إلى ما قدِما لأجله، وقام فخطب أهل الكوفة وبيَّن لهم أن الخوض فيما يجري (فتنةٌ صمَّاء؛ النائم فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب. فكونوا جُرْثومة(٣) من جراثيم العرب، فأغمِدوا السيوف، وأنصِلوا الأسنَّة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلومَ والمضطهدَ، حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة)(٤).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٨٠.
(٢) المرجع السابق: ٤/٤٧٨، ٤٨١ـ٤٨٢.
(٣) جرثومة الشيء: أصله.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/٤٨٢ـ٤٨٦؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٦. و(بعثُ عليٍّ ابنَ عباس) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/٧٢٠؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ١٦/٣٧٤ (٧١٠٠).



وروى أبو موسى، عن النبي ﷺ: أنه قال في الفتنة: «**كَسِّروا قِسِيَّكُم، وقطِّعوا أوتارَكُم، واضْربوا بسيوفكم الحجارةَ، فإنْ دُخِل على أحدِكم فليكنْ كخيرِ ابنَيْ آدم**»[1].

وكان لهذا الموقف الصلب من والي الكوفة أبي موسى تأثيرٌ كبيرٌ في أهلها، فلم يخفُّوا لطلب الخليفة ورسولَيْه، لكن عليّاً كان مصمماً على المضي في قراره، فأرسل رسولين آخرين هما: ولده الحسن بن علي وعمار بن ياسر.

عن عبدالله بن زياد الأسدي قال: (لمَّا سار طلحةُ والزبير وعائشة إلى البصرة، بعثَ عليٌّ عمار بنَ ياسر وحسنَ بن علي، فقدِما علينا الكوفة فصَعِدا المنبر، فكان الحسن بن علي فوق المِنْبر في أعلاهُ وقام عمارٌ أسفلَ من الحسن فاجتمعنا إليه، فسمعتُ عماراً يقول: إنَّ عائشة قد سارتْ إلى البصرة، والله إنها لزوجةُ نبيِّكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله تبارك وتعالى ابتَلاكُم لِيَعْلَمَ إيَّاهُ تُطِيعون أم هي)[2].

وقد لامَ أبو موسى عماراً على تسرُّعه في الخروج وحضِّه الناسَ على النفير والانضمام إلى أمير المؤمنين لِما قد يؤدي ذلك إلى القتال، وعمار عابَ على أبي موسى إبطاءَه في الاستجابة لأمر الخليفة، ولكل منهما اجتهاده وعذره[3].

●● وجرى حوار بين أبي موسى والحسن بن علي، فأقبل الحسن على أبي موسى وقال له: (لِم تُثبِّط الناس عنَّا؟! فوالله ما أردنا إلا الإصلاحَ، ولا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٩)؛ وابن ماجه (٣٩٦١)، وغيرهما، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٠)، وانظر ما تقدم: ص٢٩٨ رقم (٣) في كتابنا هذا.

(٣) انظر: الفتح: ٣٧٦/١٦.

مِثلُ أمير المؤمنين يُخاف على شـيء. فقال: صدقتَ بأبي أنت وأمي! ولكنَّ المستشار مؤتَمَن؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنها ستكون فتنة القاعدُ فيها خير من القائم، والقائمُ خير من الماشـي، والماشـي خير مـن الراكب**»، قد جعلنا الله ﷻ إخواناً، وحرم علينا أموالَنـا ودماءنا، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النسـاء: ٢٩]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النسـاء: ٢٩]، وقـال ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: ٩٣]!.

فغضب عمار بن ياسـر، وثار الناس عليه، إلا أن أبا موسـى استطاع أن يهدِّئهـم ويَكفَّهم عنه. وقـد اقتنع جمهور مـن أهل الكوفـة بالخروج بعد محاورات طويلة مع الحسن بن علي، فخرجوا معه في نحو (٩٠٠٠) رجل[١].

وبَلَغ من نُبْـل الصحابة وصـدق نياتهم وأصالة أخلاقهـم التي تربوا عليها؛ أنهم لزِموها في أقسـى الأزمات واستفحال الخِلاف الذي قد يؤدي للاقتتـال، وتجلى ذلك في مواقـف عديدة منها تلك الكلمـة الرائعة التي أعلنها السـيد الجليل الحسـن بن علي في أَتُون الخـلاف واحتدامه؛ قال الحسـن: (إن عليّاً يقول: إني أذكِّر الله رجلاً رعَى للهِ حقّاً إلا نفر، فإنْ كنتُ مظلوماً أعانني، وإنْ كنت ظالماً أخذلنـي! والله إن طلحة والزبير لأولُ من بايعني ثم نكثا، ولم أسـتأثر بمالٍ، ولا بدَّلتُ حكماً). قال: فخرج إليه اثنا عشر ألف رجل[٢].

وتلك الشـهادة الرفيعة من عمار بن ياسـر في أم المؤمنين عائشة حيث يقول: (إنَّ أُمَّنا سـارت مسـيرَها هذا، وإنها والله زوجُ محمـد ﷺ في الدنيا

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٨٢ـ٤٨٧؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٦ـ٢٣٧.

(٢) الفتح: ١٦/٣٧٤، نقلًا عن: أخبار البصرة، لابن شـبة، بسـند صحيح أو حسن كما اشترط الحافظ.

والآخرة، ولكنَّ الله ابتلانا بها ليعلمَ إياه نطيع أم إياها!). وهذا من إنصاف عمار وشدة ورعه وتحرِّيه قولَ الحق(١).

●● وبعد هذا الاستنفار التحق ما بين (ستة آلاف إلى سبعة آلاف رجل) بجيش علي بذي قار، والتحق به (ألفان) من أهل البصرة من عبدالقيس قبيلة حُكيم بن جَبَلة، كما التحق به كثير من قبائل أخرى؛ حتى بلغ جيشه حوالي (اثني عشر ألف رجل)، منهم ثمان مئة من الأنصار وأربع مئة ممن شهد بيعة الرضوان(٢).

سابعاً ـ وصول جيش علي إلى البصرة، ومحاورات مع طلحة والزبير، واتفاق على الصلح:

الحقيقة الساطعة التي أكَّدتها مواقفُ أكابر الفريقين في جيش علي وجيش طلحة والزبير: أن غايتهم جميعاً الإصلاح والتوافق لإقامة الحدود وإطفاء الفتن وتسكين الأمور وتجنُّب أي مواجهة أو قتال، بخلاف ما شاع في كتب التاريخ والأدب والأسمار قديماً وحديثاً من أكاذيب حول سعي الصحابة للقتال والغدر، وما صدر منهم من الاتهامات والشتائم المُقذِعة المتبادلة؛ مما نزَّهَهم الله تعالى عن ذلك كله!.

عندما قدِمَتْ جموعُ أهل الكوفة على أمير المؤمنين علي بذي قار، قام فيهم فقال: (يا أهل الكوفة، أنتم وَليتم شوكةَ العجم وملوكهم، وفَضَضتُم جموعَهم، حتى صارت إليكم مواريثُهم، فأغنيتم حَوْزَتكم، وأعنتُم الناس

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٠/٨؛ الفتح: ٣٧٥/١٦؛ تاريخ خليفة، ص١٨٤. وانظر ما تقدم: ص٢٩٨ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

(٢) مصنف عبدالرزاق: ٤٥٦/٥ـ٤٥٧؛ تاريخ الطبري: ٥٠٦/٤؛ تاريخ خليفة، ص١٨٤، بطرق متعاضدة ترتقي إلى الصحيح. انظر: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٣.

على عدوِّهم. وقد دعوتُكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة، فإنْ يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجُّوا داويناهم بالرفق، وبايَنَّاهم حتى يبدؤونا بظُلم، ولن نَدَعَ أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله)(١).

ثم أكَّد عليٌّ رضي الله عنه هذا المنهج بأن قام يستبرئ خبر إخوانه الذين سيطروا على البصرة، وعلى رأسهم طلحة والزبير، ليعرف ما الذي أخرجهم وماذا يريدون، وليذكِّرهم اللهَ تعالى والحرصَ على وحدة الأمة، فبعث الصحابي العبقري القعقاع بن عَمْرو، وقال له: (القَ هذين الرجلين ـ طلحة والزبير ـ فادعُهما إلى الألفة والجماعة، وعَظِّم عليهما الفُرْقَة).

فخرج القعقاع حتى قدِم البصرة، فبدأ بأم المؤمنين عائشة، فسلَّم عليها، وقال: (أَيْ أمَّه، ما أَشخَصكِ؟ وما أقدمكِ هذه البلدة؟ فقالت: أي بُنيَّ، إصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما. فبعثت إليهما فجاءا.

فقال: إني سألتُ أم المؤمنين ما أشخَصَها وما أقدَمَها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: متابعان.

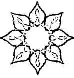
قال: فأخبراني، ما وَجْهُ هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنُصلحنَّ، ولئن أنكرناه لا نُصلح.

قالا: قتلةُ عثمان، فإنّ هذا إنْ تُرِكَ كان تركاً للقرآن، وإن عُمِلَ به كان إحياءً للقرآن.

فقال: قد قتلتُما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليومَ؛ قتلتم ست مئة إلا رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٨٧؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٧.



واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم ذلك الذي أفلتَ ـ يعني حرقوص بن زهير ـ فمنعه ستة آلاف وهم على رِجل(١)، فإن تركتموهم كنتم تاركين لِما تقولون، وإنْ قاتلتموهم والذين اعتزلوكم، فأُدِيلوا عليكم، فالذي حذِرتم وقرِبْتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون. وأنتم أحميتم مُضَر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرةً لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير!.

قالت أم المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟.

قال: أقول: هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اخْتُلِجُوا(٢)، فإنْ أنتم بايعتمونا فعلامةُ خير، وتباشير رحمة، ودرَكٌ بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة. وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافَه؛ كانت علامةَ شرٍّ، وذهابَ هذا الثأر، وبِعْثَة الله في هذه الأمة هَزاهِزَها(٣)! فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تُعرِّضونا للبلاء، ولا تَعرَّضوا له، فيصرعنا وإياكم. وايمُ الله، إنّي لأقول هذا وأدعوكم له، وإني لخائفٌ ألا يتمَّ حتى يأخذَ الله حاجته من هذه الأمة التي قلَّ متاعها، ونزل بها ما نزل! فإن هذا الأمر الذي حدث أمرٌ ليس يُقدَّر وليس كالأمور، ولا كقتلِ الرجل الرجلَ، ولا النفرِ الرجلَ، ولا القبيلة الرجلَ.

فقالوا: نعم، إذاً قد أحسنتَ وأصبتَ المقالة، فارجع، فإنْ قدِمَ عليٌّ وهو على مثل رأيك صَلَح هذا الأمر.

---

(١) **على رِجْل**: مشمِّر للأمر قائم به.

(٢) تفرقوا.

(٣) هي البلايا والحروب.

فرجع إلى عليٍّ فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشـرف القوم على الصلح، كَرِه ذلك مَنْ كرهه، ورضيَه مَن رضيه)(١).

واختزل المسعودي كل هذه الأخبار، وأرسل الكلام جزافاً، وزعم أن عليّاً (بعث إليهم مَن يناشـدهم الله في الدماء، وقال: عـلامَ تقاتلونني؟ فأبَوْا إلا الحرب، فبعث إليهم رجلاً من أصحابه يُقال له: مسلم، معه مصحف يدعوهم إلى الله، فرموه بسهم فقتلوه!)(٢).

وهو في هذا جارٍ على عادة الرافضـة في الطعن على الصحابة عامة ومن خالف عليّاً خاصة.

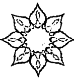
●● كان أمير المؤمنين علي أسـعدَ الناس وأعظَمَهم اغتباطاً بنجاح مهمة القعقاع، التي تبشر بحقن دماء المسلمين وجَمْع كلمتهم ووحدة صفِّهم، وقام يعلن ذلك على الملأ ويصرِّح بموقفه من قتلـة عثمان وأنهم المتهمون بكل شرٍّ حدث وفتنة وقعت، وكان مما قاله:

(ثم حدث هذا الحدث الذي جـرَّه على الأمة أقوام طلبـوا هذه الدنيا، حسـدوا مَنْ أفاءها الله عليه على الفضيلة، وأرادوا ردَّ الأشـياء على أدبارها، والله بالـغ أمره، ومصيب مـا أراد. أَلَا وإنـي راحل غـداً فارتحِلوا، ألا ولا يرتحلنَّ غداً أحد أعان على عثمان بشيءٍ في شـيءٍ من أمور الناس، وليُغْنِ السفهاء عني أنفسَهم!)(٣).

وارتحل علـيٌّ بمن معه من صحبـه وجنده، وحطُّوا رحالَهـم قريباً من البصرة، ونزلوا مكاناً يسـمى (الزاوية)، ونزل جيش طلحـة والزبير بمكان

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٨٨ـ٤٨٩؛ المنتظم: ٥/٨٥؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٨.
(٢) مروج الذهب: ٢/٢٨٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٤٩٣؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٨ـ٢٣٩.



يسمى (الفُرْضة)، وتدانَوا حتى تراءَوا، وذلك في يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة سنة (٣٦هـ)[١].

وأدرك أمير المؤمنين بألمعيته أن الفتَّانين وأتباعَهم من الرَّعَاع لا يريدون تسكينَ الفتن وإتمامَ الصلح، فلوَّح لهم وحذَّرَهم، وخطب الناس فقال: (يا أيها الناس املِكوا أنفسَكم، كُفُّوا أيديَكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم[٢]؛ فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم، وإياكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصم اليوم).

وارتحل بمن معه حتى أطلَّ على أهل البصرة وفيهم طلحة والزبير وعائشة، وبعث إليهم رجلين: (إنْ كنتم على ما فارقتم عليه القعقاعَ بن عمرو فكفُّوا وأَقِرُّونا ننزل وننظر في هذا الأمر).

فأرسل إليه طلحة والزبير: (إنَّا على ما فارَقْنا القعقاعَ بن عمرو من الصلح بين الناس. فاطمأنت النفوس وسكَنتْ. واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث عليٌّ عبدالله بن عباس إليهم، وبعثوا إليه محمد بن طلحة السجَّاد، وبات الناس بخير ليلة)[٣].

وخرج طلحة والزبير فنزلا بالناس من (الزَّابوقة)[٤] في موضع قرية الأرزاق، فنزلت مُضَر جميعاً وهم لا يَشكّون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم جميعاً وهم لا يشكُّون في الصلح، ونزلت اليمن جميعاً أسفل منهم وهم لا يشكّون في الصلح، وعائشة في الحُدّان[٥]، والناس في الزابوقة على

(١) تاريخ خليفة، ص١٨٤ـ١٨٥؛ تاريخ الطبري: ٥١٠/٤.
(٢) يعني جيش طلحة والزبير.
(٣) تاريخ الطبري: ٤٩٦/٤؛ المنتظم: ٨٧/٥؛ البداية والنهاية: ٢٤٠/٧.
(٤) موضع قريب من البصرة كانت فيه موقعة الجمل.
(٥) إحدى محالّ البصرة القديمة، سُميت باسم قبيلة بني حُدَّان وهم من الأزْد.

رؤسائهم هؤلاء وهم ثلاثون ألفاً، وردُّوا رسولَي عليٍّ إليه بأنّا على ما فارَقْنا عليه القعقاعَ فاقدَمْ. فخرج الرسولان حتى قدِما على أمير المؤمنين علي، فارتحل حتى نزل عليهم بحيالهم؛ فنزلت القبائل إلى قبائلهم: مُضَر إلى مُضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يَشكُّون في الصلح، فكان بعضُهم بحيالِ بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح، وخرج أمير المؤمنين فيمن معه وهم عشرون ألفاً[1].

فلما نزل الناس واطمأنوا، خرج عليٌّ وخرج طلحة والزبير فتواقفوا وتكلّموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح ووضع الحرب حين رأوا الأمر قد أخذ في الانقشاع، وأنه لا يُدرَك، فافترقوا عن موقفهم على ذلك، ورجع علي إلى عسكره، وطلحة والزبير إلى عسكرهما[2].

واتفق الفريقان جميعاً أن يكلم كل منهما رؤساءَ أصحابه بما تمَّ التوصل إليه، (فلما أمسَوْا ـ وذلك في جمادى الآخرة ـ أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسلَ عليٌّ إلى رؤساء أصحابه، ما خلا أولئك الذين هَضُّوا[3] عثمانَ، فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا[4]. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرِّ ليلةٍ باتوها قط، قد أشرفوا على الهَلَكة، وجعلوا يتشاورون ليلتَهم كلَّها، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السرِّ، واستسرُّوا بذلك خشية أن يُفطَن بما حاولوا من الشرِّ!)[5].

---

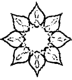
(١) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٦؛ المنتظم: ٥/٨٧.

(٣) أي: كسروه وصرعوه.

(٤) يعني: قتلة عثمان وأصحاب الفتنة.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٦؛ المنتظم: ٥/٨٧ـ٨٨.



وتذكر رواية بإسناد حسن عن عبد خير ـ وهو ممن شهد الجمل مع علي ـ قال: (ضُرب فُسطاط بين العسكرَيْن يوم الجمل ثلاثةَ أيام، فكان علي والزبير وطلحة يأتونه، فيذكُرون فيه ما شاء الله)(١). وهم يَسْعَون لإيجاد حلّ سلمي للموقف، وقد تمَّ لهم ذلك، لكن السبئية عاجلوهم فأنشَبوا القتال في ظلمة الليل، ومشى الفريقان إلى بعضهما، فكانت الفاجعة!.

ثامناً ـ المنافقون(٢) والسبئية يُنشِبون القتال:

•• تعاضدت الأخبار وأكدت حقائق الأحداث أن الفريقين لم يخرجا للقتال ولا قصداه ولا تمنَّياه، وأنهم اتفقوا على المصالحة وإقامة الحدود على قتلة عثمان، وأن غالبية الناس في الجيشين على هذا. ولكن أولئك القتلة والمنافقين ممن أعانهم والمجرمين من أتباع ابن سبأ؛ قد أيقنوا أن اتفاق أمير المؤمنين عليّ مع أخويه الزبير وطلحة سيؤول في النهاية إلى استهدافهم وتتبُّعِهم وإقامة حدّ القصاص عليهم.

فتواطأت القتلة على إشعال الفتنة بين الفريقين ـ كما أوقدوها زمن عثمان وأشاطوا بدمه ـ فحملوا على عسكر طلحة والزبير، فظنَّ طلحةُ والزبير أن عليّاً حَمل عليهم، فحملوا دفعاً عن أنفسهم، فظنَّ علي أنهم حملوا عليه فحمل دفعاً عن نفسه، فوقعت الفتنة بغير اختيارهم(٣)!.

وقال أبو بكر ابن العربي: (وقدِم عليٌّ البصرة، وتدانَوا ليتراءَوا، فلم يترُكْهم أصحاب الأهواء وبادروا بإراقة الدماء، واشتجر بينهم الحرب،

---

(١) فضائل الصحابة، لأحمد: ٥٩٦/٢؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٠/٨.

(٢) ثبت في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ وَصَمَ الذين خرجوا على عثمان وأصروا على خلعه بأنهم (منافقون)؛ انظر ما تقدم: ص٨٤ ـ ٨٥.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٣٦/٣ـ٣٧؛ وانظر: ٧١٩/٣، ٧٣٣.

وكثرت الغوغاء على البَوْغاء، كل ذلك حتى لا يقع برهان، ولا تقف الحال على بيان، ويخفَى قتلة عثمان، وإنَّ واحداً في الجيش يُفسِد تدبيره، فكيف بألف؟!)[١].

وقال الطحاوي: (فجَرَتْ فتنة الجمل على غير اختيارٍ من عليّ، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين)[٢].

وقال مثل ذلك الباقلاني والقاضي عبد الجبار وابن حزم وغيرهم.

وتفصيلات الأحداث والأخبار تؤكد هذا الكلام الإجمالي الذي اختصره واعتصره أولئك الأئمة العلماء. كذلك تؤكد الأخبار أن الذين كانوا يَكرهون الصلح هم عبد الله بن سبأ وجماعته السبئيَّة وقتلة عثمان، وهؤلاء كانوا في جيش علي بدليل اعتراضهم على علي حين عزم على الرحيل قائلاً: (ألا وإني راحل غداً فارتحلوا... وليُغنِ السفهاء عني أنفسهم)[٣]. ويؤكد وجودَهم في جيش علي خبرٌ آخر يشير إلى أن عبد الله بن سبأ كان أحدَ الرؤساء في (بني عبد القيس) الذين خرجوا مع علي[٤].

●● هؤلاء المجرمون عليهم وِزْر سفكِ الدماء من أيام حوصِر أمير المؤمنين عثمان ثم مضى إلى ربه شهيداً، وحتى وقعتي الجمل وصفِّين؛ فلقد كانوا دائبين على إثارة الفوضى ونشرِ الأكاذيب وإذاعةِ الأراجيف واختلاقِ الفتن وإشعالِ نار الخلاف وإيقاد جذوة الاقتتال، ويهدفون من وراء ذلك إلى:

---

(١) العواصم من القواصم، ص١٥٩. **البوغاء من الناس**: السَّفِلة والحمقى.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص٧٢٣.
(٣) انظر ما تقدم: ص٣٣١ في هذا الكتاب.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٥.

- تفكيك عُرى الخلافة والحكم الإسلامي.
- وإبطال الحدود وإهدار القصاص للدماء.
- وتمزيق الأمة والحيلولة دون وحدتها وتلاحمها.
- واستمرار الخلاف وصرف المسلمين عن الفتوحات ونشر الإسلام.
- ونشر البدع والأفكار المضادة للإسلام.
- وتلويث العقيدة وتشويه صفائها ونقائها.

وقد تحقق شيء كثير من ذلك في عهد علي فما بعده!.

وللمضيِّ في هذا المخطط اليهودي السبئي الباطني؛ عقد رؤوس الشر من مساعِر الفتنة وأصحاب الهوى والعقائد الفاسدة اجتماعاً عاجلاً لإجهاض (اتفاقية الصلح بين الفريقين)، وتفجير الخلاف من جديد لإدخال المسلمين في غياهب الاقتتال مرة أخرى.

•• فاجتمعوا في منأى عن الناس، وزعيمُهم عبد الله بن سبأ، وفيهم: شُريح بن أوفى، والأشتر النخعيّ، وخالد بن ملجَم، وعِلْباء بن الهيثم، في عدة ممن سار إلى عثمان بن عفان، وكانوا في أتباعهم نحو (ألفين وخمس مئة رجل)، وليس فيهم صحابي ولله الحمد[1].

(وتشاوروا فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله عليٌّ، وهو أعلمُ بكتاب الله ممن يطلب قتلةَ عثمان، وأقربُ إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم! غداً يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددُكم قليل في كثرتهم؟! فقال الأشتر: قد عرفنا رأيَ طلحة والزبير فينا، وأما رأي عليٍّ فلم

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٩٣؛ المنتظم: ٥/٨٦؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٩؛ ووقع في تاريخ الطبري ذكر الصحابي (عدي بن حاتم)، وهو غلط.

نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا علياً بعثمان، فَرَضي القوم منا بالسكوت! فقال ابن السوداء[١]: بئسَ ما رأيتَ، لو قتلناه قتلَنا؛ فإنا يا معشر قتلة عثمان في ألفين وخمس مئة، وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف، لا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم).

وتكلَّم عِلْباء بن الهيثم وغيره، وأخيراً كان الرأي الحاسم لابن سبأ حيث تكلم فقال: (يا قوم، إن عزَّكم في خُلْطة الناس، فصانِعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشِبوا القتال، ولا تفرِّغوهم للنظر، فإذا مَنْ أنتم معه لا يجد بدّاً من أن يمتنع، ويُشغِل الله عليّاً وطلحة والزبير ومَن رأى رأيهم عما تكرهون. فأبْصَروا الرأي، وتفرَّقوا عليه والناس لا يشعرون!)[٢].

•• وأجمع هؤلاء المجرمون على إنشاب الحرب في السر، واستسرُّوا بذلك خشية أن يُفطن بما حاولوا من الشرِّ، فغدَوا مع الغَلَس ـ وهم قريب من ألفي رجل ـ وما يَشعر بهم جيرانهم، انسلُّوا إلى ذلك الأمر انسلالاً، وعليهم ظُلمة، فخرج مُضَريُّهم إلى مضريِّهم، ورَبعيُّهم إلى ربعيِّهم، ويمانيُّهم إلى يمانيِّهم؛ فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهلُ البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بَهَتُوهم ـ أو: بغتوهم[٣] ـ.

وقام الناس من منامهم إلى السلاح فقالوا: طَرَقَنا أهلُ الكوفة ليلاً وبَيَّتُونا وغَدَروا بنا! وظنوا أن هذا الأمر عن ملأ من أصحاب علي! فبلغ الأمر عليّاً فقال: ما للناس؟ فقالوا: بَيَّتَنا أهلُ البصرة وغَدَروا بنا! فثار كل فريق إلى

---

(١) هو عبد الله بن سبأ.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٩٣ـ٤٩٤؛ الكامل، لابن الأثير: ٣/١٢٠؛ البداية والنهاية: ٧/٢٣٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٦؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٠.

سلاحه ولبســوا اللَّأْمة، وركبوا الخيول، ولا يشــعر أحد منهم بما وقع من المؤامرة، وقامت الحرب على ساق وقدم[(١)]!.

•• ولم يكن الفريقــان يقصدان إلى القتال، ولم يبــدأ عليٌّ أهلَ البصرة بالقتال حتى بدؤوه هم بتدبيرٍ خبيث من السبئيين. وقد جاء في «مصنف ابن أبي شيبة» من رواية زيد بن وهب ـ وهو ممن شــهد الوقعة مع علي ـ قال: (فكَفَّ ـ علي ـ عن طلحة والزبير وأصحابهما، ودعاهم، حتى بدؤوه فقاتلهم بعد صلاة الظهر، فما غربت الشمس وحول الجمل عينٌ تطرُف!)[(٢)].

وكثير من الروايــات الحديثية في ميــدان التاريخ والفتوحــات والفتن وغيرها؛ فيها اختصار كبير تفصِّله وتملأ فراغاتــه الروايات التاريخية، وهذه الرواية فيها إجمال فصَّلَتْه رواية سيف بن عمر، والمعنى: أن قتلة عثمان عَدَوْا على أهل البصرة، فــرَدُّوا عليهم ـ وهم لا يــدرون بالمؤامرة ـ فهجموا على جيش الكوفة، فظنَّ عليٌّ أن أخويه طلحة والزبير قاتلاه ابتداءً، فعندئذٍ قاتلهم.

ولم يحالِف التوفيقُ الدكتور الفاضل أكرم العمري حيث أشــار إلى هذه الرواية وقــرَّر أن طلحة والزبير بــدأا عليّاً بالقتال[(٣)]، وفي هــذا اتهام خطير للصحابيين الجليلين!.

تاسعاً ـ مجريات القتال، ومواقف أكابر الفريقين:

١ ـ الجولة الأولى:

•• أنشب الخوارج الســبئية القتال بين الفريقين في مكيدة يهودية خبيثة ماكرة، وتأييدٍ ومعونةٍ من أصحاب الأهواء، والحُرصاء على الزعامة، والسُّعاة

---

(١) المنتظم: ٥/٨٨؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٠.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٧٢٠؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ١٦/٣٧٣.

(٣) عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٤ـ٤٥٥.

في تمزيق وحدة الأمة، وعَماءٍ من الرَّعاع الذين يُساقون بلا تعقل أو روية، على نفس النهج الذي لفَّقوا فيه الأكاذيب وروَّجوها على الخليفة عثمان وولاته وسياسته، والتي أنهوها باستباحة دمه!.

وعندما بُوغِت الفريقان وهم في غفلة عما دُبِّر بليل، وفي سلامة من قلوبهم وإمساك بأيديهم عن إراقة دمٍ حرام ـ لم يجد كل فريق بُدّاً من الدفع عن نفسه، وردِّ المباغتة والعدوان.

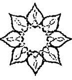
فأهل البصرة ظنوا أن إخوانهم من أهل الكوفة قد نقضوا الصلح وغدروا بهم، وكذلك ظن أهل الكوفة بأهل البصرة، ولا يشعر أي من الفريقين بما حدث في نفس الأمر على الحقيقة، وكان أمر الله قدراً مقدوراً(١).

(وقَصَفَ أهلُ البصرة أولئك الكوفيين حتى ردُّوهم إلى عسكرهم، فسمع عليٌّ وأهل الكوفة الصوت، وقد وضعوا(٢) رجلًا قريباً من علي ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا؟ قال ذاك الرجل: ما فجئنا إلا وقوم منهم بَيَّتونا، فردَدْناهم من حيث جاؤوا، فوجدنا القوم على رِجْل فركبونا، وثار الناس)(٣).

ومع هَوْلِ المفاجأة كان لا بدَّ لكل من الفريقين أن يستعد للمواجهة وردِّ العدوان، فتعبَّى كل من الجيشين ورتب قواته وصفوفه في ميمنة وميسرة وقلب. والسبئية لا يفتُرون عن إنشاب القتال، ومنادي علي ينادي في الناس: أَلَا كُفُّوا، ألا كفّوا.. فلا يسمع أحد(٤)!.

ويروي يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عمه قال: (لمَّا تواقَفْنا يوم الجمل، وقد كان عليٌّ حين صَفَّنا نادى في الناس: لا يَرمينَّ رجلٌ بسهمٍ، ولا

(١) البداية والنهاية: ٧/٢٤٠.
(٢) أي: السبئية.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٧؛ الكامل، لابن الأثير: ٣/٢٤٢.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٧؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٠.



يطعن برمح، ولا يضرب بسيف، ولا تبدؤوا القوم بالقتال، وكلِّموهم بألطف الكلام، فإن هذا مقامٌ مَنْ فَلَج فيه فَلَج يوم القيامة. فلم نزل وقوفاً حتى تعالى النهار، حتى نادى القوم بأجمعهم: يا ثارات عثمان! فنادى عليٌّ محمدَ ابنَ الحنفيَّة وهو أمامنا ومعه اللواء، فقال: يا ابنَ الحنفية ما يقولون؟ فأقبل علينا محمد ابن الحنفية فقال: يا أمير المؤمنين، يا ثارات عثمان! فرفع علي يديه فقال: اللَّهمَّ كُبَّ اليوم قتلة عثمان لوجوههم)[١].

وقال الحارث بن جُمْهَان: (لقد رأيتُنا يومَ الجمل وإنَّ رماحَنا ورماحَهم متشاجرة، ولو شاء الرجل أن يمشي عليها لمشَى! قال: وهؤلاء يقولون: لا إلٰه إلا الله والله أكبر، وهؤلاء يقولون: لا إلٰه إلا الله والله أكبر!)[٢].

وهكذا فالصحابة والصالحون الخيِّرون في الفريقين (كان رأيهم جميعاً في تلك الفتنة ألا يقتتلوا حتى يُبدؤوا، يطلبون بذلك الحجة، ويَستحقّون[٣] على الآخرين، ولا يقتلوا مدْبِراً، ولا يُجْهِزوا على جريح، ولا يتبعوا مولِّياً. فكان ـ ذلك ـ مما اجتمع عليه الفريقان ونادَوا فيما بينهما)[٤].

ولكن المنافقين والخوارج السبئية وأتباعَهم وأعوانَهم الذين اختلقوا الفتن من أيام عثمان؛ مضَوا في طغيانهم يعمهون، يوقدون الخلاف ويُسرِعون في الشر ويخلطون الأمور، ليُعَمُّوا عن أنفسهم، وليوقِعوا عامةَ المسلمين في أَتون الحيرة والريبة والظنون، ولا يَدَعون للعقلاء والمخلصين فرصة يستطلعون فيها الأمور على جليَّتِها، ويكشفون خيوط المؤامرة ويقبضون على مدبِّريها وسَدَنتِها. كذلك فالسبئيون يقصدون إلى أن يُكْثِروا من الفُتوق

(١) السنن الكبرى، للبيهقي: ١٨٠/٨؛ حياة الصحابة: ٤٥٩/٢ـ٤٦٠. **فلج**: ظَفِر.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١١/٨؛ تاريخ خليفة، ص١٩١، وفيهما أخبار أخرى.
(٣) أي: يطلبون الحق.
(٤) تاريخ الطبري: ٥٠٧/٤.

التي يصعب رتْقُها في حالات السلم فضلاً عن ساعات الفتنة والاقتتال. ولم تُجدِ معهم مناشـــدات زعماء الفريقين علي وأخويه طلحة والزبير: (ألا كفُّوا، ألا كفُّوا) (أيها الناس أتُنصِتون)! بل استمروا في المخالفة وإثارة الفتنة وجَلْدِ الأحداث لتسير في المهاوي التي دبَّروها لها، والفتنة إذا وقعت صعُب على الحلماء حلُّها، وعجز الحكماء عن إطفاء نارها.

●● تواقف الفريقان، وقد اجتمع في جيش علي (عشـــرون ألفاً)، والتفَّ على طلحة والزبير نحو من (ثلاثين ألفاً)[١].

وعبَّى كل منهما جيشـــه ونظَّم صفوفه، وعيَّن القادة على الخيل والرجَّالة والمقدمة والميمنة والميســـرة، **وكان من القادة في جيش علي**: ولداه الحسن والحسين، واللواء مع ابنه الثالث محمد المعروف بابن الحنفية، وابن عباس، وعمار بن ياســـر، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن جعفـــر. **ومن القادة في جيش البصرة**: طلحـــة والزبير وابنه عبد الله بن الزبيـــر، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان بن الحكم[٢].

ونَشِـــبت الحرب بيـــن الفريقين وقامت على ســـاق، وتبارز الفرســـان وجالت الشـــجعان، وتشـــابكت الرماح حتى يقول غير واحد ممن شـــهد الوقعة: (لقد رأيتُنا يوم الجمل وإنَّ رماحنا ورماحهم لمتشاجرةٌ، ولو شاءت الرجال لمشَتْ عليها!)[٣].

واشـــتد القتال، وأصحـــاب الفتنة الســـبئيون يســـعِّرون الحرب بين الطرفيـــن، وأقبل التابعي الجليل كعب بن سُـــوْر حتى أتـــى أم المؤمنين

(١) البداية والنهاية: ٢٤٠/٧؛ وانظر: تاريخ خليفة، ص١٨٤.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٨٤.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٠٨/٨؛ وانظر ما تقدم: ص ٣٤٧ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

عائشة فقال: أدركي، فقد أبى القوم إلا القتال، لعل الله يصلح بكِ. فركبتْ، وألْبَسوا هودجَها الأدراعَ، ثم بعثوا جملها، وبرزت حتى وقفت على مقربة من أرض المعركة وسمعت ضجة الغوغاء، وهي ترجو من مَقْدمها هذا أن يراها الناس، ويقدِّروا منزلتها ويحافظوا على حرمتها وهي زوج نبيهم ﷺ؛ فيكفُّوا عن القتال، فلم يتم ذلك، بل استمر مؤرّثو الفتن في إيقادها بين الفريقين[١]!.

ويروي الأحنف بن قيس فيقول: لما التقوا كان أول قتيل طلحة بن عبيد الله[٢]. (وكان القتال يستحرُّ إلى انتصاف النهار، وأُصِيب فيه طلحة، وذَهَب فيه الزبير[٣]، فلما أَوَوْا إلى عائشة، وأبَى أهل الكوفة إلا القتال ولم يريدوا إلا عائشة، ذَمَرتْهم عائشة، فاقتتلوا حتى تنادَوْا فتحاجزوا، فرجعوا بعد الظهر فاقتتلوا، وذلك (يوم الخميس في جمادى الآخرة ٣٦هـ)، فاقتتلوا صَدْر النهار مع طلحة والزبير، وفي وسطه مع عائشة. وتزاحَفَ الناس، فهَزمت يمنُ البصرة يمنَ الكوفة، وربيعةُ البصرة ربيعةَ الكوفة، ونَهَد عليٌّ بمُضَر الكوفة إلى مُضَر البصرة وقال: إن الموت ليس منه فَوْت، يدرِك الهاربَ ولا يترك المُقيم)[٤].

ورأى الزبير أن أمر الفتنة يتعالى ويشتد، والإصلاح ووقْفَ القتال يَخفت ويتلاشى؛ فآثر السلامة وتركَ أرض المعركة قاصداً الذهاب إلى المدينة، فلَحِقه بعض الظَّلَمة الخاسرين فقتلوه غدراً!.

وباستشهاد طلحة والزبير تنتهي الجولة الأولى من (وقعة الجمل).

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٠٧/٤؛ المنتظم: ٨٨/٥ـ٨٩.
(٢) تاريخ خليفة، ص١٨٥.
(٣) أي: ترك القتال وانسحب من المعركة كما سيأتي تفصيله.
(٤) تاريخ الطبري: ٥١٤/٤؛ المنتظم: ٨٩/٥.

٢ ـ الجولة الثانية:

•• وفي قلب المعركة ومع احتدام المواجهة سعى قادة الفريقين إلى إيقاف القتال وحَقْن الدماء، فأخذ أمير المؤمنين علي مصحفاً فطاف به في أصحابه وقال: مَن يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه؟ فتصدَّى له فتى، فصرفه عليٌّ عنه مرتين، وفي الثالثة أعطاه إياه، فقام يدعو الناس إلى الصلح، فاستهدفه السبئيون فقطعوا يده اليمنى ثم اليسرى، فضَمَّ المصحفَ إلى صدره والدم يسيل على قَبَائه، حتى قتلوه(١)!.

وفي جيش البصرة وقد استُشهد طلحة والزبير فكانت أم المؤمنين عائشة محطَّ الأنظار للقيام بدور خطير في إيقاف القتال، مع ما في بروزها في ساحة القتال من تعريضها للقتل بسهام السبئية المجرمين، فأمرتْ بحضور القاضي النبيل كعب بن سُوْر ـ وكان قد اعتزل ـ فلبَّى طلبها بإجلال وإكبار لمقامها(٢)، فجاء وأخذ بخطام جملها، فنادته وقالت: خَلِّ يا كعب عن البعير، وتقدَّمْ بكتاب الله عز وجل فادْعُهم إليه، ودفعَتْ إليه مصحفاً، وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح، فاستقبلهم كعب بالمصحف، وعليٌّ من خلْفهم يَزَعُهم ويأبَوْن إلا إقداماً، فلما دعاهم كعبٌ رشَقُوه رِشْقاً واحداً فقتلوه، ورمَوْا عائشة في هودجها، فجعلت تنادي: يا بَنيَّ البقيةَ البقيةَ ـ ويعلو صوتُها كثرةً ـ اللهَ اللهَ، اذكروا الله عز وجل والحسابَ.. فيأبون إلا إقداماً! فكان أول شيء أحدثَتْه حين أبَوْا أن قالت: أيها الناس، الْعَنوا قتلةَ عثمان وأشياعَهم.. وأقبلتْ تدعو.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥١١/٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٩٢/٧ـ٩٣.

وضَجَّ أهــل البصرة بالدعاء، وســمع علي بن أبي طالــب الدعاءَ فقال: ما هذه الضجــة؟ فقالوا: عائشــة تدعــو ويدعون معهــا على قتلــة عثمان وأشياعِهم، فأقبل يدعو ويقول: اللَّهمَّ العَنْ قتلة عثمان وأشياعَهم)[١].

وفي روايــةٍ عن محمد ابن الحنفيَّة: أن عليّاً بَلَغه أن أم المؤمنين عائشــة تلعن قتلة عثمان، فقال عليٌّ: (لعنَ الله قتلة عثمان في الســهل والجبل والبر والبحر!). ومن طريق آخر: قال علي: (اللَّهمَّ أَحْلِلْ بقَتَلة عثمان خِزياً)[٢].

وهكذا اشــترك صالحو الفريقين في لعــن قتلة أمير المؤمنين الشــهيد المظلوم، في الســاعة التي كان فيها قتلة عثمان يُنشِــبون القتال بين صالحي المسلمين[٣]!.

واســتجاب لنداء علي وأم المؤمنين الصالحــون والمخلصون والعلماء والعقلاء، وكثيرٌ ما هم، لكن السبئية والغوغاء ونُزَّاع القبائل والمطرودين من قبائلهم لا يأبهون لدينٍ أو خُلق، ولا يرجِعون إلى فضيلة أو مكرمة؛ مستمرون في ضلالهم وتسعيرِهم نار الحرب!.

وقصد أولئك المجرمون أمَّ المؤمنين واســتهدفوا جملَها، فالتف حولها أهل البصرة ومن كان معهم من أهل مكة والمدينة يحمونها وينافحون عنها، والخوارج الســبئية وقتلة عثمان منبثون بين الناس ويقاتلون ضمن عشائرهم لكي لا يتميزوا فيُؤخَذوا ويُقتلوا، وكذلك ليســتجروا معهم قبائلَهم ويخلطوا الأمور ويزيدوا من حدة الخلاف والاشتباك وتسعير القتال!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥١٣/٤؛ البداية والنهاية: ٢٤٢/٧ـ٢٤٣؛ وجاء مختصراً في طبقات ابن ســعد: ٩٢/٧؛ وتاريخ خليفة، ص١٨٥.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٢/٨، ٧١٦، والأسانيد صحيحة.

(٣) هامش العواصم من القواصم، ص١٦١.

فلما رأى عقلاء الفريقين شـدة الاشـتباك تنادوا في العسكرين: (يا أيها الناس طَرِّفـوا)؛ أي: تجنَّبوا القتل، وإذا كان لا بدّ مـن قتال فعلى الأطراف: الأيدي والأرجل، فما رُئيت وقعةٌ قط أكثرَ يـداً ورجلاً مقطوعة منها! ودافع الذين حول الجمل حتى أبعدوا المهاجمين، (ثم ضربوا ضرباً ليس بالتعذير ـ أي: المبالَغ فيـه ـ ولا يَعْدِلـون بالتطريف، حتى إذا كثُـر ذلك وظهر في العسكرين جميعاً؛ راموا الجمل وقالوا: لا يزال القوم أو يُصرع ـ الجمل ـ!)[١].

●● واستهدف السبئية جملَ أم المؤمنين عائشة يريدون قتلها، وقد تكاثَفَ حولها المدافعـون عنها، فكانـت أم المؤمنين في حَلْقة مـن أهل النَّجدات والبصائـر، وكان من يأخذ بزمام الجمل يحمل الراية وينتسـب لها: أنا فلان ابن فلان، وكانوا يقاتلون عليه وإنه للمـوتُ لا يوصَل إليه إلا بِطِلبةٍ وعَنَت، وما رامه أحد من أصحاب علـي إلا قُتل أو أَفْلَت ثم لـم يَعُدْ! ولما اختلط الناس بالقلب جاء الأشتر النخعي فحامله عبد الرحمن بن عتَّاب بن أَسِيد[٢]، وإنه لأقطـعٌ مَنْزوفٌ، ثم جَلَد به الأرض عن دابتـه، فاضطرب تحته، فأفلت وهو جَرِيض[٣]!.

وكان هذا الأشـتر من رؤوس الشـرِّ ومن عُتاة المؤجِّجيـن لنار القتال، لا يرعوي ولا يتورع عن إثارة الفتنة منذ أيام عثمان بن عفان!.

وتقـدم عبد الله بن الزبير وبه سـبع وثلاثون جراحة مـن ضربة وطعنة، وأخذ بزمام الجمل، ومشـى إليه الأشـتر النَّخَعي، فاختَلَفا ضربتين، ضَربه الأشتر فأَمَّه، وواثَبه عبد الله فاعتنَقَه فخرَّ به، وجعل يقول: (اقتلوني ومالكاً)،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٥١٥ـ٥١٧؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٣.

(٢) أبوه عتاب بن أسـيد الأموي أمير مكة في عهد النبي ﷺ، وكان عبد الرحمن من الأشداء الذين نافحوا عن أم المؤمنين، وقُطعت يده قبل لقائه الأشتر في حملة قطع الأطراف!.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٥٢٥. جَرِيض: مجهود ذاق غصص الموت!.



وكان النــاس لا يعرفونه بمالكٍ، ولو قال: (والأشــتر)، وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء! وما زال يضطرب في يديْ عبد الله حتى أَفْلَت[١]!.

وجــاء محمد بن طلحة بــن عبيد الله المعــروف بالسَّــجَّاد فأخذ بزمام الجمل، وقــال لأم المؤمنين: يا أُمَّتاه، مُرِيني بأمــركِ، قالت: آمرُكَ أن تكون كخير ابني آدم إنْ تُرِكتَ. فحمل، فجعل لا يَحمِــل عليه أحد إلا حمل عليه ويقول: (حم، لا ينصرون)، واجتمع عليه نفر، فكلُّهم ادّعى قتْلَه[٢]!.

●● واشــتد القتال حول أم المؤمنيــن من قِبل دعاة الفتنة من الســبئيين والمدافعين عنها؛ يقول حُجير بن الربيع العَدَوي: (قُتل بَشرٌ كثير حول عائشة يومئذٍ، سبعون كلهم قد جمع القرآن، ومن لم يجمع القرآن أكثر)[٣].

ويقول أبو رجاء العُطَارديّ: (لقد رأيتُ الجمل يومئذٍ كأنه قُنفذ من النَّبْل، ورجل آخذٌ بالخِطام وهو يقول:

نحنُ بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجَملْ ... نُنازِل المــوتَ إذا الموتُ نَزلْ
والموتُ عندنا أحلَى من العسل ... ننعَى ابنَ عفان بأطراف الأَسَلْ

قال: فأقسم بالله ما بَرِح حتى برى قوائم البعير، فسقط، فقالوا: أُمُّنا أمُّنا! فقــال رجل لأبي رجــاء: ما صنعتَ يومئذٍ؟ قــال: رميتُ بأســهمٍ فما أدري ما فعلن)[٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٥٢٥ـ٥٢٦، ٥٣٠؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٤. **أَمَّه**: شَــجَّه شجة بلغتْ أمَّ رأسه وهي الجلدة المحيطة بالدماغ.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٢٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/٢٨٨؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٥، بإسناد صحيح لغيره.

(٤) تاريخ خليفة، ص١٩٠ بإســناد حســن؛ وبنحوه عند الطبري: ٤/٥٣٠ـ٥٣١، ٥٣٣. **الأســل**: الرماح. **برى**: أي نحتت قوائمه.

ورأى الصالحون المخلصون أن المعركة سيستمر لهيبها ما دامت أم المؤمنين على جملها، ومُعْظَمُ الفريقين يحرص على حرمتها وحياتها، وفيهما كذلك المجرمون الذين لا يرجون لله وقاراً، وليس عندهم دينٌ يَردعُهم، ولا خُلق ينفعهم، ولا قائد يَزَعُهم ويغلُّ أيديَهم! فاجتهد أمير المؤمنين عليٌّ وغيرُه في أن يعقِروا الجمل لينفضَّ الناس ويتوقف القتال وتُحقن الدماء، وتُحفظ حرمة أم المؤمنين وحياتها وكرامتها.

روى الصعب بن حَكيم بن شَريك، عن أبيه، عن جدِّه شَرِيك بن نَمْلَة قال: قال علي: مَن رجلٌ يحمل على الجمل؟ فانتَدبَ له هند بن عَمْرو المُرادي، فاعترضَه عمرو بن يَثْربي فقتله، ثم حمل آخرون، فاعترضَهم ابنُ يثربي وقتل ثلاثة منهم[(١)].

وفي رواية عن عبدالله بن الزبير: (ونادى علي: اعقروا الجمل، فإنه إنْ عُقر تفرَّقوا. فضربه رجلٌ فسقط، فما سمعتُ صوتاً أشدَّ من عَجيج الجمل)[(٢)].

وفي رواية: أن الذي أشار بعَقْر الجمل هو الصحابي القعقاع بن عمرو[(٣)].

وفي رواية صحيحة: عن عبدالرحمن بن أَبْزَى قال: (انتهى عبدالله بن بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعي إلى عائشة يوم الجمل وهي في الهودج، فقال: يا أم المؤمنين، أَتعلمينَ أني أتيتُكِ عندما قُتل عثمان فقلتُ: ما تأمريني؟ فقلتِ: الزَمْ عليّاً؟ فسكتَتْ. فقال: اعقِروا الجمل، فعقروه. فنزلتُ أنا وأخوها محمد فاحتملنا هودَجها فوضعناه بين يدَيْ عليٍّ، فأَمر بها فأُدخِلتْ بيتاً)[(٤)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٢٩/٤ـ٥٣٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٥١٩/٤؛ البداية والنهاية: ٢٤٤/٧ـ٢٤٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٥٢٧/٤.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٠/٨؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٣٧٣/١٦، وقال: سنده جيد.

ولا تعارض بين هذه الروايات، فقد كان أمير المؤمنين وطائفة كبيرة من الصحابة والأخيار حريصين على أم المؤمنين وجلالتها وحرمتها وكرامتها، وكلهم سعى لتجنيبها كل ما يؤذيها.

روى أبو جميلة البَكَّائي قال: (إني لفي الصف مع عليٍّ إذ عُقِر بأم المؤمنين جملُها، فرأيتُ محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر يشتدان بين الصفين أيهما يَسبق إليها، فقطعا عُرْضَة الرحْل فاحتملاها في هودجها!)[١].

وكذلك حرص القعقاع بن عَمْرو وزُفر بن الحارث على الإحاطة بالسيدة عائشة عندما عُقِر الجمل، وأحاطا بهودجها حتى لا يصل إليها من يريدها بسوء[٢].

• • **ولما سقط الجمل انهزم الناس، وانتهت المعركة وألقت الحرب أوزارها، بعد أن تركت جراحاً في جسم الأمة من ذلك الوقت ولا تزال إلى الآن تجد من ينكؤها**، ويستطيل بلسانه وقلمه على الصحابة ويقع في أعراضهم، ويتغاضى عن جرائم قتلة عثمان والسبئية الذين كانوا ضد كل إصلاح وتسكين، ومساعِرَ شرٍّ وموقدي فتنة!.

٣ ـ تاريخ الوقعة ومدتها:

عن قتادة قال: التقوا في النصف من جمادى الآخرة سنة (٣٦هـ)، وكانت الوقعة يوم الجمعة[٣].

وقريب منه قول عمر بن شبة في «أخبار البصرة»[٤].

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٥٢٧/٤.

(٣) تاريخ خليفة، ص١٨٤ـ١٨٥؛ تاريخ الطبري: ٥٠١/٤.

(٤) الفتح: ٣٧٢/١٦.

واستغرقت الوقعة نصف يوم:

قال المسعودي: كانت وقعة واحدة في يوم واحد. وحددها اليعقوبي بقوله: كانت الحرب أربع ساعات من النهار[١].

وقريب منه رواية عن الشعبي[٢].

ويؤيد ذلك رواية صحيحة عن زيد بن وَهْب قال: (فقاتَلَهم عليٌّ بعد صلاة الظهر، فما غربت الشمس وحول الجمل عينٌ تَطْرُف ممن كان يَذبُّ عنه)[٣].

٤ ـ عدد القتلى:

ذكرت عامة كتب التاريخ القديمة (أعداداً ضخمة) للقتلى من الفريقين، وجرى على ذلك كثير من الكتاب المعاصرين، دون النظر في صحة الخبر ونقده علميّاً ومنطقيّاً.

●● ذكر خليفة بن خياط أن عدد القتلى يوم الجمل: (عشرون ألفاً)، وفي رواية: (ثلاثة عشر ألفاً) منهم (خمس مئة) من أصحاب علي[٤].

ونقل الطبري أن عددهم: (عشرة آلاف)، نصفهم من أصحاب علي والنصف الآخر من أصحاب عائشة. وذكر في موضع آخر أن العدد يزيد على (ستة آلاف)[٥].

وتابعه ابن الجوزي وابن كثير والذهبي وغيرهم[٦].

---

(١) مروج الذهب: ٢٧٥/٢؛ تاريخ اليعقوبي: ٨١/٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٥١٢/٤.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٠/٨؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ٣٧٣/١٦.

(٤) تاريخ خليفة، ص١٨٦.

(٥) تاريخ الطبري: ٥٣٩/٤، ٥٤٥.

(٦) المنتظم: ٩٣/٥؛ البداية والنهاية: ٢٤٥/٧؛ العبر: ٢٧/١.

وقال اليعقوبي: (وكانت الحرب أربع ساعات من النهار، فروى بعضهم أنه قُتل في ذلك اليوم نيِّف وثلاثون ألفاً!)[1].

وأما المسعودي فذكر أن قتلى يوم الجمل من أهل البصرة: (ثلاثة عشر ألفاً)، ومن أصحاب علي: (خمسة آلاف)[2].

وعلى مثل هذه الأرقام مشى كثير من المعاصرين[3]، ومما قاله هشام جعيط ـ بعد أن ذكر نحو ما قدمنا ـ: (وفي إمكان المؤرخ الحديث أن يحاول التقليل من إجمالي عدد القتلى في المعسكرين... ولكن من الصعب النزول إلى ما دون بضعة آلاف)[4].

•• نقول: هذا التضخيم في عدد القتلى والتهويل في حجم خسائر الفريقين؛ غير صحيح وهو من مجازفات الرواة والمؤرخين، ومن الكلام الذي يُلقى على عَوَاهِنِه، وباطل من عدة وجوه:

١ ـ حِرصُ قادة الفريقين والصلحاء والخيِّرين على تحاشي القتال، والأمرِ بالكَفِّ عنه، والمناداة في الجيشين: ألَا كُفّوا، ألا كفوا، ورفْعُ المصاحف، والتصريحُ بأنهم إنما خرجوا للإصلاح، وقول الكثيرين: (لوَدِدتُ أني لم أشهد ذلك اليوم)، وندمُ أكابر الفريقين على ما حصل.

٢ ـ التحرُّجُ من القتال عند عامة الطرفين، واستحضارُ الآيات التي تأمر بحفظ الدماء وترهِّب من الاجتراء على قتل نفس واحدة؛ كقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٨١/٢.

(٢) مروج الذهب: ٢٧٥/٢.

(٣) فضائل الإمام علي، لمغنية، ص٣٨؛ علي بن أبي طالب، لعبد الكريم الخطيب، ص٣٥٥ـ٣٥٦؛ الإمام القائد، لبسام العسلي، ص٧٧.

(٤) كتابه: الفتنة، ص١٩٣ـ١٩٤.

٣ ـ كان الغالب على القتال في تلك الوقعة المدافعةَ والمواقفة ورفْعَ السلاح من كل طرف في وجه الآخر، وتقديمَ الجرح والإيلام على القتل، وإلى هذا تشير عدة روايات من مثل: (لما كان يوم الجمل أشرَعْنا الرماحَ في صدورهم وأشرعوها في صدورنا... وأنا أسمع هؤلاء يقولون: لا إلٰه إلا الله والله أكبر، وهؤلاء يقولون: لا إلٰه إلا الله والله أكبر)[(١)].

٤ ـ معظمُ أفراد الفريقين كانوا من قبائل واحدة سكنت في الكوفة والبصرة، وتواجهت في تلك الوقعة: مُضَر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة... فكانوا عند المواجهة يرعوون عن القتل والجرأة فيه، وهم يذكرون الله والإسلام وحرمة الدم والقرابة.

٥ ـ كانت الجولة الثانية من المعركة أعظمَ إيلاماً وأشدَّ فتكاً وأكثر قتلى حيث استهدف السبئيون القتلةُ أمَّ المؤمنين عائشة ومَن حول الجمل حتى صار الهودج كالقنفذ كما قدمنا، ومع ذلك فقد صحت الرواية: (قُتل بشرٌ كثير حول عائشة يومئذٍ، سبعون كلهم قد جمع القرآن، ومن لم يجمع القرآن أكثر)[(٢)]؛ وهو عدد ضئيل إذا قورن بالأعداد الهائلة التي ذكرتْها الروايات الطائشة، ويشير إلى أن العدد الحقيقي لا يتجاوز بضعَ مئات.

ويؤيد ذلك أن كثيراً من الروايات ينص على أن القتلى في جيش علي (٤٠٠ إلى ٥٠٠ نفس)، ولو أن هذا العدد قَتل مثلَه من جيش البصرة؛ لَما تجاوز قتلى الطرفين ألفَ نفس، ولا يعقل أن أولئك الخمس مئة قتلوا من جيش عائشة (ثلاثة عشر ألف نفس) كما ذكرت الرواية نفسها!.

---

(١) انظر ما تقدم: ص٣٤٧ في هذا الكتاب.

(٢) تقدم: ص٣٥٣ في هذا الكتاب.

٦ ـ ذَكرت روايات كثيرة أن أمير المؤمنين صلَّى على قتلى الفريقين، وهذا يشير إلى ضآلة عددهم، إذ لا يُعقل البتَّة أن يبلغوا بضعةَ عشر ألفاً؛ فأي مكان يجمعهم وأية مقابر تسعُهم! هذا ما لا نعرفه حتى في الحروب الحديثة التي تدمر كل شيء.

٧ ـ لم تحدث في نهاية المعركة عملياتُ انتقام أو ملاحقة للفارِّين من ساحتها، أو إجهازٌ على الجرحى، أو حدوث مجازر فيهم، بل كان النداء يتردَّد من قادة الطرفين: ألَّا يُتبع مدبِر، ولا يُذَفَّف على جريح.

٨ ـ قِصر مدة المعركة التي امتدت نصفَ يوم كما ثبت في رواية صحيحة، أي: نحو ست ساعات، وهي مُدَيْدة لا يمكن أن تُزهق فيها أرواح أكثر من عدة مئات. والروايات التي تذكر أن عدد القتلى (٢٠ ألفاً) أو (٣٠ ألفاً)؛ هي باطلة بيقين، ولا تروج على من له مَسْكَة من عقل؛ فمعركةٌ مدتها أقل من (٤٠٠ دقيقة) يُقتل فيها مثل ذاك العدد الضخم، تعني أنه يقتل في الدقيقة الواحدة نحو (٦٠ نفساً)، فمن يصدق هذا؟!.

وفي تاريخنا القديم أمثلة مقارنة تدحضُ ذلك؛ فمثلاً معركة اليرموك استُشهد فيها من المسلمين (ثلاثة آلاف)، مع اتساع وقت القتال، وشراسة الأعداء، وكثرة أعداد الجيشين.

وأيضاً الحروب الحديثة تشهد ببطلان تلك الأرقام الخيالية؛ فلقد قرأنا وشهدنا حروباً تُستخدم فيها كل أسلحة الفتك والتدمير من مدفعية ودبابات وصواريخ وطائرات، وعلى مدى أيام طويلة بل أشهر، لم يَسقط فيها من القتلى مثل تلك الأعداد المزعومة التي ذكرها الأخباريون عن وقعة الجمل في (نصف يوم) و(بأسلحة بدائية يدوية)!.

ولقد أطلتُ البحثَ والنقد لهذا الموضوع؛ لبيانِ تهافته، وكشفِ المبالغات والتزوير والتضليل الذي روَّجه الرواة الضعفاء، وتناقلَتْه الكتب والجمَّاعون

من المؤلفين على مرِّ السنين حتى زماننا. وأيضاً لبيان الإساءة المتعمَّدة إلى رجالنا وتاريخنا؛ حيث توحي تلك الروايات بأن رجال ذلك العهد حُرَصاء على هدر الدماء وغيرُ عابئين بحرمة الأنفس، ولا يَحكمهم شرف الأخلاق في القتال عند الخلاف! كما أنها تخفي الجريمة التي اقترفتها السبئية وقتلة عثمان؛ بهدف الإيحاء لقارئ تاريخ ذلك العهد بأن الجميع والغٌ في القتل، وليس فقط تلك العصابة المجرمة؛ وفي هذا تبرئة لأصحاب الفتنة وتعميم للجريمة على الجميع، وكفى بذلك خطورة وخيانة لذلك العهد وأولئك الرجال الشرفاء الذين لوّثَتْ تاريخَهم مثلُ تلك الروايات التالفة!.

عاشراً ـ مواقف جليلة في أعقاب المعركة:

١ ـ جاء عن أمير المؤمنين عليّ مِنْ غير وجه: أنه أمر مناديه يوم الجمل: أن لا يُتبع مدبِر، ولا يُذَفَّف على جريح، ولا يُقتل أسير، ومَن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ولا يُستحل فرْج ولا مال، ولا يؤخذ من متاعهم شيء[1].

٢ ـ بعد أن فرغ عليٌّ من الوقعة جمع ما وجده لأصحاب عائشة في المعسكر، وأَمر به أن يُحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئاً هو لأهله فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سِمَةُ السلطان. ودخل البصرة فوجد في بيت المال (ست مئة ألف درهم)، فقسمها على من شهد معه الوقعة، فأصاب كل رجل (خمس مئة، خمس مئة). فخاضَ في ذلك السبئية وطعنوا على أمير المؤمنين من وراء وراء[2].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٧٥/٧، ٧١٠/٨، ٧١١، ٧١٨، ٧١٩؛ مصنف عبد الرزاق (١٨٥٩٠، ١٨٥٩١)؛ سنن سعيد بن منصور: ٣٣٧/٢ـ٣٣٨؛ فضائل الصحابة، لأحمد: ٧٣٧/٢، بأسانيد متعاضدة إلى الصحيح.

(٢) تاريخ الطبري: ٥٣٨/٤ـ٥٣٩، ٥٤١؛ البداية والنهاية: ٢٤٥/٧.

عن عبد خير: (أن عليّاً لم يسبِ يوم الجمل ولم يخمّس، قالوا: يا أمير المؤمنين، ألا تخمِّس أموالَهم؟ فقال: هذه عائشة تستأمرونها! قالوا: ما هو إلا هذا، ما هو إلا هذا)[١].

قال البيهقي: الصحيح أن عليّاً لم يأخذ شيئاً، ولم يسلب قتيلاً[٢].

وفي رواية عن أبي البَخْتري: (قالوا: يا أمير المؤمنين، تحلُّ لنا دماؤهم ولا تحلُّ لنا نساؤهم! قال: فخاصَموا، فقال: كذلك السيرة في أهل القبلة، فهاتوا سهامَكم واقرَعُوا على عائشةَ فهي رأسُ الأمر وقائدهم! قال: ففَرِقوا، وقالوا: نستغفر الله! قال: فخَصَمهم عليٌّ)[٣].

٣ ـ ويدلُّك على عمق المأساة في قلب أمير المؤمنين ما كان يَنفثُه من الآهات والتوجُّع وهو يرى الأخيار قد جُندِلوا على أرض المعركة بسبب تلك الفتنة العمياء!.

أقام عليٌّ في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة، وندَب الناس إلى موتاهم فخرجوا إليهم فدفنوهم، فطاف عليٌّ معهم في القتلى، فلما أُتي بكعب بن سُوْر قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الحَبْر قد ترون! وأتى على عبدالرحمن بن عتَّاب فقال: هذا يَعْسُوب[٤] القوم. وجعل علي كلما مرَّ برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء، هذا العابد المجتهد! وصلَّى على قتلاهم من أهل البصرة وعلى قتلاهم من أهل الكوفة، وصلَّى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكيين، ودفن الأطراف في قبر عظيم[٥].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٠٧/٨، بإسناد صحيح؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٠.
(٢) السنن الكبرى: ١٨١/٨.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٠/٨، وسنده صحيح.
(٤) هو السيد والرئيس.
(٥) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٩/٨؛ تاريخ الطبري: ٥٣٨/٤؛ البداية والنهاية: ٢٤٥/٧.

٤ ـ وبعد الفراغ من المعركة أقبل أمير المؤمنين على مخالفيه الذين قاتلوه، وبذل لهم الرفق والمسامحة، وبادلوه هم كذلك بالموافقة وتجاوز المحنة والحرص على وشائج الأخوة وتوحيد الكلمة، وجددوا له البيعة.

عن موسى بن طلحة بن عبيد الله قال: (انطلقتُ فدخلتُ على أمير المؤمنين فسلَّمتُ، فقال: أتبايع، تدخل فيما دخل فيه الناس؟ قلت: نعم، قال هكذا؛ ومدَّ يده فبَسَطها، قال: فبايعتُه. ثم قال: ارجِع إلى أهلك ومالِك. قال: فلما رآني الناس قد خرجتُ، جعلوا يدخلون فيبايعون)(١).

٥ ـ ويأتي الصحابي الجليل عمار بن ياسر، وهو من أبرز وجوه الناس في جيش علي، فيستأذن على أم المؤمنين عائشة ويعاتبها على اجتهادها في خروجها:

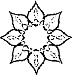
عن أبي يزيد المديني قال: (قال عمار بن ياسر لعائشة لمَّا فرغوا من الجمل: ما أبعدَ هذا المسيرَ من العهد الذي عُهِد إليكم ـ يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ـ فقالت: أبو اليقظان! قال: نعم، قالت: والله إنكَ ما علمتُ قوَّال بالحق، قال: الحمدُ لله الذي قضَى لي على لسانك)(٢).

وعن عَمْرو بن غالب قال: (دخل عمار والأشتر على عائشة بالبصرة، فقال عمار: السلامُ عليكِ يا أُمَّه، قالت: لستُ لك بأمٍّ، قال: بلى، وإنْ كرهتِ!)(٣).

ومع كل ما جرى كان عمار ـ شأن جميع الصحابة والأخيار الذين طهَّر الله قلوبَهم وألسنتَهم ـ يُجلُّ السيدة عائشة ويؤكِّد منزلتها في الإسلام، ويقرِّع

---

(١) تقدم: ص٢٩٤ ـ ٢٩٥، وانظر: تاريخ الطبري: ٥٤١/٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٥٤٥/٤ـ٥٤٦؛ وصحَّحه الحافظ في الفتح: ٣٧٥/١٦ (٧١٠٠).
(٣) تهذيب الكمال: ١٨٥/٢٢.



كل من يجترئ على النَّيل من مقامها الرفيع، وعندما سمع رجلاً ينالُ منها قرَّعه قائلاً: (اغرُبْ مَقْبوحاً مَنْبوحاً، أَتؤذي حبيبةَ رسول الله ﷺ؟!)(١).

حادي عشر ـ بين أمير المؤمنين علي وأم المؤمنين عائشة:

١ ـ توطئة:

الدارس المنصِف لعصر الخلفاء الراشدين يتحقق بيقين أن الصحابة جميعاً رضوان الله عليهم كانوا على أرفع مكارم أخلاق الإسلام التي ربَّاهم عليها النبي ﷺ، مع الصديق والعدو في السرّاء والضرّاء، وهكذا كانوا فيما بينهم في حالات الوفاق والخلاف، واليسر والعسر، لا يخرج بهم الغضبُ والتمسك بالرأي والاجتهاد إلى العصيان والعدوان والخروج عن آداب القرآن، ولا يذهب بهم حظُّ النفس إلى تجاوز مبادئ الإسلام والنكول عن الشمائل النبيلة التي تأصلت في أنفسهم وعاشوها حياتهم حتى لقوا وجه ربهم.

وعلى هذا النهج بقي الصحابة وبخاصة أكابرُهم في زمن الفتنة الجامحة أيام الجمل وصفِّين بل والنهروان! كما تؤكد ذلك الأحاديث الصحيحة والأخبار المستقيمة والمواقف التاريخية المتعددة.

وبمثل هذا الهَدْي تهدَّى أمير المؤمنين علي والسيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة، في نشر الفضائل، والاعتراف بالمكارم، والودّ والاحترام والتبجيل المتبادل، والصفح والتسامح والإعذار على المخالفة في الاجتهاد، والمعاملة بالحسنى، وإظهار ذلك كله أمام الأشهاد.

فلم يكن بينهما غِلٌّ قديم ولا حقدٌ دفين، ولا جرى تأليبٌ أو انتقام، ولا حدَثَتْ إهانة ولا تشهير، ولا صدر قدحٌ ولا ذَمٌّ، ولم يَثبت اتهامٌ أو

---

(١) حديث صحيح، تقدم: ص٢٩٩ في هذا الكتاب.

شـــتم، ولا صَحَّ من ذلك شـــيء من قِبل علي في حق السيدة، ولا منها في حق أمير المؤمنين.

بَيْدَ أن إرْثـاً ثقيلاً من الأخبـار الواهية والأسـاطير المختَلَقة والمواقف المفتعلة والشتائم والإقذاع و... و... قد ناءَ بها كاهلُ كتب التاريخ في (تراث أهل السُّنَّة)، دَعْ عنك (تراث دين الرافضة)!.

والأنكى من ذلك والأشد مرارة وأعمق مأساة، أن تلك البلايا والرزايا قد تمَّ توارُثها (كأنها جينات سـائدة) عبر أجيال من المؤرخين والكتَّاب، حتى وصلت إلينا كأنها مسـلَّمات، بعضُها عن قصد وخبث ومكر وكيد وبغضاء وحقد، وبعضٌ آخر عن غباء وغُثائية وتقليد، وبعضٌ ثالث ناجم عن انخداع بذلك (الموروث) الذي صدَّقه فريق عريض من النـاس، لكثرة ترداده وثقلِ الأحداث التي تناولها!.

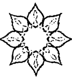
في هذا الإطار نفهم ما جرى وما نقل إلينا عن علاقة أمير المؤمنين علي مع أكابر الصحابة في أحداث البصرة ووقعـة الجمل وكذلك في خلافه مع أهل الشام وأميرهم معاوية ووقعة صفين.

٢ ـ عائشة تشيد بعليٍّ وتنشر مكارمه وتبرِّئه مما افتُرِي عليه:

أ ـ عن عائشـة قالت: (خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل من شعرٍ أسوَدَ، فجاء الحسنُ بن علي فأَدْخَلَه، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمـةُ فأدخلها، ثم جاء علـيٌّ فأدخَلَه، ثم قـال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣])(١).

ب ـ وعن شُريح بن هانئ قال: (سألتُ عائشةَ عن المسح على الخفَّين؟ فقالت: سَـلْ عليّاً فإنه أعلمُ بهذا منِّي، كان يسـافر مع رسـول الله ﷺ. قال:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٢٤). مرط: كساء. مرحل: منقوش عليه صور رحال الإبل.



فسألتُ علياً؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**للمسافر ثلاثةُ أيام ولياليهنَّ، وللمقيم يومٌ وليلة**»)[١].

ج ـ وعن جَسْرة بنت دِجاجة قالت: (ذُكر عند عائشة صومُ عاشوراء، فقالت: مَن يأمُركم بصومِه؟ قالوا: عليٌّ، قالت: إنه أعلمُ مَن بقي بالسُّنَّة)[٢].

د ـ وروى عُبيد الله بن عياض بن عَمْرو القاريُّ قال: (جاء عبد الله بن شدَّاد فدخل على عائشة ونحن عندها جلوس، مرجعَه من العراق لياليَ قُتل عليٌّ، فقالت له: يا عبدَ الله بن شداد، هل أنت صادقي عما أسألُك؛ تحدِّثُني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم[٣] علي؟ قال: وما لي لا أَصْدُقُكِ؟! قالت: فحدِّثْني عن قصَّتِهم...)، فذكر حديثاً طويلاً فيه قصة الخوارج وقتْل عليٍّ لهم، وفي آخره: (قالت: فما قول عليٍّ حين قام عليه[٤] كما يزعمُ أهل العراق؟ قال: سمعتُه يقول: صَدَقَ الله ورسوله، قالت: هل سمعتَ منه أنه قال غيرَ ذلك؟ قال: اللَّهمَّ لا، قالت: أَجَلْ، صدقَ الله ورسوله، يرحمُ الله علياً إنه كان من كلامه لا يرى شيئاً يُعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهبُ أهل العراق يَكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث)[٥].

هـ ـ وعن عبد الرحمن بن أَبْزَى قال: (انتهى عبد الله بن بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعي إلى عائشة يوم الجمل وهي في الهودج، فقال: يا أم المؤمنين،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦)؛ وابن ماجه (٥٥٢)؛ وأحمد (٧٤٨)، وغيرهم.
(٢) تاريخ ابن عساكر: ٤٨/٣؛ الاستيعاب: ٤٠/٣.
(٣) أي: الخوارج.
(٤) تعني: (**ذا الثُّدَيَّة**) وقد قام علي عليه وهو مقتول.
(٥) أخرجه أحمد (٦٥٦)؛ والحاكم: ١٥٢/٢ـ١٥٤ وصحَّحه، ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه ابن كثير في البداية والنهاية: ٢٨٠/٧ـ٢٨١.

أتعلمينَ أني أتيتُكِ عندمـا قُتل عثمان فقلتُ: ما تأمريني؟ فقلتِ: الزَمْ عليّاً؟! فسكتَتْ. فقال: اعقِروا الجمل، فعقروه)[1].

فهذا الحديث وما قبله يؤكد إجلالَ السيدة لأمير المؤمنين، وثناءَها عليه، ونشْـرَها فضائله، وأنها بقيتْ على ذلك حتى بعد وقعـة الجمل، وهي تقرِّر صحةَ بيعة علي وأحقيتَه بالطاعة، وأنها ما نقضَتْ بيعتها له، ولا طعنَتْ عليه، ولا خرجت ضده ولا ألَّبتِ الناس عليه، ولا قصدت شيئاً من ذلك ولا سعت إليه، واستمرت في موقفها من علي على أرفع أخلاق الإسلام.

و ـ ولمَّا جهَّز أمير المؤمنين عائشـةَ ووضع لها الرفقـة التي ترافقها من البصرة إلى المدينة، خرجت السيدة عائشـة على الناس وفي مقدمتهم علي، ووَدَّعُوهـا وودَّعَتْهم، وقالـت: (يا بَنيَّ، تعتَّـبَ بعضُنا على بعض اسـتبطاءً واستزادة، فلا يعتدَّنَّ أحدٌ منكم على أحدٍ بشيء بَلَغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين عليٍّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على مَعْتَبَتي من الأخيـار. وقال علي: يا أيها الناس، صدقـتْ والله وبَرَّتْ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجةُ نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة)[2].

ز ـ وأما ما جاء في موقـف عليٍّ من (قصة الإفك)، فحاشـاه أن يكون قصَدَ الإساءة إلى جناب السـيدة عائشـة وطهارتها وبراءتها، وهو يعلم أنها زوجة النبـي ﷺ في الدنيا والآخـرة، ومُحال أن يُنال من شـرفها صيانةً لها ولعِرْضها وعِرْض رسول الله ﷺ !.

وفي حديث الإفك الطويل عن عائشـة رضي الله عنها قالت: (ودعا رسـول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامةَ بن زيد حين استَلْبَثَ الوحيُ يسألُهما ويستشيرهما في فِراق أهله. قالت: فأما أسـامةُ فأشار على رسـول الله ﷺ بالذي يَعلمُ من

(١) تقدم: ص٣٥٤ في هذا الكتاب.
(٢) تاريخ الطبري: ٥٤٤/٤؛ البداية والنهاية: ٢٤٦/٧.

براءة أهله وبالذي يعلمُ لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلُكَ، ولا نَعلمُ إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسولَ الله، لم يُضَيِّق الله عليك، والنساءُ سواها كثيرٌ، وسَلِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ)[1].

قال الحافظ: (وهذا الكلامُ الذي قاله عليٌّ حمله عليه ترجيحُ جانب النبي ﷺ لِما رأى عنده من القلق والغمِّ بسبب القول الذي قيل، وكان ﷺ شديد الغيرة، فرأى علي أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن يتحقق براءتها، فيمكن رجعتُها. ويُستفاد منه ارتكاب أخفِّ الضررين لذهاب أشدِّهما. وقال الشيخ محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها لأنه عقَّب ذلك بقوله: «وسَلِ الجارية تصدقْك»، ففوَّض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إنْ أردتَ تعجيل الراحة ففارِقْها، وإنْ أردتَ خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطَّلع على براءتها، لأنه كان يتحقق أن بَريرة لا تخبره إلا بما علمَتْه، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة)[2].

وثبت عن عائشة: أنها برَّأت عليّاً من غمزهِ لها بحادثة الإفك، وصرَّحَتْ أن الذي تولى كبره هو ابن أُبيّ:

عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١]، قالت: عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُول[3].

قال الحافظ: (هذا هو المعروف في أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عبد الله بن أُبيّ، وبه تظاهرت الروايات عن عائشة من قصة الإفك المطولة)[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)؛ ومسلم (٢٧٧٠)، وغيرهما.
(٢) الفتح: ١٠/٤٧٩ـ٤٨٠، شرح الحديث (٤٧٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٤٩).
(٤) الفتح: ١٠/٤٥٤، ٥٠٥.

وعن الزهري قال: (كنتُ عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذي تولى كِبْره منهم عليُّ بن أبي طالب، فقلتُ: لا، حدثني سعيد بن المسيِّب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقّاص وعُبيد الله بن عبد الله: أنهم سمعوا عائشة تقول: الذي تولَّى كِبْره منهم عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلُول)(١).

٣ ـ وصية النبي ﷺ عليّاً بأم المؤمنين عائشة، وإعظام علي لها ورعايته لحرمتها:

●● عن أبي رافع: (أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «**إنه سيكون بينك وبين عائشة أمرٌ**» قال: أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» قال: أنا؟ قال: «**نعم**» قال: فأنا أَشْقاهم يا رسول الله! قال: «**لا، ولكنْ إن كان ذلك فارْدُدْهَا إلى مأمنِها**»(٢).

وعن عاصم بن كُليب، عن أبيه قال: (انتهينا إلى عليٍّ ﷺ، فذَكر عائشة، فقال: حليلة رسول الله ﷺ)(٣).

قال الذهبي: هذا حديث حسن، وهذا يقوله أمير المؤمنين في حق عائشة مع ما وقع بينهما، فرضي الله عنهما.

وبعد الفراغ من وقعة الجمل أمر عليٌّ بإكرام أم المؤمنين، وأنزلها دارَ عبد الله بن خلف أعظمَ دار بالبصرة. وجاء لزيارتها والاطمئنان عليها ووداعها، فجاءه رجل فأخبره أن بالباب رجلين ينالان من السيدة عائشة، فأَمر القعقاعَ بن عمرو أن يجلد كلّاً منهما مئة جلدة وأن يجرِّدهما من ثيابهما، ففعل(٤).

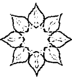
---

(١) المعرفة والتاريخ: ٣٩٣/١؛ وبنحوه عند البخاري (٤١٤٢)؛ وانظر: الفتح: ٤٣١/٩ـ٤٣٣.

(٢) أخرجه أحمد: (٢٧١٩٨)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٦١٢، ٥٦١٣)؛ وحسنه الحافظ في الفتح: ٣٧٠/١٦؛ وله شاهد من حديث أم سلمة في المستدرك: ١١٩/٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧٧/٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٥٤٠/٤؛ البداية والنهاية: ٢٤٦/٧.



•• ودخل أمير المؤمنين على السيدة عائشة وهي في دار عبدالله بن خلف، ومعها أخوها محمد بن أبي بكر، فسلَّم عليٌّ عليها وقعد عندها، وقال لها: كيف أنتِ يا أُمَّه؟ قالت: بخير، قال: يغفر الله لكِ، قالت: ولكَ[1]!.

ولما أرادت أم المؤمنين العودة إلى مكة، جهَّزها عليٌّ بكل شيء ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذِنَ لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام. واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر. فلما كان اليوم الذي ارتحلَتْ فيه، جاء عليٌّ فوقف على الباب وحضر الناس، وخرجت من الدار في الهودج فودَّعت الناس ودَعتْ لهم. وسار علي معها مودِّعاً ومشيِّعاً أميالاً، وسرَّح بَنيه معها بقية ذلك اليوم، وكان يوم السبت مستهل رجب سنة (٣٦هـ)[2].

٤ ـ أكاذيب وافتراءات:

تلكم هي العلاقة الحقيقية بين علي وعائشة رضي الله عنهما، وهكذا كانت أخلاق أصحاب نبينا ﷺ، لكن أعداءَ الله ورسوله والصحابة والمؤمنين؛ يأبَوْن إلا الولوغَ في أعراض الصحابة، ليزدادوا بذلك إثماً، وليكتبَ الله تعالى الثواب والحسنات للصحابة، ما دام هناك وغدٌ يأْبِنُهم بالقول والكتابة والتشهير بالباطل!.

•• يتناقل الناس حديثاً واهياً ينسبونه إلى النبي ﷺ أنه قال لعائشة: «تقاتلين عليّاً وأنتِ ظالمة له» فهذا مما افترِي على سيرة سلفنا الصالح، وأُسِيء فيه إلى أم المؤمنين بقصد ذَمِّها والنَّيل منها في خروجها إلى البصرة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٥٣٤، ٥٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٤٤؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٦ـ٢٤٧.

يقول ابن تيمية معقِّباً على هذا الحديث: (لا يُعرف في شـيء من كتب العلم المعتمدة، ولا له إسـناد معروف، وهو بالموضوعات المكذوبات أشبَهُ منه بالأحاديث الصحيحة، بل هو كذبٌ قطعاً؛ فإن عائشة لم تقاتِل ولم تخرج لقتال، وإنما خرجتْ لقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن في خروجها مصلحةً للمسلمين، ثم تبيَّن لها فيما بعد أنَّ ترك الخروج كان أَوْلى، فكانت إذا ذكرت خروجَها تبكي حتى تَبُلَّ خمارها)[١].

●● وذكر الشـيخ المفيد[٢] الرافضي في كتابه «الجمل» خروجَ عائشـة على عليٍّ، وقال بأن خروجها بسـبب ما كانت تُكِنّه لعليّ من كُره على إثر حادثة الإفك!.

ويؤكد ذلك الكرهَ من عائشة لعلي فيقول: إن الناعي حينما جاء إلى أهل المدينة بقتل علي وسمعت عائشة بذلك استبشرت وقالت متمثلة:

فـإنْ يـكُ ناعيـاً فلقـد نَعَاه لنا مَن ليـس في فيـهِ الترابُ

بل لقد سـجدت شـكراً لله على قتله، ثم رفعتْ رأسَـها وهي تقول ـ حسب زعمه ـ:

وأَلقَتْ عصاها واستقرَّتَ بها النَّوى كما قَرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ[٣]

فهل يُعقل أيها المفيد أن تسعى أم المؤمنين عائشة ـ وهي ممن أذهب الله عنهـم الرجس وطهرهـم تطهيراً ـ لأن تضـرب المسـلمين بعضَهم ببعض وتتسبَّب بسَـفْك دمائهم، لموجدة وجدَتْها في نفسها على علي منذ عشرات

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٣/٣٦.

(٢) ترجم له الذهبي ترجمة مختصرة فقال: عالم الرافضة، صاحـب التصانيف البدعية، وهي مئتا مصنف طعن فيها على السـلف. وقال في موضع آخر: بلغت تواليفه مئتين، لم أقف على شيءٍ منها ولله الحمد! ميزان الاعتدال: ٤/٣٠؛ سير أعلام النبلاء: ١٧/٣٤٥.

(٣) كتابه: الجمل، ص٦٥ـ٦٨؛ وانظر: عبدالله بن سبأ، للعودة، ص١٨٤ـ١٨٥.

السنين؟! أم الصحيح أن الرافضة تغلي قلوبهم ضِغْناً وافتراءً على أم المؤمنين وزوجِ النبي ﷺ في الدنيا والآخرة كما شهد بذلك علي وعمار وغيرهما؟!.

ـ ونقل اليعقوبي موقفَ علي من عائشة، فخاطبها بكلام فَجٍّ فيه تأنيبٌ فقال: (إيْهاً يا حُميراء! أَلم تنتهي عن هذا المسير؟... اخرجي إلى المدينة، وارجِعي إلى بيتك الذي أمرك رسول الله أن تَقَرّي فيه!)[١].

وهذا من الكذب السَّمْج والافتراءِ على أمير المؤمنين علي بأنه خاطب عائشة بقوله: (يا حميراء)، ولم يصفها (بأم المؤمنين)، ولا أقام لحرمتها مكاناً! وفي هذا من الفظاظة ما لم يصدر مثلُه من علي بحق النسوة اللائي سبَبْنَه ودَعَوْنَ عليه بأن يُيتم الله ولده[٢]!.

ـ وبقي الرافضة المعاصرون على دين آبائهم، بل زاد بعضهم على المتقدمين جرأةً وإفكاً وافتراءً! فهذا أحدُ مجتهديهم المعاصرين يزعم بأن عائشة كانت تحرض على قتل عثمان، فلما قُتل قامت تطالب بدمه وتؤلِّب على علي، واستنجدت بطلحة لذلك، ولما انتصر علي خالفَتْ موقفَها السابق وعرضت عليه تأييدها بعد أن قادت الجيوش لحربه! ووصف هذا الرجل موقف عائشة بأنه (تناقض وتهافت وخضوع للأهواء والأغراض)، ولمَّحَ إلى أنها كمن قال الله فيهم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠][٣]!.

●● وفي كتب طائفة من الكتاب المُحدَثين من غير الرافضة من الأخلوقات والافتراءات ما لا يحتمله ذو لبٍّ ومروءة وإنصاف!.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٨٢/٢.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٥٤٠/٤.

(٣) فضائل الإمام علي، لمحمد جواد مغنية، ص١٣٠ـ١٣٢.

من هذا القَبيل ما جاء في كتاب «علي بن أبي طالب» لعبد الكريم الخطيب، وقد اعتمد فيه كثيراً على «نهج البلاغة» وشرحه لابن أبي الحديد، و«الإمامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة، و«تاريخ اليعقوبي»، وروايات «تاريخ الطبري» التي سلَّم بها على ما فيها من باطل، وأخذ يستنتج بأن البغضاء بين علي وعائشة قديمة منذ تزوج بفاطمة الزهراء ورُزق منها الولد، وحُرمت عائشة من الأولاد، وكانت فاطمة تكثر الشكوى من عائشة، فتنقل النساء ذلك إليها، فتشكو إلى أبيها أبي بكر، فحصل في نفسه أثرٌ ما!.

(وفي خلافة أبي بكر استظهرت عائشة بأبيها واستطالت، وعظُم شأنها، وانخزل علي وفاطمة، وخُذلا، وقُهرا!)، والنساء ينقلن كل ما تقوله في علي وفاطمة إليهما، وما يقولانه هما في عائشة، (وظهر التشفِّي والشماتة، ولا شيء أعظم مرارة ومشقة من تشفي العدو)... (واستمرت الأمور على هذا مدة خلافة أبيها، وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلي، والأحقاد تذيب الحجارة!).

وذكر كلاماً كثيراً، ومما قاله: (والسيدة عائشة رضي الله عنها كان سخطُها على علي وبغضُها له هو المحرك الأول لموقفها منه، ولثورتها عليه، ولولا أنها كانت تحمل لعلي هذه الكراهية لما ألقت بنفسها في هذا الموقف الذي لم يكن من شأن امرأة أن تقفه ديانة أو عصبية)(١).

•• أرأيتَ أيها القارئ ذلك الجيل الذي تنزَّل عليه القرآن وربَّاه النبي ﷺ، وجاهد في سبيل الله، وضحَّى بالنفس والولد والمال، وحمل الراية ونشَرَ الإسلام، وعلَّم الناسَ مبادئ الإنسانية والكرامة والنُّبل والشرف والمروءة والإخلاص والزهد والعفو والتسامح.... ذاك الجيل في فكر هذا الكاتب وأمثاله يتقلّب في مفاسد الأخلاق من الحقد والحسد والبغضاء

---

(١) كتابه: علي بن أبي طالب، ص٢٩٠ـ٢٩٤، ٣٤٩.

والتدابر والشحناء والغيبة والنميمة والعصبية والظلم والتظاهر بنصرة المظلوم، وتأليب الناس على الخلفاء... يحدث ذلك ـ زعموا ـ بين خيار الصحابة، بل وفي بيت النبوة!.

وإذا كان هذا الرجل يقول مثل هذا الكلام المفترى، فكيف بكتابات طه حسين وعبدالرحمن الشرقاوي ومحمود أبو رية وهشام جعيط وخالد محمد خالد... دع عنك المستشرقين والرافضة القدماء والمعاصرين!.

ثاني عشر ـ حقائق ووقفات حول موقف أمير المؤمنين علي من أخويه طلحة والزبير، وقصة استشهادهما:

١ ـ استشهاد طلحة بن عبيد الله(١):

●● ترددت الأخبار واضطربت فيمن قتل طلحةَ، فروي أن مروان بن الحَكَم رماه بسهمٍ فقتله، وقيل: بل جاءه سَهْم غربٍ لا يُعرف راميه فقتله، وهذا هو الصواب وإن كان الأول هو المشهور.

فبعد التحقيق في الروايات وغربلتها ونقدها سنداً ومتناً؛ يتبيَّن للباحث المنصف أن مروان بريء من دم طلحة، والصحيح أنه استشهد بسهم لا يُعرف راميه.

قال الإمام المحقق أبو بكر ابن العربي: (وقد روي أن مروان لمّا وقعتْ عينُه في الاصطفاف على طلحة قال: لا أطلب أثراً بعد عَيْن، ورماه بسهمٍ فقتله. ومن يعلم هذا إلا علام الغيوب؟! ولم ينقله ثبت!)(٢).

---

(١) انظر: تاريخ خليفة، ص١٨١، ١٨٥، ١٨٦؛ طبقات ابن سعد: ٣/٢٢٣؛ المعرفة والتاريخ: ٣/٤٠٢؛ سير أعلام النبلاء: ١/٣٥ـ٣٦؛ البداية والنهاية: ٧/٢٤٢، ٢٤٨، كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٥٤٠ـ٥٤٤.

(٢) العواصم من القواصم، ص١٦٠.

وقال خليفة بن خياط: (كانت وقعة الجمل بالبصرة بالزاوية ناحية طَفّ البصرة، وفيها قُتل طلحة بن عبيد الله في المعركة، أصابه سَهْم غَرْبٍ فقتله)(١).

وإليه جنح ابن كثير فقال: (وأما طلحةُ فجاءه في المعركة سَهْم غَرْب، يُقال: رماه به مروان بن الحكم، فالله أعلم). وقال في موضع آخر: (لمَّا حضر يوم الجمل جاءه سهم غَرْب، فوقع في ركْبته، وقيل: في رقبته، والأول أشهر. ويُقال: إن الذي رماه بهذا السهم مروان بن الحكم. وقد قيل: إن الذي رماه غيره، وهذا عندي أقربُ، وإن كان الأول مشهوراً)(٢).

والرواية التي يتمسك بها من يُلصِقون قتْلَ طلحة بمروان، هي ما رواه قيس بن أبي حازم قال: (رأيتُ مروان بن الحكم حين رمى طلحةَ يومئذٍ بسهم فوقع في عين ركبته، فما زال الدم يسيح إلى أن مات).

وفي لفظ آخر عن قيس: (أن مروان بن الحَكَم رأى طلحة في الخيل، فقال: هذا أعانَ على قتل عثمان، فرماه بسهمٍ في ركبته، فما زال الدم يسيح حتى مات)(٣).

وهذه الرواية صحَّحها الحافظ ابن حجر وغيره.

●● **نقول:** في إحدى الروايتين عن قيس يذكر: (أن مروان رأى طلحة)، وفي الأخرى يقول: (رأيتُ)، وقيس لم يشهد وقعة الجمل، ولم يذكر أحدٌ من المؤرخين أنه شهدها مع أي من الفريقين، بل كان مع علي يوم النهروان.

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٨١.

(٢) البداية والنهاية: ٢٤٢/٧، ٢٤٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢٢٣/٣؛ المعرفة والتاريخ: ٤٠٢/٣؛ سير أعلام النبلاء: ٣٥/١ـ٣٦؛ الإصابة: ٢٢١/٢ـ٢٢٢؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٥.

وعلى التسليم بصحة سندها، فإن في متنها ومتن غيرها من الروايات نكارةً شديدةً:

فتارة ترى مروان يقول: (هذا أعان على قتل عثمان)، وتارة يقول: (لا أطلب بثأري بعد اليوم)، وأخرى يقول: (لا أطلب قاتل عثمان بعدك أبداً)، ويقول لأبان بن عثمان: (قد كفيناكَ بعضَ قتلةِ أبيك)[1].

فإن تصحيح مثل هذه الروايات يعني إثباتَ التهمة على طلحة بأنه أعان على قتل عثمان، بل إنه من قتلته! ثم كيف يتهم مروانُ طلحةَ بقتل عثمان أو التأليب عليه وهو قد عاينَ مواقفَه منهُ، وكان بالأمس القريب مع ابنه محمد بن طلحة السجّاد في الدار ينافحان عن عثمان!.

وأيضاً فإن طلحة خرج مع الزبير وعائشة في جيش إلى البصرة ليستعينوا بأهلها على قتل قتلة عثمان، فكيف يصحُّ اتهامُ طلحة بالتأليب على عثمان والسعي في قتله؟ ومروان معه في ذلك الجيش ويعلم صدقَ مسعاه في ذلك.

ثم أي ثأر لمروان حتى يقتل طلحة وهو معه في جيش واحد، وقد خرجوا جميعاً للمطالبة بدم أمير المؤمنين عثمان؟!.

ومما يؤيد براءةَ مروان من دم طلحة ما أخرجه ابن سعد: عن محمد الأنصاري، عن أبيه قال: (جاء رجلٌ يومَ الجمل فقال: ائْذَنوا لقاتلِ طلحة، قال: فسمعتُ عليّاً يقول: بشِّرْه بالنار)[2].

وهذا نص واضح في أنه ليس بمروان، فمثلُ مروان لا يُجهل وهو معروف عند الجميع، فلو كان هو لما قال: (رجل)، بل كان صرَّح باسمه! ثم إن أحداً لم يَقلْ بأن مروان دخل على علي يوم الجمل، ولا قبله ولا بعده.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٥٤٠ـ٥٤٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/٢٢٥.

وهل بإمكان مروان أن يذهب إلى أمير المؤمنين عليٍّ ويصل إليه، دون أن تتناوشه سهامُ السبئية القاتلة؟!.

والذي يترجَّح أن قاتلَ طلحة كان من السبئية في جيش أمير المؤمنين علي، وهو ممن يضطغن على طلحة وأمثاله، فحرِص على قتْلِه، ولما تمَّ له ذلك أسرع إلى علي وهو يظن أنه سيُفرحه بذلك، فجابَهَه أمير المؤمنين بتلك العقوبة التي صعقت فؤاده!.

ومن مخاطر هذه الروايات: أنها تعمِّي على القتلة ومثيري الفتنة، وتبرِّئهم من الجرائم التي سطرها التاريخ في سِيَرهم، وتلبِّس على الناس وتُلصقها برجال كرام برآء!.

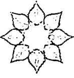
٢ ـ الزبير بن العوام واستشهاده:

●● مع توالي الأحداث منذ خروج (أصحاب الجمل) من مكة مروراً بالطريق إلى البصرة ثم سيطرتهم عليها، وما جرى خلال ذلك من قتال، ثم تقابلهم مع جيش علي والاتفاق على الصلح، وما قام به السبئية من إشعال نار الحرب بين الفريقين ـ كان الزبير يستعرض مجريات الأمور وبواعثها ونتائجها ويجمع بين أطرافها؛ فتبيَّن له أن من الخير له في دينه وآخرته أن يخفِّف من وقود المعركة ويسرع في إنهائها، وذلك بأن ينسحب من ميدانها، فقرَّر ذلك وغادرها، دون أن يعبأ بقول قائل: إنه تركها جُبناً، أو إنما يقاتل للإصلاح.

ففي طريقهم إلى البصرة وقد نَبحت كلابُ الحَوْأَب، فحدَّثت السيدة عائشة بحديث النبي ﷺ في ذلك[1]، وعزمت على الرجوع، فقيل لها: إنما خرجتِ

---

(١) انظر ما تقدم: ص٣١٦ في هذا الكتاب.



للإصلاح. وكان هذا بمَسمع الزبير بلا شك لأنه من وجوه القوم وزعماء الجيش، لكنْ لم يكن كافياً ليصرفَه عن هدفه واجتهاده في خروجه هذا.

وعندما حَدَث في البصرة ما حدث ونَشب القتال، ورأى اختلاطَ الأمور، ووجودَ أصحاب الفتنة وموقدي نارها في الصفوف؛ ازداد الهاجسُ في نفسه وقويَ تشكُّكُه في صحة خروجه.

وانضاف إلى ذلك ما عايَنَه من اتفاقهم على الصلح مع القعقاع، ثم نشوب القتال من الليل، وهو لا يَتَّهم من معه من الصالحين، ولا يَرْمي به أخاه عليّاً وصالحي جيشه كذلك، فعَلِمَ أن الأمر لا يستقيم على طريقة مستنيرة.

وأيَّد رأيَه وقوَّى عزمَه ما كان يحفظه من قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فعندما رأى الفتن واكتوى بلظاها، عَلِم أنها هي هي، وأنهم أهلُها.

ونظر في جيش علي فرأى فيه عمار بنَ ياسر، وقد قال النبي ﷺ: «**وَيْحَ عمار تقتله الفئة الباغية**»، وبكل حال فقَتْلُ عمارٍ في جيش علي لو وقع يعني أن في الجيش الآخر الفئةَ الباغية!.

وزاد من ذلك مجيء ابن عباس إلى الزبير وقوله له: (أين صفية بنت عبد المطلب حيث تُقاتِل بسيفك عليَّ بن أبي طالب بن عبد المطلب؟!)[1].

ولما حدثت المواجهة بين الجيش الذي هو فيه وبين جيش أمير المؤمنين؛ استرجع الزبير ما جرى لهم في البصرة، فإذا الأحداث هي هي، وأصحاب الفتنة ومساعِر الفساد والإفساد هم هم... ورأى أن الخرق يتسع،

---

(١) طبقات ابن سعد: ١١٠/٣، وإسناده صحيح.

وكلما أُوصِد باب للفتنة شُرع في وجههم باب آخر أعظم خطراً، واستيقن أنه لم يَعُد بمقدوره توجيه الأمر إلى ما يقصده من الإصلاح والأخذ على أيدي القتلة بالقصاص، وتأكد أنه ليس من الصـواب المواجهة مع أمير المؤمنين علي وجيشه، لأن ذلك قد يؤدي إلى شرٍّ مستطير.

كل هذه العوامل، مع ما للزبير من تاريخٍ مجيدٍ ومواقفَ خالدةٍ ونفسٍ أبيَّةٍ وورعٍ وإخلاصٍ؛ حملَته على أن يترك المعركة وينسحِبَ منها غير آبهٍ بما يُقـال فيه وعنه، فبطولـة البطل تكمن بالاستمسـاك بثوابته وقناعاته ونداء الإيمان من قلبه والأدلة التي قامت بيـن يديه، لا ينتظر مدحة ولا يخشى تثريباً[١]!

•• أما ما روي من أن عليّاً قابَلَ الزبيرَ وذكَّره بقول النبي ﷺ أنه سيُقاتل عليّاً وهو له ظالم، فهو خبر لا يصحّ.

عن يزيد بن هارون قال: حدثنا شَريك، عن الأسود بن قيس قال: (حدثني من رأى الزبيرَ يقتفـي آثارَ الخيل قَعْصاً بالرمح، فنـاداه عليٌّ: يا أبا عبد الله! فأقبل عليه، حتى التقت أعناق دوابِّهما، فقال: أَنْشُـدك بالله، أتذكرُ يوم كنتُ أناجيك، فأتانا رسول الله ﷺ فقال: «تُناجيه! فواللهِ ليُقاتِلَنَّكَ وهو لك ظالمٌ»؟ قال: فلم يَعْدُ أن سَمِع الحديث، فضَرب وجْهَ دابَّته، وذهب)[٢].

وهذا إسناد ضعيف فيه راوٍ مجهول، وشريك سيّئ الحفظ.

وأخرج الحاكم: عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الرَّقَاشِيِّ، عن جدِّه عبد الملك، عن أبي حرب بن أبي الأسود الدِّيْليِّ قال: (شهدتُ الزبير خرج

---

(١) انظر كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٦٤٥ ـ ٦٤٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧١٩/٨؛ الدولابي في «الذرية الطاهرة» نقلًا عن: سير أعلام النبلاء: ٥٨/١.

يريد عليّاً، فقال له علي: أَنشُـــدك الله، هل سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «تُقاتِلُه وأنتَ له ظالمٌ»؟ فقال: لم أَذكُر! ثم مضى الزبير منصرِفاً)[1].

وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي، وليس كما قالا، وهو غريب منهما؛ فعبد الملك بن مسلم الرَّقاشي مجهول، وقد ذكر الذهبي في ترجمته من «الميزان» عن البخاري عدمَ صحة الحديث، وأقرَّه على ذلك[2].

ورواه أيضـــاً أبو يعلى في «مســـنده»، وقال محققه: إســـناد الحديث ضعيف جدّاً[3].

وله طرق أخـــرى أوردها الحافظ في «المطالب العاليـــة»[4]، كلها ضعيفة ضعَّفها محققُـــه المحدث حبيب الرحمن الأعظمي، وقد دلَّسَـــتْ عليه مؤلفةُ كتاب «بيعة علـــي» وزعمتْ أن الأعظمي صحح الحديـــث، وليس ذلك من أمانة العلم[5]!.

ـ ومما يضعِّف الحديثَ أيضاً: أنه قد ثبـــت أن عليّاً التقى بطلحة والزبير في خيمة كما قدمنا[6]، لإيجاد حلٍّ ســـلمي للخلاف، فلماذا لم يُذكِّر علي الزبير بهذا الحديث آنذاك؟!.

ثم كيف يُعقـــل أن يلتقي قائدان مختلفان فـــي أرض المعركة ويتباحثان أمراً خطيراً، والمعركة محتدِمة، والسبئيون حريصون على تسعير الفتنة وخلط الأمور، فلو أنهم رأوا الزبير واقفاً ساكناً مع علي لسدَّدوا إليه سهامَهم الكثيرة كما فعلوا بهودج أم المؤمنين عائشة.

---

(١) المستدرك: ٣/٣٦٦.

(٢) ميزان الاعتدال: ٢/٦٦٤.

(٣) مسند أبي يعلى: ٢/٦٦٦.

(٤) الأحاديث (٤٤٦٨، ٤٤٦٩، ٤٤٧٠، ٤٤٧٥، ٤٤٧٦).

(٥) بيعة علي، ص٨٥ـ٨٦.

(٦) انظر ما تقدم: ص٣٤١ في هذا الكتاب.

ـ والنظرُ الصحيح يقتضي تضعيفَ ذلك الحديث: فلو كان صحيحاً معلوماً عند علي لَمَا سكتَ عنه حتى تحتدم المعركة وتتناثر الرؤوس عن كواهلها، وينتظر حتى يتقابلَ مع الزبير على أرض المعركة وتتصافح عُنقا فرسَيْهما فَيُخبره به بعد تباطؤ!.

ولو كان هذا الخبر ثابتاً عند علي لحمله ورعُه وإخلاصُه وحرصُه على دماء المسلمين على المبادرة بإعلانه، ولَوَاجَه به الزبيرَ على الملأ ليكون أرجَى في تثبيط همَّة الراغبين في القتال، وأنجعَ في إطفاء نار الحرب.

ـ استشهاد الزبير(١):

روى خبر استشهاد الزبير جمهرة المؤرخين وأصحاب التراجم، وخلاصته: أن الزبير لما انسحب من أرض المعركة لَحِق (بسَفَوان) ـ موضع بالبصرة كمكان القادسية من الكوفة ـ فلقيه النَّعِر ـ رجلٌ من مجاشع ـ فقال: أين تذهب يا حواريَّ رسول الله ﷺ؟! إليَّ فأنت في ذمتي لا يوصَل إليك، فأقبل معه. فأتى الأحنفَ بن قيس خبرُه، فقيل: ذاك الزبير قد لُقِي بسَفَوان فما تأمر؟ قال: جَمَع بين المسلمين حتى ضرب بعضُهم حواجبَ بعض بالسيوف ثم يلحق ببيته! فسمعه عمير(٢) بن جُرموز وفَضَالة بن حابس ونُفيع، فركبوا في طلبه، فلقوه مع النَّعِر، فأتاه عمير بن جرموز من خلفه وهو على فرس له ضعيفة، فطعنه طعنةً خفيفة، وحَمل عليه الزبير وهو على فرس له يُقال له: ذو الخِمار، حتى إذا ظن أنه قاتِلُه نادى عمير بن جرموز: يا نُفيع، يا فَضَالة، فحملوا عليه فقتلوه(٣)!.

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٨١، ١٨٦؛ طبقات ابن سعد: ٣/١١٠ـ١١٢؛ المعرفة والتاريخ: ٣/٤٠١؛ تاريخ الطبري: ٤/٤٩٨ـ٤٩٩، وكتب الصحابة.

(٢) وفي بعض المصادر: (عمرو).

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٤/٤٩٨ـ٤٩٩؛ سير أعلام النبلاء: ١/٦٠ـ٦١؛ المطالبة العالية (٤٤٦٦)؛ كتابي: العشرة المبشرون بالجنة، ص٦٤٩ـ٦٥٠.

٣ ـ حزن أمير المؤمنين علي على أخويه طلحة والزبير، ومواقف نبيلة:

على الرغم مما جرى بين الصحابة في أيام الفتنة، فقد بقوا على النهج الذي رباهم عليه النبي ﷺ، والأحاديثُ الصحيحة والأخبار الثابتة المستقيمة تؤكِّد عمقَ الأخوَّة بين هؤلاء الثلاثة الأماجد الكرام، وأنها استمرت على أرفع مكارم أخلاق الإسلام حتى نهاية الأحداث.

عن الحسن البصري قال: (جاء رجلٌ إلى الزبير أيام الجمل، فقال: أَقْتُلُ لك عليّاً؟ قال: وكيف؟ قال: آتيهِ فأخبرُه أنِّي معه، ثم أَفْتِكُ به! فقال الزبير: لا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الإيمانُ قَيْدُ الفَتْكِ، لا يَفْتِكُ مؤمنٌ**»)(١).

ومواقف أمير المؤمنين عليٍّ من طلحة والزبير كثيرةٌ شهيرةٌ في إجلالهما وحبِّهما وإكرامهما والثناءِ عليهما، والحزنِ البليغ على فراقهما(٢)، ومن ذلك:

●● عن عامر الشعبي قال: (رأى عليُّ بن أبي طالب طلحةَ بن عبيد الله ملقًى في بعض الأودية، فنزل فمسحَ التراب عن وجهه، ثم قال: عزيزٌ عليَّ أبا محمد أن أراك مُجَنْدلاً في الأودية وتحت نجوم السماء! ثم قال: إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري).

قال الأَصْمَعيُّ: عُجَري وبُجَري: سرائري وأحزاني التي تموج في صدري(٣).

ـ وعن طلحة بن مصرِّف: (أن عليّاً انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزل عن دابَّتِه، وأجلَسَه، فجعل يَمسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، ويقول: ليتني مِتُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة!)(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٦٤٤/٨، ٧١٧؛ وأحمد (١٤٢٦، ١٤٢٧)؛ وعبدالرزاق (٩٦٧٦، ٩٦٧٧)، وصحَّحه أحمد شاكر.

(٢) انظر ما تقدم: ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣) مختصر ابن عساكر: ٢٠٧/١١؛ سير أعلام النبلاء: ٣٦/١.

(٤) أخرجه الطبراني (٢٠٢)؛ والحاكم: ٢٧٢/٣؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٥٠/٩ وقال: إسناده حسن.

ـ وتقدم أنه لما استأذَنَ عليه قاتلُ طلحة، قال عليٌّ: بَشِّرْه بالنار[١]!.

بل إن علياً لَيَحفظُ طلحة بعد استشهاده، ويُحسن إليه وإلى عقِبه، ويبكيه ويرثيه، ويعلن ذلك أمام جنده، ويؤنِّب من يسيء إلى طلحة ولو بكلمة.

ـ عن أبي حَبيبة مولى طلحة قال: (دخلتُ على عليٍّ مع عمران بن طلحةَ بعدما فرغ من أصحاب الجمل، قال: فرحَّبَ به وأدناه، وقال: إني لأرجو أن يجعلَني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقال: يا ابنَ أخي، كيف فلانة؟ كيف فلانة؟ وسأله عن أمهات أولاد أبيه. قال: ثم قال: لم نَقبِض أَرَضيكم هذه السنين إلا مخافةَ أن ينتهبها الناس. يا فلان، انطلِقْ معه إلى ابن قرظة، فَمُرْهُ فَلْيُعْطِه غَلَّته هذه السنين، ويدفع إليه أرضه. قال: فقال رجلان جالسان ناحيةً، أحدُهما الحارث الأعور: الله أعدلُ من ذلك، أن تقتلهم بالأمس وتكونوا إخواناً على سُرر متقابلين في الجنة! فقال علي: قُومَا أبعدَ أرضِ الله وأسحقَها؛ فمن هو إذاً إنْ لم أكن أنا وطلحة؟! يا ابن أخي، إذا كانت لك حاجة فائتنا)[٢].

وفي رواية أخرى: أن الرجل الآخر هو ابن الكَوَّاء، فقام إليه عليٌّ بدِرَّتِه فضربه، وقال: (أنت ـ لا أُمَّ لك ـ وأصحابُك تُنكِرون هذا؟!)[٣].

وتكرر هذا الموقف من أمير المؤمنين علي في الكوفة أيضاً مع ولدَي طلحة بن عبيد الله[٤].

●● ومثل ذلك كان موقف علي مع الزبير بن العوام حواري النبي ﷺ.

---

(١) تقدم: ص٣٧٥ في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٢٢٤/٣؛ والحاكم: ٣٧٦/٣ـ٣٧٧ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢٢٤/٣ـ٢٢٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢٢٥/٣.



- ففي قصة مقتل الزبير: (وأخذ ابن جُرْمُوز رأسَه، فحمله حتى أتى به وبسيفه عليّاً، فأخذه عليٌّ وقال: سيفٌ واللهِ طالَما جَلَا به عن وجه رسول الله ﷺ الكَرْبَ! ولكن الحَيْنُ ومصارعُ السوء. ودُفن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ بوادي السباع، وجلس علي يبكي عليه هو وأصحابه)(١).

- وعن أبي نَضْرة قال: (لمَّا أُتي عليٌّ بقَتْل الزبير وبخاتمه وبسيفه بكى علي، وبكى بنوه، وقال: نَغَّص علينا قتل الزبير ما نحن فيه)(٢).

- وقال زِرُّ بن حُبَيْش: (استأذَنَ ابن جُرْمُوز على عليٍّ وأنا عنده، فقال عليٌّ: بَشِّرْ قاتلَ ابنِ صفيَّة بالنار! ثم قال علي: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل نبيٍّ حَوَارِيّاً، وحَوَاريَّ الزبيرُ**»)(٣).

- وعن علي قال: (إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله في حقهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧])(٤).

ثالث عشر - وقفات ودروس وعبر:

لا بدّ للمرء وهو يطالع وقائع (معركة الجمل) من أن يقف طويلاً وينظر نظرة معمَّقة لأسبابها ومجرياتها، ونتائجها، ليستنبطَ منها الدروس والعبر، فالتاريخ يعيد نفسه كثيراً مع تغير أشخاصه وأزمنته وأمكنته ووسائله... ويؤكِّد ذلك ما نشهده في هذه السنوات من أصحاب الشعارات البراقة والكلمات الرنانة والادعاءات الفضفاضة، التي خُدع بها كثير من الأغمار بل

---

(١) طبقات ابن سعد: ١١٢/٣؛ سير أعلام النبلاء: ٦١/١، ورجاله ثقات. **الحين**: الهلاك.

(٢) مختصر ابن عساكر: ٢٦/٩.

(٣) أخرجه أحمد (٦٨٠)؛ وابن سعد: ١٠٥/٣؛ والحاكم: ٣٦٧/٣ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٤) طبقات ابن سعد: ١١٣/٣.

وبعض (الرموز) في حقل الدعوة الإسلامية، أما الذين آتاهم الله بصيرة نافذة وذاكرة حاضرة لأحداث التاريخ؛ فقد حماهم الله من أن تنطلي عليهم ألاعيبُ سحرة فرعون المعاصرين! وعندما وقعت الأقدار على مسرح الحياة العملية والمواقف الحاسمة؛ انكشف الغطاء وتمزق برقع النفاق والمتاجرة بالإسلام ونصرة الضعفاء ضد الاستكبار العالمي والصهيونية وأعداء الحرية!.

لقد مرت أمتنا في السنوات الأخيرة القليلة ولا تزال إلى الآن بمحنٍ وأحداثٍ جسام فضحت ألاعيب النفاق المعاصر، وحَصَّلت ما في الصدور، حتى علِمَه الكبار والصغار والأذكياء والأغمار!.

ونشير هنا بكلام موجز إلى دروس وعِبر مما فصَّلنا القولَ فيه حول مأساة (معركة الجمل)؛ لتكون زاداً وحرزاً وموعظة وذكرى:

١ ـ براءة الصحابة جميعاً من الهوى وطلب السلطة والسعي للفرقة: فكلّهم كان يريد الإصلاح وتحكيم الشرع والقصاص من القتلة والمفسدين في الأرض. ويظهر ذلك في كل مجريات الأحداث، ومن دعوتهم للصلح وسعيهم الحثيث إليه واتفاقهم عليه وفرحهم به ورفعهم المصاحف إبان القتال، ولكن اختلفت اجتهاداتهم في الأداء، وأشعلت السبئية بينهم نار القتال فكان ما كان!.

٢ ـ ما كان عليه الصحابة من أخلاق رفيعة تمثَّلوها وفق توجيهات القرآن الكريم وهَدْي النبي ﷺ، حتى عند اشتداد القتال وتحت بارقة السيوف، ويتجلى ذلك في مواقف كثيرة؛ منها: شهادة عمار لأم المؤمنين عائشة بأنها زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، وموقف علي منها ورعايته حرمتها، وبكاؤه على طلحة والزبير وثناؤه عليهما وتقريعه مَن قتلهما وروايته حديث وجوب النار لهما! وشهادة عائشة لعمار بأنه قوال بالحق، وإنصافها ونُبلها في قولها لابن أَبْزَى بعد مقتل عثمان: الزم عليّاً. وإرشادها من سألها عن أمر

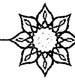
فقهي بأن يسأل عليّاً، وشهادة طلحة والزبير لعليٍّ بأنه ما جارَ في حكم ولا استأثر بفَيء.

٣ ـ كانت آداب الإسلام وتوجيهاته في الخلاف والخصومة والقتال قائمة شاهدة حاضرة عند الصحابة والصالحين في الفريقين: فكان أمير المؤمنين يقول: إني أذكِّر اللهَ رجلاً رعى لله حقّاً إلا نفر، فإن كنتُ مظلوماً أعانني، وإن كنتُ ظالماً أخذلني. وأمر بعقر جمل عائشة للحفاظ عليها ولإطفاء نار القتال. ونادى في الجيش أن لا يُذَفَّف على جريح ولا يُتبع مدبر ولا يُقتل أسير. ولم يسبِ ولم يخمّس. ويطوف على القتلى ويتوجَّع على الصالحين، ويصلي على قتلى الطرفين. ويكرر في أكثر من موقف قولَه في أهل الجمل: إخواننا بَغَوا علينا. وعمار وغيره يسرعون إلى عائشة ويحملون هودجها. والفريقان يتواقفان ويتحرجان من القتال وسَلّ السلاح، وكل منهما ينادي: الله أكبر لا إلٰه إلا الله.

٤ ـ غموضُ المستقبل واشتباكُ الفتن واشتباهُ الأمور جعلَ أكابرَ الصحابة والعقلاء يترددون في اتخاذ موقف حاسم؛ حتى قال بعضهم: لا والله ما ندري كيف نصنع، فإن هذا الأمر لمشتبهٌ علينا، ونحن مقيمون حتى يُضيء لنا ويُسفِر! وقال الزبير: ما كان أمرٌ قطُّ إلا علمتُ موضع قدمي فيه، غير هذا الأمر فإني لا أدري أَمُقبِل أنا فيه أم مُدْبِر!.

فاختلفت الاجتهادات بين مؤيد للخليفة، ومعارض له، ومعتزل للفريقين؛ مما أدى إلى تصدُّع الصف وحدوثِ شَرْخ كبير في المجتمع الإسلامي، مما يؤكد أن الذي حدث كان باجتهاد، ويبين عذر الصحابة في هذا الفريق وذاك.

٥ ـ أهمية تنقية الصفوف، واستئصال مصادر الفتنة، والتخلُّص من زَغَل أصحاب الهوى وضعاف النفوس، ممن لا يصطبرون على البلاء ولا يقبلون اختلاف الآخرين معهم، فإن اندساس أمثال هؤلاء في صفوف المؤمنين من



أكبر الأخطار عند اشتداد الأزمات وتغاير الاجتهادات، وهذا ما أحدثه مبتغو الفتنة ممن يدَّعون الإصلاح وهم أحرصُ الناس على فساد.

٦ ـ شــؤمُ الخروج على وحدة الأمة، وتفريقِ كلمتها: ولو كان في ذلك بعض المصلحة فيما يبدو باديَ الــرأي، وإنَّ دَفْعَ أخفِّ الضررين وارتكابَ أدنى المفســدتين أَوْلى، والصلح لــه أبواب كثيرة، ولــو كان بالتنازل عن بعض الحق.

٧ ـ الذي نــراه، وهو ما تمخَّضَــتْ عنه مجريات الأحــداث وأكَّدَتْه النتائج المُــرّة: أن أمير المؤمنيــن عليّاً لو أنصــتَ لآراء الناصحين بعدم الخروج من المدينة إلى البصرة والشــام، واصطلح مع إخوانه المخالفين له؛ لكان أَوْلى وأسلمَ، وقد جرى في عهده تأوُّلٌ في الدماء أدى إلى نتائج خطيرة[1]، ولم تصفُ له قلــوب كثيرين، ولا أمكنه قهــرُ المخالفين ولا المندســين في جيشــه، واقتضَى رأيُه القتالَ وظَنَّ أنه بــه تحصل الطاعة والجماعة، فما زاد الأمر إلا شــدَّة، وجانبه إلا ضعفاً، وجانب من حاربه إلا قوة، والأمة إلا افتراقاً[2]!.

٨ ـ إن الــذي يتحمل وِزْرَ إنشــاب القتال وإراقة الدمــاء هم قتلة عثمان وأنصارهم، فقد كانوا مســاعِرَ الحرب وقادحي زَنْدهــا وموقدي نارها، كلما خَبَت زادوها سعيراً! والمتتبِّع للأحداث يرى ذلك واضحاً لا خفاءَ فيه، بَدْءاً من قتل الشهيد عثمان، ثم وقعة الجمل، ثم صِفِّين.

٩ ـ الأيدي التي قتلت عثمان رضي الله عنه هي نفسُــها التي قتلت طلحة والزبير ثــم أمير المؤمنيــن عليّاً، وهــي التــي زوَّرت الكتب على لســان الصحابة

---

(١) انظر: منهاج السُّنَّة: ٣/٦٣١ـ٦٣٢، ٧٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٤/٣٣٥.

ومروان بن الحكم، والتي اتهمت مروان بقتل طلحة إمعاناً في التعمية على المجرم الحقيقي وإيغالاً في الكذب والتزوير.

وشريكها في ذلك أولئك الذين تلاعبوا بالتاريخ ورواياته، وشوَّهوا صورته، ودلَّسوا على الأمة حقائقه ووقائعه، حتى لا ينكشف الوجه الأسود للجُنَاة على التاريخ ورجالِ الأمة الكبار.

ويشاركهم فيه أيضاً الذين لا يزالون يكررون تلك الفِرى والأكاذيب ويقدمونها في (دراسات عصرية) تدَّعي البحثَ والنقدَ والتمحيصَ، وهي لا تَعْدو أن تكون تسويقاً لأهداف السبئية الأولى.

١٠ ـ قتلة عثمان ينطوون على باطنية حاقدة خبيثة، ويعملون في الظلام، ويثيرون الفتن، ويشترون الأغرار، وينفذون خططهم في خُلْطة من الناس والعمل من وراء وراء، **وعلى هذا النهج تسير اليوم (السبئية المعاصرة) في جوٍّ من الغوغاء والإعلام المضلِّل**، وتفجير المجتمع في (المكونات اللينة) و(الأقليات الطائفية)، وتدبير الاغتيالات للشخصيات المناوئة والموافقة، لإشعال نار الفتنة بين مكونات المجتمع الكبرى والصغرى، والأمثلة في زماننا كثيرة جدّاً.

١١ ـ تاريخ الفتنة خطير ومُرْعب، ومادته غزيرة ومشوشة ومشوهة، ومليئة بالكذب والتزوير والهوى، وكثيرٌ من رواتها مأبونون ومتَّهمون بالبدعة والوضع... وما كُتب في فتنة الجمل قديماً وحديثاً مأساوي مخيف، يُشفِق الباحث المنصف من الخوض فيه، وهو يجمع خيوط الحقيقة المبعثرة بين شبكات معقدة في ليلة ظلماء! وهذا يوجب عليه كثيراً من الحَيْطة والورع والإخلاص والإنصاف والدقة والنقد والتمحيص.

كما أنه لا عذرَ للأمة في ترك الحبل على الغارب لأولئك المارقين من الكتَّاب الذين يعملون مع مرور الزمن على زيادة زاوية الانحراف في (تاريخ

تلك الحقبة) لترسيخ (فرية موروثة) مفادها: أن (الصحابة بعد النبي ﷺ) قد انحرفوا عن جادة الهدى، وشـوَّهوا معالم الرسـالة، وغرقـوا في صراعات الحكم والسلطان والجاه والمال!.

إن كثيراً من الكتب التي تحدثت عن (تلك الفتنة) هي نفسـها (كتب فتنة) معاصرة تسـوِّق لمفتريات الأقدميـن، وتقدِّمها زاداً عـن (تاريخنا المشوَّه المظلوم)، إلى أبنائنا في المدارس والمعاهد والجامعات والإعلام بأنواعه المتعددة.

وقد كنتُ أفردتُ فقرة مطولة أشرتُ فيها إلى طرف من أكاذيب الرواة والمؤرخيـن والكتّاب المعاصريـن، ثم أعرضتُ عن بَسْـط الكلام فيها خشـيةَ الإفراط في (حجم الكتـاب)، ونثرتُ في ثناياه أمثلـة منها كلَّما سَـنحت الفرصة؛ لتكون زاداً للقارئ ومقياسـاً له يَسـبُر في ضوئه كل ما يقرؤه أو يسمعه.



الباب الرابع

الفتنة الرابعة
موقعة صفين: مقدماتها وأحداثها ونتائجها

- حقائق وأكاذيب حول (معاوية وبني أمية) في ضوء الفتنة ورواياتها.
- منشأ الخلاف بين علي ومعاوية وأسبابه وحقيقته ومبرراته.
- خروج علي إلى الشام، وموقف جماعة من الأكابر، ودور رؤوس الفتنة.
- مراسلات بين علي ومعاوية.
- حقائق ووقفات بين يدي (وقعة صفين وأخبارها).
- القتال بين الفريقين (توصيف ومعالم وحقائق وتحقيقات).
- قصة التحكيم (تجلية حقائق، وكشف زيوف).
- مع وقعة صفين (دروس وعبر، وحقائق وتوضيحات).

الفصل الأول

حقائق وأكاذيب حول (معاوية وبني أمية) في ضوء الفتنة ورواياتها

•• معاوية بن أبي سفيان ﵁ صحابي جليل، ورجل كبير نبيل، من صفوة الناس هدياً ونُبلاً، وعلماً وأدباً، وحِلماً وعقلاً، وسيادةً وسياسةً، وحكمةً ودهاءً. صحب النبي ﷺ، وجاهد معه في حُنين والطائف وتبوك، وغبّر قدمَيْه في سبيل الله، وأدناه ﷺ منه وقرَّبه إليه وائتمنه على كتابة الوحي وأثنى عليه ودعا له. وأمَّره الفاروق عمر على عامة بلاد الشام، وأقرَّه عثمان على ذلك، فولي الشامَ للخلافة الراشدة مدة عشرين سنة، ثم اضطلع بمهمة الإسلام كلها عشرين سنة أخرى في الوطن الإسلامي كله؛ فحَكَم المسلمين أربعين سنة، كان فيها من خيار ولاة الإسلام في مختلِف صفات الحاكم المسلم القوي الحكيم العادل الحليم الرحيم.

عن عبد الله بن عَمْرو قال: (كان معاوية يكتب لرسول الله ﷺ)[1].

وعن ابن عباس قال: (كنتُ غلاماً أسعَى مع الغِلْمانِ، فالتفتُّ فإذا أنا بنبيّ الله ﷺ خَلفي مقبِلاً... فقال: «**اذهَبْ فادْعُ لي معاوية**». قال: وكان كاتِبَه، فسعيتُ فأتيتُ معاويةَ، فقلتُ: أجبْ نبيَّ الله ﷺ فإنه على حاجةٍ)[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٢٣/٣، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد: (٣١٠٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: سنده قوي.

وعن العِرْباض بن سارية قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يدعونا إلى السحور في شهر رمضان يقول: «**هَلُمُّوا إلى الغَدَاءِ المبارك**»، ثم سمعتُه يقول: «**اللَّهمَّ عَلِّمْ معاويةَ الكتابَ والحسابَ، وقِهِ العذابَ**» أخرجه أحمد(١).

وله شاهد قوي ـ كما قال الذهبي ـ من حديث عبدالرحمن بن أبي عَمِيرة المُزني وهو من الصحابة: أن النبي ﷺ قال لمعاوية: «**اللَّهمَّ عَلِّمْهُ الكتابَ والحسابَ، وقِهِ العذابَ**»(٢).

وعن عبدالرحمن بن أبي عَميرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ: أنه قال لمعاويةَ: «**اللَّهمَّ اجْعَلْهُ هادياً مَهْديّاً، واهْدِ بهِ**»(٣).

•• وقد أثنى على معاويةَ الصحابةُ والتابعون ممن عاصره ورأى هديَه وسياسته وأعماله المجيدة الكثيرة، وحسبك بتزكية عمر له في توليته الشام كله، فما شكاه أحد، ولا عزله الفاروق وقد عَزل من هو خير من معاوية بكثير مثل سعد بن أبي وقّاص.

ـ عن أبي الدرداء قال: (ما رأيتُ أشبَهَ صلاةً برسول الله ﷺ من أميركم هذا. يعني معاوية)(٤).

ـ وقال سعد بن أبي وقّاص: (ما رأيتُ أحداً بعد عثمان أقضَى بحقٍّ من صاحب هذا الباب. يعني معاوية)(٥).

---

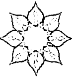
(١) مسند أحمد: (١٧١٥٢)؛ وانظر: البداية والنهاية: ٨/١٢٠ـ١٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/١٢٤؛ الإصابة: ٢/٤٠٧، وعزاه الحافظ للطبراني. وقال شعيب: رجاله ثقات، وانظر كلام الألباني في «الصحيحة»، الحديث (١٩٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٤١٧٧) وقال: حديث حسن غريب، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: ٣/٢٣٦؛ والصحيحة (١٩٦٩) وأطال الكلام هنا فأجاد وأفاد.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/١٣٥، وقال شعيب: رجاله ثقات. وهو في مجمع الزوائد: ٩/٣٥٧.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٣/١٥٠؛ مختصر ابن عساكر: ٢٥/٤٧.



ـ وعن الزُّهريِّ قال: (حدَّثني عُروة بن الزبير: أن المِسْوَر بن مَخْرَمَة أخبره أنه قدِم وافداً على معاوية، فقضَى حاجَته، ثم دعاه فأَخْلَاه فقال: يا مِسْوَر، ما فعل طَعْنُكَ على الأئمة؟! فقال المِسْور: دَعْنا من هذا وأحسِنْ فيما قدِمْنَا له! قال معاوية: لا والله، لَتَكلَّمَنَّ بذاتِ نفسك والذي تعيبُ علَيَّ. قال المِسْور: فلم أَترِكْ شيئاً أعيبُه عليه إلا بيَّنْتُه له، قال معاوية: لا بَرِئ من الذنب، فهل تَعُدَّ يا مِسْور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أَم تَعُدُّ الذنوبَ وتتركُ الحسنات؟! قال المِسْور: لا والله ما نذكر إلا ما نَرى من هذه الذنوب! قال معاوية: فإنَّا نعترفُ لله بكل ذنبٍ أذنباه، فهل لك يا مِسْور ذنوبٌ في خاصَّتِك تخشى أن تُهلِكَك إنْ لم يَغفِرْها الله؟ قال مِسْور: نعم، قال معاوية: فما يجعلُك أحقَّ أن ترجو المغفرةَ منِّي؟! فوالله لَمَا أَلِي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكنِّي والله لا أُخَيَّرُ بين أمرين: بين الله وبين غيره؛ إلا اخترتُ الله على ما سواه، وأنا على دين يَقبل الله فيه العمل، ويَجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب، إلا أن يعفو عمَّن يشاء، فأنا أحتسِبُ كلَّ حسنة عملتُها بأضعافها.. فتفكَّرْ في ذلك! قال المِسْور: فعرفتُ أن معاوية قد خَصَمني حين ذَكر لي ما ذكر.

قال عروة: فلم نَسمع المِسْور بعد ذلك يَذكُر معاوية إلا صلَّى عليه!)(١).

ـ وعن ابن أبي مُلَيْكَة قال: (أَوتَرَ معاويةُ بعد العشاء بركعةٍ، وعنده مولًى لابن عباس؛ فأتى ابنَ عباس، فقال: دَعْهُ فإنه صَحِبَ رسولَ الله ﷺ)(٢).

ومولى ابن عباس المذكور هو كُريب، كما جاء في رواية أخرى: عن كُريب مولى ابن عباس؛ (أنه رأى معاويةَ صلَّى العشاءَ، ثم أوتر بركعةٍ

---

(١) تاريخ بغداد: ١/٢٠٨ـ٢٠٩؛ ابن عساكر (مختصره): ٢٥/٤٧ـ٤٨؛ سير أعلام النبلاء: ٣/١٥٠ـ١٥١، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات. وأخرجه من طريق آخر: عبدالرزاق في مصنفه (٢٠٧١٧) وسنده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٤).

واحدة لم يزِدْ، فأخبر ابنَ عباس، فقال: أصابَ، أي بُنيَّ! ليس أحدٌ منا أعلمَ من معاوية!)[(١)].

ـ وعن جَبَلة بن سُحَيم (عن عبد الله بن عُمر قال: ما رأيتُ أحداً أسودَ من معاوية! قلتُ: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه، وكان معاوية أسودَ منه).

روي من طُرق، وذكر ابنُ عمر فيها: (أبا بكر وعمر وعثمان!)[(٢)]. ومعنى **أسود**: أعظم سيادة.

ـ وجاء من وجهين: عن الأعمش، عن مجاهد قال: (لو أدركتُم معاويةَ لقلتُم: هذا المهدي).

ـ وقال أبو هريرة المُكْتِب: (كنا عند الأعمش فذكروا عمر بنَ عبد العزيز وعدْلَه، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاويةَ؟ قالوا: في حِلْمه؟ قال: لا والله بل في عدله).

ـ وعن أبي بكر بن عيَّاش، عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال: (ما رأيتُ بعدَه مثلَه. يعني معاوية)[(٣)].

ـ وعن قَبِيصة بن جابر قال: (صحبتُ معاويةَ بنَ أبي سفيان؛ فما رأيتُ رجلاً أثقلَ حِلْماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعدَ أناةً منه!)[(٤)].

ـ وعن ابن عباس قال: (لمَّا احتُضِر معاويةُ قال: إنِّي كنتُ مع رسول الله ﷺ على الصَّفَا، وإني دعوتُ بِمِشْقَصٍ، فأخذتُ من شَعره،

---

(١) مسند الشافعي: ١٠٨/١؛ سير أعلام النبلاء: ١٥١/٣ـ١٥٢؛ الفتح: ٧١٤/٨ـ٧١٥، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(٢) ابن عساكر (مختصره): ٥٣/٢٥ـ٥٤؛ منهاج السُّنَّة: ١١١/٣؛ سير أعلام النبلاء: ١٥٢/٣؛ البداية والنهاية: ١٣٥/٨.

(٣) مختصر ابن عساكر: ٥٣/٢٥؛ منهاج السُّنَّة: ٦٥٦/٣.

(٤) المعرفة والتاريخ: ٤٥٨/١؛ مختصر ابن عساكر: ٥٦/٢٥.

وهو في موضع كذا وكذا، فإذا أنا مِتُّ، فَخُذوا ذلك الشعرَ فاحْشُوا به فمي ومنخري!)[١].

•• فهذه شهادة النبي ﷺ لمعاوية وتزكيته له، وتلكم شهادات الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسان، فما قيمة أي كلام يخالفهم ممن جاء بعدهم؟!.

والكلام عن معاوية صاحب النبي ﷺ، وكاتبِ الوحي، وخالِ المؤمنين ـ كثير طويل، قد أحسن في الكتابة عنه آحادُ الناس، وأساءَ الأكثرون! ووقع فيه أهلُ الشنآن والبغضاء، وهؤلاء كُثر لا يَنقطع لهم حقد ولا تنتهي ضغينة؛ وهم رافضة اليوم (خَلْف) الرافضة المتقدمين، وأعوانهم وأتباعهم ممن يضطغنون على الإسلام والصحابة عموماً وعلى (عمر وخالد وسعد وأمثالهم) خصوصاً، وعلى (معاوية وبني أمية) أخصّ الخصوص! لأنهم أطفؤوا نار المجوس وكَسَروا كسرى ومزقوا دولة الفرس، وقد كشف التاريخ القديم والحديث والحالي أقنعتهم!

ومعاوية كما يقول الذهبي: (قد سادَ وساسَ العالم بكمال عقله، وفَرْط حِلْمه، وسَعَة نفسه، وقوة دهائه، ورأيه. وكان محبَّباً إلى رعيَّته، عمل نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يَهِجْهُ أحدٌ في دولته، بل دانت له الأمم، وحَكَم على العرب والعجم، وكان ملكُه على الحرمين ومصر والشام والعراق وخراسان وفارس والجزيرة واليمن والمغرب وغير ذلك)[٢].

وتكلم ابن تيمية بكلام جليل نفيس عن معاوية في مواضع كثيرة من «منهاج السُّنَّة» و«مجموع الفتاوى»، ومما قاله: (وأقام معاوية نائباً عن عمر وعثمان عشرين سنة، ثم تولى عشرين سنة، ورعيتُه شاكرون لسيرته وإحسانِه، راضون به، حتى أطاعوه في مثل قتال علي!)[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥٨/٣؛ مختصر ابن عساكر: ٨٥/٢٥. **المشقص:** نصل طويل عريض.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٣٣/٣.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٤٦٢/٤.

وقال في موضع آخر: (وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ: أنه قال: «**خيارُ أئمتِكم الذين تحبُّونَهم ويُحبُّونكم، وتُصلُّون عليهم ويصلُّون عليكم. وشِرارُ أئمتكم الذين تُبغِضُونهم ويُبغِضونكم، وتَلْعَنُونهم ويَلعنُونكم**»[1]. قالوا: ومعاوية كانت رعيتُه تحبه وهو يحبُّهم، ويصلّون عليه وهو يصلي عليهم)[2].

•• ولا يجوز سبُّ أي صحابي أو الطعنُ عليه أو الإزراءُ به أو اتهامه، فضلاً عن لَعْنِه أو الحكم بضلاله وكفرِه وردَّته والعياذُ بالله تعالى، فقد زكَّاهم الله تعالى ونبيه ﷺ عموماً وخصوصاً.

قال ابن تيمية: (من لعن أحداً من أصحاب النبي ﷺ، كمعاوية بن أبي سفيان وعَمْرو بن العاص ونحوِهما، ومن هو أفضلُ من هؤلاء كأبي موسى الأشعري وأبي هريرة ونحوهما، أو من هو أفضل من هؤلاء كطلحة والزبير وعثمان وعلي... فإنه مستحقٌّ للعقوبة البليغة باتفاق أئمة الدين، وتنازَعَ العلماء: هل يُعاقب بالقتل، أو ما دون القتل؟)[3].

وسيدنا عليٌّ على خلافه مع معاوية، كان يُثني عليه، فقد روى الشعبي، عن الحارث الأعور قال: (لما رَجَع علي من صفِّين عَلِم أنه لا يَملك أبداً، فتكلم بأشياءَ كان لا يتكلم بها، وحدَّث بأحاديث كان لا يتحدَّث بها، فقال فيما يقول: أيها الناس، لا تكرهوا إمارة معاوية، والله لو قد فقدتُموه لقد رأيتُم الرؤوسَ تَنْدُر عن كواهلها كالحنظل!)[4].

وفي (أصح كتاب عند الرافضة): أن عليّاً سمع قوماً من أصحابه يَسبُّون أهلَ الشام، فنهاهم وقال: (إنِّي أكرهُ لكم أن تكونوا سَبَّابِين، ولكنكم لو

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٥)، **والصلاة**: الدعاء.

(٢) منهاج السُّنَّة: ١٢١/٣، وانظر: ٦٦٤/٣، ٧٣١؛ مجموع الفتاوى: ٥٨/٣٥ـ٦٦.

(٣) مجموع الفتاوى: ٥٨/٣٥، وانظر: ٥٩/٣٥ـ٦٦؛ منهاج السُّنَّة: ١٢٥/٣ـ١٢٦.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٤/٨. **تندر**: تسقط.

وَصفتُم أعمالَهم وذكرتُم حالَهم كان أصوبَ في القول، وأبلَغَ في العُذْر، وقلتُم مكان سَبِّكُم إياهم: اللَّهمَّ احقِنْ دماءنا ودماءهم، وأَصْلِحْ ذاتَ بيننا وبينِهم، واهْدِهم من ضلالَتِهم، حتى يَعرِفَ الحقَّ مَن جَهِلَه، ويَرْعَوِي عن الغَيِّ والعُدوان مَن لَهِجَ به!)[1].

ومثله موقف عمار وهو من جِلَّة الصحابة، وكان في جيش علي، فعن زياد بن الحارث قال: (كنتُ إلى جَنْب عمار بن ياسر بصفِّين، وركبتي تمسّ ركبتَه، فقال رجل: كَفَر أهل الشام! فقال عمار: لا تقولوا ذلك؛ نبيُّنا ونبيُّهم واحد، وقِبْلتُنا وقِبْلتُهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون حادوا عن الحق، فحَقَّ علينا أن نقاتِلهم حتى يرجعوا إليه)[2].

بل هناك أعظمُ وأجَلُّ من كل ما سبق، وهو الحديث الصحيح الذي شهد فيه النبي ﷺ للطائفتين المتحاربتين في صفين بأنهما مسلمتان ودعواهما واحدة، وذلك فيما رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعة حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، يكون بينهما مَقتلةٌ عظيمةٌ، دَعوتُهما واحدةٌ: أي الإسلام**»[3].

وكذلك حديث (الصلح بين المسلمين) الذي قام به السيد الجليل الحسن بن علي، ونال بسببه الثناءَ الرفيعَ السائرَ من النبي ﷺ بقوله: «**إنَّ ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بين فئتينِ عظيمتينِ من المسلمين**»[4].

---

(١) نهج البلاغة ـ بشرح ابن أبي الحديد، الخطبة (١٩٩): ١٨/٦.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٢/٨؛ الفتح: ٤١٧/١٦ (٧١٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٢١)؛ ومسلم (١٥٧) بعد الحديث (٢٨٨٨)، وغيرهما. وقد شرحته بتوسع في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٩٦/٢ـ١١٢.

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، وغيره، وانظر تتمة تخريجه وشرحه في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٢٤٤/٢ـ٢٥٦. وكتابي الآخر: «الحسن بن علي».

وقد كان معاوية هو المبادرَ في طلب الصلح والراغبَ فيه، وأَرسل إلى الحسن في ذلك، فقَبِل الحسن وأَعلن الصلحَ في أهل العراق، وخَطَبهم وحثَّهم على مبايعة معاوية وطاعته:

عن هلال بن خبَّاب قال: (جَمع الحسن رؤوسَ أهل العراق في هذا القصر ـ قصر المدائن ـ فقال: إنكم قد بايعتموني على أن تُسالموا من سالمتُ، وتحاربوا من حاربتُ، وإني قد بايعتُ معاويةَ فاسمعوا له وأطيعوا)[١].

أقول: قدمت بهذه الحقائق والشهادات والأدلة الناصعة الساطعة؛ لتكون نِبْراساً لكل إنسان حر كريم وباحث وكاتب يريد الحق، عند الحديث عن تلك الحقبة المحزنة، وبين يديه ركام هائل من الروايات التالفة والأكاذيب والادعاءات والشتائم، والترَّهات؛ حول (معاوية وبني أمية)، وموقف علي والصحابة والمسلمين عامة منهم.

ولتكون مِسْباراً لكل ما يرِدُ من هنا وهناك من لعنٍ وسبٍّ وشتمٍ وتضليلٍ بين الفريقين من أهل صِفِّين، وللعلم بأن ما جاء في ذلك هو من نفثات المَصْدورين من قتلة عثمان، المستمرين في الفتنة وإشعال نار الخلاف والقتال، منذ قتلِهم عثمانَ ثم أيام الجمل وصفين والنهروان وهلم جَرّاً إلى زماننا! وكذلك هي من أقاصيص الرواة الضعفاء والمتروكين وأصحاب الأهواء والمبتدعة، وبعد هؤلاء وأولئك ممن يروِّج لتلك الأباطيل من رافضة اليوم ومَن هم على شاكلِتهم من الكتَّاب المتهوِّرين أو الحاقدين أو الغُثائيين الجمَّاعين وحاطِبي الليل!.

ونشير باختصار شديد إلى أمثلة من تلك الأكاذيب، ونماذج من الكتابات في هذا الجانب:

---

(١) المعرفة والتاريخ: ٤١٠/٣؛ ابن عساكر (مختصره): ٣٤/٧. وإسناده صحيح.



●● فابن أبـي الحديد المعتزلي الرافضي يذكر في «شـرح نهج البلاغة» (فرية اللعن) فيقول: (ولمَّا قنت عليٌّ عليه السلام على خمسة ولعنَهم، وهم: معاويـة، وعمرو بن العـاص، وأبو الأعور السُّـلَمي، وحَبيب بن مَسْـلمة، وبُسْـر بن أَرْطاة، قنت معاوية على خمسـة وهم: علي والحسـن والحسين عليهم السلام، وعبد الله بن عباس، والأشتر، ولعنهم!).

وذكر في موضع آخر أن القنوت واللعن كان في الصلاة وخطبة الجمعة[1]!.

فهل يصـدِّق عاقل ذلك؟! ولـو أن رجلاً من المسـلمين الآن قام على المنبر ولعن فلاناً من الناس أمام الملأ، لوبَّخه العامة قبل الخاصة، ولَاتَّهموه في دينه وعقله! فكيف يُقبل هذا من ربيب بيت النبوة علي، ومن معاوية أمير بلاد الشام ثم عامة بلاد الإسـلام فيما بعد؟ وكيف قبل الحسن بن علي بأن يتنازل عن الخلافة لرجـل كان يلعنه وأباه وأخاه فـي الصلاة والخطبة على المنابـر؟! أين عقلك يا ابن أبي الحديد؟! وأيـن أحلام من يصدقونك ممن هم على مذهبك وبدعتك؟!.

ومما نُسـب إلى عليٍّ في «نهـج البلاغة» قولـه: (والله ما معاويةُ بأدهى منِّي، ولكنه يَغدِر ويَفْجُر، ولولا كراهيةُ الغدر لكنتُ من أدهى الناس...)[2].

وكذلك كتاب منه إلى معاوية يقول فيه: (أما بعد، فقد أتتني منكَ موعظةٌ مُوَصَّلَة، ورسـالةٌ محبَّرة، نَمَّقْتَها بضلالك، وأمضيتَها بسـوءِ رأيك. وكتابُ امرئ ليس له بصرٌ يَهديه، ولا قائدٌ يُرشِـده، قد دعاهُ الهـوى فأجابَه، وقادَهُ الضلال فاتَّبَعَه، فهجر لاغِطاً، وضَلَّ خابِطاً!)[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٧٢/٨، ٣٢٢. وقد فصلتُ ذلك في كتابي «الحسن بن علي».
(٢) شرح نهج البلاغة: ٣٩٦/٥.
(٣) المرجع السابق: ٢٦٢/٧.

ومن هذا أيضاً كتابه ـ المزعوم ـ إلى عَمْرو بن العاص، وفيه: (فإنك قد جعلتَ دِينَكَ تبعاً لِدُنيا امرئ ظاهرٍ غَيُّه، مهتوكٍ سِتْرُه، يَشين الكريمَ بمجلسه، ويُسَفِّه الحليمَ بخَلْطتِه، فاتبعتَ أثرَه، وطلبتَ فضْلَه، اتباعَ الكلبِ للضِّرغام يَلوذُ بمخالبه، وينتظر ما يُلقى إليه من فضل فريسته! فأذهبتَ دنياك وآخرتك، ولو بالحق أخذتَ أدركتَ ما طلبتَ)[١].

وهذا الكلام وأمثاله مما يَطرب له مبغضو الصحابة، ويروِّجون لِما هو أقبحُ منه، هو مما يقطع العاقل المنصف ببطلان صدوره عن أمير المؤمنين علي في عفّة لسانه وسماحةِ خُلقه ومعرفته بأقدار الناس. كما أنه لا يَروج على آحاد الناس فضلاً عن العارفين بمنزلة الصحابيين معاوية وعمرٍو في جلالتهما ورجاحة عقلهما وكريم مجلسهما وجليسهما، دَعْ عنك ثناءَ النبي ﷺ عليهما، فكيف يُتّهمَانِ بالضلال والغواية وعدم الرشاد؟!.

وزاد ابن أبي الحديد الأمر سوءاً فقذف معاويةَ بصفات لا يفعلها إلا متهتك لا يعبأ بالمحرمات، فقال شارحاً لهذا الكلام الأخير:

(أما مهتوكٌ سِتْره: فإنه كان كثيرَ الهزل والخلاعة، صاحبَ جُلساء وسُمَّار، ومعاوية لم يتوقر ولم يَلزم قانون الرياسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين واحتاج إلى الناموس والسكينة! وإلا فقد كان في أيام عثمان شديدَ التهتُّكِ، موسوماً بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسَه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البَغْلات ذواتِ السروج المُحلّاة بها، وعليها جِلال الديباج والوشْي، وكان حينئذٍ شابّاً وعنده نَزَق الصِّبا وأثر الشبيبة وسُكْر السلطان والإمرة. ونقل الناسُ عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام!)[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٤٠/٨.

(٢) المرجع السابق: ٣٤٠/٨.

فهل نصدِّق الصحابة والتابعين الذين عاصروا معاوية وكانوا شهوداً على سيرته وأعماله، أم نقبل كلام هذا الرافضي الـ...؟! ولا نستطيل بلساننا على هذا المفتري بل نقول: هذا الاتهام لمعاوية رضي الله عنه في صحيفته يَلقى به ربه فيحاسبه عليه بمقدار مَن يقرأ كتابه ويتأثر بضلالاته وافتراءاته!.

وفي (مَتْن نهج البلاغة وشَرْحه) من الضلال والكذب والافتراء والطعن على النبي ﷺ والصحابة ما لا يَحتمله حر كريم، ولا يَقبله ذو مروءة، وهو من الشواهد الكثيرة على أن كثيراً مما في هذا الكتاب لا تصح نسبته إلى علي البتَّة.

●● ويقول كاتب شيعي معاصر: (كان معاوية يتطيَّر من طالعه، ويسأل أهلَ النجوم، وإنه ليسترشدُ بأجرام السماء مستقرِئاً للغيب، ولم يكن له إيمان يتبعه)[1].

ـ ويزعم أحد كبراء الشيعة المعاصرين: أنه (ما زال أهل الدين والحق حتى اليوم يحبون عليّاً، ويكرهون معاوية، وسيبقى عليٌّ محلّاً للتقديس، والتعظيم، ومعاوية محلّاً للاحتقار والهوان إلى آخر يوم!).

ويستطيل بلسانه وقلمه على كاتب الوحي ومن أثنى عليه النبي ﷺ والصحابة وتنازل له الحسن عن الخلافة، فيقول:

(والذي نراه أن معاوية لم يطمع بالخلافة ولم يحدِّث بها نفسَه قبل فتنة الجمل، لأنه يعلم مكانه، وأنه أحقر من أن يطمع بالخلافة، وهو الطَّليق ابنُ الطَّليق، وفي المسلمين السابقون المقربون، وقد سمع معاوية عمر بن الخطاب يقول: الخلافة محرمة على الطلقاء)[2].

---

(١) أبو تراب، للدكتور طلال الجنابي، ص٢٤٠.

(٢) فضائل الإمام علي، لمحمد جواد مغنية، ص٦٧، ١٤٢ـ١٤٣.

ونحن نقول لهذا الرجل وأمثاله ممن يضطغنون على صحابة نبينا ﷺ: هل تحفظون قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]؟! أليس مُسْلِمة الفتح مشمولين بالآية وقد وعدهم الله الحسنى؟! وإذا كانت الخلافة محرمة على (الطلقاء) كما تفتري على عمر، أَلَا يعني هذا أن الحسن بن علي قد ارتكب محرَّماً عندما تنازل عن الخلافة وبايَعَ معاويةَ عليها؟!.

ـ وذكر محقق (ترجمة علي في تاريخ ابن عساكر) ـ وتصفه شيعته بالمحقق الخبير ـ أن معاوية كان ذا ولعٍ في السعي لاستئصال أهل بيت النبوة ومعادن العلم والمعرفة[١].

وأوضح ما يُردّ به عليه أنْ نقول: هل عرفتَ معاوية وهديه وأخلاقه وسيرته في الناس أكثر من الحسن الذي تنازل له عن الخلافة؟! وأكثر من الحسين الذي سكت على ذلك مقرّاً له؟! أَفكانا جاهلَيْن بحقيقة معاوية، أم كانا جبانَيْن خائفَيْن عاشا في عهده ولم يهيجا عليه أحداً؟! وحاشاهما من كل ذلك!.

والكلام في هذا الباب لا ينتهي، وكتب الرافضة ـ قديماً وحديثاً ـ تطفح بالطعن على معاوية ومن هو أجلُّ منه بكثير!.

●● وفي كتابات كثيرين من المعاصرين من غير الرافضة مجافاة للحقيقة ومجازفات وطامات وولوغ في عِرْض الصحابة وبخاصة معاوية. ونتجاوز في ذِكْر الأمثلة ما هو مشهور في كتابات طه حسين وعباس محمود العقّاد وخالد محمد خالد وهشام جعيط وأمثالهم، إلى ما هو أقل شهرة ونختار كتاب «علي بن أبي طالب» لعبد الكريم الخطيب، ومما جاء فيه:

---

(١) تاريخ ابن عساكر، بتحقيق محمد باقر المحمودي: ٣/٣٣٦، حاشية (٢).

ـ (بيت مال المسلمين هو بيت مال معاوية يضعه حيث يشاء، ويفتح به لنفسه إلى الناس طُرقاً)[١].

ـ (اشترى معاوية الرجال بالمال والسلطان، واشترى الرجال بالادعاء والاستلحاق. وبقي رجال لم يستطع أن ينفذ إليهم بسبب من تلك الأسباب، ومع هذا فلم يزل يدور حولهم ويكيد لهم، حتى يقطع ما بينهم وبين علي، ثم لا عليه أن يصل بينهم وبينه)[٢].

ـ وكان يرضى ويسكت على خيانة الولاة من بيت المال، (ولم يكن معاوية يَطرق هذا الباب، ثم يفتحه على مصراعيه، لو لم يجد من الناس استعداداً للمساومة على دينهم وعلى خلقهم)[٣].

ـ ومعاوية وبنو أمية يقتلون الأنفس وينتهكون القيم والمحرمات ويولُّون الجبابرة ولا يَرْعَوُون عن حُرْمة[٤].

ـ ومعاوية وأصحابه على الباطل ويُلبِسونه لباس الحق ويقاتلون في سبيله، وهو يعصي الله وأهل الشام يطيعونه[٥].

وغير ذلك كثير مما شحن به كتابه، وكأنه وضعه للتشفي من معاوية وبني أمية، ومراجعه في ذلك كما يلي: الكامل للمبرد، الأغاني، الإمامة والسياسة، نهج البلاغة وشرحه، الأخبار الطوال، تاريخ الطبري.



(١) ص٤٣٩.
(٢) ص٤٤٢، ٤٥٦.
(٣) ص٤٤٤.
(٤) ص٤٥٦ـ ٤٦٦.
(٥) ص٤٨٢ـ ٤٨٣.

الفصل الثاني

منشأ الخلاف بين علي ومعاوية وأسبابه وحقيقته ومبرراته

١ ـ تمهيد حول روايات التاريخ والمؤرخين بشأن (صِفِّين)[(١)]:

●● الحقيقة المُرَّة التي يجب أن نذكرها دائماً ونؤكدها ونجهرَ بها هي أن: كتب التاريخ الإسلامي في مصادره الأولى القديمة ثم اللاحقة؛ قد أساءت كثيراً إلى (عهدَيْ عثمان وعلي) وبخاصة (أحداث الفتنة: مقتل عثمان، الجمل، صفين، وغيرها)، وكذلك أساءت إلى رجال ذلك العهد.

وأن مؤرِّخينا قد أخطؤوا قليلاً أو كثيراً أيضاً؛ عندما سوَّدوا وجْهَ (كتب التاريخ) بروايات باطلة تافهة مكذوبة، نقلوها عن رواة كذابين أو متروكين أو وضاعين أو مبتدعة حانقين، في حق صحابة أجلَّاء عظماء هم في أرفع مراتب النُّبل والطهر والصدق والإخلاص والعقل والعلم!.

أين تزكيةُ القرآن الكريم للصحابة، وثناءُ النبي ﷺ العريض عليهم ونهيُه الشديد عن ثَلْبهم أو سبِّهم؟! ثم أين ما اشتهر عنهم من الأخلاق الرفيعة والشمائل الحميدة والأعمال المجيدة؟!.. أين كل ذلك من روايات تتهمهم بالخيانة والكذب والغدر والجُبْن والتآمر والكيد والتباغض والأثرة والنذالة... حتى جعلت تلك الروايات من (ابن سبأ والسّبئيين) دعاةَ إصلاح

---

(١) انظر ما تقدم: الباب الثاني، الفصل الثالث، ص٨٧.

وتقويم لمنهج عثمان وعلي والحسن ومعاوية! وروَّجت للأشتر النخعي وحُكَيم بن جَبَلَة والغافقي بن حرب وأمثالهم أنهم طلاب حق وإقامة للشعائر، وهم الذين زحفوا إلى المدينة في هيئة الحُجَّاج ثم حاصروا عثمان وقتلوه! وهم الذين أججوا الفتن في عهد علي وبخاصة أيام (الجمل وصفين)، وأفسدوا كل خطة إصلاح، وسَعَوا إلى الفساد والإفساد من وراء وراء، وروَّجوا الأكاذيب واختلقوا الفتن... ثم جاء الرواة وأكثرهم من الضعفاء والمتروكين وأصحاب الأهواء، فدوَّنوا تلك الأحداث على أنها صورة لذلك العهد ورجاله الكبار!.

•• إنه لا بدّ من المعرفة التامة بتاريخ تلك الحقبة، وأخلاق رجالها وشمائلهم وأعمالهم ومنزلتهم، وأثرِ القرآن الذي لا يزال غَضّاً في تربية أتباعه في صدر الإسلام وتزكية أرواحهم، وتوجيه تصرفاتهم وأعمالهم وثقافتهم العامة، التي يهيمن عليها الوازع الديني والأخلاقي لا المآرب الشخصية والدوافع المادية الدنيوية.

ولا يُقبل البتة أي خبر يطعن في عدالة الصحابة وتنزُّهِهم عن الطمع والغدر والخديعة والفسق والظلم والاستبداد وأكل الأموال بالباطل وكل ما هو من الفسق وخوارم المروءة(١).

•• كما يتوجب على الباحث الخبرةُ الشاملة بالراوي والمرويِّ، وفحصُ الأخبار ومقارنتها ببعضها، ونقدُ السند والمتن، وغربلةُ الروايات واستخلاص الحقائق من أضابيرها ونفي غَلَس الأساطير والأكاذيب عنها؛ فنأخذ بالصحيح والحسن والقريب منه، ولا بأس بأخذ الضعيف الذي يَسدُّ فراغاً ويملأ ثغرة ويفكّ لُغزاً ويشرح غامضاً، ما دام ذلك متفقاً مع الروح

---

(١) منهج دراسة التاريخ الإسلامي، ص٨٧.

التي تسود ذلك المجتمع والسلوك الذي اشتهر به أهله وصانعو أحداثه، (ومرحى للنقد النزيه مصوغاً في نمط أهل الأدب من الباحثين، وليس أحد ـ حاشا النبيين ـ بمعصوم)(١).

●● ومن خيانة العلم والتنكر للأمة وتاريخها والحَيْف على سَلَفها الكريم؛ ما يقوم به بعض (الكتّاب) الذين ينتقون الأخبار حسب ميولهم، ويأخذون الروايات الضعيفة والواهية والباطلة التي تخدم ميولهم ومذاهبهم، ويكتفون بالإشارة إلى أنها عن الواقدي أو نصر بن مزاحم أو الطبري أو المسعودي... ثم يبنون على تلك الأخبار بنياناً من الآثام والفِرى التي تشوه صورة العصر الراشدي الذي هو (العصر الذهبي للإسلام) بعد عصر النبوة، والذي تحققت فيه (عالمية الإسلام) على أيدي رجاله من خلال الفتوحات والحكم بمبادئ الإسلام.

وإذا كان التحري في نقل الأخبار والتمحيص في قبولها والتثبت من مصداقية رواتها ونزاهتهم؛ واجباً بصورة عامة ولكل جيل، فهو آكَدُ وجوباً بحق جيل الصحابة وعصر الراشدين، التزاماً بهدي القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

●● ومما يجب التأكيدُ عليه والجهرُ به أن (تاريخ الطبري) ـ مع جلالة مؤلفه ومكانته الرفيعة ـ فيما أورده من روايات باطلة وتالفة ومكذوبة ومفتراة؛ قد أسهمَ في الإساءة إلى تاريخنا وبخاصة (أحداث الفتنة) في العصر الراشدي، وذلك فيما ينقله عن أمثال: محمد بن السائب الكلْبي وأبي مِخْنف لوط بن يحيى ونصر بن مزاحم وعَوَانة بن الحَكَم وبابَتِهم، بحيث

---

(١) عثمان بن عفان، للصادق عرجون، ص١٩.

يهول القارئ ـ في ظلمة تلك الروايات ـ ما كان عليه رجال ذلك العهد من الصحابة وصالحي الأمة من التابعين من الأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة والهدي السيئ والمكر والخديعة والتباغض والتدابر والتشاحن، وغير ذلك مما لا يصدقه عاقل إلا في سَفِلة الرجال!.

حتى إن الطبري نفسه قد استشعر ذلك فقال فيه وكأنه يتبرأ منه ويعتذر عن إيراده: (فما يكن في كتابي هذا من خبرٍ ذكرنا عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة ـ فليعلم أنه لم يُؤتَ في ذلك من قِبلنا، وإنما أُتي من قِبل بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدَّينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا)[1].

فهل يُقبل هذا العذر من الإمام الطبري وقد أصبح كتابه مصدراً ومرجعاً لعامة المؤرخين والكتاب ممن جاء بعده؟! فعليه اعتمد ابن الجوزي وابن الأثير وابن عساكر والذهبي وابن كثير وغيرهم من مؤرِّخي أهل السُّنَّة، وكذلك كثير من الرافضة المتقدمين والمتأخرين ويحتجون بأخباره على ما يريدون إثباته بحق الصحابة! وأيضاً أضحى المرجعَ الأول للكتاب المعاصرين من المستشرقين والمستغربين والعلمانيين والجمَّاعين في أيامنا هذه!.

ولسوف نشير إلى طَرف من تلك الأخبار والأكاذيب والافتراءات التي دُوِّنت بحق تلك (الحقبة الخطيرة)، ونسعى إلى تجلية وجه الحق ونفي الدَّغَل عنها، وتبرئة الصحابة مما عُزي إليهم وإلى تاريخهم، وتقديم ما هو أقرب إلى الحقيقة وأجدر بسيرهم رضي الله عنهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٨/١.

٢ ـ مقتل عثمـــان، وقميصه على منبر جامع دمشـــق، وموقف والي الشام (معاوية) وأهل الشام:

•• لما قُتـــل عثمان رضي الله عنه خـــرج الصحابـــي الجليل النعمان بن بشـــير الأنصاري من المدينة (ومعه قميص عثمان مضمَّخ بدمه، ومعه أصابع نائلة ـ زوجته ـ التـــي أُصيبت حين حاجَفَتْ عنه بيدهـــا، فقُطعت مع بعض الكفّ، فورد به على معاوية بالشـــام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلَّق الأصابع في كُمّ القميـــص... فتباكى الناس حول المنبـــر... وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرِّضـــون الناسَ على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج)[1].

وقـــد كان معاوية يـــرى أنه وليُّ دم عثمـــان لأنه ابن عمـــه، فطالب منذ استشهاده وتولي علي الخلافة بإقامة الحدِّ على القتلة أو دفْعِهم إليه ليقتلَهم به، وأيَّده في هذا أهلُ الشام... وكان يعترف بفضل عليٍّ وسابقته وصهره إلى النبي ﷺ وأنه متقدم عليه في كل ذلـــك، وأعلن هذا صراحة في وقت خلافه مع أمير المؤمنين، فقال: (إنـــي لأعلمُ أنه أفضلُ منِّـــي وأحق بالأمر ـ يعني الخلافة ـ)[2].

وأكد معاوية موقفه بأن الشهيد عثمان قُتل مظلوماً، وأنه كان على الهدى، واحتجَّ بحديث النبي ﷺ، وأنصتَ أهلَ الشام لاستماع ذلك:

عن جُبير بن نُفَيْر قال: (كنَّا مُعســـكِرين مع معاوية بعد قتل عثمان رضي الله عنه، فقام كعب بن مرَّة البَهْزيُّ فقال: لولا شيء سمعتُه من رسول الله ﷺ، ما قمتُ هذا المقام، فلما ســـمع (معاوية) بذِكْر رســـول الله ﷺ أجلَسَ الناسَ، فقال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٦٢/٤؛ المنتظم: ٧٧/٥؛ البداية والنهاية: ٢٢٨/٧.

(٢) تقدم بتمامه: ص٢٨٤ في هذا الكتاب.

بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ مرَّ عثمان بن عفان مُرَجَّلاً (مُغْدِفاً)، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لَتَخرُجَنَّ فتنةٌ من تحت قدمَيْ** - أو: من بين رِجلَيْ - **هذا، هذا يومئذٍ ومن اتبعَهُ على الهدى**»)[١].

وفي حديث صحيح آخر وصفَ النبي ﷺ الذين خرجوا على عثمان وحاصروه وقتلوه بأنهم منافقون[٢]!.

●● وهذا مما جعل معاويةَ ومعه صحابة آخرون وجميع أهل الشام يتوقفون عن بيعة أمير المؤمنين علي حتى يقيم الحد على قتلة عثمان.

ويرى معاوية أن أمير المؤمنين علياً غيرُ واجبٍ عليه طاعتُه لأنه لم يبايعه أولاً، ولأنه لم يُقم حدَّ الله تعالى في القصاص من قتلة عثمان ثانياً.

وكان يؤكد هذا المعنى فيقول: (ما قاتلتُ عليّاً إلا في أمر عثمان)[٣].

●● والخوارج السبئية وأتباعهم من المشردين والمطرودين والغوغاء والمنحرفين وذوي الأطماع والأهواء الشخصية؛ هم الذين خرجوا على شرعية الخلافة زمن عثمان، وحرفوا حركة التاريخ الصحيحة عن مسارها، وأحدثوا في سياقها منعطفاً خطيراً أدى في النهاية إلى تهديد بنيان الخلافة ومقتل أمير المؤمنين عثمان، ولهم اليد الطولى في ذلك. وهؤلاء المجرمون القتلة الذين وصفهم النبي ﷺ بـ(المنافقين) في قوله لعثمان: «**يا عثمان، إنَّ الله عسى أن يُلْبِسَكَ قميصاً، فإنْ أرادكَ المنافقون على خلْعِه، فلا تخلَعْه حتى تلقاني** - ثلاثاً -»[٤]؛ هؤلاء (المنافقون) كانوا في مقدمة المبايعين لأمير

---

(١) أخرجه أحمد: (١٨٠٦٨)؛ وابن أبي عاصم في السُّنَّة (١٢٩٣) و(١٢٩٥)، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١١٩). **مغدفاً**: أغدف عليه لباسَه: أرسَلَه، والغِدْفَة: لباسُ المَلِك.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٣٨/٢، ٥١.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٢٦٠/٧، وسنده حسن.

(٤) أخرجه الطيالسي (١٢٥٠)؛ وابن أبي عاصم في السُّنَّة (١٢٩٢)؛ والحاكم: ٩٨/٣ وصحَّحه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١١٨). وانظر ما تقدم: ص٨٤ - ٨٥.

المؤمنين، ولهم تأثير قوي على مسيرة الدولة وسيرورة الأحداث، وقد صرَّح علي بذلك فقال لإخوانه من الصحابة: (كيف نفعلُ بقوم يَملكوننا ولا نملكهم؟!)، وقد ضَجَّ بهم عليٌّ في غير موقف، وصرح بذلك مراراً!.

وهؤلاء كانوا مساعِرَ الفتنة والشر وشقّ الصفوف وإفشال كل محاولة إصلاح في أحداث البصرة ووقعة الجمل، وأشعلوا نار الحرب بين الفريقين كما قدمنا.

وهؤلاء هم أنفسهم (الصورة المكبَّرة) لنواة الشرِّ التي نشأت في أواخر عهد عثمان والتي عُرفت (بجماعة المُسَيَّرين)، والذين تنقلوا في عدة أمصار إسلامية ومنها الشام، وقد خَبَرهُم معاوية، وكَتب بشأنهم إلى الخليفة الشهيد عثمان يقول: (إنه قدِمَ علَيَّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أثقَلَهم الإسلام، وأضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همُّهم الفتنة وأموال أهل الذمة، واللهُ مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم!)[1].

نقول: هذه الشِّرْذمة من بُغاة الفتنة وأوكار الشر، هم أصحاب ذلك التاريخ المظلم والمسيرة الباطنية، ممن يُظهِر المطالبة بالحق والعدل والإنصاف، ويَطوون على الغدر والفجور والطعن في الإسلام وأهله؛ هم أولئك الذين قتلوا عثمان، وأنشبوا القتال يوم الجمل، تراهم اليوم في جيش أمير المؤمنين علي، وهي حقيقة لا يماري فيها أحد، ولا تذكر روايات التاريخ غيرها. وهو الأمر الذي شكا منه علي نفسه، كما شكا منه الصحابة ممن خالفه مثل أصحاب الجمل وغيرهم.

●● هذا السبب الخطير الكبير مع ما قدمناه من أسباب؛ كل ذلك دفع معاويةَ ومن معه من الصحابة وجميع أهل الشام؛ إلى التوقف عن بيعة علي

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٢١/٤.

بالخلافة، ومطالبته بإقامة القصاص على القتلة، أو دفعهم لوالي الشام القوي وولـي دم عثمان ليأخذ على أيديهم ويقيم الحد على من يستوجب عليه منهم، ثم بعد ذلك تكون البيعة لعلي.

وأكّد هذا الفريق موقفَه بالحديث المتقدم الذي ينصُّ على أن (عثمان ومَن اتبعه على الهدى)، فالمدافعون عنه على الهدى، بخلاف الخارجين عليه وقتلته فَهُم على الضلال! وهذا مما قوى موقف (معسكر معاوية) في الإصرار على مطلبهم في إقامة القصاص على القتلة الضالين الذين هم في جيش علي. مع التأكيد على أنه لا أحدَ ـ لا معاوية ولا أهل الشام ولا غيرهم ـ يَتَّهم عليّاً والصحابة والصالحين ممن معه بدم عثمان،إنما يخصُّون بهذا أولئك (القتلة من السبئية وأعوانهم وأتباعهم).

وفي هذا وذاك من الحجج الشرعية والتأويل المقبول، ما يبرر لأهل الشام موقفهم، ولا يطعن عليهم فيه إلا مكابر أو غالٍ أو مبغض.

فقضية تأجيل أمير المؤمنين علي إقامةَ حدِّ القصاص على القتلة هي مسألةٌ اجتهادية، ومسيرهُ في حرب البصرة والشام باجتهاد منه أيضاً كما ثبت عنه... وكذلك توقفُ معاوية في أهل الشام عن بيعة علي حتى يُقيم حد القصاص هو مسألةٌ اجتهادية أيضاً، ولهم في ذلك شبهات وتأويلات تبرِّر موقفهم(١).

وكما جاز لعليٍّ ومن معه أن يجتهدوا، كذلك يجوز لمعاوية ومن معه أن يجتهدوا في هذه المسائل، مع فضلهم وعلمهم وتاريخهم. ولا يجوز البتة الطعن على أيٍّ منهم أو التشكيك في نياتهم التي لا يعلمها إلا علّام الغيوب، وقد شهد لهم ﷻ بالصدق وزكاهم وأثنى عليهم في كتابه الكريم.

---

(١) انظر: منهاج السُنَّة: ٥٤٦/٣.

وأما القول بأن موقف معاوية من علي كان عن تبييتٍ سابق ونيَّة قديمة في مخالفة أمير المؤمنين وإحراجه وإرباكه وإفشال قيادته للدولة والأمة، وكذلك الزعم بأن عمل معاوية هو امتداد (لمواقف أهل الجمل) في مواجهة علي وصراع بين حزب أموِي وآخرَ هاشمي... فهذا وذاك من الفِرى السمجة التي لا تستند إلى رواية تاريخية صحيحة مقبولة، ولا يدعمها رأي سديد ولا منطق سليم! فمواقف والي الشام معروفة واضحة منذ بويع علي بالخلافة وصمَّم على عزل معاوية وبعث والياً بدلاً منه. بل إن موقف معاوية ليتجلى واضحاً صريحاً عبقريّاً منذ قام السبئيون بالخروج على عثمان، وطلب منه معاوية حمايته بطرق متعددة عرضها عليه[1].

٣ ـ إرادة علي عزل معاوية عن ولاية الشام، ومدى صواب ذلك، وآثاره:

تقدم[2] أن أمير المؤمنين عليّاً قد عزم غداةَ استخلافه على تغيير بعض الولاة ومنهم (معاوية)، فنصحه جماعة من أجلَّاء الصحابة منهم المغيرة بن شعبة وابن عباس بإقرار معاوية على الشام، فأبى ذلك وبعث (سَهْل بن حُنيف) لتولي إمرة بلاد الشام، فردَّه الشاميون من حدود الأردن.

ومعاوية ﵁ كان من خِيار الولاة في جميل هَدْيه وحُسن سياسته ورضا الرعية عنه، وماضيه المجيد وأعماله الجليلة وكونه من ولاة عمر وعثمان مدة طويلة، وهو من أكفأ ولاة الخلافة الراشدة. يضاف إلى ذلك نصحُ الناصحين لعليٍّ بعدم عزله، والمرحلة العصيبة التي تمرُّ بها الدولة؛ تقتضي إقرارَه وعدمَ توسيع شُقَّة الخلاف. وكذلك فإن عليّاً لم يعزل كثيرين من الولاة ممن

---

(١) انظر كتابي: عثمان بن عفان، ص٦١٦.

(٢) انظر: كتابي «علي بن أبي طالب» ص٤٠١ ـ ٤٠٦، ٤٨٠ ـ ٤٨١.

هم أقل أهمية بكثير من والي الشـام... كل هذا يجعل المصلحة في إقرار معاوية والاتفاق معه، وتجاوز العقبات التي تمرّ بها الدولة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومعاوية كان خيراً من كثير ممن استنابه علي، فلم يكن يستحق أن يُعزل ويولى من هو دونه في السياسة؛ فإن عليّاً استناب زياد بن أبيه، وقد أشاروا على عليٍّ بتولية معاوية، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تولِّيه شهراً واعزله دهراً! ولا ريب أن هذا كان هو المصلحة؛ إما لاستحقاقه وإما لتأليفه واستعطافه، فقد كان رسول الله ﷺ أفضلَ من عليٍّ، وولّى أبا سفيان، ومعاويةُ خير منه، فولّى مَن هو خير من عليٍّ من هو دون معاوية)[1].

وقد تبين لأمير المؤمنين علي فيما بعدُ صحة رأي الناصحين له، وقد قال له ابن عباس: (إن معاوية يُطاع ولا يُعصى، وأنت عن قليلٍ تُعصى ولا تُطاع!. فلما جعل أهل العراق يختلفون على علي رضي الله عنه قال: لله درُّ ابن عباس؛ إنه لَينظرُ إلى الغيب من ستر رقيق!)[2].

وكذلك ما آلت إليه أمور المسلمين بعد وقعة صفين يؤكد أن المصلحة كل المصلحة في الصلح بين أمير المؤمنين وأهل الشام، وعدم الانجرار إلى الخلاف ومن ثم القتال؛ (فلا ريبَ أنه لو لم يكن قتال، بل كان معاوية مقيماً على سياسة رعيته، وعلي مقيماً على سياسة رعيته، لم يكن في ذلك من الشرّ أعظم مما حصل بالاقتتال، فإنه بالاقتتال لم تَزُل هذه الفُرقة، ولم يجتمعوا على إمام، بل سُفكت الدماء، وقويت العداوة والبغضاء، وضعفت الطائفة التي كانت أقرب إلى الحق، وهي طائفة علي، وصاروا يطلبون من الطائفة الأخرى من المسالمة ما كانت تلك تطلبه ابتداءً!.

(١) منهاج السُّنَّة: ٣/١٢١ـ١٢٢، وانظر: ٤/٤٦١، ٤٦٣.
(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٣٨ـ٥٣٩.

ومعلوم أن الفعل الذي تكون مصلحته راجحة على مفسدته، يحصل به من الخير أعظم مما يحصل بعدمه، وهنا لم يحصل بالاقتتال مصلحة، بل كان الأمر مع عدم القتال خيراً وأصلح منه بعد القتال...)[1].

وهنا لا بدّ من طرح هذا السؤال: لماذا يُصِرُّ عليٌّ على عزل معاوية؟.

وأمير المؤمنين علي كان من أكابر رجالات الدولة في خلافة الخلفاء الثلاثة قبله، ويعلم سياسة الدولة ومنزلة الولاة والولايات فيها، ويعرف معاويةَ تمام المعرفة في منزلته وهَدْيه وحسنِ سياسته ورضا الخلفاء عنه وحبِّ الرعية له، وقد جاءت نصيحةُ الناصحين بإقراره وعدم عزله. وهاهو عليٌّ يرى خطورة الموقف وما جرَّه الخلاف في (وقعة الجمل). وهاهي ذِه نُذُر الفُرقة تدقُّ وتنذِر بتكرار المأساة المروِّعة، وبخاصة وقتلة عثمان تقوى شوكتُهم ويزداد غيُّهم وطغيانهم ويتشظَّى سعيُهم في إثارة الفتن والقتال... فما الذي حدا بعليٍّ وحمَلَه على إصراره على عزل معاوية وإرغامه في أهل الشام على الطاعة أولاً، مع كل هذه المقدمات والمحاذير؟!.

والذي نراه ولا نجد غيره جواباً لهذه المعضلة يتلخص في أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن عليّاً رضي الله عنه توارى عنده (جانبُ السياسة) وغلَبتْ (مزيةُ القوة) والأخذ بما نسميه (الحسم العسكري)، وخاصيةُ القوة والبطولة والفروسية والشجاعة الغلَّابة مما امتاز به عليٌّ، وتشكل ركناً بارزاً غلَّاباً في شخصيته.

والأمر الثاني: وهو ـ برأينا ـ يوازي الأول ويتفوق عليه في التأثير: هو أثر (السبئية من قتلة عثمان) على القرار السياسي، وتوجيه مسار الأحداث والدفع بها نحو نفق الفتنة والقتال، وتحقيق المزيد من الشروخ في صف الأمة وجسم الدولة، وهو ما لا يعيشون دونه، ولا يهنؤون إلا في حَمْأَته! وقد

---

(١) منهاج السُّنَّة: ١٢٢/٣.

استغلوا في ذلك ما أشاعوه وروَّجوا له من (سوء سيرة معاوية وأطماعه) في الخلافة، وسعيه في أهل الشام لبناء أمجاد أموية!.

وقد تبين من سـيرورة أحـداث (وقعة صفين) وما تلاهـا، مدى التأثير الكبير لأولئك السبئية المجرمين في توسيع الخلاف وتأجيج القتال.



الفصل الثالث

خروج علي إلى الشام، وموقف جماعة من الأكابر، ودور رؤوس الفتنة

•• لما رفض معاوية في أهل الشام بيعة أمير المؤمنين علي، وردّوا والي الشام الجديد من قِبله ورفضوا عزل معاوية؛ عزم علي على المسير إلى أهل الشام ليرغمهم على البيعة والدخول في الطاعة، فجاء إليه ابنُه الحسن بن علي وقال له: (يا أبتِ، دَعْ هذا فإن فيه سَفْكَ دماء المسلمين، ووقوعَ الاختلاف بينهم)، فلم يَقبل منه ذلك[١].

ونَصَحه غير واحد من الصحابة بأن لا يسير إلى أهل الشام، وأن يسالمهم ولا يسعى إلى المواجهة بين المسلمين:

فدخل عليه الصحابي حَنْظلة بن الرَّبيع التَّميمي المعروف (بحنظلة الكاتب)، في رجال كثير من غَطَفان وبني تميم، قال حنظلة: (يا أمير المؤمنين، إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلْها منَّا، ورأَيْنَا لك رأياً فلا تردَّه علينا، فإنَّا نظرنا لك ولمن معك: أَقِمْ، وكاتِبْ هذا الرجلَ، ولا تَعجلْ إلى قتال أهل الشام)[٢].

---

(١) البداية والنهاية: ٢٣٠/٧؛ نبوءات الرسول ﷺ: ٩٩/٢.

(٢) وقعة صفين، ص٩٦.

وأشــار عَديّ بن حاتم على أميــر المؤمنين علي بمثــل ما نَصح به حنظلة الكاتب[١].

وألحَّ عبدالله بــن عباس على علــيٍّ بالنصيحة والمســالمة مع معاوية، فأجابه علي: (لا أعطيه إلا السيفَ، حتى يغلبَ الحقُّ الباطل!)[٢].

ونصحه عبدالله بن سَــلَام بــأن لا يخرج مــن المدينة فقــال: (يا أمير المؤمنين، لاتخرج منها، فــوالله لئن خرجتَ منها لا ترجــع إليها، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً!)[٣].

●● تجهَّــز علي في جيــش كثيف وخرج باتجاه الشــام، فعلــم معاوية بخروجه، فاستشار الناس فأشاروا عليه بالخروج، فخرج في جيش كبير.

وكان خروج علي إلى صفين بعد وقعة الجمل ـ وكانت الجمل في (١٥) من جمادى الآخرة من سنة (٣٦هـ) ـ بنحو ثلاثة أشهر[٤].

وقد كان لرؤوس الســبئية والغوغــاء دور تحريضي كبير على اســتمرار الخلاف بين المسلمين، وتوسيع دائرة الفتنة، وإحراج أمير المؤمنين ومعاندته والخروج من طاعتــه، وهذا ما يؤكده الطبري قائلاً: (وأعجلتِ الســبئية عليّاً عن المقام، وارتحلوا بغيــر إذنه، فارتحل في آثارهم ليقطــع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه!)[٥].

وقد كان لهم كثير من مثل هــذه الأعمال الإجرامية في (فتنة البصرة، ووقعة الجمل)، فالأشتر النخعي كان يطمح للقيادة والرئاسة دوماً، وعندما

---

(١) وقعة صفين، ص٩٨.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٣٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٤٥٥، وانظر: كتابي «علي بن أبي طالب» ص٣٦٤ ـ ٣٦٦.

(٤) التاريخ الأوسط، للبخاري: ١/١٧٣.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/٥٤٣ـ٥٤٤.

رأى أميرَ المؤمنين يقدِّم أبناءَ عمه العباس عليه؛ تبرَّم بذلك وقال: (علامَ قتلنا الشيخَ ـ أي: عثمان ـ إذ اليمنُ لعُبيد الله، والحجاز لقُثَم، والبصرة لعبدالله، والكوفة لعليٍّ؟!)، ثم دعا بدابته فركب راجعاً! وبلغ ذلك عليّاً، فنادى: الرحيل، ثم أجَدَّ السيرَ فلحق به فلم يُرِه أنه قد بَلَغه عنه، وقال: ما هذا المسير؟ سبقتَنا! وخشي إنْ تُرك والخروج أن يُوقِع في أنفس الناس شرّاً[(١)].

وكَشف الأشعثُ بن قيس ـ وكان مع عليٍّ ـ الغطاءَ عن مساعي الأشتر وأهوائه، فقال أمام أمير المؤمنين علي: (وهل نحن إلا في حكم الأشتر؟! قال علي: وما حُكمُه؟ قال: حكمه أن يَضرِب بعضُنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردتَ وما أراد!).

وقال أيضاً: (وهل سَعَّر الأرضَ غيرُ الأشتر!)[(٢)].

ووصفه أبو الأعور السُّلَمي ـ وهو من رجال معاوية ـ فقال: (إن خِفَّة الأشتر وسوءَ رأيه هو حمله على إجلاء عمّال ابن عفان ﷺ من العراق، وانتزاؤه عليه يقبِّح محاسنه. ومن خِفَّة الأشتر وسوءِ رأيه أن سار إلى ابن عفان ﷺ في داره وقراره حتى قتله فيمن قتله، فأصبح متَّبعاً بدمه)[(٣)].

وسبقهم إلى هذا العبقريُّ المُلهَم الفاروق عمر، فيما رواه عبدالله بن سَلَمة المُرادي قال: (نظر عمر بن الخطاب إلى الأشتر، وأنا عنده، فصَعَّدَ فيه النظر ثم صَوَّبَه، ثم قال: إنَّ للمسلمين من هذا يوماً عصيباً!)[(٤)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٩٢ـ٤٩٣.
(٢) تاريخ الطبري ٥/٥١.
(٣) المرجع السابق: ٤/٥٦٨.
(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٩٤.

فهذا الأشتر وأمثاله كانوا رؤوس الشر ودعاة الفتنة، والساعين لإفشال كل خطة إصلاح بين الفريقين، لذا كان الاتجاه يسير نحو المواجهة والقتال.

وقد كان الأشتر وبعض الرؤوس من أمثاله قريبين من الخليفة علي، غيرَ مقرَّبين عنده ولا مُحَبَّبين إليه، لعلمه بسيرتهم ونزغاتهم، وكان يسعى إلى كبح جماحهم كما يتضح من مواقف كثيرة مرَّت وسيأتي غيرها، لكنه رضي الله عنه غيرُ قادر على لَجْمِهم تماماً وإبعادِهم عن مواقع التأثير، لشدة وطأتهم وكثرةِ مادتهم من قبائلهم وأتباعهم من الغوغاء، ولتشابك الفتن والمحن...

وهذا أيضاً من مبررات مخالفة أهل الشام، وقبلهم أصحاب الجمل، لأمير المؤمنين علي، وعدم الدخول في مبايعته، وهم يرون قوة تأثير أولئك السبئية في توجيه قرارات الدولة ومسار الأحداث نحو كل خلاف وشقاق وقتال وسفك الدماء! **ومن حق معاوية أن يطالب برأس هذا الأشتر وأمثاله من الذين تمالؤوا على قتل عثمان** رضي الله عنه[١].

•• استخلَف عليٌّ على الكوفة الصحابي أبا مسعود عُقبة بن عَمْرو البدري، وخرج منها، فعسكر بالنُّخَيْلة ـ أول طريق الشام من العراق، وقد أشار عليه ناس بأن يبقى في الكوفة ويبعث غيره إلى الشام، فأبى.

ولما علم معاوية أن عليّاً تجهز وخرج بنفسه على رأس جيشه، استشار الناس فأشار عليه رجاله بأن يخرج إليه هو أيضاً بنفسه، فخرج الشاميون نحو الفرات من ناحية صِفِّين.

وترددت الرسل بينهم.



(١) انظر: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٦.

الفصل الرابع

مراسلات بين علي ومعاوية

١ ـ حقيقة أولية:

نؤكِّد في بداية هذا الفصل على حقيقة واضحة لكل من تمرس بتأريخ تلك الحقبة، وهي أن الفريقين حَرَصا على تضييق جوانب الخلاف وبعثِ السفارات لتحقيق الصلح والاتفاقِ على أمرٍ سواء، وسعى في ذلك صحابةٌ كرامٌ أجلاء.

لكن الحق المرّ الذي يجب الصدعُ به أن أخبار تلك (السفارات) لا يمكن الوثوق بمعظم ما جاء فيها، ولا يجوز تصديقه والركون إليه والاعتماد عليه وإقامة عمود البحث على مضامينه!.

ذلك لأن أغلب رواته مطعون عليهم من حيث الوثاقةُ والضبطُ والأمانةُ والإنصافُ، هذا من جهة السند. ومن حيث المتنُ فإن تلك الأخبار احتوت الكثير من السباب والشتائم والاتهام بالخيانة والغدر والنذالة والكلام المقذِع والأشعار المنحولة والقصص التالفة، مما لا يليق بمروءات عامة الرجال فضلاً عن أصحاب النبي ﷺ، حَمَلة الرسالة وأمناء الوحي وأبطال الفتوحات ورجالات العصر الراشدي الزاهر!.

وإن كل من يقرأ طرفاً من تلك الأخبار يظن أنه أمام جماعة من أوباش الناس الذين تربوا في ردهات الساسة المعاصرين، الذين تمرَّسوا بمضغ

الكلام وبيعِ الشعارات، وإطلاقِ الاتهامات وممارسة المواقف المتلونة، مع الغدر والخيانة والسعي للكيد والمنابزة والتنطع وكل سلوك نَذْل لئيم!.

وما يَصحُّ من تلك الأخبار إنما هو ومضات مضيئة في غياهب ركام كثيف من الدَّغَل والإفك والتزوير...

تجدُ هذا في روايات (كتب صفِّين): لأبي مِخْنَف ونَصْر بن مُزاحم والواقدي وأمثالهم، وحسبك بهؤلاء ودرجتهم من الضعف والوَهَاء والتَّرك والبعد عن الوَثاقة!.

ثم ما جاء في الكتب المطولة، مثل: تاريخ الطبري، وابن عساكر، والمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وتاريخ الإسلام للذهبي، والبداية والنهاية لابن كثير...

أما ما جاء في كتب الأدب، مثل: الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكتب الشيعة، مثل: الكافي وبحار الأنوار وكشف الأسرار والأنوار النعمانية وتاريخ اليعقوبي وتاريخ المسعودي ونهج البلاغة وشروحها... فيكفيك من شر سماعه!.

ومثلها ما تطالعنا به كتب كثير من المعاصرين، مثل: الفتنة الكبرى لطه حسين، والفتنة لهشام جعيط، وعبقرية علي للعقّاد، وعلي بن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب، والإمام علي لإبراهيم بيضون، وأبو تراب لطلال الجنابي، وفضائل الإمام علي لمحمد جواد مغنية، وأمثالهم.

٢ ـ نماذج من سفارات علي إلى معاوية(١):

أ ـ سفارة جرير بن عبد الله البجلي: لما أراد علي أن يبعث إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، قال جرير: أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين فإن بيني وبينه

(١) انظر: شرح نهج البلاغة: ٢/٢٧١ـ٢٨٤.

ودّاً، فآخذ لك منه البيعة. فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين فإني أخشى أن يكون هواه معه! فقال علي: دَعْه. وبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يُعْلِمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس. فلما انتهى إليه جرير أعطاه الكتاب.

ولم يكن معاوية بالذي يتعجل في إبرام الأمر، بل يستشير أعلام الصحابة وأعيان الناس (فطلب معاوية عمرو بنَ العاص ورؤوسَ أهل الشام فاستشارهم، فأبَوا أن يبايعوا حتى يَقتل قتلة عثمان، أو أن يسلِّم إليهم قتلة عثمان... فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا).

(فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، ألم أَنْهَكَ أن تبعث جريراً؟ فلو كنتَ بعثتَني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقتُه! فقال له جرير: لو كنتَ ثَمَّ لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثني لم يُعْيِني جواب معاوية، ولأعجلنَّه عن الفكرة، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحَبَسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة! فقام جرير مغضباً، وأقام بقَرْقِيسياء، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وما قيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه)[1].

وهذا من الأدلة الكثيرة على تدخُّل رؤوس السبئية في قرارات الخليفة، ومحاولات إفشال كل مساعي الخير. وهو أيضاً من الدلائل على سوء أدب هذا الأشتر وعُنْجُهِيَّتهِ الفارغة! وكان من الواجب على أمير المؤمنين أن يطرده من مجلسه أو يقرِّعه على الأقل لجرأته على صحابي أمير من سادات قومه، وحسبك به جلالة أن النبي ﷺ ما رآه إلا تبسَّم في وجهه!.

ب ـ سفارة بشير بن عمرو الأنصاري: وبعث أمير المؤمنين عليٌّ بشيرَ ابنَ عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهَمْداني وشَبَث بن رِبْعي التميمي،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٥٦١ـ٥٦٢؛ البداية والنهاية: ٧/٢٥٤.

وقال لهم: (ائتوا هذا الرجلَ فادعوه إلـى الله وإلى الطاعة والجماعة)... فأتوا معاوية ودخلوا عليه، وتكلم بشـير بن عَمْرو معه فوعظه وناشـده، فقال: (يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجعٌ إلى الآخرة، وإن الله ﷻ محاسِبُك بعملك، وجازيك بما قدَّمتْ يداك، وإني أنشُدك الله ﷻ أن تفرِّق جماعة هذه الأمة وأن تسـفِك دماءهـا بينها... فقـال معاوية: ونَطُـلُّ دم عثمان! لا والله لا أفعل ذلك أبداً).

وأراد سـعيد بن قيس أن يتكلم، فبادره شَـبَث بن رِبْعـي وتكلم بكلام غليظ، فأمر معاوية رضي الله عنه بإخراجهم[1].

ج ـ وذكر ابن كثير سـفارة فيها أبو أُمامة الباهلـي وأبو الدرداء، وأنهما دخلا على معاوية فقـالا له: (علامَ تقاتل هذا الرجلَ؟! فـوالله إنه أقدمُ منك ومن أبيك إسـلاماً، وأقربُ منك إلى رسول الله ﷺ، وأحق بهذا الأمر منك! فقال معاوية: أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته، فاذهبا إليه فقولا له فَلْيُقِدنا من قتلة عثمان، ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام.

فذهبا إلى عليٍّ فقالا له ذلك، فقال: هؤلاء الذين تريان. فخرج خلق كثير فقالوا: كلُّنا قتلةُ عثمان، فمن شـاء فليَرُمْنا! فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حرباً)[2].

وذكر أبي الدرداء هنا غلط، لأنه توفي سنة (٣٢هـ).

د ـ ومن السِّـفارات التي بعثها علي وفدٌ فيه: عَدي بن حاتم، ويزيد بن قيس الأَرْحَبي ـ وهو من رؤوس السـبئية ـ، **وشَبَث بن رِبْعي**، وفي الخبر[3]

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٧٣/٤ـ٥٧٤؛ البداية والنهاية: ٢٥٧/٧. **نَطلّ**: نَهدُر ونُبطِل.

(٢) البداية والنهاية: ٢٦٠/٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/٥ـ٦؛ البداية والنهاية: ٢٥٨/٧.

مقاولات بين عدي ومعاوية مما لا نستجيز روايته، وفيه اتهام معاوية عليّاً بدم عثمان، وهذا لا يصح عن أحد من الصحابة، وما جاء في الخبر من مهاترات رواها أبو مِخْنف؛ هو من الأكاذيب التي أشرنا إليها قبل قليل[1].

هـ ـ وسعى في السِّفارة بين الفريقين جماعة من التابعين على رأسهم التابعي الجليل أبو مسلم الخَوْلاني: فقد جاء من غير وجهٍ أن أبا مسلم الخولاني وجماعةً معه دخلوا على معاوية فقالوا له: (أنتَ تُنازِعُ عليّاً في الخلافة، أَوَ أنتَ مثلُه؟ فقال: لا، واللهِ إني لأعلمُ أنه خيرٌ مني وأفضلُ، وأحقُّ بالأمر منِّي، ولكن أَلستُم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه، وأمرُه إليَّ؟ فقولوا له فليسلِّمْ إليَّ قتلة عثمان، وأنا أسلِّم له أمره. فأتوا عليّاً فكلَّموه في ذلك، فلم يدفع إليهم أحداً، فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية)[2].

وبالنظر في هذه السفارات والحوارات بين الطرفين نجد أنها تدور حول قضيتين أساسيتين:

الأولى: دعوة أمير المؤمنين علي والي الشام معاويةَ للبيعة والدخول فيما دخل فيه مَن بايعه من أكثر المسلمين.

الثانية: امتناع معاوية من قبول ذلك إلا بعد إقامة حد القصاص على قتلة عثمان، أو تسليمهم له لأنه وليُّ دم الشهيد عثمان.

وقد كان ابن عباس يميل إلى هذا، وقال مخاطباً عليّاً وأهل العراق: (وايمُ اللهِ لَيتأمرنَّ عليكم معاوية؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول:

---

(١) انظر: ص٤٢٠ ـ ٤٢٥ في هذا الكتاب.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٤٠/٣؛ البداية والنهاية: ١٢٩/٨؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٤١٦/١٦ (٧١٢١) وقال: سنده جيد.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣])[1].

وقد ذكر ابن كثير هذا الخبر في تفسير الآية الكريمة، وقال: (ثم تمكَّن معاوية وصار الأمر ـ الخلافة ـ إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجيب!)[2].



(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٦٣)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ٢٣٦/٧): فيه من لم أعرفهم؛ وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٦٩) وسنده صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٢/٣.

الفصل الخامس

حقائق ووقفات بين يدي (وقعة صفين وأخبارها)

١ ـ استسلم كثير من المؤرخين والأدباء، والكتاب من القدماء والمعاصرين لروايات وأخبار وقعة صفين وكأنها حقائق تاريخية ثابتة:

وتلقوها بالقبول دون تحقيقٍ أو تمحيصٍ أو نقدٍ لها سنداً ومتناً، واغترُّوا بها وروَّجوا لها بين عامة القرّاء. وأَسْـهَمَ في رواجها ما تتضمنه من أخبار مثيرة وأحداث جسـيمة، جيَّشـت العواطف الكامنة والمتحفزة، واغتالت العقل الناقد والبصيرة الممحِّصة. وتمَّ تداولُهـا وتناقلُها عبر الأجيال حتى طَغتْ على سـاحة التفكير والتأليـف. وتوارت الحقيقـة وراءها، حتى إذا وجدت من يحييها وينافح عنها ويبرهن على صحتها؛ اسـتهجنَتْها الخاصة واسـتنكرتْها العامة، وانطبق عليهم المثل السـائر: الخطأ المشهور خير من الصحيح المهجور!.

وهذا مما ابتُلي بـه مؤرخونا وكتّابُنا وأبناؤنا، فيما نُشـر وذاع من كتب وأبحاث ودراسات، مع ما فيها من إسـاءات إلى تاريخنا ورجالاتنا وخاصة أصحابَ نبينا ﷺ، وما فيها من أكاذيب ومهاترات واتهامات بالخيانة والغدر والتنافس على المصالح والتفريط بمصير الإسـلام والأمة، حتى تحول ـ في نظر البعض ـ الذكاءُ والدهاءُ إلـى خيانة وغدر، والحكمةُ والأناةُ والورعُ إلى غفلة وسذاجة، كما في قصة (التحكيم) مثلاً.

٢ ـ ما روي في الوقعة من خُطب وأمثال وأشعار:

غالبه لا يصح من جهة السند والمتن، فالنظر الصحيح والبحث الناقد يرفض قبول ما جاء من خطب مطولة وأشعار وقصائد وأراجيز كثيرة وأمثال مضروبة، فمن الذي وعاها إبّان اشتباك الأحداث ونشوب الحرب؟! ثم من ذاك الذي أسندها ونقلها إلى من بعده حتى وصلت بعد تراخي الزمن إلى أمثال أبي مِخْنَف ونَصْر بن مُزاحم والواقدي والكَلْبي وبابَتِهم من المتروكين والهلكى؟!.

ومثل هذه الخطب والأشعار ليست من هدي الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا تناسب عهدهم وآدابهم وأخلاقهم ومواقفهم. وهي مصنوعة ومنحولة دبَّجها الأخباريون حاطبو الليل، وتلقَّفَتْها كتب التاريخ والأدب والأسمار، وتسلَّى بها البطَّالون ممن يأخذون بقلوب العامة لسماع الغرائب والأوابد والمناكير من الأخبار، وأُلصِقت برجال ذاك العصر في تلك الحقبة الخطيرة من تاريخنا.

وإذا كان ابن هشام قد تشكَّكَ في كثير من أشعار (سيرة ابن إسحاق) التي قيلت في الغزوات، وَنَقَل عن العلماء إنكارَ جملة مستكثرة منها، فهنا أجدرُ وأوْلى أن يُستنكر أكثر ما جاء في (أحداث الفتنة) من أشعار وخطب وأمثال، لا يمكن أن تقال إلا في ظروف هادئة ومجالس يسودها التفاخر والمكاثرة! أما في خِضمِّ الأحداث ونُذُر القتال، فالقوم قد تعودوا أن يقولوا الكلمات الموجزة وأبيات من الشعر قليلة.

٣ ـ كثرة تفاصيل القتال والمبارزات والبطولات وطول مدة الحرب[1]:

وهذه كسابقتها يجب الحذر الشديد من قبولها واعتمادها، لأنها تنافي هدي رجال الفريقين على وجه العموم، فلقد كان منهجهم قائماً على الكفِّ

---

(١) انظر في هذه الفقرة وسابقتها: شرح نهج البلاغة: ٣/١٣٣ـ١٩٣؛ وكثير منها موجود في: تاريخ الطبري؛ والبداية والنهاية، وغيرهما.

وإغمادِ السيوف وكراهية المواجهة والقتال، تخوفاً من سفك الدم الحرام، فسبابُ المسلم فسوق وقتالُه كفر!.

ويؤيد ذلك حرصُهم على عدم نشوب القتال، وطولُ مدة المراسلات والحوارات وبخاصة من جهة أمير المؤمنين علي، وندمُهم على وقوع القتال وشهودهِ بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وتفكّرُهم طويلاً فيما حدث في (وقعة الجمل)، وقبولُهم أيضاً بحكم القرآن عندما (رُفعت المصاحف) لوقف القتال.

وقد يَصحّ ما نُسب إلى بعض رؤوس الفتنة من (بطولات!) كالأشتر النخعي وشَبَث بن ربعي ويزيد الأَرْحَبي وغيرهم، أما ما يُروى عن أمير المؤمنين عليٍّ بأنه كان يشن الحملات العنيفة ويشق الصفوف ويَخضب سيفَه، فهو ليث الحروب بلا ريب لكن ليس في مثل هذا الموقف يفخر علي بقتاله المسلمين المخالفين له، لتورُّعهِ عن الدم الذي فيه شبهة فضلاً عن الدم الحرام! وندمُه في نهاية المطاف على وقوع تلك الحروب من أقوى الأدلة في تزييف تلك الأخبار.

بل إن الإنسان العادي في زماننا ليستنكر مثلَ تلك الأعمال التي توصف (بالبطولات) بأن تصدر من رجل له مكانة، فضلاً عن أن يفعلها أمثال علي وعمار وقيس بن سعد وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد وأبي الأعور السُّلَمي ونحوهم.

ويدخل في هذا ما يُروى من أن علياً طلب معاوية للمبارزة، فشجَّعَه عمرو بنُ العاص للتخلص منه! وأن علياً واجه عمرو بن العاص في المعركة فغلبه، فاستقبله عمرو بعورته، فتركه! فهذا وأمثاله من الأكاذيب الغبية، وهذه الواقعة الأخيرة حدثت لعليٍّ مع عَمْرو بن عبد ودّ في غزوة الخندق، ولكن رواة الكذب لا ذاكرة لهم، فيدلِّسون على الدهماء، فيكشف الله سِترهم وكذبَهم، ليكون ذلك مقياساً ودليلاً على بطلان رواياتهم.

٤ ـ عدمُ رغبة الفريقين بالقتال، والتشككُ في مسوِّغاته:

لدى تتبع أخبار وقعة صفين ومواقف رجال الطرفين قبلها وفي إبَّانها وبعدها؛ نجد أنها تشير إلى حقيقتين اثنتين:

الأولى: أن مساعِر الفتنة من رؤوس السبئية هم الذين كانوا يحرصون على إنشاب القتال واستمراره حتى يستحرَّ القتل في المسلمين وتسير الأمور إلى النهاية التي تحقق أهدافهم.

الثانية: أن هناك تياراً قويّاً وبخاصة في جيش علي لا يرغبون في القتال خشية إراقة الدماء، ويتشككون في مسوِّغات الحرب! وعلى هذا الرأي كان أمير المؤمنين علي ووالي الشام معاوية. وتشير كثير من الروايات إلى أن عليّاً كان كثيراً ما يُكفكف جِماح الأشتر وأمثاله وأتباعه عن الاستمرار في القتال، لكن الفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفائها.

فهم يدركون أن الخلاف بينهم خلاف سياسي واختلاف في تأويل ما جرى من أحداث قتلِ عثمان وعقابيلها، ووقتِ إقامة حد القصاص على القتلة، واستحضروا ما جرَّتْه وقائع (معركة الجمل) في البصرة، وخشوا تكرار المأساة ثانية.

ثم إن كثيراً من القبائل منقسمة بين أهل العراق وأهل الشام منذ أيام الفتوحات، وهم قريبو عهد بعصر النبوة وأمجاد الفتوح في أيام عمر وعثمان، فكيف يَقبل أحدُهم أن يتواجه مع أخيه وبني عمومته وخؤولته ويسلَّ عليه السيف ويتهدَّد حياته، وبينهما من موانع ذلك أسباب كثيرة على رأسها أنهما مسلمان، ومنذ قليل كانا يقفان صفّاً واحداً أيام الفتوح؟!.

بل إن الأشتر النخعي على طغيانه وولوغه في الفتنة ورغبته في القتال؛ قد كان يتشكك في مواجهة أهل الشام وصرّح بذلك في مجتمع من قبيلته (النخع)!.

عن عمير بن سعد النخعي قال: (لما رجع عليٌّ من «الجمل» وتهيّأ «لصفّين»، اجتمعت النَّخَعُ حتى دخلوا على الأشتر، فقال: هل في البيت إلا نَخَعيٌّ؟ فقالوا: لا، فقال: إن هذه الأمة عَمَدت إلى خيرها فقَتَلَتْه - يعني عثمان -! وسِرْنا إلى أهل البصرة قومٍ لنا عليهم بيعة فنُصِرنا عليهم بنُكْثِهم، وإنكم تسيرون غداً إلى أهل الشام قومٍ ليس لكم عليهم بيعة، فلينظر امرؤٌ منكم أين يضَعُ سيفَه!)(١).

وهذا النص الصحيح من أكبر الأدلة على التشكك في مشروعية قتال أهل الشام الذين لم يدخلوا في بيعة علي، حتى يقيم القصاص على قتلة عثمان. ومع ذلك (فهذا الأشتر) لم يرعوِ عن غيِّه وولوغِه في الفتنة والدماء، ولم ينتفع بتلك الوصية التي وضعها بين يدي قومه النخعيين، وهي من الحجج عليه بين يدي الله تعالى، وقد جُوزي في الدنيا من جنس عمله فمات مقتولاً كما قدمنا.

ومن الشواهد على عدم الرغبة في القتال والتشكك في مسوغاته؛ اعتزالُ فريق كبير المشاركة في صفين:

فهذا أيمن بن خُرَيْم بن فاتِك، وهو صحابي ابن صحابي، يقول:

ولستُ مقاتلاً رجلاً يصلِّي ... على سلطانِ آخرَ من قريشِ
له سلطانُه وعلَيَّ إثمي ... معاذَ الله من سَفَهٍ وطَيْشِ
أَأَقتلُ مسلماً في غيرِ جُرْمٍ ... فليسَ بنافعي ما عشتُ عَيْشي(٢)

ومثله طائفة من صلحاء أهل الكوفة وبخاصةٍ تلامذةُ عبد الله بن مسعود، حيث جاؤوا إلى أمير المؤمنين عليٍّ وفيهم عَلْقمة بن قيس

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧١١/٨؛ والحاكم: ١٠٧/٣ وصحَّحه، وقال الذهبي: هو على شرط مسلم.
(٢) وقعة صفين، لابن مزاحم، ص٥٠٤؛ تهذيب الكمال: ٤٤٤/٣-٤٤٥.

وعَبِيدة السَّلْماني وعامر بن عبد قيس وأشباههم، فقالوا له: (إنَّا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حِدَةٍ، حتى ننظرَ في أمركم وأمرِ أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحلُّ له أو بدا منه بغيٌ؛ كنَّا عليه. فقال علي: مرحباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين والعلم بالسُّنَّة، من لم يرضَ بهذا فهو جائرٌ خائن)[1].

وأتاه آخرون فيهم الرَّبيع بن خُثَيْم وهم أربع مئة رجل، فقالوا: (يا أمير المؤمنين إنَّا شككنا في هذا القتال على معرفتنا بفضلك... فوَلِّنا بعضَ الثغور نكن به ثم نقاتل عن أهله)، فوجَّههم إلى ثغر الرّي[2].

وقد ذكرنا أن جماعة من الصحابة نصحوا عليّاً بعدم الخروج إلى الشام، منهم حنظلة الكاتب، ومما قالوه له: (يا أمير المؤمنين... أَقِمْ وكاتِبْ هذا الرجلَ، ولا تَعجلْ إلى قتال أهل الشام)[3].

٥ ـ أصحاب الفتنة من السبئية يدأبون إفشالَ كل خطة إصلاح:

كما كان قتلة عثمان والسبئية مساعِرَ الفتنة والسعاة في إفشال كل خطة إصلاح في أحداث البصرة و(وقعة الجمل)، كذلك استمروا على هذا النهج في (وقعة صفين) منذ مقدماتها وحتى نهاياتها في (قضية التحكيم). ودأبوا عرقلةَ كل محاولة اتفاق بين أهل العراق وأهل الشام، وسَعَوا في إنشاب القتال واستمراره، وإبطال مساعي الإصلاح واجتماع الكلمة وحقن الدماء:

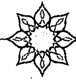
أ ـ فقد أَعْجَلوا أميرَ المؤمنين عليّاً للخروج من البصرة إلى الكوفة، وارتحلوا بغير إذنه.

---

(١) وقعة صفين، لابن مزاحم، ص١١٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تقدم: ص٤١٦ في هذا الكتاب.



ب ـ وتدخلوا في ولاية قيس بن سعد على مصر ـ وهو من خيار الولاة حكمة وسياسة وإدارة ـ لأنه ضبط أمور مصر وبخاصة أعمال قتلة عثمان، ووَشَوْا به حتى عزله علي.

ج ـ وحرَّض الأشتر ومن معه أميرَ المؤمنين لانتزاع بلاد الجزيرة من أيدي نواب معاوية، فتصدى له عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ففرَّ منه الأشتر.

د ـ ولما أَرسل عليٌّ جريرَ بنَ عبدالله البجلي سفيراً إلى معاوية، اعترضت السبئية وعلى رأسهم الأشتر وأساء القول لجرير، فغضب جرير وترك عليّاً ولحق بمعاوية.

هـ ـ وعندما امتنع أهل الرقة من (نصب الجسر على الفرات) لعبور جيش علي إلى صفين، لم يَهِجْهُم عليٌّ، فقدِم الأشتر وأرغمهم على وضع الجسر وتهدَّدهم قائلاً: لئن لم تفعلوا لأَقتُلنَّ الرجال ولأخربنَّ الأرض ولآخذنَّ الأموال!.

و ـ عندما (رُفعت المصاحف) ودُعي إلى تحكيمها وتوقف الطرفان عن القتال، وجاء أمرُ عليٍّ إلى الأشتر وعصابته أن يكفُّوا عن القتال، تذمَّر من ذلك وقال للرسول: قل له ـ أي لعليٍّ ـ: ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تُزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوتُ أن يُفتح لي، فلا تُعجِلْني!.

ز ـ ولما كُتبت (صحيفة التحكيم)، دُعي لها الأشتر، فقال: لا صحبتْني يميني ولا نفعتْني بعدها شمالي، إنْ خُطَّ لي في هذه الصحيفة اسمٌ على صلح ولا موادعة!.

ح ـ وكانوا دائمي العيب لأمير المؤمنين علي وسياسته وولاته، وخذلانه وعدم طاعته، والتشكيك به والخروج عليه، تماماً كما كانوا مع عثمان بن عفان.

وستتضح أعمالهم الإجرامية وحرصهم على الفتنة وسفك الدم خلال استعراض سيرورة أحداث وقعة صفين والتحكيم.

٦ ـ النزاع بين الفريقين لم يكن على الخلافة:

ومن الحقائق التي يجب ترسيخُها وكثرةُ ذِكْرها ليعرفها كل مسلم؛ أن أحداً ممن خالف عليّاً لم يُنكِر خلافته ولا أحقيَّتَه بإمرة المؤمنين، ولا نازَعَه أحدٌ عليها، (وعلي لم يقاتل أحداً على إمامة من قاتله، ولا قاتله أحد على إمامته نفسه، ولا ادعى أحد قط في زمن خلافته أنه أحق بالإمامة منه: لا عائشة، ولا طلحة ولا الزبير، ولا معاوية وأصحابه، ولا الخوارج، بل كل الأمة كانوا معترفين بفضل عليٍّ وسابقته بعد قتل عثمان، وأنه لم يبقَ في الصحابة مَن يُماثِله في زمن خلافته)[1].

(ومعاوية لم يطلب الأمرَ لنفسه ابتداءً، ولا ذهب إلى عليٍّ لينزعَه عن إمارته، ولكن امتنع هو وأصحابه عن مبايعته...)[2].

٧ ـ غموض المستقبل يجعل بعض الكبار يعتزلون أو يترددون:

كما قدمنا في وقعة الجمل كان المستقبل ومآل الأحداث غامضاً لدى عامة المسلمين، وقد حيَّرهم الأمر وهالَهُم الموقف، وزاد من تخوفهم ما تمخَّضتْ عنه أحداث البصرة واستشهاد طائفة من أكابر الصحابة والصالحين من التابعين؛ مما جعل (المعتزلين من أكابر الصحابة) يتمسكون بموقفهم كابن عُمر وسعد بن أبي وقّاص وأبي بكرة وأبي هريرة ومحمد بن مَسْلَمة وأسامة بن زيد، وجعل آخرين يُحجمون ويترددون في المشاركة في الأحداث وينسحبون منها!.

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٧١٢/٣ ـ ٧١٣. وتقدم تفصيل القول في هذا: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ (أولًا) في هذا الكتاب.
(٢) المرجع السابق: ١٥٢/٣.

هذا هو الصحابي الجليل عبد الله بن عَمْرو بن العاص يصرِّح بحقيقة مشاعره وهو يقف إلى جوار أبيه وبيده الراية، ويتقدم في الجيش الشامي منزلة أو منزلتين؛ ويقول: (ما لي ولصِفِّين، ما لي ولقتالِ المسلمين! لوَدِدتُ أني مِتُّ قبله بعشر سنين! أمَا والله على ذلك ما ضربتُ بسيف، ولا طعنتُ برمح، ولا رميتُ بسهم)(١).

ولم ينفرد عبد الله بن عَمرو بالتردّد والتشكك ثم التوقف عن القتال، فهذا هو التابعي الجليل أبو العالية الرِّياحِيّ يصف وقعة صفين فيقول: (لما كان زمنُ علي عليه السلام ومعاوية، وإني لشابٌّ القتالُ أحبُّ إليَّ من الطعام الطيب، فتجهَّزتُ بجهاز حسن حتى أتيتهم، فإذا صفَّان لا يُرى طرفاهما: إذا كبَّر هؤلاء كبَّر هؤلاء، وإذا هلَّل هؤلاء هلَّل هؤلاء! قال: فراجعتُ نفسي فقلت: أي الفريقين أُنزِلُه كافراً، وأي الفريقين أُنزله مؤمناً؟ أَوَمَن أكرهني على هذا؟! فما أمسيتُ حتى رجعت وتركتهم!)(٢).

٨ ـ ندم الكبار على ما دخلوا فيه من القتال(٣):

ونتيجة اشتباك الأحداث وتدافع الفتن وغموض المستقبل، ثم ما آلَتْ إليه الأمور من كوارث وأحزان؛ جعل الكبارَ وخيار الناس يندمون على ما جرى من شقاق ومواجهة وقتال ودماء وتمزق وحدة الأمة، وقد صرح الأخيار بذلك وعلى رأسهم أمير المؤمنين الذي رأى اختلاف جيشه عليه وتشتت الأمور بعد التحكيم، فقال متألماً مما جرى ومثنياً على موقف من قعد عن القتال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢٦٦/٤، بسند صحيح.

(٢) المرجع السابق: ١١٤/٧؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٨.

(٣) انظر ما تقدم: ص٣٠٢ ـ ٣٠٣ في هذا الكتاب.

(للهِ منزلٌ نزله سعد بن مالك[١] وعبد الله بن عمر، والله لئن كان ذَنْباً إنه لصغير مغفور، ولئن كان حَسَناً إنه لعظيم مشكور)[٢].



---

(١) هو سعد بن أبي وقّاص.

(٢) مجمع الزوائد: ٢٤٦/٧؛ تاريخ الإسلام، للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص ٥٥٣؛ منهاج السُّنَّة: ٤٦٤/٤.

الفصل السادس

القتال بين الفريقين «توصيف ومعالم وحقائق وتحقيقات»

المبحث الأول: منازل الجيشين وأعدادهما وقياداتهما، وتاريخ الوقعة

•• تجمع جيش علي بالنُّخيلة غرب الكوفة، وقد ضم عدداً من الصحابة البدريين وأصحاب بيعة الرضوان[1]، ويذكر الأخباري عَوَانة بن الحَكم أن عليّاً بعث من النخيلة (اثني عشر ألف مقاتل) باتجاه الموصل، ثم اجتاز إلى المدائن فأرسل منها (ثلاثة آلاف مقاتل)، ثم مضى علي بجيشه من المدائن إلى محاذاة الموصل (نينوى)، ثم عبر الفرات قرب الرَّقّة حيث نزل على صفين. وكانت مدن الجزيرة[2] مثل الرقة وقَرْقِيساء وعانات وهِيت موالية لمعاوية، ومعظمهم من بني الأرقم وهو حي عظيم من كِنْدة وقد شهدوا صفين مع معاوية[3].

عبر علي الفرات بجيشه، وقدَّم بين يديه زياد بن النضر وشُريح بن هانئ في طائفة من الجيش نحو معاوية، فالتقوا مع أبي الأعور السُّلَمي في جند أهل الشام، فأرسل زياد وشريح إلى علي: (إنا قد لقِينا أبا الأعور السلمي في

---

(١) انظر ما تقدم: ص٢٩٩ ـ ٣٠١ في هذا الكتاب.

(٢) **الجزيرة**: هي ما بين دجلة والفرات.

(٣) عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٧.

جند أهل الشـــام، وقد دعوناهم فلم يُجِبنا منهم أحد، فَمُرْنا بأمرِك). فأرسل علي إلى الأشــتر فقال: (يا مالك، إن زياداً وشريحاً أرسلا إليَّ يُعْلِماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جمع من أهل الشـــام، وأنبأني الرسول أنه تركهم متواقفيــن، فالنجاءَ إلى أصحابــك النجاء، فإذا قدِمتَ عليهــم فأنت عليهم. وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع، ولا يَجْرِمَنَّكَ شنآنُهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة. واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شُريحاً، وقف من أصحابك وسطاً، لا تدنُ منهم دنوَّ من يريد أن يُنشــب الحرب، ولا تُباعِد منهم بُعد من يهاب البأس، حتى أقدَم عليك، فإني حثيث السير في أثرك إن شاء الله).

فلما قدِم الأشــتر امتثل ما أمره به علي، وكَفَّ عــن القتال، وتواقف هو ومقدمة جيش معاوية، وعليها أبو الأعور السُّلَمي، فلم يزالوا متواقفين حتى إذا كان عند المســاء حمل عليهم أبو الأعور، فثبتوا له، واضطربوا ساعة. ثم انصرف أهل الشام عند المساء، وحدثت بينهم جولات وحملات، حتى كان صباح اليــوم الثالث، فأقبل علي رضي الله عنه في جيوشــه، وجــاء معاوية رضي الله عنه في جنوده، فتواجه الفريقان، وتواقفوا طويــلاً، وذلك بمكان يقال له: (صِفِّين) ـ بقرب الرَّقَّة على شاطئ الفرات ـ في أوائل ذي الحجة[1].

●● وسَــبق الجيشُ الشــامي فنزلوا على (مَشْــرَعة الماء) في أسهل موضع وأفسحه، ونزل علي مع جيشه بعيداً من الماء، وليس هناك مَشرعة ســواها، فعطش أصحاب علي عطشاً شديداً، فمنعهم الشاميون من الماء، وقد أرادوا بذلك أن يُذَكِّــروا قتلةَ عثمان المنبثِّين في جيش علي بفَعْلتِهم الشــنيعة بأمير المؤمنين عثمان حينما حاصروه ومنعوا عنه الماء، فقالوا:

---

(١) تاريخ الطبــري: ٥٦٣/٤ـ٥٦٩؛ المنتظم: ١٠٠/٥ـ١٠٢؛ البداية والنهايــة: ٢٥٤/٧ـ٢٥٥؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٥٨٤ـ٥٨٥.

(موتوا عطشاً كما منعتم عثمان الماء!). ولما ترامى الخبر إلى معاوية قال عمرو بن العاص ـ وكان في مجلسه ـ: ليس من النَّصَف أن نكون ريَّانين وهم عِطاش! فقال الوليد بن عقبة: (دَعْهم يذوقوا من العطش ما أذاقوا أميرَ المؤمنين عثمان حين حصروه في داره، ومنعوه طيِّبَ الماء والطعام أربعين صباحاً!).

فتناوش الفريقان على الماء، حتى كَشف العراقيون الشاميين عنه، ثم خلَّوا الماء للطرفين، واتفقوا على الوِرْد حتى صاروا يزدحمون على الماء لا يكلم أحد أحداً، ولا يؤذي إنسان إنساناً[1].

وفي قصة الاقتتال على الماء أورد عبد الله بن أحمد في «كتاب صفين» خبراً جيداً عن الأشعث بن قيس وقد جاء إلى معاوية فقال: نريد أن تخلُّوا بيننا وبين الماء، فقال معاوية لأبي الأعور: (خَلِّ بين إخواننا وبين الماء)، وعزم عليه في ذلك، ففعل[2].

واضطربت الروايات في تقدير أعداد كل من الجيشين:

فقدَّرت الروايات جيش علي ما بين خمسين ألفاً ومئة وخمسين ألفاً، في حين قدَّرت جيش معاوية بستين ألفاً أو سبعين ألفاً أو مئة وعشرين ألفاً، وهذا اضطراب كبير! وإذا كان ديوان الجند في أول خلافة علي يضم مئة ألف مقاتل من البصريين والكوفيين، فإن جيش علي ينبغي أن يبلغ أكثر من خمسين ألف مقاتل[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٦٩/٤ـ٥٧٢؛ البداية والنهاية: ٢٥٦/٧ـ٢٥٧؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٣/٨ـ٧٢٤؛ تاريخ خليفة، ص١٩٣ بسند حسن.

(٢) تهذيب الكمال: ٢٩٢/٣، ترجمة الأشعث.

(٣) تاريخ خليفة، ص١٩٣، ١٩٤؛ المعرفة والتاريخ: ٤٠٤/٣؛ مروج الذهب: ٢٩٢/٢؛ البداية والنهاية: ٢٦١/٧؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٥ـ٤٦٦.

●● **ومن أبرز قيادات جيش أمير المؤمنين علي**: ابنه محمد ابن الحنفية، عبد الله بن عباس، عمار بن ياسر، قيس بن سعد بن عبادة، الأشعث بن قيس، عبد الله بن بُدَيل بن وَرْقاء، هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص المعروف بالمِرْقال، عَدي بن حاتم، الأحنف بن قيس، حُجْر بن عدي، سُليمان بن صُرَد، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، الأشتر النخعي، عَمْرو بن الحَمِق، شَبَث بن رِبْعي، قيس بن مَكْشوح.

ومن أبرز قيادات جيش معاوية: عَمْرو بن العاص، ابنه عبد الله بن عَمْرو، حَبيب بن مَسْلَمة، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، عُبيد الله بن عمر بن الخطاب، مَسْلَمة بن مُخَلَّد، أبو الأعور السُّلَمي، ذو الكَلَاع الحِمْيري، بُسْر بن أبي أرطاة، زُفَر بن الحارث، حَوْشَب ذو ظُليم، طَريف بن الحَسْحاس، بلال بن أبي هريرة الدوسي، حسان بن بَحْدَل الكلْبي[1].

المبحث الثاني: وصف موجز لسيرورة القتال

●● بعد حدوث عدة صدامات بين مقدمتي جيشي العراق والشام، وتردُّدِ الرسل بين علي ومعاوية، وإصرار كل من الفريقين على رأيه وتمسكه باجتهاده، كانت الأمور تتجه نحو المواجهة الحاسمة لتحقيق الفصل الأخير لأحد الطرفين. وكان السبئيون وقتلة عثمان وأصحاب الهوى والبغض للإسلام وأهله؛ يسرعون في هذا السبيل، ويؤججون الأحداث بالقول والفعل والأكاذيب والإشاعات لتصل الأمور إلى نهايتها السيئة المحزنة.

ذكر الطبري ونقله عنه ابن كثير، قال: (لم تَزَل الرسل تتردَّد بين علي ومعاوية والناس كافُّون عن القتال حتى انسلخ المحرم من هذه السنة (٣٧هـ)

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٣-١٩٦؛ تاريخ الإسلام، للذهبي - عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٤١-٥٤٢.

ولم يقع بينهم صلح. فأمر علي بن أبي طالب مَرْثَد بن الحارث الجُشَمي فنادى أهلَ الشام عند الغروب: ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استأنيتُكم لتراجعوا الحق، وأقمتُ عليكم الحجة فلم تجيبوا، وإني قد نَبذتُ إليكم على سَواء إن الله لا يحب الخائنين! ففزع أهل الشام إلى أمرائهم فأعلموهم بما سمعوا المنادي ينادي، فنهض عند ذلك معاوية وعمرو فعبَّيا الجيش ميمنة وميسرة، وبات عليٌّ يعبِّي جيشه من ليلته)[(١)].

•• ثم التقى الناس يوم الأربعاء لسبع خَلَون من صفر سنة (٣٧هـ)[(٢)].

قال عبدالرحمن بن أَبْزى ـ وهو ممن شارك في الوقعة ـ: (شهدنا مع عليٍّ ثمان مئة، ممَّن بايع بيعة الرضوان، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت، ثم رُفعت المصاحف، ودَعَوا إلى الصلح)[(٣)].

وجزم خليفة بن خياط فقال: (كانت وقعة صفين يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، وكان الصلح ليلة السبت لعشر خلون من صفر)[(٤)].

•• وقف أمير المؤمنين عليٌّ في جيشه فقال: (إنكم ملاقو القوم غداً، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، وسَلُوا الله ﷻ النصر والصبر، والْقَوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين).

وأكد على الأخلاق التي يجب عليهم أن يلتزموها فقال: (لا تقاتلوا القومَ حتى يبدؤوكم، فأنتم بحمد الله ﷻ على حُجَّة، وترككُم إياهم حتى يبدؤوكم

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/١٠ـ١١؛ البداية والنهاية: ٧/٢٦٠ـ٢٦١؛ شرح نهج البلاغة: ٢/٢٨٠.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٩١.

(٣) تاريخ خليفة، ص١٩٤، ١٩٦ وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات عدا عبدالله بن عبدالرحمن بن أبزى فهو صدوق حسن الحديث.

(٤) تاريخ خليفة، ص١٩١.

حجة أخرى لكم. فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم: فلا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل. فإذا وصلتم إلى رِحال القوم: فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيِّجوا امرأة بأذى، وإنْ شتمنَ أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس).

ثم أمر علي بالطلائع والأمراء أن تتقدم للحرب، وجعل يؤمِّر كل يوم أميراً، وأكثر ما كان يخرج الأشتر النخعي. وكذلك كان معاوية يبعث على الحرب كل يوم أميراً.

والتقى الجيشان في موقف مهول وأمر عظيم، وحملت ميمنة علي على ميمنة أهل الشام حتى كشفوهم، ثم حمل أهل الشام على العراقيين فأزالوهم، حتى اقترب الشاميون من علي، وجعلت نِبالُهم تصل إليه. ونادى الأشتر في العراقيين المنهزمين فوبَّخهم وردَّهم، ثم حملوا على الشاميين فخرقوا صفوفهم، واقتربوا من معاوية. وبعد أن رأى علي ميمنة جيشه قد اجتمعت، قام فحرّضَ الناس وثبَّتَهم، فاجتمع شملهم، ودارت رحى الحرب بينهم، وجالوا في الشاميين وصالوا، وتبارز الشجعان، فقُتل خلق كثير من الطرفين، فإنا لله وإنا إليه راجعون!.

وهناك على أرض المعركة كان الصحابي المجاهد عمار بن ياسر ـ وقد نيَّف على التسعين سنة ـ في جيش علي، وكان رسول الله ﷺ قد بشَّره بالقتل والشهادة؛ فيما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «**وَيْحَ عمارٍ تقتلُه الفئةُ الباغية**»(١).

(١) انظر مقتل عمار رضي الله عنه فيما يأتي: ص٤٤٩ في هذا الكتاب؛ وكتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ١/١٤١ـ١٥١.

●● وقد قُتل عمار على أرض صفِّين، فلما كان ذلك حميَ أهل العراق، وتبين لهم أن الحق راجح إلى جانبهم، لحديث النبي ﷺ المتقدم، فاحتدم القتال تلك الليلة وهي من أعظم الليالي شرّاً بين المسلمين، وتسمى (ليلة الهَرير)(١)، وكانت ليلة الجمعة، تقصَّفت الرماح، ونَفِدت النِّبال، وصار الناس إلى السيوف، والناس يقتتلون من كل جانب، ولم يَزَل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم على ذلك، حتى تضاحى النهار، وتوجَّهت الغلبةُ لأهل العراق على أهل الشام... بعد هذه الحالة الخطيرة رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح، وقالوا: (هذا بيننا وبينكم، قد فَنِي الناس، فمن للثغور؟! ومَنْ لجهاد المشركين والكفار؟!).

وقد أشار عمرو بن العاص على معاوية بهذا فقال له: (أَرسِلْ إلى عليٍّ بمصحف فادْعُه إلى كتاب الله، فإنه لن يأبى عليك). فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]).

فقال عليٌّ: (نعم، أنا أَولى بذلك، بيننا وبينكم كتابُ الله). فجاءته الخوارج ـ ويُدْعَون يومئذٍ القرَّاء ـ وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: ما ينتظر هؤلاء القوم الذين على التل ـ يريدون جيش معاوية ـ؟! ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟!.

وكان ممن دعا إلى الصلح من سادات الشاميين: عبد الله بن عَمْرو بن العاص، عن أمر معاوية له بذلك، وممن أشار على عليٍّ بالقبول والدخول في ذلك الأشعث بن قيس الكِنْدي.

---

(١) **الهرير**: هو الصوت شبه النياح.

أما الأشـتر النخعي فكان يصرُّ على المُضِيّ في القتال وسـفك الدماء، فأرسـل علي إليه يزيدَ بنَ هانئ يأمره بالكفِّ عن القتال، فردَّ الأشـتر على الرسول بقوله: (قل له: ليس هذه السـاعة التي ينبغي لك أن تُزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوت أن يُفتح لي، فلا تُعجلني)!.

فرجع يزيد إلى أمير المؤمنين علي فأخبره بردِّ الأشتر ومُضِيِّه في القتال، فارتفع الرَّهْج(١)، وعلت الأصوات، فقـال القرَّاء لعليٍّ: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل! فقال: أرأيتموني سـاررتُه؟ ألَم أبعث إليه جهرةً وأنتم تسمعون؟! فقالوا: فابعث إليه فليأتـك، وإلَّا والله اعتزلناك. فقال علـي ليزيد بن هانئ: (وَيْحكَ، قل له: أقبِل فإن الفتنة قد وقعـت)! فلما رجع إليه يزيد فأبلغه عن أميـر المؤمنين أن ينصـرف عن القتال ويُقبـل إليه، جعـل يتململ ويقول: (ويحكَ! ألا ترى إلـى ما نحن فيه من النصر، ولم يبـقَ إلا القليل؟!) فقال يزيد: أيهما أحبُّ إليك أن تُقبِل أو يُقتل أميـر المؤمنين كما قُتل عثمان؟ ثم ماذا يغني عنك نصرتك هاهنا؟!.

فأقبل الأشـتر إلى علي تاركاً القتال، وقال: (يا أهـل العراق، يا أهل الذل والوهـن، أحينَ علوتُم القـومَ، وظنوا أنكـم لهم قاهرون، رفعـوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله ﷻ به فيها، وسُـنَّةَ من أُنزلت عليه ﷺ، فلا تجيبوهم، أمهلوني فقد أحسست بالفتح!) قالوا: لا، قال: أَمْهِلوني عَدْوَ الفرس، فإني قد طمعتُ في النصر! قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك.

هكذا يرى هذا الظالم لنفسه وللمسلمين أن هزيمته لجيش الشام هي فتح ونصر، فيتبجَّح ويقول: قد أحسستُ بالفتح وطمعتُ في النصر! وليتَه وجَّه هـذه البطولة والاسـتماتة فـي القتال إلـى جهاد أعداء الإسـلام

---

(١) أي: الشَّغَب.

والمتربصين به، وكان ساعيَ خير بين الأخوين علي ومعاوية ـ إذاً لذكره التاريخ بخير!.

ورغب أكثر الناس من العراقيين وأهل الشام بكمالهم في المصالحة والمسالمة مدة، لعله يتفق أمر يكون فيه حقن لدماء المسلمين[١].

المبحث الثالث: معالم بارزة في غمرة المواجهة والقتال

أولاً ـ بدايةُ القتال ومَن بدأه، وبيانُ أن تَرْكَه هو الصواب، وحقيقةُ موقف علي ومعاوية منه:

تقدم أن أمير المؤمنين عليّاً قد نبذ إلى أهل الشام على سواء بعد أن ترددت الرسل إليهم وأبَوا الدخول في البيعة والطاعة، ونشبت الحرب، وردَّ أهل الشام عن أنفسهم.

وقد روى نصر بن مزاحم بإسناده، عن جندب الأَزْدي[٢] وهو صحابي شهد صفين مع علي، قال: (خرج عليٌّ بالناس إلى أهل الشام، فزحف نحوهم، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوه قد زحف استقبلوه بزحوفهم)[٣].

وقال ابن تيمية: (أهل الشام قاتلوا مع معاوية لظنِّهم أن عسكر علي فيه ظَلَمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعاً لِصِيالهم عليهم، وقتال الصائل جائز. ولهذا لم يبدؤوهم بالقتال حتى

---

(١) انظر تفصيل ما لخصته هنا، في: تاريخ الطبري ٥/٥ـ٥١؛ المنتظم: ٥/١١٧ـ١٢١؛ البداية والنهاية: ٧/٢٦٠ـ٢٧٣.

(٢) تهذيب الكمال: ٥/١٤١؛ الإصابة: ١/٢٤٩ و٢٥١.

(٣) وقعة صفين، ص٢٥٩ـ٢٦٢؛ شرح نهج البلاغة: ٣/١٣٤.

بدأهم أولئك، ولهذا قال الأشـتر النخعي: إنهم يُنصرون علينا لأنَّا نحن بدأناهم بالقتال)[١].

ولكنْ أيضاً فـإنَّ عَجْزَ الخليفة عن قَتْل قتلة عثمـان لا يُبيح قتالَه، (ولم يكن ذلك موجباً لتفريق الجماعـة والامتناعِ عن مبايعته ولمقاتلته، بل كانت مبايعتُه على كل حال أصلَحَ في الدين وأنفعَ للمسـلمين وأطوعَ لله ولرسوله من ترك مبايعته)[٢].

ونؤكد أن (النصوص الثابتة عن النبي ﷺ تقتضي أن ترك القتال كان خيراً للطائفتين، وأن القعود عن القتال كان خيراً من القيام فيه، وأن عليّاً، مع كونه أَوْلى بالحق مـن معاوية وأقربَ إلى الحق من معاويـة، لو ترك القتال لكان أفضلَ وأصلحَ وخيراً!.

وأهل السُّـنَّة يترحمون على الجميع، ويسـتغفرون لهم، كما أمرهم الله تعالـى بقولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]).

(وأئمة السُّـنَّة يعلمون أنه ما كان القتال مأموراً به: لا واجباً ولا مستحبّاً، ولكن يعذرون من اجتهد فأخطأ)[٣].

(وقد كان الحسـن بن علـي وأكثر السـابقين الأولين لا يـرون القتال مصلحة، وكان هذا الرأي أصلح من رأي القتال بالدلائل الكثيرة)[٤].

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٣/٧٥ـ٧٦، وانظر: ٣/١٢٠، ٧١٥. **صال**: سطا، وقهر، وضرب، ووثب.

(٢) المرجع السابق: ٣/٩٢.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٣/٧٩، ٧٦.

(٤) المرجع السابق: ٣/٥٨٥، وانظر: ٣/٧١٥.

(وكان علي ومعاوية رضي الله عنهما أطلبَ لكفِّ الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلِبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها)(١).

ونجد في كثير من مؤلفات المعاصرين ودراساتهم الحَيْف والتنطع والانحرافَ عن جادة الصواب، والطعنَ على أهل الشام لمجرَّد أنهم خالفوا عليّاً في الاجتهاد وقاتلوه دفعاً عن أنفسهم.

من ذلك ما كتبتْه (أم مالك الخالدي) وظهيرُها حسن المالكي الذي يتظاهر بالإنصاف، فقد ذَكرتْ أن الصحابة الذين اعتزلوا القتال مع أحد الفريقين، (كسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن عُمر ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهم) قد تركوا الأَوْلى! وفي جواز قتال علي لأهل الشام؛ ساوت بين قتالهم وقتال (الخوارج) و(المحاربين) و(قطاع الطرق)(٢)!.

ثانياً ـ هديهم في الخلاف والقتال(٣):

سلك الفريقان من أصحاب علي ومعاوية هَدْي الإسلام وآدابَه في المواجهة والقتال، في أثنائه وفي نهايته، وسطَّروا مواقفَ جليلة في التزام أخلاق الإسلام، والصفح عن المخالفين، وإعذارهم وعدم سبِّهم فَضْلاً عن تكفيرهم، بل والثناء على الخيِّرِين والصالحين والشهادة بالحق والصدع به. وما جرى من مجازفات وتعدٍّ لهدي الإسلام، فإنما كان من ذوي الأهواء وأصحاب البغضاء والسبئية وقتلة عثمان، وكذلك من رواة الأخبار من المبتدعة والكذابين والمتروكين، الذين كانوا حريصين على كل شر وسوء وإلحاق الأذى بأهل الخير والصلاح والإصلاح.

---

(١) المرجع السابق: ١٢٥/٣.

(٢) بيعة علي بن أبي طالب، ص١٧١ـ١٧٢، ١٨٠، واخترتُ هذا الكتاب مثالًا لأنه الأقل إساءة مقارنة مع كثير غيره.

(٣) انظر ما تقدم: ص٢٩٣ ـ ٢٩٩ (رابعاً) في هذا الكتاب.

•• أوصى أمير المؤمنين علي الجيشَ فقال: (لا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل... ولا تهتكوا سِتراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن... ولا تهيِّجوا امرأة بأذى)(١).

ـ ويقول أبو أمامة الباهلي: (شهدتُ صفين، فكانوا لا يُجهِزون على جريح، ولا يطلبون مولِّياً، ولا يَسْلُبون قتيلاً)(٢).

ـ وعن يزيد بن بلال قال: (شهدتُ مع علي يوم صفِّين، فكان إذا أُتي بالأسير قال: لن أقتلك صبراً، إني أخاف الله رب العالمين. وكان يأخذ سلاحه، ويحلِّفه ألا يقاتله، ويعطيه أربعة دراهم)(٣).

ـ وقال عبدالله بن عروة بن الزبير: أخبرني رجل شهد صفين قال: (رأيت عليّاً خرج في بعض تلك الليالي، فنظر إلى أهل الشام فقال: اللَّهمَّ اغفِرْ لي ولهم)(٤).

ـ وعن يزيد بن الأصم قال: (سُئل عليٌّ عن قتلى يوم صفين، فقال: قتلانا وقتلاهم في الجنة، ويصيرُ الأمر إليَّ وإلى معاوية)(٥).

•• ولما أَطلق عليٌّ أسارى أهل الشام، وكان مثلهم أو قريبٌ منهم في يد معاوية، وكان قد عزم على قتلهم لظنِّه أنه قد قتل أسراهم، فلما جاءه أولئك الذين أطلقهم؛ أطلق معاوية الذين في يده(٦).

---

(١) تاريخ الطبري: ١١/٥؛ نهج البلاغة: ٧٧/٨، وشرحه: ٢٨٠/٢.
(٢) طبقات ابن سعد: ٤١١/٧؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٧٥/٧؛ وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل»: ١١٤/٨.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٥/٨؛ مصنف عبدالرزاق (١٨٥٩٢).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٥/٨.
(٥) تقدم: ص٢٩٦.
(٦) البداية والنهاية: ٢٧٨/٧.

ـ وروى الشعبي، عن الحارث الأعور قال: (لمَّا رجَعَ علي من صفين عَلِم أنه لا يملك أبداً! فتكلَّم بأشياء كان لا يتكلَّم بها، وحدَّث بأحاديث كان لا يتحدَّث بها، فقال فيما يقول: أيها الناس، لا تكرهوا إمارة معاوية، والله لو قد فقدتموه، لقد رأيتم الرؤوس تَنْدُر عن كواهلها كالحنظل!)(١).

ـ وقد ردَّ عمار بن ياسر على شِرْذمة تكفِّر أهل الشام، فقال: (لا تقولوا ذلك، نبيُّنا ونبيُّهم واحد، وقِبلَتُنا وقِبلتُهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون حادوا عن الحق، فحقَّ علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه)(٢).

ـ ولم يتردَّد عَمْرو بن العاص وابنه عبد الله في رواية فضل عمار بن ياسر، في أثناء المعركة، وأنه تقتله الفئة الباغية، مع كونهما مع معاوية في جيش أهل الشام.

فقد ثبت أن عبد الله بن عَمْرو عندما بلَغَه مقتلُ عمار، وهو في مجلس معاوية، روى بأمانة وجرأة وصراحة ووضوح حديث النبي ﷺ: «**وَيْحَ عمارٍ! تقتله الفئة الباغية**».

وكذلك روى عمرو بن العاص حديث رسول الله ﷺ في عمار: «**قاتِلُه وسالبُه في النار**». كما سيأتي في الفقرة التالية.

لقد كان القوم على درجة رفيعة من النُّبل والإنصاف والشهادة بالحق والصدع به، مع ما كان بين الفريقين من اختلاف وتباين في الاجتهاد أدى إلى المواجهة والقتال الدامي!.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٤/٨، وقد تقدم: ص ٣٩٦ في هذا الكتاب.

(٢) انظر ما تقدم: ص٣٩٧ في هذا الكتاب؛ نبوءات الرسول ﷺ: ١٤٤/١.

ثالثاً ـ مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه :

•• في الحديث الصحيح الذي رواه أبو سعيد الخُدْري وغيره: أن النبي ﷺ قال: «وَيْحَ عمارٍ! تقتلُه الفئةُ الباغيةُ»(١).

وهو حديث متواتر كما نصَّ عليه جماعة من الأئمة الحفاظ.

يقول ابن كثير: (وما زاده الروافض في هذا الحديث ـ بعد قوله: «**الباغية**» ـ: «لا أنالَها الله شفاعتي يوم القيامة»! فهو كذبٌ وبَهْتٌ على رسول الله ﷺ؛ فإنه قد ثبتت الأحاديث عنه صلوات الله عليه وسلامه بتسمية الفريقين مسلمين)(٢).

وقال مثله شيخ الإسلام ابن تيمية(٣).

وكان مقتل عمار رضي الله عنه بصفين وهو في جيش علي، والذين قتلوه كانوا في جيش معاوية.

والفريقان (أهل العراق وأهل الشام) من أهل الحق، وأصحاب دعوة واحدة هي الإسلام، وكل منهما اجتهد في إقامة حدود الله تعالى، وطائفة علي أقرب إلى الحق.

•• روى عَمْرو بن مرة قال: سمعتُ عبد الله بن سَلَمة يقول: (رأيتُ عمار بن ياسر يوم صِفِّينَ ـ شيخٌ آدَمُ طُوَالٌ ـ أخذ الحربة بيده، ويدُه تَرْعَدُ، فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يَبْلغوا بنا سَعَفَات هَجَر، عرفنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧)؛ وابن حبان (٧٠٧٩)؛ وأحمد: (١١٨٦١)، وغيرهم.

(٢) البداية والنهاية: ٢٧٢/٧.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٦٧٢/٣.

(٤) أخرجه أحمد: (١٨٨٨٤)؛ وابن سعد: ٢٥٦/٣ـ٢٥٧؛ وابن حبان (٧٠٨٠)؛ والحاكم: ٣٨٤/٣، =

ولما اشتد القتال جال عمار في ساحة المعركة ساعة، فحمل عليه اثنان من الموتورين الشانئين، هما ابن جَوى السَّكْسَكي وأبو الغادية الجُهَني، فأما أبو الغادية فطَعَنه، وأما ابن جوى فاحتزَّ رأسَه!.

روى أحمد وابن سعد ـ واللفظ له ـ قال: أخبرنا عفان بن مسلم، قال: أخبرنا حماد بن سَلَمة، قال: أخبرنا أبو حفص وكلثوم بن جَبْر، عن أبي غادية قال: (سمعتُ عمار بن ياسر يقع في عثمان يَشْتُمه بالمدينة، قال: فتوعَّدتُه بالقتل، فقلت: لئن أمكنني الله منك لأفعلنَّ! فلما كان يومُ صِفِّين جعل عمار يَحمل على الناس، فقيل: هذا عمار، فرأيتُ فُرْجَة بين الرئتين وبين الساقين، قال: فحملت عليه فطعنتُه في ركبته، قال: فوقع، فقتلتُه، فقيل: قتلتَ عمار بن ياسر! وأُخبر عمرو بن العاص، فقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن قاتلَه وسالبَه في النار**»!)[1].

وعن حَنْظَلة بن خُويلد العَنَزِيّ قال: (بينما أنا عند معاوية، إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار، يقول كل واحد منهما: أنا قَتلْتُه! فقال عبد الله بن عَمْرو: لِيَطِبْ به أحدُكما نَفْساً لصاحبِه، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**تقتُلُه الفئةُ الباغيةُ**». قال معاوية: فما بالك معنا؟! قال: إنَّ أَبي شكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**أَطِعْ أباكَ ما دام حيّاً ولا تَعْصِه**»، فأنا معكم، ولستُ أقاتِل)[2].

= وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات. **وسَعَفات**: جمع سَعَفة وهي أغصان النخيل. **وهَجَر**: هي الهفوف اليوم، وإنما خصَّها للمباعدة في المسافة.

(١) مسند أحمد: (١٧٧٧٦)؛ طبقات ابن سعد: ٣/٢٦٠ـ٢٦١؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٠٨). وقال شعيب: إسناده قوي.

(٢) أخرجه أحمد: (٦٥٣٨)؛ وابن أبي شيبة: ٨/٧٢٣؛ وبأخصر منه النسائي في الكبرى (٨٤٩٦)؛ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٣/٩٢، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

•• وأبو الغادية وشريكه ابن جَوَى اللذان قتلا عماراً رضي الله عنه، وكذلك من حضَّ على قتله ورضي به؛ هم الحقيقون بقول النبي ﷺ: «**تقتله الفئة الباغية**»، وفي هذا يقول ابن تيمية:

(ثم: «**إن عماراً تقتله الفئة الباغية**» ليس نصّاً في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل يمكن أنه أُريد به تلك العصابة التي حَمَلتْ عليه حتى قتلَتْه، وهي طائفة من العسكر، ومن رضي بقتل عمار كان حكمه حكمها. ومن المعلوم أنه كان في المعسكر من لم يرضَ بقتل عمار، كعبدالله عمرو بن العاص وغيره، بل كل الناس كانوا منكرين لقتل عمار، حتى معاوية وعمرو)[١].

وهذا الكلام من هذا العلم الشامخ في غاية الدقة والنفاسة والإنصاف والمَعْدلة.

وتأصيلاً على ما تقدم: فإنه من الظلم المبين، والافتئات على الحق؛ اتهامُ جميع جيش أهل الشام بأنهم قتلة هذا الصحابي الجليل، لأن له مكانة سامية في قلوب الصحابة والتابعين الأخيار، حتى الذين خالفوه في الاجتهاد وكانوا في الجيش المقابل. والذين يتخذون مقتله ذريعة للولوغ في أعراض الصحابة، وتكفير فريق منهم؛ فقد جانبوا الحق وضلوا ضلالاً مبيناً.

(وقد كان معاوية يعرف من نفسه أنه لم يكن منه البغي في حرب صفين، لأنه لم يُرِدْها، ولم يبتدئها، ولم يأتِ إليها إلا بعد أن خرج عليٌّ من الكوفة وضَرب معسكره في النُّخيلة ليسير إلى الشام كما تقدم... وكل ما وقع من الفتن فإثمُه على مؤرِّثي نارها، لأنهم السبب الأول فيها، فهم الفئة الباغية التي قُتل بسببها كل مقتول في وقعتي الجمل وصفين وما تفرّع عنهما)[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/٧٦-٧٧؛ وبنحوه: منهاج السُّنَّة: ٣/١٢٤-١٢٥.

(٢) من تعليقات محب الدين الخطيب على «العواصم»، ص١٧٣.

•• وقد أوَّل معاوية ﵁ حديثَ «تقتله الفئة الباغية» تأويلاً بعيداً:

عن عبد الله بن الحارث قال: (إني لأسيرُ مع معاوية في مُنْصرفه من صفين، بينه وبين عمرو بن العاص، قال: فقال عبد الله بن عَمْرو بن العاص: يا أبتِ، ما سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول لعمار: «**وَيْحَكَ يا ابنَ سُمَيَّةَ، تقتُلك الفئةُ الباغيةُ**»؟ قال: فقال عمرو لمعاوية: أَلَا تسمعُ ما يقول هذا؟ فقال معاوية: لا تزالُ تأتينا بِهَنَةٍ! أَنحنُ قتلناه؟! إنما قتله الذين جاؤوا به)(١).

وفي رواية: قال معاوية: (أَنحنُ قتلناه؟! إنما قتله عليٌّ وأصحابه، جاؤوا به حتى ألقَوه تحت رماحنا!)(٢).

قال ابن القيم: (فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قَتَله هو الذي باشَرَ قتْلَه لا من استنصر به)(٣).

وقال ابن كثير: (فقول معاوية: إنما قتله مَن قدَّمه إلى سيوفنا، تأويلٌ بعيد جدّاً، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يُقتلون في سبيل الله، حيث قدَّمهم إلى سيوف الأعداء!)(٤).

وقال مثله شيخ الإسلام ابن تيمية(٥).

رابعاً ـ الفئتان مسلمتان، وطائفة علي أقرب إلى الحق:

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعة حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، يكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعوتُهما واحدةٌ**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد: (٦٤٩٩) وصحَّحه أحمد شاكر وشعيب الأرنؤوط. والهنة: الأمر الشديد العظيم.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٠٤٢٧)، وسنده صحيح.

(٣) الصواعق المرسلة: ١/١٨٤ـ١٨٥.

(٤) البداية والنهاية: ٦/٢١٥، وانظر: ٧/٧١.

(٥) منهاج السُّنَّة: ٣/٨٩، ٩٤، ٩٧.

(٦) أخرجه البخاري (٧١٢١)؛ ومسلم (١٥٧) بعد رقم (٢٨٨٨)؛ وابن حبان (٦٧٣٤)، وغيرهم.

وعن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفترِقُ أمتي فِرْقتين، يَمْرُقُ بينهما مارِقةٌ، تقتُلُهم أَوْلى الطائفتين بالحقِّ**» لفظ النَّسائي.

وفي رواية لمسلم وأحمد: «**يَقتُلهم أقربُ الطائفتين من الحقِّ**».

وفي رواية لعبد الرزاق وأحمد والبَغَوي: «**لا تقومُ الساعة حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، دَعواهما واحدةٌ، تمرُق بينهما مارِقةٌ يقتُلُها أَوْلَى الطائفتينِ بالحقِّ**»[١].

•• قوله: «**فئتان**»: المراد بهما جماعة علي وجماعة معاوية، لما تحاربتا في صفين.

ـ «**دعوتهما واحدة**»: المرادُ بالدعوة: الإسلامُ على الراجح، أي: إن دينهما واحد، لأن كلّاً منهما كان يتسمى بالإسلام.

أو المراد: اعتقاد كل منهما أنه على الحق[٢].

فالحديث يُثبِت الإسلامَ والإيمانَ لكل من الطائفتين، وأنهما فِرقتان من أمة محمد ﷺ، وكلاهما تطلب الحق، فغايتُهما واحدة، ودعوتهما واحدة، وإنْ كانت إحداهما أقربَ إلى الحق من الأخرى، كما قال في الحديث الثاني: «**يقتلهم أقربُ الطائفتين من الحق**».

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره: عن أبي بَكْرة: أن النبي ﷺ قال في الحسن بن علي: «**ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أن يُصلِحَ به بين فئتين من المسلمين**»[٣]: شهادةٌ نبوية للطائفتين بأنهما من المسلمين، ومن ثَمَّ كان

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤) (١٥٠)؛ وأبو داود (٤٦٦٧)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٥٨)؛ وابن حبان (٦٧٣٥)؛ والبغوي (٢٥٥٥)؛ وأحمد: (١١١٩٦) و(١١٢٧٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٥٧، ٨٥٠٣).
(٢) الفتح: ٥٢٤/٨، شرح الحديث (٣٦٠٩)، ٦٣/١٦ (٦٩٣٥)، ٤١٦ (٧١٢١).
(٣) البخاري (٧١٠٩).

الإمام الجليل سفيان بن عُيينة ـ وقد روى هذا الحديث ـ يقول: (قوله: «**فئتين من المسلمين**» يُعجبنا جداً!)[١].

ـ وقوله: «**يَمْرُقُ بينَهما مارِقةٌ**»: أي تخرج طائفة من الناس على المسلمين فتحاربهم، والمقصود بها الخــوارج، الذين قتلهم عليٌّ، فهو أقربُ إلى الحق من معاوية.

•• فأمير المؤمنين علي هو الخليفة الحق، وهــو في ذلك القتال أقربُ إلى الحق وأولى به، كما جاء في الروايات الصحيحة، وجماعةُ عليٍّ وجماعةُ أهل الشام مسلمون، ومن أهل الحق وطلابه والحريصين عليه، فهناك قريب من الحق وأقرب إليه، وقد أثبتت الأحاديث قربَ أهل الشام من الحق، وهم غير ملومين في حروبهم وقتالهم، لأن ذلك كان عــن اجتهاد، والمخطئ له أجر والمصيب له أجران.

يقول ابن تيمية معلِّقاً على قوله ﷺ الوارد في حديث أبي سعيد الخدري: «**يَقتلُهم أقربُ الطائفتين مــن الحق**»: (في هذا الحديث دليل على أنه مع كل طائفة حق، وأن عليّاً رضي الله عنه أقربُ إلى الحق).

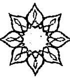
ويقــول في موضع آخــر: (فهذا الحديــث الصحيح دليــل على أن كلا الطائفتيــن المقتتلتين ـ علي وأصحابه، ومعاويــة وأصحابه ـ على حقٍّ، وأن عليّاً وأصحابه كانوا أقربَ إلى الحق من معاوية وأصحابه)[٢].

ـ وقال ابن حزم: (وصــحَّ أن عليّاً هو صاحبُ الحــق والإمام المفترض طاعته، ومعاوية مخطئ مأجور مجتهد). (وعلي رضي الله عنه صاحب الحق له أجران:

---

(١) المعرفة والتاريخ: ٤١٢/٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤٠٧/٣، ٤٦٧/٤.



أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، ومعاوية رضي الله عنه ومَن معه مخطؤون مجتهدون مأجورون أجراً واحداً)[١].

ـ وقال ابن كثير معقِّباً على حديث «قَتْل عليٍّ الخوارجَ»: (فيه الحكمُ بإسلام الطائفتين: أهلِ الشام وأهل العراق، لا كما تزعمه فِرقة الرافضة والجهلة الطَّغَام من تكفيرهم أهلَ الشام. وفيه أن أصحاب عليٍّ أدنى الطائفتين إلى الحق؛ وهذا هو مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعة أن عليّاً هو المصيب، وإنْ كان معاوية مجتهداً، وهو مأجور إن شاء الله)[٢].

وقال نحوه الحافظ ابن حجر[٣].

وأقوال العلماء في هذا كثيرة متضافرة متفقة على ذلك.

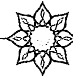
خامساً ـ وقفة وإيضاح حول مفهوم (الفئة الباغية)، ومقاتلتها:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، أمرٌ للمؤمنين بقتال الفئة الباغية، وليس فيه أمرٌ لإحدى الطائفتين بأن تقاتل الأخرى.

وفي اقتتال أهل العراق وأهل الشام؛ يقول أكثر السلف والأئمة كأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم: لم يوجد شرطُ قتالِ الطائفةِ الباغية؛ فإن الله لم يأمر بقتالها ابتداءً، بل أمر إذا اقتتلت طائفتان أن يُصلَحَ بينهما، ثم إنْ بغَتْ إحداهما على الأخرى قوتلت التي تبغي، وأهل الشام قُوتِلوا ابتداءً قبل أن يبدؤوا بقتال[٤].

---

(١) الفِصَل في المِلل والأهواء والنِّحَل: ١٦١/٤، بتصرف.
(٢) البداية والنهاية: ٢٨٠/٧.
(٣) الفتح: ٥٧/١٦، شرح الحديث (٦٩٣٣).
(٤) منهاج السُّنَّة: ٨٠/٣.



ولهذا كان أئمة السُّـنَّة كمالك وأحمد وغيرهما، يقولـون: إن قتالَ عليٍّ للخوارج مأمورٌ به، وأما قتال الجمل وصفين فهو قتال فتنة[1].

وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما وقعت الفتنة: ترك الناسُ العملَ بهذه الآيـة! وعلَّق ابن تيمية على هذا فقال: (وهـو كما قالت؛ فإنهما ـ الطائفتين ـ لما اقتتلتا لم يُصْلَح بينهما، ولو قُـدِّر أنه قُوتِلت الباغـيةُ، فلم تُقاتَلْ حتى تفيء إلى أمـر الله ثم أُصلح بينهما بالعدل! والله تعالـى أمـر بالقتـال إلى الفيء ثم الإصـلاح، لم يأمر بقتال مجـرَّد، بل قال: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. ومـا حَصَل قتالٌ حتى تفيء إلى أمر الله، فإنْ كان ذلك مقدوراً فما وقـع، وإنْ كان مَعجُوزاً عنه لم يكن مأموراً به!)[2].

(ولو قُـدِّرَ أن طائفةً بَغَتْ على طائفة، وأَمكن دفْـعُ البغي بلا قتالٍ، لم يَجز القتال: فلو اندفعَ البغيُ بوعظٍ أو فُتيا أو أمرٍ بمعروف؛ لم يَجز القتال. ولو اندفع البغي بقتلِ واحدٍ مقدور عليه، أو إقامة حدٍّ أو تعزير؛ مثل: قطْعِ سـارقٍ وقتل محارب وحدِّ قاذف؛ لم يَجز القتال. وكثيراً ما تثور الفتنة إذا ظلم بعضُ طائفة لطائفة أخرى، فإذا أمكن استيفاءُ حق المظلوم بلا قتالٍ لم يجز القتال.

وليس في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ كل مَن امتنع عن مبايعة إمام عادل، يجبُ قتالُه بمجرد ذلك، وإنْ سُـمِّي باغياً لترك طاعة الإمام، فليس كل من ترك طاعة الإمام يُقاتَل!)[3].

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٤/٥١٥ـ٥١٦؛ وانظر ما تقدم: ص ٢٨٩ في هذا الكتاب.

(٢) منهاج السُّنَّة: ٣/١٠٠، وبنحوه: ٤/٥١٥.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٣/١٠١.

سادساً ـ وقفة وتحقيق حول أخبار (القتال في صفين: عنفه، وحماسة المتقاتلين، والمبارزات وشدة الحملات):

•• المتتبع لأخبار الفتنة عامةً ووقعتي الجمل وصفين خاصة؛ يَخلُص إلى نتيجة مذهلة خطيرة محزنة، تهدِم في نفس القارئ الصورةَ المشرقة التي سطَّرها القرآن الكريم وأوضحتْها أحاديث السُّنَّة الطاهرة وأكَّدتْها أحداث السيرة العطرة، وشرحَتْها ورسَّخَتْها أخبار الفتوحات الإسلامية في عصر الراشدين.

تلك الصورة الجليلة الرائعة الخالصة المخلصة الهادية النبيلة لرجالات الإسلام حملة الرسالة وناشريها، الذين كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، يستبسلون في ساحات الوغى مع الأعداء، ويمسكون بأيديهم وأفئدتهم أمام أحكام الإسلام ومبادئه وغاياته، لا يتجاوزونها ولا يَخْدِشونها بموقف أو قول أو فعل.

أما أخبار وقعتي الجمل وصفين فإنها تصوِّر أولئك الرجالَ بقلمٍ آخر وعقلٍ آخر وقلبٍ آخر، وترسم صورة مغايرة تمامَ المغايرة لهم في أقوالهم ومواقفهم وسِيَرهم وأهدافهم وغاياتهم!.

فجمهرة الرواة والروايات وكتب التاريخ المتقدمة والمتأخرة والمعاصرة؛ تصوِّر الفريقين بصفين أنهم يتحمسون للقتال ويشتدون فيه ويحرِّضون عليه ويَحْرِصون على المُضِيّ فيه فلا ينصرفون عنه إلا إلى الصلاة. ويذكرون عن علي ومعاوية وقيادات الجيشين أنهم يُحضِّضون الجند على الاستعانة بالله والصبر على المواجهة، ومواصلة الجهاد (كذا!).

وعلي يدعو معاوية للمبارزة، فيشجِّعُه عمرو بن العاص ليتخلَّصَ منه طمعاً في الإمارة من بعده. وتزعم الروايات أن عليّاً بارز عمرو بن العاص وهزمه، فاستقبله عمرو بعورته فانصرف علي عنه!.

وتذكر تلك الأخبار أن عمار بن ياسر استبسل في القتال والصحابةُ يقتفون أثَرَهُ، وكان يحرِّض مَن معه على القتال ويقول: الجنةُ تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأَسنَّة، وقد فُتحت أبواب الجنة، وتزيَّنت الحور العِين: اليومَ ألقى الأحبَّة، محمداً وحِزْبَه!.

ويقول: اللَّهمَّ إني لا أعلمُ اليومَ عملاً هو أرضَى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلمُ أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلتُه!.

وذهبت تلك الروايات إلى القول بأن أهل الشام تعاقدوا على الثبات وأن لا يَفرُّوا، وعَقَلوا أنفسَهم بالعمائم. وأثخن الطرفان في القتل؛ فطارت أكفٌّ ومعاصم ورؤوس عن كواهلها!.

ووصفت الروايات القتالَ (وصفاً دراماتيكيّاً) حلَّق فيه خيالُ الكذابين والمتروكين، فجاؤوا بما لا يصدقه من يحترم عقله وكان عنده مَسْكة من حياء وإنصاف.

وتزعم الأخبار أنهم خاضوا زُهاءَ (٩٠) زحفاً، واقتتلوا شهر ذي الحجة جميعه، وربما اقتتلوا في اليوم مرتين. وفصَّلَتْ شؤونَ القتال في (عشرة أيام فاصلة) آخرها ما عُرف باسم (ليلة الهَرير)، التي جنح فيها خيالُ الرواة والأخباريين فذكروا أنه في تلك الليلة (اقتتل الفريقان بالرماح حتى تقصَّفت، وبالنِّبال حتى فنيتْ، وبالسيوف حتى تحطّمتْ، ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب في الوجوه، وتعاضّوا بالأسنان: يقتتل الرجلان حتى يُثْخَنا، ثم يجلسان يستريحان، وكل واحد منهما يَهْمِر على الآخر ويَهْمِر عليه، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا!).

•• والألم المُمِضّ الذي يدعو للأسى والحزن والرثاء لهذه الأمة والتاريخ والحقيقة: أن (تلك الأخبار الفاسدة التالفة الطائشة) قد تسلَّلتْ إلى كتب

مؤرِّخينا الكبار، وأمست (كأنها وثيقة تاريخية)، اعتمد عليها وأسَّسَ وأصَّلَ مَن جاء بعدهم جيلاً بعد جيل إلى زماننا، وتلقَّفها كلُّ حاطب ليل وذي هوى وبغضاء وجمَّاع غُثائي، لا تهمّه الحقيقة ولا يأبَه بأقدار الرجال الذين يترجم لهم ولا التاريخ الذي يكتب عنه!.

حتى طغت تلك الأخبار على الساحة الثقافية، واخترقت الكتب المدرسية، وسمَّمت عقولَ المدرّسين البسطاء والناشئة الضحية، وكانت حديث الأسمار والبَطّالين.

•• وهذه الأخبار تجدها في: تاريخ الطبري، والمنتظم لابن الجوزيّ، والكامل لابن الأثير، وتاريخ الإسلام للذهبي، وتاريخ ابن عساكر، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، والإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، وكتب نَصْر بن مُزاحم وأبي مِخْنَف وهشام الكلبي والواقدي وأمثالهم.

ونقله كثير من المعاصرين من أمثال عبدالكريم الخطيب في كتابه «علي»، و«الفتنة» لهشام جعيط، و«الإمام القائد» لبسام العسلي، و«عبقرية علي» للعقّاد، و«الفتنة الكبرى» لطه حسين، و«خلفاء الرسول» لخالد محمد خالد، و«الإمام علي» لإبراهيم بيضون، و«أبو تراب» لطلال الجنابي، و«فضائل علي» لمحمد جواد مغنية... وهي أمثلة تشير إلى الكثير الذي لا يدخل تحت حصر!.

والدكتور الفاضل علي الصلابي على عادته في جمع الأخبار، يقول في بعض نُقوله بشأن صفين: (وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فَلَّ سلاحُه، وهو يحرِّض الناس على الاستبسال في القتال)[1]! ثم أحال على «سنن سعيد بن منصور» وقال: ضعيف!.

---

(١) كتابه: علي بن أبي طالب، ص٦٠٠.

فلا أدري لماذا يسوقه إذاً ـ مع ضَعْفه ـ ويعرضه بهذه (الصور الدرامية!) قائلاً: (قام عمرو بإخراج الأسلحة من المخازن)، فأية مخازن وأية أسلحة هذه يا ترى؟!.

•• وموقفنا من هذه الروايات والأخبار ردُّها ونقضُها ورفضُها على وجه الإجمال، لا نفيها كلها، ونعتمد في هذا على نقدها سنداً ومتناً؛ فنقول:

عامة هذه الأخبار يرويها أبو مِخْنَف لوط بن يحيى، وبعضها رواه نصر بن مُزاحم، والقليل عن عَوَانة بن الحكَم وهشام بن محمد بن السائب الكلبي.

وأبو مخنف: أخباري تالف لا يُوثَق به، شيعي محترِق صاحب أخبارهم.

ونصر بن مزاحم: رافضي جَلْد، تركوه، ورماه بعضهم بالكذب.

وعوانة بن الحكم: متهم بالوضع.

وهشام بن محمد الكلبي: متروك رافضي، ليس بثقة[1].

ثم إن أغلب روايات هؤلاء المتروكين المتَّهَمِين مرسَلات ومُعضَلات ومنقطعات، وفي النادر تكون أخبارهم مسنَدة عمن عاصر الوقعة أو شهدها.

فهذه الأخبار الكثيرة المفصَّلة قد اجتمع فيها ضعفُ الرواة الشديد، وضعفُ الأسانيد من حيث الاتصالُ؛ فهي ضعف على ضعف.

والأخبار التي جاءت من غير طريقهم نادرة جدّاً، ويَغلب عليها الضعفُ والوَهَاء، والقليل منها مقبول أو مستقيم حسن أو صحيح.

هذا من حيث الإسناد.

---

(١) ترجمتهم في: ميزان الاعتدال، ولسان الميزان، وغيرهما.

أما من حيث المتنُ: فهي مردودة بأحاديث كثيرة صحيحة، وأخبار حسنة جيدة، وحقائق ثابتة، يمكن إيجازها فيما يلي:

١ ـ علمُ الصحابة والتابعين بحرمة دم المسلم، ووقوفُهم عند التحذير النبوي، وخشيتُهم من سفك دم بشبهة؛ فعن أبي بَكْرة قال: (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تواجَهَ المسلمانِ بسيفَيْهِما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار**» فقلتُ: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قال: «**إنه قد أرادَ قَتْلَ صاحبِهِ**»!)(١).

وعن عبد الله بن عُمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَمَل علينا السلاحَ فليس منَّا**»(٢).

والأحاديث في هذه كثيرة شهيرة.

٢ ـ كان القتال قتالَ فتنةٍ، وقد روى غير واحد من الصحابة ﷺ في إبَّان الأحداث الأحاديثَ التي تحضُّ على القعود في الفتنة واعتزالها وعدم السعي فيها وإليها، ومن أبرز الأدلة موقف أبي موسى الأشعري حيث حدث الناسَ، بقول رسول الله ﷺ:

«**إنَّ بين يدَي الساعة فِتناً كقِطع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً؛ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي! فكَسِّروا قِسِيَّكُم، وقطِّعوا أوتاركم، واضْرِبوا بسيوفكم الحجارةَ، فإنْ دُخِل على أحدِكم فليكُنْ كخيرِ ابنَيْ آدمَ**»(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣١)؛ ومسلم (٢٨٨٨)؛ وأبو داود (٤٢٦٨)، وغيرهم.
(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧٠)؛ ومسلم (٩٨)، وغيرهما.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٩)؛ وابن ماجه (٣٩٦١)، وغيرهما، وصحَّحه الألباني.

ولهذه الأحاديث اعتزل القتالَ جماعةٌ من أكابر الصحابة والسابقين، وحضوا على ذلك، منهم أبو موسى وأبو بَكْرة وسعد بن أبي وقّاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عُمر، وغيرهم.

٣ ـ غاية الطرفين لم تكن المواجهةَ والقتالَ، فأمير المؤمنين علي خرج لإدخال أهل الشام في البيعة والطاعة، ومعاوية في أهل الشام أصرُّوا على المطالبة بإقامة الحدِّ على قتلة عثمان، وعندما بُدِئوا بالقتال دفعوا الصِّيالَ عن أنفسهم.

٤ ـ طولُ مدة المراسلات وكثرةُ الرسل وترددهم بين الفريقين؛ تبين حرصَهم على عدم المواجهة والقتال وإراقة الدماء وقتل الأنفس.

٥ ـ ويؤكّد ذلك أنهم تداعوا إلى وقف القتال طيلة شهر المحرم، رجاء أن يتم الصلح، ويتجنب الفريقان مواجهة دامية.

٦ ـ حَرَص عليٌّ ومعاويةُ رضي الله عنهما على الكَفِّ عن القتال، وقد كانا أطلبَ لكفِّ الدماء من أكثر المقتتلين، لكنْ غُلبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها(١).

٧ ـ ويؤكد ذلك أوامرُ علي جيشَه أن لا يبدؤوا أهل الشام بالقتال، ووصاياه المتكررة بأن لا يُتبع مدبِر ولا يُجْهَز على جريح ولا يُقتل أسير ولا يُسلب.

٨ ـ طلبُ جماعةٍ كبيرة مراراً من عليٍّ أن يرسِل إلى الأشتر النخعي يأمره بأن يَكفَّ سلاحه ويتوقف عن القتال، وقد فعل أمير المؤمنين علي، لكن ذاك الأشتر استمرأ القتال طمعاً بالنصر كما يزعم، حتى قال أولئك لعليٍّ: كأنك أرسلتَ إليه تأمره بالقتال!.

---

(١) منهاج السُّنَّة: ١٢٥/٣.

٩ ـ وكذلك فـإن قرَّاء أهل العراق وقرَّاء أهل الشام عسكروا ناحية وكانوا قريباً من ثلاثين ألفاً، وكانوا يحجزون بين الفريقين عند حدوث المناوشات والقتال.

١٠ ـ ومن الأدلة القوية على عدم الرغبة في القتال والاستمرار فيه؛ أن أهل الشام (رفعوا المصاحف) للتحاكم إليها، فأجاب إلى ذلك أمير المؤمنين وعامة أهل العراق، ما عدا أولئك السبئيين الوالغين في الفتنة الراغبين باستمرار الخلاف والقتال.

من جميع ما قدمناه يتبين بحقٍّ أن الرغبة في القتال والحماسة له والاستمرار فيه، لم يكن من هدي أمير المؤمنين علي ووالي الشام معاوية ولا من فعل الصحابة والتابعين لهم بإحسان، بل من تدبير وتأجيج السبئية وقتلة عثمان والغوغاء، ولهم في ذلك سوابق من أيام مقتل عثمان وأحداث البصرة ووقعة الجمل!.

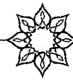
(والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر ﵃ عاجزين عن إطفاء الفتنة وكَفِّ أهلها، وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وإذا وقعت الفتنة لم يَسْلم من التلوث بها إلا من عصمه الله)[1].

سابعاً ـ وقفة مع الأرقام الكبيرة:

وردت في أخبار وقعة صفين روايات تذكر (أرقاماً كبيرة ضخمة)، حول عدد الوقعات والمواجهات، وطول أمد الحرب، وعدد قتلى الطرفين، ونحو ذلك، نشير إليها في هذه الفقرة، ونبين وجه الحق فيها:

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٥٢/٣.



أ ـ عدد الذين قتلهم أمير المؤمنين علي:

روى عَمْرو بن شَمِر، عن جابر الجُعْفِي، عن نُمير الأنصاري: أن عليّاً قتل في يوم واحد زيادة على خمس مئة رجل[١].

وذكر المسعودي الخبر فقال: (وكانت ليلة الجمعة ـ وهي ليلة الهرير ـ فكان جملة من قتل علي بكفِّه في يومه وليلته: خمس مئة وثلاثة وعشرين رجلاً)[٢].

قال ابن كثير بعد أن روى الخبر بطوله: هذا إسناد ضعيف وحديث منكر.

نقول: بل هو خبر خرافة لا يصدقه عاقل؛ فعَمْرو بن شَمِر: متروك ليس بثقة، متهم بالوضع، وقال ابن حِبَّان: رافضي يشتم الصحابة! وشيخُه جابر الجعفي: ضعيف رافضي، قال أبو حنيفة: ما لقيتُ أكذبَ من جابر الجعفي!.

والخبر ينافي العقل والمنطق؛ فقَتْلُ هذا العدد في يوم واحد يعني أن عليّاً يقتل في كل (ثلاث دقائق) رجلاً، وكأنهم مصطفّون أمامه يأخذ بأعناقهم واحداً تلو الآخر!.

بل إن هذا فيه شَيْن على أمير المؤمنين علي، وحاشاه أن يستخفَّ بدماء المسلمين المخالفين حتى يُهريق دماءهم بهذه السهولة، وما عَلِمنا له ذلك في وقائعه مع كفار قريش، ولا نرتاب في ورعه وتحريه وخشيته من سفك دم فيه شبهة، فأيُّ مديحٍ لعليٍّ في هذا؟!.

ب ـ مدة القتال وعدد الزحوف والوقعات:

ذكرت الأخبار أن الفريقين خاضوا معارك كثيرة، وصلت إلى (٧٠) زحفاً، وبلَّغها بعضُهم إلى (٩٠) وقعة في (١١٠) أيام[٣].

---

(١) البداية والنهاية: ٢٦٤/٧.

(٢) مروج الذهب: ٣٠٣/٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٨٧/٢؛ مروج الذهب: ٢٧٥/٢؛ المنتظم: ١٢٠/٥، ١٢٣؛ وقعة صفين، لنصر بن مزاحم: ٢٠٢؛ البداية والنهاية: ٢٧٥/٧.

ونقله غير واحد من المعاصرين؛ منهم الدكتور أكرم العمري[١]، والدكتور علي الصلابي ووصف تفصيل القتال وضراوته[٢]! وذكرتُها أنا ـ قديماً ـ في كتابي «الخلفاء الراشدون»[٣]، وأنا اليوم أبرأُ منها!.

وهذا الخبر مدارُه على نصر بن مزاحم وأبي مِخْنَف، وحالُهما من التَّرْك والوَهَاء معروف. وقد عارضه خبر نظيف بإسناد صحيح عن صحابي شهد الوقعة هو عبدالرحمن بن أَبْزَى، قال: (شهدنا مع علي ثمان مئة ممن بايع بيعة الرضوان، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت، ثم رُفعت المصاحف ودَعَوا إلى الصلح)[٤].

وهذا هو الحق واللائق بحال الصحابة والتابعين الخيِّرين، الذين يحرِصون على الصلح ويتحامَوْن عن سفك الدماء، ويتورَّعون عن الشبهات في الأمور الصغيرة فما بالك بالنفس المحرَّمة؟!.

والعجبُ من أئمتنا ومؤرِّخينا كيف يَغفُلون عن خبرٍ صحيح ينقله إمام محدث مؤرخ من شيوخ البخاري ـ أعني خليفةَ بن خيَّاط ـ ويعمدون إلى نصر بن مزاحم وأبي مخنف وأمثالهما فينقلون عنهم! والعجبُ مستمرٌّ من الكتَّاب المعاصرين حيث يقلِّدون من سبقهم ويروِّجون لتلك الأخبار التالفة، التي تصوِّر الصحابة والتابعين وكأنهم هواة قتال وقتل وإزهاق أنفس!.

ج ـ أعداد القتلى:

بالغ المؤرخون في تضخيم عدد القتلى أيام صفين ـ كما بالغوا في عددهم يوم الجمل ـ فنقل خليفة بن خياط فقال: (وافترقوا[٥] على سبعين

---

(١) كتابه: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٧ ـ ٤٦٨.

(٢) كتابه: علي بن أبي طالب، ص٦٠٠ـ٦٠٤.

(٣) ص٥٨٧، ٥٩٣.

(٤) تقدم: ص٤٤٠ في هذا الكتاب.

(٥) ظن الدكتور أكرم العمري ـ في كتابه: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٧٢ ـ أن هذا الكلام تتمة =

ألف قتيل: خمسة وأربعين ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرين ألفاً من أهل العراق. ويقال: على ستين ألفاً). وروى عن محمد بن سيرين قال: (افترقوا عن سبعين ألفاً يُعَدُّون بالقَصَب)[١].

ونقل مثلَه يعقوب بن سفيان الفَسَوي[٢].

ومشى على هذا غير واحد، منهم: المسعودي، وابن الجوزي، والذهبي، وابن كثير[٣].

وجازف المسعودي مجازفة طائشة فذكر في «تاريخه»: أن معاوية خرج في جيش عِدَّته (خمسة وثمانون ألفاً)، ثم لما تحدث عن عدد القتلى ذكر أن قتلى أهل الشام كانوا (تسعين ألفاً)[٤]؛ أي: إن عدد القتلى أكثر من عدد الجيش الأصلي!.

وهذه الأرقام مبالغ فيها جدّاً، وغير معقولة، يأباها الواقع التاريخي والنقد العلمي:

أما **الواقع التاريخي**: فالقتال استمر ثلاثة أيام كما قدمنا في الرواية الصحيحة، ولا يُعقل أن يُقتل مثلُ ذاك العدد الهائل في هذه المدة، فمعركةُ اليرموك مثلاً لم يستشهد فيها من المسلمين سوى ثلاثة آلاف، مع اتساع وقت القتال، وشراسة الأعداء، وكثرة أعداد الجيشين. ومعركة القادسية

= خبر عبدالرحمن بن أبزى الذي قدمناه، وليس كذلك؛ بدليل قوله في نهاية الخبر: (ويقال)، فهل يقول من شهد الوقعة: (ويقال)؟ فالكلام هنا لخليفة بن خياط.

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٤.

(٢) المعرفة والتاريخ: ٤٠٤/٣.

(٣) مروج الذهب: ٢٧٥/٢؛ المنتظم: ١٢٠/٥؛ تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٤٥؛ البداية والنهاية: ٢٧٥/٧.

(٤) مروج الذهب: ٢٩٢/٢، ٣٠٦.

استمرت أربعة أيام وثلاث ليالٍ، وجملة مَن استشهد فيها من المسلمين (٨٥٠٠) نفس.

وأما **النقد العلمي**: فإن القوم كانوا يتقاتلون بأسلوب بدائي، بالنبال والرماح والسيوف، وكثير منهم كان يتحامَى القتالَ إلا مضطرّاً، ما عدا السبئية الذين كانوا يوقدون الفتنة.

وهذا العدد الكبير لا يسقط مثله في الحروب الحديثة في أيام، مع استخدام الأسلحة الثقيلة كالمدفعية والصواريخ والطائرات، والشواهد على هذا كثيرة[1].

وعلى هذا فإن عدد القتلى لا يصل إلى عُشْر العدد الذي ذكره أولئك الأخباريون، ووقوع (ثمانية آلاف قتيل) من الفريقين، في ظروف القتال وأساليب المواجهة التي أوضحنا ـ يعتبر «مقتلة عظيمة» كما أشار إليها الحديث الصحيح.

وقد حمل جماعة من العلماء هذا الحديث على وقعة صفين.



(١) انظر ما قدمناه: ص٣٥٦ ـ ٣٦٠ في هذا الكتاب؛ وكتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٢/٩٤ـ٩٥.

الفصل السابع

قصة التحكيم
(تجلية حقائق، وكشف زيوف)

•• تمهيد:

لما رأى أكابر الصلحاء والخيِّرين أن الحرب تتسع دائرتها، وأهلَ الفتنة من السبئيين وقتلة عثمان يؤجحون نارها، وتكون الغلبة لهذا الفريق تارة ولذاك الفريق أخرى ـ لَمَعَتْ في عقل عمرو بن العاص ﵁ فكرةُ (رفع المصاحف) ودعوة الطرفين إلى التحاكم إليها والخضوع لحكمها، تماماً كما فعلت الصديقة أم المؤمنين عائشة يوم الجمل عندما أعطت كعبَ بن سُوْر مصحفاً وأمرَتْه أن يرفعه ويدعو الناس إليه.

رفع أهل الشام (٥٠٠) مصحف على الرماح[١] **ودعَوا الناس إليها،** فلما رأى المتحاربون المصاحف الشريفة مرفوعة أوقفوا القتال و(بَطَلت الحرب)، كما يروي أحد مؤرخي تلك الفتنة[٢].

ولم يكُ ذلك صدفة ولا مفاجأة، فإيقافُ القتال وحقن الدماء وتحقيق الصلح أمور يتمناها عامة رجال الطرفين كما قدمنا من مواقف وأحداث ومراسلات، ويؤكده ويدل عليه مواقف زعماء الفريقين وصلحائهم، وأغلب الناس تبع لهم.

---

(١) مروج الذهب: ٣٠٣/٢؛ الأخبار الطوال، ص١٨٩؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٦٥ـ٦٦.

(٢) وقعة صفين، لابن مزاحم، ص٤٧٩.



أولاً ـ بدء التحكيم والمنادي به، ورغبة الطرفين فيه واستجابتهم له:

يروي أبو مِخْنَف لوط بن يحيى: أن عَمْرو بن العاص عرض على معاوية رفع المصاحف والدعوة إلى حكمها، (فرفع أهلُ الشام المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتابُ الله ﷻ بيننا وبينكم، مَنْ لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟! ومَن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟! فلما رأى الناس المصاحف قد رُفعتْ، قالوا: نُجيب إلى كتاب الله ﷻ وننيب إليه)[1].

وتشير عدة روايات إلى رغبة العراقيين وجماعة من أكابر زعمائهم في إيقاف القتال وحقن الدماء، وهو مما مهّد لقبول التحكيم فور إعلانه، **يسوق هذه الأخبار نصر بن مزاحم، نوردها عنه لأنه رافضيٌّ جَلْد، ونحتجُّ به على المفترين والأفاكين والجماعين الذين اتهموا عمرو بن العاص بالخداع والمكر والمكيدة في (رفع المصاحف)!.**

١ ـ يروي نصر بن مزاحم، عن تميم بن حِذْيَم قال: (لمَّا أصبحنا من ليلة الهرير، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات أمام أهل الشام في وسط الفَيْلق، حِيال موقف علي ومعاوية، فلما أسفَرْنا إذا هي المصاحف قد رُبِطت في أطراف الرماح).

ثم يقول: (استقبلوا عليّاً بمئة مصحف، ووضعوا في كل مُجَنِّبَة[2] مئتي مصحف، فكان جميعها خمس مئة مصحف. ثم قام الطُّفيل بن أدهم حِيالَ علي عليه السلام، وقام أبو شُريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمَّر حيالَ الميسرة، ثم نادوا: يا معشر العرب، اللهَ اللهَ في النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فَنِيتم! اللهَ اللهَ في دينكم! هذا كتابُ الله بيننا وبينكم).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٨/٥؛ المنتظم: ١٢١/٥.

(٢) **المُجَنِّبَة**: ميمنة الجيش وميسرته.

٢ ـ ويروي ابن مزاحم بإسناده: عن جابر الجُعْفي، عن أبي جعفر الباقر؛ خبراً فيه وصفٌ لشدة القتال، وفي آخره:(ونادت المشيخةُ في تلك الغَمَرات: يا معشرَ العرب، اللهَ اللهَ في الحُرُمات من النساء والبنات! قال جابر: فبكى أبو جعفر وهو يحدثنا بهذا الحديث)(١).

٣ ـ ويروي أيضاً عن أحد السادة الكبار والحكماء الصادقين ممن كان في قيادات جيش علي؛ وهو الأشعث بن قيس: أنه خطب في قومه ليلة الهَرِير فكان مما قاله:

(قد رأيتم يا معشرَ المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب؛ فوالله لقد بلغتُ من السنِّ ما شاء الله أن أبلُغَ، فما رأيتُ مثل هذا اليوم قط! ألا فلْيُبلِّغ الشاهدُ الغائب؛ إنا نحن إنْ تواقَفْنا(٢) غداً إنه لفناءُ العرب وضَيعة الحُرُمات! أَمَا والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب ولكني رجل مسنّ أخاف على النساء والذراري غداً إذا فَنِينا. اللَّهمَّ إنك تعلم أني قد نظرتُ لقومي ولأهل ديني فلم آلُ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)(٣).

فهذه روايات عراقية كوفية لا ذكْر فيها لعمرو بن العاص، ولا ما زُعم من مكيدة ومكر وخديعة، بل رغبة صادقة من الأخيار الحُرَصَاء على مصلحة الإسلام وحقن الدماء.

٤ ـ وتناهت هذه المواقف وبخاصة خطبةُ الأشعث إلى معاوية رضي الله عنه فقال: (أصاب وربِّ الكعبة، لئنْ نحن التقينا غداً لتميلَنَّ الروم على ذَرارِيِّ أهل الشام ونسائهم، ولتميلَنَّ فارسُ على ذراريِّ أهل العراق ونسائهم! إنما

(١) وقعة صفين، ص٤٧٩ـ٤٨٠؛ شرح نهج البلاغة: ١/٤٥٤ـ٤٥٥.

(٢) أي: للقتال.

(٣) وقعة صفين، ص٤٨١؛ شرح نهج البلاغة: ١/٤٥٦.

يبصر هذا ذوو الأحلام والنُّهى. ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القَنَا).

٥ ـ وثار أهلُ الشام في سواد الليل ينادون عن قول معاوية وأمره: يا أهلَ العراق، مَن لذراريِّنا إنْ قتلتمونا، ومن لذراريِّكم إنْ قتلناكم؟! اللهَ اللهَ في البقية!.

وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح، وقد قلّدوها الخيل، والناس على الرايات قد اشتهوا ما دُعُوا إليه، وهم ينادون أهل العراق: كتاب الله بيننا وبينكم.

واعترض بعض مساعِر الفتنة على هذا، ومنهم عَمْرو بن الحَمِق والأشتر النخعي وهما من رؤوس المشاركين في قتل عثمان، وحَضّا عليّاً على رفض الصلح والاستمرار في القتال! فغضب الأشعث بن قيس وقال: (يا أمير المؤمنين، أجِب القومَ إلى كتاب الله عَجَّلَ، فإنك أحقُّ به منهم، وقد أحَبَّ الناس البقاء، وكرهوا القتال).

فقال علي: هذا أمرٌ يُنظر فيه. فتنادى الناس من كل جانب: الموادعة[1]!.

٦ ـ ثم إن أهل الشام لمّا أبطأ عنهم عِلمُ حالِ أهل العراق: هل أجابوا إلى الموادعة أم لا؟ جَزِعوا فقالوا: يا معاوية، ما نرى أهلَ العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه، فأعِدْها جَذَعة[2]، فإنك قد غمرتَ بدعائك القوم وأطمعتَهم فيك.

فدعا معاوية عبدَ الله بن عمرو بن العاص، فأمره أن يكلم أهل العراق، ويستعلمَ له ما عندهم، فأقبل حتى إذا كان بين الصفين نادى: (يا أهل العراق،

---

(١) وقعة صفين، ص٤٨١ ـ ٤٨٤؛ شرح نهج البلاغة: ٤٥٦/١ ـ ٤٥٧.

(٢) أي: أعدها مرة أخرى كما بدأت.

أنا عبدُ الله بن عمرو بــن العاص، إنه قد كانت بيننا وبينكــم أمورٌ للدين أو الدنيا، فإن تكن للدين فقد ـ والله ـ أَعْذَرْنــا وأَعذرتم، وإن تكن للدنيا فقد ـ والله ـ أسرَفْنا وأسرفْتُم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم، فإنْ يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله، فاغتنموا هذه الفرصة)[١].

٧ ـ واستمر الأشــعث بن قيس في السـعي للصلح وجاء إلى علي رضي الله عنه فقال: (يا أمير المؤمنين، ما أرى الناسَ إلا قد رضُوا وسرَّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دَعَوْهم إليه من حكم القرآن، فإنْ شـئتَ أتيتُ معاويةَ فسألتُه ما يريد، ونظرتُ ما الذي يســأل؟ قال: فأْتِه إن شـئتَ. فأتاه، فســأله: يا معاوية، لأيِّ شــيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجعَ نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه، فابعثــوا رجلاً منكم ترضَوْن به، ونبعث منا رجــلاً، ونأخذ عليهما أن يعملا بما في كتــاب الله ولا يَعْدُوانِه، ثم نتَّبع ما اتفقا عليه. فقال الأشــعث: هذا هو الحق.

وانصرف إلــى عليٍّ فأخبره، فبعــث عليٌّ قرَّاءً من أهــل العراق، وبعث معاوية قرّاءً من أهل الشام، فاجتمعوا بين الصفَّين ومعهم المصحف، فنظروا فيه وتدارســوه، واجتمعوا على أن يُحْيُــوا ما أحيا القــرآن ويُميتوا ما أمات القرآن، ورجع كل فريق إلى صاحبه. فقال أهل الشــام: إنَّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، وقال الأشــعث والقرّاء الذين صاروا خوارج فيما بعد: قد رضِينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعري)[٢].

•• وتؤكــد رواية صحيحة أن أميــر المؤمنين عليّاً قد سُــرَّ بالصلح ورضي بالتحكيــم وحَرَص عليه، ونعى على القــرّاء ـ الذين صاروا فيما

---

(١) وقعة صفين، ص٤٨٤؛ شرح نهج البلاغة: ٤٦٠/١.

(٢) وقعة صفين، ص٤٩٨؛ شرح نهج البلاغة: ٤٦٥/١ـ٤٦٦؛ تاريخ الطبري: ٥١/٥؛ مروج الذهب: ٣٠٤/٢.

بعد خوارج ـ وقرَّعَهم على رغبتهم في استمرار القتال ومخالفتهم له في قبول التحكيم.

عن أبي وائل شقيق بن سَلَمة قال: (إنه لمَّا استحرَّ القتل في أهل الشام بصفين، اعتصم معاوية وأصحابه بجبل، فقال عمرو بن العاص: أَرسِلْ إلى عليٍّ بالمصحف، فلا والله لا يردُّه عليك. قال: فجاء به رجل يحمله ينادي: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٣]! قال: فقال عليٌّ: نعم، بيننا وبينكم كتاب الله، أنا أَوْلى به منكم. قال: فجاءت الخوارج وكنا نسمِّيهم يومئذٍ القرَّاء، قال: فجاؤوا بأسيافهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ألا نمشي إلى هؤلاء القوم حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سَهْل بن حُنيف فقال: أيها الناس، اتَّهِموا أنفسَكم! لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نَرى قتالاً لقاتَلْنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين)... وذكر قصة عمر بن الخطاب ومعارضته لصلح الحديبية ونزولَ سورة الفتح على النبي ﷺ، فقال علي مخاطباً أولئك القوم الذين اعترضوا على قبوله التحكيم: (أيها الناس، إنَّ هذا فتحٌ! فقبِل عليٌّ القضية، ورجع، ورجع الناس)(١).

وهي لفتةٌ رائعةٌ من أمير المؤمنين علي باقتدائه بالنبي ﷺ، حيث صالح المشركين يوم الحديبية، فأحرى بعليٍّ أن يصالح إخوانَه المسلمين الذين خالفوه في الاجتهاد، وكما كان صلح الحديبية فتحاً، فكذلك صلحُه مع أهل الشام فتحٌ أيضاً!.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/٧٣٦ـ٧٣٧؛ مسند أحمد: (١٥٩٧٥)؛ السنن الكبرى، للنسائي (١١٤٤٠)؛ وأصله في البخاري (٣١٨١)؛ ومسلم (١٧٨٥).

وأكَّد رأيَه الصحابيُّ الجليل سَهْل بنُ حُنَيْف الذي نعى على مَن خالف أمير المؤمنين فقال: (اتَّهموا أنفسكم...)، وذكر لهم ما وقع لهم بالحديبية، وأنهم رأوا يومئذٍ أن يستمروا على القتال ويخالفوا ما دُعُوا إليه من الصلح، ثم ظهر أن الأصلح هو الذي كان شَرع النبي ﷺ فيه. وقد أعقب خيراً كثيراً، وظهر أن رأيَ النبي ﷺ في الصلح أتمُّ وأحمدُ من رأيهم في المناجزة(١).

فكذلك هو الحال في قبول (التحكيم) والصلح مع أهل الشام؛ فيه حقنُ دماء المسلمين وإعادةُ الوحدة إلى صفوفهم، وهذا أتمُّ وأحمدُ من العودة للمناجزة والقتال!.

●● واستمر عامة العراقيين على مثل رأي أمير المؤمنين عليٍّ في قبول الصلح وإمضاء التحكيم، ولم يخالف إلا مُثيرو الفتنة والسبئية ممن هم على شاكلة الأشتر النخعي وأتباعه، ويؤكد ذلك ما رواه التابعي الجليل أبو وائل شقيق بن سَلَمة في بعض طرق الحديث المتقدم، يقول:

(لمَّا قدِمَ سَهْل بن حُنيف من صِفِّين، أتيناه نستخبرُه، فقال: اتَّهِموا الرأيَ، فلقد رأيتُني يومَ أبي جَنْدَل ولو أستطيعُ أن أردَّ على رسول الله ﷺ أمرَه لَرَدَدْتُ، والله ورسولُه أعلمُ. وما وضَعْنا أسيافَنا على عواتقنا لأمرٍ يُفْظِعُنا؛ إلا أَسْهَلْنَ بنا إلى أمرٍ نعرفُه، قبل هذا الأمر: ما نَسُدُّ منها خُصْماً إلا انفجَرَ علينا خُصْمٌ ما ندري كيف نأتي له!)(٢).

قال الأعمش: سألتُ أبا وائل: شهدتَ صِفِّينَ؟ قال: نعم. وذكر حديثَ سهل بن حنيف، ثم قال أبو وائل: (شهدتُ صفِّينَ وبِئْسَتْ صِفُّونَ!)(٣).

---

(١) الفتح: ٧/٧٨٩ (٣١٨١)، ١٠/٦٦٥ (٤٨٤٤)؛ نبوءات الرسول ﷺ: ٢/ ١٠٢ـ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨٩). **يوم أبي جندل**: أراد به يوم الحديبية، وقصة أبي جندل يوم الحديبية مشهورة. **خُصْم**: جانب.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨١) و(٧٣٠٨)، وكلها أطراف لحديث واحد.

فهذه الروايات الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما، تؤكد قبولَ أهل العراق وأهل الشام وعلى رأسهم علي ومعاوية؛ لخيار الصلح وإمضاء التحكيم. وتدحضُ الأخبار التالفة والمجازفات والكلامَ المرسَل بلا سند؛ بأن ذلك كان خدعةً من عمرو بن العاص ومكيدةً منه، وإنقاذاً لموقف الشاميين الذين ضعفوا وكادوا أن يولُّوا مدبرين، مما شاع في التاريخ قديماً وحديثاً، حتى غدا كأنه حقيقة ثابتة لا تقبل الردّ، وما عداها من حقائق ثابتة أمست مطموسة لا يعلم بها كثير من الناس!.

ثانياً ـ روايات ساقطة حول موقف الطرفين من التحكيم:

مضت روايات كثيرة في طريقها التائه تدبِّج الكذبَ والافتراء على علي ومعاوية وأهل العراق وأهل الشام، وجَمَح الهوى بالأخباريين والمؤرخين فأوردوا روايات مطوَّلة تزعم أن عليّاً رفض التحكيم وأَنَّبَ مَن قَبِله من أتباعه واتَّهم الشاميين وعلى رأسهم معاوية وعمرو بالكذب والتدجيل والشر والفساد والسعي في الضلال ومخالفة أحكام القرآن، وأنه دعا إلى الاستمرار في المناجزة والقتال...

ووَصَمتْ تلك الأخبار معاوية وعَمْراً وأهل الشام بكل نقيصة ودناءة وخديعة ومكر وجُبْن وخُبث وكيدٍ للإسلام وأهله وسعيٍ وراء مآربَ شخصية ومطامع في الرياسة وعبثٍ بمصالح الإسلام والمسلمين...

روى أبو مخنف: أن عليّاً قال: (عبادَ الله، امضُوا على حقكم وصدقكم وقتالِ عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي مُعَيط وحَبيب بن مَسْلمة وابن أبي سَرْح والضحّاك بن قيس؛ ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعْرَفُ بهم منكم، قد صحبتُهم أطفالاً وصحبتُهم رجالاً: فكانوا شرَّ أطفال

وشـرَّ رجال. ويحكم! إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوهـا لكم إلا خديعةً ودَهْـناً ومكيدة!)(١).

وروى نصر بن مزاحم بإسـناده قال: (لمَّا نظر عليٌّ إلـى رايات معاوية وأهل الشام قال: والذي فَلق الحبة وبرأ النَّسَمة، ما أَسلموا ولكن استسلموا، وأسرُّوا الكفر! فلما وجدوا عليه أعواناً، رجعوا إلى عداوتهم لنا، إلا أنهم لم يتركوا الصلاة)(٢).

وروى نصر أيضـاً: أن القرَّاء طلبوا من علي قبـولَ التحكيم، فردَّ عليهم موضحاً حقيقة أهل الشام: (إني إنما قاتلتُهم لِيدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه! ولكني قد أعلمتُكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليس العملَ بالقرآن يريدون)(٣).

وفي رواية لأبـي مِخْنَف قال: (فلما رأى عمرو بـنُ العاص أن أمرَ أهل العراق قد اشـتد، وخاف في ذلك الهـلاكَ؛ قال لمعاوية: هـل لك في أمر أعرِضُه عليك لا يزيدنـا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فُرقـة؟ قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقـول: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكـم، فإن أبَى بعضهم أن يَقبلها وجدتَ فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبـل، فتكون فُرقة تقع بينهم، وإن قالوا: بلى نقبل ما فيهـا، رفعنا هذا القتال عنّا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين. فرفعوا المصاحف بالرماح)(٤).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٨/٥ـ٤٩؛ الكامل، لابن الأثير: ١٦١/٣؛ البداية والنهاية: ٢٧٣/٧ـ٢٧٤؛ تاريخ اليعقوبي: ٨٨/٢ـ٨٩؛ مروج الذهب: ٣٠٤/٢.

(٢) وقعة صفين، ص٢٤٠ـ٢٤١؛ شرح نهج البلاغة: ٢٨٤/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٤٥٨/١.

(٤) تاريخ الطبري: ٤٨/٥؛ المنتظم: ١٢١/٥؛ تاريخ اليعقوبي: ٨٨/٢.

وعنون المسعودي لهذا الحدث الخطير هكذا: (خدعة رفع المصاحف)[1].

وهكذا سماها إبراهيم بيضون[2]، وسمَّاها محمد جواد مغنيّة: (مهزلة التحكيم)[3]!.

وعلى هذا السَّنَن السيِّئ مشى بعضُ كتّابنا المعاصرين، يقول عبدالكريم الخطيب: (جاءت خديعةُ المصاحف يرفعها أهل الشام على أسنَّة الرماح وينادون في أهل العراق بالاحتكام إلى كتاب الله، والفيء إلى السلم والعافية. ويدرك الإمام ما يعمل هذا التدبير في جيشه، وما تعمل تلك الدعوة الكاذبة(!) في جماعات مختلفة الأهواء متباينة المشارب متنازعة الغايات؛ إنها الفُرقة التي لا اجتماع معها، والتخاذل الذي لا رجاء في نصر معه!)[4].

هذه نماذج مقتضَبة معبِّرة في هذا الباب يسوقها نصر بن مزاحم وأبو مخنف لوط بن يحيى واليعقوبي والمسعودي... وحالُهم معروف قد أشرنا إليه أكثر من مرة، وما هم عليه من ضعف ووهاء وبدعة وهوى!.

ولا يُستغرب من هؤلاء أن يرووا مثل تلك الفِرى، ولكن العَتْب المرَّ على أئمتنا من أكابر الحفاظ والمحدثين والمؤرخين كيف يوردون هذا الباطل في كتبهم؟! فَيَسُوق الطبري كثيراً من تلك الروايات، ويتابعه في روايتها ابن عساكر وابن الجوزي وابن الأثير وابن كثير... وغيرهم كثير!.

كيف استجاز أولئك المؤرخون وصْفَ معاوية وعَمْرو وجماعة من الصحابة بأنهم (شرُّ أطفال وشرُّ رجال)، وأنهم (ليسوا أصحابَ دين ولا

---

(١) مروج الذهب: ٢/٣٠٣.
(٢) كتابه: الإمام علي، ص٨١.
(٣) كتابه: فضائل الإمام علي، ص١٥٠.
(٤) كتابه: علي بن أبي طالب، ص٤٨٤.

قرآن)، وقد ثبت الثناء عليهم في القرآن الكريم والنصوص الكثيرة في السُّنَّة الصحيحة، مع النهي الشديد عن سبِّهم؟!.

وزاد الأمر فُحشاً أن الطبري وغيره نقلوا عن الأشتر: أنه قال في عمرو ابنِ العاص ورفْعِ المصاحف: (إنها مشورة ابن العاهرة)[(١)]!.

هل هذا الأشتر (صاحبُ دين وصاحبُ قرآن)، وهو يقذِف صحابيّاً ـ أثنى عليه النبي ﷺ ـ بمثل هذا الفحش من القول؟!.

ثالثاً ـ نبذة عن قبول التحكيم من الطرفين، والقائمين به:

●● دعا أهل الشام إلى الصلح وتحكيم القرآن، ووافق ذلك رغبةَ أكثرِ أهل العراق ورضي به أمير المؤمنين عليٌّ وقال: (نعم، أنا أَوْلى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله)، كما قدمنا.

ورشَّح الفريقان رجلين من جِلّة الصحابة ليقوما بأمر التحكيم؛ فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، واختار أمير المؤمنين وأهل العراق أبا موسى الأشعري[(٢)].

ومما يؤكد أن أمير المؤمنين عليّاً كان راضياً عن اختيار أبي موسى؛ ما رواه البَلاذُرِي بإسناده قال: (قال الأحنف بن قيس لعليٍّ حين أراد أن يحكِّم أبا موسى: إنك تبعث رجلاً من أهل القرى رقيقاً... فابعثْني مكانَه آخذ لك بالوثيقة، وأضعك من الأمر بحيث أنت. فقال له ابن عباس: دَعْنا يا أحنف منك، فإنّا أعلمُ بأمرنا منك)[(٣)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٠/٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٥١/٥؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٤٨؛ شرح نهج البلاغة: ٤٦٦/١؛ العواصم من القواصم، ص١٧٥ـ١٧٦.

(٣) أنساب الأشراف: ٥٧/٢؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٧٥، وسنده حسن.

وروى الأعمش، عن أبي صالح: (أن عليّاً قال لأبي موسى: احكُمْ ولو على حَزّ عُنقي!)(١).

وهذان النصان الثابتان يُبطِلان كلَّ ما روي عن أمير المؤمنين علي من أنه لم يرضَ بترشيح أبي موسى للحكومة، وأنه أُجبِر عليه من قِبل الأشعث والقرّاء، وأنه طَعن في أهليته، وأنه ليس بثقة عنده؛ فقد خالف عليه حين بعث يستنفر أهل الكوفة فثبَّطَهم أبو موسى!.

شذرة عن أبي موسى وعمرو بن العاص رضي الله عنهما:

أ ـ أبو موسى الأشعري(٢):

●● صحابي جليل أسلم قديماً، وهاجر إلى المدينة بعد فتح خيبر، وشهد مع النبي ﷺ غزوة ذات الرِّقاع، والفتح، وحُنين، وأوطاس، وتبوك، وحجَّ معه حجة الوداع.

تمتع بصفات حميدة؛ فكان ربانياً زاهداً، عابداً منيباً، صوَّاماً قوَّاماً، حييّاً كريماً، متواضعاً حليماً، عالماً عاملاً، صادقَ اللهجة، صافيَ السَّرِيرة، متمسكاً بهدي النبوة، مجاهداً فاتحاً، والياً جليلاً، كبيرَ القدر، رفيعَ المحلّ.

وكان من أعيان تلاميذ النبوة، وأثنى عليه رسول الله ﷺ وقرَّبَه إليه وأدناه منه واستمع إلى قراءته القرآن وأطاب الثناءَ عليه فيها.

بعثه النبي ﷺ إلى اليمن والياً وداعياً ومعلِّماً، فكان عاملاً له على زَبيد وعَدَن وساحل اليمن.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٢٤/٨، بإسناد صحيح؛ وهو في تاريخ الإسلام، ص٥٤٨؛ وابن عساكر: ١٧٦/٣ـ١٧٧، لكن محققه محمد باقر المحمودي حكم ببطلان الخبر لأنه لا يتفق مع هواه في الرفض!.

(٢) له ترجمة وافية في كتابي: أعلام الحفاظ والمحدثين: ٥٣٩/١ـ٥٨٦، وما ذكرته هنا ملخص منها.

وأقرَّه أبو بكر الصديـق على ولاية اليمن، فبقي أميـراً عليهـا طيلة مـدة خلافته.

وكذلك ولَّاه الفـاروق عمر على البصرة، ولمـا حضرتْه الوفاة كتب في وصيته: ألَّا يُقَرَّ لي عاملٌ أكثر من سنة، وأقِرُّوا الأشعريَّ أربعَ سنين!.

ولما بويع عثمانُ بالخلافة أقرَّ أبا موسـى والياً على البصرة، فبقي على إمْرَتها ست سـنين، فاسـتمرت ولايتُه عليها زُهاء اثنتي عشرة سنة من سنة (١٧هـ) وحتى سـنة (٢٩هـ)، حيث عُزل عنها عن أمـر عثمان، وكتب عثمان إليه: (إني لم أعزلْكَ عن عجزٍ ولا خيانة).

ثم ولَّاه عثمان على الكوفة، واستُشـهد عثمان وهـو والٍ عليها، وبويع علي بالخلافة وغيَّر بعضَ ولاة الأمصار، وأقرَّ أبا موسى على الكوفة.

•• فهذا الرجل الكبير قد حاز من الشرف والثناء والثقة ما لم يحظَ به إلا القلَّةُ من الأكابر، فقد ولي للنبي ﷺ وللخلفاء الراشـدين الأربعة؛ وهذا من أعظم البراهيـن على عبقريته وكفاءتـه وتمام عقله وحكمته وحُسْـن إدارته وقيامه بأعباء الولاية في أمصـار عُرفت بكثرة القلاقـل والتقلُّب على كبار الولاة وبخاصة الكوفة والبصرة.

فهـل نُعرِض عن هـذه الأحاديث الصحيحـة والتاريـخ الثابت الناصع المجيد الحافل بالمكرمات، ونستسـلم لروايات تالفة ونروِّج أخباراً سـاقطة رواها المتروكـون وأصحاب الأهـواء والبغضاء للصحابة؛ حيـث رمَوا أبا موسى بالغفلة والسذاجة، وافترَوا على عليٍّ بأنه قال لأتباعه الذين اختاروا أبا موسى للتحكيم:

(إنكم قد عصيتموني في أول الأمـر فلا تعصـوني الآن، إنـي لا أرى أن أولِّي أبا موسـى... فإنه ليس لي بثقةٍ، قـد فارقـنـي، وخـذَّلَ الناسَ

عنِّي، ثم هرب مني حتى آمنتُه بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نولِّيه ذلك!)(١).

وللأسف فإن ابن كثير وهو الإمام الحافظ المؤرخ روى الخبر فقال: (وأراد علي أن يوكل عبدالله بن عباس، وليته فعل!).

وعلى الرغم من أن الخبر واهٍ، فهي غمزةٌ بأبي موسى الأشعري، ما كان لهذا الإمام أن يَزِلَّ فيها، والرافضة لا يُستغرب منهم الطعن على الصحابة، أما أمثال ابن كثير فما عذرُهم؟!.

ب ـ عمرو بن العاص:

●● صحابيٌّ كبيرٌ وعَلَمٌ جليلٌ، داهيةُ قريش ورجلُ العالَم، ومن يُضرب به المثلُ في الفِطنة والذكاء والحزم والدهاء.

هاجر إلى رسول الله ﷺ مُسْلِماً في أوائل سنة (٨هـ)، مرافقاً لخالد بن الوليد وحاجب الكعبة عثمانَ بنِ طلحة، ففرح النبي ﷺ بقدومهم وإسلامهم، وأَمَّر عَمْراً على بعض الجيش وجهزه للغزو(٢).

وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص: أنه قال: (لمَّا جَعل اللهُ الإسلامَ في قلبي، أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: ابْسُطْ يمينَك فلأُبايِعْكَ، فبَسطَ يمينَه، قال: فقبضتُ يدي، قال: «**ما لَكَ يا عَمْرو؟!**» قال: قلتُ: أردتُ أن أشترطَ، قال: «**تَشترِطُ بماذا؟**» قلتُ: أنْ يُغفرَ لي، قال: «**أَمَا علمتَ أن الإسلام يَهْدِمُ ما كان قَبْلَه؟ وأن الهجرةَ تهدِمُ ما كان قبلَها، وأن الحج يهدِم**

---

(١) الخبر من مرويات أبي مخنف! وهو في: تاريخ الطبري: ٥١/٥؛ المنتظم: ١٢٢/٥؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٤٧ـ٥٤٨؛ البداية والنهاية: ٢٧٧/٧؛ مروج الذهب: ٣٠٤/٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥٥/٣.

ما كان قبلَه؟» وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجَلَّ في عَيْنِي منه، وما كنتُ أُطِيقَ أن أملأَ عينَيَّ منه إجلالاً له! ولو سُئِلتُ أن أصِفَه ما أطقتُ، لأنّي لم أكنْ أملأُ عينَيَّ منه. ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكونَ من أهل الجنة. ثم وَلِينَا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها! فإذا أنا مُتُّ، فلا تَصحبْني نائحةٌ ولا نارٌ. فإذا دَفنتُموني فَشُنُّوا علَيَّ الترابَ شَنّاً، ثم أَقِيموا حول قبري قَدْرَ ما تُنحرُ جَزُورٌ ويُقْسَمُ لحمُها؛ حتى أستأنسَ بكم، وأنظرَ ماذا أُراجِعُ به رسلَ ربِّي)[1].

وقد أثنى النبي ﷺ عليه وعلى أخيه وشهِد لهما بالإيمان؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ابنا العاصِ مؤمنانِ: عَمْرو وهشامٌ**»[2].

وعن عُقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَسْلَم الناسُ، وآمَنَ عَمْرو ابنُ العاص**»[3]!.

وعن طلحة بن عبيد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ عَمْرو بنَ العاصِ من صالحي قريشٍ**»[4].

وعمرو بن العاص رضي الله عنه من المهاجرين، والمهاجرون من أولهم إلى آخرهم ليس فيهم من اتهمه أحد بالنفاق؛ بل كلهم مؤمنون مشهود لهم بالإيمان[5].

---

(١) صحيح مسلم (١٢١).

(٢) أخرجه أحمد: (٨٠٤٢)؛ وابن سعد: ١٩١/٤؛ والحاكم: ٢٤٠/٣، ٤٥٢؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦)، وصحيح الجامع (٤٥). وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه الترمذي (٤١٧٩)، وحسنه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٤) أخرجه الترمذي (٤١٨٠)؛ وأحمد: (١٣٨٢)؛ وصحَّحه الألباني بشاهديه السابقين، في الصحيحة (٦٥٣)، وصحيح الجامع (٤٠٩٥).

(٥) مجموع الفتاوى: ٦٣/٣٥.

●● وقد أمَّـر النبي ﷺ عمرو بنَ العاص على جيش (ذات السَّلاسِـل)[١] سـنة (٨هـ)، وفي الجيش أبو بكـر وعمـر وأمثالهما من عِلْيـة الصحابة، وحسبك بذلك جلالةً ومنزلةً لعمرٍو عند النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

وعن عَمْرو بن العاص قال: (بَعث إليَّ رسـول الله ﷺ فقال: «**خُذْ عليكَ ثيابَك وسلاحَك، ثم ائْتِني**» فأتيتُه وهو يتوضأ، فصَعَّد فـيَّ النظرَ ثم طَأْطأَه فقال: «**إنِّي أريدُ أن أبعثَكَ على جيشٍ، فَيُسـلِّمُكَ الله ويُغَنِّمكَ، وأَزْعَبُ لك من المال زَعْبَةً صالحةً**» قال: قلت: يا رسـول الله، ما أسلمتُ من أجلِ المال ولكنِّي أسـلمتُ رغبةً في الإسـلام وأن أكونَ مع رسـول الله ﷺ! فقال: «**يا عَمْرو، نِعْمَ المالُ الصالحُ للمرءِ الصالحِ**»)[٢].

ـ وولَّاه النبي ﷺ على (عُمَان)، وتوفي ﷺ وعمرو عاملٌ له عليها. وكان يعلِّم أهلَها الإسلام، ويجمع الصدقات[٣].

يقول التابعي الجليل الفقيه النبيل قَبِيصة بـن جابر: (صحبتُ عمرو بنَ العاص فما رأيتُ رجلاً أبينَ أو أنصعَ رأياً، ولا أكرمَ جليسـاً منه، ولا أشـبهَ سريرةً بعلانيةٍ منه)[٤].

●● وفي خلافة أبي بكر شـارك عمرٌو في حروب الردَّة والقضاء عليها، وقد عقد له الصديق لواءً.

ولمَّا تمَّ القضاء على حركة الردَّة، كتب أبو بكر إلى عمرو ـ وكان مقيماً بقُضَاعة، وهي شمال غرب السعودية ـ يخيِّره أن يبقى حيث هو، أو يسير إلى الجهاد في الشام، وكتب إليه:

---

(١) الحديث مختصر في الصحيحين: البخاري (٣٦٦٢)؛ ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه أحمد: (١٧٧٦٣)؛ والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)؛ وابن حبان (٣٢١١)، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرنؤوط. **أزعب**: أي أعطيك دفعة من المال، والزعب: الدفع.

(٣) تاريخ خليفة، ص٩٧؛ كتابي: أبو بكر الصِّدِّيق، ص٤٨٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٥٧/٣؛ المعرفة والتاريخ: ٤٥٨/١.

(وقــد أحببتُ ـ أبا عبــد الله ـ أن أفرِّغَــكَ لِما هو خيرٌ لــك في حياتك ومعادِكِ منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك).

فكتب إليه عمرو: (إني ســهمٌ من سهام الإســلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامعُ لها؛ فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضَلَها فارمِ به شيئاً إنْ جاءك من ناحية من النواحي!).

وشــارك في فتوحات الشــام، وكان أحدَ قادة جيوش المسلمين الأربعة هناك، وولاه أبو بكر على فلسطين(١).

●● وفي عهد الفاروق عمر كان لعمرٍو منزلة رفيعة، فكان من أمراء الفتح في الشام، ثم كان له الشرف الباذخ السائر مدى الدهر بأن سار عن أمر عمر على رأس الجيش الفاتح إلى مصر ففتحها ونشر الإسلام فيها، وله من الأجر ما لا يعلمه إلا الله في ذاك العمل العظيم الذي اشتهر به على مر التاريخ بأنه (فاتح مصر)، وبقي واليها طيلة خلافة عمر!.

●● وفي خلافة عثمان بقــي عَمْرٌو والياً على مصر مدة طويلة فأحســنَ السياسةَ على عادته، وتألَّب عليه السبئيون بعدما ضاقوا ذرعاً من قبضته على شــؤون البلاد ومحاصرته لهم وملاحقته فلولَهم وإبطاله مؤامراتهم! فحاولوا الوشــاية به عند أمير المؤمنين عثمان، فقطع ذو النورين دابرَ الفتنة فاستقدم عَمْراً إلى المدينة وولَّى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح.

هــذه مكانة عَمْرو عند النبي ﷺ، وتلكم هي ســيرته وأخلاقه وشــمائله وهديه وإيمانه وورعه ونُبله ومؤهلاته الفذة كما جاءت في السُّــنَّة الصحيحة، وهذه هي منزلته عند الخلفاء الراشــدين أبي بكر وعمر وعثمان؛ حيث ولي

---

(١) انظر كتابي: أبو بكر الصديق، ص٤٦٦، ٥٦٤، ٥٩٦.

الولايات وقاد الجيوش وفتح الفتوح وساس العباد، وما كان في سيرته ما يُعاب إلا ما افتراه السبئيون وكتبه المفترون من الرواة.

ويكاد (التاريخ المكذوب) لا يَذكُر عن (عَمْرو المؤمن المهاجر الصحابي الأمير الفاتح المجاهد)؛ إلا أنه مخادعٌ خبير، وماكِرٌ كبير، ومقامرٌ بمصالح الإسلام والمسلمين، وحريص على الرئاسة والولاية والمنصب والمال، وقد حاكَ في سبيل ذلك المؤامراتِ وارتكب الجنايات!.

هذه هي (الصورة النمطية) التي قمَّشها أبو مِخْنَف ونصر بن مزاحم والكلبي وأمثالهم، ونقلها الطبري والمسعودي واليعقوبي، ثم ابن الجوزي وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير والذهبي وغيرهم... حتى وصلت إلى أقلام الفتَّانين والغُثائيين والمغرِضين من الكتّاب المعاصرين، ونشروه بين العامة والخاصة وفي مختلِف المنابر الإعلامية والكتب المدرسية، بعد أن غامَ وجهُ الحق والحقيقة، وغزا التاريخُ المشوَّه لرجالاتنا عقولَ أبنائنا، وأصبح مَن يتصدى لكشف تلك الأكاذيب كأنه يفعل شيئاً نُكْراً!.

وما ذكرتُه هنا هو نبذة مختصرة مضيئة في خِضمّ الروايات المظلمة، لذَيْنَك الصحابيين الإمامين الجليلين اللذين أُنيطت بهما (قضية التحكيم)، وتم تفويض أمر الأمة إليهما؛ لتكون هادياً للقارئ في فهم ما يقومان به، ومِسْباراً للروايات الكثيرة حول هذا الحدث الجليل.

رابعاً ـ نص وثيقة التحكيم:

روى نص الوثيقة أبو مِخنف ونَصْر بن مُزاحم وإسماعيل التَّيْمي والبَلاذُرِيّ، وجاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان؛ قاضى عليٌّ على أهل العراق ومَن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل

الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين: إنَّا ننزِل عند حكم الله ﷻ وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله ﷻ بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحيى ونُميت ما أمات.

فما وجد الحَكَمان في كتاب الله ﷻ ـ وهما: أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشي ـ عَمِلا به، وما لم يَجِدا في كتاب الله ﷻ فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرقة.

وأخذ الحَكَمان من عليٍّ ومعاوية ومن الجندَيْن من العهود والمواثيق والثقة من الناس؛ أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه. وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهدُ الله وميثاقُه أنَّا على ما في هذه الصحيفة، وأنْ قد وجبتْ قضيتهما على المؤمنين، فإن الأمن والاستقامة ووضْعَ السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهدِهم وغائبِهم.

وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقُه أن يَحكُما بين هذه الأمة، ولا يَرُدَّاها في حرب ولا فُرقة حتى يُعصَيا، وأجَلُ القضاء إلى رمضان، وإنْ أحبَّا أن يؤخِّرا ذلك أخَّراه على تراضٍ منهما. وإنْ توفي أحدُ الحكمين فإن أميرَ شيعته يختار مكانه، ولا يألو من أهل المَعْدلة والقِسط. وإنَّ مكانَ قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانٌ عدلٌ بين أهل العراق وأهل الشام. وإنْ رضيا وأحَبَّا فلا يَحضرهما فيه إلا من أرادا، ويأخذ الحَكَمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وهم أنصارٌ على مَن ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظُلماً.

اللَّهمَّ إنَّا نستنصرُك على مَن تَرَك ما في هذه الصحيفة)[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٥٣ـ٥٤؛ المنتظم: ٥/١٢٢ـ١٢٣؛ البداية والنهاية: ٧/٢٧٧؛ الثقات، لابن حبان: ٢/٢٩٣ـ٢٩٤؛ مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٣٨ـ٥٤٤.

وشهد من أصحاب علي: عبد الله بن عباس والأشعث بن قيس وحُجْر بن عَدي وآخرون.

وشهد من أصحاب معاوية: حَبيب بن مَسْلَمة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأبو الأعور السُّلَمي وغيرهم.

أ ـ وقفات مع الوثيقة ومضامينها:

١ ـ جاء في بعض الروايات أن الوثيقة افتُتِحتْ بوصف علي بأنه أمير المؤمنين: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه عليٌّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: اكتُبْ اسمَه واسم أبيه، هو أميركم وليس بأميرنا! فقال الأحنف: لا تكتبْ إلا أمير المؤمنين، فقال عليٌّ: امْحُ «أمير المؤمنين»، واكتب: هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب. ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع المشركون من قبول كتابة: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله...)[١].

ويؤيد هذه الروايةَ حديثٌ صحيح أخرجه النسائي وغيره؛ في قصة مناظرة عبد الله بن عباس للخوارج، قال ابن عباس: (وأَمَّا مَحْيُ نفسِه من أمير المؤمنين: فأنا آتيكم بما ترضَون؛ إن نبيَّ الله ﷺ يوم الحُديبية صالَحَ المشركين، فقال لعليٍّ: «**اكتُبْ يا عليُّ: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله**»، قالوا: لو نَعلمُ أنك رسول الله ما قاتلناك! فقال رسول الله ﷺ: «**امحُ يا علي... واكتُبْ: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله**») الحديث[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٥٢؛ البداية والنهاية: ٧/٢٧٧.

(٢) السنن الكبرى، للنسائي (٨٥٢٢)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٧٨)؛ والحاكم: ٢/١٥٠ـ١٥٢، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وفي هذا فقهٌ عظيم من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ورغبةٌ صادقةٌ وحرصٌ تامٌّ على الصلح وحقنِ دماء المسلمين، وردٌّ على مَن يزعم أن عليّاً أُكرِه على التحكيم وأنه كان يرى خيار القتال والاستمرار فيه حتى النهاية.

٢ ـ عند كتابة (صلح الحديبية) ورفضِ عليٍّ أن يمحوَ صفة النبي ﷺ: (محمد رسول الله)، أشار الحديث النبوي إلى أنه سيكون لعليٍّ مثلُ هذا الموقف، فعندما قيل له: امحُ: محمد رسول الله، قال علي: (لا واللهِ لا أَمْحُها! فقال رسول الله ﷺ: «**أَرِني مكانَها**»، فأَرَيْتُه، فمحَاهَا، وقال: «**أَمَا إنَّ لك مثلها، ستأتِيها وأنت مُضطرٌّ!**»)[1].

فكان في هذا الموقف توطئةٌ لأمير المؤمنين علي وترغيبٌ له بالتنازل عن بعض رأيه، وحضٌّ له على قبول الصلح والتحكيم حقناً لدماء المسلمين، ولله تعالى في تقلبات الأحوال حِكَم وأمثال!.

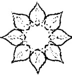
٣ ـ وفي نص الوثيقة دليلٌ واضح على سلامة التحكيم وحياده، ورغبة الطرفين في الصلح، والتسامح في شروطه متمثلاً في موقف علي من رفضِ عمرٍو كتابة: (علي أمير المؤمنين)؛ فتسامح علي في هذا رغبةً في إمضاء الاتفاق ورجاءً لتمام الصلح.

٤ ـ عمدةُ الوثيقة وأساسُها ومرجعيتُها الكتاب الكريم والسُّنَّة الشريفة، إليهما يرجع المسلمون في حالات السلم والحرب، والوفاق والخلاف، وهذا يؤكد رغبةَ الفريقين في حل مسألة النزاع، التزاماً بتوجيهات هذه المرجعية من مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ [الشورى: ١٠]، وقول النبي ﷺ: «**عليكم بالجماعة، وإياكم والفُرقة**»[2].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٥٢٣).

(٢) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد (١١٤، ١٧٧)؛ والنسائي في الكبرى (٩١٧٥)؛ والترمذي (٢٣٠٤) وقال: حسن صحيح غريب.



٥ ـ ثقة الطرفين بالحَكَمين، وأنهمــا مؤتمنان على قضية الأمة ومفوَّضان في الحكم بما يُصلح حالها ويجمع كلمتها، والتأكيد على أهليتهما وكفاءتهما ونُصحهما في معالجة هذا الأمر الخطير، ويدل على ذلك ما جاء في الوثيقة؛ (وأَخذ الحكَمان من علي ومعاوية ومن الجندَيْن من العهود والمواثيق: أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه...).

٦ ـ أعطت الوثيقة مدة طويلة نحو (٨ أشهر) لاجتماع الحكمين ومعهما رجال من الفريقين، وفي هذا رغبة صادقة وسعي جميل في إطالة مدة السلم والهدوء وإلقاء السلاح وتهدئة النفوس ومراجعة الأحداث والنظر في عواقب الخلاف، والاستفادة من وقع الآلام التي جرَّحت جسم الأمة؛ وهذه العوامل متعاضدة تدفع في اتجاه قبول الصلح والتحكيم.

٧ ـ لم يُذكَر في الوثيقة مسألتان كبيرتان: **الأولى**: خلافةُ علي وبيعتُه من قِبل أهل الشام، **والثانية**: المطالبةُ بإقامة حدِّ القصاص على قتلة عثمان ـ وفي طيِّ ذِكْرهما تأكيدٌ على حرص الفريقين علــى الصلح ووحدة الكلمة وجَمْع الصف، فإن إثارتهما ســتعيد الخلاف من جديد، ولن يصــل الحكمَان إلى نتيجة حاســمة. وهذا من عوامل التوفيق في صياغة الوثيقة ونُبْل مقصد من سعى إليها وأيَّدها، حيث تُركت المسائل الخلافية إلى رأي أعلام الصحابة.

ب ـ تاريخ التحكيم ومكانه ورجاله:

●● كتبت وثيقة التحكيم يوم الأربعاء في (١٧ صفر سنة ٣٧هـ)، ويكون الاجتماع للتحكيم في رمضان من السنة نفســها. وذكر بعضهم أن الحكومة كانت في رمضان من سنة (٣٨هـ)، وهو غلط[1].

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٢؛ تاريخ الطبري: ٥/٥٤، ٦٧؛ المنتظم: ٥/١٢٣؛ البداية والنهاية: ٧/٢٧٧، ٢٨٢. وانظر: طبقات ابن سعد: ٣/٣٣؛ تاريخ اليعقوبي: ٢/٩١؛ مروج الذهب: ٢/٣٠٧.

واجتمع الحكمان في بلدة (أَذْرُح)، كما ذكره غير واحد ورجَّحه ياقوت الحموي، وأذرح: بلدة في الجنوب الغربي من الأردن قرب البتراء. ويقال: في (دُومة الجَنْدَل) وتقع في أقصى شمال السعودية.

●● واجتمع الحكمان في الوقت المتفق عليه (بأَذرُح)، ومع كل منهما رجال كثير: فبعث علي (٤٠٠ رجل) عليهم شُريح بن هانئ الحارثي، وفيهم أبو موسى الأشعري، وبعث معهم عبدالله بن عباس وهو يصلي بهم ويلي أمورهم. وبعث معاوية عمرو بن العاص في (٤٠٠ رجل) من أهل الشام.

وشهد معهم: عبدالله بن عُمر وعبدالله بن الزبير والمغيرة بن شعبة في جماعة كثيرة. وروي أن سعد بن أبي وقّاص شهد التحكيم، وهو غلط(١).

خامساً ـ حقيقة ما جرى في التحكيم، وأكاذيب الرواة والأخبار:

●● اجتمع الحكمان وتراوضا على المصلحة للمسلمين، واتفقا على أن (أمرَ الخلافة وإمامة المسلمين) يُترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم، ويكون الأمر شورى بين المسلمين. وقد أشار أبو موسى بعبدالله بن عُمر بن الخطاب، فأبَى عمرو بن العاص وطلب من أبي موسى أن يقرَّ ابنَه عبدالله بن عمرو، فأبى أبو موسى ذلك لأن عبدالله كان مع أبيه في جند معاوية، ومع ذلك أثنى عليه خيراً(٢).

رشَّح أبو موسى الصحابيَّ الجليل عبدَ الله بنَ عمر ليقومَ بأمر الخلافة، كما ثبت ذلك في خبر صحيح؛ عن نافع مولى ابن عمر قال: (لمَّا قدِم أبو موسى وعَمرو بن العاص أيام حُكِّمَا، قال أبو موسى: لا أرى لهذا الأمر

---

(١) تاريخ الطبري: ٦٧/٥؛ المنتظم: ١٢٦/٥؛ البداية والنهاية: ٢٨٢/٧ـ٢٨٣؛ مروج الذهب: ٣٠٧/٢.

(٢) انظر: منهاج السُّنَّة: ٧١٦/٣.

غيرَ عبدالله بن عمر، فقال عمـرٌو لابنِ عمر: إنا نريد أن نُبايعَكَ، فهل لك أن تُعطى مالاً عظيماً على أن تَدَعَ هذا الأمر لمن هو أحرصُ عليه منك؟ فغضب ابن عمر فقام، فأخذ ابـن الزبير بطرف ثوبه فقال: يا أبـا عبدالرحمن، إنما قال: تُعطِي مالاً على أن أبايعك، فقال ابن عمر: ويحكَ يا عمرو! قال عمرو: إنما قلـتُ: أجرِّبك! فقال ابن عمر: لا والله لا أُعطِي عليها شـيئاً، ولا أُعطَى ولا أَقبلها إلا عن رضاً من المسلمين)(١).

وأبَى ابنُ عمر أن يتولَّـى الخلافة في ظروف اختـلاف الأمة، وأكَّد أنه لا يقبلها إلا عن إجماع المسـلمين، ولما قيل له: (إنك لو شـئتَ ما اختَلَف فيك اثنان، قال: ما أحبُّ أنها أتتني ورجلٌ يقول: لا، وآخر يقول: نعم).

وقال له آخر: (لو أقمتَ للناس أمرَهم، فـإن الناس قد رضوا بك كلّهم! فقال لهم: أرأيتم إنْ خالَفَ رجل بالمشرق؟!)(٢).

●● وروى الدارَقُطْني بسنده عن الحُضَيْن بن المنذر ـ وهو من خواصِّ أمير المؤمنين علي الذين حاربوا معه ـ قال: (لمَّا عَزل عمرٌو معاويةَ، جاء ـ أي: حُضين بن المنذر ـ فضَرب فُسـطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فأرسل إليَّ فقال: إنه بَلَغني عن هذا ـ أي: عـن عمرو ـ كذا وكذا(٣)، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه. فأتيتُه فقلت: أخبِرْني عـن الأمر الذي وليتَ أنت وأبو موسـى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلتُ لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أَرى أنه في النَّفَر الذين توفي رسـول الله ﷺ وهـو عنهم راضٍ. قلت:

---

(١) حلية الأولياء: ١/٢٩٣ـ٢٩٤، وإسناده صحيح؛ وهو في سير أعلام النبلاء: ٣/٢٢٦ـ٢٢٧.
(٢) طبقات ابن سـعد: ٤/١٥١، والأسـانيد صحيحة، وانظـر: ٤/١٦٤؛ عصر الخلافة الراشـدة، ص٤٧٣ـ٤٧٤.
(٣) أي: إن أبا موسى وعمراً لم يعزلا، ولم يوليا، ولكن تركا الأمر لأعيان الصحابة.

فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إنْ يستعِنْ بكما ففيكما معونةٌ، وإنْ يستغنِ عنكما فطالَما استغنَى أمرُ الله عنكما! قال: فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسَه. فأتيتُه فأخبرته ـ أي: أتى حُضين معاويةَ فأخبره ـ أن الذي بَلَغه عنه كما بَلَغه)[1].

•• هذا ما جرى في (مسألة التحكيم)، أما ما يرويه الأخباريون كأبي مِخْنَف ونَصْر بن مُزاحم وصاحب (الإمامة والسياسة)[2]، ونقله الطبري والبَلاذُرِيِّ وأبو حنيفة الدِّيْنَورِي واليعقوبي والمسعودي وآخرون، ثم من جاء بعدهم كابن الجوزي وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير والذهبي وغيرهم ـ قالوا:

قدَّم عمرو بن العاص أبا موسى ليتكلم بما اتفقا عليه، فتقدَّم أبو موسى فقال: (أيها الناس، إنَّا نظرنا في أمر هذه الأمة؛ فلم نرَ أصلَحَ لأمرها ولا أَلَمَّ لشعَثِها، من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأيُ عمرو عليه، وهو أن نخلع عليّاً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر، فيولُّوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعتُ عليّاً ومعاوية، فاستقبِلوا أمركم، وولُّوا عليكم مَن رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم تنحَّى.

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلَع صاحبَه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأُثبِتُ صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالبُ بدمه، وأحقُّ الناس بمقامه).

فقال أبو موسى: (ما لكَ؟! لا وفَّقكَ الله، غدرتَ وفجرتَ، إنما مَثَلُك كمثلِ الكلب إنْ تحملْ عليه يَلهثْ أو تتركْه يلهثْ!.

---

(١) العواصم من القواصم، ص١٨٠.
(٢) منسوب كذباً وزوراً للإمام ابن قتيبة.

قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً!).

وتمادت هذه الرواية التي افتراها أبو مخنف، فنَقلتْ مهاتراتٍ للصحابة، وشتائمَ بعضهم بعضاً، وأن عليّاً كان يقنتُ ويلعنُ معاويةَ وعَمْراً وجماعةً من جند معاوية، فبَلَغ ذلك معاويةَ، فردَّ بالمثل فكان يقنتُ ويلعن عليّاً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر[1]!.

وزاد المعثَّر أبو مخنف الأمرَ بجاحةً وزوراً وكذباً، فأخرج من (كيسه) رواية زجَّ فيها بابن عباس في أَتون افتراءاته في هذه القضية الخطيرة، ورمى أبا موسى بالغفلة وعمرو بنَ العاص بالغدر، قال أبو مخنف:

(فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس: وَيْحكَ! والله إني لأظنُّه قد خَدعَك، إنْ كنتما قد اتفقتما على أمر فقدِّمْه فليتكلَّمْ بذلك الأمر قبلك، ثم تكلَّمْ أنت بعده؛ فإن عَمْراً رجلٌ غادرٌ! ولا آمَنُ أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمتَ في الناس خالَفَك ـ وكان أبو موسى مغفَّلاً! ـ فقال له: إنا قد اتفقنا)[2].

•• وعلى الرغم من وهاءِ تلك الروايات وبطلانها؛ لأن رواتها متهمون وهي مرسَلات ومنقطِعات لا تبلُغ درجةَ الضعيف فضلاً عن المقبول أو الحسن ـ فقد غالَطَ الناسُ قديماً وحديثاً في فهم (قضية التحكيم)، وقالوا: إن أبا موسى وعَمْراً اتفقا على خَلْع علي ومعاوية، فخلعهما أبو موسى، واكتفى عمرو بخلع علي دون معاوية.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٥/٥٨ـ٥٩، ٦٧ـ٧١؛ المنتظم: ٥/١٢٦ـ١٢٨؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص٥٤٨ـ٥٥١؛ البداية والنهاية: ٧/٢٨٣ـ٢٨٤؛ الإمامة والسياسة، ص١٢٨ـ١٣٢؛ أنساب الأشراف (ترجمة علي)، ص٣٥٠ـ٣٥١؛ الأخبار الطوال، ص١٩٩ـ٢٠١؛ تاريخ اليعقوبي: ٢/٩٠؛ مروج الذهب: ٢/٣٠٨ـ٣١١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٧٠؛ المنتظم: ٥/١٢٧.

وأصل المغالطة من تجاهل المغرضين المغالطين أن معاوية لم يكن يومئذٍ خليفة، ولا هو ادعى الخلافة، حتى يحتاج أبو موسى إلى خلعها عنه، وأن يثبتها عمرو له دون علي!.

والحق أن أبا موسى وعَمْراً اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. واتفاقُ الحكمين على هذا لا يتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة، ولم يقاتِل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان. فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة؛ تناول التحكيم شيئاً واحداً هو (الإمامة والخلافة)، وأما التصرف العملي في إدارة البلاد، فعليٌّ متصرف في البلاد التي تحت حكمه، وكذا معاوية متصرف في البلاد التي تحت ولايته.

فالتحكيم لم يقع فيه خداعٌ ولا مكرٌ، ولم تتخلَّله بلاهة ولا غفلة، وكان يمكن أن يكون محلّاً للمكر والغفلة لو أن عَمْراً أعلن في نتيجة التحكيم أنه ولَّى معاويةَ خلافة المسلمين، وهذا لم يعلنه عمرو، ولا ادعاه معاوية رضي الله عنه، ولم يقل به أحد في الأربعة عشر قرناً الماضية. وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية، ومن ذلك اليوم فقط سُمِّي معاوية أمير المؤمنين، وسُمِّي ذلك العام ـ وهو عام (٤١هـ) ـ عامَ الجماعة؛ لاجتماع الكلمة على معاوية.

والذين يتهمون عَمْراً بالمكر والخديعة والمراوغة يفترون على هذا الصحابي الجليل، الذي امتدحه النبي ﷺ فقال: «**أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص**»! وهذه الشهادة النبوية لا تكون إلا لرجل قد ملأ الإيمان قلبه، وختم

له بالحسنى والعمل الصادق الصالح؛ فأين من هذا قول من يشكك في نيَّة عمرو وصدقِ مسعاه؟!.

إن عمراً لم يغالِط أبا موسى ولم يخادِعْه، ولم يعطِ معاوية شيئاً جديداً، ولم يقرِّر في التحكيم غير الذي قرَّره أبو موسى، ولم يخرج عما اتفقا عليه معاً، فقد بقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يدِ عليٍّ كما كانت من قبل، كما بقيت الشام وما يتبعها تحت يد معاوية، أيضاً كما كانت من قبل، وتعلَّق أمرُ الخلافة بما سيكون من اتفاق رؤوس الصحابة عليها. وإذا كانت هذه النقطة الأخيرة لم تتم فما في ذلك تقصير من أبي موسى ولا من عمرو، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب ما أدى إليه اقتناعهما واجتهادهما، ولو لم تكلفهما الطائفتان بهذه المهمة لَمَا تعرَّضا لها، ولا أبديا رأياً فيها.

وقد هزئ مؤرِّخو الإفك المفترى بعقول قرائهم، وأوهموهم أن هناك خليفتين أو أميرين للمؤمنين، وأن اتفاق الحَكَمين كان على خلعهما معاً، فخلعهما أبو موسى، وأما عمرو فمكر به إذ قدمه للكلام أولاً، وخلع عليّاً وأثبت معاوية، وهذا إفك وبهتان وكذب وافتراء[1].

●● وزاد الوضاعون الأمر سوءاً فافتروا على رسول الله ﷺ حديثاً بشأن الحَكَمين، فرووا عن سُويد بن غَفَلَة قال: (إني لأمشي مع علي بشطِّ الفرات، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل اختلَفوا، فلم يَزَل اختلافُهم بينهم حتى بعثوا حَكَمين، فَضَلَّا وأضَلَّا. وإن هذه الأمة ستختلف، فلا يزال اختلافُهم بينهم حتى يبعثوا حَكَمين فيَضِلَّان ويُضِلَّان مَن اتبعهما»!).

---

(١) انظر كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٠١ـ٦٠٣؛ تعليقات محب الدين الخطيب على: العواصم من القواصم، ص١٧٧ـ١٧٨.

يقول ابن كثير: (حديث منكَر، ورفعُه إلى رسـول الله ﷺ موضوع، إذ لو كان هذا معلومـاً عند علي لم يوافق على تحكيـم الحكمين، حتى لا يكون سبباً لإضلال الناس كما نطق به هذا الحديث)[1].

والحكمان أبو موسـى وعَمْرو من فضلاء الصحابة ونُبلائهم وأشـرافهم وأمرائهـم، وقد نُصِّبَا وحُكِّمَـا ليُصلحا بين الناس ويتفقا علـى أمرٍ فيه رفقٌ بالمسـلمين وحقن لدمائهـم، وكذلك وقع، ولـم يَضِلَّ بسـببهما إلا فرقة الخوارج حيث أنكروا على عليٍّ ومعاوية، وخرجوا عليهما وكفّروهما، حتى قاتلهم علي رضي الله عنه[2].

●● ومن المـرارة أن طرفاً من تلـك (الروايات التالفة) قد تسـللت إلى (بعض كتب الحديث)؛ فهذا عبدالـرزاق الصنعاني يروي في «مصنَّفه»، عن شيخه مَعْمر بن راشد، عن الزهري (تلك المهاترات بين أبي موسى وعمرو)، والمشاتمات بينهما والاتهام بالمكر والغدر والخيانة[3]!.

والخبر من (مرسَـلات الزهري)، ومرسلاتُه ليست بشـيء كما قال نقاد الحديث وجهابذته مثل يحيـى بن سعيد القطّان ويحيـى بن معين وغيرهما[4].

والعجب أيضاً من الحافظ الناقد ابن كثير، ومن صديقه وشـيخه الإمام الجهبذ النقاد الحافـظ الذهبي كيف صدَّقـا تلك الفرية، فقـال الذهبي في أحداث سـنة (٣٧هـ) من كتابـه «العِبر»: (وفي رمضان: اجتمع أبو موسـى

---

(١) البداية والنهاية: ٦/٢١٥ـ٢١٦، ٧/٢٨٥. والحديث آفتـه زكريا بن يحيـى الكندي الأعمى، قال ابن معين: ليس بشيء. وله رواية أخرى عن أبي موسى الأشعري، وهي باطلة أيضاً فيها راوٍ مجهول وآخر متروك. انظر: مجمع الزوائد: ٧/٢٤٥ـ٢٤٦.

(٢) البداية والنهاية: ٦/٢١٦.

(٣) مصنف عبدالرزاق: ٥/٤٦٤ـ٤٦٥.

(٤) قواعد في علوم الحديث، للتهانوي، ص١٥٦.

الأشعري ومَن معه من الوجوه، وعَمْرو بن العاص ومن معه من الوجوه، بدُومة الجَنْدل للتحكيم، فلم يتفقا لأن عَمْراً خَلَا بأبي موسى وخَدَعه!). وقال في كتاب آخر: (فمكَر به عَمْرٌو وخَدَعه)(١).

وتابعه ابن كثير فقال في ترجمة أبي موسى: (وكان أحدَ الحَكَمين بين علي ومعاوية، فلما اجتمعا خَدَع عَمْرو أبا موسى!)(٢).

هذا حال أئمتنا الحفاظ النقاد، فما ظنُّك بالأخباريين والجمَّاعين؟!.

واقرأ هذه العبارة لأحدِ كتّابنا المعاصرين، لترى فداحةَ الخَطْب الذي ابتُلي به المسلمون وتاريخُهم ورجالاتهم العظام، على أيدي من يوصفون برجال الفكر والثقافة والبحث! يقول عبدالكريم الخطيب تحت عنوان (ما بعد التحكيم):

(فالحَكَمان اللذان ارتضاهما المسلمون ليحكُما بكتاب الله، قد خانا عليّاً ومعاوية معاً، فلم يَضَعا كلَّ واحد منهما بموضعه! بل إنهما خانا كتاب الله، ولم يقضيا به، حين سوَّيَا بين أول الناس إسلاماً(٣) وآخرِ قريش دخولًا في الإسلام(٤)، ثم بين المهاجر والطَّليق، وبين من لم يضرب بسيفه إلا في سبيل الله ومَن ضَرب بسيفه في وجوه المؤمنين بالله! ثم لم يَرْعَيا ما لقرابةِ رسول الله والصِّهر إليه، من حق في ترجيح الأكفاء والنظراء)(٥).

وقد تقدم منا الردُّ على مثل هذا (الكلام المَوْتور) بحقِّ الصحابة، ونترك هذا الرجل وأضرابَه إلى الله ليحاسبَهم بسوء كتاباتهم التي تطعن على صحابة نبينا ﷺ.

---

(١) العبر: ٣١/١؛ معرفة القرّاء الكبار: ٤٠/١.

(٢) البداية والنهاية: ٦٠/٨.

(٣) يعني عليّاً.

(٤) يعني معاوية.

(٥) كتابه: علي بن أبي طالب، ص٥١٣، وقد تجاوز فيه مفتريات الرافضة!.

•• وضمن ركام **تلك الروايات** والكتب وأعمال المؤرخين والكتّاب قديماً وحديثاً، وتلك الظلمات من الافتراءات والأباطيل ـ **ينبثق شعاع صادق مخلص يقوى مع الزمن، يحمل أعباءَه كتّاب مخلصون غيورون، يبدِّدون مظالم التاريخ وظلمات الروايات وزيوف الكتّاب**، وهو يشبه ضياء الفَجْر عندما يتنفس الصبح ويمحو ظلام الليل الدامس إيذاناً بشروق الشمس التي تكشف الحقائق أمام كل من على عينيه غشاوة!.

سادساً ـ نتائج التحكيم، وحال الحكمين، ووضع الفريقين:

•• انتهى الاجتماع في (أذْرُح) وقد اتفق الحكمان على أن يُترك النظر في أمر (الخلافة) إلى أكابر الصحابة وشورى المسلمين كما قدمنا، ولم يُحسم الخلاف بين الفريقين بسبب صعوبة الحل بشأن المسألتين المختلَف عليهما: (بيعة أهل الشام للخليفة) و(إقامة الحد على قتلة عثمان)، وما يترتب على البتِّ فيهما من نتائج خطيرة على الطرفين.

ـ وجاء في رواية أبي مخنف، عن شيخه أبي جَنَاب الكَلْبي، بعد ذِكْر المكر والخديعة من عمرو، والسذاجة والغفلة من أبي موسى: أن أبا موسى انكسر واستحيى من علي، فركب راحلته ولحِق بمكة، والتمسه أهل الشام فما وجدوه، وانصرف عمرٌو وأهل الشام إلى معاوية وسلّموا عليه بالخلافة[1]!.

وأبو مخنف: لا يوثَق به، وأبو جناب: ضعَّفوه لكثرة تدليسه، والخبر مُعْضَل فعند حادثة التحكيم لم يكن أبو جَنَاب قد خُلق بعدُ. هذا مع بطلان المَتْن كما قدمنا، لأن معاوية لم يُبايَعْ بالخلافة إلا بعد استشهاد علي.

---

(١) تاريخ الطبري: ٧١/٥؛ المنتظم: ١٢٨/٥؛ البداية والنهاية: ٢٨٤/٧.

ـ وروى أبو مخنف أيضاً: أن عليّاً بعد الفراغ من التحكيم خطب أتباعه فقال: (أَلَا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكَمَين، قد نَبذا حكمَ القرآن وراء ظهورهما، وأحيَيَا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكَما بغير حجة بيِّنة ولا سُنَّة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يَرشد، فبرئ اللهُ منهما ورسولُه وصالح المؤمنين. استعِدُّوا وتأهَّبوا للمسير إلى الشام، وأصبِحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الإثنين. ثم نزل)[١].

ونقل مثلَه المسعودي، وزاد: (مَن دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله، ولو كان تحت عمامتي هذه!)[٢].

ونحوه في «الإمامة والسياسة»[٣]، وعنه نقل عبدالكريم الخطيب[٤].

وكل ذلك من الباطل الذي يترفع عنه أمير المؤمنين علي، وتأباه سيرة الحَكَمين الجليلين، وتدحضُه الروايات الصحيحة الثابتة من هديهما، وما صَحّ عن علي من قبوله التحكيم والحكمين كما فصَّلنا القول فيه.

والأكاذيب في هذا الباب كثيرة يكفي ما مثَّلْنا به، وما أَصَّلناه من حقائق لتكونَ مِسْباراً وميزاناً يُوزن به الرواة والروايات.

•• وقد حضر عبدالله بن عمر بن الخطاب يومَ التحكيم بتشجيع من أخته أم المؤمنين حفصة، وكذلك حضره معاوية، ولم يحضر أمير المؤمنين علي. وبعد انتهاء اللقاء بين الحكمين وما نتج عن تحاورهما، كان بين ابن عمر ومعاوية موقف رواه البخاري وغيره:

---

(١) تاريخ الطبري: ٧٧/٥.

(٢) مروج الذهب: ٣١٢/٢.

(٣) ص١٣١.

(٤) كتابه: علي، ص٥١٣ـ٥١٥.

عن ابن عمر قال: (دخلتُ على حفصة ونَوْسـاتُها تَنْطُف، قلتُ: قد كان من أمر الناس ما تَرِيْنَ، فلم يُجعل لي من الأمر شيء! فقالت: اِلْحَقْ فإنهم ينتظرونكَ، وأخشـى أن يكون في احتباسِـكَ عنهم فُرْقة. فلم تَدَعْه حتـى ذهب. فلما تفرّق الناس خطب معاوية فقال: مَن كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فَلْيُطْلِعْ لنا قَرْنَه، فَلنحنُ أحقُّ به منه ومن أبيه! قال حبيب بن مَسْـلَمة: فهـلَّا أجبتَه؟ قال عبدالله: فحَلَلْتُ حُبْوَتـي وهممتُ أن أقول: أَحقُّ بهذا الأمر منك مَـن قاتَلَك وأباكَ على الإسلام، فخشِيتُ أن أقولَ كلمةً تفرِّقُ بين الجمع وتَسْفِكُ الدم ويُحمَل عنِّي غيرُ ذلك، فذكرتُ ما أَعَدَّ الله في الجِنَان! قال حبيبٌ: حُفِظْتَ وعُصِمْتَ)[١].

ومرادُ ابنِ عمر من قوله: (لم يُجعل لي من الأمر شيء): أنه يوم اجتماع الناس علـى الحكومة بينهم فيما اختلفوا فيه، فراسـلوا بقايـا الصحابة في الحرميـن وغيرهمـا، وتواعدوا على الاجتماع لينظـروا في ذلك، فشـاور ابـنُ عمر أختـه فـي التوجه إليهم أو عدمه، فأشـارت عليـه باللحاق بهم خشيـة أن ينشأ من غيبته اختـلافٌ يُفضي إلى استمرار الفتنة.

وقـد كان معاوية يرى فـي الخلافة تقديـمَ الفاضل في القـوة والرأي والمعرفة على الفاضل في السبق إلى الإسـلام والدين والعبادة، فلهذا أَطلق أنه أحقُّ. ورأيُ ابنِ عمر بخلاف ذلك، وأنه لا يُبايَع المفضولُ إلا إذا خُشـي الفتنة، ولهذا بايع بعد ذلك معاوية، ثم ابنَه يزيد ونَهى بَنيه عن نقض بيعته، وبايع بعد ذلك لعبد الملك بن مروان[٢].

●● وبقيت أوضـاع الدولة على حالها: علي خليفة المسـلمين، ومعاوية أمير الشـام، ولم يبايَع معاويـة بالخلافة إلا بعد استشـهاد علـي على يد

---

(١) أخرجه البخـاري (٤١٠٨)؛ وعبدالرزاق: ٤٦٥/٥ـ٤٦٦، وغيرهما. **نوسـاتها:** ذوائبها. **تنطف:** تقطر ماء.

(٢) الفتح: ٣٨١/٩، ٣٨٢، شرح الحديث (٤١٠٨).

الخوارج، وكانت بيعته في بيت المقدس في شهر رمضان سنة (٤٠هـ)، بعد وصول خبر استشهاد علي رضي الله عنه[١].

وجاء في «تاريخ خليفة»: أن أهل الشام بايعوا معاويةَ بالخلافة في ذي القعدة من سنة (٣٧هـ)، وكذا رواه الطبري عن أبي مِخْنَف، ورجَّحه الذهبي في «تاريخه»[٢].

وهذا لا يصحُّ البتَّةَ، بل الصواب أن بيعة معاوية بالخلافة كانت سنة (٤٠هـ)، وصالَحه الحسنُ بن علي وتنازل له عن الخلافة بعد ستة أشهر، من عام الجماعة سنة (٤١هـ)[٣].

•• وروى أبو مِخْنف ونَصْر بن مزاحم وغيرهما: أنه لمَّا تفرق الناس إلى بلادهم من صفِّين، وخرج معاوية إلى دمشق بأصحابه، ورجع علي إلى الكوفة على طريق هيت، فلما دخل الكوفة سمع رجلاً يقول: ذهب عليٌّ ورجع في غير شيء! فقال علي: لَلَّذين فارقناهم خير من هؤلاء، وأنشأ يقول:

أخوكَ الذي إنْ أَجْرَضَتْكَ مُلمَّةٌ ... من الدهرِ لم يَبرحْ لِبَثِّكَ واجِما
وليس أخوكَ بالذي إنْ تشعَّبَتْ ... عليكَ الأمورُ ظلَّ يَلْحَاكَ لائما

ثم مضى فجعل يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة بالكوفة. **ولما كان قد قارب دخول الكوفة اعتزل من جيشه قريب من (اثني عشر ألفاً) وهم الخوارج**، وأبَوا أن يساكنوه في بلده، ونزلوا بمكان يقال له: (حَرُورَاء)، وأنكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها[٤].

---

(١) البداية والنهاية: ١٣١/٨؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٧٧.
(٢) تاريخ خليفة، ص١٩٢؛ تاريخ الطبري: ٧١/٥؛ تاريخ الإسلام، للذهبي، ص٥٥٢.
(٣) البداية والنهاية: ١٣١/٨.
(٤) تاريخ الطبري: ٦٢/٥ ـ ٦٣؛ البداية والنهاية: ٢٧٩/٧. **أجرضَتْك**: أغصَّتْك. **يَلْحاك**: يلومك.

وذكر ابن سعد من طريق الواقدي: أنه بعد الذي جرى بين الحكمين، افترق الناس فرجع معاوية بالألفة من أهل الشام، وانصرف علي إلى الكوفة بالاختلاف والدَّغَل، فخرجتْ عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا: لا حُكْمَ إلا لله، وعسكروا بِحَرُورَاءَ فبذلك سُمُّوا (الحَرُورِيَّة)(١).

•• وبالجملة فإن جيش أمير المؤمنين علي قد تضعضع وحدثت فيه انقسامات خطيرة؛ وذلك لسببين: الأوّل: مخالفة السبئية وقتلة عثمان عليه. الثاني: معارضة القرّاء ـ الذين صاروا خوارج ـ للتحكيم وخروجهم عليه وقتاله لهم.

أما الفريق الأول من السبئية وقتلة عثمان: فأشدُّ ما كان يُخيفهم هو الصلحُ بين علي ومعاوية، لأنه يعني توقف القتال والتفرغَ لهم والإحاطة بهم وقطْعَ فتنتهم، ومن ثم أخذهم وإقامة الحد عليهم على مهل!.

وهذا ما تشير إليه رواية أبي مخنف ونصر بن مزاحم، عن عُمارة بن ربيعة الجَرْميِّ قال: (لمَّا كُتبت الصحيفة دُعِي الأشتر، فقال: لا صَحِبَتْني يميني، ولا نفعتْني بعدها شمالي، إنْ خُطَّ لي في هذه الصحيفة اسمٌ على صلح ولا موادَعة! أَوَ لستُ على بيِّنة من ربي ومن ضلال عدوِّي؟! أَوَلستُم قد رأيتم الظَّفَر لو لم تُجمِعوا على الجَوْر؟! فقال له الأشعث بن قيس: إنك والله ما رأيتَ ظَفَراً ولا جَوْراً، هلمَّ إلينا فإنه لا رغبةَ بك عنا، فقال: بلى والله لرغبة بي عنك في الدنيا للدنيا والآخرة للآخرة، ولقد سَفَك الله ﷻ بسيفي هذا دماءَ رجال ما أنتَ عندي خيرٌ منهم ولا أحَرمُ دماً!)(٢).

وأما الفريق الثاني في جيش علي فهم القرّاء الذين خرجوا عليه لمَّا قبِل الصلح والتحكيم، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومنها:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣٢/٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٥٤ـ٥٥.

عن عُبيد الله بن أبي رافــع: (أن الحروريَّة لمَّا خرجَتْ، وهو مع علي بن أبي طالب، قالوا: لا حُكْمَ إلا لله، قال علي: كلمةُ حق أُريد بها باطلٌ)(١).

وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل التالي.

هذا هو السبب في تخلخل جيش أمير المؤمنين علي وتضعضعه واختلافه عليه، لا كما يدعي المــزوِّرون والمغرِضون وأصحابُ الأهواء من المؤرخين والكتّاب قديماً وحديثاً؛ من أن الســبب هو مكــر عمرو بن العاص وأعمال معاوية في شراء الذمم، وغير ذلك من الأباطيل التي يفترونها.



(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦) (١٥٧)، وغيره.

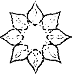
الفصل الثامن

مع وقعة صفين
(دروس وعبر، وحقائق وتوضيحات)

من خلال استعراض مقدماتِ وقعة صفين ومجريات أحداثها، ومواقفِ قادة الفريقين وعامة المسلمين فيها، وموبقات السبئية وقتلة عثمان، وما آلَتْ الأمور إليه من رفع المصاحف والتحكيم ونتائجه ـ يمكننا استخلاصُ دروس جليلة وعِبر كثيرة، وبيانُ حقائق ساطعة وتوضيحات هامة؛ نوجزها فيما يلي:

١ ـ كان السبئيون منبثِّين في جيش علي، ومتمكِّنين من إدارة الأمور وتوجيه الناس لما يريدون، وعددُهم كبير ولهم قوة وسطوة. وهذا ما زاد معاويةَ ومن معه تمسُّكاً بموقفهم من التعجيل بقتل قتلة عثمان الذين زلزلوا دولة الإسلام! ثم كان لهم اليد الطولى في إثارة الفتن أيام البصرة وفي وقعة الجمل، وهاهم أولاءِ يَخِفُّون في الفتنة الثالثة؛ فكيف يَسهُل على معاوية وأهل الشام مبايعةُ علي وفي جيشه هؤلاء؟!.

٢ ـ كان الصحابة في الفريقين ومَن سار على هديهم من الأخيار ملتزمين بأخلاق الإسلام في قتالهم، فقد كان من وصايا علي لجيشه: (لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فأنتم بحمد الله ﷻ على حُجَّة، وتركُكم إياهم حتى يبدؤوكم حجَّة أخرى لكم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل...).



بل كانوا إذا تحاجزوا، دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم.

وقال علي في قتلى الفريقين: (قتلانا وقتلاهم في الجنة).

ولمَّا قال رجل: كَفَر أهل الشام؛ أنَّبه عمار بن ياسر وقال: (لا تقولوا ذلك، نبيُّنا ونبيُّهم واحد، وقِبْلتُنا وقبلتُهم واحدة...).

وبعد الفراغ من صفين، وخروجِ الخوارج على عليٍّ، امتدح أمير المؤمنين أهلَ الشام فقال: قومٌ فارقناهم آنفاً خيرٌ من هؤلاء.

٣ ـ مع أن الخلاف بين الفريقين أدى إلى المواجهة والقتال وإزهاق الأرواح، بَيْدَ أنه لم يُذهِلِ الرجالَ عن شرف القتال وآداب الإسلام فيه، وقد تجلَّى ذلك في مواقف كثيرة، منها: قول علي في أهل الشام: (ربُّنا واحد، ودينُنا واحد، ودعوتُنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدُهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا).

ونَهى أتباعه عن سبِّ أهل الشام، وأمرهم أن يقولوا: (اللَّهمَّ احقِنْ دماءَنا ودماءهم، وأَصْلِح ذاتَ بيننا وبينهم).

ولما رجع من صفين قال: (أيها الناس، لا تكرهوا إمارة معاوية، والله لو قد فقدتُموه لقد رأيتم الرؤوسَ تَنْدُر عن كواهِلِها كالحنظل!).

وعن أبي مسلم الخَوْلاني: (أنه قال لمعاوية: أنتَ تُنازِع عليّاً في الخلافة، أَوَأَنتَ مثلُه؟ قال: لا، وإني لأعلَمُ أنه أفضَلُ منِّي وأحَقُّ بالأمر).

٤ ـ مما قدمناه عن هدي الصحابة وآدابهم في الأخبار الصحيحة؛ يتضح بطلان ما روي من (التلاعن بين الفريقين)، حتى زعم الخسَّاف المتهوِّر أبو مخنف ونصر بن مزاحم ومن سار على نهجهما: (أن عليّاً كان إذا صلَّى

الغداة يقنتُ فيقول: اللَّهــمَّ العَنْ معاوية وعَمْراً وأبا الأعور السُّــلَمي وحَبيباً وعبدالرحمن بن خالد والضحّاك بن قيس والوليد! فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لَعن عليّاً وابن عباس والأشتر وحسناً وحسيناً)(١).

وهذا الكذب الذي روَتْه كتبُ الشيعة وبعض تواريخ أهل السُّنَّة، هو مما يجب نبــذُه ورميه والنعيُ على قائله وكاتبه ومروِّجــه، فإنه لم يُروَ من طريق صحيح ولا مقبول بل ولا ضعيف، إنمــا يدبِّجه المتهمون والمتروكون ومن ليسوا بثقة، وقد زيَّفناه فيما تقدم(٢).

وقد أخطأ شــيخ الإســلام ابن تيمية حيث ســلَّم بوجود (التلاعن)، فقال: (إن التلاعنَ وقع من الطائفتين كمــا وقعت المحاربة، وكان هؤلاء يلعنون رؤوس هــؤلاء في دعائهــم، وهؤلاء يلعنــون رؤوس هؤلاء في دعائهم!)(٣).

٥ ـ ومن هــذا القَبيــل أخبــارُ وأخلوقات المشــاتمات بيــن الصحابة والمهاترات، والاتهامات بالغدر والخيانة وشــراء الذمم والمؤامرات والكيد والعبث بمصالح الإســلام والمســلمين ودولتهم، ورميُ الصحابة بمســاوئ الأخلاق ورذائل السجايا والشــيم، مما لَفَّقتْه روايات الكذابين وتناقلَتْه كتب التاريخ والأدب التي جمعــت القليل من الحق في هذا البــاب والكثير من الباطل... وهو ما يتناقض مع هــدي الصحابة وفضائلهم وأخلاقهم وتربيتهم وتزكية القرآن لهــم وثناء النبي ﷺ عليهم ونهيه عن ســبِّهم أو شــتمهم أو الإساءة إليهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٧١/٥.

(٢) انظر: ص٣٩٩ ـ ٤٠١ في هذا الكتاب، وكتابي «الحسن بن علي».

(٣) منهاج السُّنَّة: ١٢٥/٣.

وبَلَغ الإسـراف والسفه والشـطط واللَّجَاج في الباطل أن يزعم زاعم أن أصحاب الجمل وصفين الذين خالفوا عليّاً وحاربوه؛ هم: (في مصاف أبي جهل ومن إليه، حتى ولو تستروا بلفظ: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله). وهم (لصوص، وقطاع طرق، وأتباع إبليس!)[١].

٦ ـ دأبت السبئية وقتلة عثمان على إشعال الفتنة وتأجيج نار الحرب وسفك الدماء، وكانوا يستبسلون في القتال، ويحرِصون على استمرار النزاع والمواجهة، كما برهنت على ذلك وقائع معركة صفين ـ ومن قبلها الجمل ـ. ومن أبرز الأمثلة على ذلك أنه لما رُفعت المصاحف وأَرسل عليٌّ إلى الأشتر النخعي يأمره بالتوقف عن القتال، تذمَّر من ذلك وقال للرسول: (قلْ له: ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تُزِيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوتُ أن يُفتح لي، فلا تُعْجِلني!). وعندما كرَّر علي الأمرَ له، تبرَّم هو ومن معه وقال: (أمهلوني عَدْوَ الفرس، فإني قد طمعتُ في النصر!)[٢].

٧ ـ ويتفرع عن ذلك أن الذي يتحمَّل وِزْر إزهاقِ الأنفس وإراقة الدماء ـ الناجم عن استمرار القتال وتوسيع دائرته ـ هم السبئية وقتلة عثمان والغوغاء الذين ضَوَوْا إليهم وقاتلوا معهم في الفريقين. وكل من قُتل من المسلمين في الجمل وصفين؛ إنما إثمه على تلك الشراذم، لأنهم هم الذين فتحوا أبواب الفتنة وواصلوا تسعيرَ نارها! وهم الذين قتلوا عمار بن ياسر كما قتلوا من قبل طلحة والزبير وغيرهم من الأخيار، فهم (الفئة الباغية) التي عَنَاها النبي ﷺ؛ وحديث («**وَيْحَ عمار! تقتلُه الفئة الباغية**») ليس نصّاً في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل يمكن أنه أُريد به تلك العصابة

---

(١) فضائل الإمام علي، لمحمد جواد مغنية، ص١٥٥، ١٧٣ـ١٧٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٤٩، ٥٠. وانظر ما تقدم: ص ٤٤٣ في هذا الكتاب.

التي حملت عليه حتى قتلَتْه، وهي طائفة من العسكر، ومَن رضي بقتل عمار كان حكمُه حكمَها)(١).

٨ ـ ومن استقراء الأحداث يتأكد لدى الباحث رغبةُ الصحابة والتابعين لهم بإحسان والخيِّرين في الفريقين؛ بتفادي المواجهة والقتال، والسعي للصلح، والدليل على هذا طولُ مدة المواقفة وكثرةُ المراسلة بينهما، وأوامرُ عليٍّ بعدم البدء بالحرب، وقِصرُ مدة الحرب ـ لما نشبت ـ على أربعة أيام، ولم يُثخِن فيه إلا دعاة الفتنة والسبئية وقتلة عثمان ومن تابعهم من الغوغاء، وكان يغلب على القتال المدافعة والدفاع عن النفس. ولما رُفعت المصاحف أسرع رؤساء الطرفين وعامة الناس إلى وقف القتال وقبول الصلح والتحكيم.

٩ ـ قد تبيَّن باستعراض أحداث التاريخ، من لَدُن الخروج على أمير المؤمنين عثمانَ وقتله إلى موقعة صفين التي انتهت بالتحكيم وخروج الخوارج ـ أن سياسة عثمان في التسكين والكَفّ عن القتال وعدمِ إراقة ملْءِ مِحْجَمَةٍ من دم؛ هي أحسنُ وأفضلُ وأحكمُ من سياسة علي؛ فإن فتنة عثمان انتهت باستشهاده وسفك دماء قليلة، أما في عهد علي فقد سالت دماء كثيرة لا يعلمها إلا علام الغيوب!.

وإلى هذا يشير قول ابن تيمية بعدما ذكر أحاديث القعود عن الفتنة وعدم المشي فيها والسعي إليها، ولزوم البيوت وكسر القِسيّ والسيوف؛ يقول:

(ولأجلِ هذه النصوص لا يختلف أصحابنا أن تَرْكَ عليٍّ القتالَ كان أفضلَ، لأن النصوص صرَّحَتْ بأن القاعد فيها خير من القائم، والبعدَ عنها خير من الوقوع فيها. قالوا: ورُجْحَان العمل يَظهر برُجْحان عاقبته، ومن المعلوم أنهم إذْ لم يبدؤوه بقتال، فلو لم يقاتلهم لم يقع أكثر مما وقع من خروجهم عن طاعته، لكن بالقتال زاد البلاء، وسُفكت الدماء، وتنافرت

---

(١) انظر ما قدمناه: ص٤٥١ في هذا الكتاب.

القلوب، وخرجت عليه الخوارج... فظهر من المفاسد ما لم يكن قبل القتال، ولم يحصل به مصلحة راجحة، وهذا دليل على أن تركه كان أفضل من فعله، فإن فضائل الأعمال إنما هي بنتائجها وعواقبها)[١].

١٠ ـ لقد أُثقِل كاهلُ التاريخ الإسلامي ـ وبخاصة عهودُ عثمان وعلي وبني أمية ـ بتراثٍ هائل خطير من الافتراءات والأكاذيب التي حملَتْها روايات تالفة ومكذوبة، يتحمل وزرها أخباريون يغلب عليهم الهوى، فضلاً عن منزلتهم الرديئة في ميزان الجرح والتعديل، ومعهم مؤرخون وكتَّاب تناقلوا (ذاك الموروث التاريخي) عبر الزمن حتى وصل إلى عصرنا. وتكاد كتب التاريخ وأعمال جمهرة المؤرخين والمؤلفين والباحثين؛ تُطْبق على خطوط عامة هي أقرب إلى تشويه عصر الصحابة والخلفاء الراشدين، وإدانة أعمالهم والطعن عليهم، وتصويرهم بصورة رجال لا يأبهون بدين ولا مبادئ، ولا مروءة ولا أخلاق ولا آداب، وتسلُب عنهم صفة الجيل الرباني الذي اختاره الله ﷻ لحمل الرسالة، ورباه النبي ﷺ على عينه، وتواترت تزكيته في القرآن والسُّنَّة وحقائق التاريخ!.

ونحن نكرر ولا نسأم من تثبيت الحقيقة بأن جناية كبرى أصابت تاريخ تلك الحقبة، ترتبت عليها جناية أعظم على الصحابة وتاريخهم وسيرتهم وأعمالهم وإنجازاتهم!.

ولا نتردد بالتصريح المرّ بأن كثيراً من علمائنا ومؤرِّخينا قد شاركوا في تلك (الإساءة المزمنة)، ولا نجد عذراً للطبري وابن عساكر وابن الجوزي وابن الأثير والذهبي وابن كثير، وغيرهم ممن سبقهم أو جاء بعدهم؛ في نقل ذلك السخف والباطل، ثم السكوت عليه في أغلب الأحيان، حتى أصبح

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/٤٤١ـ٤٤٢؛ وانظر: منهاج السُّنَّة: ٤/٤٦٣ـ٤٦٤.

(مرجعاً محترماً!) عند الخلف من المؤرخين والكتّاب المعاصرين، فأسرع أغلبهم إلى تصديقه واعتماده وترويجه، حتى أفسدَ القلوبَ وحيَّر العقول وسَمَّم الأفكار وطَمَس وجْهَ الحق!.

كما لا نجدُ عذراً لكل من يكتب في هذا الميدان بأن يقلِّد فلاناً أو فلاناً لأنه (مؤرخ كبير)؛ فالكلمة أمانة وخطرُها يكمن في سرعة انتشارها وكثرة متلقيها، مما يستوجب الدقة والنقد والتمحيص والإنصاف والإعذار والأدب، فالقرن الأول والثاني والثالث من الصحابة والتابعين؛ من أعزِّ ما نملك من رجال وسير طاهرة.

١١ ـ لقد كان بالإمكان اتخاذُ وسائل غير السيف لتهدئة الأحوال وجمع الكلمة، ومن ذلك ما أشار به المغيرة بن شعبة وابن عباس على عليٍّ بأن لا يعزل معاوية عن إمرة الشام، بل يُبقيه في منصبه حتى يأخذ البيعة منه ومن أهل الشام، فإذا فعل ذلك وكانت المصلحة تقتضي عَزْلَه عَزَله، فإنْ رفض الطاعة يكون حينئذٍ ناكثاً باغياً، أمَّا ومعاوية في أهل الشام لم يدخلوا في طاعة علي ابتداءً، فإن هذا من أقوى أدلة من يرى صوابَ موقفهم، لا سيما والثابت أن معاوية لم يُنازع عليّاً الخلافةَ، وإنما اشترط لدخوله في طاعته القصاصَ من قتلة عثمان[(١)].

ويؤكد ذلك ويقويه ندمُ علي رضي الله عنه على القتال بعد انتهاء (وقعة الجمل)، وتألُّمه وتوجُّعه لِما جرى فيها وقُتل من السادة كطلحة والزبير وغيرهما.

بل إنه قال يوم صفين، وقد دُعي إلى التحكيم: (لو علمتُ أن الأمر يكون هكذا ما خرجتُ، اذهبْ يا أبا موسى فاحْكُمْ ولو على حَزِّ عنقي!)[(٢)].

---

(١) انظر: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر الحوالي، ص١٨٣ ـ ١٨٤؛ أحداث وأحاديث فتنة الهرج، لعبد العزيز صغير دخان، ص١٨٩.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧٢٤/٨ (١٦). سنده صحيح، تقدم: ص ٤٧٩.

ونحن نقول الآن: يجب الاستفادةُ من هذه الدروس ولو كانت موجعة مريرة، والاعتبارُ بأحداث الخروج الكثيرة في تاريخنا الطويل، والتي أُزْهِقت فيها أنفس بريئة، وأُريقت دماء زكية، وازداد الاختلاف، واتسع الخَرْق، وكثرت الفتن، وتنامت الأهواء، وطمع بنا الأعداء، وتضعضع أمر الدولة، وتوقفت حركة الفتوحات، بدل أن تُبذل تلك الجهود في القيام بواجب الدعوة والبلاغ.

١٢ ـ ونحن بعد كل هذا نؤكد في كل لحظة وكل كلمة نكتبها أننا نحبُّ الصحابة جميعاً، ونُجِلُّهم ونترضَّى عنهم، ونعلمُ بيقين إخلاصَهم وصدقهم، وحرصَهم على الحق، واستمساكَهم به، وسَعْيَهم إليه، وأنهم اجتهدوا في تلك الفتن العاصفة، والظروف الصعبة، وفي كثير من المواقف كاد الصلح أن يتمَّ وتُحقن الدماء، لولا دعاة الفتنة ومؤرّثو نارها، عليهم مِنَ الله ما يستحقون.

ونعلَمُ كذلك أن علياً رضي الله عنه أسبقُ سابقةً وأفضَلُ فضلاً من معاوية رضي الله عنه، لكننا أيضاً نلتمس العذر لهما في اجتهادهما، ونستديم الترضي عنهما، ونبرأ إلى الله ممن يقع فيهما، أو في غيرهما من الصحابة والصالحين من أهل العراق وأهل الشام. ونستحضر دوماً ذلك الموقف الرائع من الإمام الحافظ الناقد الشهير أبي زُرْعَة الرَّازِيِّ، والذي أخرجه ابن عساكر في «ترجمة معاوية» عن أبي القاسم ابن أخي أبي زرعة قال: (جاء رجل إلى عمّي فقال له: يا أبا زُرْعَة! أنا أُبغض معاوية، قال: لِمَ؟ قال: لأنه قاتَلَ عليَّ بن أبي طالب، فقال له عمّي: إنَّ ربَّ معاوية ربٌّ رحيمٌ، وخَصْمَ معاوية خصمٌ كريمٌ، فأَيْشٍ دخولُك أنت بينهما، رضي الله عنهم أجمعين؟!)(١).

(١) مختصر ابن عساكر: ٣٩/٢٥؛ ونقله عنه الحافظ في الفتح: ٤١٧/١٦ ـ ٤١٨، شرح الحديث (٧١٢١).

هذا كلام المؤمنين الذين كَشَف الله عن بصائرهم، ونوَّر قلوبهم بالإيمان وحُبِّ النبي ﷺ وأصحابه الكرام.

إذا علمتَ ما ذكرناه وأيقنتَ بــه، عرفتَ مدى افتراء ما يكتبه كثيرون من مبغضي الصحابــة أو المنحرفين عن بعضهم، ومثال ذلك ما كتبه الخسَّــاف المتهوّر (البَرْزَنْجي) في كتابه (الإشــاعة) من أن معاوية (كان طالباً للمُلك، وإنما جَعل طلب الدم وسيلة إلى طاعة أهل الشام...) إلى آخر ما قال! وذكر بعد عدة أســطر: أن يزيد وبني الحَكَم ملعونون على لسان البني ﷺ[(١)]! وفي هذا الكتاب مغامرات ومجازفات، وقد أورد فيه مؤلّفه أوابِدَ وغرائبَ وطاماتٍ وعجائبَ، وأحاديثَ ضعيفة وتالفــة وموضوعة، ومع ذلك وُضِع على غلاف كتابه (تأليف العلّامة المحقق)!.

وهذا الكتاب إنما أشــرتُ إليه لاغترار الكثيرين بــه[(٢)]، وهو مثالٌ لغيره كثير ممن خبط في هذا الباب. والكلمة مسؤولية كبيرة وخاصة في (الكتاب) وفي (حق الصحابة)، وكلٌّ منا ســيرجع إلى الله ﷻ، وسيسأله ويحاسبه عن تحري الحق وصدق الكلمات التي قالها أو كتبها أو نشرها بين الناس!



(١) انظر: الإشاعة، ص٤٤ ـ ٤٥، ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) من العجيب والمؤســف في آن واحد أن طائفة من الكتّــاب والمؤلفين يحيلون على هذا الكتــاب، وينقلون منه، ومــن يقرؤه على وجــه التمحيص يعلم مقداره فــي ميزان العلم الصحيح!.

الباب الخامس

الفتنة الخامسة
بدعة الخوارج ووقائعهم

- إخبار النبي ﷺ بفتنة الخوارج.
- لمحات عن الخوارج ومعتقدهم وصفاتهم.
- خروجهم علـى أمير المؤمنين علـي، ومناظرة علـي والصحابة لهم، وقتاله لهم ثم قتلهم، وأمر النبي ﷺ بقتالهم.
- علي يقاتل الخوارج على تأويل القرآن.
- دروس وعبر.
- استشهاد علي حلقة في سلسلة الكيد للإسلام وأهله ودولته.

الفصل الأول

إخبار النبي ﷺ بفتنة الخوارج

لما رفع أهل الشـام المصاحف ودَعَوا إلى الصلح وتحكيمِ كتاب الله تعالى، قبِـل ذلك أمير المؤمنين عليٌّ وأكثر مـن كان معه، لكن اعترضَتْ عليه طائفـة من جيشـه كانوا يُسـمَّون (القـرَّاء)، وخرجوا عليـه فعُرفوا بالخوارج.

وقد جاء الحديث عنهم مطولاً ومفصلاً في كتب السُّنَّة والتاريخ وغيرها، وفيها: أن رسـول الله ﷺ قد أَمر بقتالهم، وأوضح صفاتهـم، وأخبر عليّاً بأنه سـيقاتلهم. وجاءت الأحداث بمصداق نبوءاتـه ﷺ، فقاتلهم علي وهزمهم وأطفأ فتنتهم، لكن جذوة بدعتهم لم تنتهِ بل استمرت دهراً طويلاً[1].

أولاً ـ إخبار النبـي ﷺ بظهـور الخـوارج ووقتـه والطائفـة التـي تقاتلهم وتقتلهم:

عن أبي سـعيدٍ الخُـدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسـولُ الله ﷺ: «**تَفْتَـرِقُ أُمَّتي فِرْقَتَيْنِ، يَمْرُقُ بينَهما مـارِقَةٌ، تَقْتُلُهم أَوْلَى الطائِفَتَيْنِ بالحَقِّ**» لفظ النسـائي.

وفي رواية لمسلم وأحمد: «**يَقْتُلُهم أَقْرَبُ الطَّائِفتَيْنِ من الحَقِّ**».

---

(١) انظر كتابي: نبوءات الرسول ﷺ: ٢/١١٤ـ١٤١.

وفي رواية أخرى لعبد الرزاق وأحمد والبغوي: «**لا تقومُ السَّاعة حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ، دَعْوَاهُما واحدةٌ، تمرُقُ بينهما مارِقةٌ، يَقْتُلُها أَوْلَى الطَّائفتينِ بالحقِّ**»[1].

ثانياً ـ إخبار النبي ﷺ بصفات الخوارج:

١ ـ عن سُوَيْد بن غَفَلَة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إذا حَدَّثْتُكم عن رسولِ الله ﷺ حَديثاً، فواللهِ لأَنْ أَخِرَّ من السماءِ أَحَبُّ إليَّ من أنْ أَكْذِبَ عليه، وإذا حَدَّثْتُكُم فيما بَيْنِي وبَيْنِكُم فإنَّ الحربَ خدْعَةٌ. وإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سَيخرُجُ قومٌ في آخِرِ الزمانِ: أَحْدَاثُ الأَسْنانِ، سُفَهاءُ الأَحْلامِ، يَقُولونَ من خيرِ قولِ البَرِيَّةِ، لا يُجاوِزُ إيمانُهم حَنَاجِرَهُم، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كَما يَمْرقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ. فأَيْنَما لَقِيتُمُوهُم فَاقْتُلُوهُم؛ فإنَّ في قَتْلِهِم أَجْراً لِمن قَتَلَهُم يومَ القيامةِ**»)[2].

٢ ـ وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: (بينما نحنُ عند رسولِ الله ﷺ، وهو يَقْسِمُ قَسْماً، أتاهُ ذو الخُوَيْصِرَة، وهو رجلٌ من بني تَميمٍ، فقال: يا رسول الله! اعْدِلْ! فقال: «**وَيْلَك! ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ؟! قد خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لم أَكُنْ أَعْدِلْ**». فقال عمر: يا رسولَ الله! ائْذَنْ لي فيه فأَضْرِبَ عُنُقَه، فقال: «**دَعْهُ، فإنَّ له أصحاباً: يَحْقِرُ أحدُكُم صلاتَهُ مع صلاتِهِم، وصيامَهُ مع صيامِهِم، يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤) (١٥٠)؛ وأبو داود (٤٦٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٥٧) و(٨٥٠١) و(٨٥٠٢) و(٨٥٠٣) و(٨٥٠٤)؛ والطيالسي (٢١٦٥)؛ وعبدالرزاق (١٨٦٥٨)؛ وأحمد: (١١١٩٦) و(١١٢٧٥)؛ وأبو يعلى (١٢٤٦) و(١٢٧٤)؛ وابن حبان (٦٧٣٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري(٦٩٣٠) واللفظ له؛ و(٣٦١١) و(٥٠٥٧)؛ ومسلم (١٠٦٦)؛ وأبو داود (٤٧٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (٣٥٥١) و(٨٥١١)؛ والصغرى: ١١٩/٧؛ والطيالسي (١٦٨)؛ وأحمد (٦١٦) و(٩١٢)، وغيرهم.

الرَّمِيَّةِ؛ يُنْظَرُ إلى نَصْلِه فلا يُوجد فيه شيء، ثم يُنظرُ إلى رِصَافِه فما يوجدُ فيه شيء، ثم يُنظرُ إلى نَضِيِّه ـ وهو قِدْحه ـ **فلا يوجدُ فيه شيء، ثم يُنظر إلى قُذَذِه فلا يوجدُ فيه شيء، قد سَبَق الفَرْثَ والدَّمَ، آيتُهم رجلٌ أسودُ إحدى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، ويَخْرُجُون على حينِ فُرْقةٍ من الناسِ**».

قال أبو سعيدٍ: فأشهدُ أنِّي سمعتُ هذا الحديثَ من رسولِ الله ﷺ، وأشهدُ أن عليَّ بنَ أبي طالبٍ قاتَلَهُم وأنا معه، فأَمَر بذلكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فأُتِيَ به، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ النبيِّ ﷺ الذي نَعَتَهُ).

وفي رواية أخرى: «**يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُم، يَمْرُقُون من الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أهلَ الإسلامِ، ويَدَعُونَ أهلَ الأَوْثانِ، لَئِنْ أنا أَدركْتُهم لأَقْتُلَنَّهم قَتْلَ عادٍ**»[(١)].

٤ ـ وعن يُسَيْر بنِ عَمْرو قال: (قلتُ لسَهْلِ بن حُنَيف: هل سمعتَ النبيَّ ﷺ يقولُ في الخوارجِ شيئاً؟ قال: سمعتُه يقول، وأَهْوَى بيدِه قِبَلَ العراقِ: «**يَخرجُ منه قومٌ يَقرؤون القرآنَ لا يُجاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُونَ من الإسلامِ مُروقَ السَّهْم من الرَّمِيَّة**») لفظ البخاري.

وفي رواية لمسلم: «**يَتِيهُ قومٌ قِبَلَ المَشْرِق مُحَلَّقَةٌ رؤوسُهُم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤) وفيه أطرافه، و(٣٦١٠) واللفظ له؛ ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨)؛ وأبو داود (٤٧٦٤)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٣٥) و(٨٥٠٧) و(٨٥٠٨) و(١١١٥٦)؛ وفي الصغرى: ٨٧/٥ ـ ٨٨؛ وابن ماجه (١٦٩)؛ وعبد الرزاق (١٨٦٤٩)؛ وأحمد: (١١٠٠٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٤)؛ ومسلم (١٠٦٨)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٣٦)؛ وأحمد: (١٥٩٧٧)، وغيرهم.

ثالثاً ـ إخبار النبي ﷺ بصفة رجل من الخوارج يسمَّى ذا الثدية وهو المخدج:

١ ـ عن سَلَمة بن كُهَيْلٍ قال: (حدَّثني زيدُ بن وَهْبٍ الجُهَنِيُّ: أنَّه كان في الجيشِ الذين كانوا مع عليٍّ رضي الله عنه، الذينَ ساروا إلى الخَوَارِجِ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أيها الناسُ! إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يَخْرجُ قومٌ من أمَّتي يَقرؤونَ القرآنَ، ليس قراءتُكم إلى قراءتِهِم بشيء، ولا صَلَاتُكُم إلى صَلَاتِهِم بشيء، ولا صِيَامُكُم إلى صيامِهِم بشيء، يَقرؤونَ القرآنَ يَحْسَبُونَ أنَّه لَهُم وهو عَليهم، لا تُجاوِزُ صَلاتُهم تَراقِيَهُم، يَمْرُقونَ من الإسلامِ كما يمرق السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ. لو يَعْلَمُ الجيشُ الذين يُصِيبُونَهُم ما قُضِيَ لهم على لسانِ نَبِيِّهِم ﷺ؛ لاتَّكَلُوا عنِ العملِ. وآيةُ ذلك: أنَّ فيهم رجلاً لهُ عَضُدٌ وليس له ذِراعٌ، على رأسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عليه شَعَراتٌ بِيضٌ**» فَتَذْهَبُونَ إلى معاويةَ وأهلِ الشامِ، وتَتْرُكُون هؤلاءِ يَخْلُفُونَكُم في ذَرارِيِّكُم وأموالِكُم؟! واللهِ إنِّي لأَرْجُو أن يَكونوا هؤلاءِ القومَ؛ فإنَّهم قد سَفَكُوا الدَّمَ الحرامَ؛ وأغارُوا في سرْحِ الناسِ، فسِيرُوا على اسْمِ اللهِ.

قال سَلَمة بن كُهَيْل: فَنَزَّلَني زيدُ بن وَهْبٍ مَنْزِلاً، حتى قال: مَرَرْنا على قَنْطَرةٍ، فلما الْتَقَيْنا وعلى الخوارجِ يومئذٍ عبدُ الله بن وَهْب الرَّاسِبِيُّ، فقال لهم: أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وسُلُّوا سُيُوفَكُم من جُفُونِها، فإنِّي أَخافُ أن يُنَاشِدُوكُم كما ناشَدُوكُم يومَ حَرُورَاءَ. فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا برِمَاحِهِم، وسَلُّوا السيوفَ، وشَجَرَهُمُ الناسُ برِمَاحِهِم. قال: وقُتِلَ بعضُهم على بعضٍ، وما أُصِيبَ من الناس يومئذٍ إلا رَجُلان.

فقال علي رضي الله عنه: الْتَمِسُوا فيهمُ المُخْدَجَ. فالتَمَسُوه فلم يَجدوه. فقام علي رضي الله عنه بنَفْسِه، حتى أَتى ناساً قد قُتِل بعضُهم على بعضٍ، قال: أَخِّرُوهُم، فوَجَدُوه ممَّا يَلي الأرضَ! فكبَّر، ثم قال: صَدَقَ الله، وبَلَّغَ رسولُه! قال: فقام

إليه عَبِيدَةُ السَّلْمَانيُّ فقال: يا أمير المؤمنين! آللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ؛ لَسَمِعْتَ هذا الحديثَ من رسـول الله ﷺ ؟! فقال: إِيْ واللهِ الـذي لا إلٰهَ إلا هو! حتى اسْتَحْلَفَه ثلاثـاً، وهو يَحْلِفُ له).

وفي رواية عن عَبِيدَةَ السَّـلْمانيِّ: (عن عليٍّ، قال: ذَكَر الخوارجَ، فقال: فيهم رجلٌ مُخْدَجُ اليـدِ، أو مُودَنُ اليـدِ، أو مَثْدُونُ اليدِ، لـولا أن تَبْطَرُوا لحدَّثْتُكم بما وَعَدَ اللهُ الذين يَقتُلونَهم، على لسـانِ محمدٍ ﷺ. قال: قلت: أَنْتَ سـمِعْتَهُ من محمدٍ ﷺ ؟ قال: إِيْ ورَبِّ الكعبـةِ، إِيْ وربِّ الكعبةِ، إِيْ وربِّ الكعبةِ)[1].

٦ ـ وفي حديث أبي سعيد الخدري السـابق: **«آيَتُهم رجلٌ أسودُ، إِحدى عَضُدَيْه مِثْلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ»**[2].



---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦) و(١٥٦) و(١٥٥) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٧٦٣) و(٤٧٦٨)؛ والنسائي في الكبـرى (٨٥١٦) و(٨٥١٧) و(٨٥١٨) و(٨٥١٩) و(٨٥٢٠)؛ وابن ماجـه (١٦٧)؛ وعبدالرزاق (١٨٦٥٠) و(١٨٦٥٢)؛ وأحمد (٦٢٦) و(٧٣٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨)، وغيرهما.

الفصل الثاني

لمحات عن الخوارج ومعتقدهم وصفاتهم

أولاً ـ كلمة بين يدي هذه الأحاديث:

روى حديثَ الخوارج خمسةٌ وعشرون صحابيّاً، منهم: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عمرو، وابن عباس، وأبو ذر، وأبو سعيد الخدري، وأبو بَكْرة، وأنس بن مالك، وجابر، وحذيفة، وسعد بن أبي وقّاص، وعمار بن ياسر، وأبو بَرْزَة، وأبو هريرة. ومجموعها يفيد القطع بصحة خبرهم عن رسول الله ﷺ(١).

وفي حديث الخوارج جملة من معجزات رسول الله ﷺ، وعدد من أعلام نبوته ﷺ، أخبر بها، ففصَّل وأَجْمَل، وجاءت كلها تماماً كما أخبر، ومن ذلك:

١ ـ أنهم يخرجون على حين فرقة من المسلمين.

٢ ـ تقتلهم أولى الطائفتين بالحق.

٣ ـ أنهم أحداث أغرار.

٤ ـ سفهاء الأحلام والعقول.

٥ ـ يتعبدون كثيراً ويغالون مع تنطُّع وقلة فهم.

---

(١) الفتح: ٦٢/١٦، شرح الحديثين (٦٩٣٣، ٦٩٣٤).

٦ ـ أنهم يحملون آيات الله على غير المراد منها.

٧ ـ أنهم يقتلون أهل الإسلام ويَدَعُون أهل الأوثان.

٨ ـ فيهم المخدج الذي إحدى يديه مثل ثدي المرأة.

وغير ذلك مما سيتضح خلال الشرح.

ثانياً ـ لمحة عن الخوارج ومعتقدهم(١):

•• **الخوارج**: جمع خارجة؛ أي: طائفة، وهم قوم مُبتدِعون، سُمُّوا بذلك لخروجهم عن الدين، ولخروجهم على الجماعة وعلى خيار المسلمين.

وكان يُقال لهم: القرَّاء؛ لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة، إلا أنهم كانوا يتأوَّلون القرآن على غير المراد منه، ويستبدُّون برأيهم، ويتنطَّعون في الزهد والخشوع وغير ذلك(٢).

وكانوا في جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فلما رضي بالتحكيم، أنكروا عليه ذلك، وخرجوا عليه فَسُمُّوا (الخوارجَ).

ولمَّا اتفق أهل الشام وأهل العراق على أن يجتمع الحَكَمان بعد مدة في مكان وسط بين الشام والعراق، ويرجع العسكران إلى بلادهم إلى أن يقع الحُكْم، فرجع معاوية إلى الشام، وعاد علي إلى الكوفة ـ فارقه الخوارج ونزلوا قريةً بظاهر الكوفة تسمى (حَرُورَاءَ)، فسُمُّوا (الحَرُورِيَّة).

---

(١) ما كتبته عن الخوارج مأخوذ من كتب السُّنَّة وشروحها عموماً: شرح السُّنَّة، للبغوي: ٢٢٤/١٠ـ٢٣٧؛ شرح مسلم، للنووي: ١٧٠/٤ـ١٨٧؛ الفتح: ٥٢٦/٨ـ ٥٢٨ (٣٦١٠ـ٣٦١١)، ٣٣/١٦ـ٦٢ (٦٩٣٠ـ٦٩٣٤)؛ مجموع الفتاوى: ٢٧٩/٣، ٣٤٩ـ٣٥٠، ٣٠/١٣ـ٣٥، ٣٧، ٤٨ـ٤٩، ٤٦٨/٢٨ـ٤٧٦، ٥٣/٣٥ـ٥٧؛ تاريخ الطبري: ٦٤/٥ـ٩٢؛ البداية والنهاية: ٢٨٥/٧ـ٣١٠.

(٢) الفتح: ٣٤/١٦.

وأول بدعة حدثت في الإسلام هي بدعة الخوارج، ظهرت في أثناء خلافة علي رضي الله عنه، بل أولهم ظهر في حياة النبي ﷺ وهو ذو الخويصرة، الذي قال لرسول الله ﷺ: (يا محمد! اعدل!)[١].

ولبدعتهم مقدمتان:

الأولى: أن مَن خالَفَ القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه، فهو كافر.

الثانية: كفَّروا عثمان وعليّاً وأهل الجمل وصفين ومن رضي بالتحكيم[٢].

وكانوا يتأوَّلون القرآن على غير المراد منه، ويستبدُّون برأيهم، وطعنوا على عثمان رضي الله عنه، واعتقدوا كُفْره ومَن تابعه، واعتقدوا إمامة علي رضي الله عنه وكُفر من قاتله من أهل الجمل، وقاتلوا مع علي أهل الشام بصفين، ولمّا رُفعت المصاحف ودُعي إلى التحكيم، ورضي علي؛ أنكروا عليه قبولَه، ثم خرجوا عليه، فراسَلَهم في الرجوع، فأصروا على الامتناع حتى يشهد على نفسه بالكفر لرضاه بالتحكيم ويتوب، ثم راسلهم أيضاً، فأرادوا قَتْلَ رسوله. ثم اجتمعوا على أن من لا يعتقد معتقدهم؛ يَكْفُر ويُباح دمه وماله وأهله. وانتقلوا إلى الفعل، فاستعرضوا الناس فقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين[٣].

ومن معتقداتهم الباطلة: إكْفَارُهم أهلَ الذنوب، وأنهم لا يتمسَّكون من السُّنَّة إلا بما فُسِّر مُجْمَلُها دون ما خالَفَ ظاهر القرآن عندهم[٤].

وأبطَلُوا رجمَ المُحصَن، وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حال حيضها، وكَفَّروا مَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادراً، وإن لم يكن قادراً فقد ارتكب كبيرة، وحُكْم مرتكب

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٧٩/٣، ٣٥٠، ٣١/١٣ـ٣٢، ٤٧٦/٢٨.

(٢) الفَرق بين الفِرق، ص٧٣؛ مجموع الفتاوى: ٣١/٣.

(٣) الفتح: ٣٥/١٦ـ٣٦.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣٠/١٣، ٣٧، ٤٨.

الكبيرة عندهم حُكم الكافـر، وكَفُّوا عن أموال أهل الذمة وعن التعرض لهم مطلقاً، وفتكوا فيمن يُنسب إلى الإسلام، فالقتلُ والسبيُ والنهبُ: فمنهم من يفعل ذلك مطلَقاً بغير دعوة منهم، ومنهم من يدعو أولاً ثم يفتك(١)!.

•• **اختلف العلماء في تكفير الخوارج(٢)، حتى قال المازَرِيُّ: (وقد كادت هذه المسألة تكون أشد إشكالاً من سائر المسائل)(٣).**

وقد قال بكفرهم جماعة من العلماء، وبذلك صرح القاضي أبو بكر بن العربي في «شـرح الترمذي»، قال: (الصحيح أنهم كفار لقوله ﷺ: «**يمرقون من الإسلام**»، ولقوله: «**لأقتلنهم قتل عاد**» وفي لفظ: «**ثمود**»، وكل منهما إنما هلك بالكفر، ولقوله: «**هم شرّ الخلق**» ولا يوصف بذلك إلّا الكفار، ولقوله: «**إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى**»، ولحكمهم على كل من خالف معتقدهم بالكفر والتخليد في النار، فكانوا هم أحق بالاسـم منهم). وممن جنح إلى ذلك من أئمة المتأخرين الشيخ تقي الدين السُّبْكي(٤).

قال الحافظ: (وذَهَب أكثَرُ أهل الأصول من أهل السـنَّة إلى أن الخوارج فُسَّاق، وأن حُكْم الإسـلام يجري عليهم لتلفُّظِهم بالشـهادتين، ومواظبتِهم على أركان الإسلام. وإنما فُسِّقوا بتكفيرهم المسـلمين مستندين إلى تأويل فاسد، وجرَّهم ذلك إلى اسـتباحةِ دماء مخالفيهم وأموالهم، والشهادةِ عليهم بالكفر والشرك. وقال الخَطَّابي: أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج مع ضلالتهم فرقة من فرق المسلمين، وأجازوا مناكحتهم وأكلَ ذبائجهم، وأنهم لا يُكَفَّرون ما داموا متمسكين بأصل الإسلام).

---

(١) الفتح: ٣٦/١٦.
(٢) شرح مسلم، للنووي: ١٦٧/٤ ـ ١٧٧؛ الفتح ٥٨/١٦ ـ ٦٠، فيهما تفصيل أقوال العلماء.
(٣) شرح مسلم، للنووي: ١٧٦/٤.
(٤) الفتح: ٥٨/١٦.

وقال الغزالي في «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»: (**والذي ينبغي: الاحترازُ عن التكفير ما وَجَد إليه سبيلاً، فإنَّ استباحةَ دماءِ المصلِّين المُقِرِّين بالتوحيد خطأٌ، والخطأ في تَرْكِ ألفِ كافر في الحياة أهونُ من الخطأ في سفك دمٍ لمسلم واحد**)[١].

ويؤيد القولَ بعدم إكفارهم ما أخرجه ابن أبي شيبة بإنساد صحيح عن طارق بن شهاب قال: (كنت عند علي، فَسُئل عن أهل النهر[٢]: أَهُمْ مشركون؟ قال: من الشرك فَرُّوا، قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلّا قليلاً، قيل له: فما هم؟ قال: قومٌ بَغَوا علينا)[٣].

ثالثاً ـ شرح معاني صفاتهم التي جاءت في الأحاديث:

ـ «**أحداث الأسنان**» وفي رواية: «**حدثاء الأسنان**»: شباب صغار في العمر.

ـ «**سفهاء الأحلام**»: أي عقولهم صغيرة رديئة، والسَّفَه: الخِفَّةُ في العقل والجهلُ.

ـ «**يقولون من خير قول البرية**»: هذا مقلوب، والمراد: «**من قول خير البرية**»[٤]: وهو القرآن، وَيَحْتَمِل أن يكون على ظاهره، والمراد: القول الحسن في الظاهر وباطنه على خلاف ذلك، كقولهم: (لا حكم إلّا لله).

ـ «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**»: أي يؤمنون بالنطق لا بالقلب.

ـ «**يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرَّمِيَّة**»، وفي رواية: «**يمرقون من الإسلام**»: الرَّمِيَّة: هي الصيد المَرمي. شبَّه مروقهم من الدين بالسهم الذي

---

(١) الفتح: ٥٩/١٦.
(٢) يعني: الخوارج.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٧٤٣/٨.
(٤) جاء هكذا في رواية أحمد: في مواضع من «المسند».

يُصيب الصيدَ فيدخل فيه ويخرج منه، ومن شدة سرعة خروجه لقوة الرامي لا يَعلق فيه من جسد الصيد شيء.

- «**فإذا لقيتموهم فاقتلوهم**»، وفي رواية «**لئن أدركتُهم لأقتلنَّهم قتلَ عاد**»: وقد استشكل بعضهم هذا مع أن النبيَّ ﷺ نهى عمر وخالدًا عن قتل ذي الخويصرة. وأُجيب بأنه أراد إدراك خروجهم واعتراضهم المسلمين بالسيف، ولم يكن ظهر ذلك في زمانه، وأول ما ظهر في زمان علي كما هو مشهور.

- «**لقد خِبْتَ وخَسِرْتَ**»: روي بفتح التاء وبضمِّها فيهما، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبتَ أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدلُ، لكونك تابعاً ومقتدياً بمن لا يعدل. والفتح أشهر.

واختار (فتح التاء) ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم.

- «**يَحْقِر أحدكم صلاته...**»: أي هم كثيرو الصلاة والصيام، من رآهم على ذلك يستقلُّ ويستصغر صلاته وصيامه مع صلاتهم وصيامهم.

- «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم**»، وفي رواية: «لا يجاوز حناجرهم»: أي لا تفقهه قلوبهم، ويَحملونه على غير المراد منه، ولا ينتفعون بما تلَوْا منه، ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق إذ بهما تقطيع الحروف.

ويَحتمِل أن يكون المراد أن قراءتهم لا يرفعها الله تعالى ولا يتقبلها.

- «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر في قذذه... نَصْله... رصافه... نَضِيّه... قد سبق الفَرْثَ والدَّمَ**»: أي يخرجون من الإسلام بغتةً، كخروج السهم إذا رماه رامٍ قوي الساعد، فأصاب ما رماه، فَنَفَذَ منه بسرعة بحيث لا يعلق بالسهم ولا بشيء منه من المرمي شيء، فإذا التمس الرامي سهمه وجده ولم يجد الذي رماه، فينظر في السهم ليعرف هل أصاب

أو أخطأ، فإذا لم يره علق فيه شيء من الدم ولا غيره؛ ظن أنه لم يُصِبْه والفرض أنه أصابه، وإلى ذلك أشار بقوله: «**سبق الفرث والدم**»: أي جاوزهما ولم يتعلق فيه منهما شيء بل خرجا بعده.

نصله: هو حديدة السهم.

رصافه: هو مدخل النصل من السهم.

نَضِيّه: هو القِدْح، أي عود السهم قبل أن يُراش ويُنْصل، سُمِّي بذلك لأنه بُرِي حتى عاد نِضْواً أي هزيلاً.

القُذَذ: جمع قُذَّة، وهي ريش السهم.

- «**آيتهم**»: علامتهم.

- «**مثل ثدي المرأة أو مثل البَضْعَة**»: أي القطعة من اللحم.

- «**تَدَرْدَرُ**»: أي تتحرك وتذهب وتجيء.

- «**لأقتلنَّهم قتلَ عاد**»: أي قتلاً فلا يبقي منهم أحداً، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ** ﴾ [الحاقة: ٨]، ولم يُرِدْ أنه بقتلهم بالآلة التي قُتِلت بها عاد بعَيْنِها.

- «**يَتيه قوم قِبَلَ المشرق**»: أي يذهبون عن الصواب وعن طريق الحق.

- «**محلّقة رؤوسهم**»، وفي بعض الروايات: «سيماهم التحليق»: هو حلق شعر الرأس.

- «**المُخْدَج**»: ناقص اليد. «المُودَن»: ناقص اليد أيضاً. «المَثْدون»: هو صغيرُ اليد مُجْتَمِعُها كثُنْدُوَة الثدي وهو رأسُه.

- «**جفون السيوف**»: أغمادها.

ـ «**فَوَحَّشوا برماحهم**»: رموا بها عن بُعُد.

ـ «**وشَجَرَهُم الناس برماحهم**»: أي مددوها إليهم وطاعنوهم بها.

رابعاً ـ مجمل صفاتهم كما جاءت بها الأحاديث الصحيحة:

كثرت الأحاديث التي تحدّثت عن الخوارج وبيَّنت صفاتِهم وشبهاتِ خروجهم ودعوتَهم وحُجَجَهم، ويمكن إيجازها فيما يلي:

١ ـ حُدَثاء الأسنان صغار طائشون.

٢ ـ سُفهاء الأحلام، عقولهم ضئيلة، وآراؤهم رديئة.

٣ ـ سِيماهم التحليق وإظهار الزهد.

٤ ـ يقولون من قول خير البرية في ظاهر أحوالهم، والحقيقةُ خلاف ذلك.

٥ ـ لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فلا يستمكن في قلوبهم.

٦ ـ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم ولا تفقهه قلوبهم.

٧ ـ كثيرو الصلاة والصيام، مُغالون متنطِّعون.

٨ ـ يمروقون من الإسلام مروق السهم من الرمية.

٩ ـ استباحوا بجهلهم دماء المسلمين، فقاتلوا أهل الإسلام، وتركوا أهل الذمة والأوثان.

١٠ ـ شرار الخلق والخليقة.

١١ ـ يُؤَوِّلون آيات القرآن على غير المراد منها، وانطَلَقوا إلى آيات الكفار فجعلوها في المؤمنين.

١٢ ـ يخرجون على حين فُرقة من الناس، يبتغون الفتنة ويَهْوَوْن الشِّقاق.

١٣ ـ يعتقدون أنهم علـى الحق وغيرهم على الباطـل، لتحجُّر عقولهم وضعف رأيهم وقلة فهمهم، بل وَأَكْفَروا المسلمين بشططهم وضلالهم.

١٤ ـ يرون قتالَهم جهاداً وقَتْلَهم شـهادة، فكانوا يتنادون: (الرَّوَاحَ الرواحَ إلى الجنة).

١٥ ـ فيهم بقايا السـبئية ممـن خرجوا على عثمان وقتلـوه، وقاتلوا يوم الجمل وصفين باستماتةٍ، ورفضوا الصلح لاعتقادهم كفر خصمهم!.



الفصل الثالث

خروجهم على أمير المؤمنين علي، ومناظرة علي والصحابة لهم، وقتاله لهم ثم قتلهم، وأمر النبي ﷺ بقتالهم

•• لمَّا وقع الرضا بالتحكيم، ورجع علي إلى الكوفة، اعتزل الخوارج بِحَرُورَاءَ، وقالوا: (لا حُكْمَ إلا للهِ)، فقال علي: كلمةُ حقٍّ أُرِيد بها باطلٌ[1].

وجاء اثنان من رؤوسهم، وطَلَبا من علي أن يتراجع عن التحكيم، فأبى ذلك، فقال له أحدهما: (أَمَا واللهِ يا علي! لئن لم تَدَعْ تحكيمَ الرجال في كتاب الله ﷻ قاتلتُكَ، أطلبُ بذلك وجْهَ الله ورضوانَه! فقال له علي: بؤساً لك ما أشقاك! كأني بك قتيلاً تَسْفِي عليك الريح! قال: وَدِدْتُ أن قد كان ذلك. فقال له علي: لو كنتَ محِقّاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا، إن الشيطان قد استهواكم، فاتقوا الله ﷻ، إنه لا خير لكم في دنيا تقاتِلون عليها. فخرجا من عنده يُحَكِّمان)[2].

•• وكان جملة من خرج على أمير المؤمنين علي ثمانية آلاف من قرّاء الناس، وانضم إليهم آخرون، فبلغوا نحو اثني عشر ألفاً!.

وقد ناظرهم علي رضي الله عنه، وبعث إليهم حبر الأمة ابن عباس فناظرهم، فرجع كثير منهم إلى الحق.

---

(١) صحيح مسلم (١٠٦٦) (١٥٧)؛ السنن الكبرى، للنسائي (٨٥٠٩).

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٧٢؛ البداية والنهاية: ٧/٢٨٥. **يحكِّمان**: يقولان: (لا حُكْمَ إلا لله).

عن عُبيد الله بن عياض بن عَمْرو القارِيّ قال: (جاء عبد الله بن شدَّاد فدخل على عائشة رضي الله عنها ونحن عندها جلوس، مرجعَهُ من العراق ليالي قُتِل علي رضي الله عنه ، فقالت له: يا عبد الله بن شداد! هل أنت صادِقي عمَّا أسألُكَ عنه؟ تحدِّثُني عن هؤلاء القوم الذين قَتَلهم عليٌّ رضي الله عنه ؟ قال: وما لي لا أصدُقُك؟! قالت: فحدِّثْني عن قِصَّتِهم. قال: فإن عليّاً رضي الله عنه لما كاتَبَ معاويةَ وحَكَم الحَكَمان، خَرج عليه ثمانيةُ آلاف من قرَّاء الناس، فنزلوا بأرضٍ يقال لها: حَرُورَاء من جانب الكوفة، وإنهم عَتَبوا عليه فقالوا: انسلختَ من قميص[1] أَلْبَسَكَه الله تعالى، واسمٍ[2] سمَّاكَ الله تعالى به، ثم انطلقتَ فحكَّمْتَ في دين الله، فلا حُكْمَ إلا لله تعالى.

فلما أن بَلَغ عليّاً ما عَتَبُوا عليه وفارَقُوه عليه، فأمر مؤذِّناً فأذَّن: أن لا يَدخُلَ على أمير المؤمنين إلا رجلٌ قد حَمَل القرآن، فلما أن امتلأت الدار من قرَّاء الناس، دعا بمصحفٍ إمامٍ عظيمٍ، فوضعه بين يديه، فجعل يَصُكُّهُ بيده ويقول: أيها المصحفُ حَدِّثِ الناسَ! فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين! ما تسألُ عنه؟ إنما هو مِدادٌ في وَرَق! ونحن نتكلَّم بما رُوِّيناه منه، فماذا تُريد؟ قال: أصحابُكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتابُ الله؛ يقول الله تعالى في كتابه في امرأةٍ ورجلٍ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فأمةُ محمد ﷺ أعظمُ دماً وحُرْمةً من امرأة ورجل. ونَقَموا عليَّ أن كاتبتُ معاويةَ: كتَبَ عليُّ بن أبي طالب، وقد جاءنا سُهيل بن عَمْرو، ونحن مع رسول الله ﷺ بالحُدَيْبِيَة حين صالحَ قومَه قريشاً، فكتب رسول الله ﷺ : «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال سُهيل: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «**كيف**

---

(١) يعني: الخلافة.

(٢) يعني: أمير المؤمنين.

نكتُـبُ؟» فقال: اكتُبْ: باسْـمِكَ اللَّهمَّ، فقال رسـول الله ﷺ: «**فاكتُبْ محمد رسول الله**»، فقال: لو أعلمُ أنك رسـولُ الله لم أُخَالِفْكَ، فكتب: هذا ما صالَح محمدُ بن عبدالله قريشاً. يقول الله تعالى في كتابه: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ**﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبعث إليهم عليٌّ عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما، فخرجتُ معه، حتى إذا توسَّطْنَا عسـكرَهُم قام ابن الكَوَّاء يخطُـب الناسَ فقال: يـا حَمَلَة القـرآنِ! إنّ هذا عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، فمن لم يكن يعرفـهُ فأنا أُعَرِّفُهُ من كتاب الله ما يعرفُه به، هـذا ممَّن نَزَل فيه وفي قومـه ﴿**قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخـرف: ٥٨]، فَرُدُّوه إلى صاحِبه، ولا تُواضِعُوه كتابَ الله.

فقام خطباؤهـم فقالـوا: والله لَنُوَاضِعَنَّهُ كتابَ الله، فإن جـاء بحقٍّ نعرفه لَنَتَّبعَنَّه، وإنْ جاء بباطلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بباطِله.

فواضَعُوا عبدَ الله الكتابَ ثلاثة أيام، فرَجَع منهم أربعةُ آلاف كلُّهم تائبٌ، فيهم ابن الكَوَّاء، حتى أَدْخَلَهم على عليٍّ الكوفةَ.

فبَعثَ علي رضي الله عنه إلـى بقيَّتِهم فقال: قد كان من أَمرنـا وأَمر الناس ما قد رأيتُـم، فَقِفُوا حيث شِـئْتُم حتى تجتمعَ أمـةُ محمد ﷺ، بيننـا وبينكم أن لا تَسْـفِكوا دماً حراماً أو تَقْطَعُوا سـبيلاً أو تَظْلِمُوا ذِمّةً، فإنكم إنْ فعلتُم فقد نَبَذْنا إليكمُ الحربَ على سواءٍ إن الله لا يحبُّ الخائنين.

فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا ابنَ شداد! فقد قَتَلهم، فقال: واللهِ ما بَعث إليهم حتى قَطَعُوا السبيلَ وسَفَكوا الدمَ واستحلُّوا أهلَ الذمة، فقالت: آللهِ؟ قال: آللهِ الذي لا إلٰه إلا هو لقد كان)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٦) واللفظ له؛ والحاكم: ٢/١٥٢ـ١٥٤ وصحَّحـه ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/٢٨٠ـ٢٨١، وصحَّحه أحمد شاكر.

•• وبقي من بقي من الخوارج على رأيه وضلالته، حتى شتموا أمير المؤمنين وهو على المنبر، فبينما هو يخطُب ذات يوم، إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا علي! أشركتَ في دين الله الرجالَ، ولا حُكْمَ إلا لله! فتنادَوا من كل جانب: لا حُكْمَ إلا لله، لا حكم إلا لله! فجعل علي يقول: (هذه كلمةُ حقّ يُرادُ بها باطلٌ). ثم قال: (إن لكم علينا أن لا نمنَعَكم فيئاً ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنَعَكم مساجدَ الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤونا).

واجتمعوا في بيت عبد الله بن وَهْب الراسِبيّ، فخطَبهم خطبة بليغة، زهَّدهم فيها في الدنيا، ورغَّبهم في الآخرة والجنة، وحَثَّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: (فاخرجوا بنا إخوانَنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها إلى بعض كُوَرِ الجبال)[1].

واجتمع رأي هؤلاء الأشقياء المتنطِّعين في دين الله على الخروج من بين ظهراني المسلمين، وبَعثوا لكل من هو على رأيهم فاجتمعوا بالنَّهْرَوان، وصارت لهم شوكة ومَنَعَة، وفيهم شجاعة وبأس، وهم يعتقدون أنهم في كل ذلك متقرِّبون إلى الله ﷻ!.

وانتقلوا إلى الفعل فعاثُوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء، وقطعوا السبيل، واستحلّوا المحارم، وقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين، ومرَّ بهم عبد الله بن خَبَّاب بن الأرتّ ـ وكان والياً لعليٍّ على بعض تلك البلاد ـ ومعه سُرِّيَّةٌ وهي حامل، فقتلوه وبقروا بطن سُرِّيَّته عن ولد!.

ولقي بعضهم خِنزيراً لبعض أهل الذمة، فضربه بعضُهم فشَقَّ جلده، فقال له آخر: لِم فعلتَ هذا وهو لذميٍّ؟ فذهب إلى ذلك الذمي، فاستحلَّه وأرضاه.

(١) تاريخ الطبري: ٧٣/٥، ٧٤؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٢٥.

ومروا بنَخْلٍ فسقطت تمرة من نخلة، فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذنٍ ولا ثمنٍ؟! فألقاها ذاك من فمه!.

فَبَلغ علياً ما فعلوه من قَتْل المسلمين، فتوجَّه إليهم بجيشه، وبعث بين يديه قيس بن سعد بن عُبادة، وبعث إلى الخوارج أن ادفعوا إلينا قتلةَ إخواننا منكم حتى أقتلهم، ثم أنا تارِكُكم وذاهبٌ إلى الشام، ثم لعلَّ الله أن يُقْبِل بقلوبكم، ويردَّكم إلى خير مما أنتم عليه. فبعثوا إلى علي يقولون: كلُّنا قتلَ إخوانكم، ونحن مستحلُّون دماءهم ودماءكم. فتقدم إليهم قيس بن سعد فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم، والخَطْب الجسيم، فلم ينفع! ثم جاء أبو أيوب الأنصاري فأنَّبَهم ووبَّخَهم، فلم يَنْجَع. وتقدم إليهم أمير المؤمنين علي، فوعظهم وخوَّفَهم، وحذَّرهم وأنذرهم وتوعَّدَهم، فلم يكن لهم جواب إلا أن تنادَوا فيما بينهم: أن لا تُخاطبوهم ولا تكلِّموهم، وتهيؤوا للقاء الله ﷻ، الرواحَ الرواحَ إلى الجنة!.

وتقدَّموا واصطفُّوا للقتال، وتأهَّبوا للنزال، ووقف علي بجيشه أمامهم، وأمر أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج، ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا. فانصرف منهم طوائف كثيرون، وكانوا في أربعة آلاف، فلم يبقَ منهم إلا ألف أو أقلّ مع عبدالله بن وَهْب الراسبيِّ. فزحفوا إلى علي، فقدَّم علي بين يديه الخيل، وقدَّم منهم الرماة، وصفَّ الرجَّالة وراء الخيَّالة، وقال لأصحابه: كُفُّوا عنهم حتى يبدؤوكم. وأقبلت الخوارج يقولون: لا حُكْمَ إلا لله، الرواحَ الرواحَ إلى الجنة. فحملوا على الخيالة الذين قدَّمهم علي، ففرَّقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلَتْهم الرماة بالنبل، وعطفَتْ عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج، فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقُتل

أمراؤهم: عبد الله بن وهب، وحُرْقوص بن زهير، وشُريح بن أوفى، ولم ينجُ منهم إلا دون العشرة، ولا قُتل ممن مع علي إلا نحو العشرة.

وكان ذلك في شعبان سنة ثمان وثلاثين للهجرة[١].

وفي حديث زيد بن وَهْب ـ المتقدم ـ عن علي رضي الله عنه قال: (لمَّا كان يومُ النَّهْروان لقي الخوارجَ، فلم يَبْرَحوا حتى شَجَروا بالرماح، فقُتِلوا جميعاً. قال علي: اطلُبوا ذا الثُّدَيَّة. فطَلبوه، فلم يجدوه، فقال علي: ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، اطلُبوه! فطَلَبوه، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض، عليه ناسٌ من القتلى، فإذا رجلٌ على يده مِثْلُ سَبَلات السِّنَّوْر، فكبَّر عليٌّ والناس، وأعجَبَهم ذلك)[٢].

وفي رواية: (فقال علي رضي الله عنه: التَمِسُوا فيهم المُخْدَجَ، فالتَمَسُوه فلم يجدوه. فقام علي رضي الله عنه بنَفْسه، حتى أتى ناساً قد قُتل بعضُهم على بعضٍ، قال: أخِّروهم، فوجدوه مما يَلي الأرض، فكبَّر ثم قال: صَدَق الله وبَلَّغ رسوله)[٣].

لماذا أمر النبي ﷺ بقتلهم، بخلاف أهل الشام وأصحاب الجمل؟:

ثبت عن النبي ﷺ من وجوه أنه أَمر بقَتْل الخوارج، وبيَّن أن في قتلهم أجراً، من ذلك قوله ﷺ: «**فأينما لَقِيتُموهم فاقتُلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة**».

وقوله: «**اقتلوهم هم شرُّ البريَّة**».

وقوله: «**لَئِن أدركتُهم لأقتلنَّهم قَتْلَ ثمود**».

---

(١) تاريخ الطبري: ٨١/٥ـ٩١؛ البداية والنهاية: ٢٨٨/٧ـ٢٩٠؛ الفتح: ٣٦/١٦؛ كتابي: الخلفاء الراشدون، ص٦٢٥ـ٦٢٧.

(٢) السنن الكبرى، للنسائي (٨٥١٦). **والسنور**: حيوان من اللواحم يشبه الهر. **والسبلة**: الشارب.

(٣) صحيح مسلم (١٠٦٦) (١٥٦).

وقوله: «**لئن أدركتُهم لأقتلنَّهم قَتْلَ عاد**».

وعن عليٍّ قال: (لــولا أن تَبْطَروا لحدَّثتُكم بما وعَــدَ الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ).

وإنما أَمر الرســول ﷺ بقتالهم وقتلهم لِما عَلِمَه مما سيكون منهم الفساد الظاهر من سـفك الدماء، وأخذ الأمــوال، والخروج بالسـيف على الأمة، وقتلهم أهلَ الإســلام وتركهم أهلَ الشــرك والأوثان، وإكفارهم المسلمين، وتأويلاتهم الفاسدة لآيات القرآن وحملها على غير المراد منها بجهل وتنطع، واعتقاد أنهم أهل الحق وغيرهم كفار، دماؤهم وأموالهم حلال[1].

ولذلك قاتَلَهم الصحابة مــع أمير المؤمنين علي، ولم يختلفوا في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين[2].

بل عبَّــر أمير المؤمنين عــن فرحه بقَتْلِهــم وهو يقول: (مــا كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ)، (صَدَق الله وبلَّغ رســوله)! بخلاف ما صدر منه أيام الجمل وصفين من ندم وحزن وتوجُّع.

وأما أصحاب الجمل وأهل الشــام فهم من أهل الحــق، وإحدى الفئتين المسلمتين كما ســمَّاهم الحديث، وهم مجتهدون؛ إما مصيبون أو مخطئون، وذنوبهم مغفورة لهم، والصحابة رضوان الله عليهم جميعاً من أهل العدالة، لا يجوز أن يُحكَم عليهم بكفر ولا فسق، ومَنْ تجرأ على ذلك فقد ضلّ ضلالاً مبيناً! وأهل السنَّة الذين عصمهم الله بالدين والورع والفهم والإنصاف متفقون على عدالة الصحابة[3].

(١) انظر قريباً مما ذكرناه في مجموع الفتاوى: ٣٥/١٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٤٩/٣.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٥٤/٣٥.

وأما الخوارج فسمَّاهم الحديث (المارقين)، وأمر النبي ﷺ بقتال الخوارج ابتداءً قبل أي يقاتِلوا، بخلاف أهل الجمل وصفين، فأمر بالإصلاح أولاً، ثم إن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى تقاتل الباغية.

يقول ابن تيمية: (تواتر عنه ﷺ أنه أَمر بقتال الخوارج المارقين، الذين قاتلهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنهروان بعد خروجهم عليه بحَرُوراءَ، فهؤلاء استفاضت السنن عن النبي بالأمر بقتالهم. ولمَّا قاتَلَهم علي رضي الله عنه فَرِح بقتالهم، وروى الحديث فيهم. واتفق الصحابة على قتال هؤلاء، وكذلك أئمة أهل العلم بعدهم، لم يكن هذا القتال عندهم كقتال أهل الجمل وصفين وغيرهما، مما لم يأتِ فيه نصّ ولا إجماع، ولا حَمِدَه أفاضل الداخلين فيه، بل ندِموا عليه، ورجعوا عنه)[1].

وقال في موضع آخر: (وأما السَّلَف والأئمة فيقول أكثرهم ـ كأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم ـ: لم يُوجَد شرطُ قتال الطائفة الباغية، فإن الله لم يأمر بقتالها ابتداءً، بل أمر إذا اقتتلت طائفتان أن يُصْلَح بينهما، ثم إن بَغَت إحداهما على الأخرى قوتِلت التي تبغي)[2].



(١) منهاج السنَّة: ٤/٥٣١ ـ٥٣٢.

(٢) المرجع السابق: ٤/٣٩٠ ـ ٣٩١.

الفصل الرابع

عليّ يقاتل الخوارج على تأويل القرآن

عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: (كنَّا جُلوساً ننتظرُ رسولَ الله ﷺ، فخرج علينا مِن بعضِ بيوت نسائِه، قال: فقُمنا معه، فانقطَعَتْ نَعْلُه، فتخلَّف عليها عليٌّ يَخْصِفُها، فمضَى رسول الله ﷺ، ومضَيْنَا معه، ثم قام ينتظره وقُمنا معه، فقال: «**إنَّ منكم مَنْ يُقاتِلُ على تأويلِ هذا القرآنِ كما قاتَلْتُ على تَنْزِيلِهِ**»! فاستَشْرَفْنا، وفينا أبو بكر وعمر، فقال: «**لا، ولكنَّه خاصِفُ النَّعْلِ**» قال: فجِئنا نُبَشِّره، قال: وكأنه قد سمعه) لفظ أحمد.

وفي رواية للحاكم وغيره: (قال أبو بكر: أنا هُوَ يا رسولَ الله؟ قال: «**لا**» قال عمر: أنا هُو يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكنْ خاصِفُ النَّعْلِ**» يعني: عليّاً، فأتيناه فبشّرناه، فلم يرفَعْ به رأْسَه، كأنَّه قد كان سَمِعَه من رسول الله ﷺ)[1].

هذه معجزة لنبيِّنا محمد ﷺ، وعَلَمٌ ظاهر من أعلام نبوته، ودلالة أخرى على صدق رسالته. وفيها منقبة جليلة لأمير المؤمنين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بل في هذين الحديثين اثنان من أعلام النبوة:

(١) أخرجه أحمد: (١١٧٧٣)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٨٨)؛ وابن أبي شيبة: ٤٩٧/٧ ـ ٤٩٨؛ وأبو يعلى (١٠٨٦)؛ وابن حبان (٦٩٣٧)؛ والحاكم: ١٢٢/٣ـ١٢٣؛ والبغوي (٢٥٥٧)؛ وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (٢٤٨٧).

الأول: الإخبار بأن طائفة ستخرج في هذه الأمة تنحرف في فهم القرآن الكريم وتؤوِّل آياته على غير المراد منها، وتستبدُّ برأيها، وتتنطّع في مذهبها وتقاتِل عليه.

والثاني: أن علياً رضي الله عنه سيكون إمام الأمة وقائد الجيش الذي سيتصدى لتلك الخارجة، فيبيِّن عُوارَ رأيها، ثم يقاتِلها ويكسر فقارها. وكل ذلك وقع كما أخبر به ﷺ.

•• لقد ابتعث الله خير رسله، وأنزل عليه أعظم كتبه، وأمره بالبلاغ عنه، فقام سيدنا محمد ﷺ بأعباء الرسالة على أكمل وجْهٍ وأتمِّه، ودعا الناس سرّاً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، القريب والبعيد، والقوي والضعيف، والسَّادة والعبيد، فعاندته قريش طويلاً، وحادَّتْه وصدَّت عن سبيله، فصبر وصابر، لم تضعُف له عزيمة، ولم تَلِنْ له قناة، ولم يهدأ له بال، حتى أوصل كلمة الله سبحانه إلى الناس، وأقام عليهم الحجة.

ولم تملّ قريش في الصدِّ عنه، ومدافعته عن غايته، وتعذيب من آمن به، وبارزته بالحرب، ورفعت السيف في وجهه، ونازلها ونازلته في وقائع كثيرة فكانت العاقبة للحق، ونَصَر الله رسولَه ﷺ وأعلى كلمته؛ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، فألقتْ قريشٌ السلاحَ صاغِرة، واستسلمت مُرغَمة، ثم أسلمت راغبة أو راهبة، وارتفعت راية الإسلام في ربوع الجزيرة العربية بفضل الله تعالى، ثم بجهاد رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وصدق النبي ﷺ بأنه قد قاتل على تنزيل القرآن.

•• وبعد نحو خمس وعشرين سنة من وفاته ﷺ، آلت الخلافة إلى ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد حدثت في عهده أحداث

وفتن، من أخطرها ما كان في أواخر خلافته من خروج الخوارج عليه ومقاتلتهم له، ثم هزيمتهم وتبدد جموعهم.

وقد وصفت هذه النبوءة قتال علي للخوارج بأنه سيكون على تأويل القرآن، وهكذا كان كما أخبر النبي ﷺ.

وظهر ذلك في صفات الخوارج وأقوالهم ومعتقداتهم وأفعالهم:

١ ـ فكانوا يتأوَّلون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم، فَهُم كما وصفهم الحديث: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم**»، حيث لا تفقهه قلوبهم، ويحملونه على غير المراد منه[١].

٢ ـ وجاء وصفُهم في الحديث: «**يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم**»[٢].

٣ ـ ويكفِّرون مرتكبَ الكبيرة، ويقولون بخلوده في النار، ويستدلون لذلك بقوله تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٨١][٣].

٤ ـ ومن معتقداتهم ظَنُّهم أن القرآن يُوجِب تكفير أصحاب الذنوب، فإذا كان المؤمن هو البر التقي، قالوا: فمن لم يكن بَرًّا تقيّاً فهو كافرٌ وهو مخلَّد في النار[٤]!.

٥ ـ واعترضوا على عليٍّ في قبوله التحكيم، وأنه حَكَّم الرجالَ في أمر الله، والله تعالى يقول: ﴿ **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾ [يوسف: ٤٠، ٦٧] فكانت أول كلمة

---

(١) الفتح: ٥٢٧/٨ (٣٦١٠)، ٣٤/١٦ (٦٩٣٠).

(٢) صحيح مسلم (١٠٦٦) (١٥٦).

(٣) فتح القدير: ١٠٥/١.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣٠/١٣.

خرجوا بها قولهم: (لا حُكُـمَ إلَّا لله)، انتزعوها من تلك الآية، وخرجوا على علي ومن معه وقاتلوه لذلك، وقد بيَّن لهم علي وابن عباس خطأَهم وسوءَ فهمهم للآية الكريمة[١].

٦ ـ وقالوا: إن من لا يعتقد معتقدهم يَكفر ويُباح دمه وماله وأهله[٢].

٧ ـ ولمَّا حَكَموا بكُفْر مَن خالَفَهم، استباحوا دماءهم، فكَفُّوا عن أهل الذمة والمشركين، وسفكوا دماء المسلمين[٣].

وكما جاء في الحديث: «**يَقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان**»[٤]!.. فقتلوا عبد الله بن خَبَّاب بن الأرتْ وغيره، وتحرَّجوا من ضَرْب خنزير لرجل ذميٍّ! وهو منتهى التنطّعِ وسوءِ الفهم والانحرافِ في التأويل!.

٨ ـ وأخذوا الآيات التي نزلت في الكفار وحَمَلُوها على المؤمنين، وهو شرُّ أنواع التأويل!.

عن بُكير بن عبد الله بن الأَشَجّ: (أنه سأل نافعاً: كيف كان رأيُ ابن عمر في الحَرُوريَّـة؟ قال: كان يراهم شـرارَ الخَلْـق، انطلَقوا إلى آيـات الكفار فجعلوها في المؤمنين)[٥].

٩ ـ وأمر الإسـلام بالرحمـة بالمؤمنين والشـدة علـى الكافرين، فعكس الخوارج الآيات في ذلك، لسوء فهمهم وانحرافهم في التأويل، فكانت رحمتهم ببهائم أهل الذمة، وشدتهم الحمقاء على المسلمين واستخفافهم بدمائهم!.

---

(١) الفتح: ٥٢٨/٨، ٣٥/١٦، ٥٤، السنن الكبرى، للنسائي (٨٥٢٢).

(٢) الفتح: ٣٦/١٦.

(٣) الفتح: ٦٠/١٦ (٦٩٣٣).

(٤) صحيح مسلم (١٠٦٤) (١٤٣).

(٥) ذكره الحافظ في الفتح: ٣٨/١٦، وعزاه للطبري في «تهذيب الآثار»، وقال: سنده صحيح.

١٠ ـ ومن تأويلاتهم الفاسدة وآرائهم المنحرفة: أنهم أَبْطلوا رجْم الزاني المُحْصَن، وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حيضها، وكفَّروا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادراً، وإن لم يكن قادراً فقد ارتكب كبيرة(١)!.

١١ ـ وغَـلَا بعضُهم في الانحراف وتأويل آيات الكتاب العزيز تأويلات باطلة؛ بأن أنكر الصلوات الخمس، وقال: الواجب صلاة بالغَدَاة وصلاة بالعشيِّ، ومنهم من جوَّز نكاح بنت الابن وبنت الأخ والأخت(٢).

١٢ ـ وكانوا يعتقدون أن قتالَهم أميرَ المؤمنين عليّاً ومن معه جهادٌ، وموتَهم في سبيل ذلك شهادةٌ، فكانوا يتنادَون: الرواحَ الرواحَ إلى الجنة!.

١٣ ـ وسَمُّوا دارهم دار الهجرة، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب(٣).

هذا مجملُ مظاهر الغلوّ الاعتقادي والانحراف الفكري والعملي عند الخوارج، والتأويلات الفاسدة التي ارتكبوها، وحَمْلهم آيات القرآن الكريم على غير المراد منها؛ لأنهم كما وصفهم النبي ﷺ: «**حُدَثَاء الأسنان، سُفَهاء الأحلام، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم**».

فكان قتال أمير المؤمنين علي لهم آيةَ حقٍّ وصدقٍ لتلك النبوءة التي وصف رسول الله ﷺ فيها عليّاً بأنه «يُقاتِل على تأويل القرآن»، فصلَّى الله وسلم وبارك على من زكاه ربه سبحانه بقوله: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].



(١) الفتح: ١٦/٣٦.
(٢) الفتح: ١٦/٣٧.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/٣٥.

الفصل الخامس

دروس وعبر

١ ـ في هــذه الأحاديث المتقدمة منقبةٌ جليلــةٌ لأمير المؤمنين علي في قتاله الخوارج؛ فقد جاء في بعض الروايــات قوله ﷺ: «**فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم**».

٢ ـ وفي قصة الخوارج منقبة رفيعة لحبر الأمة عبد الله بن عباس، في مناظرته للخوارج وبراعته وقوة حجته وحسن استدلاله؛ فاستنقذ الله تعالى به أربعــة آلاف، انتقلوا من الضلال إلى الهدى، ولــه بذلك أجر هدايتهم إلى الحق.

٣ ـ وفيها حرص الصحابة رضي الله عنهم على الناس وحب الخير لهم، وســعيهم الحثيــث على هدايتهم، واســتنقاذهم من براثــن الهوى والتأويل الفاســد، وتبصيرهم بطريق الهدى والحق.

٤ ـ الكَفُّ عن قَتْل من يعتقد الخروجَ علــى الإمام، ما لم يَنصبْ لذلك حرباً أو يســتعد لذلك؛ لقولــه: «فإذا خرجــوا فاقتلوهــم». وحكى الطبري الإجماع على ذلك في حق من لا يكفر باعتقاده.

٥ ـ لا يجوز للحاكم قتال الخــوارج وقتلهم إلّا بعد إقامة الحجة عليهم، بدعائهم إلى الرجوع إلى الحق، والإعذار إليهم.

وقد التزم أمير المؤمنين عليٌّ بذلك إلى أبعد مدى، فقال لهم: (إنَّ لكم علينا أن لا نمنَعَكم فَيْئاً ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤونا).

وتقدم إليهم فنصحهم، وناظرهم، ودعاهم ورغَّبهم ورهَّبهم، ثم أرسل إليهم ابن عباس، ثم قدَّم بين يديه قيس بن سعد، ثم أمر أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان لهم ويعلن أن من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، فانصرف منهم نحو ثلاثة آلاف!

٦ ـ لا يجوز أخذ أي إنسان بجريرة غيره؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وهذا أمير المؤمنين علي يقول للخوارج بعد أن قتلوا عبد الله بن خبَّاب وأم ولده وغيرهما: (ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى أقتلهم).

٧ ـ التحذير من الغلوْ في الدين والتنطّع في العبادة وحمل النفس على أمور لم يأذن بها الشرع! فالشريعة سهلة سمحة، ودين الله متين، فيجب الإيغالُ فيه برفق، وحملُ أمور المسلمين على السلامة، وعدمُ الطعن في دينهم أو تكفيرهم والخروج عليهم بتأويل فاسد، وتفسير النصوص بغير المراد منها.

٨ ـ في ديننا مجال رحب للاجتهاد المنضبط من أهله وأصحابه، والاختلاف طبيعة البشر، وقد اختلف المسلمون قديماً وحديثاً، لكن يجب أن لا يؤدي ذلك إلى المنابذة، وشق عصا الطاعة، وتفريق كلمة المسلمين، والعبث بوحدتهم، ففي ذلك ضياع البلاد وسفك الدماء.

٩ ـ حَرَصَ الإسلام على وحدة الأمة، وحافظَ على روح الجماعة، واستأصلَ جراثيم الفرقة، وحارب مظاهر الشذوذ، وشدَّدَ النكير على أصحابها، وبلغ في ذلك حدّاً يثير الدهشة، حتى في الأشياء التي تبدو بسيطة لأول وهلة!.

قال النبي ﷺ: «**أَمَا يَخْشَى أحدُكم إذا رَفَع رأسَه قبلَ الإمام أن يجعلَ اللهُ رأْسَه رأسَ حمارٍ، أو يجعلَ اللهُ صورتَهُ صورةَ حمارٍ؟!**»(١).

وهذه الجملة النبوية ليست على غلطة رجلٍ في موقفه، بل هي على بلادة رجل في تصرفه بلادة يبست فيها نفسه حتى إن روح الجماعة لم تستطع إذابتها.

بل إن الرسول ﷺ قال: «**إنَّما جُعِل الإمامُ ليُؤتَمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا رَكَع فارْكَعُوا، وإذا قال: سمِعَ اللهُ لِمن حَمِدَه، فقولوا: ربَّنا ولكَ الحمدُ، وإذا سَجد فاسْجُدوا، وإذا صلَّى جالساً فَصَلُّوا جلوساً أجمعونَ**»(٢).

(فمنعاً للاختلاف أُسْقِطَ ركن القيام عن المقتدين، وهم أصحَّاء قادرون على الإتيان به؛ ذلك أن مَحْوَ شارات الفرقة أدنى إلى مرضاة الله من رعاية أوامر أخرى.. كذلك هدي رسول الله ﷺ)(٣).

١٠ ـ خطورة تصدُّر الجهلةِ والأغرار والسفهاء من أصحاب العقول الصغيرة والآراء الرديئة والسَّفَه والشطط في الاجتهاد وإطلاق الأحكام على الناس والجماعات والهيئات.. وقد جرَّبت الأمة هذا النوع من سفهاء

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: البخاري (٦٩١)؛ ومسلم (٤٢٧)؛ وأبو داود (٦٢٣)؛ والترمذي (٥٨٢)؛ والنسائي في الكبرى (٩٠٤)؛ وفي الصغرى: ٩٦/٢؛ وابن ماجه (٩٦١)، وغيرهم.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: البخاري (٧٣٤)؛ ومسلم (٤١٤)؛ وأبو داود (٦٠٣)؛ والنسائي في الكبرى (٩٩٥)؛ وفي الصغرى: ١٤١/٢ ـ ١٤٢؛ وابن ماجه (٨٤٦) و(١٢٣٩)، وغيرهم.

(٣) ظلام من الغرب، ص٢٩٤.

الأحلام؛ سواء ممن تولوا المسؤوليات الكبيرة والصغيرة في الحكم، أو أداروا دفة المجتمع والحركات والمنظمات، فما عادوا على الأمة إلَّا بالفساد والخراب وسوء الحال!.

إنه ينبغي الضَربُ على أيدي هؤلاء وتأخيرُهم إلى الساقة، وفرضُ الوصاية عليهم حتى لا يستبدوا بالقرار، ويُدخِلوا الأمة في متاهات طالما جرَّبَتْها وتجرَّعت كؤوسَها المُرّة!.

١١ ـ على دعاة الإسلام والمصلحين وأصحاب الحركات الإسلامية المباركة، الذين يسعون جميعاً لإعزاز دين الله ورفع رايته وتحكيم شرعه؛ أن يستفيدوا من دروس التاريخ من لدن حركة الخوارج إلى العصر الحاضر، ولا يقدِّموا المبررات للطغيان أن يبطش بهم، ويحرم الأمة من الخير الذي يحملونه.. ومعاذ الله أن نشبِّه هؤلاء المستبدِّين بخلفاء الإسلام، أو نقارن بين أصحاب الدعوات العظيمة وبين الخوارج ومن على شاكلتهم! لكننا نقول: في دراسة التاريخ وسيرورته قديماً وحديثاً؛ عبرة لأولي الألباب.



الفصل السادس

استشهاد أمير المؤمنين علي
حلقة في سلسلة الكيد للإسلام وأهله ودولته

من فضـل الله تعالى ومن حكمـة الأقدار أن النفوس الكبيـرة يُختَم لها بخاتمة جليلة شـهيرة مدوّية. وأصحاب الفضائل الكثيرة والأعمـال الجليلة يُجْـزَوْنَ الجزاء الأوفـى بما يكافئ مكانتهم وشـموخ قامتهـم ووزنهم في التاريخ وصناعة الأحداث ـ وهكذا كانت نهـاية أمير المؤمنين علي.

وهل هناك أَجَلُّ وأكرمُ وأشـهرُ وأعظمُ من أن يُرزق المرء الشهادة ويُبشَّر بالجنـة، ويَعلم هو ذلـك ويتيقَّنه، ويَمضـي في حياته والأحداث الجسـام تحتوشه ولا تسـتطيع أن تزحزحه عن يقينه الصارم بالخاتمة الرائعة والدامية في الوقت نفسـه؟! هكذا كان أمير المؤمنين علي، الذي مضى على سـبيل الخلفاء الراشـدين من قبله، فنال الشهادة والسعادة مثل ما نالها قبله الفاروق عمر وذو النورين عثمان!.

أولاً ـ الأحاديث في استشهاد علي:

١ ـ عن أبي الأسـود الدُّؤَليّ: (عن عليٍّ قال: أتاني عبد الله بن سَلَام وقد وَضعتُ رِجلي في الغَرْز وأنا أريدُ العراقَ، فقال: لا تأتِ العراقَ فإنك إنْ أتيتَهُ أصابَكَ به ذُبَابُ السَّـيف! قـال علي: وايْمُ اللهِ، لقد قالها لي رسـولُ الله ﷺ

قَبْلك! قال أبو الأسود: فقلت في نفسي: يا للهِ! ما رأيت كاليوم؛ رجلٌ مُحارَبٌ يحدِّثُ الناسَ بمثلِ هذا!)(١).

٢ ـ وعن علي بن أبي طالب: (أن رسول الله ﷺ قال: «**أشقى الأَوَّلِين عاقِرُ الناقة، وأشقى الآخِرين الذي يَطعَنُك يا عليّ**» وأشار إلى حيث يُطْعَن)(٢).

٣ ـ وعن عبد الله بن سَبُع قال: (سمعتُ علياً يقول: لَتُخْضَبَنَّ هذه من هذا، فما يَنتظِرُ بي الأَشقى؟! قالوا: يا أمير المؤمنين فأخبِرْنا به نُبِيرُ عِتْرَتَه! قال: إذنْ تاللهِ تقتلون بي غيرَ قاتلي! قالوا: فاسْتَخْلِفْ علينا، قال: لا، ولكنْ أترُكُكُم إلى ما ترَكَكُم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقولُ لربِّك إذا أتيتَهُ ـ أو: إذا لَقِيتَهُ ـ؟! قال: أقول: اللَّهمَّ تركتَني فيهم ما بدَا لك، ثم قبضْتَني إليك وأنتَ فيهم، فإنْ شئتَ أصلحتَهم، وإنْ شئتَ أفسَدْتَهم)(٣).

٤ ـ وعن عمار بن ياسر قال: (كنتُ أنا وعليٌّ رفيقَيْن في غزوة ذات العُشَيْرة...)، فذكر قصة، ثم قال: (قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُحدّثكما بأشقى الناس؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أُحَيْمِرُ ثمودَ الذي عَقر الناقة، والذي يَضْرِبُك يا عليُّ على هذه**» ووضع يده على قَرْنِه، «**حتى يَبُلَّ منها هذه**» وأَخذ بِلحْيَتِه)(٤).

---

(١) أخرجه الحميدي (٥٣)؛ وأبو يعلى (٤٩١)؛ والبزار (٢٥٧١)؛ وصحَّحه ابن حبان (٦٧٣٣)؛ والحاكم: ١٤٠/٣، واللفظ له، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٣٥/٣؛ وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٨٨) بشواهده.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧٨) و(١٣٤٠)، واللفظ له؛ وابن سعد: ٣٤/٣؛ وابن أبي شيبة: ٥٨٧/٨، وصحَّحه أحمد شاكر، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٤) أخرجه أحمد: (١٨٣٢١)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٨٥)؛ وابن هشام في السيرة: ٥٩٩/١ـ٦٠٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨١١)؛ والحاكم: ١٤٠/٣ـ١٤١ وصحَّحه، وأقره الذهبي؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط، والألباني في الصحيحة (١٧٤٣).

٥ ـ وعن زيد بن وَهْب قال: (جـاء رأسُ الخوارج إلى علي فقال له: اتقِ اللهَ فإنك ميّتٌ! فقـال: لا والذي فَلَق الحبَّة وبَرَأَ النَّسَـمة، ولكني مقتولٌ من ضربةٍ من هذه تَخْضِبُ هذه ـ وأشـار بيده إلى لحيته ـ عهدٌ معهودٌ، وقضاءٌ مقضيٌّ، وقد خاب مَن افترى!)(١).

ثانياً ـ عِلمُ عليٍّ بأنه سيُقتل شهيداً:

هذه الأحاديث تنص علـى أن عليّاً ﵁ إذا خرج إلى العراق سـيُصيبه ذُبَاب السـيف؛ أي: حدُّه، ويموت قتلاً شـهيداً، فيُضْرَب على هامته فيسيل الدم على لحيته حتى تبتل بدمه الزكي!.

وكان علي راسـخَ اليقين بهذا الإخبار النبوي، فقد مرض ذات مرة حتى خاف عليه أصحابه، وجاؤوا يعودونه:

روى فَضالة بـن أبـي فَضَالة الأنصاري قـال: (خرجتُ مع أبـي عائداً لعلي بن أبي طالب من مرض أصابه ثَقُلَ منـه، قال: فقال له أبي: ما يُقِيمُك في منزلك هذا؟! لـو أصابك أجَلُكَ لم يَلِكَ إلا أعـرابُ جُهينة! تُحمل إلى المدينة، فإنْ أصابـك أجلُك وَلِيَكَ أصحابُك وصلَّـوا عليك، فقال علي: إن رسول الله ﷺ عَهِد إليَّ أن لا أموتَ حتى أُؤَمَّر، ثم تُخضبَ هذه ـ يعني لحيتَه ـ من دم هذه ـ يعني هامَتَه ـ!)(٢).

وروى زيد بن أَسْـلم: أن أبا سِـنان الدُّؤَلي حدثه: (أنه عاد عليّاً في شكوى اشتكاها، فقلتُ له: لقد تخوّفْنا عليك يا أبا الحسن في شكواك هذه! فقال: ولكنِّي والله ما تخوَّفْتُ على نفسي منه؛ لأني سمعتُ الصادقَ المصدوق ﷺ يقول: «**إنك**

---

(١) أخرجـه عبدالله بن أحمد في زوائده على المسـند (٧٠٣)؛ والطيالسـي (١٥٧)؛ وابن أبي عاصم في السنَّة (٩١٨)؛ والحاكم: ١٤٣/٣، وصحَّحه أحمد شاكر، وضعَّفه الألباني وشعيب.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٢)، وصحَّحه أحمد شاكر، وضعَّفه شعيب الأرنؤوط.

ستُضرب ضربةً هاهنا وضربةً هاهنا» وأشار إلى صدغيه، **«فيسيلُ دمُها حتى تُخضَبَ لحيتُك، ويكون صاحبُها أشقاها، كما كان عاقرُ الناقة أشقى ثمودَ»**)[١].

وكان رضي الله عنه يحدث الناس بذلك، ويقول: (لَتُخْضَبنَّ هذه من هذه، فما يَنتظر بي الأشقى؟!).

وقد كان له أيام الخوارج حراس يحرسونه كل ليلة، يبيتون في المسجد بالسلاح، فرآهم فقال: ما يُجلِسُكم؟ قالوا: نحرسُك، فقال: أَمِنْ أهل السماء تحرسون أم من أهل الأرض؟ قالوا: بل من أهل الأرض، قال: إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يُقضى في السماء، وليس من أحد إلا وقد وُكِّل به مَلَكان يدفعان عنه ويَكْلآنه، حتى يجيء قَدَرُه، فإذا جاء قدرُه خَلَّيا بينه وبين قَدَرِه! وإن عليَّ من الله جُنَّةً حَصينةً، فإذا جاء أجلي كُشف عني، وإنه لا يجدُ عبدٌ طعمَ الإيمان حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[٢].

ولما دخل شهر رمضان جعل علي يتعشَّى ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبدالله بن جعفر، لا يزيد على ثلاث لُقَم، ويقول: يأتي أمرُ الله وأنا خَمِيصٌ، وإنما هي ليلة أو ليلتان[٣]!.

وكان يتمثل بهذين البيتين:

اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ للموتِ ... فإنَّ الموتَ آتِيكا
ولا تَجْزَعْ من القَتْلِ ... إذا حَلَّ بِوَادِيكا[٤]

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٩٢)؛ وأبو يعلى (٥٦٩)؛ والحاكم ١١٣/٣ وصحَّحه؛ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في هامش شرح مشكل الآثار: ٢٨٣/٢ (٨١١).

(٢) تاريخ ابن عساكر: ٢٨٩/٣ـ٢٩٢.

(٣) المعرفة والتاريخ: ٤٠١/٣؛ ابن عساكر: ٢٩٤/٣؛ البداية والنهاية: ١٢/٨ـ١٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣٣/٣؛ مجمع الزوائد: ١٣٨/٩. **الحيزوم**: هو الصدر، والكلام كناية عن التشمّر للأمر والاستعداد له.

عن أبي مِجْلَز لاحِق بن حُميد قال: (جـاء رجل من مراد إلى علي وهو يصلي في المسجد، فقال: احترِسْ، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك! فقال: إن مع كل رجل مَلَكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خلَّيَا بينه وبينه، وإن الأجَلَ جُنَّة حصينة)(١).

ولم يكن علي مفرِّطاً في حق نفسه، لأنه عَلِم من رسول الله ﷺ أنه سيُقتل، ولن يحول دون قدر الله تعالى حراس ولا حُجَّاب، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ثالثاً ـ تنفيذ الجريمة الغادرة:

قام ثلاثة نفرٍ من الخوارج هم: عبدالرحمن بن مُلْجَم المُرادي، والبُرَكُ بن عبدالله التَّمِيمي، وعَمْرو بن بكر التميمي، فاجتمعوا في مكة، وتذاكروا قَتْلَ عليٍّ إخوانَهم من أهل النَّهْروان، فترحموا عليهم، وتعاقدوا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص! فقال ابن مُلْجَم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البُرَك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عَمْرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. واتَّعَدوا لسبع عشرة من رمضان، أن يُبَيِّت كل واحد منهم صاحبَه في بلده الذي هو فيه.

وسار ابن مُلْجَم إلى الكوفة لتنفيذ جريمته، وانضمَّ إليه هناك رجل من بني الرِّباب يقال له: وَرْدان، وآخر هو شَبيب بن بَجَرة الحَرُوريّ. فجاء هؤلاء الثلاثة وهم مشتمِلون على سيوفهم، فجلسوا مقابل السدَّة التي يخرج منها أمير المؤمنين علي، فلما خرج جعل يُنهِض الناسَ من النوم إلى الصلاة، ويقول: الصلاةَ الصلاةَ، فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق(٢)،

(١) طبقات ابن سعد: ٣/٣٤. **جُنَّة**: وقاية.

(٢) **الطاق**: ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية، والمقصود أنه لم يصبه.

فضربه ابنُ مُلجَم فأصاب جبهته إلى قَرْنه[١]، فسالَ دمُه على لحيته ﵁! ولما ضربه ابن ملجم قال: لا حُكْمَ إلا لله، ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ونادى عليٌّ: عليكم به. وهَرب وَرْدان، فأدركه رجلٌ من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنَجَا بنفسه وفاتَ الناسَ، وأُخِذ ابنُ مُلْجَم فأُدخِل على عليٍّ، وقدَّم عليٌّ جعدةَ بنَ هُبيرة فصلَّى بالناس صلاة الفجر[٢].

رابعاً ـ وقفة تأمل وعبرة:

ظاهر الروايات يشير إلى أن استهداف أمير المؤمنين عليٍّ من قِبل الخوارج كان انتقاماً منه وثأراً لإخوانهم الذين قتلهم يوم النَّهْروان، وأنه حادث فردي محدود. وهكذا تصوِّر الأخبار التي رويت في قتل الشهيد العظيم فاروق الإسلام عمر، وذي النورين عثمان!.

وعلى هذا السبيل الساذج يسير كثير ممن كتب عن هذه الأحداث الخطيرة، متعمِّدين أو غافلين عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراءها، وكشفِ المخطط الرهيب الذي انتَظَمتْ فيه الأحداث لتحقيق الهدف الخبيث في اغتيال الشهداء الثلاثة عمر وعثمان وعلي.

فالفاروق عمر قد وسِع بعدله المسلمين وغير المسلمين، وبسط رحمته للبهائم والعجماوات، لكن ضاق به حقد المجوس والصليبية، فائتمروا عليه بتخطيط من الهرمزان القائد الفارسي الذي أظهر إسلامه، فاجتمع بأبي

---

(١) قرنه: جانب رأسه.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/١٤٣ـ١٤٦؛ طبقات ابن سعد: ٣/٣٥ـ٣٨؛ البداية والنهاية: ٧/٣٢٦ـ٣٢٩.

لؤلؤة المجوسي وجُفينة النصراني ودبَّروا طريقة الاغتيال التي نفذها أبو لؤلؤة، وعندما أُخِذ نَحر نفسَه لتموت أسرار المؤامرة معه، والتي كُشفت فيما بعد.

وفي عهد عثمان اخترع أعداء الإسلام طريقاً جديداً تمثَّل في الطعن على الولاة والاختلاف عليهم ونشْر الشائعات ضدهم ثم الخروج عليهم، وجاء ابن سبأ فطَوَّر المخطط وأضاف إليهِ بُعْداً خطيراً فاخترع (أكذوبة الوصية لعليّ)، وروَّجَ لها بين الرَّعَاع حتى طارت في الأمصار وانتشرت في مصر والعراق، وانتهت المؤامرة بالخروج على أمير المؤمنين عثمان ثم محاصرته وسفك دمه وهو صائم يتلو القرآن الكريم.

واستمر قتلة عثمان في مخططهم الإجرامي في عهد عليٍّ، وكانوا السببَ الأول والأخير في إراقة الدماء وقتْل الأنفس في وقعتي الجمل وصفين التي انتهت بالتحكيم وولد من (رحمها السرطاني الخبيث) الخوارج الذين خرجوا على علي ثم قتلوه!.

وفكرة الخروج على الولاة وعلى أمير المؤمنين علي لم تكن بِدْعاً، بل هي لون آخر من طريقة الذين خرجوا على عثمان، والنتيجة واحدة.

وإذا كان علي (قد حكَّم آراءَ الرجال بالقرآن) كما يزعم الخوارج، مما اقتضى برأيهم تكفيرَهُ ومقاتلتَه، ثم هو الذي قتل إخوانهم يوم النهروان مما يُبيح الثأر منه ـ فلماذا قرَّر هؤلاء السفهاء المجرمون قتْلَ الصحابة الثلاثة: (علي ومعاوية وعمرو)؟ وما هو الجامع بين ثلاثتهم؟!.

إننا نرى أن لقتلة عثمان والسبئية يداً طولى في ذلك، وهي ليست بالخفيّة، لكن الروايات التاريخية أغفلَتْها: لطغيان (المدِّ الخارجي) آنذاك، ولأن الثلاثة الذين نفَّذوا الجريمة كانوا من الخوارج، وأيضاً لأن جيش علي

قد انْخَزَل عنه وتركه لمصيره؛ مما أوحى ـ في الرواية التاريخية ـ بأن قتلة عثمان قد اضمحلَّ دورُهم في الأحداث الأخيرة.

لكنْ وضع الرجال الثلاثة الكبار (علي ومعاوية وعمرو) في مخطط الاغتيال، يشي بأن أكثر من جهة متضررة منهم وخائفة من بقائهم فضلاً عن اتفاقهم! فعليٌّ رضي الله عنه عدو الخوارج وقاتلُ أبنائهم وأحبتهم إذا قُتل فسوف يؤول أمر الخلافة إلى الوالي القوي الشهير معاوية، وهو عدو الخوارج لأنه دعا إلى التحكيم، كما أنه عدو لدود لقتلة عثمان والسبئية، حيث إن محورَ عملِه ومواقفِه إقامةُ الحد عليهم والقصاص منهم لدم الشهيد عثمان، فلا بدّ من قتله لهذا وذاك!.

أما عمرو بن العاص فهو عدوٌّ قديم للسبئية وقتلة عثمان منذ ولايته على مصر في عهد عثمان وكذلك في عهد علي، حيث أخذ بأنفاسهم وحاصرهم وقضى عليهم وقتل محمد بن أبي بكر هناك وأضحى أميرَ مصر من جديد، ولا يخفى إضافة إلى ذلك عداوته للخوارج لأنه صاحب فكرة (التحكيم)!.

وهكذا باستقراء الأحداث المتسلسلة من لَدُن أواخر عهد عمر حتى استشهاد علي؛ نرى المخطط الرهيب يسير بانتظام، وتتكامل عناصره وتتجمع أطرافه وتتوحد قواه لتصبَّ في اتجاه واحد هو هدمُ الخلافة ومحاربةُ الإسلام وإيقافُ مدِّه الدفَّاع وتفكيكُ عناصر قوته من الداخل، وقد نجح هذا المخطط ـ للأسف ـ في تحقيق بعض أهدافه!.

ومما يلفت نظرَ الباحث والدارس والمتابع لتلك الأحداث الخطيرة، أن الخلفاء الثلاثة قد نُفِّذت المؤامرة ضدهم واغتيلوا (في أوقات عبادة وهدوء وأمان):

فعمرُ طُعِن وهو يؤمُّ المسلمين في صلاة الفجر، وعثمان استُشهد محاصَراً في بيته وهو صائم يتلو القرآن، وعليٌّ نال الشهادة وهو صائم في السابع عشر من رمضان وقد خرج من بيته يوقظ المسلمين لصلاة الفجر!.

أتُراها مصادفة؟ أم أن الجُناة المجرمين قد مَشَوا على خطة واحدة واختاروا (أوقات الأمن لهم) من المراقبة والمتابعة والمواجهة، حيث قلوب المسلمين متفرِّغة للعبادة خاشعة في لقاء الله ﷻ والوقوف بين يديه، في حين قلوب أعداء الإسلام تضطرم حقداً وتنفذ الجريمة في تلك الأوقات الهادئة الآمنة؟!.

خامساً ـ تاريخ استشهاده، ومدة خلافته، ومبلغ عمره:

طُعن علي رضي الله عنه يوم الجمعة سَحَراً، لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة (٤٠هـ)، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت، وفاضت روحه إلى بارئها ليلة الأحد، لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان.

واستمرت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وكان عمره يوم استُشهد ثلاثاً وستين سنة[١].

سادساً ـ غسله والصلاة عليه، وموضع قبره واختراع مشهده:

غسَّله ابناه الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفَّنوه في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلَّى عليه ابنه الحسن ـ أكبر بنيه ـ ودُفن بدار الإمارة بالكوفة، خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا قبره. وفي رواية: أنه دُفن بالكوفة عند مسجد الجماعة في الرحبة، والمشهور الأول[٢].

---

(١) تاريخ خليفة، ص١٩٨؛ طبقات ابن سعد: ٣٧/٣، ٣٨؛ تاريخ الطبري: ١٥٢/٥، ١٥٣؛ تاريخ بغداد: ١٣٤/١، ١٣٦؛ المستدرك: ١١٢/٣ـ١١٣، ابن عساكر: ١٨/١ـ١٩، ٣١٧/٣ـ٣٢٩، ٣٤٠ـ٣٤٥.

(٢) تاريخ خليفة، ص٢٠١؛ طبقات ابن سعد: ٣٨/٣؛ المستدرك: ١٤٣/٣؛ ابن عساكر: ٣٠٧/٣، ٣١٠ـ٣١٤؛ البداية والنهاية: ٣٢٩/٧ـ٣٣٠.

قال ابن كثير: (ومن قال: إنه حُمل على راحلته فذهبت به فلا يُدرى أين ذهب، فقد أخطأ وتكلَّف ما لا علمَ له به، ولا يُسيغه عقل ولا شرع، وما يعتقده كثيرٌ من جَهَلة الروافض من أن قبره بمشهد النَّجَف؛ فلا دليل على ذلك ولا أصل له)[١].

ونقل الخطيب البغدادي عن الحافظ محمد بن عبد الله الحَضْرمي المعروف بِمُطَيَّن: أنه (كان يُنكِر أن يكون القبر المَزور بظاهر الكوفة قبرَ علي بن أبي طالب عليه السلام. وكان يقول: لو علمت الرافضة قبر مَنْ هذا لرجَمَتْه بالحجارة؛ هذا قبرُ المغيرة بن شعبة!)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما المشهد الذي بالنجف: فأهلُ المعرفة متفقون على أنه ليس بقبر عليٍّ، بل قيل: إنه قبر المغيرة بن شعبة، ولم يكن أحد يَذكر أن هذا قبر علي، ولا يقصده أحد أكثر من ثلاث مئة سنة؛ مع كثرة المسلمين من أهل البيت والشيعة وغيرهم، وحكمهم بالكوفة. وإنما اتخذوا ذلك مشهداً في مُلك بني بُوَيْه ـ الأعاجم ـ بعد موت علي بأكثر من ثلاث مئة سنة!)[٣].

سابعاً ـ تركته:

ثبت عن الحسن بن علي أنه قال: لم يترك أبي إلا سبع مئة درهم، كان يَرصدها لخادم يشتريها لأهله[٤].

---

(١) البداية والنهاية: ٣٣٠/٧.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣٨/١؛ تاريخ ابن عساكر: ٣١٤/٣. وقد تكلم محققه الرافضي في هؤلاء العلماء الذين ذكروا موضع القبر؛ بأقذع الكلام وأنهم لا علم لهم بهذا، وهم (من شيعة آل أبي سفيان وأبناء الشجرة الملعونة في القرآن!)... إلى آخره كلامه!.

(٣) مجموع الفتاوى: ٥٠٢/٤، وانظر: ٤/ ٤٩٨ـ٥٠٢، ٤٤٦/٢٧؛ منهاج السُّنَّة: ٨٨/٤.

(٤) الحلية: ٦٥/١؛ الاستيعاب: ٤٨/٣؛ ابن عساكر: ٣٣٠/٣.

أي: لم يترك من النقـد، فقد ترك أراضي وعقارات وقُـرى ورقيقاً كثيراً بِيَنْبُع ووادي القرى، وقد كتب وصية مطولة مفصلة في (١٠ جمادى الأولى، سنة ٣٩هـ)[١]، وأوصى بالخمس مما ترك[٢].

ثامناً ـ وصاياه:

دخل جُندب بن عبد الله على عليٍّ فقال: (يا أمير المؤمنين، إنْ فَقَدناك ـ ولا نَفْقِدك ـ فنبايع الحسن؟ فقال: ما آمرُكم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. فردَّ عليه مثلَها، فدَعَا حسناً وحسيناً، فقال: أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإنْ بغَتْكما، ولا تبكيا على شيء زُوِي عنكما، وقُولَا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذْكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى محمد ابن الحَنفيَّة فقال: هل حفظتَ ما أوصيتُ به أخوَيْك؟ قال: نعم، قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرَهما، ولا تقطع أمراً دونهما. ثم قال: أوصيكما به فإنه شقيقكما وابنُ أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه.

وقال للحسن: أوصيك أي بُنَيَّ بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تُقبل صلاة من مانع زكاة. وأوصيك بغَفْر الذنب، وكَظْم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش)[٣].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٩٤١٤).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٣٠٦/٧.

(٣) تاريخ الطبري: ١٤٦/٥ـ١٤٧؛ مروج الذهب: ٣٢١/٢ـ٣٢٢؛ البداية والنهاية: ٣٢٨/٧. وانظر وصية مطولة جدّاً للحسن في «نهج البلاغة»؛ شرح نهج البلاغة: ٢٢٩/٨، ٢٦٣ـ٣١٠.

فلما حَضَرْت عليّاً الوفاةُ أوصى، فكانت وصيته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب: أوصى أنه يشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظهرَه على الدين كلِّه ولو كره المشركون. ثم إن صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين، لا شريكَ له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين.

ثم أوصيك يا حسن وجميعَ ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم، ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا؛ فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «**إنَّ صلاحَ ذات البَيْن أفضَلُ من عامة الصلاة والصيام**». انظروا إلى ذوي أرحامكم فَصِلُوهم يُهوِّن الله عليكم الحساب. اللهَ اللهَ في الأيتام، فلا تُعنوا أفواهَهم، ولا يَضيعُنَّ بحضرتكم. واللهَ اللهَ في جيرانكم فإنهم وصيةُ نبيكم ﷺ، ما زال يوصي به حتى ظَنَنَّا أنه سيورِّثه. واللهَ اللهَ في القرآن فلا يسبقنَّكم إلى العمل به غيرُكم. واللهَ اللهَ في الصلاة فإنها عمودُ دينكم. واللهَ اللهَ في بيت ربكم فلا تُخلوه ما بقيتم. واللهَ اللهَ في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. واللهَ اللهَ في الزكاة فإنها تُطفِئ غضبَ الربِّ.... ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولَّى الأمرَ شرارُكم ثم تَدْعُون فلا يُستجاب لكم. وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب.

حفظكم الله من أهلِ بيتٍ، وحفِظ فيكم نبيَّكم، أستودِعُكم الله، وأقرأُ عليكم السلام ورحمة الله.

ثم لم ينطق إلا بـ«لا إلٰه إلا الله» حتى قُبِض رضي الله عنه، وذلك في شهر رمضان سنة أربعين)(١).

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/١٤٧-١٤٨؛ البداية والنهاية: ٧/٣٢٨-٣٢٩.

وأوصى رضي الله عنه وأرضاه بأن لا يُمثَّل بقاتلِه؛ فعن محمد ابن الحنفيَّة، عن أبيه أمير المؤمنين علي: أنه قال في عبدالرحمن بن مُلْجَم:

(إنه أسيرٌ، فأحسِنوا نُزُلَه وأكرِموا مَثْواه، فإنْ بقيتُ قَتلتُ أو عَفوتُ، وإنْ مُتُّ فاقتُلوه قِتْلَتي، ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين!)[1].



---

(١) أخرجه ابن سعد: ٣٥/٣، ورجاله ثقات وإسناده صحيح؛ وهو في أسد الغابة: ٣٥/٤؛ وتاريخ ابن عساكر: ٢٩٨/٣.

الخـاتمـة

هذه دراسة مستفيضة للفتن الكبرى التي نزلت بالمسلمين في عهود الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي ﷺ، وقد كشفنا فيها سيرورة الأحداث وملابساتها، وأسبابها ودوافعها، وعناصرها وأدواتها، والمستجدات الطارئة التي دخلت على المجتمع الإسلامي، ومؤثراتها الداخلية والخارجية، وقادتها وجنودها، وأهدافها وغاياتها، ونتائجها وآثارها على المجتمع والأمة والدين والدولة.

وقد جاءت بعدها فتنٌ كثيرة تتجدَّد أمواجها وأصنافها وألوانها ومقوماتها، في مسيرة التاريخ والأمة حقبةً بعد أخرى وجيلاً إثرَ جيل إلى يوم الناس هذا.

وتتنوع مصادر الفتن التي تصيب الأمة، وتختلف أسبابها ومبرِّراتها، وتتباين نتائجها وتبعاتُها؛ فقد تكون بسبب الأهواء الشخصية أو الفكرية، أو تنجم عن ضِيق العَطَن وقصور الفهم واعتساف التأويل، وقد تأتي من عدوٍّ ماكر في داخل الأمة أو متربِّص خارجها، أو مِن تجييش الحاقدين للرَّعَاع لنشر الأكاذيب وإثارة الأباطيل وقلب الحقائق، أو من التنافس على المال والجاه والسلطان، أو بسبب الظلم والتعدي على حقوق العامة والأمة ما جَلَّ منها وما دَقّ، بدءًا من المال وحتى منابر الحكم، أو بسبب الفُرقة والاختلاف الذي يؤدي إلى امتشاق السلاح... .

فتؤدي إلى مُروج أمر الناس، وإزهاق الأنفس، وانتهاك الحرمات، واستلاب الأموال، وضياع الحقوق، وشيوع الوهن والفوضى، وذلّ الأمة، وضياع ممتلكاتها ومقوماتها، وطمع أعدائها بها، وانتقاص بلادها وسيادتها، واستعباد شعوبها من القريب والبعيد.

ولكثرة تلك الفتن التي تحيق بالأمة وتتساقط في ربوعها كمواقع القَطْر، وللخسائر الفادحة التي تترتب على وقوعها، ولأن العقول تطيش وقتَها، وتزلّ الأقدام حِيالها، وتَحَارُ الأفهام في معالجتها، ويَصعب الخلاص منها على العقلاء فَضْلاً عن العوام ـ فإن الرسول ﷺ الرحمة المهداة، حذّر وأنذَرَ وبيَّن وأوضَحَ، وأَجْمَل وفَصَّل، وتحدَّث عن الفتن فأكْثَر، والتي ستفتح أبوابها بعد وفاته!

يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: (قام فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مَقَامه ذلك إلى قيام الساعة إلّا حَدَّثَ به، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَه، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَه!).

والحِكَم من ذلك كثيرة يمكن الإشارة إلى بعضها:

١ ـ يريد النبي ﷺ أن يربّي الأمةَ على الاستعداد لمواجهة الفتن وحُسْنِ التصرف حيالها بما يُخْمِد جَذْوتَها ويُطفئ شُرورها.

٢ ـ جاء في كثير من الأحاديث وصفٌ للفتن وبواعثِها وأسبابها ونتائجها، وهذا يضعُ بين أيدي الناس كثيراً من أساليب علاجها والقضاء على أوضارها.

٣ ـ لقد وصف النبي ﷺ في غير ما حديث القائمين بالفتنة والساعين إليها ومؤجّجي لهيبِها، وهذا مما يفيد الناسَ بأن لا يفعلوا في تلك الأوصاف، وأن لا يُخْدَعوا بأولئك الأشرار. كما يُعِين العقلاءَ ورؤوسَ الناس

على محاصرة الفتّانين والقيام بمجادلتهم وفَضْحِهم؛ لتجنيب الأمة ما يَسْعُون فيه من فتن ومآثم.

٤ ـ حذَّرت الأحاديث من الوقوع في الفتنة أو ملابستها فضلاً عن السعي إليها والمشي فيها، وهذا ممّا يُخفِّف وطأةَ شرورها، كما أنه دعوةٌ للمسلمين وحضٌّ لهم كي يَسْلَموا بدينهم ودنياهم، فلا يقعون فيها ولا يُعينون عليها.

٥ ـ وقوع كثير من الفتن خلال مراحل التاريخ المتقدمة يفيد الأجيال اللاحقة للاسترشاد بتجارب السابقين، ليكونوا على هدى في معالجة ما يطرأ من فتن، لتجنيب العباد والبلاد شرورها المستطيرة.

٦ ـ استعصام المسلم بالهدي الذي بيَّنَتْه أحاديث الفتن؛ يُعينه على النجاة بدينه، والسلامة في دنياه، والفوز في آخرته، فهو إذ يقرأ أحاديثَ الفتن ويعمل بمقتضى هَدْيها، يعلمُ أنه على هُدى من أمره، بخلاف ذاك الذي لا يعلم عنها شيئاً، فيتخبَّط في مواقفه، ولا يدري أين يوجِّه جهدَه، ولا أين يضَعُ قدَمَه، فيَضِلّ ويُضِلّ.

•• وأحاديث الفتن ودراستها وبيان مخاطرها وآثارها القاسية؛ ليست دعوة للجبر والقهر المسلّط على رقاب الأمة، ولا يُفهم منها الاستسلام للغيبيّات، والاستكانة للمجهول، واليأس من التغيير، والقنوط من واقع الحال، وفساد الزمان... ومن ثم نفض الأيدي من كل عمل إصلاحي يقوِّم الاعوجاج ويُحارب الفساد والإفساد، وانتظار الخوارق والمعجزات!

إن الأمة المسلمة قد مرَّتْ بفتنٍ ماحِقةٍ، واجتاحَتْها كوارث جائحة، ومرَّت بالمسلمين ظروف عصيبة، وأحوال قاسية: أيام الردة، والاقتتال بين الصحابة، والتهارش على منابر الحكم، وقيام دول للحركات الباطنية، وظهور الكذّابين أدعياء النبوة، والزحف التتري المدمِّر، والحملات الصليبية

التي امتدت دهوراً، والاستعمار الحديث... وفي كل مرة تستيقظ الأمة من رقدتها، وتُلَملِم جراحَها، ويتصدَّى الفاقهون والعقلاء ومعهم جماهير من المستيقظين العارفين بالسُّنَن الكونية، ويقارعون الفتن والفتَّانين، ويجابهونهم بجَلَد وعِنَاد، ويستمرون في العمل والتغيير والتضحية، فتعود الأمة لتمارس دورها الحضاري من جديد.

إن رسول الله ﷺ يُرشد المسلمَ إلى الحركة الدؤوبة، والعمل الجاد، ويأمر بعمارة الأرض والقيام بحق الاستخلاف حتى اللحظة الأخيرة من عمره، بل حتى الساعة الأخيرة من عمر الدنيا! ولو أنه عايَنَ الدنيا تلفظ أنفاسَها في النَّزْع الأخير؛ فإنه ﷺ يقول آمراً وموجِّهاً: «**إنْ قامتِ الساعةُ وفي يد أحدِكم فَسِيلةٌ، فإن استطاع ألَّا تقوم حتى يغرسَها؛ فلْيغرِسْها!**».

فإذا كان هذا في شأن الدنيا، وفي غرس فَسيلة يتيقَّن غارسُها أنه لن يأكل منها لا هو ولا غيره؛ فما بالك بالأمور الجليلة التي ترتبط بها حياة الأمة وقيام أمر الإسلام؟!

اللهمَّ أجِرْني من الفتن ما ظَهَر منها وما بَطَن، واغفر لي خطيئتي وجَهْلي وما أنت أعلمُ به مني، اللهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخّرت وما أسررتُ وما أعلنتُ إنك على كل شيءٍ قدير. اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا يَنفع وعمل لا يُرفع، ودعاءٍ لا يُسمع... ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥].

عبد الستار الشيخ

الجمعة ٢٢ صفر ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧/١١/١٠م

الفهـرس

الباب الثاني

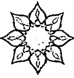
الفتنة الثانية

الخروج على الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان وقتله

الباب الثالث

الفتنة الثالثة

موقعة الجمل: مقدماتها ووقائعها ونتائجها



الباب الخامس
الفتنة الخامسة
بدعة الخوارج ووقائعهم

